TIGHT BINDING BOOK

كتاب

تاريخ سوريا

تأليف

جرجي افندي يني

طبع في بيروت بالمطبعة الادبية سنة ١٨٨١

تاريخ سوريا

المقدّمة

انهُ لغنيٌّ عن البيان ان الانسان يميل طبعًا الى معرفة عالي القضايا ليحسن سبرها ويصيب رايهُ فيها فلذلك وجب علينا الاشارة الى مبداء عالمنا قبل الخوض في موضوع هذا الكتاب فنقول و بالله التوفيق

ان في كينونة هذا العالم وزمان ابداعهِ خلافًا بين العارفين فمنهم من يقول بصحة رواية الكتاب المقدس مطلقًا ومنهم من يتوسعون في ذلك فيوفقون بين الكتاب والاراء العلمية على ان ما ترجح عند قوم ان موسى النبي اخذ كتاباته عن اقوال اخرى سابقات زمانهُ ربما كان ادراجها بالوحي وان العدد الاول من الاصحاح الاول من سفر التكوين ينبئ عن ابداع الكون بادىء بدء بيد ان العدد الثاني من الاصحاح المذكور يفصل زمان ايجاد الكون في المدة المتاخرة عن ذلك البدء وان زمن الابداع لم يكن من ستة الاف سنة فقط لانهُ لا يخفى ان تركيب الصخور المرجانية في البحار والادوار الجيولوجية المستطيلة الظاهرة اثارها في طبقات الارض ومبدأ وصول النور السديمي واكتشاف الانجم البعيدة كلها ادلة تؤيد ان ابداع الكون كان منذ الاف من السنين على ان وجود الانسان لم يُعرف قبل الزمن المعهود اما ما يتعلق بواجب الوجود عز وجل فهو امر لا يتخللهُ شك رغماً عما يتشدق

بهِ الجاحدون لان من المبادي الطبيعية وجود علة لكل معلول فالمادة الغازية التي يزعم بعضهم بسبق وجودها قبل الخليقة الصادرة عنها هي لاشك مخلوقة من الله تعالى ومعلولة منهُ ورواية وجودها وتعميم الكون من مادتها محكية في الكتاب بما يشابهها حيثما قيل ان الارض كانت خاوية خالية

وحسب الكفرة ضلالاً بقولهم ان ابداع المادة من ذاتها وليس من علتها الازل قول العلامة مونتسكيو الفرنساوي في هذا الصدد ما ترجمتهُ ان الذين يقولون ان صدفة محضة قد برأَت كل المواد التي نراها في الكون انما هم في ضلال مبين لان اية ضلالة اعظم من الاعتقاد بابداع الصدفة المحضة مخلوقات عاقلة اه

فلما غدت الارض مكونة بيد خالقها وقد اصبحت كرة تدور في عالم الفضا على محورها محفوظة بعناية خالقها ومقيدة بسلاسل الجواذب تتامرُها نواميس غير متغيرة امر باريها فكانت نظامًا لا تتخطاهُ وقد اعدَّ فيها كل المواد الضرورية للانسان امرَ بهِ فبريء بارًّا بسيطًا على ما رواه نبيُّ الله موسى

فلما خلق الله من ضلع آدم امراة هي حواء اولدَ الزوجان البنين والبنات فكثر النسل وازداد العدد فانتشر الناس في البسيطة على ان سرعة الانتشار واختلاف الهيئات وغيرها من الظواهر دعت البعض للاعتقاد بان البشر كانوا ابناء اكثر من اب واحد وانهم وجدوا متفرقين في انحاء العالم لكن هذا الاعتقاد مخالف لنص الكتاب وادلة اخرى لا محل لايرادها . اما اختلاف الهيئة والجنس فليس الا نتيجة كرور الايام وتاثير المناخ والعادة والظروف الفاعلة . ولما خلق الله الانسان ونفخ فيهِ نسمة الحيوة حباهُ عقلاً ونطقًا فميزه بهما عن مطلق الحيوان على ان هذه الهبة الالهية موجودة في الانسان على اختلاف درجات سنهِ فهي صغيرة في الصغار وكبيرة في الكبار وقد يكون العقل كبيرًا فيهم وهو غير مجلًى بمجلاة التهذيب والادب واجمع الناس على ان للمنطقة والظروف والاداب يدًا في اجلاء العقل وتثقيفهِ فاخذ الانسان بالتقدم

تدريجاً على ان بديهية الادراك كشفت للبشر عن مجلاة العقول وبالنتيجة ظهرت للوجود اسرار المعقولات فرتع الانسان بالخير والعمران

ان كثيرين من البشر يميلون بصوالحهم الخصوصية عن محجة الصواب وبما ان العيال الاولى التي هاجرت ارض شنعار بعد الطوفان كانت بالطبع لا تخلو من افرادٍ لهم بعض تلك الصوالح افضي الامر الى قيام مدبر يترأس على الجماعة ومع ان الانسان ما وُلد الا حرًّا اقرت الطبيعة منذ الازل رئيس كل عائلة ليتامرها على انهُ يحتفظ بسلطتهِ وسطوتهِ فيها نظامها من الخلل ويصون لفيفها من الظلم لكن كرور الايام وازدياد العيال جعل اولئك الرؤساء انفسهم يطالبون حقوقاً ربما كان مصدر اكثرها الطمع فافضى الامر بالانسان الى ان يقيَّد بشريعة تحفظ حقوقهُ وتردع ساليها ولا بد لقيام تلك الشريعة من منفذين يقبضون باليمنى مهامها وباليسرى صوالحهم الخاصة على ان حرية الانسان المحضة قد اصبحت اسيرة العدل لان باجرائهِ راحة وحرية قامتا مقام تلك

وهكذا لما تمادى الانسان في شرهِ وضرهِ سن لنفسهِ شريعة تقيهِ الظلم فطرح عنهُ بذلك رداء الحرية الطبيعية واصبح قابضو ازمة الرياسة ومنفذو الشريعة بالتدريج وكرور الايام ملوكاً على اختلاف هيئات سلطتهم

فمنهم من كانت سنتهم عادلة حرة ومنهم عادلة غير حرة ومنهم ظالمة محضة غير ان الامم اقامت تحت لواء كلٍ من الحالات الثلث فكانت احوالها متباينة عن بعضها واذا نظرنا الى التاريخ نظرة مختبر وبحثنا عن اسباب نهوض الامم وسقوطها يتضح لنا حالة السلطات المختلفة التي حكمت الكون منذ عرف تاريخ الانسان واعظم الاسباب التي ترتفع بالامم الى قمم التقدم والنجاح وتنحدر بها الى حضيض التاخر والخراب محصورة بالاكثر في خمس حالات للصعود وثلاث للهبوط . اما حالات الصعود فهي . اولاً العصبة الدينية ومنشاؤها عن رغبة بانتشار الدين والتمسك الشديد بمباديهِ ومثال الاول دولة العرب في الاسلام فان مجيئهم بحميةٍ وبسالةٍ الى بلاد سوريا وهي يومئذ رومانية

شرقية وفوزهم على الرومان كان اساسًا لاتساع نطاق الدولة وثبات اقدامها فان تلك الرغبة رافقت اعلامهم حتى بلغوا اطراف فرنسا من جهة اسبانيا التي اصبحت يومئذ عربيّة . ومثال الثاني دولة الاسرائيليين فان بتمسكهم بعرى الدين والايمان بالمواعيد بددوا شمل جموع فلسطين وغيرهم واقاموا لانفسهم دولة ثابتة الدعائم طويلة الامد . ثانيًا الفوز الحربي والنظام الاداري كفتح كورش مثلاً مملكة مادي وفارس واخذها ثم ادارتها الادارة الحسنى والاستشارة جيدًا في المصالح العامة وترسيخ اقدام الدولة بالسيف والعدل والرهبة او كتخالف العجم بالحمية على بلاد فارس واخذها او بترسيخ اقدام المملكتين الاشوريتين ومثالها كثير . ثالثًا تشييد الملك بالسيف والعلم والحكمة كمصر واليونان والرومان . رابعًا بالعدل والحرية ومثال الاول دولة الاسلام فان عدل ولاتها وعلى الخصوص الراشدين من الخلفاء مما لم تزل تحدث بهِ الركبان كقول امير المومنين الخليفة عمر بن الخطاب وهو على المنبر . ان من راى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومهُ . وكاستواء عليّ في المحاكمة مع رجل من عامة الاسرائيليين وكامره بهدم الجامع في بصرى حوران وكان دارًا لاسرائيلي جعلوه جامعًا وغير ذلك مما يفتخر العدل بهِ

ومثال الثاني دولة الاسلام ايضًا وكفى بجواب واحد ممن سمع كلام الخليفة عمر وهو على المنبر شاهدًا على عظم الحرية فان ذلك الرجل نهض من مكانهِ قائلاً لو راينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا فقال عمر اشكر الله الذي جعل من يقوم اعوجاج عمر بسيفهِ

وكذلك دولة الولايات المتحدة الاميركانية فان الحرية احيت في عروقها دم التمدن والعدل والانسانية فاصبحت في زمان يسير من اعظم الدول اقتدارًا ورفعةً وتمدنًا

خامسًا التجارة ومثالها دولة الفينيقيين الذين بلغت سعودهم درجة عليا والتدمريين الذين اصبحوا بعد يسير من الزمن يطمعون بمشاركة الرومانيين

في عظمة القيصرية

اما حالات الهبوط الثلث فهي . اولاً سوء الادارة وقلة الاحتراس وفساد الاخلاق كالرومان مثلاً في سورية فان سوء ادارتهم افضت بهم الى فساد العمال الذين اضروا بدولتهم اكثر من سهام المحاربين واخطأُوا باستخفافهم بالعدو ولم يحاذروه فعاد ذلك عليهم بالوبال والجلاء عن البلاد ولنا من مثال فساد الاخلاق دولٌ وامم كثيرة تمادت بتنعمات الغنى والرخاء فكان مصيرها الى الاندثار . ثانيًا الظلم والشقاق فان ممالك كثيرة كالرومانية واليونانية والعربية والفينيقية والمادية والفارسية وغيرهنَّ كان خرابهن لما طرأَ عليهنَّ من الانشقاق والتجزوء

ثالثًا تواتر الحروب وتعاقب الدول تنحدر بالبلاد الى دركات الوبال وحسبك في ذلك برهانًا سورية ومصر

لا جرم ان النسيان سليقة في الانسان على انهُ لو اقتدى البشر منذ الاعصر الاولى بمحسنات سلفائهم ونبذوا قبائحهم لامسى الانسان منذ الاف من السنين راتعًا برياض التمدن الصحيح بعيدًا عن كل ما يشين الاداب غير ان الشر من طبع الانسان فلا نكاد ترى حسنةً في رجل الا والشر في مئات وحكم الجماعة في هذا كحكم الافراد ولذلك لم نر أُمةً اقتفت محسنات امة سلفت ونبذت شرورها بل ان امماً كثيرة اخذت عن السلف كثيرًا من الفضائل والرزائل معًا

اما العدل فهو روح الوجود وسياج الملك وقوام الامم وقد انبأَ التاريخ برفعة الامم التي استظلت بهِ وبانحطاط اللاتي خزلنهُ والعدل قسمان خاص وعام . اما الخاص فنسبة كل انسان الى قريبهِ وحق كلا الطرفين في ذلك وهذا امر طبيعي لان الانسان مندوب سليقةً لاحقاق الحق لقريبهِ ومعاملتهُ كما يجب ان يعامل على ان شر الانسان وشدة حرصهِ وطمعهِ تأْبى العدل الخاص فتتولد الخصومات الكثيرة

اما العدل العام فغوث من مضة العدل الخاص وعليهِ يتوقف نجاح الامم وتقدمهم وهو مودع بيد تُعرف بالحكومة فقد تحسن تلك اليد استعمال وداعتها فتلاقي بين المساسين بذار النجاح والقدم والادب والتمدن . وقد لا تحسنها فتعكس النتيجة ولقوام عدل الحكومة مبدا وهو الشريعة وهذه اما تكون مقدسة كشرائع الانبياء الكرام او مشترعة من ذوات لهم اليد الطولى بمعرفة ظروف المساسين وسبرها على العدل الصحيح واكثر هذه الشرائع عادلة على ان منها ما اصبحت عادلة تبعًا للظروف والمشارب فبات اتباعها مظهرًا للعدل . غير ان لا نفاذها يدًا ان لم تكن غريزية العدل فيها فقطعها اولى وهذه اليد هي اهل الحل والعقد الذين يرتدون جلباب الحكم لاظهار العدل فمنهم من كان يحبهُ اما خيفة وعيد دينهِ ان ظلم لان اكثر الاديان المعروفة تحرم الظلم وتامر بالعدل . اولان الشعار الادبية تبعد الظلم ومن المذكورين قوم خلت ضمائرهم من كل صلاح فلا يعرفون الصالح العام حتى ولا اسمهُ على انهم يتخذون مراكزهم والحكم المودع بيدهم الات يتوصلون بها لصوالحهم الخصوصية بهضم حقوق العباد فيفتحون اكف الخيانة للرشوة المعيبة ويحولون سبل الحقيقة فيجرُّون ذيول الويل والحرب على بيوت الارامل واليتامى ويدوسون حقوق الضعفاء فينحدرون بتلك الامة الى التاخر والخراب والعياذ بالله

الباب الاول

حالة سوريا

الفصل الاول

جغرافية سوريا القديمة

يحدُّ سوريا شمالاً بلاد كيليكية وعمان وجنوبًا القفر الواقع بين فلسطين ومصر وشرقًا الفرات وصحراء سوريا وغربًا البحر المتوسط . وكان بعض كتاب المتقدمين يخلطون السوريين بالاشوريين فيدعون بالسوريين سكان كل

القطر الممتد من بابل حتى خليج اسوس او اسكندرونا وتبعهم جوستين في آرائهم لكن سترابو حددها باقل من ذلك وقسمها الى ما ياتي كوماجن وسلوقية وكلسيريا (سهول البقاع) وفينيقية في الساحل واليهودية في الداخل .

يخترق سوريا كثير من الجبال والسهول المخصبة والجميلة المنظر وكان لساكنيها القدماء عناية تامة بالزراعة والحراثة حتى صارت بجدهم كثيرة الكلاء وافرة الخيرات وكانت مدن سوريا ذات عمارة ونضارة . قال بوكاردت السائح اني اكتشفت من حلب على ضفةِ العاصي حتى مصبه مواقع اثنتين واربعين مدينة وتتصل جبال سوريا شمالاً بجبال طورس وعمان وفيها جبل لبنان الشهير ودونهُ في العلو جبل كاسوس او الاقرع الجاري بازآئهِ نهر اورانتس او العاصي وكان مغطى بحرش كثيف والى شمالهِ جبل بيريا الملاصق عمان

واعظم انهار سوريا نهر اورانتس او العاصي مخرجه من البقاع ويجري بين جبال انتليبنان ويضاف اليهِ عدة جداول ويصب في بحر الروم . ولقد قسم الاقدمون سوريا الى قسمين وهما سوريا الكبرى وسوريا الصغرى فالاولى تمتد من الشمال حتى لبنان والثانية المعروفة بسوريا المجوفة او سهول البقاع . هذا عدا فينيقية واليهودية وغيرها واما تقسيماتها السياسية فكانت عرضة لتغييرات كثيرة وكانت في زمانها القديم جداً تقسم الى اجزاء كثيرة مستقلة بذاتها وفي زمان استيلاء المكدونيين عليها كانت ذات اربعة مدن كبيرة . وهي انطاكية وسلوقية وابامية (قلعة مضيق) ولوذقية وبعد حين ابطل هذا التقسيم وقسمت الى عشرة انحاء هي الاولى كوماجن الى الشمال واقعة بين عمان والفرات وسنكا كانت مستقلة الى ان ضمها الى المملكة الامبراطور وسباسيانوس الروماني عند فتحهِ سوريا

الثانية سيرها سنيلك وهي الى الجنوب من كوماجن وتمتد حتى الفرات الثالثة بياري كانت في غربيها وتتصل شمالاً في كيليكية من اسيا الصغرى الرابعة سلوقية وهي الى الجنوب من بياري وتلاصق البحر الخامسة شاليسيدس

وهي الى الشرق من سلوقية السادسة شاليبونتيد تمتد شرقًا الى الصحراء حتى الفرات . السابعة بالمارين وهي بلاد كثيرة الرمال الى الجنوب من تلك قاعدتها بالميرا اي تدمر . الثامنة لوديسين وهي بجوار فينيقية الى الغرب من بالمارين . التاسعة ابامن الى الشمال من تلك . العاشرة كاسيوتمد الى الغرب في الساحل بين سلوقية وفينيقية وما زالت هذه الاقسام تشكل المملكة السورية حتى زمن قسطنطين الملك الذي ضم كوماجن وسرهاستيك وجعلهما ولاية واحدة دعاها بولاية الفرات وبعد ذلك قسم ثيودوس الصغير كل البلاد الى قسمين كبيرين وهما سوريا الاولى وسوريا الثانية وكانت انطاكية عاصمة الاولى وهي كل الثغور والقطر الشمالي حتى الفرات وابامية عاصمة الثانية وهي كل البلاد الواقعة على العاصي

وكان من امهات مدن كوماجن مدينة ساموسات وهي موطن لوسيان الشهير وفيها دار الملك ومحطة العسكر الروماني ايام دولتهم ومن مدنها جرمانيسيا موطن نسطور

ومن مدن سيرهستيك مدينة هيرابوليس ويقال لها بامبيس ومابوك وهي من المدن التي اشتهرت في سوريا بوجود الهيكل الشهير فيها لمعبودة السوريين فانها كانت مركزًا دينيًا ياتيه كثيرون من الغرباء بتقدماتهم وضحاياهم الثمينة التي انتصت بدخول الديانة المسيحية فانحطت المدينة عن شانها

وروى بروكوبيوس ان جوستنيانوس عزم على ترميمها لكنهُ وجد ان كثيرين من اهلها قد بارحوها . ومن مدنها ايضًا بيرويا المدعوة شالب الواقعة بين انطاكية وهيرابوليس واسمها الان حلب ومنها ايضًا زكما وثابساك وباتنيا ومرهاس ومن هذه اشتق اسم المقاطعة

ومن اشهر مدن بياري مدينة ميراندروس على البحر قيل كان يسكنها قوم فينيقيون وكان موقعها لا يبعد عن خليج كيليكية واسوس الذي عُرف

بعد حين باسم خليج اسكندرون

ومن مدن سلوقية المدينة التي تسمت المقاطعة باسمها اسسها سلوقوس فاصبحت من بعده حصنًا حصينًا

ومن مدن شلسيدس مدينة ابرًا وقد دعاها ابو الفدآء باسم المعرّة

ومن مدن شاليبونتيد مدينة شاليبون وثابسا كوي قال بلبني ان سولوقس دعاها باسم امفيبوليس لكن السيَّاح والجغرافيين المتاخرين لم يعرفوا موقعها بالتدقيق

ومن مدنها بربا ليسوس وسيرا وزنوبيا وسيران وسالامينياس وارثوسا

ومن مدن بالمرين بالميرا اي تدمر والرصافة على الفرات . ومن مدن ابامن مدينة ابامياوهي واقعة في اقليم خصب وكانت المدينة كبيرة وذات حصون وزعم بوكاردت ان موقعها في المكان المدعو بقلعة المضيق . وفي جوار البلدة مرعى في غاية من الخصب والكلا اتاه سلوقوس بثلاثماية من الماشية وثلاثين الف فرس وخمسمائة فيل لترعى فيه

ومن مدنها ايضًا مدينة اماسيا او حمص المشهورة بهيكل بعل الذي كان فيها

ومدينة ابيفافيا وهي حماة المذكورة في الكتاب واما مدن كاسيوتيد فمنها انطوشيا العاصمة وهي انطاكية وكانت من اعظم مدن العالم وقد بلغت درجة عليا من التقدم في زمن سلوقوس نيكاتور وسائر السلوقيين وهي موطن ايان مارسيلين وجون كريسوستوم وهو يوحنا الذهبي الفم وعلى بعد اربعين استاديا منها بلدة صغيرة يقال لها دفنة قائمة وسط غضيض من الغار والسرو وفيها هيكل مشهور لابولون وديانة

ومن مدنها ايضًا لودوسيا وهي اللاذقية الحالية ومن مدن كالسيريا (البقاع) مدينة دمشق الشام وهي اقدم مدن العالم وواقعة وسط بقعة غنية بخصبها وكانت موضوعًا لمنازعة السلوقيين واللاجيديين عليها

ومن مدنها هاليبوليس وهي بعلبك وقد اشتهرت بهيكل الشمس الذي فيها

ومنها ابلا وافقا التي بجوارها ينبوع مياه نهر ادونيس او ابراهيم

واما فينيقية فعلى رواية اليونان والرومان لم تكن الا القطر الضيق الواقع بين جبال سوريا والبحر وهي تمتد من خليج اسس شمالاً حتى القفر الفاصل فلسطين عن مصر . اما هيرودوتس فحدها بخليج ميراندروس شمالاً وباليهودية عند البحر في جنوبي الكرمل جنوباً . قال اكسانيفون ان في ميراندروس نحلة فينيقية جاءت ذلك الاقليم للتجارة لكنه موكد ان الاتحاد الفينيقي لم يبلغ ذلك المكان

الفصل الثاني

هواء سوريا ومحصولاتها

ان ارتفاع ارض سوريا تارة وانخفاضها اخرى ياتي بالاختلاف في هوائها فيكون الحر في الثغور البحرية وسهول الاردن وسواحل البحر الميت اشد منه في محال اخرى ولهذا الاختلاف اسباب منها الموقع الجغرافي ومنها غير ذلك فان سهول صفيلة تمتلىء رملاً فيشتد حرها على انه لا توجد تلال قريبة منها ليأتي هواؤها فيرطب الحر اما شمال الكرمل فرطب نوعاً وشمال سوريا كحلب وانطاكية بارد الهواء لاقترابه من جبال طوروس ويختلف في فينيقية الحال لكن البرد فيها اعم من الحر وتثلج مراراً في لبنان وانطلبنان وتتشح هذه الجبال بثوبها الابيض مدة طويلة من السنة ويعم الثلج احياناً بعض السواحل والثغور وتجلد مياه البقاع احياناً لاقترابها من الجبال وارتفاع البلاد عن سطح البحر

وفي جنوبي فينيقية يبتدئ المطر بعد اشهر الحر وذلك في اواخر تشرين الاول فياخذ الحراثون بالفلاحة والزراعة اثناء الصحو الذي يتلو هذا المطر المبكر ويستمر الصحو عدة اسابيع ثم تمطر في اوائل كانون الاول مطراً غزيراً وفي كانون الثاني وشباط يرافق المطر ثلج كثير ويشتد البرد . واما في فلسطين فلا يكثر الثلج ولا تطول مدة القليل الذي ينزل منه وفي الشتاء المعتدل

يستمر المطر كل هذه الشهور واحيانًا يشتد البرد في بعض المحال فتتجلد المياه الراكدة و يغشاها جليد رقيق جدا يطفو على وجهها و في اذار يتناقص المطر و يقطر منهُ شيء قليل تعقبهُ ريح ناشفة تعد الارض للحصاد الخريفي ثم الصيفي واحسن الشهور نضارة وبهجة في هذه البلاد شهرا نيسان وايار . وفي اواخر هذا يقف البارومتر ساكنًا حتى تشرين الاول و يغلب في البلاد الهواء الغربي ويكون مطرها من الغرب والشمال الغربي والجنوب الغربي ويضر الهواء الجنوبي في هذه البلاد مضرة الرياح في جنوبي اوربا والسموم في مصر وفي الصيف يتبع الهواء مسير الشمس حول الافق فيطلع ببزوغها من الشرق ويهب بميلانها من الغرب ويهب في الساحل هواء ارضي يبتدئ عند الغروب ويمتد في البحر مسافة ثلاثة فراسخ وتهب في الشطوط البحرية عواصف قالعة من الشمال الغربي و يكثر ذلك في تشرين الاول والثاني ومن آذار الى حزيران تهب ريح شرقية من ناحية الصحراء وتكون ناشفة مضرة

وفي سوريا من حاصلات الاشجار انواع كثيرة ففي لبنان الارز والجفر (ربما كان السرو او الشربين) والصفصاف والتوت والزيتون وغيرها من ذوات الجدوى وينمو البلوط في فلسطين الى حجم كبير جدًّا وكانت احراش لبنان تسدُّ عوز الفينيقيين لبناء سفنهم وكان الصوريون يستخدمون حطب تلك الاشجار الكثيرة لاحتياجات صانعي الارجوان والصباغين ويستعملهُ الصيدونيون لزجاجهم الفاخر . والصفصاف قديم جدًّا حتى ان احد الرواة قال ان صفصافة بجوار حبرون عمرها يقارب زمن الخليقة او على الاقل زمن ابرهيم الخليل . وفيها كثير من الاشجار المثمرة منها التين والجميز والزيتون والفستق والبردقان والليمون بانواعه وغير ذلك و بعض هذه دخيل و نبت فيها القطن وقد زادت زراعتهُ بعد الحرب الاميركانية الاهلية و بالاجمال ينبت في سوريا اكثر ما ينبت في المنطقة المعتدلة

اما حيواناتها فقليلة جدًّا وكان فيها الدب والاسد فاصبحا غير موجودين

والذئب والضبع نادران

والصحة العامة في سوريا جيدة مطلقًا على انهُ يشوبها نوعك وانحراف في بعض المحال حيث تكثر عفونة المياه والفاكهة وذلك في بعض الثغور واما في الجبال فالهواء على الغالب جيد ومقوٍّ للاجساد . وفي البلاد كثير من المعادن الا انها لم تزل طي تربتها قال العلامة صاحب المرآة الوضية ان الفضة والرصاص والفحم والملح موجودة في اماكن من هذه البلاد

الفصل الثالث

اصل الفينيقيين

انبأنا التاريخ الموسوي ان فلك نوح قد استقر على جبل اراراط وان الانسان بعد حدوث ذلك العرَم سكن ارض شنّعار الواقعة الى الجنوب من الجبل بالقرب من نهري الدجلة والفرات وطفق بنو نوح يزدادون ويكثرون ويسكنون الارض حتى ضاقت دونهم وتفرقوا وفي الكتاب انهم انما انتشروا في العالم بامر الله بعد بناء برج بابل وسار القوم فرقًا ذات اليمين وذات الشمال حتى ملأُوا مع تمادي الايام انحاء المعروف من الدنيا

روى الكتاب ان كنعان اصغر ابناء حام بن نوح ولد صيدون بكره وحثا واليابوسي والاموري والجرجاشي والحوّي والعُرقي والسني والاروادي والصمادي والحماتي . فمن هذا ومن اعتقاد بعضهم بان الكنعانيين هم الفينيقيون انفسهم نستنتج ان سكان فينيقية كانوا منذ اول الوجود

واقتراب هذه السلالة من سكان الفلك يحملنا على الاعتقاد ان اباهم اتى بقومهِ تلك الارض المدعوة فينيقية وسكنها . ويؤيد هذا اتفاق بعض الروايات التاريخية فانهُ قيل ان جد الفلسطينيين هو كنعان ايضًا على ان امراة كنعان ام الفلسطينيين ليست بام الكنعانيين وان السوريين اهل دمشق وجوارها وكالسيريا اي سهول البقاع من نسل سام بن نوح رواه بوكاردث وماشليس وغيرها

واما زمن هاجرتهم الى سوريا فلا نعرفهُ بالتمام الا ان هيرودتس يقول ان هيكل ملكارث المشهور قديم جدًّا يتجاوز عصر بنائهِ ثلاثة وعشرين جيلا قبل ايامهِ على ان ابا التاريخ لم يمعن النظر في ايراد هذه الرواية عن الفينيقيين انفسهم لان المظنون ان هذا الزمن يزيد الزمن المترّجح قدومهم فيهِ بثلاثة او اربعة اجيال ذلك لان المؤرخ المذكور نغ في اواسط القرن الخامس فيكون بناء الهيكل على روايتهِ في القرن الثامن والعشرين قبل المسيح . والحال ان الاكتشافات الاخيرة قد رفعت الحجاب فاصبح العلماء يتقرّبون من ادراك الحقايق التاريخية ذلك انهُ قد ترجم حديثًا ورقة من البابيروس كانت موجودة في دار التحف ببرلين فاذا بها تقرير بعث بهِ احد ماموري الملك امينيهي الاول من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية (قبل اخر ملوك الدولة الحادية عشرة) اليهِ وكان قد ارسل ذلك المامور الى بلاد ادوم وبلاد تانو وهما امارتان سوريتان كانتا خاضعتين لمصر ليسبر احوالهما ويتعرّف الشعوب المجاورة واحوالها وليس في هذا التقرير المرفوع الى الملك ذكر لشعب الكنعانيين في فلسطين واما زمن هذا الملك فواقع في الجيل الحادي والعشرين قبل الميلاد الا ان المورخ لانورمان يقول بعد ايراده بعض تخمينات مصدرها الكتاب المقدس ان دخول الكنعانيين الى فلسطين وحلولهم في كل البلاد الواقعة بين البحر ووادي الاردن واجب تعيين زمانهِ بين عصر الدولة الثانية عشرة المصرية وزمان تملك كدلعومر العيلامي فيما بين الفرات والدجلة فيكون ذلك بين الجيل الثالث والعشرين والجيل الرابع والعشرين قبل المسيح

فان دققنا النظر وتصورنا حالة اولئك القوم العازمين على مبارحة شنعار نراهم يختارون اقرب الاماكن الى مصدر هاجرتهم تجنبًا لمشاق سفر طويل فالاوقيانوس الهندي قريب من شنعار ولا يبعد ان يكون كنعان قد اتى ساحل ذلك البحر او احد خليجيهِ اللذين هما البحر الاحمر وخليج العجم فسكن هنا لك ثم اتى سوريا فسكنها على ان بعض المورخين يوردون ذلك بقولهم

ان الفينيقيين لم يكونوا اصليين في البلاد وانما كانوا من النحل الدخلاء
وورد في الانسكلوبيذية الاميركانية في كلامها عن فينيقية مجلد ١٢ صفحة ٢٧٥
ما ترجمتهُ ومع انهُ يظهر ان الفينيقيين سكنوا سواحل بحر سوريا في اول زمان التاريخ الا انهم كانوا يعتبرون انفسهم كنحل وليسوا باصليين في البلاد

وروى هيرودتس المورخ بفاتحة كتابهِ عن اول قتال بين اليونان والبربر قال ان علماء (التاريخ والآثار) من الفرس يقولون ان الفينيقيين كانوا العلة (بانتشاب القتال) وذلك لانهم حال اتيانهم من بحر اريترا (الاوقيانوس الهندي) الى هذا البحر وسكناهم في البلاد التي يقطنونها الان اخذوا يسافرون بعيدًا وحملوا بضايع كثيرة من صنع المصريين والاشوريين واتوا اركوس من جملة البلاد التي اتوها اه

وقال في موضع اخر (فصل ٧ وجه ٨٩) اثناء كلامهِ عن ارسال الفينيقيين ثلاثمائة سفينة لنجدة عمارة كسرسيس الفارسي ما ياتي . ان هولاء الفينيقيين يقولون انهم كانوا يسكنون قديمًا عند بحر اريترا ولما عبروه واتوا فسكنوا سواحل سوريا البحرية وهذا القطر من سوريا وكل البلاد حتى مصر يدعى فلسطين (ان هيرودوتس ذكر هنا ان كل الساحل يدعى فلسطين مع انهُ ذكر في محل آخر من كتابهِ فصل ٢ وجه ٥ ان فينيقية في الشمال وفلسطين في الجنوب) وقاربت رواية جوستين رواية هيرودوتس بما كان عن اصل موطن الفينيقيين فانهُ قال ان الامة الصورية قد نشات من الامة الفينيقية الذين نزحوا من بلادهم الاصلية عندما ازعجتهم زلزلة مهولة فحلوا اولاً عند البحيرة الاشورية وبعد ذلك اتوا الساحل الذي عند البحر واسسوا هنالك مدينة دعوها صيدا لكثرة السمك فيها لان الفينيقيين يسمون السمك صيدون اه

اما البحيرة الاشورية فربما كانت البحر الميت او بحيرة جنيسارات لانهُ لا توجد بحيرة في كل البلاد الاشورية الجنوبية . قال المورخ لانورمان ان رواية اخرى آثرها غير ذلك المورخ تخالف ما ارتآه ذلك ان

مشاجرة جرت بين الكنعانيين وملوك بابل الكوشيين من خلفاء نمرود الجبأ ت قبيلة كنعان الى المهاجرة قال . وقد زكى هذه الرواية مورخو العرب قائلين انهم العمالقة من نسل حام غير العمالقة الساميين الوارد ذكرهم في الكتاب الاَّ انا (المورخ لانورمان) ولئن كانت هذه الرواية اقرب الى التصديق نرتاب بعادات الكوشيين لاخوانهم الكنعانيين بل نرى الاحسن ان ننسب المهاجرة الى سبب عظيم هو قدوم ارياس جافتيت بين الجيل ٢٤ و ٢٥ ق م مبتاحًا بلاد بابل

والظاهر ان الفينيقيين جاءوا من مسكنهم الاول عند خليج العجم مارين في وادي الاردن وسهل اسدرالون اي مرج ابن عامر

ومن الادلة على حلول الفينيقيين عند بحر اريترا ان مدنًا كثيرة من مدن ذلك القطر تسمى باسماء فينيقية كتايروس واراواد ودورا واهل تلك البلاد يدعون بانهم نحلٌ فينيقيون وزد عليهِ ان بين الفينيقيين والعرب اوجهًا كثيرة للشبه كاتقان الملاحة والتجارة البحرية والغزو مما ربما تعلموه من بعضهم بالجوار والا لاستحال اتفاق امتين بعيدتين بالدين والعادات والاصل والمكان على صفات كهذه . وربما كان هذا الاتفاق مصدرًا لاعتقاد البعض بان الامتين من جرثومة واحدة او ان الفينيقيين من العرب كما يظهر من رواية الانسكلوبيذية الاميركانية المار ذكرها واذا ذهبنا مذهب الاكثرين باتخاذ اللون دليل التفرُّع دون اللغة نحكم ان الفينيقيين كانوا في بلاد اشد حرارة من بلادهم السورية فان لونهم اسمر مائل للاحمرار . قال استرابو ان الاسود من الكابودوكيين في اسيا الصغرى اي بر الاناضول اشد بياضًا من ابيض السوريين اه . واما الكابودوكيون فهم المعروفون بلوكوسيرينس اي السوريين البيض

ولقد اندثرت المؤلفات الفينيقية وكاد لا يبقى منها شيء غير بقايا كتابات سانكونياثو الا انهُ لم يذكر عن رحلات قومهِ شيئًا وانما جاء بهم من الفضاء

الاول بتناوب الالهة المستطيل حتى كنا وهو كنعان اول الفينيقيين غير ان رواية هذا المؤلف لا نعيرها جانب الثقة التامة لانها ممتزجة بالخرافات التي سدلت على اخبار الاقدمين حجاباً كثيفاً

لكن كثيرين من ثقاة الرواة منهم هيكاثوس واستفانوس بيزانيسوس قد ذكروا ان كنا انما هي الاسم الاول لبلاد الفينيقيين وقال سانكونياثو ان هذا الاسم قد تغير الى فانكس وروي ايسوليوس ان الكنعانيين والفينيقيين من اصل واحد ذلك لان كنعان هو جد الفينيقيين وبالحقيقة انا لم نرَ ذكراً لشعبين اتيا سوريا معاً فدعي احدهما الفينيقي والاخر الكنعاني بل الاقرب ان الشعب الكنعاني المنسوب الى جده اتى من مقره الاول الى موطنهِ الجديد فراى النخل كثيراً فيهِ واسمهُ بلغتهِ فينكس فدعا البلاد بهِ ثم بالتدريج صار اسماً لهُ خصوصاً للمشابهة بين لون ثمر النخل ولونهم ويؤيد هذا ان بتواتر الازمنة صار النخل رمزاً عن الفينيقيين الذين كانوا يرتدون برداء اسمهُ بلغتهم فانكيس فهذا هو مصدر الاسم الفينيقي

ولعل اسوداد لون السوريين وامتزاجهُ بالوان النخل الذين اتوا البلاد من الجنوب والشرق وسكوها هو الذي كان سبباً لظن كتاب اليونان ان الاثوبيين اتوا فسكنوا البلاد. قال هوميروس في قصيدتهِ المعروفة باوديسي اثناء ذكره تيه فيلوس انهُ زار قبرص وفينيقية والمصريين والاثوبيين والصيدونيين والاريبي وليبية اه. (لعل الاريبي من العرب الذين كانوا في ايام هيرودوتس يسكنون القفر الواقع بين فلسطين ومصر على ان ماسبيرو يقول انهم من الاراميين) فرواية هوميروس الدالة على وجود الايثوبيين في سوريا تحكم بسكناهم فيها مدة الا انهم من الايثوبيين الشرقيين الساكنين القطر الواقع بين مصر شرقاً جائزاً بجنوب فارس حتى نهر الهند وهم غير الايثوبيين الغربيين المعروفين بالحبشة ومع ذلك فقد خمن بعض المورخين ان فيلوس قد اجتاز السويس وعبر البحر الاحمر فاتي ايثوبيا الافريقية وآخرون قالوا

انهُ سار حول افريقية بمروره في بوغاز قادس ودخولهِ الاوقيانوس الهندي وانهُ اتى افريقية والحبشة لكن اجمع المدققون على دحض هذا الزعم لان فيلوس لم يخرج من البحر المتوسط ولذلك يقرب من التصديق ان الايثوبيين سكنوا البلاد مدة وروى كانون المؤلف ان مملكة سيفوس كانت في البلاد التي عرفت اخيراً بفينيقية على انها كانت تدعى حينئذ بايوبيا وهي كلمة مشتقة من يافا وتمتد هذه المملكة من البحر المتوسط الى العرب الذين يسكنون بحر اريثرا اه

اما سائر الاسباط والقبائل الاول الذين سكنوا سوريا زمنًا طويلاً فليس لنا عن حقائق احوالهم الا الطفيف واكثرهم ينسبون لرؤساء اسماؤهم مذكورة في الكتاب ولذلك تسهل بمراجعتهِ معرفة اصل كل امة لوحدها اذا كان الاسم دليلاً يعتمد عليهِ ومن قبائل البلاد الفينيقية قبيلة الحيثيين وهي سبطان السبط الاول كان في البلاد التي اخذها سبط يهوذا بعد ذلك وهي حول قرية عربا وكانوا قد اخرجوا منها قبيلة عناقيم ودعوها حبرون. والسبط الثاني الكهتاس او الكاتي وهم قبيلة عظيمة حربية كانوا يسكنون جبال عمان وضفاف العاصي حتى الفرات . وقد كان لهم بسطة وعزة في سوريا سيما في عصر الدولة التاسعة عشر المصرية حتى حوادث الملك اسورناسيربال النينوي

وقبيلة العموريين وهي قسمان سكان البلاد الواقعة الى الغرب من البحر الميت حول انكادي وكانوا قد طردوا العمونيين والموابيين واقاموا مملكتي باسان وحشبون . والقسم الثاني كان ساكنًا على ما روتهُ الاثار المصرية بجوار الكهتاس عند ضفة العاصي ولهم حصن قادش المشهور

وكان الجرجسيون يسكنون الجليل وجوارها وكانت قاعدتهم جيراسا وهي الجرش واما الحويون فهم سبطان ايضًا احدهما سكن سيشام وجبعون وكل البلاد التي تغلب عليها سبط افرايم والسبط الاخر كان ساكنًا انطليبنان من بعل حرمون حتى حماه . والعرقيون سكنوا السهل الى شمال طرابلوس

بينها وبين عكار واشتهرت بهم عاصمتهم عرقا

واما السينيون فقد ذكر استرابون ان بلدة في جوار البترون كانت تسمى سينا فاستنتج لانورمان ان مكان السينيين ربما كان هنالك

واما الاروادّيون فعاصمتهم جزيرة ارواد الا انها امتدت الى الشاطي وكان يفصل بينهم وبين الصيد ونيين مسكن قبيلة السمريين قيل وظل اسمهم محفوظًا لعهد الرومان في سوريا حيث كان لهم بلدة اسمها سيميرا

وكان الحماتيون يسكنون جوار العاصي واشادوا مدينة حماه على عدوته وعرفت بعد حين بابيفانيا وكان مقامهم بين الحيثيين والعموريين ولكنهم في ايام داود الملك التزموا الرحلة من بلادهم فسكنها بعدهم الاراميون. وقد تظن فئة من الناس ان بعضًا من سكان هذه البلاد الاقدمين وعلى الخصوص آل عناق كانوا طويلي القامات جدًّا غلاظ الاجسام مستدلين على ذلك بوجود النواويس الكبيرة التي تكفي لمواراة جثث كثيرة لكن المحققين الثقاة كباكير وديودورس وريترو كورنول وكثيرون غيرهم قد اجمعوا ان ما نعتقدهُ العامة من عظم الهامات في الزمن السالف انما هو امر لم يثبتهُ التاريخ الصحيح وان القوة الباسلة في الامة المتمدنة تنتج من الحذق والدراية اكثر من نتاجها من قوة الذراع وعظم الهامة وان ابناء هذا الزمن لا يصعب عليهم عمل اذا باشروهُ بجدّ وان العظام الكبيرة المنكشفة طيّ الارض انما هي عظام حيوانات وليست من عظام البشر. فآل عناق اذًا والرافائيون والابنيون والزوزبون والحوريون ليسوا الا كسائر البشر وان هم الا اسباط مختلفة من الكنعانيين الذين حلوا في سوريا

وقد قسم المورخ لانورمان قبيلة الرافائيين الى عدة اسباط ومن رايهِ انهم من سكان البلاد الاقدمين وقد غلب عليهم الفاتحون . واما الاقسام فهي . اولاً سبط الرافائيين الساكنين بلاد باسان الذين غلب عليهم العموريون وسكنوا بلادهم وظلوا فيها حتى جاء موسى فاتحًا . ثانيًا سبط الاميم وكانوا في

البلاد التي احتلها المواّبيون بعد ذلك وفي كيراتام . ثالثاً سبط زومزوميم وقد قام مقامهم سبط العمونيين . رابعاً سبط زوزيم وسكناهم في حام وهي بلاد لم يعرف مركزها بعد . خامساً سبط الاناسيم ومنها تفرع نفيليم . قال وهولاء هم نخبة سكان فلسطين الاقدمين الذين دافعوا عن بلادهم حين جاءها الكنعانيون فاتحين وكان منهم بقية فيها يوم غلب عليها الاسرائيليون واستخلصوها من فاتحيها . ثم اورد اسماء بعض الاسباط اللاتي لم يروعنها التاريخ خبرًا مهماً . اما الفلسطينيون فقد قال الكتاب انهم من كفتور وان الاراميين من قير واليهود من الكلدان . قال المورخ بنيامين ان كفتور هي ضمياط مصر وقال مانيثو المورخ المصري ان اليابوسيين هم الهيكسو يون او الرعاة الفينيقيون وربما كان ذلك ترجمة اسم الكنعانيين غير ساكني الثغور بل انهُ كانت تعرف بهِ القبائل الرحّل في الداخلية فلما نزعت الدولة من ايدي الرعاة من مصر وطردوا منها عادوا الى فلسطين مسمين انفسهم باليبوسيين فسكنوا المحال الحصينة وابتنوا بعد ذلك مدينة اورشليم

الفصل الرابع

مستعمرات الفينيقيين في الجهة الشرقيّة من البحر المتوسط

مذ حلّ الفينيقيون في الاقطار السورية ورغبوا التجارة وراء البحار وطفقوا يسيرون بسفنهم في العباب راوا قبرص وهي قريبة من الجبل الاقرع فرغبوا فيها وبالطبع سار اليها كثيرون منهم للتجارة واخرون للحراثة وبعضهم لغير ذلك فازدادت الجزيرة عمارة وعظم شانها وراجت سوقها وكثرت مداينها ووفر غنى اهلها قال الكتاب انها كانت معروفة بكتّيم حملاً على اسم قاعدتها وقال اخرون ان كتيم مشتقة من الحيثيين وهم قبيلة سورية وان بين الكلمتين تقاربًا على ان كتيم هو ابن ياوان (ايون) ابن يافث ويدعي الاهلون انهم من كيليكية وسواحل اسيا الصغرى الغربية وانتشات في الجزيرة تسعة مدائن مستقلة منها خمسة فينيقية واربعة غير فينيقية . اما الخمسة الاولى فهي كتيم واماثوس وسولي ولبثيوس وسيرينا والاربعة الاخرى هي كيوريوم وشيتري وماريوف وسلامس

وكانت ديانة القبرصيين على مذهب الفينيقيين مع انحراف الى اليونان واسم الجزيرة اليوناني مشتق من نبات كثير فيها يقال لهُ (كوفر) ومنهُ الحناء الذي تخضب عذارى المشرق اصابعهن بهِ وكانت قبرص غنية بمعدن النحاس فاشتق اسمها (سايبروس) في اللغات الغربية منهُ

ونزل الفينيقيون رودس وعمَّروها فزادت تقدمًا وقال ابيفانوس المؤرخ ان قبرص ورودس تدعيان كثيم وليس قبرص وحدها وفي رودس آثار فينيقية كثيرة وروي ان قادموس الفينيقي مرَّ برودس وهو ذاهب الى بلاد اليونان فبقي بعض بطانته فيها فتوالدوا وكثروا وبنوا المدن والقرى . وكان الكيليكيون الساكنون القطر المنسوب اليهم في شمال فينيقية يدعون هيباشاي على ما قالهُ هيرودوتس لكنهم لما انهم نخلة فينيقية اشتق اسمهم من كيليكس الفينيقي اخي اجانور ملك صيدا . وروى شاريلوس معاصر هيرودوتس انهُ كان بين عساكر كسرسيس قوم من جبال سوليمي يفهمون اللغة الفينيقية لكن يوسيفوس ناقل هذه الرواية يظن ان جبال سوليمي هي القائمة فوق اورشليم وليست الواقعة في داخلية كيليكية وان البحيرة هي البحر الميت والشعب هم اليهود الخادمون في عسكر كسرسيس اما سكالكر وبوكاردت فيوافقان شاريلوس ويدحضان تأويل يوسيفوس مثبتين وجود شعب فينيقي في مقاطعة سوليمي الكيليكية واما ليكية فلا برهان على قيام الفينيقيين فيها لكنهُ يقال ذلك استنادًا على ما اشتهر عن اوروبا (ابنة اجانور ملك صيدا مانت فتاً لهت وتاهت ورُويت عنها اساطير كثيرة) من انها اتتها من كريت وان سار بدون الذي اتاها بقومهِ من كريت انما هو ابنها ونزل الفينيقيون كاريا وسكنوها فاصبح بعض المؤرخين يدعونها فانيس ونعلم الكوريون من الفينيقيين فن سلك البحار وبرعوا فيهِ وكانوا اول من اصطنع سفنًا للتجارة

وروي ان الفينيقيين استوطنوا بيثينيا واسسوا فيها مدنًا منها بروبكتوس وقال آخرون ان فينوس بن اجانور المذكور سكنها وكتب ايسبوس ان فانيكس اخا كدموس كان اول من نزل هذه البلاد وكان في ثاثوس معادن

ذهب مشهورة ظلت فيها حتى عصر داريوس فاتاها الفينيقيون وتركوا على شطوطها آثار اقامتهم فيها من ذلك تحويل الجبل الى اكم صغيرة للانتفاع بها ومنها ادخال صناعة الذهب وتصفيتهِ وبنوا هنالك معبدًا لهركيل الصوري فظن بعضهم ان الخالة صورية لكن الصلة التجارية بين فينيقية وثاسوس كانت قبل تقدم صور حتى انهُ يزعم ان البلدة من تاسيس ابن ايليكس

واما كريت ففيها من الاثار ما يدل على توطن الفينيقيين فيها مدة وعلى الخصوص ما نقل عن خرافاتهم ذلك ان بين معبوداتهم معبودات فينيقية

واتى الفينيقيون بلاد اليونان وتوطنوا بعضها وتركوا فيها من اثارهم شيئًا كثيرًا ذلك كما في بواتيا المشهورة بعاصمتها ثابس ذات الابواب السبعة فان الفينيقيين احتلوها زمنًا طويلاً قال هيرودوتس انهم يقولون ان اصلهم من ارتريا غير انهُ قد علم بالتدقيق انهم فينيقيون من الذين اتوا مع كادموس الى بواتيا وان هولاء الفينيقيين قد اتوا بلاد اليونان بمعارف كثيرة اخصها حروف الهجاء مما لم يكن يظن انهُ كان موجودًا عند اليونان من قبل (راجع هيرودوتس فص ٥ عد ٥٧) اه فهذه الرواية وادخال المعبودات الفينيقية ادلة تويد ما ذكرنا اما ثغور الادرياتيك فلا علم لنا بتطرّق الفينيقيين اليها على ان هنالك مدفنًا لقدموس وامراتهِ هرمونيا

الفصل الخامس

استيطان الفينيقيين في اواسط المتوسط

ولم يكن من يناظر الفينيقيين بملاحة البحر المتوسط فتبطنوهُ وجابوهُ وحملوا تجارتهم ودينهم وعوائدهم الى جزرهِ واطرافهِ واتوا سيسيليا وهي صيقلة وحلوا فيها فاصبحت سفنهم تتردد الى فرضها الامينة لتحمل منها الذرا والخمر والزيتون والعسل واتوا ابريكيس على ما يظن لان بعض الاثار وعبادة فنيس هنالك دلت على نزولهم فيها ولو خالف ذلك بعض المؤرخين واما الجزر المعروفة اليوم باسماء بانتا ليريا ولامبادوسا وكوزو. ومالطة فانها كانت على صلة دائمة

مع الفينيقيين غير ان بعض المؤرخين ينكر ذلك و يقول ان صلتها كانت مع القرطاجنيين . قال ديودروس سيكولاس فص ٥ عدد ١٢ ان مالطة كانت ملجاء للفينيقيين ومرسى لسفنهم ابان اسفارهم البعيدة لكن المفهوم من اجمال كلام هذا المؤرخ انهُ كان يدعو القرطاجنيين باسم الفينيقيين ومع هذا فقد اجمع القوم على ان المقصود بعبارتهِ و بغيرها ان الذين كانوا يواصلون مالطة انما هم الفينيقيون انفسهم و بعد هذا الحين كان يسكن مالطة قوم منهم بدون ان يعرف ان كانوا من الاصليين او من اهالي قرطاجنه . ووجد آثار من صنع الصوريين ونقوش وكتابات وغير ذلك

الفصل السادس

استيطان الفينيقيين في غربي المتوسط وفي الاتلانتيك

لا ريب ان الفينيقيين لما اتوا سردينيا سرُّوا بما راوهُ فيها من الغنى فاخذوا يترددون اليها وقد سكنها بعضهم . وقال بعض المؤرخين ان اسم الجزيرة فينيقي وقال اخرون ان ما رواهُ داد الوس عن فرارهِ اليها من الكريتيين في سيسيليا برهان كاف على ذلك وحسبها ديودورس من جملة الجزر التي ارسل الفينيقيون اليها نحلهم بعد استغنائهم بفضة اسبانيا . قيل جاء قوم من الفينيقيين والليبيين وسكنوا الجزيرة ولما جاء النحل عاشوا معهم بهناء وراحة . وروي ان الفينيقيين ادخلوا الحراثة الى سيرين ومنها الى الجزيرة واما سيرين فقيل انهُ جاءها بعض من رفقاء كادموس وتكاثروا فيها فعمرت بهم وحقق المدققون انهم توطنوا كورسيكا مولد نابوليون بونابرت المشهور . واما جزر باليار يك وهي مينوركا وماجوركا وانيكا وفورمنترا فكلها كانت من نزلات الفينيقيين عمروها بعد ان تملكوا اسبانيا وكانت هذه الجزر تدعى قديمًا باليريس قيل انها مشتقة من بالين اليونانية بمعنى رمى . وقيل من الفينيقية ومعناها الجنود المشاة المسلحون وقد اشتهر سكانها ابان الحرب الرومية والقرطاجنية بخفة مشاتهم وحسن حركاتهم وقال استرابو ان اسم الجزر فينيقي وان فن الحرب الذي اشتهر فيهِ

سكانها انما هو ماخوذ من الفينيقيين وقد افادنا الكتاب ان الفلسطينين والفينيقيين مشهورون بضرب المقلاع فاخذ الابريون ذلك عنهم وتعلمهُ الارواديون منهم واستعملوه زمنًا طويلاً كرماة المقالع في معسكر الاثينيين في صيقلة ولا نعرف حقيقةً ان كانوا قد اتوا الجزر راسًا او من افريقية ومن الاثار ما دل على ان النحلة جاءت راسًا

وروى الكتاب عن صلة الفينيقيين مع ترشيش وهي بلاد اسبانيوليه لا ريب في تطرق القوم اليها فان اليهود كانوا يدعون ما وراها جزر الامم لكن من المعروف ان الفينيقيين اجتازوا اعمدة هركيل المساة اليوم بجبل طارق وكان اليونان يدعون ترشيش باتيكا والعرب يسمونها الاندلس وهي أرض كثيرة الخصب وافرة الخيرات والمرعى وفيها معادن كثيرة واثار معتبرة كانت سببًا لخرافات كثيرة تقوّلها بعضهم منها ان هركيل الفينيقي نصب اعمدتهُ عند البوغاز المار ذكرهُ

ومع ان الاثار الفينيقية في اسبانيا واضحة جدًا حتى ان مدنًا كثيرة تعرف باسماء فينيقية لم يزل القوم يجهلون ان كان قد سار اليها المستوطنون راسًا . او من احدى مستعمراتهم الاخرى وكانت صلتهم جارية مع غربي اسبانيا الا انا لا نعلم بدخولهم اليها

الفصل السابع

استيطان الفينيقيين في جهات افريقيا الشمالية

رأى المتأخرون في شمال افريقية آثارًا فينيقية فقالوا بذهاب الفينيقيين اليها وقيامهم هنالك موطنًا غير ان مانيثو لم يذكر دخول الهيكسوس المعروفين بالرعاة الفينيقيين الى داخلية افريقيا او اقصاها غير ان ذلك ليس ببعيد واما بناء الفينيقيين قرطاجنة فلا مشاحة فيهِ على ان المختلف عليهِ انما هو زمن تأسيسها وحقيقة بانيها لكن الارجح في هذا ما روي عن ديدون الصورية كما سياتي على ان بعضهم يظنون انها من بناء الصيدونيين قبل زهاء صور

ومهاجرة ديدون فكان تناقض الروايتين سبب الشك في القولين

الفصل الثامن

لغة الفينيقيين

زعم الكتبة الاولون ان الفينيقيين هم الذين اخترعوا الحروف الهجائية وجاءوا بها الى اليونان وقال لوكان ان اختراعها كان قبل وجود ورق البابيروس عند المصريين . وقال بليني ان الحروف كانت منذ امد طويل عند الاشوريين ويبرهن هذه الرواية الكتابة المسمارية القديمة العهد وان بعض الاشوريين ينسبون اختراعها للسوريين ويقولون ان الفينيقيين ادخلوها الى اليونان وروى هيرودوتس ان الفينيقيين الذين اتوا مع كادموس قد ادخلوا بين اليونان علومًا مختلفة اخصها الحروف التي لم تكن عندهم من قبل اه . واثبت هذه الرواية كثيرون من الثقاة منهم ديودوروس وتاسيتوس وميلا ويوسيفوس وكلامنس والكسندريتوس وايسبوس ثم ان الاحرف اليونانية تشابه الاحرف العبرانية ولا وجه لاتصال الاحرف العبرانية الى اليونان فيغلب على الظن اذًا ان اللغة العبرانية تشابه اللغة الفينيقية على ان الاحرف العبرانية الدارجة كانت احدث عهدًا من زمن دخول الاحرف الى اليونان وفي الجيل السادس عشر اجمع العلماء على ان الحروف لم تكن من اختراع عزرا على ما قالهُ التلمود بل انها من اصل كلداني جاء اليهود بها بعد رجوعهم من جلاء بابل وبما ان اللغتين العبرانية والتدمرية تتشابهان كثيرًا فقد حكم العلماء ايضًا انهما من اصل واحد وان اللغة الفينيقية تشابه كلاًّ من اللغات العبرانية والتدمرية والسامرية وقد بحث كثيرون من المدققين في ذلك توصلاً لادراك كنه اللغة الفينيقية فلم يبلغوا حتى الان الشاوَ الذي يريدون لكنهم لا يقعدون عنهُ واما خصائص اللغة فلا سبيل الى الخوض فيها لذلك نتركها للمطولات

الفصل التاسع

تجارة الفينيقيين

لما كان الفينيقيون على سواحل بحر اريترا اي الاوقيانوس الهندي حدثتهم انفسهم باختراق عباب البحر طلبًا للتجارة والتقدم وبكرور الايام صارت الملاحة فيهم عادة واكتسبوا من جيرانهم العرب اخلاقًا بحرية كانت من اوجه الشبه بينهم فامسوا بعد حين يطوفون البحار ويجوبون الثغور تارة كتجار ينقلون البضائع والاموال وطورًا كقرصان ينزلون الويل والدمار بمن كان من غير ابناء جنسهم على انهم بعد انتقالهم من ثغور اريترا الى فينيقية اعجبهم البحر المتوسط لسكونهِ وهدوءهِ فازدادت فيهم الرغبة الى السفر فيهِ واختراق عبابهِ والاستطلاع على ما وراءه فاصطنعوا السفن وسافرت السفينة الاولى من صيدا (قلت الاولى لانها كانت اول سفينة عرفها العالم بعد فلك نوح) وكان لوفرة حظهم ان الثغور والجزر لا تبعد عن بعضها كثيرًا ولذلك لم يكن للنوتية خوف من طول الامد فكان البحر معلمًا يرشدهم الى تجشم الاسفار وما فتئوا يزدادون ويكثرون السفن والسفر حتى مهروا في الملاحة وسلك البحار

ولما اشتهروا بالجسارة والاقدام في البحر وعرف العالم بهم اتقان الملاحة وسلك البحار اتسع نطاق تجارتهم فكانوا يحملون حاصلات بلادهم الوافرة الخصب والغنى الى اقاصي الارض المعروفة فيتجرون ويربحون وازدادت سفنهم الى عدد عظيم جدًا حتى تسمت صور مليكة البحار وتاجرة الامم على ان بعض هذه السفائن اتخذت لها عملاً جديدًا ذلك ان انفردت للسلب والنهب والاضرار بسفن غير قومهم فاشتهرت اعمالهم بين الناس وحسبوا لهم حسابًا عظيمًا ولم يكن نظام يربط الامم ببعضها ولا سنَّة تمنع الافراد من امة عن اضرار افراد الامة الاخرى اذا سنحت لهم الفرصة . وامتدت اعمال الفينيقيين حتى جزر بحر ايجه وما فتئوا يعيشون فيها حتى طردهم منها مينوس كما روى توسيد المؤرخ على ان نوتية السفن التجارية المؤتمنة على البضائع والاموال لم يكونوا

اقل شرًّا واخف ضرًّا من اخوانهم القرصان لانهم كانوا يسرقون وينهبون ومن عبارةِ هوميروس علمنا ان الفينيقيين اتجروا بالعبيد والاماء كغيرهم من امم تلك العصور وانهم كانوا يخطفونهم تارة بالقوة وطورًا بالخديعة ويبيعونهم كسلعةٍ تجارية ذلك شان القساة المتوحشين وانهم كانوا لا يحترمون طقسًا دينيًا ولا يوقرون معبدًا يلتجيء اليهِ اولئك المآكيد بل انهم كانوا يفضلون المال على كل شيء حتى صاروا يبيعون المعبودات او بالحري التماثيل التي كان يعبدها الناس في تلك الايام . وحسبك ما قالهُ في هذا الصدد ابو التاريخ هيرودوتس حيثما اخبر بانتقال بعض الطقوس المصرية الى بلاد ليبيا واليونان وظن ان الفينيقيين اخذوا احدى معبودات مصر من هياكلهم وساروا بها فباعوها هنالك . وكان الفينيقيون على ما اتضح لنا من اقوال هوميروس وهيرودوتس يشتغلون بالتجارة والنسج قبل العصر اليوناني ذلك ان في حرب تروادا كان يؤتى من صيدا وجوارها بحلي ومجوهرات لبنات اليونان . ويتضح منها ايضًا ان سفن الفينيقيين كانت قد نزلت البحر وجابتهُ قبل هذا العصر ويبرهن ذلك رواية اوميوس عن اختطافهِ من دار ابيهِ ملك الجزيرة بحيلة امراة فينيقية ونزولهِ في سفينة فينيقية وبيع الفينيقيين اياه في اتيكا الى رجل يقال لهُ لرتس ورواية اوليس ابي تلياك المشهور عند اختطاف فينيقيٍّ لهُ في مصر لينقلهُ الى ليبيا عازمًا على بيعهِ هنالك لكن مركبهُ انكسر في الطريق فنجا من الاسر وبالاجمال كانت التجارة الفينيقية قديمة الايام وقد بلغت شاو النجاح والتقدم على انهم كانوا لتجشمون مشاق الاسفار الطويلة المتعبة ويجوبون الاقطار البعيدة ابتغاء الكسب والغنى ولم يكن من يضارعهم في اعمالهم فكانوا اذا رجعوا يكثرون من الروايات والاخبار العظيمة المخيفة للسامعين وما قصدوا بذلك الا اقعاد الناس عن تتبع اثارهم والانتفاع بما ينتفعون بهِ فكانت رواياتهم مصدرًا لشيوع خرافات واقوال كثيرة لا صحة لها البتة على انها باتت اساسًا لمعظم مبادي تلك القرون لكن استرابو يقول

ان كثيرين من الناس كانوا يعرفون كذب الرواة وحقيقة مقصدهم ومع ذلك لايجسرون على التمثل بهم لجهلهم المحال التي كان يقصدها اولئك ليأتوا منها بالبضائع وموارد الثروة والغنى ولا يعلمون الى اين يسيرون بمحصولاتهم الغزيرة ومصنوعاتهم الفاخرة . ولم يكن لليونان معرفة بالمكان الذي كان يأتيهم الفينيقيون منهُ بالتنك والكهرباء بل ظلوا يجهلون ذلك حتى اتى هيرودوتس صورًا فعرف ما كان . وكان الفينيقيون يقولون بعظم العناء الذين يتجشمونهُ توصلاً الى بعض الاصناف كالقرفة والطيب فان القرفة لا تُجنى الا بحيلة من اعشاش العصافير المبناة في شقوق الصخور واما الطيوب فمن اشجار تحترسها حيات ذات جناح وكانوا يحرصون على حصر منافع التجارة بامتهم القادرة فلا يفيدون الامم الاخرى شيئًا . وحدث ان مركبًا رومانيًا راى ذات مرة مركبًا فينيقيًا يسير من قادس ليأتي بالتنك فسار يتبع اثرهُ وعلم الفينيقي بغايتهِ فمال الى البر تخلصًا من اكتشاف الروماني مورد غناهُ وعدل عن سفرتهِ فعلمت حكومتهُ بما كان من امرهِ فاجازتهُ دفع ثمن البضاعة التي اضرب عن الاتيان بها حرصًا على نفع وطنهِ بانحصار التجارة فيهِ

وكان للفينيقيين معرفة تامة بادارة الامور التجارية ومعاطات اسبابها ومعرفة ظروف الحال فكانوا يفوزون في اكثر مشروعاتهم ويربحون وكانوا يختبرون الاشغال قبل الشروع فيها فاصبح كسبهم كثيرًا . وضرب المثل بتجارتهم وامانتها اما هيئة تجارة تلك القرون فتحاكي هيئة تجارة عصرنا من حيث المعاملة ذلك ان المتمدنين كانوا يعاملون امثالهم بتجارة عادلة يكون ربحها وخسرانها تبعًا للظروف . واما معاملة المتمدنين لغيرهم فما هي الا سلب ونهب لانهم يبدلون البخس من متاع المتمدن بالثمين من غيرهِ وعليهِ كان الفينيقيون يأتون باصناف دنية بخسة الثمن كالخزف اليوناني وغيره ويبدلونهُ بالعاج الفاخر من افريقية على انهم كانوا يتجرون بعدل مع اليونان والمصريين والاشوريين لانهم كانوا يماثلونهم في التمدن لكن تجارتهم مع هولاء لم تكن بلا

ربح انما ربحها خالٍ من الغبن والغرر

وبلغت التجارة الفينيقية شأو الكمال في عصر نبوخذ نصر ملك بابل واتسعت صلات اربابها فكانت سفنهم تخترق البحار وقوافلهم تجوب البراري طلباً لازدياد الثروة التي كانت تصب في خزائنهم شآبيبها المتدفقة فطمحت عين ذلك الملك الى الاستيلاء على البلاد ونادى بالاهبة على فينيقية فعبى جيشاً عظيماً متمنياً امكان فوزهِ على موارد الثروة والغنى لكن مساعيهِ قد حبطت وآمالهُ قد خابت كما سترى في مجرى التاريخ ولبثت فينيقية تتقدم في تجارتها وتزهو بغناها حتى اعجبت حزقيال النبي فتنبا عن خرابها بعد ان احسن وصف تجارتها وزهائها

ومن امعن النظر بنبوة حزقيال يرى ان تجارة الفينيقيين قد عمت كل الارض المعروفة فكانوا يتصلون بالهند بواسطة خليجي العرب والعجم وشطوط افريقيا وكانت مراكبهم تسير شمالاً حتى حدود سيسيا المتجمدة . واجتازوا بوغاز جبل طارق وكان معروفاً باسم اعمدة هركيل وساروا حتى الجزر البريتانية لاستجلاب التنك ولا نعلم اذا كانوا قد تجاوزوا الجزر المذكورة وتبطنوا البلطيق لياتوا بالكهرباء لكن حزقيال لم يذكر شيئاً عن سفرهم في الاتلانتيك واما في افريقيا فانهم قطعوا حدود صحرائها الكبرى واتوا الساحل الغربي من القارة حيثما اكتشفوا احدى مقاطعتي كناريا فكان ذلك مصدراً لشيوع خرافة بوجود جزيرة المباركين . وبما ان حزقيال قد ذكر محالَّ كثيرة كانت تتجر مع الفينيقيين فقد قسمها الكتاب المتاخرون الى ستة اقسام ايضاحاً لملاحظاتهم على كل قسم منها فآثرنا تلخيص مقالهم عنها ابتغاء الوقوف على دقائق تجارة الفينيقيين وهي . اولاً البحر الاحمر فان على سواحل هذا البحر قبائل الادوميين والمديين والسابانيين والنابوتيين وكلهم تجار يتسابقون الى الكسب وقد زعم بعض القوم انهم لاشتغالهم في التجارة ربما كانوا لا يسمحون الفينيقيين بمعاطاتها معهم والحال ان ما اتصل اليهِ الفينيقيون لم يبلغهُ سواهم

وانهم وان منعهم بعض الناس فلا غنى عنهم ولا عن بضائعهم الفاخرة لان صور كانت محط رحال القوافل الشرقية الواردة اليها من الداخلية والصادرة بضاعتها في السفن الفينيقية الى اقاصي البحار المعروفة . اما قوافل ارابيافيلكس وهي بلاد العرب السعيدة فكانت تاتي ليوك كوم من ثغور البحر الاحمر ومنها تاتي باترا عاصمة الادوميين ثم فينيقية وكذا كان يرد الى باترا حاصلات الاقاليم التي على خليج العجم مع مصنوعاتها

قال اريان بل كان يرد اليها من الهند واقصى بلاد المشرق وكانت هذه البضائع في ايام استرابو ترسل من باترا الى رين كولورا وهي العريش الواقعة عند منتهى القفر بين مصر وفلسطين ومن ثم كانت تنقلها مراكب الفينيقيين الى الاسكندرية على انها كانت تتوزع قبل تخطيط الاسكندرية الى محال كثيرة تسير بها اليها سفن الفينيقيين وربما كانت تصدر ايضاً من مين غزة وعسقلان وازوتس اي اشدود . وقال استرابو ان الفينيقيين كانوا ياتون من ثغور اريثرا اي الاوقيانوس الهندي بالطيوب على انها من حاصلات بلاد العرب وكان في تلك الانحاء وخصوصاً بلاد الصابئيين انهر يوجد الذهب مختلطاً برمال مجراها وهذا غريب لانه حتى الان لم يعرف معدن ذهب هنالك ولا نعلم ان كانت تلك البلاد التي لقبها الرومان بالسعيدة تنال حظها باكتشاف ذياك المعدن بعد ان تصبح داخليتها معروفة

قال استرابو ان كثيرين من التجار كانوا ياتون بلاد العرب ببضائعهم ليتجروا فيها ويشتروا منها المعادن الثمينة والذهب وكان اهلوها يحرصون على ماهم منها مشابهين في ذلك الصينيين والهنود . ذلك انهم كانوا يابون التجارة والتبادل مطلقاً كانهم يكتفون بما عندهم من محصولات اراضيهم ونتاجها غير عاملين على زيادتها وادخار ما يكسبون قال كاترك احد المؤرخين المتأخرين ان بيوت الصابئين كانت ملآنة بالاثاث والانية الذهبية والفضية الثمينة جداً وكانت ابواب تلك الدور وجدرانها وسقوفها مرصعة بالعاج والذهب

والحجارة الثمينة اه . وبالاجمال فان غنى بلاد العرب واشتهار ثروتها حمل الرومان في زمن اوغسطس قيصر على ان يجردوا جيوشهم الجرارة مومّلين فتح بلاد يجنون من كنوزها اعظم الفوائد واجزل الارباح لكنهم ارتدوا خائبين. ولا نشك ان الفينيقيين المتطلبين التجارة في كل الاصقاع الرائجة تجارتها لم يهملوا سواحل باب المندب حيث يسكن الاسماعيليون اليوم لان تلك الارض خصبة كثيرة الخيرات وكان القوم يظنون قديمًا ان قرفة بلاد العرب وافريقية فاخرة جدًا غير ان علماء النبات المتأخرين اثبتوا ان قرفة الهند احسن منها كثيرًا . واما ددان فان كانت هي الجزيرة الواقعة في خليج فارس فيغلب على الظن ان العاج المذكور ورودهُ منها انما هو من واردات الهند على ان المنسوجات القطنية كانت من الهند ايضًا وهي مشهورة بحسنها ودقتها على ان مصرًا اضارعتها في جمال صنعتها ولطفها . وقال بليني ان في جزر الخليج العجمي قطنًا فاخرًا يحسن نسيجهُ واصطناعهُ اكثر مما في الهند فلا يبعد والحالة هذه ان يكون النسيج الوارد منها من صنعها

ثانيًا مصر قال حزقيال النبي انهم كانوا ياتون منها بالكتان المزركش وقال اشعيا ان الذرة كانت كثيرة عند المصريين حتى انها كانت تعيل كثيرين منهم وان فيضان النيل كان يزيدها اقبالاً وامتدت التجارة بين المصريين والفينيقيين امتدادًا عظيماً ولا عجب في ذلك لان البلدين يحتاجان بعضهما لعلة الجوار . قال هيرودوتس كان ابتداء تجارة الفينيقيين نقل بضائع اشور ومصر . وقال في محل آخر ان فينيقية كانت ترسل خمرًا الى مصر فالظاهر ان كثرة هياكل مصر الزمتها استجلاب الخمور والزيوت والاطياب من جارتها تاجرة الامم وسيدة البحار . وكان في ممفس نزلة فينيقية كان قومها يعيشون منفردين عن المصريين يمارسون عوائدهم وطقوس عباداتهم وهم متمايدون على انهُ لا يبعد كونهم انما نزلوا للتجارة والكسب كما كان يفعل قومهم في محال اخرى . اما زمان حلولهم فغير معروف تمامًا على ان هيرودوتس يقول في كتابهِ

(٣-١٥٤ ان اليونان كانوا اول الغرباء الذين نزلوا مصر فبناء عليه يمكنا تخمين زمن نزول الفينيقيين هنالك ذلك انهم لم يكونوا قبل حكم بساماتيكوس (جلس على سرير مصر ثلث ملوك من العائلة السادسة والعشرين اسمهم بساماتيكوس ولكن ربما كان المقصود الاول منهم) ثالثًا ميسوبوتاميا المعروفة فيما بين النهرين وسوريا العليا فان كثيرًا من حاصلات الهند والعرب وبلاد فارس كانت تاتي فينيقية مارة بذينك الموضعين واهاليهما يومئذ من قبائل البادية الرحل وراى نبوخذ نصر ملك اشور اتساع القفر وكثرة اللصوص فيه مما كان يضر بالتجارة فاصدر امره لابناء مدينة تبريدون بجوار موقع مدينة البصرى الحالية. قال ايسبوس انه حصنها ليدفع عنها غارات البدو الكثيرين الذين كانوا يحيطون بها. وزكى استرابو روايته اما حزقيال فدعى هذا الاقليم بلادًا تجارية وقال ان بابل مجمع التجار ومحط رحالهم وكانت بابل تتصل بالدجلة بواسطة قناة على ان سائر المدن التي هنالك كان موقعها على ذات الضفة

وبنى سليمان الحكيم ملك اسرائيل مدينة تدمر (بلميرا) ابتغاء تسهيل التجارة وتامين السابلة وفي رواية اخرى ان سليمان لم يبن تدمر لكنه رممها واصلح شؤونها فكانت محطة للتجارة والسابلة الداخلين فينيقية لبضائعهم واموالهم والخارجين منها وكان يمر فيها من منسوجات الكلدان واشور وما بين النهرين ومن نتاج صنائعهم الاخرى وخصوصًا زركاش بابل المختلف الالوان ما ياتي صور للتجارة فيزيد سوقها رواجًا (رواه بليني في تاريخه ٨-٤٨-٧٤) فقد انبانا سفر ناحوم باشتهار تجارة نينوى وكثرة عديد تجارها وفي روايات اخرى انه كان يرد الى فينيقية ملابس ثمينة من ارض شنيعار قبل ان ذلك لم يدخل فلسطين حتى رجوع الاسرائيليين من الجلاء وان تلك الملابس كانت مذهبة من اطرافها وقد حسبت من افخر غنائم عاي

وكانت دمشق الشام تاتي بالخمر الجيد اللذيذ الطعم من حلب وبالصوف الفاخر من سهول ما بين النهرين وبالمنسوجات من صور ولا مشاحة في هذا

لما يُعهد في سوريا من كثرة الماشية والانعام . وكانت تتجر منذ زمن طويل مع مدن فينيقية الجنوبيّة وكانت حاصلات صور قليلةً لا تكفي مؤونة شعبها وزوّارها الكثيرين الذين كانت تزدحم اقدامهم فيها طلبًا للمتجر على ان الاغنياء منهم كانوا ياتون بلوازمهم من المحال البعيدة حتى روى بعضهم ان ملوك الفينيقيين كانوا يرسلون سفنهم لتاتي لهم بالذرة من اشسع الاقطار بعدًا . وقال سرفيوس المؤرخ ان الصوريين والصيدونيين كانوا يسرعون الى مصالحة هيرودوس لان مونتهم من الذرة كانت من بلاد الجليل التي تخصهُ اه

وكانت اليهودية ترسل اليهم افخر محصولاتها واحسنها من قمح وعسل وزيت وبلسم وكان العرب يترددون على تلك الانحاء بقطعان الغنم والماعز ليذبحها الفينيقيون لاكلهم ولمعبوداتهم

رابعًا ارمينيا كان الارمن يأتون فينيقية بالوف من الخيل والبغال للركوب والمركبات حيث لم يكن منها في فلسطين وغيرها من بلاد سوريا . وفي زمن سليمان الملك كانت مصر كثيرة الخيول حتى صاروا يأتون بها منها وقد احضر سليمان منها عديدًا وبدأ يتجَّر بها مع السوريين وملوك كنعان وربما كان مع الفينيقيين النازلين قبرص ايضًا لانهُ نُصَّ في الكتاب ان سليمان اذلّ ملوك قبرص حتى صاروا لا يقدرون على مشترى مركبات ثمينة على ان صور لم تكن تحتاج الى مركبات حربية او فرسان لانها كانت دولة بحرية لا حاجة لها بالجهاز برًّا لكن لا ريب في استخدام كبارها واعيانها الخيول والمركبات للتنزه والفخفخة . وكان اليونان ياتونها بالعبيد والاماء على انهم كانوا يخطفونهم من قوم اخرين يكونون ذاهبين بهم ليبيعوهم اما الفينيقيون فكانوا يخطفون اليهود ويعطونهم لليونان بدلاً ممن ياخذون ولهذا تهددهم النبي بالوعيد الالهي فلم يرعوا بل زادوا في شرهم وضرهم واخذوا يخطفون اليهود ويعطونهم للادوميين والصابئيين بدلاً من حاصلات بلاد العرب

وكان في ارمينيا معدن كبير من النحاس فكان الارمن يستخرجونهُ للتجارة

وفي الكتاب ان داود النبي اخذ كمية من النحاس الاصفر من ملك زوبا كضريبة وهذا الملك من ملوك ما بين النهرين وكانوا يصطنعون من النحاس الاصفر في ارز روم وطوقات انية مختلفة الحجوم والالوان ويبعثون بها الى بلاد كثيرة وانا لنعجب كيف ان الكتاب لم يذكر شيئًا عن وجود معدن الحديد في ارمينيا مع انهُ كان يسكنها الكلبيّون وهم اول من طرق حديدًا فالظاهر ان ما حمل النبي على السكوت عنهُ انما هو عدم اتيان الفينيقيين به الى بلادهم لان عندهم معدنًا غيره . وقد سكت حزقيال ايضًا عن صلة الفينيقيين مع شرقي الاوكسين اي البحر الاسود مع ان لا ريب في وصول سفنهم الى تلك الثغور

قال المورخ لانورمان ما ملخصهُ ان التنك كان من لوازم الصناعة في الاجيال الاولى ولم يكن منهُ في جوار فينيقية فكان الفينيقيون والمصريون يلتزمون باستحضاره من القوقاس او من بلاد الهند ولم تكن يومئذٍ الملاحة ولا تجارة البحر فكانوا يأتون ببضائعهم على القوافل فتمر هذه مخترقة اسيا الوسطى حيث لم يكن قد طرقها التمدن ولا قامت فيها دولة قادرة على تامين السابلة وترويج التجارة فاصبحت القوافل معرضة لخطر عظيم وفضلاً عن ذلك لما كان المصريون في ايام دولة الرعاة والصيدونيون في زهاء دولتهم كانت الدولة الكلدانية الاولى قد اسست عرشها بالقوة ومدت احكامها بين الفرات والدجلة فاصبحت دولة قادرة كان من اهم امورها ان تتعاطى تجارة التنك الذى كان يمر في بلادها وكان ملوك بابل يحكمون اشور وقد داخلهم الحسد من سوريا ومصر فمنعوا المرور ببلادهم الا بضريبة وانف الكنعانيون والمصريون الرضوخ لهذا المنع فساروا يطلبون ما يريدون في البحر حيث لا يعارضهم منازع واغتنم الصيدونيون فرصة هذه الحركة السياسية فداروا مراكبهم نحو ثغور الاوكسين اي البحر الاسود وبدأُوا يأتون منهُ بالمعدن لبلادهم وللمصريين وغيرهم وبعد هذا باجيال تقوى البلاسجيون في البحر فاصبح سفر الارخبيل محفوفًا بالمخاطر فساروا يطلبون التنك من اسبانيا ويأتون به الى اليونان وايطاليا

وظلوا في اتجارهم به حتى نضبت مواردهُ من اسبانيا او كادت فساروا في الاوقيانوس عابرين اعمدة هركيل حتى جاءوا الجزر البريطانية اه

وكانت التجارة رائجة بين الفينيقيين واليونان رواجًا عظيماً وشاهد ذلك وجود كتابة فينيقية على ناووس لامراة من بزنطية وذلك في بلاد اثينا مما يدل على وصول الفينيقيين بالتجارة الى قلب اليونان وزد على ذلك ان اليونان قد اخذوا عن اللغة الفينيقية اسماء كثيرة لاصناف تجارية وبعض فروع الموسيقى غير العارفيها قبل دخولها من المشرق ذلك ما دلَّ صراحةً على صلة القومين اما سفن الفينيقيين فكانت تتردد منتظمةً الى ثغور اليونان وذلك في ايام سقراط فكان انتظامها وحسن صنعها وترتيبها مما يدهش العقول. خامسًا طرطسوس وهي من بلاد اسبانيا ويسميها الكتاب ترشيش كانت ذات خصب وغنى وافر بالمعادن كالفضة والحديد والتنك والقصدير مما لم يكن منهُ في فينيقية (عدا الحديد فانهُ موجود فيها) فكان الفينيقيون يتجرون معها وياخذون من معادنها ويأتون اسواقهم بها وقال استرابو ان تذويب المعادن لم يعرف الا في هذه البلاد اولاً وروي ان الفينيقيين لم يقتصروا على اخذ التنك من ترشيش لكنهم امتدوا حتى الجزر البريطانية لياتوا منها بذلك الصنف حيثما مروا على اسبانيا والبورتكال على انا نجهل زمان سفرتهم الاولى ولا نعرف عنها غير اسم ميداكريتوس اول من اتى بهِ

ويوكد كثيرون من ثقاة المورخين وصول الفينيقيين الى الجزر البريطانية ومعاطاتهم مع اهلها زاعمين ان الابراج المستديرة المعروفة عند الاهلين (رَوند نَورس) انما هي من بناء الفينيقيين لكن احد كتّاب الانكليز المتاخرين نشر كتاباً يدحض فيهِ راى من قال ببناء الفينيقيين تلك الابراج لانهم انما كانوا ياتون البلاد للتجارة لا للبناء والعمار

اما الكهرباء فقد زعم بعضهم باتجار الفينيقيين فيها ودحض اخرون رايهم زاعمين انها لم تكن معروفة منهم يومئذ لان كل الامم السالفة خلا الاتروريين

وبعض الايطاليان الجنوبيين لم يكونوا يعرفونها لكن هوميروس اليوناني وصف عقدًا من الكهرباء وجد مثالهُ في ناووس قديم في قابر وعليهِ ما انفكَّ المورخون في حيرة لا يستطيعون ان يبتوا حكماً جازمًا وعلى الخصوص لان الفينيقيين كانوا يصطنعون عقودًا من الكهرباء غير انهُ لا يعرف ان كانت من الجنس المذكور ام من غيره والظاهر انها كانت معروفة في بلاد اليونان حتى ان ثالس الفيلسوف اليوناني كان يدلك قطعة منها على خشنٍ فسقطت منهُ الى الارض والتقطت بعض الهباء ثم اندفعت عنها فعرفت منها مادة الكهربائية وكان اكتشافها اسًّا لاختراعات رفعت منار عصرنا التاسع عشر

سادسًا كان الفينيقيون يتجرون في موريتانيا وكان تجارهم يقتفون آثارهم على انهم كانوا يعاملون الايثوبيين او الحبشة ويشترون منهم جلود الوعول والاسود والحيوانات الاهلية وجلود الفيلة واسنانها اي العاج وكان هذا كثيرًا عندهم وهم يصطنعون منهُ آنية للشراب وتتخذه نساؤهم لحليهنَّ فيصنعن منهُ الدمالج وغيرها وكان الايثوبيون مولعين بالخمر مكثرين من شرابهِ ولذلك كان الفينيقيون ياتون بهِ اليهم ويبيعونهم منهُ كثيرًا حتى انهم جاءوهم بالكرم فغرسوهُ عندهم وعصروا منهُ خمرًا

وبالاجمال فان التجارة الفينيقية كانت ذات رواج واتساع عظيم لم يُعهد في امة من امم تلك العصور لانها عمت الاقطار المعروفة وواصلت الامم المختلفة المشارب والعادات ورست سفنها في اكثر مين الدنيا لا جرم انها احرزت بذلك غنى جزيلاً ومجدًا اثيلاً ولم يكن بنوها كسالى لان من لم يكن منهم تاجرًا او نوتيًا او صانعًا او غير ذلك كان نوتيجرًا يحمل بضاعتهُ ويطوف بها

الفصل العاشر

في سلك البحار

قلنا ان الفينيقيين ولعوا ولعًا شديدًا بالبحر وتعودوا جوارهُ والسفر فيهِ فالانتفاع بهِ حتى صاروا امة عزيزة اسست فخارها على الجد والكد واحرزت

من قصبات التقدم والغنى ما حسدتها عليهِ سائر الامم فاخذت سفنهم تزداد عددًا وقوة ونظامًا حتى كانت الاولى بين سفن العالم قال اكسانيفون انهُ اذ سافر بسفينة فينيقية راى من نظام نوتيتها ما اعجبهُ فان كل شيءٍ كان مرتبًا ترتيبًا مدهشًا حتى انهُ كان لكل شيءٍ موضع مخصوص يتولج ادارتهُ وترتيبهُ احد النوتية فسال اكسانيفون النوتي عن شدة اعتنائهِ فاجابهُ انا الان قادرون على الترتيب ووضع كل شيء في محلهِ حتى اذا عصفت الريح لا نرتبك في امورنا فسر اكسانيفون بجوابهِ واصابة عملهم واثنى عليهم

وكانت سوريا صالحةً لبناء السفن وجهازها لان لبنان وقبرص كانا ملآنين من الاحراش والاشجار الصالحة للبناء فكثرت السفن وتنوعت وكان منها ذات ثلاث طبقات ومنها ذات اكثر او اقل بعضها حربية ومنها تجارية وقرصانية وكانت اثينا من اعظم الدول بحرًا لكنها لم تبلغ فيهِ مبلغ فينيقية ولا ادركت شأوَ نجاحها ومع ان الفينيقيين كانوا غير ماهرين بعلم الفلك كالبابليين والمصريين كانت معرفة تلك العلة مفيدة لهم حيثما استخدموها فاخترعوا علم سلك البحار فلا يجحد العالم فضلهم فيهِ ولا يسع السالفون نكران جميلهم لانهم اكتشفوا محال كثيرة كانت تتمة لعلم رسم الارض يومئذ على انهم عرفوا بخروجهم الى ما وراء اعمدة هركيل حقيقة المدّ والجزر فأوضحوها حيث لم تكن معروفة في المتوسط وادركوا خاصيةَ القمر وتاثيرهُ بالربع وبالمدّ والجزر لكنهم غلطوا بما قالوهُ عن تعلق الشمس بذلك

الفصل الحادي عشر

صناعة الفينيقيين

بينما كانت امم العالم تنزل ميادين القتال طلبًا للشهرة والفخر فتسقط تارةً وتقدم اخرى كان الفينيقيون يسيرون في سبل النجاح لكن لا بسفك الدماء وخراب العمران ودثار الثروة بل بالقيام بما يزيد الرفاه والامن والغنى فقد سبق فذكرنا منزلتهم من التجارة وغيرها على انا لم نحصِ بذكرها كل موارد

غناهم فانهم كانوا من الصنّاع الماهرين او ان شئت فقل من الذين يعرفون ان الصناعة روح البلاد ومورد غناها وانها اذا قُرنت بالزراعة والتجارة صارت واياها ينبوع غنى وثروة ونجاح وكان من حظهم انهم عرفوا بالصدفة بوجود لون ارجواني في صدف كان يوجد على شاطيء البحر من حيفا حتى صور وفي بعض الشطوط اليونانية فكانوا يستخرجونهُ ويصبغون بهِ الارجوان المشهور عنهم وكانوا يستعينون احيانًا بنبات من بلاد العرب لونهُ كالارجوان الفينيقي ومهر الفينيقيون بالصباغ على انواعهِ وكان عندهم من موادهِ الحناء والدودة اما الفوَّة فكانوا يأتون بها من مصر وكانت عامة الفينيقيين تلبس ثيابًا صوفيَّة مصبوغة كانت بعض الاديان تحرم لبسها واما ارديتهم فمن صوف غير مصبوغ ولكن اعيانهم كانوا يلبسون الملابس الارجوانية الفاخرة المزخرفة بالالوان الجميلة جدًّا على ان افخرها القرمزي قال كثيرون من المورخين ان كرنيلوس نيبوس كان يلبس اردية من صنع الفينيقيين لم يكن ثمن الاوقية منها اقل من خمسين دينارًا وكان كثيرون من الملوك والحكام وخدمة الدين يلبسون من تلك الاقمشة الفاخرة وحيث لم تكن تنسج الا في فينيقية كان سوقها رائجًا ونتاجها حسنًا

اما زمن اكتشاف الارجوان ففيهِ خلاف قال بعض المورخين ان كلب هركيل هو الذي اكتشفهُ على شاطيء صور ومع ان هوميروس ذكر ان من نتاج صيدا المنسوجات الحريرية والنحاس لم يشر الى اللون الارجواني فاستدل الناس على ان وجودهُ كان ايان ازدهاء صور اما الحرير فكان قليلاً جدًّا ولم يكن يدخل اليونان وسائر المغرب الا ليُباع بثقلهِ ذهبًا ولم يكن من يلبس رداءً حريريًا ارجوانيًا الا القليلون من الملوك وذلك لعلو ثمنهِ قيل ان احد قياصرة رومية رفض ما طلبتهُ اليهِ امراتهُ من ان تلبس رداءً حريريًا ارجوانيًا لان ذلك يكلف الدولة مالاً كثيرًا واغسطس قيصر الروماني اصدر امرًا مشددًا بمنع لبس هذه الاردية توفيرًا على الامة وتخفيفًا لاثقالها فلم ينل كل المرام ولذلك طرح طيباريوس قيصر عنهُ رداءهُ ابتغاء ان يتبع الرومان

زينة فيوفر عليهم مالاً كثيرًا واما نيرون فحتم ان لا يباع منهُ في كل يوم الا بضعة اواق لكنهُ راى ذات مرَّة ان امراةً قد لبست منهُ رداء كاملاً فاغضبهُ ذلك وامر باخراجها من حضرتهِ وبالحجز على امتعتها بيد انهُ بعد وفاة هولآء القياصرة اقام بعض خلفائهم معامل على حسابهم في انحاء من البلاد ليكثر عندهم هذا النسيج الفاخر لكنهُ مع امتدادهِ وكثرتهِ كان ما ينسج في صور افخر مما يصنع في غيرها حتى ان القياصرة والملوك والاعيان كانوا لا يلبسون الا منهُ

وبعد ذلك جاء تجار من بلاد الفرس ومعهم دود الحرير فوزعوهُ في بيروت وصور واصطنعوا منهُ حريرًا فنسجوهُ وصبغوهُ واخذوا يتجرون فيهِ فيربحون غير ان ذلك كدر القياصرة الرومان لانهُ يضر بنتاج معاملهم فاصدروا امرًا بحصر بيعهِ عند افراد من التجار لكنهم لم يقدروا على حطة شانهِ ومنع امتدادهِ لان ملوك القسطنطينية صارت تلبس منهُ لزهاء لونهِ وجمال صنعتهِ واتقانها وما فتيء ذلك لباسهم حتى سقطت دولتهم

ولم تكن صيدا اقل من صور اقدامًا ونشاطًا على انها بارتها في الصناعة فلم تدعها تسبقها في النجاح والاثراء لان بنيها عرفوا صناعة الزجاج فمهروا فيها كل المهارة واما اكتشافهم تلك الصناعة فقد قال قوم انهُ كان بالصدفة وروى بليني المورخ انهُ بينما كان بعض من التجار اتين سوريا بالقلي لصنع الصابون حلّوا في الرمل (ان في ذلك الجوار رملاً ابيض نظيفًا جدًّا لا يخالطهُ تراب ولا مادة غريبة) ولحاجة لزمهم حجر ولم يكن على الرمل حجارة فاتخذوا من القلي ما يريدون فاذابت حرارة الشمس على الرمل ذلك الغرض وجرى القلي على الرمل فامتزج بهِ وصار مجراهُ زجاجًا اه

بيد ان المتاخرين يقولون انهم يدحضون راي من زعم بايجاد الزجاج صدفة ويؤكدون كونهُ اتى الفينيقيين من مصر حيثما تكثر الرمال والقلي كثرة عظيمة واما تذويب الزجاج فيظهر انهُ من زمن بني حسان الذين كانوا منذ ٢٥٠٠ سنة لانهُ لم تزل حتى الان قطعة من الزجاج عليها اسم سيذورتسن

وهو الاول من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية وقد ابتدات دولتهُ سنة ٣٠٢٠ ق م وبما ان هذهِ الرواية لاتذكر تاريخًا لصنعتهِ ولم ينبيء الكتاب عنها فيغلب على الظن انهُ من عصرٍ متأخر وان المصريين عرفوهُ منذ حين . ولقد زعم الكثيرون ان القدماء لم يصلوا الى درجة الكمال في اتقان زجاجهم على ان اكتشافات بمباي الاخيرة وغيرها قد اوضحت انهُ ولئن كان الاورباويون قد سبقوهم في سرعة العمل والاكثار ورخص الثمن الا انهم لم يزلوا دونهم كثيرًا بجمال المادة ومتانتها ونقشها وتقدم الاورباويون بصنعهِ تقدمًا عظيمًا من حيث استعمالهُ كيف شاؤا اما الفينيقيون فكانوا يمزجونهُ بشيء من المغناطيس فيزداد نقاوة ويستخدمونهُ للترصيع وكانوا يحفرونهُ ويلونونهُ الوانًا كثيرة

قال هيرودوتس ان في هيكل هركيل في صور عمودًا من زمرد نقي كان يضيء الليل بلمعان شديد لكن بعض المدققين يظنون انهُ من الزجاج الاخضر مثقوب وفي وسطهِ مصباح دائم الاشتعال والظاهر ان شهرة الصيدونيين بعمل الزجاج كانت قد انحطت في عصر بليني فاشتهر الاسكندريون بصنع الزجاج الابيض النقي ثم تلاهم في الشهرة الايطاليان والغاليون اي الفرنساويون والاسبانيوليون وزهت الصناعة وراج سوقها حتى بلغت اسعارها حدًا عظيمًا ذلك ان نيرون اشترى زوجًا من الانية بمبلغ ٦٠٠٠ الف قطعة سيسترسيس اي نحو ٤٥٠٠ ليرا انكليزية

وكانت صيدا ايضًا بالغةً مبلغًا عظيمًا بصناعة النقش والحفر وصب الذهب والفضة لكن كرور الايام قد ذهبت بالاثار التي يمكن لنا ان نتحقق هذه القضية منها ولم يبقِ لنا الزمن غير روايات المورخين فان سليمان ملك اسرائيل ارسل الى حيرام ملك صور ان ابعث اليَّ بفعلة من رجالك فارسل اليهِ قومًا من الحفَّارين والنقَّاشين المشتهرين بحفر الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والحجارة الكريمة وصباغة الارجوان والاسمانجوني وقال هوميروس بمثل

ذلك واتقن الصيدونيون الصناعة وهي دخيلة اليهم من مصر. والظاهر ان حيرام اقام اعمدةً ذهبية في هيكل جوبتير الصوري من صنع ابناء وطنهِ وقد وجدت قطعة من مصكوكات قبرس القديمة وعليها صورة عمودين امام هيكل فينوس الفينيقيّة واشتهر الفينيقيون عدا ما تقدم باصطناع الطيوب والروائح الزكية وخصوصاً من الزنبق والحناء

الفصل الثاني عشر

حكومة الفينيقيين

كانت دول فينيقيةً ملكية ابدًا قال استرابو ان حكومة الارواديين ملكية كسائر دول الفينيقيين اما ملوكهم فوطنيون ولما اتى الاسرائيليون البلاد كانت حكومات الفينيقيين كثيرة متعددة على ان كل بلدة صغيرة مع جوارها كانت تتألف دولة مستقلة يسوسها ملك وطني الا ان هذه المدن كانت متحدة للذب عن الذمار اذا دعت الضرورة الى ذلك قيل ان بعضًا من ملوكها كانوا يقبضون على صولجان الملك وعلى الرئاسة الدينية معًا كملشيصادق مثلاً فانهُ كان ملكًا لسالم ورئيس احبارها لكن التاريخ لم يذكر لنا عن ذلك شيئًا

اما الكتاب المقدس فمن روايتهِ ان دول فينيقية ظلت ملكيَّة كل زمان خضوعهم لسيادة الدولة الفارسية قال لا نورمان وكان الحويُّون على غير مذهب ابناء جلدتهم الكنعانيين ذلك ان مدنهم لم تعنُ لولاة يلقبون ملوكًا بل انهم كانوا متمتعين بحرية وطنية تامة من شأنها ادارة البلاد على نظام جمهوري اه. ويتضح لنا من سلسلة تاريخ ملوكهم انهم كانوا يتبوأُون اسرَّة الملك بالارث لكنهُ كان لا يسمح بقيام واحد منهم ما لم ترضَ بهِ امتهُ وكان للامة الحق بانتخاب خليفةٍ للعرش اذا بات فارغًا وكان في صيدا وصور وبعض الاماكن الكبرى قوم من الاريستوكرات اي حزب الاعيان على انهم كانوا اشدّ بأسًا في فلسطين ولذلك كانت حكومتها في قبضتهم وقد ذكر لنا التاريخ طرفًا من اخبار ساداتهم وكبارهم على انا لم نسمع بملكٍ لهم الا في كاث وهي بلدة في الداخلية

لم تبلغ فيها التجارة مبلغها في الشاطئ وكان تجار بعض تلك المدائن قد اثروا ثراء عظيماً حتى صاروا كالامراء نفوذاً واقتداراً ولعل الاعيان المارّ ذكرهم كانوا من سلالة بعض الملوك القدماء الذين لم ينل اباؤهم من الملك حظهم

ولنا في وجود حزب الاعيان دليل واضح ذلك ما كان عن سفر ديدو الى افريقية بقوم من الاعيان حيثما ابتنت مدينة قرطجنة فان سفرها معهم دليل وجودهم اما عداوتهم للملك وخروجهم من ملكه لعار غيره فدليل نفوذهم واقتدارهم على انهم كانوا يكرهون من بيكماليون قسوته فهربوا باغراء اخته ديدو المار ذكرها واشادوا مدينة قرطجنة وقد افادنا التاريخ ان الهاربين كانوا من عظماء رجال الدولة ومن اعضاء مجلسها العالي وكبار اصحاب الثروة والجاه والظاهر ان السبب في بغضائهم للملك بيكماليون انه كان مختار الامة ومنتخبها فأُقيم حاكماً مستقلاً عن مقاصد الاعيان متخذاً سياسة التحايد ومبداء الحكم الجمهوري على انه افاض في اعنات الاعيان وعوضاً عن ان تكون حكومته هادمةً للظلم بردع الكبار عن تماديهم كان يظلمهم ويسلبهم ويعنتهم كان مقصده انما هو اذلالهم فكرهوا منه ذلك ورغبوا في الابتعاد عنه والتصقوا باخته المظلومة فساروا معها الى افريقية

فلما نشأت مدينة قرطجنة كانت نظاماتها على المبداء الديموكراتي اي حكم العموم مثل نظامات صور ولكن اريستوتول يقول ان نظاماتها قد تغيّرت فصارت اريستوكراتيك لكن الاقرب ان ابتداء حكومتها كان على المبدا السيادي اي الاريستوكراتي ومن ثم تغيرت الى ديموكراتي اي جمهوري بعكس ما روى اريستوتول واما صور فكانت اذا خلا عرشها تختار قضاةً وعمالاً للقبض على مهام حكومتهم ولكن مصلحتهم لم تكن بالارث كالملكية وعلى هذا النمط كانت حكومة الاسرائيليين قبل زمن شاول على ان اولئك القضاة لم يكونوا مختاري الشعب بل كانوا يُقلدون المصلحة مكافاة لهم عن خدامات سالفة وكان القرطاجنيون يقيمون مامورين كبيرين في حكومتهم يسمونهما

سوفانس ينتخبان من بين جمهور كبير من الاعيان قال ليني ونقل موفرس عن الاثاران المدائن التي فتحتها قرطجنة او اسستها كتفادس ومدن شمال افريقيا كانت تقيم حكامها على نمطها ولا يخفى ان هذا النظام يقارب النظام الروماني بعد انقلاب السلطنة حيثما اقيم قنصلان لسياسة الاحكام وكان في قرطجنة مجلسان عاليان احدهما السناتو اي مجلس الشيوخ والثاني المجلس العالي وهو مشكل من نحو مائة عضو يقومون في وظائفهم بالانتخاب كقضاة يديرون بمساعدة المامورين اهم مصالح البلاد وعرفنا اسماء ثلاثين عضواً من السناتو الذين يتعاطون هذه المهام وعشرة من الذين ينوبون عنهم في السفارات المختلفة وبما انهُ يوجد شبهٌ تام بين حكومتي قرطجنة وصور فلا يبعد ان تكون حكومة صور تحت ادارةٍ كادارة قرطجنة وقد ذكر موفرس اقترابًا تامًا بين البلدين في هيئتهما ونظامهما على ان ما اتى بهِ من الادلة واهنٌ لا يركن اليهِ غير انا نظن ان النحلة تقتفي بالاكثر خطوات البلاد الاصلية وتتبع عاداتها ونظامها وكان اذا مات ملك ينهض الحزبان ويتناضلان على السلطة الى ان يفوز احدهما

ولما كانت حوادث سنة ١٢٠٩ ق م انتقلت الاهمية السياسيَّة من صيدا الى صور فبدا العصر الجديد لاحياء تاريخ الامة الفينيقية واعمالها واشهار اسمها لان معظم ايام صيدا كانت تحت نير الاجانب او ان شئت فقل تحت وسم الخضوع لهم حيث لم يكن للامة اسم يذكر سيما وان ملك صيدا كان لا يعرف الا الامة الصيدونية ولا يسم الشعب الا بها فلما لجأت بقايا الصيدونيين الى صور اجتمعت فيها كلمة الامة وصارت تلك المدينة محور السياسة كما كانت مذ امد قبل ذلك محورًا دينيًا تحج اليهِ الناس تبركًا بمقام معبودهم ملكارث المعروف عند اليونان بهركيل وظلت صور في عزها واشتهار امرها ابيَّة عن طارقيها حتى جاءها سر بوكين ملك اشور ذلك بعد مضي نحو خمسة اجيال من ابتداء زهائها

وحيث كان الكنعانيون قد انتشروا في اكثر انحاء البلاد وتبطَّنوها

كثر عدوهم من جوارهم فاصبحوا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر يلقون من مجاوريهم هجمات تترى تزعزع الجبال وتأتي اثرها بمصائب جمة كمجيء الاسرائيليين ثم الفلسطينيين وما فعلوهُ بصيدا وكاقتحام الاراميين حماه والانقضاض على بنيها واخضاعها ونزولهم بين الكنعانيين الساكنين لبنان والحثيين الساكنين جبل عمان وضفاف العاصي فقضى هذا التضييق على بقايا الكنعانيين بالسكنى في محال متقاربة وبالتحالف على السراء والضراء فكان من نتاج حالتهم قيام الامة الفينيقية المتالفة من السيماريين والسينيين والعرقيين سكان لبنان ومن اهل المدن الاخرى حتى عكاء

ولما نهضت المدن الكبيرة سيميرا وسيميرون وجبيل وبيروت وصيدا من انقاضها اخذت تحافظ على استقلالها الداخلي ونظام ادارتها الاول وكان لكل منها ندوة من اعيان بنيها المثرين تدبر مهامها وتنظر في امورها على ان مشورة خدمة الدين وبعض الاعيان والقضاة كانت ذات رعاية واعتبار لديهم وكان القضاة في المصاف الاول حيث كانوا يعيشون مع الملوك في احتفالاتهم العامة وينالون من لدنهم كل الالتفات سيما عند استشارتهم بالامور كارسالهم وفدًا الى صور محور سياسة امتهم وكان للكهان ايضًا منزلة عند الحكام الا اننا لا نعرف درجتها لكن اذا حكمنا عليها بما رايناهُ من بسطتهم في اليهودية قلنا انهم قوم قبضوا على كل السلطة والرّياسة وكانت نظامات جبيل مثالاً كاملاً لسائر الدول السلطانية المتزجة اصولها بحرية اريستوكراتية وكان كل ملوك المدائن يعترفون بسيادة ملك صور عليهم ويدعونهُ ملك الصيدونيين فيوخذ من ذلك ان ملك الصيدونيين غير ملك صيدا اقرارًا لهُ بالرئاسة عليهم والامارة فيهم وكانت بيدهِ ادارة كل الامور التي تعني الصالح العام كالتجارة والمهاجرة وغيرها وهو المكلف بعقد العهد مع الامم المسالمة وبسوق العساكر البرية والبحرية على المعادين او ردعها عنهم وكان لديهِ نواب من لدن الملوك المتحدين معهُ يساعدونهُ في اجراء المصالح وادارة المهام

ذلك لان الوفد السنوي لهيكل ملكارث اصبح باخذ شكلاً سياسيًا الاان الارواديين ظلوا منفصلين عن سائر اخوانهم لا يضمهم اليهم الا الحلفة العامة حيث ينتفعون من تجارة بعضهم وملاحتهم غير انهم كانوا لا يخضعون لسيادة صور كما رواهُ لانورمان

فكانت صور اذًا اول ثغور فينيقية واهم مبنها تجارةً وسياسةً وكان جلّ سكانها يتهنون في السفن او صناعتها بل انهم كانوا لا يكفونها فكانت رجال المدن الاخرى تتقاطر للدخول في الخدمة البحرية واما جيش البر فكان اكثره لحراسة التخول والانشاءَات التجارية وكان مؤلفًا من الاوباش المستاجرين وكان حراس صور نفسها من الارواديين وقد كتب النبي حزقيال كثيرًا بهذا الشان وكانت هذه الحلفة سببًا عظيمًا لنموصور وزيادة عمرانها ونقدمها الا انها لم تكن قادرة على العود الى التجارة في شمال البحر المتوسط لان نفوذ السفن الصيدونية كان قد خمد هنالك لاسيما في جزر الارخبيل عند ما نشأَت المحالفة البلاسجية والليبية فالتزم الصوريون حيئذ الى الاتجار والملاحة في جهة اخرى هي شمال افريقيا حيث كان الصيدونيون قدسبقوهم الى اشادة مراكز تجارية

وكانت ارض المالك الشرقية تختص بملوكهم فكانوا يستغلونها ويذخرون اموالها فيثرون اثراءً كبيرًا لان مصارفهم كانت قليلةً بالنسبة لدخلهم على انهم كانوا يهبون بعض املاكهم لمن يريدون من الاعيان اما الزارع فكان يحرث الارض ويعمل فيها لكنها ليست ملكهُ وانما يجب عليهِ اداء خمس حاصلاتها الى صاحب الملك سواء كان الملك نفسه او المعبد الموقوفة عليهِ او الشخص المنعم عليهِ بها وكان الشرقيون يعجبون من تملك حرّاث الاسرائيليين الارض التي يزرعونها واما الفينيقيون الساكنون سواحل البحر فكانت اراضيهم ضيقة ولذلك كان دخل ملوكهم من الزراعة قليلاً جدًا على ان التجارة كانت ينبوع ثروتهم مع رعاياهم واما ضيق الارض دون حراثتهم فناتج

عن كثرة الاهلين ومجاورة المالك لبعضها جوارًا قريبًا ورُوي انهُ لما راجت التجارة مع بني اسرائيل صار ملوكهم ياخذون رسمًا كبيرًا على الواردات فاثروا من ذلك ولا يبعد ان ملوك صيدا وصور وغيرها كانوا ياخذون رسمًا من البضائع الواردة على بلادهم و ورد ايضًا ان سليمان الملك عقد عهدًا تجاريًا مع الملك حيرام الفينيقي فارسل الاثنان تجارة الى اوفير ولعلَّ سليمان رغب المشاركة فيها لما راَهُ من تقدم الفينيقيين في التجارة والغنى على انهُ كان لسليمان دخل اخر ذلك ما كان يأخذهُ جزية من عمال اقاليمهِ من حماة عند العاصي حتى عريش مصر وكانت صيدا ايان ازدهاء دولتها تاخذ الجزية من بعض الممالك المستقلة فلما انتقلت سيادتها الى صور حذت هذه حذوها

وكانت بلاد كل واحدة منهما ضيقة فلم يكن لهما ان يستعملا فيها الى ان يقيما لها عمالاً وقيل ايضًا انهُ كان من عادتهم ان يقدم الاعيان منهم شيئًا الى ملوكهم

وفتح الاسرائيليون بلاد كنعان بالسيف واستعبدوا من تخلف فيها من قومها وضربوا الجزية على اخرين على انا نظن ان بعض قبائل الاسرائيليين المجاورين للفينيقيين كانوا يدفعون الجزية لجيرانهم الاشداء وربما كان منهم سبط يساكر لان هولاء كانوا يسكنون قطرًا مخصبًا وافر الخيرات لكنهُ غير حصين وقد اشتهروا بحكمتهم واصابة ارائهم اكثر من اشتهارهم بحبهم للصالح العام وبالبسالة على انهم ربما كانوا لا يستطيعون مدد قومهم لانهم لم يبعثوا اليهم نجدة ايان تملك داود

وكان للفينيقيين عبيد كثيرون الجأتهم الضرورة الى استخدامهم لان السادة الاحرار كانوا يصرفون اوقاتهم بالتجارة فلا يستطيعون والحالة هذه القيام بسائر الاعمال فكانوا يأتون بهم من انحاء العالم حتى كثروا وازدادوا وبلغوا عددًا عظيمًا وعلى الخصوص في صور حيثما كانوا يشتغلون بالصناعة والنسيج بينما ان سادتهم يتعاطون المتجر ولا يقدمون على الشاق من الاشغال

فاغتاظ العبيد وثاروا على مواليهم فقتلوا بعضاً ونفوا الباقين على ان هذه الحادثة غير معروفة الزمن والظاهر ان تباين الاصناف لم يكن معروفاً في فينيقية خلا صنف الكهنة الاسرائيليين وذلك لان اليهود يعبدون الله تعالى وحده وكانوا قد اخصوا لخدمة هيكله سبطاً مخصوصاً منهم يقيمون بطقوس عبادته تعالى في كل مكان وزمان واما سائر الامم الفينيقية فكانت تعبد معبودات كثيرة وكان لكل مدينة من مدنها اصنام مخصوصة على ان رئاسة خدمة تلك المعبودات كانت ذات اعتبار ونفوذ حتى انها كانت ميراثية وربما كان يقيم فيها اعضاء من العائلة الملوكية وكان لصاحبها في صور المحل الاول بعد الملك وكان عدد الكهنة الصغار كثيراً جداً غير انا نعجب كيف ان الفينيقيين كانوا يعتزلون اشغالهم لممارسة هذه المصلحة

انهُ ولئن تكن الولايات الفينيقية دولة واحدة كانت صيدا اولاً ثم صور رئيسة محالفتها وذلك يشبهُ في يومنا الدولة البروسيانية فانها رئيسة الاتحاد الالماني وقد نال ملكها الباسل خطة قيصرية المانيا محرزاً لدولته الرئاسة حال كون الدول المرؤوسة مستقلة في احكامها كل الاستقلال وكان صالح فينيقية يضم كل مدنها حلقة واحدة للقيام بالاعمال المهمة والذب عن الحقوق وكان للمدائن الثلث الكبيرة وهي صيدا وصور وارواد منتدىً يأتمرون فيه على صوالح امتهم ومهامها وذلك في مدينة طرابلوس التي ربما كان اسمها من كيانها منتدى لمدن ثلث ويغلب على الظن ان التئام ذلك المجلس كان بعد ان فتح نبوخذنصر فينيقية وكانت ارواد ذات تقدم ونجاح وسلطة ونفوذ حتى كانت تعادل فيها ما كان لصيدا وصور وعلى الخصوص في ايام ارتاكسرسيس مناموس واخوس وقال حزقيال انها كانت ترسل جنوداً الى صور واما طرابلوس فلا يعرف لها اسم قديم سابق لاسمها اليوناني (تري بولي) المشير الى انها من ثلاث مدن وكانت المدائن ترسل نوابها الى المجلس الذي فيها وكان اولئك النواب يحافظون على استقلال مدينتهم بان يقيموا في حي

منفرد عن الاخرين و يبعد عنها نحو ستاديا والظاهر ان المدن الثلث الكبيرة كانت قد ارسلت من كل منها مائة عضو لان التاريخ يذكر ان صيدا كانت ترسل ذلك العدد واما المدن الصغيرة فلا نعلم ان كانت احكام المجلس نافذة فيها سواء كان لها فيه نواب اولم يكن غير اننا نعلم انها كانت ترسل نوّابًا في القضايا البحرية المتعلقة بها

اما صلة النحل الفينيقيين السياسية مع بلادهم الاصلية فلم يشرح لنا التاريخ عنها على انا علمنا ان مهاجرى صور كانوا اشد تعلقًا ببلادهم الاصلية من سائر النحل ذلك لانهم كانوا يشتركون بعبادة ملكارث فقربت الطقوس والعوائد بينهم وكان الصوريون وسائر الفينيقيين يحبون نحلهم و يعتبرونهم كل الاعتبار كانهم اولادهم ولذلك تمنع من كان منهم في عمارة كامبسيس الفارسي ان يسير الى قتال القرطاجنيين وكان القرطاجنيون في بداية امرهم يبعثون كل سنة بعشر مدخولهم الى هيكل ملكارث وظلوا كذلك حتى اثروا فاكتفوا بارسال شيء قليل من المال ولبثوا الى ان كسرهم اكاثوكلس فخافوا بما لا مزيد عليه وزعموا ان انكسارهم كان لتخفيضهم فيئة العشور المتقدمة لملكارث فارسلوا شيئًا كثيرًا من المال والآنية الفضية مع بعض هبات اخرى كفّارة عن ذنبهم واستعطافًا لرضاء المعبودة وذبحوا مائتين من الشبان الاشراف اكرامًا لزحل و بعثوا ايضًا بعشر غنيمة احدى الحروب التي فازوا فيها بالنصر على محاربيهم ولما حصر اسكندر المكدوني صور حين ابت ان تُذعن له كان في صور وفد من القرطاجنيين جاءوا بسفينة ليقدموا هبات وتقدمات مقدسة الى هيكل هركيل الصوري فتخلفوا فيها واخذوا يحثون الصوريين ويشجعونهم على الحرب والكفاح و يعدونهم بالنجدة ذبّا عن الوطن وظلوا كذلك حتى فتحت البلدة ففروا الى الهيكل ليلتجئوا فيه وكان اهل قادس يرسلون في كل سنة مركبًا مقدسًا حاملاً الهدايا والتحف الى صور تقدمة الى هركيل واما بزنطيه فارسل قومها الفينيقيون سفينة مشحونة بفاخر التقادم

والهدايا لهركيل لانهُ أُوحي لهم بواسطتهِ فكان من جملة ما بعثوا اليهِ ثلاثمائة درهم من الفضة ولم تكن فينيقية لتتغاضى عن نجدة نحلها وامدادهم بالسفن والرجال عند الحاجة مقابلة لخلوصهم

ومن مقال حزقيال النبي اتضحت لنا حالة الجندية الصورية فانها كانت تتألف من العسكر المستأجر المجتمع اليها من مدن كثيرة وهاك عبارتهُ في السفر المنسوب اليهِ ص ٢٧ : ٨ اهل صيدون وارواد كانوا ملاَّحيك حكماؤك يا صور الذي كانوا فيك هم ربابينك شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك فلاَّفوك جميع سفن البحر كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك علقوا فيك ترسًا وخوذة هم صيروا بهاءك بنوا ارواد مع جيشك على الاسوار من حولك والابطال كانوا في بروجك علقوا اتراسهم على اسوارك من حولك هم تمموا جمالك

ولم يكن موقع بلاد الفينيقيين ليمكنهم من اتقان الجندية البرية او اكثار العسكر حتى انهم انفسهم لم يكونوا قد تعودوا الانخراط في سلك العسكرية فلا يحسنون من القتال غير الذب عن ذمارهم ايَّان يتفاقم الخطر وتصبح بلادهم على شفا وبالٍ فكانت سفنهم القادرة تخفر الثغور وتكفيهم مونة المهاجمين في البحر على ان اليهود مجاوريهم كانوا اقل منهم اقتدارًا وبسطةً حتى انهم لم يكونوا يجسرون على محاربة الفينيقيين الباسلين ناهيك ان اليهود كانوا يحتاجون الى صناعة صور وسائر مدن فينيقية فكان الفينيقيون في طمانينةٍ من صوب اليهود

وكانت ممالك سوريا قد انقسمت ودب فيها الشقاق والخلاف واصبح لبنان خرابًا لتواتر الحروب فيهِ وعلى الخصوص لمقاتلاتهِ مع مملكة دمشق واما صيدا فكان ابناوها يرتعون في بحبوحة السلام والراحة عائشين بأمن وطمانينة لا يتوقعون مهاجمة عدوٍ او اشتباك نضال لانهم كانوا لا يطمحون للفتح والغارات لان نحلهم وتجارتهم موارد ثروة لا تنضب وكانوا فيها يكتفون

وظلت حكوماتهم على هذا النمط حتى زهت بعض السلطات الشرقية على ضفتي الدجلة والفرات ونهضت للفتح وشن الغارة طالبة الاتساع فعكرت صافي كأس راحتهم وفكروا باحتياجهم لوسائل الدفاع وتعبئة الجنود وتجهيز المهمات ذبًا عن الوطن وصيانة لشرفهِ ولم يكن عدد الاهلين كافيًا فطفقوا يستأجرون من الاجانب رجالاً لينخرطوا في عسكريتهم ويقاتلوا عدوهم قال النبي حزقيال ان من جنودهم رجالاً من فارس ولود وفوط اما بلاد فارس فهي مملكة الفرس وموقعها وراء مملكة نبوخذنصر المعادية فيبعد والحالة هذه قدوم قوم منها للتجند عند الفينيقيين وعلى الخصوص اذا اعتبرنا احوال تلك الايام وصعوبة النقل وغير ذلك من الموانع على ان الكتاب المقدس لم يذكر مملكة العجم باسم فارس الا بعد زمن كورش لكنها كانت تعرف قبل ذلك باسم مملكة آرام فظن بعضهم ان القوم المعروفين بفارس انما هم سكان فاروسي من افريقيا واما لود فتعم قومين احدهما الليديين في اسيا الصغرى والاخر قبيلة في افريقيا وقد ذهب بعضهم الى ان المستخدمين في فينيقية هم من القبيلة الافريقية وقال اخرون غير ذلك فان ترجحت الرواية الاولى كان راي من زعم ان المقصود بفارس القبيلة الافريقية رأيًا مرجحًا ايضًا وعلى الخصوص لان المقال عنهم فوط انما هم الموريتانيون في افريقيا المعروفون اليوم بالمغاربة ومن المحتمل ان الجيش المستاجر في فينيقية كان يضم كثيرين من القوم الباسلين الذي اجتمعوا تحت الراية الفينيقية من امد بعيد كان يؤتى بهم بالسفن من الاقطار الشاسعة وكان ينضم اليهم كثيرون من القرطاجنيين الابطال وكانت تلك الامم تمدهم بالمال والذخيرة ايضًا ولم تكن جنود الفينيقيين المستاجرين كغيرهم من مصافهم قلما يثبتون في موقف وان ثبتوا فلا جدوى منهم بل انهم كانوا يقاتلون بحمية وبسالة كانهم يذبون عن وطنهم ودليل بسالتهم حروبهم كما سترى

الفصل الثالث عشر

ديانة الفينيقيين

ان كرور الايام وطول الامد قد حجبتا عن العالم كل الكتب والمولفات الفينيقية ولم يبق لنا منها شيء واصبحنا نعتمد في كل القضايا على ما وصل الينا من مورخي اليونان والرومان او ما ناخذهُ بالرمز والاشارة من عبارة الكتاب المقدس على ان الاثار التي يستدل بها العلماء على المجهول من التاريخ لا تنبئ شيئًا عن مذهبهم فانهُ لم يبلغنا منهم رسم ولا تمثال غير ما هو منقوش على مسكوكاتهم وما وجدهُ القوم من الاصنام الصغيرة في قبرص ومع كل اجتهادات المدققين من الاوربيين وبحثهم لم يعثروا على كتابة او تمثال على محفور على صخر ليدل ولو قليلاً على معبودات الفينيقيين ولقد عني ايسبوس المورخ بايراد الحجة والبرهان مؤيدًا قولهُ ان اليهود كانوا يحافظون على الدين الصحيح بعبادة الله تعالى وكانوا لا يشركون على ان جيرانهم الفينيقيين والمصريين كانوا يخالفونهم في ذلك لانهم كانوا مشركين وقد كفروا بالدين الصحيح وافسدوهُ ذلك بان ادخلوا في عبادتهم كثيرًا من الاجرام السماوية واخذوا يثقون بقدرتها وعظمتها ويتقولون عنها المعجزات ويقصون لقومهم الروايات حاكين ما لا صحة لهُ منسوبًا لمعبودات كثيرة لاصحة لوجودها واورد ايسبوس المار ذكرهُ برهانًا على روايتهِ ترجمة ما كتبهُ سانكونياثو بالفينيقية وقد تُرجم منها الى اليونانية بقلم فيلو الجبيلي وذلك في الزمن الواقع بين الجيلين الاول والثاني بعد المسيح

بيد ان بعض الكتاب لا يحقون الاركان برواية ايسبوس مدعين انهُ لم يكن من قصدهِ تمحص الاخبار الصحيحة بل المدافعة عن الديانة الاسرائلية فكانت روايتهُ لا تخلو من سوء النقل والتحقيق وقالوا ان كتبًا تنسب الى سانكونياثو انما هي من تاليف فيلو الجبيلي لا ترجمتهُ وقد نسبها الى الفينيقي ليعيرها الناس جانب الثقة لكن بعض المدققين يقولون ان لا دليل على نسبة تاليف فيلو الى سانكونياثو ولا ما يحوجهُ اليهِ ولا

يظنون ان المولف هو فيلو المترجم وعلى الخصوص لانهُ مشهور بتمحيص الاخبار وبتدقيقهِ في الحقائق حتى يعسر علينا اتهامهُ بالتزوير ومع كل ذلك فالناس في ريب وارتباك اما سانكونياثو فهو رجل فينيقي قيل كان مولده في بيروت وقيل في صور وذهب فريق من كتّاب اليونان الى ان وجوده كان قبل زمن حرب ترواداً وخالفهم الكتبة الاسياويون القائلون بولاده في زمن سميراميس ملكة بابل الشهيرة ولكن كتابهُ يحمل على الظن انهُ نبغ بعد الزمنين المذكورين وقد اورد بعضهم ما بين ان سانكونياثو كان معتبرًا عند الفينيقيين اعتبارًا عظيماً كاعتبار الصينيين لكونفوشيوس واليونان لارفوس

اما ما نقل عن رواية ايسبوس فهو غاية في الافادة حيث ابان معتقدات القوم كل البيان وهاك تعريب ما قال انهُ اعتمد على مصدرين يثق بهما احدهما مولفات تاوت مخترع الحروف واول من كتب تاريخًا وهو المعروف عند اليونان باسم هرمس (قريَ اسمهُ ايضًا نوت وتات) والثاني بعض اوراق ومذكرات كانت موجودة في المدن الفينيقية وروايات الهياكل وتاريخ المعبودات الذي نقصهُ العامة وطقوس المذاهب الكثيرة التي كانوا يكثرون منها كفَّارةً لمعبوداتهم واستجلابًا لرضاها

وكان من معتقد الفينيقيين ان عند بدء الخليقة كان الهواء شديدًا ومظلمًا ظلامًا مدلهماً وكان خلاء خاوٍ مستمرًا امدًا طويلاً لا حد لهُ ولا نهاية فابتدات الخليقة بان عشقت عناصر الهواء الشديد ذاتها فاتحدت وكان اتحادهما معروفًا باسم باثوس اي الرغبة والارادة فاولد ذلك موت وهو الوحل كما ارتاءه بعضهم وقال اخرون بل هي مادة مائية ممتزجة فتكوَّن العالم من هذا المزيج او بالحري المادة الترابية. ولما خلقت الكائنات الحيَّة الاولى لم يكن لها عقل فاولدت هذه المخلوقات غيرها حيَّةً عاقلة تعرف ذوفاسمين قال اوفيدا ان معناها حرَّاس السماء وكان بهيئة بيض فمن مادتها اشرقت الشمس وطلع القمر وبزغت السيارات والنجوم وعمَّ الهواء وازدادت حرارة الارض والبحر

وصارت الغيوم وتالفت الزوابع وهبت الرياح الشديدة وامطرت السماء مدرارًا ومن ثم كثرت الرعود وتالقت البروق فمن صوتها اخذ العاقلون بالتنقل فسافروا برًّا وبحرًا واتخذوا لهم من نتاج الارض ما يعبدون وطفقوا يكفرون لها بالضحية والتقادم وبعد ذلك تولد من الريح المدعو كولبيا وامراته باو وهي الليل الاثنان المدعوان اون وبر وتوكونز ولعلَّ أحدهما شخص الخلود عند الصيد ونبين والاخر اول من اكتشف تطعيم الاشجار العقيمة من المثمرة واولد هذان ولدين جينس وجينا فسكنا فينيقية وادخلا اليها عبادة الشمس وكانوا يدعونها بعل سامان اي اله الشمس وقد قال موكرونيوس ان الفينيقيين كانوا يشخصون العالم كافعى وذنبها في فمها دلالة على ان نتاجها من نفسها فهذه معتقدات الفينيقيين وبينها وبين معتقدات اليهود وكتاباتهم بعض المشابهة لولا انها ممتزجة بكثير من الخرافات اما باثوس او ايروس اعني اتحاد العناصر فانتاجها الوجود فهي من الاراء القديمة كما قال هيسويد وقال ايديموس ان موكوسس يقول ان الايثر والهواء كانا العنصرين الاولين اللذين بزعم الفينيقيون بوجودهما ويوءمن الصيدونيون ان اول الخلائق كان كرونوس وبوثوس واوميكل وهي الوقت والارادة والبخار المائي وان من اتحاد الارادة والبخار المائي نتج الهواء الكرويّ والايثر وقال فيرسيدس السيرومي ان النار والهواء والماء هي من نسل كرونوس وقال ابيانندس ان الهواء والليل هما العنصران الاولان لكن اكسيسيلاوس يقول ان الفضاء كان اولاً ثم تلاه اريبوس وهو الذكر والليل وهو الانثى فتولد الايثر واروس ومانس وهما الحب والمشورة ولم يبدع العالم دفعة واحدة ذلك ان الانسان خلق اولاً بلا عقل وبعد ذلك خلقت العوالم العاقلة لكنها بلا ادراك وهي على هيئة بيضة بدون تمييز الجنس وبعدها خلقت امم ضعيفة الادراك وبعدهم وجد الفينيقيون فكان هذا التنوّع دليلاً لهم على ان العالم لم يخلق دفعة واحدة كما تقدم وذلك ناتج عن عظمة الخليقة

على انها اخذت بالتقدم منذ ابتداعها قال سانكونياثو ان اون و بروتوكونز اولدا النور واللهيب حينئذ عرفت منافع النار وطرق استخدامها ومن ثم خلقت طائفة الابطال الذين تسمت الجبال باسمائهم ومنهم بدأت الاكتشافات بالظهور ذلك ان هيبسورانيوس اقام لهُ سكنًا بناه بالقصب والقش في جزيرة صور وكان ايسوس (لعلهُ عيسو) اول من اتخذ لباسهُ من الجلود واول من سافر في البحر يمخره على غصن شجرة واقام اعمدة للريح والنار وقدم تقدمات من دم الحيوانات التي ذبحها و بعده اخذ القوم يجدون ما يعيلهم ويحفظ قواهم وكان تاوت مخترع الكتاب وكان الكبريون اول من بنوا سفنًا واكتشفوا المراهم والعقاقير التي تشفي الجروح الحادثة من انياب الوحوش المضرة

زعم الفينيقيون ايضًا ان اليون كان اصل الجنس البشري وانهُ كان يسكن مع امراتهِ بيروثا عند بيبلوس اي جبيل وهي على ما زعمهُ سانكونياثو اقدم مدن فينيقية فاولدا اورانوس وهو السماء فتزوج باختهِ كاه اي الارض فولد لهما اربعة بنين وهم ايلوس اوكرونوس وباتولوس وداكون واتلاس فلما شب كرونوس انزل اباه عن عرشهِ وقتل ابنهُ ساديد واحدى بناتهِ فلما عاد اورانوس من منفاه قبض على ابنهِ كرونوس بخيانة وقتلهُ وساح كرونوس بعد مقتلهِ في العالم واشاد مملكتي اثينا واتيكا في بلاد اليونان واقام تاوت ملكًا في مصر

ولما رتب كرونوس امره نهض كثيرون من الالهة ونقلدوا مهامهم المخصوصة فيهم وقطنوا فينيقية فتملك استارت وديماروس بن داكون وادود (او اداد او هداد) كل الارض وكان ادود معبود السوريين حتى ان ملوكهم كانوا يتبركون باضافة اسمائهم الى اسمهِ كقولك بنهداد وقال مكروبيوس ان اداد هي الشمس وان الاشوريين يعبدونها لكن بعض المورخين القدماء خلطوا سوريا باشور لاقتراب اسميهما في بعض اللغات فربما كان ذلك مصدرًا لهذه الرواية وكان يتولى بيبلوس (جبيل) بالتس او باليس واما

بيروت فكان يتولاها بوسيدون والكابري

اما بعل وعشتروث فكانا من كبار معبودات الفينيقيين ويرجح الفكر في انهما الشمس والقمر قال سانكونياثو بان بعل كان يدعى بعل سامات اي اله السما والشمس وفي بعلبك هيكل لذلك المعبود مخصص بالشمس ومنها دعاها اليونان هيلوبوليس على ان البابليين كانوا يعبدون الشمس باسم بعل وكان الفينيقيون يفسرون معنى بعل عندهم بالسلطان ويقولون انهُ يعادل الاله الاعظم والحاكم القادر وكان كتبة اليونان والرومان يقولون ان بعل يعادل عندهم زيوس اوجوبتير زعيم معبوداتهم او هو ترجمة اسمهِ وذهب اكثر كتاب اليونان الي ان معبوداتهم فينيقية وهو الذي كان قد اشاد مدينة بيبلوس او جبيل وان بعل هو جوبتير كما تقدم وان هركيل انما هو مليكارث وفنيس هي استارت او عشتروت وديدون هي بالتس وان نبتون وابولو هما ولدا كرونوس المذكور وان ابا اثينا كان قد انعم عليها بسلطة اتيكا عند ما اجتاز الارض الماهولة وان كابري واسكولابيوس اللذين اشتهرا في مصر واليونان هما ابنا صادوق اخي كرونوس قيل ولم يكن لكرونوس غير ولد واحد من احدى المعبودات فسماه انوبرث ولقبهُ لوحدتهِ أيود فاصبح الاباء الفينيقيون يسمون ابناءهم بهذا الاسم تبركًا وحدث بعد حين ان اشرفت البلاد على خطر فامر كرونوس ان يلبس ولده الحلة الملوكية فلما فعل اقام مذبحًا ونحره عليهِ تقدمةً ابتغاء ان يرفع الخطر وقال اليونان ايضًا ان الختان ماخوذ عن الفينيقيين وكان الفينيقيون يوءلهون بالوس ملك اشور وفينيقية وربما كان هو بعل المار ذكرهُ على ان ملكارث كان بعل صور او معبودها وقد برهن بعضهم ان ملكارث هو كرونوس وان اورانوس هو مولوك او الشمس على ان بكرور الايام انفصلت عبادتا الشمس وبعل عن بعضهما وصار كل منهما معبودًا لوحده وسرى ذلك الي مصر واليونان حتي ان القوم اصبحوا يعبدون مثال معبودهم الاول لكنهم مع ذلك يعترفون ان بعل هو ساتر او زحل وانهُ

مترأس على ما سواهُ

ولما اتى الاسرائيليون ارض سوريا كان الفلسطينيون يعبدون غير الله تعالى لانهم ذهبوا وراء الباعل وعبدوا الاصنام كجيرانهم الفينيقيين ورأى الاسرائيليون مرتفعات البعل وزيّن الشيطان لبعضهم عبادتهُ فنسوا ما اجزل الله عليهم من الخيرات وضلوا عن سواء السبيل فعبدوا ذلك الصنم وورد في الكتاب انهُ كان لبعل كثيرون من الكهان وان النبي ايليا قتل منهم جمًّا غفيرًا ابتغاء ان يقل جمعهم فيخف اذاهم وما يفسدون ولم يكن البعل واحدًا في شكلهِ لانهُ ورد انهُ كان لكل مدينة فينيقية بعل ينسب اليها كبعل فاغور وبعل زبوب وبعل بيريت وبعل ترز وبعل ترسوس وبعل كاد وبعل حامون وبعل تامار وبعل شاليشا وكان كثيرون من الناس يضيفون اسم البعل الى اسمائهم تبركًا كقولك انيبال وايبال وغيرها فان كلمة بال في اخر الاسم هي اسم البعل عندهم

ولم نعرف عن الفينيقيين ما كانوا يقيمون من الطقوس مرضاةً للبعل وكفارةً عن الخطايا لكن الكتاب يدلنا انهم كانوا يقيمون لهُ المرتفعات ويغرسون حول هياكلهِ الاشجار الغضة الغليظة الحجم ويكثرون لخدمتهِ من الكهان ودليل ذلك ما روي من انهُ كان لجزابل ابنة ايثو بعل ملك صور اربعماية وخمسين كاهنًا وورد في سفر ارميا النبي انهم كانوا يقدمون للبعل ضحايا وقرابين بشرية كما كانوا يقدمون لمولوك فان عباده كانوا يحتفلون طقوسهُ واعيادهُ برغبة شديدة وكانوا كلما ضحوا لهُ بشرًا ضجوا بالصراخ والتهليل دلالة على مسرتهم بما يعملون وكانوا اذا زاد حظهم تقطع بالسيوف وتطاعن بالحراب من اشتهر منهم بالتقشف والتمسك بعرى دينهم ومع كل رغبتهم فيهِ لم ينقلهُ النحل الى الاقطار التي احتلوها على ان عبادة غيرها نشرت هنالك وكانوا على طرق ابائهم يسلكون

ومن معبوداتهم ايضًا عشتروث او استارث ويعرفها اليونان باسم جونو

او فنيس وكانت عشتروث كناية عن القمر ورئيسة معبودات صيدا ولعل عبادتها قد تجاوزت مركزها وانتشرت في فلسطين وعبر الاردن ودليلهٔ ورود ذكرها في الكتاب المقدس بقولهِ ان الشعب الاسرائيلي قد غوى وراءها اي عبدها ولكن صموئيل النبي انذرهُ الى البقاء في عبادة الحق سبحانهُ فارتدع الشعب وظل الى ايام سليمان الملك حيثما غوى كثيرون منهُ ولم تنجع فيهم النصائح وحاول كثيرون من الملوك ازالة المرتفعات التي لعشتروث الا ان عبادتها واعتبارها كانا عظيمين في افكار القوم سيما انتعميم عبادتها في البلاد فكانت نساء الاسرائيليين تاتي اليها بالضحايا والتقادم ويحرقنَ البخور حاسبين انها مصدر سعادة البلاد وغناها ولذلك توعدهم النبي ارميا

وفهم من رواية هوميروس ان عسقلان كانت اول مكان عبدت فيهِ عشتروث ثم انتقلت منها الى قبرص وسيثرا وغيرها قيل وبانتقالها الى جهات اخرى تغيرت اسماؤها فكان البابليون يدعونها مليتا واما العرب المجاورون بر الشام ومصر فكانوا يدعونها اليتا او اليلات ولعلها اللآت التي كانوا يعبدونها مع العزّى قبل ظهور الاسلام

وقد قال بعض العارفين ان استارت هي اورو باشقيقة قادموس الذي ادخل الحروف الى اليونان وقال اخرون بل تلك معبودة اخرى احط من هذه مقامًا واما فنيس او الزهرة فهي معبودة يونانية عبدها الفينيقيون اولاً وكانوا يشخصونها عاطلة من الزينة والحلي بسيطة في ملابسها تلك دلالة على توغل عبادتها في القدم قيل ان العرب كانوا يعبدونها ويسمونها الزهرة وذلك قبل الاسلام بزمن طويل وكانت تماثيلها الاولى على غاية من البساطة حتى دخلت قبرص فاشرك عابدوها معها عبادتهم فنيس اليونانية وتلقن القرطاجنيون عبادتهم عن اجدادهم الفينيقيين وكانوا يشخصونها كانها جمعت بين البسالة والاقدام والحكمة والادارة وقد زعم بعضهم ان ديدو موسسة قرطاجنة هي المقصودة بهذا التمثيل والعبادة الا ان الزاعمين لم يبدوا مقالهم بالدليل

وذهب بعضهم الى ان عبادة فنيس قد نشات في اشور وامتدت منها فدخلت فينيقية وغيرها وتاصلت فيها وكانت هيرا بوليس من شمال سوريا مركزًا لعبادتها وعبادة كثير من المعبودات غيرها لانهُ كان من اعتقاد القوم يومئذٍ تعداد المعبودات وتنوع اشغالها واجناسها

وكان اللبنانيون يعبدون الزهرة وعنهم اخذ الجبليون وفي جوار جبيل موضع يقال افقا وعلى مقربة منهُ مخرج نهر ابراهيم المعروف في القدم بنهر ادونيس وكان هنالك هيكل لمعبود يقال لهُ ادونيس لهُ في اساطير القوم خبر مشهور. هو ان دبًّا جرحهُ فاصبح من عادة النهر الاحمرار في كل سنة بمثل ذلك اليوم تذكارًا لخطب المعبود وقيل ان ادونيس كان يعشق فنيس فلما افترسهُ الدب خرجت فنيس تبكيهِ على النهر وحولها عذارى مدن صيدا اي بيروت وجبيل وغيرها لينحن على مصرعهِ وقال بعض الشعراء المتقدمين ان النهر كان يتحول في كل سنة الى دم تذكارًا لمصرع ادونيس وكان هنالك هيكل قديم لعبادة ادونيس قيل بناهُ ابوهُ سينيراس المشهور فلما قتلهُ الدب صارت فنيس تبكيهِ فيهِ وتنوح عليهِ اناء الليل واطراف النهار فاصبح عابدوها يمثلونها كمن افعم الحزن فوادهُ وكانت النساء اذا جاءت لتبكيهِ دخلن الهيكل وبدأن يقرعن الصدور ويشققن الجيوب ويحثثن التراب على رؤوسهن علامة لفرط الحزن وكن يقمن بهذا المأتم في الصيف حينما تبتدئ الشمس بان تظهر علامات الشتاء فكان الناظرون ينسبون حركتها لموت ادونيس. وكان الاسرائيليون يسمون ادونيس تموز وهو اسم الشهر السابع من السنة ايضًا

وربما كان قد تسمى كذلك تبركًا بالمعبود او اشارة الى اجراء فروض النواح عليهِ فيهِ وكانت النساء الباكيات عليهِ لا يكففن الدمع حتى يرفع الكاهن صورتهُ وهو حي فينقلب حزنهن الى سرور وياخذن بالضحك واللعب. ومما قيل في هذا الحادث ان ادونيس ليس الا رمزًا عن الربيع وقد مات لشدة حرارة الصيف واما احمرار النهر في كل سنة فقريب من الاحتمال

ذلك اذا اعتبرنا ان تلوينهُ ناتج عن ذوبان الثلوج المتراكمة فوق مجرى النهر ومسيرها في الصيف او الربيع فوق ارض جواره ذات التراب الاحمر

وروى المورخون ان الجبليين كانوا يعبدون ادونيس واما فنيس فكان يعبدها اهل افقا وانهُ كان لها هنالك معبد لم تزل آثاره بجوار المغارة التي يصدر النهر منها . والظاهر من رواية ايسيبوس انهُ هدم بامر قسطنطين الملك ابقاء على صحة التعاليم المسيحية وخوفًا من احياء اساطير الاقدمين المائلة عنهُ صحفًا

وكان الفينيقيون يعبدون الشمس ايضًا حاسبين انها مصدر حيوة ومنافع لاتحصى لانها تنعش النبات ولذلك صاروا يعظمونها ويظهرون مسرتهم عند بزوغها ويتكدرون اذا حجبها الغيم ايام الشتاء فينوحون ويولولون قائلين انها ماتت موتًا موقتًا حتى اذا عادت فانقشع الغيم عن محياها طفروا يقولون لقد ولدت مجددًا وكان هذا الاعتقاد قد انتشر من فينيقية فعم كل سوريا ومصر واسيا الصغرى واحدث بعضهم فيهِ شيئًا من التبديل

وحكي ان سينيراس ابا ادونيس كان ملكًا على جبيل وقيل على قبرص واشاد لفنيس هيكلاً في بافوس وكان جدًا لقبيلة سيزاديا الذين كانوا طغمة كهان ذلك الهيكل

وزعم الكتبة من اليونان واللاتين ان كرونوس او ساترن وهو زحل كان من اعظم معبودات الفينيقيين والقرطجنيين وقالوا ان اسمهُ عندهم ايل وبعل وبولاشن وانهم كانوا يقدمون لهُ الضحايا البشرية ونقل بعضهم عن سانكونياثو انهُ عند وشك وقوع مصيبة ينتخب القوم عزيزًا ليكون كفارة عنهم لدى ساترن الا ان التاريخ لم يروِ لنا قط عن حادثة من هذا القبيل غير ما علمناهُ من اجتماع الصوريين وعزمهم على تقدم حدث لزحل ليردا عنهم ما كانوا يتوقعون من البلاء بفتح اسكندر المكدوني بلدتهم وانهُ لما كانت العادة قد ابطلت تلك السنة اجتمع الشيوخ والحكماء ومنعوا الشعب عن اجراء ما

بريدون على ان تقديم الذبائح البشرية في فينيقية وفلسطين مما لا يختلف في صحته اثنان واما التحل فكانوا لا يضحون الا دفعاً للخطوب الملمة قيل ان القوم قدموا بعد معركة آكاثوكلس مائتين من الشبان الاشراف ذبيحة وكان القوم في ايطاليا يقدمون الضحايا بطرحها في نهر تيبر

وكان من عوائد القرطاجنيين انتخاب شاب كل سنة بالقرعة ليكون ذبيحة لمعبوداتهم . ومن اعظم الضحايا عندهم هي تقدمة الوالدين ولدهما الوحيد وكان مثال ساترن من النحاس الاصفر ويداه طويلتان مثقوبتان من الداخل ومنحنيتان كانهما تقبلان الضحية وكان الصنم مجوفاً وقائماً على اتون متقد النيران فتاتي الامهات باطفالهنَّ الى ذراعيهِ الممتدتين اللتين تكونان قد صارتا كالنار فينحدر الولد الى جوفهِ وكان الكهنة يصرخون ويرفعون اصواتهم بالتهاليل مع الشعب الغفير الواقف وذلك كي لا يسمع صراخ ذلك الطفل المسكين ولم تكن التقدمات البشرية لساترن وحده بل لكثير غيره من معبوداتهم

على انهم يسمون كل معبود تقدمة لهُ ضحايا بشرية بساترن تبركاً بهِ لانهم يقولون انهُ كان قد ابتلع اولاده وعاموس النبي ذكر كيوان اي ساترن لكنهُ لم يقل انهم كانوا يضحون لهُ بشراً وزعم البعض ايضاً ان شاموس معبود آل مواب هو ساترن

وعبد العمونيون مولوك او ميلكوم وقد وصفهُ الرواة بما يقارب وصف ديودورس لساترن فان القوم كانوا يقدمون لهُ الضحايا البشرية لكن لا لدفع رزيئة او لردء خطب بل انها كانت تقدم في وقت معين كما كان يفعل القرطاجنيون وكان الاولاد يقدمون كفارة عن والديهم وفي الكتاب ان الاسرائيليين عبدوا هذا الصنم مدة وان عابديهِ يمرون باولادهم فوق النار ليطهروا ولكن فهم من سفر ارميا النبي ان ذلك المرور للاحتراق ولا ريب في ان الفلسطينيين كانوا يذبحون لمعبوداتهم بشراً فتوعدهم الكتاب

وحذرهم من ضلالهم المبين

وكل ما تقدم ذكره من المعبودات كان مولهًا في سائر الاقطار السورية انما كان لبعض المدن معبودات مختصة بها وهي . اولاً ملكارث وترجمة اسمهِ ملك المدينة وهو معبود صور. وكان اهلوها ينقلونهُ معهم كيف ساروا ويقيمون لهُ في مستعمراتهم هياكل ومساجد كثيرة ويزعم الكثيرون ان ملكارث هو المعروف عند اليونان بهركيل وكان هركيل يعبد في مصر فلما جاء هيرودونس ليتحقق اصل هذا المعبود على ان الصوريين لم ياتوا بهِ من الخارج اي ان عبادتهُ قد نشات في محلها ويقول الوثنيون المتاخرون ان هركيل هو الشمس

حكي ان مولد هركيل كان في ثابا وقد اقام ببسالة وشجاعة فقتل بوسيريس في مصر واتى با لتفاح الذهبي من جنان هسباريد وسار الى ساردينيا وفتحها ولما قاتل اناتوس حارس القطر الليبي تولى عوض المعبود اطلاس بحمل السماء (ان اطلاس هذا هو معبود عند بعض القدماء يصورونهُ حاملاً على راسهِ الكرة الارضية) واقام اعمدتهُ عند المضيق وسرق ماشية جيريون من اريثيا ولا يخفى ان هذه الاقوال انما هي من خرافات القوم وقد كانت مصدرًا لجعلهِ في مقام المعبودات

وكان الصوريون يعيدون لهُ عيدًا يدعونهُ يقظة هركيل وكانت طقوسهُ تكاد تحاكي طقوس اليهود والمصريين ذلك بمنع النساء من تقلد الوظائف الاكليريكية وتحريم اكل الخنزير والامر بلبس الكتان الابيض وحلق الشعر من روس الكهنة وكانوا لا يقيمون لهُ تمثالاً ظاهرًا غير النار الدائمة الشبوب

ثانيًا كان اهل عسقلان يعبدون فنيس السورية او الاشورية ويسمونها دركيتو واتاركاتس ويشخصونها بامراة جميلة لها ذنب سمكة

وعبد الفينيقيون آلهة سماها اليونان اثان قيل هي اونكا وعلى اسمها تسمت احدى ابواب مدينة ثابس اليونانية . قيل وقد جاءت عبادتها الى بلاد

اليونان من فينيقية وانها رمز عن القمر

ومن معبوداتهم نبطس ونا روس والكابري و بوسيدون فعبدت بيروت بوسيدون والكابري وعبدت صيدا نابتون اله البحر ولكن عبادة هذا لم تمتد كثيرًا في البلاد بخلاف النخل فقد قيل انها تجددت له وان تجار الفينيقيين كانوا يضحون لنبتون في اثينا كل سنة ووجدت صورة نبتون على مسكوكات كارسيا و بيروت ويزعم الفينيقيون ان زعماء البحر من الكابري وهم معبودات بيروت ويدعون انهم اولاد كرونوس وقيل بل اولاد فولكان والكابريون اول من بنى سفنًا وكان رئيس الملاحين منهم

وكان القوم يعرفون ان الحرارة والتنفس هما من اعظم عناصر الحيوة فكانوا يقولون بتراسها على ايلاد البشر ومن اعتقادهم ان روح الانسان بعد موته تدخل جسمًا بشريًا اخر وهذا هو مبدا التقميص وان اسكاليبوس شقيق الكابري كان منوطًا به حفظ الحيوة وارجاعها ورمزوا عنهُ بالهواء لان منهُ الحيوة والصحة

لا جرم ان عبدة الوثن كانوا يرفعون الى مقام الالهة او انصاف الالهة من تفرد من البشر بمزية فاق فيها غيره وكان ذلك دابهم في تاليه كثيرين من المشاهير حتى صار لكل شيء من امور الحيوة الهًا يؤمنون بحوله واقتداره على تدريب دقائق الوهيته تدريبًا عجيبًا وبالاجمال كانوا يحصرون فيه ما وجب الاعتراف به لله وحده وما يجل الله عنهُ من الموبقات ايضًا

واقام شعب كاربرا مذابح للسنة والشهور وللعمر الطويل والموت والفقر والغنى قيل ان موث عند الفينيقيين انما هو الموت



الباب الثاني

نظر عام في تاريخ سوريا

الفصل الاول

زمن تاريخها الاول

لقد سدل الماضي حجاباً كثيفاً على التاريخ القديم وخص سوريا من ذلك قسم وافر الا ان الاشارة والدلائل كادت تجلي للعيان كثيراً من القضايا المهمة التي لن تنفك تحت طي الشك واليقين حتى يقوم لها دليل صحيح المقدمات يكشف عنها الغطاء ذلك ما لا تدركهُ الا بالاختبار الطويل والدرس والبحث في الاثار والاطلاع على المولفات القديمة الموثوق بصحتها

ان الكتاب المقدس احسن تاريخ يعتمد عليهِ الراغبون في الوقوف على حقيقة التاريخ القديم حيث لا يجدون كتاباً سواه قد جاءت الاكتشافات المتاخرة ادلة تويد صحة روايتهِ ومن كان في ريب من ذلك فليطلع على كتابات الباحثين في الاثار البابلية والنينوية فيرى هنالك كيف اتفقت الاثار على اثبات ذلك الكلام

ولا يخفى انهُ قلما وُجد في الكتاب او غيرهِ عبارة صريحة عن اول زمن الفينيقيين الا ان علماء التاريخ انتحلوا من عبارات كثيرة ونقول صحيحة حوادث مهمة في مجرى تاريخ البلاد . فاول تلك الحوادث اهمية واقدمها وقتاً مجيء الاشوريين لفتح سوريا فان ديودورس يقول ان فينيقية كانت من مملكة نينوس (ونينوس هذا هو ملك اشور وزوج سميراميس الشهيرة تولى في القرن ٢٢ وقيل في ٢٠ ق م) وقال موفرس انهُ يعتقد بان من الاثار ما يدل على ان الاشوريين قد اجتازوا سوريا وفلسطين مرتين الاولى ق م بالفي سنة والثانية بنحو الف وثمانماية اه . على ان ملك اشور يومئذ كان نيناس بن سميراميس

الذي قتل امهُ وتبوأ اريكتها وكان متانثًا كسلانًا فيبعد والحالة هذه ان يشن غارة شعواء على شعب باسل لكن رواية ديودوروس اقرب الى الصواب وعليهِ يترجح المقال ان نينوس او امرأتهُ سميراميس كان فاتح سوريا لا ابنهما نيناس

وروى صاحب كتاب مصر القديمة ان ملوك الدولتين الثامنة عشر والتاسعة عشر (اول ملوك الدولة ١٨ الملك اموسيس او امسس تولى سنة ١٥٣٠ ق م واخرهم رستات واول ملوك الدولة ١٩ رمسيس الاول تولى سنة ١٣٢٤ ق م واخرهم بثاها من سابثاه تولى سنة ١٢٢٧ ق م) قد حاولوا فتح اهم ثغور سوريا فلم يتمكنوا من ذلك على انهم استولوا على قبرص قال لانورمان ان المصريين لما طردوا ملوكهم الرعاة رغبوا النقمة من امم المشرق لانهم اطالوا عنفهم تحت نير الغرباء فافتتحوا كل آسيا الوسطى وانهُ لما تولت الدولة ١٨ المصرية جاء الملك امينهوتب الاول ففتح سوريا الجنوبية واما نطمس الاول فسار بعدهُ فاتحًا حتى الفرات ومن ذلك الوقت اصبح الصيدونيون كغيرهم من الامم المجاورة خاضعين للحكم المصري الذي ظل عليهم بلا انقطاع كل زمن الدول الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين اي من اواسط الجيل السابع عشر الى اخر الجيل الثالث عشر قبل الميلاد وفي كتاب الدليل لماري الانكليزي ان هذا الامد بدا في اواسط الجيل الخامس عشر وانتهى في اواسط الثاني عشر وقد قرا العلماء على جدران هياكل مصر ما ينبيء عن حدوث ثورات عظيمة في سوريا ابان خضوعها للمصريين وان ثوراتها كان يعزى تارة للاشوريين وطورًا للحثيين الشماليين واهمها ما سار لاخضاعهِ الفراعنة توطمس الثالث (تولى سنة ١٤٦٢ ق م) وساتي الاول (تولى سنة ١٣٢٢ ق م) ورمسيس الثاني (تولى سنة ١٣١١ ق م) ورمسس الثالث (تولى سنة ١٢١٩ ق م) على انا لم نرَ بين اسماء الثائرين المشهورين ذكر الصيدونيين او احدى مدنهم الا ان سائر المدن الفينيقية كانت تساعد

العصاة واكثر تلك القبائل ميلاً الى العصاوة وخلع نير الاجانب كان الارواديون والسمريون والجرجيون وقد خلَّف فراعنة هذا العصر لهم ذكرًا مخلدًا على صخور نهر الكلب بجوار بيريت اي بيروت وفي عدلون على مقربة من صور وقد ترجمت ورقة بابيروس موجودة في دار التحف البريطانية ومفادها ان مامورًا مصريًا ساح في سوريا في اواخر دولة رمسيس الثاني (سنة ١٣١١ ق م) بعد عقد الصلح النهائي مع الحيثيين ومع ان كتابتهُ كتابة تصورية فقد دلتنا على حالة البلاد السورية في زمن كتابتها ولذلك اصبح لها شان عظيم في التاريخ. قال صاحب السياحة انهُ اتي بلاد الحيثيين وسار حتى حابون وهي حلب ولما قفل راجعًا مرّ على فينيقية لياتي فلسطين منها فجاء جبيل واحكى عما لها من البسطة الدينية ثم اتى بيروت وصيدا وسرابتا اي صرفند ثم صور ثم حازور قال انّ البلاد التي مر عليها كانت مصرية حتى انهُ طافها بتمام الحرية والامن اللذين ينالهما اذا طاف مصر وكان يتامر في الناس ثقةً منهُ في منصبهِ

فينتج مما تقدم ان الصيدونيين والسينيين سكان جبيل كانوا قد انشقوا عن اخوانهم الكنعانيين وانتهجوا منهاجًا يعاكسهم لانهم عوضًا عن ان يهتموا بالحصول على استقلالهم ظلوا مقيمين تحت النير المصري راضين بسلطة الفراعنة ولا ريب ان ملوك مصر الحاكمين شعبًا لا يعرف التجارة ولا الملاحة كانوا يسرون بالصيدونيين والسينيين لما يبدون من الخدم ويحبونهم شروطًا اكثر نفعًا لهم مما لم يكن لاخوانهم حظ نوالها فكانوا يرضون بذلك عن حب الوطن والجنس ولا يخفى ان خضوع فينيقية لغيرها كان من شانها مددًا طويلاً من تاريخها وظلت تفتح رحابها للفاتحين بغير ممانعة عظيمة وتسر بطاعة عظماء الدول الا انها تشرط عليهم ان تحكم نفسها بما لها من النظام الداخلي والتقليدات الوطنية

وما ياتي يعلم ارتباط الحيثيين بالمصريين واستقلالهم الداخلي وهو

منقول عن البابيروس

قال ارسل امير الحيثيين رسولاً الى امير الجليل يقول لهُ قد تم كلام الله فاذا كنت مستعدًّا هيَّا بنا الى مصر حتى نقدم الاحترام اللازم للملك رمسيس العاطي نسمة الحيوة ان يحبهُ وبالحقيقة لم تكن جميع الاقطار موجودة الا بوجوده

وقال ان رمسيس الثاني عقد عهدًا مع ملك الحيثيين وهم من اقوى شعوب سوريا مآلهُ ان بمدة خمس سنوات لا يمكن لاحد من رعايا احدى هاتين الدولتين ان يقيم في بلد الاخر او يأتيها زائرًا وذلك بمعاهدةٍ هذا بند منها اذا ذهبت رعايا رمسيس الثاني الى امير الحيثيين فلا يقبلهم ويردهم بمعرفتهِ الى رمسيس الثاني ملك مصر الاكبر واذا حضرت رعايا خيشازار من بلاد الحيثيين الى رمسيس الثاني فلا يقبلهم ويردهم ايضًا الى امير الحيثيين المار ذكرهُ اه . والظاهر ان امير الحيثيين بعث رجلاً اسمهُ ترتايزون الى مصر فعقد هذا العهد مع الملك رمسيس وقد وجدت هذه الكتابة في خرابات هيكل كدناك في ثيبة (ترجمة الشعر وما على العامود منقولة عن قلم الخواجا نخله صالح من مصر)

وكانت كل مدائن الصيدونيين تابعة صيدا وكان يقيم فيها ملك يسوس امورها ويدبر مهامها ولم تكن جبيل من عمالتهِ حيث كان لها ملك مستقل عنهُ وكانت تدبر اعمالها منفردة عن صيدا وتبعث بنحلها الى الاقطار حيث كانوا لا يتحدون مع نحل الصيدونيين وقال العلامة موفرس ان نحل جبيل اقدم من غيرهنَّ

واما صور فقد كانت منذ ايام الدولة التاسعة عشر بدليل ما اوردناهُ عن السياحة التصورية المترجمة عن ورقة البابيروس على انها كانت شطرين ليس لها اهمية كبرى . ولا ريب ان وجود سلطنة صيدونية سلطتها ممتدة على مجتمع المدن المؤلفة فينيقية منها في الامد الواقع بين الجيل السابع عشر والجيل الثالث عشر قبل الميلاد لا ينفي قاطبةً القول بسلطة الفراعنة على البلاد في الزمن ذاتهِ . لانا نعلم ان ملوك مصر يحكمون البلاد الاسيوية بعد

اخضاعها بالسيف بمجرد التسلط على ملوكها الصغار الوطنيين الذين يلتزمون الاعتراف بسيادة فاتحيهم عليهم ويشركون في احكامهم ولاة ينتخبهم ملوك مصر ويقومون بدفع الجزية ويقدمون للجيش المصري عدداً من الجند الا ان الصيدونيين لم يقدموا لملوك مصر رجال حرب يقاتلون في البر بل الارجح انهم كانوا ينجدونهم بالسفن وجهازها كما كانوا ينجدون بعد ذلك العصر ملوك الاشوريين وفارس ولعل الفينيقيين كانوا يهتمون بتجهيز السفن الحربية وتسيارها للفتح باسم مواليهم المصريين قاصدين بذلك الانتفاع بالتجارة على انهم يعطون لمواليهم حق السيادة على البلاد المفتوحة ويجبون لهم الضرائب منها ويكون نفعهم من ذلك افتتاح مراكز جديدة للتجارة لا تكلفهم شيئاً كثيراً لان باستنادهم الى دولة عظيمة كالمصريين كانوا يكتفون مؤنة اخذ ابناء جلدتهم عسكراً وبذل اموالهم نفقة على ما يفتحون ودليلنا في ذلك ما كانوا يفعلون للاشوريين والفرس من الفتح باسمهم وما نفع ذلك الاَّ لهم ولا يبعد ان يكون ذلك شانهم مع المصريين سيما وان المصريين لم يكونوا شعباً بحرياً يماثلون في ذلك الاشوريين والفرس فضلاً عن ان اساطيرهم كانت تمنعهم من ركوب البحر فاذا كان الفرس والاشوريون وليس لهم هذه الاوهام لا ياتون البحر الا بمراكب الفينيقيين وغيرهم كان احرى بالمصريين ان يكونوا قد سبقوهم الى استخدام الصيدونيين فيه

وعلمنا ان في عصر الملك تطمس الثالث كانت عمارة مصر عظيمة تجبي له الضريبة من اقاصي البحر فان هذه العمارة عندنا الا سفن الصيدونيين وقد جاءت بحروب وافعال كانت اسًّا لفخر مولاهم ومصدراً لاشتهار امره والحق يقال ان المحال التي عرفنا بذهاب تلك العمارة اليها انما هي المعروفة عندنا بتردد الصيدونيين اليها بالتجارة حيث كان لهم فيها بنايات عظيمة وآثار جمة فان لم يكن ما ارتايناه صحيحاً يكون ذلك الاتفاق غريباً عجيباً

وبينما كانت صيدا تزدهي في عظمتها البحرية حدث ان في العصر

الخامس عشر ق م عقد اتحاد بين البلاسجيين والليبيين وهم يومئذٍ شعوب يسكنون اليونان والجزر و بعض جهات افريقيا و بدأوا يتجرون في البحر ويزدادون فيهِ قوة فنتج من ذلك ابتداء انحطاط صيدا ونقلص ظلها لان المتحدين كانوا لها اعداء يناظرون تجارتها ومن ثم نشأت فيئة القرصان وهم قوم كانوا يركبون السفن و يطوفون البحار ليوقعوا بالسفن التجارية و ينهبوها فاصبحت الملاحة في جوار بلاد اليونان لا تخلو من الخطر وكان اهالي الجزر اليونانية يهاجمون النخل الصيدونية و يسعفهم في ذلك البلاسجيون واشتد الحال على النخل لما اصبحت السفن الصيدونية اقل ترداداً على هاتيك الجزر فاخذت النخل بالاضمحلال الواحدة بعد الاخرى حتى اتاها الدثار عن اخرها الا نخل تاثيرا ومالوس وثاثوس فانها كانت قادرةً على الثبات ازاء عواصف المهاجمين والمظنون انهُ لو ظلَّ فراعنة مصر يجدون سفن صيداء بالمال والرجال كما كانوا يفعلون ايام تطمس الثالث لعسر على اليونان ومحالفيهم دثار النخل الصيدونية على ان اخر فراعنة الدولة الثامنة عشر اشتغلوا عن الاهتمام في البحر بما ناب البلاد من المصاعب ودولتهم من القلاقل ولما بدأ ملك الدولة التاسعة عشر لم يرَ ملوكها في تقوية امرهم في البحر ولا في ارجاع سطوتهم الضائعة فيهِ ولذلك التزم الصيدونيون ان يعدلوا الى قواهم الخاصة دفاعاً عن صوالح تجارتهم ونخلهم بيد انهم لم يكونوا كفوءًا لمضاديهم

اما دخول الاسرائليين الى البلاد فكان قبل هذا الزمن وذلك ان في سنة ١٤٩١ ق م خرج الاسرائليون من ارض مصر تحت قيادة النبي موسى فبعد ان سار بهم في البرية اربعين سنة حتى اندثر كل جيلهم دخلوا ارض الميعاد فاخذوا ينزلون بها و بسكانها الويل والحرب الى ان تملكوها بعد ان خربوا فيها احدى وثلاثين امارة كنعانية وهرب كثيرون من الكنعانيين من امامهم واتوا السواحل آمنين فيها من تطرق الاعداء اليها لان بلاد الصيدونيين كانت في مأمن من العدوّ على ان اللاجئين اليها قومٌ شأنهم الزراعة والحراثة حيث

كانت بلادهم ذات سعة وخصب فلما جاءوا بلاد صيدا رآوها غير قادرة على اعالتهم لضيقها عنهم فنتج من ازدحامهم العزم على المهاجرة فسار منهم قوم يترأسهم رجل يقال له عندهم قادموس ومعناه المشرق واتى ثابس من بلاد اليونان واسس هنالك نحلة فينيقية وفي الاساطير ان نسل قادموس صار بعد حين يناظر اليونان على الملك في ثابس وانهم ظلوا كذلك حتى صارت حكومة ثابس جمهورية

وسار من اللاجئين قوم اخرون الى افريقية واقاموا فيها ففي سنة ١٤٥١ ق م وهي تمام الاربعين السنة دخل الاسرائيليون سورية بعد ان عبروا بلاد بني عمون فلم يعادوهم وكان يسكن هذه البلاد الرفائيون ويدعوهم العمونيون زمزميين ويقولون انهم كثيرون جدًّا وطويلو القامات كبني عناق وكان بنو عيسو يسكنون جبل سعير والارض المجاورة وذلك بعد ان طردوا الحوريين منها وفي قرى غزه وتلك السهول كان قوم يقال لهم العويون فخرج اهل كفتور وقتلوهم وسكنوا مكانهم ومرّ بنو اسرائيل في تلك الارض ولم يعارضهم فيها احد حتى دنوا من حشبون فبعثوا رسلاً الى ملكها سيحون وهو اموري يقولون له انهم يمرّون بارضهِ ولكن لا يمسونه بل يشترون زادهم بالفضة فابى سيحون ذلك واعاد الرسل بالخيبة فنادى موسى بالحرب على المدينة وخرج سيحون لقتالهم والتحم القتال فدارت الدائرة على سيحون وجنودهِ وولوا منهزمين فاستولى الاسرائيليون على المدينة ونهبوها وقتلوا اهلها عن اخرهم ثم ساروا بطريقهم فخرج عوج ملك باشان لقتالهم فاوقع بهِ الاسرائيليون واستظهروا عليهِ واستولوا على مدنهِ وكانت عدتها ستين وهي كل كورة ارجوب وكانت حصينةً الا ان النصر رافق الاسرائيليين حتى استولوا بزمان يسير على كل البلاد الامورية التي في عبر الاردن من وادي ارنون الى جبل حرمون وهو جبل الشيخ وكان الصيدونيون يدعونهُ جبل سريون والاموريون يدعونهُ سنير ثم ان الباري تعالى قبض موسى اليهِ بعد ان اقام يشوع بن نون خليفةً لهُ في قيادة الشعب فحرض يشوع

القوم على الجهاد وبعث بالعيون ليتجسس الارض ولما علم بما كان فيها سار بقومهِ واجتاز الاردن فوقفت المياه تلاً عاليًا على الجانبين فكان مرورهم من العجائب المدهشة التي شاء تعالى عملها لبني اسرائيل اما بعض المتاخرين فيقولون ان ارتداد مياه النهر لم يكن الا من قبيل المد والجزر ويخالفهم كثيرون فلما بلغ الاسرائيليون موقفهم علم ملوك الاموريين والكنعانيين بان الله شق الاردن لعبورهم وانهم على جانب من قوة البأس والشجاعة خافوا جدًّا فتقدم الاسرائيليون الى اريحا وحاصروها حتى دخلوها وقتلوا اهلها ثم تجهز الاسرائيليون وبعثوا عيونًا يتجسسون عاي فقالت العيون ان ارسلوا ثلاثة الاف فقط فلما ذهبوا انكسروا فسار يشوع بكل جيشهِ لقتال المدينة واخذها بحيلة واحرقها بما فيها وسلب اسرائيل البهائم لانفسهم غنيمة حرب ولما شاعت هذه الاخبار ارتعدت ملوك البلاد الذين في عبر الاردن في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الى جهة جبل لبنان كالحيثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين فاجتمعوا معًا وساروا لمحاربة اسرائيل وعرف اهل جبعون ان الاسرائيليين قد دنوا منهم وانهم سيبيدونهم عن اخرهم فاحتالوا عليهم وعقدوا معهم عهدًا الا يمسوهم وبلغ بعد ذلك يشوع وقومهُ حيلة اهل جبعون فتكدروا واتخذوهم عبيداً ياتونهم بالحطب والماء ولم يقتلوهم لان يشوع اقسم لهم باسم الرب ثم بلغ ادوني صادق ملك اورشليم ان اهل جبعون قد سلموا لاسرائيل عن طيبة خاطر فخاف جدًّا لان جبعون كانت من المدن الملوكية وارسل الى هوهام ملك حبرون وفيرام ملك يرموث ويافع ملك لخيش ودبير ملك عجلون ان ينجدوهُ بقتال جبعون لانها عنت بارادتها لتلك الامة الغازية فبلغ اهل جبعون ذلك واستغاثوا بالاسرائيليين فاتاهم يشوع وكسر الملوك الخمسة كسرة هائلة واختبأُوا في مغارة في مقيده وعرف يشوع ذلك فامر بسد باب المغارة عليهم الى حين وسار لمقاتلة جيوشهم فقتل منهم كثيرين ولم ينجُ الا الذين التجأُوا الى الحصون ثم امر يشوع ففتحت المغارة

واخرجت الملوك فجاءت قادة جيشهِ وداست رقابهم ثم امر بهم فعلقوا على خشب وعند المساء انزلوهم واعادوا جثثهم الى المغارة ووضعوا على بابها حجارة كبيرة فهلكوا عن آخرهم

ونزل يشوع على مقيدة واخذها وقتل ملكها واتي لبنه ففعل فيها كذلك ثم اجتاز الى لخيش وقتل اهلها وملكها فخرج هورام ملك جازر لنجدة الخيش فضربهُ يشوع مع شعبهِ ولم يبقِ لهُ شاردًا وهكذا فعل بعجلون اوعدلاّم وبجبرون وبدبير وكل الجبل والسهل والسفوح فاخذها وتملكها واحلّ الاسرائيليون بها موطنًا جديدًا ثم بلغ يابين ملك حاصور ويوباب ملك مادون وشمرون ملك اكشاف والملوك الذين في الجبل وفي العربة جنوبي كزوت وفي السهل وفي مرتفعات دورغربًا ان الاسرائيليين قد قهروا مجاوريهم وان لا بدّ من افتتاح بلادهم اذا سكتوا عنهم فتكاتفوا جمعًا واحدًا وعينوا يومًا مسمى وجاءوا فنزلوا على مياه ميروم بخيل ومركبات وفرسان كثيرة جدًّا وساروا لقتال جموع اسرائيل وبينما هم مجتمعون واذا بالاسرائيليين قد فاجأُوهم بغتةً فكسروهم كسرة هائلة وطردوهم حتى صيدون العظيمة والى مسرفوت مايم والى بقعة مصفاة شرقًا واحرق يشوع حاصور وغيرها ونهب مدنًا كثيرة واستولى على كل الجنوب وكل ارض جوشن والجبل والسهل والعربة من الجبل الاقرع الصاعد الى سعير ومنها الى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون ولم يصالح الاسرائيليون في كل فتوحاتهم الا الحويين وهم سكان جبعون والكفيرة وبئروت وقرية يعاريم الذين تقدموا اليهم بالحيلة كما ذكرنا واستأصل الاسرائيليون العناقيين من الارض ولم يبقَ منهم الا في جت وغزه واشدود وكان عدد الذين قتلهم الاسرائيليون من الملوك واحد وثلاثين ملكًا ولم يتجاوز امد محاربتهم السنة على انهم عند فروغهم من القتال اقتسموا البلاد بينهم بالقرعـــة

اما بقية القبائل والاسباط السورية فلا نعلم من امرها الا القليل اوما

تعلّق بعض التعلق بالامة اليهودية مما روتهُ لنا الاسفار المقدسة او المؤرخون من اليهود على ان الفينيقيين وهم اعظم امم سوريا قد بين لنا التاريخ كثيراً من احوالهم وعوائدهم وتواريخ تقلباتهم مما سنذكرهُ في محلهِ اما الاراميون سكان دمشق وجوارها فيشهد التاريخ بقدميتهم وربما كانوا من اول الازمنة المعروفة حتى ان بعض المؤرخين يقول ان عائلة آرام بن سام بن نوح قد هاجرت الى سوريا وسكنت بلاد الشام ودعتها اراميا وذلك سنة ٢٢٢٤ ق م وروى بعض المدققين ان آرام هي ذات بلاد سوريا وان سوريا مشتقةٌ من صور حيث لما عرفها اليونان في اقدم العصور دعوا كل البلاد باسمها كما حاول هيرودوتس ان يسمي الفينيقيين باسم صيدونيين وقد ذكرت آرام كثيرًا في الكتاب المقدس وتميزت عن غيرها بارام دمشق وروى يوسيفوس بن كربون المؤرخ اليهودي في كتابهِ (القدميات ك ١ ق ٦ ع ٤) ما ياتي ان لسام ثالث اولاد نوح خمسة بنين سكنوا الارض التي تمتد من الفرات حتى الاوقيانوس الهندي فمن نسل عيلام تسلسل العيلاميون وهم اجداد الفرس اما اشور فسكن مدينة نينوى ودعا قومهُ اشوريين وقد تقدم الاشوريون الى درجة عليا اما ارفخشاد فهو جد الارفخشاديين المعروفين بالكلدان وارام جد الاراميين الذين يدعوهم اليونان سوريين ولآرام اربعة بنون منهم أوز وهذا اسس مدينتي تراكونيتيس ودمشق وهذه البلاد واقعة بين فلسطين وكلسيريا الخ (كلسيريا هي سهول البقاع) .

رُوي ان رزّون بن اليدع وهو رجل من حشم هدرعزر ملك صوبة هرب من عند سيدهِ واحتشد رجالاً وصار رئيس غزاة واتى دمشق واقام بها وملك عليها وكان خصمًا لدودًا لمملكة اسرائيل وبعد ان حكم زمانًا تولى عوضهُ حزيون وبعد هذا تولى طبريغون ابنهُ

وعلى عهدٍ قريب من دخول الاسرائيليين الى سوريا جاء الفلسطينيون اليها من كريت ونزلوا البلاد الجنوبية منها ودعوها فلسطين على انا عرفنا

الفلسطانيين قوماً من نسل يافث كانوا يسكنون كريت فاتحدوا هنالك مع المحالفة البلاسجية والليبية ثم هاجروا الجزيرة في زمن الفرعون رمسيس الثالث وجاءوا بسفنهم الى سوريا فهاجمهم رمسيس وكسرهم واعدم سفنهم وقادهم الى الاسر وحيث كانوا شعباً كبيراً اعطاهم ارضاً واسعة ليزرعوها ويحتلوها آمنين فنزلوا حوالى غزه واشدود وعسقلان وغيرها وكان ذلك في اواخر الجيل الرابع عشر ق م وبدأ الفلسطانيون ينمون ويزدادون قوةً بما كان ياتيهم من المهاجرين الكرتيين وبما كانوا يشعرون به من ضعف دعوة الفراعنة في البلاد سيما ملوك الدولة العشرين وتمادى بكبرهم الامر فجمعوا عسكراً عظيماً وباتوا بعد نحو جيل يطمعون بالحكم في البلاد واستعدوا لمحاربة الاسرائيليين والصيدونيين فواقعوا الاسرائيليين وفازوا عليهم في بعض المعارك فاحتكموا في البلاد التي اخذوها وساروا في الناس سيرة ردية يجورون في الحكم ولا يقسطون وقد ظلوا في غيهم نحواً من نصف جيل ولما ابتدأ امرهم وارتفع شانهم وكان ذلك نحو سنة ١٢٠٩ ق م جهزوا عمارة كبيرة خرجوا فيها من عسقلان وجاءوا صيدا وهي على غير اهبة للقائهم فاحطوا عليها ودكوها واسروا بنيها فصارت عاصمة الفينيقيين الى الدثار والدمار

فلما نزل بصيدا هذا الوبال انتقلت السيادة الى صور وكانت من الخاضعات لها قال جوستين ما يدل على ان بناء صور كان قبل حرب ترواداا بسنة واحدة وهذا يكون سنة ١٥٠٠ ق م وان الذين بنوها هم كهنة هيكل هركيل وقيل ان بعد بنائهم مدينة صيدا بسنين كثيرة حاربهم ملك عسقلان فكسرهم فاتوا صور وبنوها (راجع جوستين وجه ١٨ عد ٣) اما الاختلاف الذي وقع بين المؤرخين في زمان تاسيس المدينة فسوف نذكرهُ في تاريخها

وفي سنة ١٤٢٥ ق م صعد بعض اسباط الاسرائيليين وحاربوا الكنعانيين فاخذوا ابازق ومسكوا ملكها ادوني بازق بعد ان هرب وقطعوا اباهم يديه ورجليه

فقال ادوني بازق انني بحق جُزيت لاني كنت اضع تحت مائدتي سبعين ملكًا مقطوعة اباهم ايديهم وارجلهم وهذا يدل على اقتدارهِ السابق وفي تلك السنة رحل الاسرائيليون الى اورشليم وكانوا قد افتتحوها منذ ١٩ سنة اي سنة ١٤٤٤ ق م وقد اتخذوا الجهة السفلى منها وسكنوها مع اليبوسيين وعليهم يومئذٍ كالب بن يفنة امرهُ فيهم يشوع بن نون فلما اتوها هذه السنة اي سنة ١٤٢٥ ق م امتلكوها كلها وضربوا سكانها بحد السيف واحرقوا المدينة بالنار وخصت بسبط بنيامين فاحتلها مع بقية قليلة من اليبوسيين الاصليين فيها ظلوا هنالك حتى طردهم داود الملك منها ثم فتح الاسرائيليون غزة واشقلون وهي عسقلان ونحوها وعقرون وجوارها ولما امتدت فتوحاتهم اجازوا للكنعانيين السكنى بينهم ثم ازدادت قوة الاسرائيليين فوضعوا الجزية على مساكنيهم واستمرت سكان عكا وصيدون واصلب واكزيب وحلبة وافيق ورحوب من الكنعانيين واكثرهم تحت الجزية

وفي سنة ١٤٠٦ ق م طلب سبط الدانيين من بني اسرائيل ملكًا يسكنون فيهِ فارسلوا من يتجسس لهم الارض وكان هنالك بلدة فينيقية يقال لها لايش فدخلها الجواسيس وفحصوا الارض وراوا اهلها ساكنين بطمأنينةٍ كعادة الصيدونيين وهم بعيدون عن اخوانهم فعادوا الى قومهم وجاءوا بهم الى تلك المدينة فاخذوها وقتلوا اهلها واقاموا لاهلها تماثيل واصنام ليعبدوها

ورغب كثيرون من الاسرائيليين في عبادة الوثن وكانوا يقيمون لهُ المرتفعات الا انهم كانوا لا يطيلون البقاء على ضلالهم لان الانبياء الكرام والصالحين كانوا ينذرونهم

وفي سنة ١٤٠٢ ق م اتى كوشان رشعتايم ملك ارام النهرين واستولى على اسرائيل فعنوا لهُ ثمان سنوات حتى ضجروا فخلصهم عثنئيل بن قناز وقتل كوشان سنة ١٣٩٤ ق م وفي سنة ١٣٥٤ ق م سار عجلون ملك موآب الى اسرائيل وحاربهم ببني عمون وعماليق فقهرهم وعنوا لهُ ١٨ سنة ثم رفع عنهم نيرهُ تحت قيادة اهود بن جيرا الذي قتل عجلون بحيلةٍ وقاد اسرائيل للحرب حتى

ظفروا بالعدو وذلك سنة ١٢٢٦ ق م وبعد ٢٠ سنة اي ١٢١٦ ق م ثار يابين ملك كنعان وهو في حاصور بجيش عرمرم بتامرةُ وزير سيسرا فضايق اسرائيل جداً وكان قائدهم باراق بن ابنيوعم فسار وضرب جيوش سيسرا فكسرهم واجبر قائدهم على الفرار حتى اتى مضرب امراة فقتلته بالوتد وهو نائم وتبع الاسرائيليون يابين حتى قتل

وفي سنة ١٢٥٦ ق م ثار المديانيون على اسرائيل فعنوا لهم ٧ سنين وعمل الاسرائيليون لانفسهم كهوفاً في الجبال ومغائر يلتجئون اليها وكان الفاتحون يتلفون مزارع الاسرائيليين وانعامهم ويجيئون الى مراعيهم وحقولهم بالخيول والجمال وهي كثيرة فتعطل غلة الارض وظلوا كذلك حتى اوشك الاسرائيليون الهلاك فتراءف الله عليهم واوعز لهم قيام جدعون بن يواش فقتل من المديانيين مائة وعشرين الف رجل وهرب ملكا الشعب ومعهم خمسة عشر الفاً فتبعهم بجنده وكسرهم واسر الملكين وذبحهما لانهما كانا قد ذبحا اخويهِ وكان عدد جيشهِ ٣٠٠ رجل وكانت هذه الحرب قد حدثت سنة ١٢٤٩ ق م

وفي سنة ١١٦١ ق م ثار الفلسطانيون وبنو عمون على الاسرائيليين فحاربوهم واخضعوهم واستولوا عليهم مدة ١٨ سنة لكن يفتاح حارب العدو وخلص اسرائيل ونذر قتل من يخرج للقائهِ اولاً فقتلت ابنتهُ الوحيدة بعد مهلة شهرين ناحتهما على نفسها . ثم عاد الاسرائيليون فانكسروا امام الفلسطانيين الذين كانوا لا يفترون عن محاربتهم واستولى الفلسطانيون اربعين سنة على الاسرائيليين وذلك سنة ١١٦١ ق م وفي سنة ١١٤١ ق م

وبعد ان حكم القضاة في اسرائيل زماناً طويلاً وكان اكثرهم من الانبياء طلب اسرائيل ملكاً فاقاموا عليهِ شاول بن قيس وذلك سنة ١٠٩٥ ق م بعد ان كان قد سار بثلاثمائة وثلاثين الف رجل من اسرائيل ويهوذا وقاتل العمونيين فكسرهم عن اخرهم واخرجهم من يابيش جلعاد وفي سنة ١٠٩٣ ق م وهي السنة الثانية من ملكهِ جمع شاول ٣٠٠٠ رجل فاخذ منهم قيادة الفين

وجعل ابنهُ رئيساً على الف وسار لقتال الفلسطانيين فجمع العدو ٣٠ الف مركبة وستة الاف فارس وجيشاً جرّاراً فخاف اسرائيل ولم يكن عندهم سلاح لانهم كانوا لا يصطنعونهُ ولا يعرفون شيئاً من الصنائع والمهن حتى ان الشعب كان ياخذ السكك والمناجل والمثلثات الاسنان او الاصابع والفؤوس والمناسيس الى الفلسطانيين ليعملوها او ليصلحوها

وكان الجيشان متقابلين مدة طويلة مستعدين للقتال حتى سنة ١٠٨٧ ق م فاشتبك القتال بحركة ابداها يوناثان ابن الملك حتى تشتت شمل العدو فهرب وانتصر اسرائيل وغنم غنيمة كبيرة . وحارب شاول الموابيين والعمونيين والادوميين وملوك هوبة والفلسطينيين وكان كثير الغلبة فائزاً في حروبهِ ومغازيهِ

وفي سنة ١٠٧٩ ق م سار شاول بمائتين وعشرة الاف من اسرائيل ويهوذا لقتال عماليق انتقاماً منهم لانهم عارضوا الاسرائيليين حين مرورهم من مصر وقتل صموئيل بيدهِ اجاج ملكهم وبما ان الفينيقيين كانوا قد احسنوا الى الاسرائيليين بمرورهم امر شاول ان يخرجوا من بين عماليق ليضربوهم لانهُ لا يشاء قتل من احسن الى قومهِ وفي سنة ١٠٦٣ ق م مسح داود بن يسى ملكاً وكان يرعى غنم ابيهِ وهو اصغر اخوتهِ فحارب جبار الفلسطانيين وقتلهُ فانكسر جمعهُ وولوا الادبار وسر الاسرائيليون بالفوز واخذ داود بالتقدم وتزوج ابنة شاول وكان لم يزل ملكاً على ان شاول بغض داود لانهُ سمع النساء تغني باسمهِ وعمل على قتلهِ فهرب داود وخرج شاول يطلبهُ وما زال هارباً حتى سنة ١٠٥٨ ق م حيث فر الى عند اخيش بن معوك ملك جت واقام عندهُ مع الستمائة رجل الذين معهُ فاعطاهُ اخيش هيقلغ فملكها داود ويهوذا بعدهُ وكان داود يغزو من جاورهُ من الامم كالجشوريين والجرزيين والعمالقة وياتي باسلابهم الى مدينتهِ التي ظل يسكنها سنة واربعة اشهر .

وفي سنة ١٠٥٦ ق م جمع الفلسطانيون رجالهم حرب اسرائيل فاستدعى اخيش داود وطلب اليهِ ان يرافقهُ فقال داود ستعلم ما يفعل عبدك فوعدهُ اخيش ان يجعلهُ حارس راسهِ كل الايام وخرج الفلسطانيون والاسرائيليون للقتال فلما عرف اقطاب الفلسطانيين بوجود داود بينهم ابوا ذلك والحوا على اخيش ان يردهُ ففعل وعاد داود . فراى ان العمالقة قد اتوها ونهبوها واحرقوها فتبع آثارهم وادركهم وكسرهم وعاد بالغنائم ولما حارب الفلسطانيون الاسرائيليين انكسر الاسرائيليون وتقهقروا الى الوراء وقتل شاول في الحرب مع بنيهِ وحامل سلاحهِ وهرب الاسرائيليون فحلّ العدو في بلدانهم وبلغ الامر داود بعد رجوعهِ من قتال العمالقة فشق جيوبهُ حزنًا على قتل شاول ويوناثان وقام داود واتى حبرون فمسحهُ بنو يهوذا عليهم ملكًا اما الاسرائيليون فمسحوا ايشبوشت بن شاول بمساعدة ابنير وزير ابيهِ فوقعت الحرب بين الفئتين واستعرت حتى وقعت النفرة بين الوزير وايشبوشت بن شاول فبعث ابنير برسالة الى داود يعرض عليهِ مساعدتهُ الا ان ابنير قتل غدرًا وكذلك ابن شاول فتكدر داود من ذلك

ثم ملك داود على اسرائيل وكان لهُ سبع سنوات ونصف ملكًا على يهوذا ودخل اورشليم مدينة اليبوسيين وحارب الفلسطانيين فقهرهم وفي سنة ١٠٤٠ ق م جهز جيشهُ على الفلسطانيين والموابيين وضربهم وثار على هدر عذر بن رحوب ملك صوبة حين ما كان ذاهبًا ليرد سلطتهُ عند نهر الفرات فضربهُ واسر من جيشهِ الف وسبعمائة فارس وعشرين الفًا من المشاة وعرقب جميع خيول المركبات وابقى منها مائة مركبة وبلغ الامر لارام دمشق فجهز فيها جيش كثيف واتى لنجدة هدر عذر ملك صوبة فضرب داود من آرام اثنين وعشرين الفًا وملك داود آرام دمشق واقام عليها حرّاسًا وصار الاراميون لداود عبيدًا يقدمون الهدايا وسمع توعي ملك حماه ان داود قد ضرب كل جيش هدر عذر ملك صوبة فارسل يورام ابنهُ يستعطف خاطر داود ويقرئهُ السلام

مصحوباً بكثير من الهدايا التي كثر ورودها الى داود من آرام ومؤاب وبني عمون والفلسطينيين وعماليق وغيرهم وذلك بعد حرب آرام واستعبد داود الادوميين وفي سنة ١٠٣٧ ق م توفي ملك عمون وملك حانون ابنهُ عوضهُ فارسل داود رسلاً ليعزي حانون بوفاة ابيهِ لان اباهُ كان صديقاً لهُ فاوغر ارباب مشورة حانون صدرهُ على داود قائلين ان هولاء انما جاءوا ليجسوا المدينة وليس ليقدموا لك التعازي فظن حانون ذلك حقيقة فاخذهم وحلق انصاف لحاهم وقصَّ ثيابهم من الوسط الى استهم ثم اطلقهم فجاءوا واخبروا داود بما كان

وعرف العمونيون خطاءهم وان داود لابد يانيهم برجالهِ فارسلوا واستاجروا جنوداً من آرام بيت رحوب وارام صوبة عشرين الفاً واستنجدوا ملك معكه فارسل اليهم الثامن جنودهِ واتاهم من طوب اثنى عشر الف رجل وللمصارت الملاحمة اجلت عن انكسار الاعداء ورجوعهم الى بلدانهم خاسرين وارسل هدرعذر لنجدة آرام قوماً من جندهِ تحت رئاسة شوبك فانهزم ارام من امام اسرائيل وابلى داود فيهم بلاءً حسناً وراى الملوك المحالفون لهدرعذر ان اسرائيل قد فازوا وانتصر عليهم فخافوهُ وصالحوهُ

واستمر داود في ملكهِ عزيزاً مكرّماً فائزاً غازياً حتى قاربتهُ الوفاة سنة ١٠١٥ ق م فراى ادونيا ابنهُ ذلك فقام قاصداً الولاية بعدهُ وبلغ داود ذلك فبايع سليمان ابنهُ وهرب ادونيا ومسك قرون المذبح وحكم داود ٣٣ سنة في اورشليم على اسرائيل ويهوذا وبعد ان ملك ٧ سنين ونصف في حبرون اي الخليل على يهوذا فقط وملك سليمان عوضهُ وكان ملكاً حكيماً عادلاً على انهُ كان باطشاً قليل الحروب لكنهُ خبير في السياسة ففي سنة ١٠١٤ ق م تزوج ابنة فرعون ملك مصر وكانت مملكتهُ متسعة الجوانب تمتد من سبساكس عند الفرات حتى غزة عند حدود مصر

ولما استفحل امر الفلسطينيين في جنوبي سوريا وطمحت اعينهم بالسيادة

على كل البلاد واصبحوا رعبة للصوريين والاسرائيليين سيا وان الاراميين كانوا قد بداءوا ينحدرون من الشمال ويضايقونهم وليس لامة ثقة بالامة الاخرى ولا ارتياح اليها رأت رجال سياسة الاسرائيليين والصوريين وجوب التقرب الى بعضهم بحلفة تردأ عنهم بلاء الاجانب وتصير بلادهم قوية ممتنعة عن طارقيها وكانت لهم يومئذٍ فرصة ضعف الاشوريين والمصريين ونجاة بلادهم من سلطة الاجانب واستطالتهم فتمت الحلفة واستحكمت حلقات الاتحاد وغادر الفريقان ما يخامرهم من الحسد والضغينة معتاضين عنها بالولاء والعهد بالذب عن الذمار وكان حدوث ذلك بعد موت شاول وقيام داود ملكًا واتخاذهِ اورشليم عاصمةً حيث بعث حيرام ملك صور رسلاً الى داود يعقدون معهُ العهد ولما اراد داود ان يبني قصرًا ملكيًا في عاصمة مملكتهِ تقدم الى حيرام بالرجاء ان يبعث اليهِ بالصناع وبعض الاخشاب من لبنان الخاضع لسلطتهِ لان الاسرائيليين كان يشغلهم الفتح عن الامتهان بالصنائع المفيدة فكان افتقارهم لغير ابناء جلدتهم عظيمًا فلبى حيرام الطلب وبعث اليهِ بمن اراد

ولم تكن حاصلات بلاد الفينيقيين كافية لهم ولذلك كانوا ياتون بما يلزمهم من الحنطة والزيت من سهل الجليل وجبل يهوذا وهما في ملك اسرائيل ولقد حفظت لنا الاثار تاريخ قرنين من دولة الفينيقيين ابتداوهما الحلفة مع الاسرائيليين واخرهما بناء قرطجنة في افريقيا حيث علمنا انهُ لما توفي حيرام الاول ملك صور خلفهُ في الملك ابيبال الا ان زمن ملكهِ كاد يكون مجهولاً مع انهُ معاصر لامدٍ طويل من ملك داود ولا يعرف منهُ الا المسالمة مع الاسرائيليين وكان الصوريون يسرون بما يرون من فوز داود على الفلسطانيين والاراميين وامتداد ملكهِ وفي سنة ١٠٢٨ ق م تبوأ حيرام الثاني اريكة الملك الفينيقي مكان ابيهِ ابيبال فسار لقتال الكيتانيين الذين عصوهُ واثخن فيهم قتلاً واسرًا حتى عاد بهم الى طاعته وقد اختلف العلماء بمعرفة قبيلة الكيتانيين الا ان لانورمان وغيره يذهبون الى انهم سكان سيتيم او كتيم في قبرص وهم نحلة فينيقية

صيدونية كانوا يقرون بسيادة صيدا حتى سقوطها فعقوا واستقلوا عنها فاعادهم حيرام بالسيف

ولما توطد ملكهُ بداء بالاعمال العظيمة في صور حتى غير هيئتها ذلك انهُ امر بترميم هيكل هركيل فجاء ظريفًا متقنًا واقام عيدًا يدعونهُ عيد الشروق رمزًا عن موت هركيل وقيامهُ فكانوا يقولون هوذا هو نائم ولا بد ان يستيقظ وابني حيرام في صور صرحًا ملكيًا فاخرًا جدًّا واقام بتصليحات كثيرة معظمها في صور الجزرية فنتج من ذلك ابتدا سقوط صور البرية المعروفة يومئذ بباليتيروس

وبينما كان حيرام مشغلاً بهذه الامور ومهتمًا بهامات داود وخلفهُ ابنهُ سليمان فبعث اليهِ سفارة تهنئهُ بتبوء اريكة الملك مكان ابيهِ فاحسن سليمان اقتبالها وكتب الى حيرام يعلمهُ بعزمهِ على اجراء ما عهد اليهِ ابوهُ بعملهِ وهو بناء الهيكل العظيم المخصص لاله اسرائيل وهذه صورة التحرير

من الملك سليمان الى الملك حيرام

كان لابي الملك رغبة شديدة في بناء هيكل لمجد الله لكن الحروب المستديمة التي كان مجبورًا اليها لم تمكنهُ من ذلك لانها لم تسمح لهُ بترك السلاح الا بعد قهر اعدائه واخضاعهم بتأدية الجزية وبما ان الله سكب نعمتهُ عليَّ ومتعني بصلح وطيد اعتمدت ان اهتم بهذا العمل الذي أُوحي الى ابي انني سانال الحظ بالابتداء بهِ وتتميمهِ وبناء على ذلك التمس منك ان ترسل بعض اهل صنائع بلادك لكي يقطعوا مع عملائي الاخشاب اللازمة لهذا المشروع من جبل لبنان لان لا احد كما قيل بهِ الكفاية لذلك اكثر من الصيدونيين وانا ادفع لهم المبلغ الذي ترغبهُ

فلما وصل هذا الكتاب الى حيرام سرَّ بهِ وكتب الى سليمان جوابهُ قائلاً

من الملك حيرام الى الملك سليمان

انني اشكر الله الذي جعلك وريثًا لتاج ابيك ذاك الامير الكلي الورع والحكمة وسائم مرغوبك بكل سرور بان اصدر امري ان يقطعوا من نفس

احراشي جانبًا من جسورة السرو والارز وساحزمها مع بعضها وارسلها لك بحرًا الى احد شطوط بلادك الذي تعرفني انهُ اكثر سهولة لك لكي تنقلها الى اورشليم وبدلاً عن هذا التمس منك ان تسمح لي باستجلاب قدرٍ من الحنطة لانها كما لا يخفاك تلزمنا بهذه الجزيرة

قال يوسيفوس ان صورة هذين التحريرين كانت لم تزل محفوظةً لعهد المسيح في سجلات صور واليهود وبما ان سليمان سرَّ بجواب حيرام اذن لهُ ان ياخذ الفي كيلة من الحنطة والفي قلة من الزيت ومثلها من الخمر وعين سليمان ثلاثين الفًا من الفعلة ليذهبوا الى صور يقطعون الاخشاب منها فكان كل شهر يذهب عشرة آلاف فاعل على مدة سبع سنين اه . الاَّ ان اشتغال حيرام بمصالحهِ لم يكن يمكنهُ من الاسراع باجابة طلب سليمان ولهذا تاخر بناء الهيكل الى سنة ١٠١٧ ق م

وكان سليمان قد رغب الى حيرام ان يقبل منهُ التخلي لهُ عن عشرين من المدن والقرى في الجليل مما يجاور بلاد صور الا ان ملك الفينيقيين ابى ذلك علمًا منهُ بان احرازهُ هذه البلاد ربما يكون بعد حين علةً لتباعد الامتين وعداوتهما ورغب الى حليفهِ التعاهد معهُ على اعطائهِ قدرًا معلومًا من الحنطة والخمر والزيت الى امد مسمى فكان ذلك بدلاً عما قدمهُ لسليمان من الاسعاف في بناء الهيكل

واتى الصوريون باخشاب الهيكل اطوافًا الى يافا ومنها نقلها الاسرائيليون الى اورشليم واستمرا العملة في البناء عشرين سنة وكان الذهب عند سليمان كثيرًا جدًّا ولذلك صفح عددًا من الاعمدة والاخشاب بهِ ورغب سليمان تمكين الصلات الودية بينهُ وبين حيرام فخطب ابنتهُ عروسًا لهُ . وقال بعضهم انهُ تزوج بها على ان الكتاب لم يذكر من ذلك شيئًا مع انهُ روي انهُ تزوَّج بسبعمائة امراة وثلاثمائة سرية وان بينهنَّ كثيرات من الامم الغريبة كالصيدونيات او الفينيقيات وربما كنَّ اكثر نسائهِ فانهُ ورد انهُ كان متزوجًا

بابنة فرعون المالك حينئذٍ في تانيس و بابنة ملك الحيثيين الشماليين

واشتهرت حكمة سليمان اشتهارًا عظيماً حتى اتتهُ ملكة سبا التمسا لهُ بعض الحِكَم وكانت العلاقات الودادية الجارية بين فينيقية واسرائيل تزداد يوماً فيوماً وخصوصاً بافتتاح داود بلاد الادوميين واستيلائهِ على خليج اليان فاقام سليمان هنالك حرساً ولم يكن قادرًا على الوصول الى المرغوب ما لم يساعدهُ الفينيقيون وكان سليمان يبني السفن ويعد الرجال ليكونوا مناظرين على الشحن فيها اما النوتية والديادبة وهم القلاووزات الذين يناظرون مسير السفن فكانوا من الصوريين ولولا اسعاف الفينيقيين لم يتمكن الاسرائيليون من الحصول على ثمرة في كل اسفارهم الى تلك البلاد على انهم بلغوا اوفيرا وهي قطر في جنوب بلاد العرب واتوا صوفالا عند شطوط افريقيا قبالة جزيرة مداكسكار وادركوا بلاد الهند واتجروا هنالك على ان زمن هذه التجارة لم يستمر طويلاً

و بعد ان حكم حيرام في صور زماناً مجيدًا حال في مملكتهِ من المصائب ما يحاكي ما حدث في اسرائيل بعد حكم سليمان فان حال سليمان شهير اما تخت صور فكان قد ثار عليهِ قوم واخذوهُ وكادت احوالهُ تحاكي احوال مملكة سليمان ومع ان رعايا صور كانوا ينظرون الى الامور بين الصالح العام اكثر كثيرًا من رعايا سليمان كان قد ثار الصوريون او بالحريّ الفينيقيون وقلبوا سرير حيرام حال كونهِ محبًا للاصلاح

وطفق الملوك يتقاطرون لزيارة سليمان ليروا حسن حالهِ ورغد عيشهِ ويسمعوا حكمتهُ التي طار صيتها في الآفاق ولما توفي تبواء ابنهُ رحبعام عوضهُ فما عتّم ان اتى يربعام بن نباط من مصر وكان خادمًا لسليمان وهاربًا من وجههِ اليها فطلب مع جمهور اسرائيل الى رحبعام ان يخفف ما ثقلهُ ابوهُ عليهم فلما ابى اجابتهم اقام الاسرائيليون يربعام المذكور ملكًا عليهم اما سبط يهوذا فاقام رحبعام بن سليمان

فسار رحبعام وجمع من يهوذا وبنيامين مائة وثمانين الف مقاتل قاصدًا قتال اسرائيل ليعود فيملك سريرها على ان الجيش لم يرضَ ان يقاتل اخوتهُ فكف عن القتال فعاد رحبعام واهتم بملكهِ فحصنهُ وبنى بعضَ المدائن ورمم اخرى وسنة ٩٧٤ ق م اتاهُ كثيرون من اللاويين الذين كانوا مختصين بخدمة هيكل الباري تعالى هاربين من امام وجه يربعام بن نباط ملك اسرائيل الذي مال عن عبادة الحق عز وجل وذهب وراء معبودات الامم واقام لنفسهِ ولشعبهِ كهنة ومعبودات على طرزهم فسلط الله على مملكتهِ شيشق ملك مصر وذلك سنة ٩٧١ ق م حيث صعد اليهِ بالف ومائتين مركبة وستين الف فارس وعدد غفير من الرجالة وشيشق هذا هو شيشنك الاول من الدولة الثانية والعشرين في مصر المعروفة بخلافة باباستينس فاتي هذا الملك الغازي واجتاح اورشليم وامر بنهبها واخذ منها مالاً كثيرًا وقفل عنها راجعًا الى بلادهِ دون محاربة غيرها ثم ملك اسّا على يهوذا وبعشا على اسرائيل وبدأت الحرب بين المملكتين من سنة ٩٥١ ق م واستمرت زمانًا طويلاً ثم جاء اوسوركون اوزارح ملك مصر مجتاحًا سوريًا على انهُ لم يذهب الى ما وراء اليهودية ومن بعد خلاص تلك الحرب لم يرجع المصريون للقتال حتى حرب الاشوريين حيث التزموا المحاربة حفظًا لمركزهم وكان قد اوشك السقوط حاسبين ان الذبّ عن ذمارهم من احسن السياسة الآيلة لحفظ دولتهم التي اسسوها بسفك دماء كثيرين منهم ثم شرع بعشا ملك اسرائيل ببناء الرامة ليمنع الناس من الدخول الى اسّا فجزع اسّا من ذلك وبعث الى بنهداد بن طبريمون بن حزيون بن رزون ملك دمشق بفضةٍ وذهب وقائل يستنجدهُ على بعشا لينقض عهدهُ معهُ ويحاربهُ فقبل بنهداد طلبهُ وبعث الى بلاد اسرائيل بجيش جرّار فضرب عيون ودان وابل بيت معكة وكل كنروث مع ارض نفتالي وبلغ بعشا ما كان فخاف وكفَّ عن بناء الرامة وبعد وفاة بنهداد الاول خلفهُ على سرير الملك ابنهُ بنهداد الثاني فلما ملك اخاب جمع بنهداد جيشًا

من كل بلاده واستدعى اثنين وثلاثين ملكًا من عبر الفرات لينجدوهُ ولم يكن جيش آخاب كجيش بنهداد فخاف واذخر ما عندهُ في مدنهِ الحصينة اما هو فاقام في السامرة لان اسوارها كانت منيعة و يعسر الاستيلاء عليها وجاءها ملك سوريا بجيشهِ ونزل بحول اسوارها وحصرها وارسل سفارة الى اخاب يقول لهُ لي فضتك وذهبك ولي نساؤك و بنوك الحسان فاجاب آخاب انهُ يسمح لهُ باخذ ما يروم من املاكهِ ليكف الحرب عنهُ على انهُ لما بلغهُ ان اخاب يقول لهُ انهُ تحت امرهِ قال بنهداد انهُ سيرسل رسلاً من عبيدهِ يفتشون بيوتهُ و بيوت بطانتهِ لياخذوا ما يجدون نفيسًا على انهم يتركون لآخاب ما لا يجدونهُ كذلك فجمع اخاب رجال مملكتهِ وشيوخ الشعب واستشارهم عن سفارة بنهداد فابوا قبولها وقال الملك للسفراء ان الشروط الاولى مقبولة واما الثانية فمرفوضة فحنق بنهداد وتشدد اخاب وخرج للقتال وكان بنهداد يشرب مع الملوك الذين عندهُ فقيل لهُ هوذا اهل السامرة قد خرجوا منها فقال لهم ايتوني بهم سواء خرجوا للسلام ام للقتال فبادرهم الاسرائيليون بالقتال ودفع الله العدو لهم فانكسر السوريون وولوا منهزمين وكان جيش اسرائيل لا يزيد عن السبعة الالاف وكان حدوث هذه المعركة في سنة ٩٠١ ق م و بعد ان فر بنهداد هاربًا قال لهُ اتباعهُ ان يعزل الملوك الذين معهُ ويقيم عوضهم قوَّادًا وان تكون المعركة في السهل لان آلهة الاسرائيليين ليسوا بالهة السهول . و بعد ان عد مركباتهِ واعد رجالهُ وفرسانهُ اتى ساحة الحرب سنة ٩٠٠ ق م فاشتبك القتال بعد مصاف سبعة ايام فدارت الدائرة على الاراميين وفر بنهداد الى دمشق ودخلها خائفًا فاشار عليهِ رجالهُ وعظماء مملكتهِ ان يستمدَّ الصلح والمسالمة من الاسرائيليين ففعل وعادت الاحوال رائقة بينهما

ومات حيرام قبل سليمان بزمن يسير سنة ٩٩٤ ق م فخلفهُ ابنهُ بلعازر وكانت مدة دولتهِ سبع سنوات فخلفهُ ابنهُ ابداستراتوس فحكم تسع سنوات قال موفرس في تاريخهِ ان بتاريخ روفينوس اللاتيني ان ابن حيرام يدعى باليستارتوس وليس

بلعازر وان استارتوس هو ابن باليستارتوس وليس داليستارتوس كما قال
يوسيفوس اه

وبعد ان تولى ابداستراتوس بن بلعازر بن حيرام المذكور مدة من الزمن هجم عليهِ اربعة من اولاد مرضعتهِ وقتلوهُ سنة ٩٧٨ ق م واستبد اكبرهم بالملك اثنتي عشرة سنة ولا يخفى ان حدوث هذه الثورة في فينيقية كان في ذات السنة التي فيها تجزأت مملكة اسرائيل بانشطارها شطرين اي ان كان شيشق ملك مصر يجهر بالعداوة ويعد التجهيزات لاجتياح البلاد وكان له يدًا في انقسام اسرائيل فلا يبعد عليهِ التداخل في خلع ملك صور ودثار عائلة حيرام القادرة فان كان ذلك من مداخلتهِ يكون قد فاز باضعاف امتين عظيمتين لم يرَ من فاتح لمعاقل بلادهما اشد بسالة من الشقاق فعدل اليهِ مستجيرًا وبعد انقضاء ايام المختلس من على سرير فينيقية ثار استارتوس بن باليستارتوس (وهما اللذان ذكرهُ وفرس نسبتهما كما مر) وارجع السرير الفينيقي الى عائلة حيرام وكان واحدًا منهم فجلس عليهِ وراقت لهُ الاحوال فحكم تسع سنوات ومات وجلس مكانهُ اخوهُ اسيريوس وحكم تسع سنوات فقام عليهِ اخوهُ فالس وقتلهُ وجلس مكانهُ على ان مدة هذا لم تطل اكثر من ثمانية اشهر حتى قام ايثوبعل وكان كاهنًا لعشتروث فقتلهُ واستبدَّ في الملك وصفا لهُ الوقت وكان رجلاً متعصبًا شديد الميل للمعبودات عشتروث وبعل وغيرهما وهو ابو يزابل امراة اخاب ملك اسرائيل النجس بذلت وسعها لتدخل بين شعب زوجها عبادة آلهتها فقتلت كثيرين من الانبياء وكانت افعالها تحاكي افعال الرجال واما زوجها فبالعكس لانهُ كان ضعيفًا واهن العزيمة غير قدر على ردع سياسة امراتهِ التي تغلبت عليهِ ومالت بهِ الى الاشراك واصبح العوبة في يدها فسلم اليها ازمة الامور الدينية والسياسية ولذلك اقامت في كل انحاء اسرائيل هياكل للبعل فصارت مملكة اسرائيل خاصة ثم مملكة يهوذا كانهما جزء من المملكة الفينيقية سيما وان ملوك صور طفقوا يظهرون سيادتهم عليهما وظل الامر

في اسرائيل على هذا النسق حتى موت يورام سنة ٨٨٦ واما في يهوذا فاستمرت السيادة الصورية حتى حوادث يواش سنة ٧٧٩ ق م

وبينما كان ايثو بعل قابضًا على ازمة الملك الفينيقي ظهرت من الشرق دولة الاشوريين وبدأت تتعاظم وتزداد اقتدارًا وجاء منها محارب ففتح البلاد بطريقهِ ومضى يؤيد ذلك ما ترجم عن كتابات قديمة وجدت بين انقاض تلك البلاد ما ثلها ما كتبهُ الملك اسورنارنيبال عن اعمالهِ سنة ٩١٦ ق م حيث قال

وفي ذلك الحين تملكت جوار لبنان وقصدت بحر فينيقية العظيم وزرت على قمم الجبال معابد الالهة العظام فضحيت لها مكفرًا وقبلت ضرائب ملوك البلاد المجاورين الجبل كصور وصيدا وجبيل وفينيقية وارواد التي في البحر وكانت تلك الضرائب من الفضة او التنك او النحاس او الانية الحديدية ومن المنسوجات الارجوانية وغيرها ومن خشب الصندل وغيرهِ وخضع الكل لي اه

وفي ذلك العصر انحبس المطر في سوريا كلها بامر الله كما هو مذكور في الكتاب ودام انحباسهُ ثلاث سنين وفي تاريخ فينيقية انها لم تمطر حتى صلى الملك ايثو بعل فاجابةً لصلواتهِ اكرمت الالهة بالامطار لكن الكتاب يقول انها امطرت بدعاء ايليا النبي اما ايثو بعل فقد بنى مدينة بوتريس وهي البترون الحالية الواقعة بين جبيل وطرابلوس

وكان السوريون لا يفترون عن محاربة اسرائيل والحرب سجال تارةً لهم وتارةً عليهم حتى سنة ٨٩٢ ق م فارسل بنهداد ملك ارام جيشًا يحاصر السامرة وكان فيها مجاعة شديدة حتى ان امراة اكلت ولدها وضاق الامر بالمحصورين حتى جاءهم فرج ذلك ان الاراميين سمعوا صوت مركبات وعجلات ووقع حوافر الخيل فظنوا ان الاسرائيليين قد استنجدوا الحيثيين والمصريين فخافوا وهربوا تاركين خيامهم وما فيها

وتوفي بنهداد الثاني فخلفهُ ولدهُ حزائيل وكان معاصراً لياهو ملك اسرائيل فما عتم ان حارب حزائيل ملك سوريا الاسرائليين ونهب الجهات الشرقية من البلاد التي في عبر الاردن الخاصة بالراؤبيين والجاديين ونصف سبط منسا اما جلعاد وباشان فقد سلبتا وحرقتا وانزل ذلك الملك الويل والحرب في كل بلدة ملكها

ان من النسبة الواردة في الكتاب المقدس يظهر ان بنهداد الثاني ليس بوليد بنهداد الاول بل ان اباهُ حزائيل الاول وحزائيل هذا الذي تغلب على اسرائيل هو حزائيل الثاني وليد بنهداد الثاني كما في سفر الملوك الثاني ومات حزائيل ملك ارام المذكور وخلفهُ بنهداد الثالث ابنهُ ثم توفي بنهداد الثالث ملك سوريا وخلفهُ ابنهُ رصين وفي مثل ذلك الوقت توفي يوثام ملك يهوذا وكانت مدة ملكهِ ١٦ سنة ودفن في مدفن الملوك وتولى ابنهُ احاز عوضًا عنهُ ولم يعمل المستقيم في عيني الرب الهِهِ بل كان مخالفًا شرائع بلادهِ واتبع طرائق ملوك اسرائيل واقام مذابح في اورشليم وقدم لمعبودات الامم تقادم وقرابين واقام مرتفعات للاوثان حتى انهُ قدم ابنهُ ذبيحة لها اتباعًا لعادة الكنعانيين وبينما كان سالكًا في هذا السبيل اشهر رصين ملك سوريا ودمشق وفقح ملك اسرائيل المتحالفان يومئذٍ الحرب عليهِ ونازلاهُ فطرداهُ الى اورشليم وحصراهُ فيها حصرًا شديدًا غير انهما لم يفوزا الا ببعض النجاح لان اسوار المدينة كانت منيعة ثم سار رصين على مدينة ايلة عند البحر الاحمر ففتحها وقتل اهاليها واتي اليها بجمهور من السوريين فسكنوها وبعد ان قتل حرس العدو فيها وكثيرين من اليهود في جوارها وطرد الباقين عاد راجعًا الى دمشق فلما علم ملك اورشليم برجوعهِ ظن بنفسهِ انهُ كفوء لقتال ملك اسرائيل فخرج اليهِ ونازلهُ فانكسر ورجع مقهورًا وقتل الاسرائليون من رجال احاز ماية وعشرين الف رجل وقتل زخريا ابن الملك في حربهِ وعاد الاسرائليون بالغنائم الى السامرة ولما راى الملك احاز ان الدائرة قد دارت عليهِ وفاز

اعداؤهُ الاسرائيليون بالغلبة بعث الى تغلث فلسر ملك اشور يستنجدهُ على قتال الاسرائيليين والسوريين والدمشقيين واعدًّا ان يبعث اليهما لاً جزيلاً واصحب الرسالة بهدايا كثيرة فلما وصلت هذه السفارة الى الملك تلقاها بالترحاب وسار لمساعدة احاز وحارب السوريين واجتاح بلادهم واخذ دمشق عنوةً وقتل رصين ملكها وبعث اهاليها الى بلاد مادي واستدعى بعض الاشوريين فسكنوها ونازل ارض اسرائيل واخذ منها عدة اسارى وبينما كان يفتك بالسوريين ثار احاز واخذ كل الذهب والفضة التي في خزائن الملك وفي هيكل الله وكل التقادم الثمينة وسار بها الى دمشق وقدمها لهُ تتميماً للمعاهدة

وذكر لانورمان ان في الجيل الحادي عشر ق م فاز تغلث فلسر الاول بمد ملكهِ حتى لبنان وارواد ثم انهُ ركب السفينة وقتل بيدهِ تمساحًا لكن هذه السيادة الاشورية لم تكن ذات امد طويل

وبموت رصين هذا انقطعت دولة آل هداد ذلك سنة ٧٥٣ ق م بعد ان تولى منها تسعة ملوك وهم رزون وحزيون وطبريمون وبنهداد الاول وحزائيل الاول وبنهداد الثاني وحزائيل الثاني وبنهداد الثالث ورصين وهو اخر الخلفاء

اما فينيقية فبقيام ايثو بعل ابتداءت فيها دولة جديدة ومات ايثو بعل سنة ٨٩٤ ق م ومدة ملكهِ ٣٢ سنة وخلفهُ ابنهُ بادعازور وورد بليعازر الثاني فحكم ست سنوات وخلفهُ ولدهُ ماتكن اوماثان الذي جلس على سرير الملك ٣٢ سنة وقيل كان ابتداءه ملكهِ سنة ٨٨٨ ق م وانتهاؤهُ سنة ٨٧٩ ق م وحدث في ايامهِ في الشتاء الواقع بين سنة ٨٨٣ وسنة ٨٨٤ ق م ان الاشوريين جاءوا يهاجمون البلاد على انهم كانوا لا يفترون من وقت الى اخر عن محاربة الاراميين والحيثيين الشماليين فلما جاءوا فينيقية فعلوا فيها ما فعلوهُ قبل ذلك وقد وجد مكتوبًا عن لسان الملك شلمنصر الخامس قولهُ اني في

حربي الحادية والعشرين اجتزت الفرات المرة الحادية والعشرين وسرت نحو مدينة حزائيل وهي دمشق وقبضت ضرائب صور وصيدا وجبيل . وفي ايامه خسر الفينيقيون بعض مستعمراتهم في مالوس وثابرا ورودس وقد غلب عليها العنصر اليوناني

ومات ماثان وله ولدان ذكر سنهُ احد عشر سنة واسمهُ بيمليون وقد اشتهر في الاساطير باسم بيكما ليون وابنةٌ اسمها اليزا وهي اكبر منهُ سنًّا ولما حضرتهُ الوفاة عهد بالملك لهما سواء الا ان الامة كانت قد ضجرت من استبداد الحكومة المطلقة الاريستوكراتية اي المبنية على مبداء تقدم الاعيان وطول امدها فرات ان تقيم حكومتها على ما يوافقها فثارت واجبرت بيكما ليون على التفرد في الحكم وعلى المشورة في الادارة واتخاذ القواعد الديموكراتية اي المبنية على مبداء اشتراك العموم فلما لم تنل اليزا خط الاشتراك في العرش كظمت غيظها وتزوَّجت زيشربال او اسربال رئيس احبار ملكارث وكان الثاني في الدولة والاول في حزب الاعيان وبعد بضع سنين راى بيكما ليون ان من الضرورة وقايةً لصوالح الامة ان يقتل صهرهُ اسربال لانهُ اوجس منهُ شرًّا فقتلهُ وملاء صدر اليزا حنقًا فبدأت تعمل على النقمة من اخيها وارجاع سلطة الاعيان وشاركها في مؤامرتها ثلاثمائة عضو من السيناتو اي مجلس الشيوخ وكل روساء الاعيان لكن حزب الحرية في صور كان اعظم من ان يوخذ فاختارت الرحلة على البقاء تحت حكم اخيها وارادة الشعب فركبت السفن بمن معها من الرجال وسارت لتبني صورًا جديدةً تحت سماء افريقيا ولقبها ذووها ديدو ومعناهُ الهاربة وكانت مصحبة معها ثروة جزيلة فاتت ساحل افريقيا وهنالك اشادت بمساعدة اهل اوتيك وغيرها من نحل الفينيقيين الموجودين هنالك بلدًا بالقرب من تونس اسمها قرطاجنة اي جديدة قيل كان بناؤها سنة ٨٧٨ ق م وقيل سنة ٨٤٠ وقال لا نورمان ان ذهابها كان سنة ٨٧٢ في السنة السابعة من ملك بيكما ليون غير ان ديدو لم تجن

من ثمار تعبها ما يفي بمشاقها لانها بعد ان انتظمت احوالها احرقت نفسها غير راضية بالتاهل مع صارباس ملك ساكسي لانها كانت قد اقسمت ان لا تتزوج بعد بعلها المقتول في صور والظاهر من بعض الروايات ان بيكما ليون كان جائرًا قاسيًا محبًا للمال ولذلك قتل صهرهُ اسرباس زوج ديدو المذكورة حبًا بمالهِ الا انهُ لم يفز منهُ بطائل وقد ذكر جوستين ما يبين ان بيكما ليون كان ملكًا مطلق التصرف على غير نسق ايثو بعل لان شرائع زمن ايثو بعل كانت مقيدة وكانت الحكومة تعضد حزب الديموكرات اي العامة لقهر الاريستوكرات وهم الاعيان

ومات بيكما ليون سنة ٨٢٢ ق م بعد ان اطال امد دولتهِ وكانت مهاجرة اختهِ باعيان القوم قد انقصت حزب الاعيان نقصًا عظيمًا واعادت الى الحكومة السنن القديمة التي كانت تقيد الملوك وتحصر دائرة اقتدارهم على ان بيكما ليون كان يقوم بسياستهِ مستقلاً عن مشورة قومهِ

والظاهر ان ملوك فينيقية كانوا قد عادوا في ذلك الحين الى الاعتراف بالسيادة الاجنبية عليهم ذلك انا علمنا ان الملك بنليكوس الثالث صاحب نينوى من سنة ٨٥٧ ق م الى سنة ٨٢٧ قد عد فينيقية من البلدان التي تؤديهِ الجزية في كل سنة حيث قال كل فينيقية بلاد صور وصيدا

اما الآثار التي نقلها الينا ميناندر فلا تخبرنا شيئًا عن خلفاء بيكما ليون الا ان ترجمة حديثًا احد علماء الفرنسويين الكونت دوفوكه افاد ان ملكين توليا صورا باسم بوداستورث وكان عهدهما بين دولة بيكما ليون وحصار ساريوكين الاشوري صورًا

وحدث في ذلك الحين ما حدث من الاضطراب والقلق في ممالك اليونان فانشغل القوم فيها عن مناظرة الفينيقيين في تجارة الجزر والثغور ولذلك عادت سفن الصوريين تخترق البحر لتنقل التجارة الى تلك الاقطار وقد ذكر مؤرخو اليونان ذلك وقالوا انهُ ظلَّ لهم من سنة ٨٢٤ ق م حتى

سنة ٧٨٦ ق م

ان البحث في آثار مملكة اشور يكشف لنا عن اتساع المملكة ونهوضها السريع وعن اشتهار عاصمتها نينوى على انهُ بالكاد تمكنت تلك المملكة من الامتداد الى الجهة الغربية من الفرات قبل اواسط الجيل الثامن ق م حيث كانت المملكة الاسرائيلية في جنوبها وقد امتدت الى الفرات في زمن داود الملك وابنهِ سليمان ثم عادت الى الوراء في زمن خلفائهما بدون معاهدة او اتفاق مع ملوك اشور وبابل وكان في شمالها مملكة آرام دمشق وقد شرعت بفتوحاتها حتى وصلت الى الفرات بدون ان تعارضها المملكة الاشورية ولا ريب ان مدينتي بابل ونينوى قد استمرتا في زهائهما زماناً طويلاً على انهما تنازعتا على الغنى الذي كان تصبهُ الى الخزائن تجارة المشرق وخصب الارض واتقان الصنائع وكانت اسباب نقل المخابرات والصلة بينهما وبين المدن التي على ساحل المتوسط تجري بواسطة القبائل القاطنة الصحراء السورية وكان قومهما ياتون بمحصولات كل البلاد الشرقية الى فينيقية لتوزعها في العالم المعروف بسفنها المالئة البحار على انهُ عند ما اتحد الاشوريون والكلدان وصارت الدولة الاشورية حينئذٍ قوية جداً طمحت اعين ملوكها الى نوال ذلك الغنى وصاروا يرقبون البلاد الاسيوية الغربية غير ان الظروف كانت تصدُّهم عن بلوغ ما يريدون ذلك لما انقلبت الدولة الاشورية وخلفتها البابلية فصارت دولةً مادية ثم انقلبت المادية فصارت فارسية وفي تلك المدة لم يكن من باب لفتح البلاد المذكورة لان الفرصة لم تسنح

وكانت الدولة الاشورية على جانب عظيم من الغنى والثروة حتى انها كانت قادرة على اعداد الذخيرة والمونة للجيوش بالسرعة والسهولة التامتين وكانت جيوشها مشهورة بالقوة وشدة الباس وذلك لانهم كانوا قد دخلوا في سلك الحضر من عهد قريب ولم ينسوا فطرتهم حيث لم تخنثهم تنعمات المدن ولم يونثهم التقاعد عن الحرب والقتال والاشتغال برغد العيش والغنى على

ان دول سوريا وفلسطين لم تكن على هذا النمط لان شعوبها كانوا قد ذاقوا لذة العيش واحبوا التمدن ولم يكونوا متاهبين للذب عن ذمارهم مع ان بلادهم كانت كساحة للقتال و بالكاد يمر زمن لا تجري فيه انهر من الدماء ومع ان مدن فينيقية كانت متحدة منذ ارتقاء صور الى كرسي السيادة لم يكن لتلك الامة العظيمة جيوش برية بل ان معظم قوتها كانت في البحر وكانت كل مدن فينيقية تخشي انسحاب صور من مجالفتها لانها اعظمها قوة واكثرها حصونًا واسوارًا

اما مملكة آرام دمشق فبلغت درجة تقرب من خوار القوى واضمحلال السطوة وذلك من تكرار هجوم مملكتي اسرائيل و يهوذا عليها وانتشاب القتال بينها مرارًا عديدة ثم انهُ لما انقسمت مملكة سليمان الى شطرين احدهما اسرائيل وثانيهما يهوذا حقد كل قسم على الاخر وكان كل منهما ينضم احيانًا الى ملك اشور او ملك مصر لينتقم من مناظرهِ ولم تكن دمشق وحدها تعادي أسرائيل بل كثير من الممالك الثانوية ايضًا كالعمونيين والموابيين والادوميين وغيرهم فانهم كانوا لا يفترون عن القتال وكان انقسام مملكة اسرائيل كانقسام غيرها من الامم مضرًا جدًا لان كلاًّ منهما لم يكن قادراً ان يدفع العدو عنهُ اذا كان قويًا بدون الاستناد الى غيرهِ على ان موقع اسرائيل و يهوذا احسن جدًا فلو اتحدتا مع بعضهما واتحدتهما الامم القاطنة السواحل البحرية بمعاضدة ملوك السوريين لارتدت جيوش الاشوريين الى الوراء غير ان اليهود كانوا لا يتحدون مع الوثنيين ولا يواخونهم حذراً من تغلب الوثنية على عقول السذج فيحولونهم عن عبادة الحق فان الانبياء كانوا قد تنبأوا انهُ متى اتحد اليهود مع الوثنيين تسقط مملكتهم وتخرب فكانوا يسلمون امرهم للقضاء والقدر وكان ملك اشور عاملاً على التسلط على دمشق وفينيقية وادوم ومصر وعلى اذلال اورشليم الا انهُ ما اتم هذا العمل الا وقد عنت مملكتهُ للذل والهوان

وفي سنة ٧٧١ ق م تبوأ الملك مناحيم سرير مملكة اسرائيل و بعد زمن

قصير وفدت عليهِ جيوش فول ملك اشور مارًا في سوريا ليغزو فلسطين ولا شك انهُ لم يكن من مسوغ لقيام هذه الحرب غير المطامع التي تزداد في صدور الملوك الراغبين امتداد سلطنتهم ولقد يفهم من رواية الكتاب انهُ كان في مملكة اسرائيل حزبين الواحد يميل الى الانضمام بسياستهِ الى مصر والاخر الى اشور ولذلك يظن ان مناحيم هو الذي استدعى فول اليهِ ليعضد عرشهُ واعطاهُ الف وزنة من الفضة ولا ريب انهُ قبل وصولهِ الى السامرة قد مر في سوريا وبما اننا لم نسمع بشبوب حرب معها في ذلك الوقت يغلب على الظن انها سلمت بدون قتال لان قوتها كانت قد ضعفت بتواتر الحروب الاهلية والمخاصمات الدولية التي جعلت مملكة اسرائيل تستولي على دمشق على انهُ يظن ان اشور قد ساعدت دمشق بطلب الاستقلال وذلك بعد وفاة يوربعام بن يواش وبهذهِ الواسطة تمكنت من الدخول الى البلاد والاستيلاء عليها وفي سنة ٧٤٧ ق م جاءت جنود الاشوريين وعلائم الشر تلوح من على اعلامهم وكان يتقدمهم ملكهم تغلث فلسر وهو خليف فول قاصدًا سوريا ليبقيها تحت ربقة الطاعة لاشور كما فعل ببابل وبلاد السكيثيين عند بحر الخزر فلما علم ملوك سوريا بقدومهِ عقدت محالفة بين انيل ملك حماه ورصين بن بنهداد ملك دمشق وفقح ملك اسرائيل وساروا فالتقوا بهِ في اليهودية وغيرها وحاربوهُ حربًا شديدة الا ان الدائرة دارت عليهم فانكسروا وعاث المنتصر في مملكتي دمشق وحماه وخلع فقح واقام مناحيم الثاني على عرش اسرائيل ولم يقف موضع امام وجه تغلث فلسر الا مدينة ارواد فانهُ حصرها ثلاث سنوات ولم يقم على حصرها طويلاً بل ترك بعض قادتهِ عليها وقبل ان بارح سوريا سنة ٧٤٢ ق م اخذ الجزية من هيستاسب ملك كوماجن ورصين ملك دمشق ومناحيم ملك اسرائيل وحيرام ملك صور وسيبتبال ملك جبيل واوربكي ملك كوري (وهي بلدة لم يعرف موقعها) ومن بسريس ملك كاركاميش وانيل ملك حماه وقد مر ذكر محارباتهِ وبعد هذه الحرب ببضع سنوات

الى سنة ٧٤٢ ق م اتحدت ملوك سوريا واسرائيل على تنزيل احاز ملك يهوذا عن عرشهِ ولعلَّ السبب في ذلك الرغبة في قيام ملك من ذويهم على عرش يهوذا ينجدهم في قتال الاشوريين فلما شعر احاز بقرب زوال دولتهِ بعث يستنجد بملك اشور ومع ان النبي اشعيا حذرهُ من ذلك لم يصغَ لكلامهِ ولما نزل رصين ملك ارام وفقح ملك اسرائيل على اورشليم بعث احاز يكرر الاستغاثة بملك اشور و بعدهُ بالخضوع لهُ اذا جاء لمعونتهِ وبعث لهُ مع الرسول هبة من الفضة والذهب الموجودة في هيكل سليمان وفي القصر فلما بلغت الرسالة الى الملك امر فتجهزت العساكر وركب بها فجاء سورية سنة ٧٣٢ ق م وحارب رصين ملك دمشق وقومهُ الاراميين فكسرهم وقتل رصين واسر منهم كثيرين فخرج احاز الى لقائهِ حتى دمشق واصحب معهُ كثيرًا من الهدايا منها انية النحاس والفضة والذهب التي كان قد اصطنعها الصوريون لسليمان الملك وكان تغلث فلسر رجلاً من ارباب السياسة العارفين ولذلك لم يرَ من الصواب تقوية يهوذا بحروب الادوميين والفلسطينيين بعث اليهِ يستنجدهُ فجاء عليهِ لامعهُ

ثم سار على غزة ففتحها وكان ملكها حانون الفلسطيني قد هرب الى مصر فعاد اليها خاضعًا واتى اشدود ففر ملكها منيني ثم عاد خاضعًا وكان باطشًا قادرًا غزا العرب في دوما وقهرهم وضرب عليهم الجزية وفي سنة ٧٣١ ق م اقام تغلث فلسر في دمشق قبل رجوعهِ الى نينوى فقدم اليها ٢٣ ملكًا خاضعين لهُ وقدموا لهُ الجزية وقد ذكر لانورمان اسماءهم فمنهم من اقصى بلاد ارمينيا وضواحي القوقاز ومنهم من ما بين النهرين وسوريا لكن من العجب ان ملك صور لم يذكر بينهم ولا علم لنا باسم ملكها يومئذٍ وكان حيرام او ابنهُ موثون على انا عرفنا ان موثون كان ملكًا بعد ذلك العصر فانهُ في اخر سنة ٧٣٠ ق م عقد عهدًا مع فقح فرفض كلاهما تأدية الجزية الى الاشوريين فلم يرَ تغلث فلسر ان هذه العصاوة تستحق عناء مجيئهِ الى سوريا فارسل جيشًا عليها فلما

صار الجيش على مقربة من العصاة ظهرت موامرة في السامرة قتل بها فقح وجلس هوشع ايله على العرش فاثبته ملك اشور و بذلك انفرد موثون في العصاوة فلم يشا المجاهرة فيها بل عنا طائعاً لمولاهُ الاشوري

ومن الحوادث التي جرت قبل ذلك ولم نعلم لها سبباً ان الصيدونيين انفصلوا عن الاقرار بسيادة صور وانضموا الى ارواد وذلك عن طيبة خاطر ملك الفينيقيين

وكانت مملكة اسرائيل قد خسرت مقاطعاتها الشمالية الكثيرة الخصب وانحصرت في مقاطعة السامرة فاصبح مركزها خطراً حتى زمان شلمنصر خليفة تغلث فلسر حيث ضربت الجرية على هوشع بن ايلة فصار يؤديها للملك اشور وكانت مصر تناظر مملكة اشور بالقوة والسطوة وتعمل على مد بسطتها وقيام نفوذها في سوريا على انهُ لم يكن بين ملوكها من يركن اليهِ في الشجاعة بعد شيشق واسوركون (ملك الاول سنة ٩٧٤ ق م والثاني ٦٤١ ق م) واما اشور فظلت لاتحرك غيرة ولا تبدي باعثاً للحسد حتى زمن فول حيث طفق خلفاوه الباسلون يعدون الاهبة للقيام بمشروعهم العظيم وكانوا يتقربون من التخوم المصرية تدريجاً

ولما جاء شلمنصر الاشوري فاتحاً وفاز على اسرائيل كان يتولى مصر رجل من الابطال قد تمكن ببسالتهِ من قلب عرش سلفهِ والاستواء عليهِ وكان حكيماً سياسياً مشهوراً واسمهُ سباكو او شباق وقد ورد ذكرهُ في الكتاب المقدس باسم سيفا او سو

وضاق الامر بهوشع ملك اسرائيل فاستنجد بالملك سيفا المذكور لياخذ بيدهِ ويكفيهِ شرّ شلمنصر الاشورى فابى هذا الملك طلبهُ وبرجوع سفراء هوشع انسحب الي الخضوع لاشور فالقى شلمنصر القبض عليهِ ووضعهُ في السجن ذليلاً ثم جاء السامرة فحصرها ثلاث سنوات حتى اخذها واسر اهلها وقادهم الى مملكتهِ ومع كل ذلك لم تاتِ اسرائيل نجدة من مصر لانهُ يصعب

على الجيش المصري ان ياتي السامرة ليحارب الاشوريين وامامهم يهوذا على انهم اذا بقوا في بلادهم لا خوف عليهم اما فينيقية فكانت امنة الضر لانها مليكة البحار على ان شلمنصر لم يتركها برغدها بل اعمل على قهرها واخذها فوجه جيوشهُ نحوها وجلس ايليلاوس على اريكة صور سنة ٧٢٦ وكان قد عاد اليونان فاستفحل امرهم في بحرهم وساروا في سفنهم الى صيقلة وحلّوها واتخذوها لهم مركزًا تجاريًا مبارين في ذلك النحلة الصورية فلم يمض امد بعد تبوء ايليلاوس الاريكة ان ظهرت في مدينة سينيوم من قبرص ثورة مقصدها خلع طاعة صور فسار الملك عليها بسفنهِ ورجال حربهِ وما لبث ان عاد بها الى الطاعة والاذعان فكان فوزهُ عليها معيدًا ما ضاع من فخر فينيقية بسقوط نحلتها في سيسيليا ولما نكص الى بلاده والنصر يخفق فوق اعلامهِ علم بزحف سير يكوين الاشوري وهو الملك شلمنصر المذكور في الكتاب المقدس وكان هذا الفاتح قد فتح السامره وحارب ملك غزة وشبق ملك ايثوبيا ومصر وكسرهما وتبطن فينيقية وبدا يطالب مدنها بمثل ما كانت تودي من الجزية الى تغلث فلاسر وكان من قصده اجتياح قبرص الا انهُ راى الضرورة باخذ سوريا توصلا لتلك الجزيرة فسار اليها وفاز بفتح صيدا وصور القديمة وعكا لكن البعض يقولون انهُ فتح عرقا والحال ان لا حاجة لهُ بالاستيلاء على مدينة بعيدة عن البحر. وكان شلمنصر قد راى مناعة صور البحرية وكاده منها طرحها نير طاعتهِ فعزم على الاغارة عليها ولذلك جاء البلاد فاعدت لهُ المدن الفينيقية الاخرى عمارة مولفة من ستين سفينة وثمانمائة قارب حرب

ويظن بعضهم انهُ بعد ان فتح الفتوحات الاولى وحارب اسرائيل وغيرهم وفاز عليهم رجع الى بلاده ثم عاد منها فحارب صورا التي في البحر ويبدون كلامهم من عبارات الكتاب حاسبين ان المرة الاولى كانت سنة ٧٢٨ ق م والثانية سنة ٧٢١ ق م لكن موفرسي يقول ان هوشع جلس على اسرائيل سنة ٧٠٧ ق م ومعلوم هو ان شلمنصر جاء في السنة الاولى لملكهِ فعلى روايتهِ تكون زيارتهُ

الاولى سنة ٧٠٧ ق م والثانية سنة ٧٠٠ ق م

وسار شلمنصر بالسفن التي هيأَتها المدن الفينيقية فجاء الصوريون باثنتين وعشرين سفينة وقيل باثنتي عشرة وحاربوهُ وكسروهُ واخذوا خمسمائة اسير من قومهِ فعاد مقهورًا واقام على حصارها برًّا زمانًا طويلاً فلما اعياهُ امرها رجع عنها بجيشهِ تاركًا بعضًا من قومهِ ليصدوا اهل الجزيرة عن ورود الماء من البر على ان الصوريين تجلدوا مكتفين بما عندهم من الآبار والمستنقعات مدة خمس سنوات وهم منقطعون عن راس العين ونهر الاولى المعروف يومئذٍ باسم ليونتس وعن الاقنية والبرك التي تحيط بالمدينة وقد قال المؤرخون ان شلمنصر لما راى احتمال الصوريين قطع الماء عنهم كل هذا الامد اعتقد استحالة قهرهم فرفع الخفر عن الماء وعقد معهم صلحًا والظاهر ان شروط ذلك الصلح كانت توافق الصوريين لانها لم تمس شيئًا من حقوقهم

ومن العجب تفرّد صور البحرية في الدفاع عن ذمارها والجد لمنع تطرّق الغرباء اليها مع ان اختها صور البرية او القديمة باليتيروس لم تاخذ بيدها بل فتحت ابوابها للمنتصر ولم تضرب عليهِ سهمًا وذلك اما عن خوف من الاقتدار الاشوري واما عن حسد من المدينة البحرية التي انزلتها عن اهميتها السابقة واما لانها حي الاشراف والاعيان الذين كانوا قد ابتعدوا عن الحكومة منذ مائة وثلاثين سنة ولما عاد شلمنصر عن صور مقهورًا كادهُ ذلك جدًّا وعمل على الاضرار بالمدينة ضررًا بليغًا ذلك بان بجناح احدى نحاها فتجهز بعمارة كبيرة في احدى فرض فلسطين وسار نحو قبرص فاحتلها بعد ان دوخها وعاث في انحائها ولم يلقَ ممانعةً الامن اهالي مدينة سيتيوم وهم نحلة الصوريين فاقام لفتوحاتهِ ذكرًا بالنقش على حجر لم يزل محفوظًا بدار التحف ببرلين واصبحت سيتيوم منذ فتوحها منفصلة عن صور لم تلحق بها بعد ذلك ابدًا

وفي سنة ٧٠٤ قتل شلمنصر وثارت ثورة في بابل فاغتنم ايليلاوس البطل الصوري فرصة وقوعها وصار يجمع الى صولجانهِ ما كان قد عنا

للاشوريين من مدن فينيقية ليبطل دفع الجزية المضروبة على البلاد فما عتم ان علم بقدوم سنحاريب المخيف بجيش عرمرم قاصدًا الفتح والاخضاع والاقتصاص ممن عق التاج الاشوري فجاء فينيقية اولاً ولما دنا منها سلمت اليهِ صيدا وارواد وسميرون وارواد وجبيل وسارابتا واوزوا اكزيب وعكا وباتزيني فعاد ايليلاوس ناكصًا الى صورا لبحرية مؤملاً الفوز كالسابق لكن حظهُ لم يخدمهُ هذه المرة فغلب واخذت البلدة واقام سنحاريب على العرش شخصًا اخر يقال ايثو بعل لان ايليلاوس كان قد هرب وظلَّ الملك الجديد تابعًا لاشور ودافعًا الجزية لملوكها واراد سنحاريب تخليد ذكرهِ فنحت اعمالهُ على صخرء ند نهر الكلب قرب بيروت

ومما علمناهُ من الاطلاع على حوادث الحربين المهولين اللذين اقامهما شلمنصر وسنحاريب على ملك صور راينا ان سائر المدن الفينيقية كانت ترغب الانفصال عن صور والانزواء تحت طاعة دولة اخرى على انا نظن ان الخوف وحدهُ ليس بكاف لان يرمي الشقاق بين الامم سيما ان الصيدونيين والارواديين وغيرهم كانوا قد عرفوا ان الاتحاد هو القوة وانهم اذا ثبتوا عجز الفاتح عنهم لكن المرجح ان سائر الفينيقيين كانوا ينقمون على صور سيادتها عليهم وتفردها في الاقدام على عظائم الامور والانتفاع من التجارة والسياسة حيث كان الصوريون لا يحسبون اخوانهم الا كخدام لا كشركاء في العمل فاثر ذلك في القوم واعملوا على خلع طاعة صور وقد سنحت لهم الفرصة بمجيء الفاتحين ففتحوا لهم ابواب مدنهم الحصينة ولم يدعموا مع عاصمة بلادهم يد الدفاع قائلين في انفسهم ان الشقاق سيمكن الفاتح منا فتسقط صور عن مرتبتها ونصبح وإياها سواء تحت سيف الاشوريين وقد تم لهم ما حسبوهُ في فتح سنحاريب فشاركتهم صور في ذل الخضوع للاجانب وتادية الجزية لهم ولا يبعد ان تكون هذه هي التي جاءت بذلك الانقلاب العظيم سيما وانَّا علمنا من التاريخ ان اغلب المدن التي حاكت صور في مركزها بالنسبة لاخواتها

انما صارت الى الخراب بخلاف اخواتها عن نجدتها و يعاب من الامة انشقاقها لانهُ يكون مقدمة الاضمحلال واول الهبوط على ان من فاز بالحكم وقبض عليهِ بكلتا يديهِ ولم يحسن معاملة الاخرين عدمن القوم الظالمين وتابى النفوس الزكية الصبر على الظلم والسكوت عن الجور وقد شط الصوريون باحتسابهم ابناء جلدتهم اقل من ان ينالوا مراتبهم ونالوا جزاء سوء معاملتهم بدخول الاجانب اليها فاتحين والزامهم تادية الجزية عن يدٍ وهم صاغرون

فلما تمكن سيف الاشوريين من فتح صور واذلالها ربضت حيثما بلغت ولم تحاول النهوض لزمن على ان صيدا رغبت ان تعود الى عظيم ماضيها بفعلة تعود عليها بالفخر فنهضت بعد نحو عشرين سنةً من حرب سنحاريب وحاولت ان تقف اناآء ابنهِ اسرحدون ذلك بانهُ لما قتل سنحاريب ثارت بعض القلاقل في اشور وظن ابديمليكوت ملك صيدا ان الوقت قد حان لخلع نير اشور والاضراب عن تادية الجزية لهم موءملاً ان بعد استقلالهِ ينال ما خسرتهُ صور من التقدم وكان اسرحدون يتجهز في جيش كثيف فسار بهِ الى سوريا وقبل ان حارب منسا ملك يهوذا جاء صيدا ليخمد عصيانها فحصرت المدينة من البر واخذت مهاجمة وقد قال اسرحدون في فتحها ما ياتي لانقلاً عن اثاره

اني قتلت كبارها وهدمت اسوارها وخربت دورها وطرحت حجارها في البحر ودثرت مواضع هياكلها .اه

وفرَّ ملكها و بعض اهاليها الى السفن فركبوها وتبطنوا البحر آملين العود اليها بعد ذهاب الفاتحين فاعطت سائر مدن فينيقية لاسرحدون سفناً فسار وهاجم عمارة صيدا وكسرها واسر كثيرين ممن فيها و بعث بهم الى بلاد اشور وقد ذكر اسرحدون الملوك الذين طاعوهُ في سوريا فمنهم بعل ملك صور واديوساهات ملك جبيل وكواوبال ملك ارواد وابيبال ملك سيمرون

وكان عزيا قد حارب الفلسطانيين فاخضعهم حتى زمان احاز حيث
ثاروا طارحين عنهم نير الخضوع فاستنجد احاز باشور عليهم فلم يلبه المنتصر
وكانت مصر تزداد قوةً واقتداراً الان بساماتيكوس جمع سنة ٦٧٧ ق م كل
الحكومات الى واحدةٍ وقلب خلافة دودكارشي واستخدم كثيرين من اوباش
اليونان والاسياويين جنوداً وبذلك تمكن من جمع قوة عظيمة وكان ينشط
الفينيقيين ويحثهم على التردد على نوكراتس وهي من مستعمراتهم في مصر وكان
يعمل على اخراج الاشوريين من سواحل فلسطين ولو بالقوة الغالبة ولقد
ذكر ديودورس ان ذلك الملك اقام حرباً في سوريا والظاهر ان تلك
الحرب كانت ضد غزة وازوتس او اشدود اللتين كانتا بيد الاشوريين اما
جنودهُ الذين اصحبهم معهُ في تلك المعارك فكانوا من اليونان او العرب اما
غزة وازوتس فيدعوها المصريون ماجوما وهي كلمة يونانية معناها مكان
البحر وقد ذكر موفرس ان المصريين استولوا على المدينتين وسعوها
وحسنوا مينيها والظاهر مما رواهُ لنا التاريخ ونقلتهُ الاثار عن حركات الجيش
الاشوري ومقاصد ملوكهِ مع تواتر غاراتهم على سوريا سواء كان بحروبهم مع
الاراميين او الصوريين او الفينيقيين انهم يقصدون اخضاع الامم المختلفة
الساكنة سوريا الى حكومتهم الاستبدادية وكانت تلك امانيهم منذ زمن طويل
الا ان الفرص لم تسمح لهم تارة لسيادة مصر على قسم منها وطوراً لما هو مشهور
عن بعض الامم فيها من البسالة والاقتدار وظلوا يرقبون الفرص حتى علموا
بالشقاق الواقع في البلاد وادركوا ان حلقة الصوريين والاسرائيليين قد
انفسخت وان الاسرائيليين شطران متعاديان يرغب احدهما الى الفاتح التغلب
على الاخر وبالاجمال ففهموا ما صارت اليهِ البلاد من تواتر الحروب
الداخلية فجاءوها ونازلوها وبدأوا يتملكونها بلداً بعد اخر وصار لهم قتال
شديد مع الصوريين كما تقدم حتى جاءوا بهم الى الطاعة والانقياد بتادية
الجزية بعد ان نالوا من دفاعهم ودفاع جنودهم المستاجرة مرّ القتال عند

ذلك ادار سنحاريب وجهةُ نحو اليهودية سنة ٧١٣ ق م بالرجال والفوارس وحاربها فاخذ مدنها حيث ارسل حزقيا ملك اورشليم يقول لهُ ارجع عني فافعل كل ما تطلبهُ مني فطلب منهُ ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب واذ لم يكن في خزائنهِ كل هذا المبلغ اضطر لاخذ مال الهيكل وقشر الذهب عن اعمدتهِ وابوابهِ على انهُ لم يمضِ على ذلك زمان طويل حتى جاء اورشليم وفد الملك سنحاريب طالبين مقابلتهُ فارسل اليهم رجالاً من قومهِ فتكلم وفد الاشوريين واسمعوا الاسرائيليين ما يكرهون ونكصوا راجعين فجاءت جيوش اشور وحصرت المدينة على ان الله تعالى ضرب منهم مائة وخمسة وثمانين الفاً فخاف سنحاريب وذهب راجعاً الى بلادهِ بغنائم لا تحصى كان قد اخذها من مصر واورشليم قبل حصارها فلما بلغ نينوى دخل الى هيكل الهتهِ وسجد هنالك فدخل عليهِ ولداهُ وقتلاهُ وفرّا الى ارمينيا فتولى الملك اخوهما اسرحدون

وفي سنة ٦٦٧ ق م خلعت فينيقية طاعة الاشوريين وحالفت عدوّهم روت امين صاحب ايثوبيا فعلم اسوربانيبال بما فعلوهُ وجاءهم سنة ٦٦٦ ق م بالجيش من مصر ليؤدب خيانة عمالهِ الكنعانيين فاخذ عكا ثم صور وكان يحكمها يومئذٍ ملكها بعل فعفى عنهُ ثم جاء محاصراً جزيرة ارواد وكانت وحدها قد تاهبت للذب عن الوطن فاقامت بهِ بنشاط الا ان الحظ لم يستمر مرافقاً لها لان الاشوريين فتحوها بعد ان قتل ملكها ياكندوبن كولوبال نفسهُ كي لا يقع بايدي الاشوريين فاسر اسوربانيبال اولادهُ الثمانية وقتل منهم سبعة وجعل ازبال البكر ملكاً مكان ابيهِ فاستكنت فينيقية من ذلك الحين تحت نير الاشوريين الى امدٍ

الفصل الثاني

دولة الكلدان

انه من الامور التي امست مؤكدة وقد كشف لنا الاخبار عن حقيقتها ان كل مملكة او امة صعدت صعوداً اسريعاً لا بد ان تهبط بنسبة تلك السرعة ما لم تؤخذ الاحتياطات اللازمة لتقوية دعائم الملك وحسبنا على ذلك برهاناً سقوط دولة تيمورلنك بعد زمن قصير من ازدهائها وكذلك دولة الاسكندر المكدوني وهذه الحال كانت شان الدولة الاشورية فانها بعد رجوع سنحاريب بالفشل من اورشليم اخذت قوتها بالضعف والانحطاط حتى ان بابل شهرت راية العصيان على ملوكها واستقلت لنفسها بعد ان كان امراؤها الذين يسوسون داخليتها خاضعين لملوك اشور وذلك سنة ٧٤٧ ق م في عصر نابو نصر وعادت الى الاستقلال التام بعد وفاة اسرحدون اما الماديون فللحال انفصلوا عن الاتحاد مع اشور بل انهم صاروا يطلبون قتالها ويتوقعون الاستيلاء عليها وفي سنة ٦٢٤ ق م حاول سياكسرس الاستيلاء على نينوى على انه لم يتم مرامه لهجوم السيسيين على البلاد

اما السيسيون فهم قبائل بربرية اتت مجتاحة اشور وما بين النهرين وسوريا وفلسطين وكادوا يبلغون حدود مصر تاركين اثار منزلهم في باشان التي في يهوذا اما باشان فقد كان يدعوها قوم بعد ذلك باسم سيثوبوليس على ان هولاء البربر لم يتجاسروا على الدنو من مدن فينيقية التي في الساحل كما يظهر من الاثار والتاريخ غير انهم لم يسروا بمناخ البلاد ولا بعوائد السوريين فخرجوا منها ناكصين على اعقابهم وراجعين الى اقطارهم الشمالية وكان الماديون قد اتحدوا مع البابليين ليخرجوا من ربقة اشور فعادت تلك الحلقة الجديدة واحطت على نينوى وحصرتها واخذتها سنة ٦٠٦ ق م وكان هذا الاستيلاء العظيم سبباً فعالاً لازدياد قوة بابل وسطوتها

اما المؤرخون الاقدمون فكذيدنهم المعهود اخذوا يتقولون حوادث
وروايات كثيرة مما يتعلق باحوال هذا العصر من ذلك ما رواهُ بيروسوس
من ان نابو بولاسر الذي تولى سرير بابل سنة ٦٢٥ ق م كان قد استولى على
سوريا ومصر وفينيقية واقام عليها واليًا يقال لهُ بلغتهم ساتراب وان ذلك
الوالي شهر راية العصيان وكان نابو بولسر شيخًا طاعنًا في السن لا يستطيع
الركوب الى حرب كتلك فبعث بولدهِ نبوخذنصر ليحاربهُ ويعود بهِ الى
الطاعة فسار نبوخذ نصر اليهِ وفعل كل ما امر بهِ فعادت البلاد لحكم السلطنة
الكلدانية على ان هذه الرواية لا يركن الى صدقها وخصوصًا لان مؤرخي
اليهود والمصريين الذين كانوا في ذلك الوقت يذكرون بتدقيق كل
الحوادث لم يرووا هذه الحادثة مع انها مهمة ولا يخال انهم يهملون مثلها
فضلًا عن ان آثار فينيقية لم تظهر لدى العلماء صحتها اما المصريون فكانوا قد
انكسروا كسرة مشومة امام الكلدانيين ولذلك اغتنم نيخو بن بساماتيكوس
فرصة القلاقل الاشورية وما حدث هنالك من المؤامرات والاضطراب
فرغب في احياء سياسة اجدادهِ ملوك الخلافتين الثامنة عشر والتاسعة عشر
بمحاربة ملوك نينوى فزحف عليهم بجيشهِ الكثيف واجتاز حدود بلادهِ وجاء
فلسطين فالتقاهُ يوشيا ملك يهوذا فحاربهُ فانكسر يوشيا وفتحت بلادهُ وعاث
نيخو في سوريا فاذعنت لهُ ملوكها واقتبلتهُ المدن الفينيقية بترحاب وسلمت لهُ
بلا ممانعة تخلصًا من نير الاشوريين ورغبةً بالعود الى حكم المصريين حيث
لم يكن الفينيقيون ينسون ما لاقتهُ مدنهم خصوصًا صيدا في ايام سيادتهم من
البسطة ورفعة الشان وعهد وقتئذٍ نيخو الى نوتية صور باستدارة افريقية
ففعلوا الا ان ذلك لم يجدهم نفعًا لانهم لم يعيدوا العمل واما نيخو فلما استقر
امرهُ في سوريا سار لقتال البابليين فلقيهُ ملكهم نبوخذ نصر وحاربهُ عند
كارشميش التي على الفرات فكسرهُ واثخن في جندهِ قتلًا واسرًا فعاد نيخو
خائبًا اما المنتصر فاستولى على كل القطر الخاضع لسلطة ملك مصر من النيل

حتى الفرات .

وكانت سيادة الاشوريين في سوريا غير مضرة بالتجارة والغنى مع شدة جورها و بعد غايتها عن العمران وعلى الخصوص صور فانها ولئن كانت قد خسرت كل قوتها الحربية ونزلت عن عرش رئاستها ما فتئت تدبر مهام الغل وتتعاطى التجارة والملاحة فتمانياتها بالثروة الجزيلة حتى انهُ لما نضبت موارد التنك من اسبانيا بات الصوريون في حاجة الى طلبهِ من المحال البعيدة فساروا يخترقون عباب البحر حتى كانوا ياتون بهِ من الجزر البريطانية وبالاجمال فان صورًا اسرعت بضمد جراحها والنهوض من تاخرها حيث اصبحت يومئذٍ موضوعًا لتغزل النبي حزقيال فيها ولما حدث ما تقدم ذكرهُ علت الدولة البابلية جدًا فاضر علوها بسياسة الدولة الفينيقية والدولة اليهودية لان سطوة الكلدان كانت عظيمة جدًّا في اسيا الغربية وجاء نبوخذ نصر الى اورشليم فاستعبد ملكها يهوياقيم ثلاث سنوات ثم عاد في سنة ٥٩٩ ق م وحصر المدينة وكان يتولاَّها يهوياقين بن يهوقايم فخاف يهوياقين وخرج اليهِ مع امهِ ورجال مملكتهِ وسلموا انفسهم فسباهم وارسلهم الى بابل مع كل العظماء ولم يبقَ في اورشليم الا المساكين والفقراء فاقام عليهم ملكًا متنيا عم يهوياقين فدعى نفسهُ صدقيا واقام خاضعًا لاشور الى سنة ٥٩٢ ق م

اما فينيقية فربما كانت قد حالفت الدولة البابلية ولذلك لم تضر بها فان ابريس خلف نيخو ملك مصر لما جاء ليرفع يد البابليين عن الاستيلاء على فلسطين خاف دخول البلاد دفعة واحدة فاخذ صيدا مهاجمة واستخدم عمارة صور للاستيلاء على فينيقية وقبرص حتى تمكن من احتشاد قوة بحرية عظيمة في شرقي المتوسط لكن لانورمان يقول ما ملخصهُ ان ملك مصر المسمى اواه براهت عقد حلفة من ملوك الفينيقيين وملك يهوذا وان ايثو بعل الثالث ملك صور كان رئيس الحلفة وغايتهم خلع طاعة الفرس فالظاهر من ذلك ان مهاجمة المصري لصيدا كانت لتفردها بطاعة الاشوريين وتخلفها عن ابناء

جالدتها والله اعلم

فلما فاز ابريس بهذه الانتصارات ظن صدقيا ملك اورشليم ان من الصواب ان يثور على نبوخذ نصر فيخلع عنهُ نير حكومتهِ فثار سنة ٥٩٠ ق م واشهر راية العصيان فجاء نبوخذنصر الى المدينة ليحصرها واذا بالجيوش المصرية قد اقبلت فرفع الحصار وسار عن المدينة على انهُ عاودها سريعًا بعد رحيل المصريين وكانت المدينة على غاية من التحصين ولذلك استمر الحصار حتى سنة ٥٨٧ ق م حيث دخلتها جنود نبوخذ نصر با لفوز والغلبة وسار المنتصر منها ليستولي على ساحل البحر وعرف ملك مصر بقدومهِ فخافهُ واخلى المدن لهُ فدخلها فائزًا

ويظن من رواية الكتاب المقدس ان صيدا أُخذت مهاجمة اما امهات مدن الفينيقيين الشمالية فقد اخذت بالحرب واحاطت الجنود البابلية بصور زمانًا طويلاً وحصرتها حصرًا لم يكن من نتائجهِ الا اخذ باليانيروس اسي القديمة التي في البر والظاهر انهُ لما راى نبوخذ نصر انهُ لا يتمكن من الاستيلاء على جزيرة صور وكان قد لجاء اليها كثيرون من اهالي صور القديمة بكنوزهم سحب جنودهُ عنها بعد ان حصرها ١٣ سنة مدعيًا انهُ اخضع اهليها حال كون ملوكهم كانوا ما انفكوا يتولون الخلافة وقوتهم البحرية كانت لم تزل تحت مطلق تصرفهم ثم عاودها وطال الحصر على صور البحرية وصعب الامر على الاشوريين باعظم ما صعب عليهم في باليانيروس لعجزهم عن التغلب على الموانع الطبيعية واخيرًا سنة ٥٧٤ ق م جاء نبوخذ نصر من بابل ليشدد الحصار بنفسهِ ففاز بالفتح وخرب البلدة خرابًا كاملاً وتقلص ظلها عن النخل وصارت قرطاجنة مكانها في الرئاسة عليهم وقبض الفاتح على ايثوبعل ملك صور وقادهُ اسيرًا مع كل العيال المشهورة وكان لما راى بعض الاهلين شدة حملة الاعداء ووشك فتح البلد ركبوا السفن الباقية والتجأوا الى قرطاجنة فاقام نبوخذ نصر ملكًا على صور يقال لهُ بعل وكان

الصوريون وغيرهم من العصاة على الاشوريين ينتظرون بفروغ صبر قدوم اواه براهت المصري بجيشهِ منجداً قياماً بالعهدة التي عقدها الا انهُ تاخر عن ذلك وطال تاخرهُ حتى اصبحت عاصمة الفينيقيين مداساً لارجل الفاتحين وعلم المصريون ان الاشوريين اكثر منهم في البر قدرةً واشد باساً فاتخذ الفرعون من جندهِ المستاجرة من الايونيين والكاريين رجالاً يديرون السفن الحربية التي باشر اشادتها قاصداً بذلك اضرام الحرب بحراً فاجتمعت تحت لوائهِ عدة من السفن لم تخفق فوق مثلها راية مصرية منذ ايام تطمس الثالث فلما اتمت البوارج اهبتها سارت نحو فينيقية مومِّلة ان تلقى من الفينيقيين ترحاباً وخضوعاً لا يسبقها صد الا ان فوز الكلدانيين على صور وسحقها ومخافة الفينيقيين من باس الفاتحين واقتدارهم الزمامهم السكون في طاعتهم والنصح في خدمتهم حيث قدموا لهم سفنهم ليحاربوا فيها اعداءهم المصريين فاتحدت سفنهم بالسفن التي جهزتها ممالك قبرص الصغيرة نجدة للسائدين عليها وسارت سفن المتحدين لتصد قدوم عمارة مصر فالتقى الفريقان في مياه قبرص والتحمت العمارتان حيث شبت معركة هائلة كان النصر فيها لبوارج مصر فجاءت العمارة الفائزة الى الثغور الفينيقية تاخذها الواحدة بعد الاخرى واما صيدا فما اخذوها الا مهاجمة على انا نظن ان استيلاءهم عليها بالهجوم لم يكن حين خالفتهم صيدا عن الحالفة الاولى ضد الاشوريين كما تقدم بل الان واما ارواد فقد احتلها المصريون واقاموا فيها خفراً من ذويهم ظل فيها امداً.

وكانت صيدا تنظر دائماً الى صور بعين البغضاء والحسد وتنقم على ابنائها صلفهم ودعواهم بالتقدم عليهم ولذلك كانت تخالف سياسة يقوم بها الصوريون فان حاربوا صالحت وان صالحوا حاربت على انهم تركوا صوراً تنهض للذب عن الذمار لتلاقي من سهام الاشوريين خراباً ودثاراً وتخلفوا عن نجدتها فطال عليها الامد وسقطت ضحية الوطن وشرف الدفاع عنهُ واما صيدا فبداءت تناظرها بالتجارة حتى انهُ لم يمض عليها امد حتى بلغت فيها

شاواً عظيماً وصارت ميناها الاولى بين ثغور المشرق ريثما كانت صور تنهض من انقاضها لتنفض عنها غبار الخراب الذي عاق بها وكانت صيدا تسالم الفاتحين وتظهر لهم كل علائم الطاعة والانقياد فنالت لدنهم مزيد العناية بالمنح والانعام وكان حدوث هذا الانقلاب قريب من عهد فتح المصريين للبلد وقد انبأ نا ما وجد في صيدا من الكتابة على قبر اشمونعيد ان ذلك الملك قد رمم الهيكل الذي خرب بفتح المصريين البلد ومن الادلة على ان صيدا قد وجدت نعمة بعيني ملك الكلدانيين انهُ انعم على ملكها بقطعة كبيرة من الارض كثيرة الخصب والكلا كان قد قضبها من مملكة يهوذا بعد فتحها وهي سهل سارون في جوار يافا واللد

واما صور فمع تأَخرها وانحطاطها كانت ما فتئت ذات استقلال داخلي يحكمها ملكها الوطني وقد نقل لنا ميناندر عن سجلاتها ان بعلاً ملكها الذي اقامهُ عليها نبوخذ نصر حكم عشر سنوات وفي سنة ٥٦٢ ق م ثارت فيها ثورة وطنية فانزلت الحكومة الملكية عن عرشها واقامة قضاة ينتخبهم الجمهور واسمهم سوفتس ولا يخفى ان حدوث هذا الامر يعادل الزمان الذي جن فيهِ نبوخذ نصر ولهذا يظن ان الصوريين اغتنموا الفرصة لخلع الملك الذي ولاهُ عليهم ومما يقال ايضاً ان بعد بعل صارت حكومة صور فوضى تتنازعها الاحزاب وليس للحكومة اقتدار على اختيار احداها واول من عرف من القضاة اكنيبا اوس بن بلساكوس تولى القضاء شهرين وخلفهُ سا لبيس بن ابداوس فتولاهُ عشرة شهور ثم خلفهُ اباروس وكان عظيم الكهنة عندهم فتولى ثلاثة شهور ثم ان موكون وجيراستراتوس ابني ابدليموس توليا المنصب خمس سنوات او ستاً على ان القوم عادوا الى الملكية وانتخبوا بالاتورس ملكاً عليهم فحكم فيهم سنة واحدة وكان هذا الزمن معادلاً لزمان القلاقل والاضطراب في بابل حيث تقلبت الخلافة بين عائلتين تولى منها افيلمردوك ونيركاساروشور و بابربسروك الثاني ولذلك لم يتداخلوا في امور صورسيا وانها كانت تدفع

جزيتها السنوية ولما توفي بالاتوروس بعث الصوريون الى بابل فاتوا برجل يقال لهُ ماربالوس فحكم اربعة سنين ولعلهُ كان من العائلة الملكية وقد هرب الى بابل ملتجيئًا الى بلاطها يوم ثورة الاهلين لقلب الملكية ولما توفي هذا دُعي اخوهُ ابروموس او حيرام من بابل وجلس على سرير الملك وفي زمن ولاية هذا الملك على سرير فينيقية كان كورش المادي قد نهض على خالهِ واستقل وحارب واستولى على بابل سنة ٥٢٨ ق م وكان اليهود لم يزالوا اسارى في بابل وقد جاء بلادهم قوم من الاشوريين والكلدان وسكنوها بامر ملوك تلك البلاد

الفصل الثالث

حروب الفرس وتسلطهم على سوريا

ولما ثار كورش على خالهِ واستبدَّ في الملك واستفحل امرهُ لم ينهض الفينيقيون لاغتنام فرصة القلاقل والخروج عن طاعتهِ بل اقر حيرام وسائر ملوك البلاد بسيادتهِ وذلك سنة ٥٢١ ق م وظل حيرام كذلك ست سنوات ولما مات خلفهُ ولدهُ موثون فسار على سياسة ابيهِ وكان يودي الجزية مع رفاقهِ على ان فينيقية كانت تلتزم انجاد السائدين عليهم بحرًا ولم يمتنعوا عن ذلك الا في حرب قرطاجنة

ولم ينهض ملك مصر لاحباط سياسة الفرس حسب عادة سلفائه لانهُ كان قد ملَّ من الحرب ورغب في السلم ولو كارهًا وحالف كورش امم فلسطين ومال الى اليهود واظهر لهم رغبتهُ في نجاحهم واذن لهم باعادة بناء اورشليم والهيكل لانهُ كان يرى من سداد الراي اقامة امةٍ ذات نشاطٍ واقدام على تخوم مصر لتردَّ عن بلادهِ مهاجمات الفراعنة وتجد قومهُ اذا عزموا على الغارة عليهم وراى ما كان اليهود عليهِ من النشاط والامانة فرغب اصطناعهم نوالاً لغايتهِ حتى انهم لما فازوا باجابة ملتمسهم ساروا وهم اثنان واربعون الفًا يترأسهم زربابل

ورئيس الاحبار فجأوا اورشليم وعلقوا يبنون دورها وهيكلها وكانوا يحتاجون الى مساعدة الصيدونيين والصوريين للحصول على الاخشاب اللازمة من لبنان ولا ريب ان الفرس كانوا لا يرون من حسن السياسة السماح بتحصين مدينةٍ كاورشليم لولم يقصدوا بذلك التمكن من السواحل البحرية واعطى اليهود للصيدونيين والصوريين مأكلاً ومشرباً وزيتاً لياتوهم باخشاب الارز بحراً الى يافا

وما من رواية تدل على ان كورش المادي قد استخدم في كل زمان دولتهِ العمارة الفينيقية على انهُ عزم في اواخر زمانهِ على محاربة مصر واخذ بالاهبة لذلك فحوّل عزمهُ بغتةً لمحاربة القبائل البادية القاطنة الحدود الشمالية الشرقية من بلادهِ وقد روى هيرودتس انهُ مات وهو في قتالهم وقد ذكر اكسنفون احد المؤرخين اليونانيين ان كورش استولى على قبرص وفينيقية ومصر على انهُ لا يحق الاركان لهذه الرواية لان المورخ اكسنفون كان يقصد الاطناب بفتوح كورش ولما مات كورش عرف اهمس فرعون مصر ان خلفهُ كامبسيس سيأتيهِ محارباً فبدأ يجهز نفسهُ للذب عن ملكهِ وكان كامبسيس يلتمس حجةً لفتح الحرب والغارة على مصر فارسل يطلب ابنة اهمس عروساً لهُ قائلاً في نفسهِ انهُ يرفض ذلك فاغزو بلادهُ لكن اهمس تظاهر باطاعة كامبسيس وبعث لهُ بابنة سلفهِ ابريس وكان قد خلفهُ وقتلهُ وقال انها ابنتهُ وكان اسمها نيتيتس فلبث كامبسيس معها مدة الى ان عرف انها ابنة ابريس فاتخذ خداع اهمس وسيلةً لاشهار الحرب سيما وان الملك صار من حقوقهِ بزواجهِ بابنة الملك ابريس وتجهز كامبسيس بالمال والرجال وسار ليغزو مصر وكان قد جاءهُ واحد من قوادها يقال لهُ القائد هليكارناس وهو من العارفين احوالها فاشار عليهِ بجعل لفة العرب الذين يسكنون القفر لياتوا بالماء على ظهور الجمال قياماً بحاجة الجيش ولما دنا من سوريا ظهرت لديهِ علائم الخضوع والطاعة ولم تمانعهُ بلدة منها غير غزه لانها كانت

مخالفة لمصر ففتحها وأسر الحامية المصريين الذين فيها وجعلها مركزًا لمهماته اما عمارة الفينيقيين فقد انجدتهُ

وفي غضون ذلك مات احمس وتولى الخلافة ابنهُ بساما تيكوس الثاني فحارب الفرس وانكسر من امامهم كسرة هائلة ووقع اسيرًا وكاد يطلق سبيله لو لم يعلم الفاتح بما اعده لهُ من المؤامرة فقتلهُ واقام واحدًا من ذويهِ ملكًا على مصر وبعد ان فاز كامبسيس عزم على محاربة قرطاجنة على ان الفينيقيين لم يوافقوهُ على ذلك معتذرين بقولهم ان الطقوس الدينية كانت تمنعهم عن الاشتراك بحرب ضد ابنائهم فعدل كامبسيس عن عزمهِ لانهُ لم يكن يستطيع اجبار الفينيقيين على ذلك ولا الوصول الى قرطاجنة بغير سفنهم

ومن ذلك الزمن استقرت العمارة الفينيقية تحت امرة الدولة الفارسية السائدة في كل سوريا بدليل ذكرها اجمالاً ما بين الولايات الخاضعة لتاج فارس بعد فتح مصر وكثرت مداخيل العمارة بما كانت تعينهُ لها الملوك وتحسنت احوالها جدًّا اما داريوس العظيم فقد استخدمها لافتتاح الجزر الواقعة عند ساحل اسيا الصغرى وكانت قد ضمت الى فلسطين وقبرص وحسبت الاقليم الخامس من مملكتهِ العظيمة

وكان داريوس قد راى ان يقيم ازاء كل والٍ اثنين من المامورين احدهما رئيس الجند والاخر رئيس الكتاب وان يكونوا مستقلين عن بعضهم ومرجع كل منهم الى الملك وكان من مصلحة الوالي ان يضرب الجزية ويجمعها ويجري العدالة على محورها اللايق وكان في يدهِ العفو والاعدام واما رئيس الكتاب فكانت اهم مصالحهِ المناظرة على امور الوالي والاعراض عنها لمولاها وكان في كل مدة يرسل فاحص بكتيبة من الجند فيطوف البلاد ويسبر امورها فاذا راى خللاً اقتص من محدثهِ سواء كان الوالي او غيرهُ حيث كان قادرًا على خلع الولاة او توقيفهم حتى قتلهم اذا راى اثر عصاوة او مخالفة على انهُ لم يكن مسؤلاً احاكمهم ام لم يسمع ما يقولون وكان خراج ولايات فارس

الف واربعائة وستين وزنة من الفضة معدل محصولها فرنك ٨٢٫٧٩٩٫٨٦٦ على ما رواه ما سبير وفي تاريخ المشرق وكانت هذه الشريعة الداريوسية مع ثقلها سببًا في حفظ البلاد من القلاقل والثورات مدة وفي اجراء النواميس الفارسية وانتظام مالية الدولة

ومع كل هذا الانقلاب وصيرورة الامة الفينيقية امة للفرس لم تتأخر تجارة صور وصيدا بل استمرت في سيرها المعتاد بدون منازع على ان قيام بنتيها قرطاجنة وقادس قد جعل لها بعض التاثير اما الفرس فلم يكن دابهم الا الفتوحات واتساع نطاق المملكة قاطعين النظر عن امتلاك قوة بحرية ولذلك لم ترَ المدن الفينيقية بخضوعها لهم خسارة كبرى وكانت القوافل الحافلة بالاموال والبضائع المثمنة لم تزل تاتي مدن الفينيقيين لتصب فيها انهر الثروة والغنى ومعامل تلك المدن تنسج منسوجاتها وتصنع مصنوعاتها من ارجوان وزجاج وغيرها كحالتها الاولى من الرواج والسعة وفي تلك الايام صدر امر داريوس العظيم بذهاب ديموسيديس بقوم من الفرس الى البلاد اليونانية ليتجسسوها ويفحصوا احوال الداخلية والثغور استعدادًا لحملة ذلك المنتصر العظيم فقدمت من فينيقية سفينتين من سفنها العظيمة ذات الثلاث طبقات مدججة بالسلاح ومدخرة بالزخائر والمؤن الكافية فسافر ديموسيديس وقومه بهما وبعد زمان يسير تجهز داريوس لقتال السيثيين على انه لم يستخدم من سفن الفينيقيين ولا غيرهم اما اليونان الايونيون فكانوا قد اعدوا عمارة بحرية عظيمة تجمعت في الاوكسين عند مصب الدانوب لتشترك في الحرب وتخفر الجسر القائم فوق النهر وكان داريوس قبيل زمن يسير قد اخضع البلاد الايونية وقاد كثيرين من اهلها اسارى وباعهم عبيدًا واماء ولذلك لم يكن من الصواب اركانه اليهم بحراسة الجسر اذ ان سلامة جنوده ومملكته كانت تتوقف على ذلك ولو لم تكن سياسة حكام البلاد الايونية على غير ارادة الشعب لثار ذلك الحنق الكامن الضغينة واحرق

الجسر تاركًا ذلك السلطان في القفر حيث تهلك جنوده (رواه هيرودتس في تاريخه ٤ ــ ١٩٠ و ١٢٤) وبعد بضع سنين اي في سنة ٥٠٢ ق م شهرت المدن الايونية راية العصيان بتحريض مدينة اثينا ومساعدتها اما قبرص فبما ان سكانها من اليونان والفينيقيين ثاروا ليخلعوا عنهم نير الفرس غير ان مدينة اماثوس تخلفت عن اخواتها فحصرها السلاميون وعرفت الدولة الفارسية بما كان فاوعزت للفينيقيين ان يرسلوا عمارتهم على هذه الجزيرة لتعود بها الى الطاعة فلبى الفينيقيون الامر وبعد حروب شديدة عادت الجزيرة الى الخضوع

ولما انتشبت الحرب الشديدة بين الفرس واليونان وقد ابتدات بحريق مدينة ساردس كانت العمارة الفينيقية كل قوة داريوس البحرية ولما ارسلت الجنود المصرية والكيليكية لاخضاع قبرس امرت الدولة الفارسية السفن الفينيقية بنقلهم وانتشبت نيران القتال برًّا وبحرًا فكانت جنود الدولة الفارسية تقاتل برًّا جموع الايونيين والقبرصيين والعمارة الفينيقية تحارب العمارة الايونية في البحر ففي الحرب البحرية كان الفوز لليونان على انهُ ربما كانت تلك اول مرة رجعت فيها عمارة الفينيقيين منكسرة اما المعركة البرية فقد دارت الدائرة فيها على الثائرين ولذلك عادوا لربقة الطاعة والانقياد بعد ان تمتعوا باستقلالهم سنة واحدة اما قواد جنود فارس فبعد افتتاح قبرس ناهضوا للهجوم على مدن الايونيين واجتمعت نحو ستمائة من سفن الفينيقيين لافتتاح مدينة ميلتوس موطن اريستوكوراس مثير الثورة الايونية فاظهر الفينيقيون في هذه الحرب كل الشجاعة والبسالة ذلك ما حمل كثيرون من المورخين على الثناء عليهم فاتوا جزيرة لادقبالة ملتس وهنالك شبت نيران معركة بحرية هائلة بين سفن الفينيقيين وسفن الايونيين فانكسر الايونيون لان عمارتهم كانت دون عمارة اعدائهم واقل نظامًا وترتيبًا وقد وهت عزائم المقاتلين فيها لما عرفوا بانكسار جانب عظيم من الساميين وبعد

ذلك بزمان قصير فتحت جزيرة ملتوس ثم كل الجزر اليونانية التي في بحر اسيا وقد روى هيرودتس ان ملتيادس القائد اليوناني الشهير الذي انتصر بعد ذلك في معركة ماراثوس كان في سفن اليونانيين ففر باحداها اما ابنه اما تيكوس فقد وقع قتيلاً

ثم انضمت العمارتان الفينيقية والايونية واخضعتا كل الجزر الاجية لدولة الفرس و بعد حين نقلت سفن الفينيقيين جنود الفرس الى ماراثون على انهُ لم تُذكر هذه الرواية بتصريح في تاريخ الاستعدادات لتلك الحملة

و بينما كان داريوس يعد الاهبة ليحمل ثانيةً على اليونان وافاهُ القضاء فمات سنة ٤٨٥ ق م وخلفهُ في سرير مملكة فارس ومادي ابنهُ زركسيس وكان حق الملك لاخيهِ الاكبر ابطزان وفي اثناء جلوسهِ ارسل جيشًا الى مصر فاعادها الى الخضوع وعاقب مثير الفتنة ولما صفا وقتهُ جهز جيشًا جرارًا من الفرسان والمشاة بلغ عددهُ مليونان ليحمل بهم على اليونان واستصحب معهُ عمارة كبيرة من سفن الفينيقيين وربما المصريين ايضًا قيل انها كانت مولفة من الف وما ثتين سفينة كبيرة ذات ثلاث طبقات و ٣٠٠٠ سفينة اصغر منها وسار بها وبالجند حتى بلغ بوغاز جيناق قلعة عند الاستانة المعروف يومئذٍ بالهيلسبونت ولم يكن من سبيل لعبور الجيش في البوغاز فامر زركسيس بان تصف القوارب والسفن ملاصقةً بعضها لتمر الجنود من فوقها وكان الفينيقيون يربطون السفن بحبال ضخمة قوية اما المصريون فكانوا يربطونها بورق البابيروس (نبات برّي كان ينبت قديمًا على ضفتي نهر النيل في مصر وكان المصريون يتخذون ورقهُ للكتابة وقد اخذ العلماء عنهُ وعن بقية الاثار افادات كثيرة تهمّ التاريخ) فلما تم العمل جاءت موجة قوية تحركها رياح عاصفة فهدمت ذلك الجسر فغضب زركسيس غضبًا شديدًا وامر بقطع رؤُوس المهندسين و بناء جسرٍ اخر فشرع القوم بهِ واستخدموا لذلك ذات المواد الاولى على انها كانت اشد متانة من الاولى

وامر زركسيس ايضًا ان تعمل قناة في البوغاز تصل بين جبل اثوس والبر فاجتفرها الفينيقيون ولم يكن لهم معرفة بذلك فامنت السفن ما اصاب عمارة ماردونيوس وكان احتفار تلك القناة متقناجدًا وقبل ان عبروا الهيلوسبونت امر زركسيس جنودهُ فحلت بالقرب من ابيدوس وامر عمارتهُ البحرية ان تمتحن قوتها ومهارتها وسرعة مسيرها بنضال مع بعضها في البوغاز فامتاز الفينيقيون وبالاخص الصيدنيين بالانتصار على اليونان وغيرهم من البربر وارسل الملك ثلاثمائة سفينة فينيقية للعمارة المجتمعة في دوريسكوس عند مصب نهر ابروس اما المصريون فارسلوا مائتين سفينة وارسل القبرصيون مائة وخمسين وقد ذكر هيرودتس المورخ اسماء قادة تلك الحملة والملوك الذين ذهبوا مع زركسيس اما قواد الفينيقيين فهم تبترمنستوس بن انيسوس الصيدوني وما بن بن سيروم الصوري وما ربال بن اكبال الاروادي وكانت نوتية الفينيقيين مسلحة بالخوذ المشابهة خوذ اليونان وبالدروع والرماح والمجان ولما انتشبت نيران معركة ارتميسيوم لم يفعل الفينيقيون كفعل المصريين على انهُ لما حدثت معركة سالاميس اقيم الفينيقيون لقتال الاثينيين وابتداء القتال بمحاربة سفينة فينيقية من ذات الثلث طبقات مع سفينة اخرى اثينية تحت امرة امينياس اخي اشيلوس فاغرق الايونيون كثيرًا من سفن الفينيقيين فظن الفرس ان ذلك كان عن خيانة اختيارية واشتكوا للملك زركسيس وكان ينظر الى ذلك وهو جالس على سرير قائم على ارجل من الفضة وحدث في تلك الساعة ان نوتية احدى السفن اليونانية اظهروا ما يدل على عظم النشاط والقوة فسر زركسيس بعد ان غضب من الكسرة ونظر بحنق الى الفينيقيين وامر بقطع روءوس كثير من منهم محتجًا انهم لم يظهروا الاجتهاد التام بالقتال وان الجبن الذي ينسبونهُ الى الايونيين انما هو منهم فلما رات جماعة السفن الفينيقية ان الدائرة ستدور على الفرس وخافوا ان يوسعوهم شتمًا وقزفًا واهانةً وقتلاً ساروا جميعًا راجعين الى بلادهم فمروا

باتيكا ثم انوا ثغور اسيا على ان بعضًا من سفنهم التي كانت معدة للتنقل وحمل الامتعة والذخائر لم تذهب مع رفيقاتها بل استمرت في خدمة الملك واخذت تباشر بناء الجسر الذي امر زركسيس بهِ في سلاميس حينما عزم على الهرب ذالك لكي لا يعرف قصدهُ

ولما كان ربيع السنة القادمة اتى زركسيس بجنودهِ وعمارتهِ الى ساموس على اننا لم نسمع بانضمام العمارة الفينيقية اليهِ ولا باتحادها مع عمارة ماردونيوس في معركة بواتيا ولم يشتركوا بمعمعة ميكال حيث هلكت عمارة الفرس عن اخرها في ذات النهار الذي بهِ استئصلت الجنود الفارسية في معركة بلاتيا ولم نسمع بعد ذلك ان العمارة الفينيقية حاربت احدًا او سارت لنجاة قوم الا عندما سار الاثينيون المتراسون في محالفة اليونان البحرية لقتال قبرص وسواحل كيليكيا فاتت عمارة فارسية تحت امرة فيراندانس وطهروستوس ورست قبالة الجزيرة التي كانت قد عادت فصارت حدًا بحريًا بين مملكتي فارس واليونان وذلك لاستيلاء الدولة اليونانية على جزر اجيا والثغور الاسياوية وكانت تلك العمارة مؤلفة من مائتين سفينة من ذات الثلث طبقات واكثرها ان لم نقل كلها من سفن الفينيقيين فرست بالقرب من مصب نهر ابريمدون في بامفيليا واقامت هنالك تنتظر نجدة ثمانين سفينة واردة من قبرص فلما عرف سيمون رئيس عمارة اليونان بدنوا النجدة الزم الفينيقيين على القتال قبل ان يتمكنوا من الانضمام اليها وما زال بهم حتى قادهم الى الشاطي فنزل بجنودهِ اليهِ وحارب جيش الفرس الذي كان قد اتى ليقاتل مع العمارة فكسرهُ كسرة هائلة واسر مائة سفينة واخذ منها غنيمة وافرة فقدم عشرها الى ابولو وقد تسمت هذه المعركة باسم معركة ابريمدون وكان حدوثها سنة ٤٦٦ ق م وظلت جنود الاثينيين تخاصم الفينيقيين ومن جرى ثورة انورس في مصر بعد ذلك بخمس سنوات قام الحرب على قدم وساق في سواحل سوريا وكان للاثينيين عمارة موءلفة من مائتين سفينة

راسية في مياه قبرص فارسلوا منها اربعين سفينة لنجدة انورس الذى كان قد وعدهم بمشاركتهم في حكومة مصر وبلغ الدولة الفارسية عصاوة مصر فاتي القايدان ارتابازوس وميكابيزوس وجمعا جيوشهما وحلا في كيليكيا قاصدين المسير منها لاخضاع مصر فاتيا سوريا وفينيقية يجمعان السفن والرجال لاحتشاد عمارة بحرية وبعد انكسار الجنود الاثينية واستسلامهم للاعداء في جزيرة بروسوتس جاءتهم نجدة موءلفة من خمسين سفينة ذات ثلاث طبقات فلما وصلت هذه النجدة الى مصب النيل في مانديسيا وهي غير عالمة بما اصاب الجنود هجمت عمارة الفينيقيين عليها فاعدمتها عن اخرها فلما انكسر الاثينيون وخافوا على سطوتهم من الانحطاط والزلة في الجهة الشرقية من المتوسط ارسل سيمون المنتصر في ابريمدون بعمارة موءلفة من مائتين سفينة ذات ثلاث طبقات ليستولي على قبرص فهاجم ستيون وهى كتيم وقبل ان يفتحها وافاه القضاء فمات فخلفه اناكيكراتس ولما علم بقدوم عمارة الفينيقيين والكيليكيين سار لملاقاتهم وقاتلهم امام سلامس من قبرص فكسرهم فغرقت سفن كثيرة من عمارتهم واسرت مائة سفينة بملاحيها وفرت السفن الباقية نحو ثغور فينيقية فلحقتها تلك السفن على انها وصلت سالمة الى بلادها وعاد الاثينيون الى مواطنهم مكتفين بذلك الانتصار ولا يعلم ان كان حقًا ما قيل عن انعقاد معاهدة بين الاثينيين والملك الاعظم صاحب فارس بان يتملك قبرص بلا معارض بشرط الا يرسل سفنه الحربية الى غربي الخلكدونية بانعقاد عهدة توزن بانكفاف القوم عن القتال في مياه المشرق سنة ٤٤٩ ق م

وكانت السفن الفينيقية في كل الحروب التي اقامتها اغاثة لدولة فارس لم تكسر الا امام الاثينيين

اما سوريا فكانت لم تزل خاضعة للفرس يقيمون عليها ولاتهم ويجرون فيها احكامهم حتى اواسط الجيل الخامس قبل الميلاد فان واليها ميكابيسوس

كان قد كدرهُ من ارنا كذرسيس سوء معاملتهِ لهُ فشهر عليهِ راية العصيان حتى اذا علم الملك ساءهُ ذلك جدًّا و بعث اليهِ بسرية من الجند فكسرها فاردفها باخرى على انها تقهقرت ايضًا والتزم الفرس ان يطلبوا من الخارجي شروط المصالحة والرجوع الى الطاعة ففعل وفاز بما يريد من الشروط فعاد الى الطاعة بيد ان نجاحهُ كان وبالاً على الدولة الفارسية لان كثيرين من الولاة انتهجوا سبيلهُ فشقوا عصاء الطاعة . وحدث ان في اواخر ذلك العصر كانت حرب البلوبونيس متنشبة بين اليونان وكان السبارتيون قد عقدوا عهدًا مع الفينيقيين في ميلانوس سنة ٤١١ ق م استنجادًا لسفن فينيقية فلما انضموا يدًا واحدة هجم المتحدون على عمارة الاثينيين وقد روى بعضهم ان عدد سفن الفينيقيين التي اتحدت مع سبارتا كان ثلثمائة سفينة وقيل مائة وسبعة واربعين ولما ادرك المتحدون مينا اسباندوس في بامفيليا اوعز اليهم ان يرجعوا الى وطنهم ليذبوا عن زمارهم لان مملكتي مصر والعرب كانتا تتهددانهم بالخراب وقد قال بعضهم ان مصر كانت قد عزمت على الحملة على الثغور وقال اخر بل ان تيسافرس وهو فارنابازوس عاقد العهد بالاتحاد مع السبارتيين ارسل فاسترجع السفن مؤملاً الحصول على جزاء منهم لانهُ وفر عليهم اثقال حرب عظيمة في بلاد بعيدة غير ان الارجح ان السيبادس كان يخشى هجوم العمارة الفينيقية عليهِ فارسل يقول لوالي بلادهم الفارسي انهُ ليس من صواب السياسة مساعدة سبارتا لاذلال اثينا ولذلك بعث الوالي بامر يسترجعهم فيهِ وسنة ٤١٤ ق م رفع المصريون راية العصيان ضد الحكومة الفارسية واقاموا اميراتوس ملكًا فحاول هذا الملك ان يتولى على بلاد فينيقية لانها مصدر قوة دولة فارس البحرية غير ان رجوع هذه السفن ردهُ عن عزمهِ وفي سنة ٣٩٤ ق م استخدم الاثينيون عمارة الفينيقيين لمساعدتهم بهما ولهُ احطاط قوة السبارتيين البحرية بعد ان تقررت سيادتهم بمعركة اكسبوتامي التي فازت فيها بالانتصار وكانت الدولة الفارسية قد عضدت

حكومة سبارتا في اثناء حربها مع اليونان حربهم المعروفة بالبالوبونيس لانهُ كان من سياسة الفرس عضد الجانب الاضعف من بلاد اليونان لازلال المملكة باسرها غير ان هذه السياسة ما لبثت ان تغيرت ذلك عندما سار الملك اجيسلاوس مقاتلاً في اسيا الصغرى مفتتحاً البلدان التي كانت قد خضعت للفرس فاشهرت الدولة الفارسية الحرب على سبارتا وسار فارنابازوس فجمع عمارة السبارتيين في كنيدوس اما ملك فارس فكان يومئذٍ زركسيس الثاني ابن داريوس وبينما كان في عاصمة ملكهِ بلغهُ خبر انتصار اجيسلاوس في اسيا الصغرى وتقدمهُ نحوهُ فخاف من ذلك وبعث يحرض اثينا وغيرها من ممالك اليونان المعادية لسبارتا على اشهار العدوان والظاهر ان تلك الممالك قد قبلت ذلك الطلب وثارت وهذا حمل اجيسلاوس على الرجوع الى بلادهِ لقتال المتحالفين فحاربهم الحرب المعروفة بالكورنثيت وكانت اثينا قد ارسلت لمعونة الدولة الفارسية سفناً تحت امرة كونون فبعد ان انتشبت نار القتال بينهم في كنيدوس خسر السبارتيون خمسين سفينة من ذات الثلث طبقات وكثيرين من النوتية الذين سبح بعضهم الى البر طلباً للنجاة فالقت الجنود الذين فيهِ القبض عليهم اما فارنابازوس رئيس سفن الفينيقيين والقبرصيين من قبل الدولة الفارسية فترك الرياسة وقيادة الجيوش البحرية لكونون رئيس عمارة الاثينيين فسار هذا بسفنهِ قاصداً البلاد اليونانية ثم اخذ النوتية وغيرهم بالاشغال في تجديد بناء مدينة اثينا العظيمة ثم عقد الصلح وعرف بصلح انتاليسيداس وكان مجمل شروطهِ موافقاً للفرس

ولما فاز المتحالفون بالنصرتاً بدت بين القومين صلات الوداد والتجارة واخذ الفينيقيون يترددون على بلاد الاثينيين ويقطنون عاصمتهم حيث اشادوا المباني والصروح والمعابد يمارسون فيها طقوس دياناتهم ولقد وجد القوم ثلاث صفائح حجرية فينيقية احدها بلغتهم والاثنتان باليونانية اما تاريخها فبعد السنة المائة الاولى لمبادية بزمن قصير (تعادل سنة ٣٨٠ ق م) والظاهر

ان الصلات الودية التي جرت بين فينيقية واثينا كانت من مجالس النساء في اثينا وتاريخة بين سنة ١٠١ و٢٠١ من تاريخ الاولمياد وفيه يمنحهم انعاماً كثيرة اخصها اعفاؤهم من الجزية وكل التكاليف التي يلتزم بها الاجانب المقيمون في اثينا وكان هذا العهد ممضى من ستراتو ملك صيدا ومن شعب اثينا ·

اما المدن السورية فكانت قد ذلت تحت سلطة الفرس ولم يبق لها مقدار ذرة من الرغبة في الحرية والاستقلال تعطي الجزية صاغرة وهي مهملة لا يروي التاريخ عنها خبراً مذكوراً لكن مدن الفينيقيين كانت قد شاركت مولاتها الفارسية بفخر سوددها الحربي ونتائج النصر والكسر من ذلك ما كان من وبال حرب الفرس وافيكوراس صاحب قبرص التي شبت سنة ٣٩٢ ق م اما سبب تلك الحرب فهي ان افيكوراس ثار على السلطة الفينيقية في بلاده وكانت قد استوت مكان دولة آل توسر وقتل المالك يومئذٍ وهو ابدمون الصوري على ان المؤرخين يندون بسياسة ابدمون وخلفائه لانهم كانوا يضحون كل الصوالح العمومية للصالح الخاص ذلك شان الولاة المستبدين الظالمين ولما استفحل امر افيكوراس واشتد ساعدهُ بكثرة الواردين الى بلاده من اليونان الذين انفوا البقاء في بلادهم بعد موقعة آكوسبوتامي شرع بتصليح الحصون وترميم القلاع وبنى سفناً كثيرة من ذات الثلاث طبقات وارجع الامن للبلاد بتنفيذ الشرع فازدادت قوة قبرص جداً حتى عادلت احدى الممالك اليونانية فاشتدت غيرة الدولة الفارسية وحسدها ونظرت اليها نظرة من رغبت الاستيلاء على عزيز تخشى ان باستقلاله ينظم مملكة بحرية في جزيرة جعلتها الطبيعة مركزاً احسنا للقيام سلطنة بحرية عظيمة وكان ملك فارس يحتسب عداوة افيكوراس اشد واقطع من عداوة كورش الذي كان قد قاتلهُ من مدة وكسرهُ وكانت جيوش افيكوراس الخاصة قليلة جداً لا تتمكن من مقاومة الدولة الفارسية على ان اثينا كانت تسعفهُ ولذلك بعثت اليه بعمارة

تحت امرة كابرياس وكان آكورس ملك مصر قد عصي الدولة الفارسية ولذلك بدا يجد قبرص فلما تمكن افيكوراس من جمع قوة كافية لصد الفرس وراى ان لابد من القتال لم يتربص ليقوم بالدفاع عن بلاده بل افتتح اكثر مدن الجزيرة وارسل سفنًا الى فينيقية فهاجمت صور واخذتها والزمتها بتقديم عشرين سفينة من ذات الثلث طبقات على ان من المحتمل ان يكون استيلاء عمارة قبرص على صور القديمة التي في البر لان الجزيرة كانت يومئذ على غاية من التحصين وكانت الدول لاتسر بسياسة المملكة الفارسية وتصرفاتها فلذلك كان اغلبها يعضد افيكوراس خفية خوفًا من سطوة عدوه وكان هيكاتومنوس امير كاريا يتظاهر بمودة الدولة الفارسية ومصافاتها على انهُ كان يرسل مالاً كثيرًا الى افيكوراس في الخفاء وورد ان احد ملوك العرب ارسل جنودًا يحاربون مع القبرصيين وعلى هذا لايبعد ان يكون تسليم صور عن طيبة خاطر تخلصًا من نير الفرس مظهرة لتلك الدولة انها انما اخذت جبرًا على ان صلح انتليسيداس الذي تقدم ذكر عقده بين اليونان والفرس سنة ٣٨٧ ق م حمل اثينا على الانسحاب من نجدة افيكوراس اما مصر فكانت لاتتمكن من ارسال نجدة كبيرة اليهِ ولذلك خارت قواهُ وتمكنت الدولة الفارسية من ارسال جنودها لاخضاعه وبعد حروب ومقاتلات دارت الدائرة عليهِ في معركة بحرية سنة ٣٨٦ ق م ثم اخذت الحرب تتقد بينهما ست سنوات حتى وهت قوى افيكوراس فسلم للعدو وعادت بلاده المستقلة جزأً من المملكة الفارسية والتزم حكامها دفع جزية كبيرة لهم في كل سنة اما ديودورس فيقول ان تلك الحرب ظلت عشر سنوات

ان المورخين من اليونان يذكرون اثناء كلامهم عن هذه الحوادث المتعلقة بفينيقية ازدياد قوة صور البحرية واشتهار صيدا بالغنى والمجد وان ملوك فارس كانوا يقيمون في صيدا حتى ان الصيدونيين باتوا لايقدرون

على الانفصام من الاتحاد مع الفرس ولذلك استمرت فينيقية ساكنة حتى ثارت كل الولايات الفارسية طالبة الاستقلال فثارت معها فصارت الفارسية في غاية الارتباك لكثرة اعدائها فان سبارتا شهرت الحرب عليها ومصر ثارت في طلب الاستقلال وفي مقدمة جموعها نيكتانبوس الذي كان قد فاز بانتصارات عديدة وكان الولاة من الفرس المتولين على المقاطعات الاسيّة غير راضين عن حكومتهم وبالاجمال ثار كل الخاضعين للفرس من ساحل البحر عند مصر حتى ليكيا وتجندت جنود الفينيقيين والسوريين والكيليكيين والبمفيليين والبوسيديين واتحدوا ليخرجوا من ربقة الملك الاعظم اما سبارتا فارسلت اجيسلاوس ومعهُ جنوداً كثيرين الى مصر لنجدة الثائرين وارسلت عمارة بحرية تحت امرة كبرياس الاثيني ثم تقدم تاكوس ملك مصر خليفة نيكتانبوس الاول بجيشهِ الى فلسطين فاستولى على مدن وحصون كثيرة كانت للفرس على انهُ علم وقتئذٍ ان المصريين ملكوا عليهم غيرهُ وراى ان اجيسلاوس السبارتي السائر معهُ قائداً على احدى الفرق قد ثار عليهِ الانهُ لم ينعم عليهِ بالقيادة الاولى مع معرفتهِ بعلوّ مرتبتهِ فرّ هارباً الى معسكر الفرس وذلك سنة ٣٦١ ق م وبعد حين اي سنة ٣٥٩ ق م توفي ارتازركسيس منامون وتولى عوضهُ اوكوس وكان مشهوراً بالقساوة والجفاء حيث قتل كل الاحياء من العائلة الملكية ليخلو لهُ الجو فجهز جيشاً لمحاربة مصر وسار عليها فالتقى بجيوشها ويتامرها يومئذٍ ديوفانتوس ولاميوس اليونانيان فكسراه كسرة هائلة سنة ٣٥١ ق م فلما زاعت الاخبار في البلاد وكانت الاهلون قد ضجرت من مظالم الفرس ومصادرتهم لهم بما لا يستطيعون البقاء معهُ على رغد العيش خلع اكثرهم الطاعة وكان ستراب فينيقية الفارسي يقيم في صيدا مع بطانتهِ وقد سام اهلها ما يكرهون فلما انخذلت جيوش دولته ثار الصيدونيون عليهم وقتلوهم بعد ان اجتمعوا في ديوان مشورتهم في تريبوليس (طرابلس) احدى المدن الفينيقية سنة ٣٥٢ ق م وبعد مباحثات كثيرة قرّ

قرارهم على خلع طاعة الفرس فللحال تجندوا واخذوا بهدم القصر الملوكي ومخازن المؤن والذخائر المعدة لفرسان الفرس في مدينة صيدا ثم حشدوا عمارة كبيرة بحرية من ذات الثلث طبقات وبداءوا يستأجرون رجالاً من الاجانب يكونون لهم جنوداً واعدوا السلاح والذخائر وبعثوا بوفد يستقدم نيكتانبوس المصري لنجدتهم

فلما بلغت هذه الاعمال اذان اوكوس الجبان ثارت فيهِ نخوة اجداده واقسم ان لا بد لهُ من النقمة من الفينيقيين وخصوصاً من الصيدونيين فاخذ سنة ٣٥١ ق م يجمع الجنود من المشاة والفرسان في بابل عاصمتهِ ولما كملت عدتها سار بها نحو الساحل. اما سوريا فلم تعص كفينيقية بل ظلت خاضعة لاحكام الفرس وربما كان ذلك من ضعف قوتها وعدم تمكنها من الالتجاء الى البحر عند اللزوم وبعث اوكوس الى واليهِ في سوريا وواليهِ في كيليكيا ان يزحفا بجنودهما على فينيقية. وكانت مصر قد ارسلت الى تيناس الذي اقيم ملكاً في صيدا اربعة الاف من اليونان المستأجرين يترأس عليهم منتور الرودسي فانضم هولاء الى الجنود الوطنية فاصبحوا يتمكنون من مقاومة الواليين وردهما الى الوراء اما قبرص فلما بلغها خبر ثورة فينيقية حذت حذوها وخلعت عنها نير فارس وكان يحكمها تسعة من الملوك الصغار الخاضعين للملك الاعظم اما ايدريوس امير كاريا فكان لم يزل اميناً لمملكة فارس مع ان كل ممالك اسيا البحرية كانت قد عصتها فلما ثارت قبرص ارسل ذلك الامير اربعين سفينة من ذات الثلث طبقات لمهاجمة سلاميس وجاءها افيكوراس وفوسيون بثمانية الاف يحصرونها براً وكان فيها عديد من السوريين والكيليكيين اتوها للسلب فزادعدد المحاصرين وخاف المحاصرون

وبينما كان اوكوس ملك فارس سائراً الى فينيقية بجيوشهِ العظيمة بلغ تيناس ملك فينيقية ذلك فخاف على نفسهِ ولذلك دعا بوزبر لهُ كان من ارباب التدبير وبعث بهِ الى الملك اوكوس ليتفق معهُ على تسليم المدينة

عندما ياتي بجنوده الى اماميها واعدًا برافقة الحملة على مصر فانهُ يعرف بلدانها ومواقعها حق المعرفة فسر اوكوس بذلك جدًا غير ان كبرياءهُ ابت الا الغضب والانتقام عند ما طلب تيسا ليون وزير تيناس الى الملك ان يمد يدهُ اليمنى علامة للقبول وامر للحال بقطع راسهِ فقال تيسا ليون ان الملك حر بتصرفهِ غير انهُ لا يتمكن من تنفيذ ما ربهِ بدون مساعدة تيناس ثم بفصاحة خطابهِ رجع الملك الى عقلهِ ومد يدهُ وهي عادة مقدسة عند الفرس ولما انقضى ذلك جد الملك في مسيره

اما تيناس فلما امن جانب اوكوس تقاعد عن الاستعداد غير ان الصيدونيين لم يتركوا الوقت يذهب سدى فاعدوا عمارة تنوف عن مائة سفينة من ذات الخمس طبقات ومن ذات الثلث ايضًا وتحصنوا بسور منيع و بشرافة مثلثة واخذوا يعلمون الحدثان فنون الجندية على ان كل ذلك لم يجدِ نفعًا لقاء خيانة تيناس ومنتور قائد جيوش مصر فلما دنا اوكوس من بلاد صيدا امر تيناس قومهُ بالذهاب الى طرابلوس لتعقد فيها دار الشورة بين المدن الفينيقية ليعملوا بحسب قرارهِ ثم اخذ مائة من الاعيان وسار بهم حتى معسكر اوكوس فسلمهم ليدهِ وكانوا علة الثورة فامر بقتلهم عن اخرهم ثم تقدم الفرس نحو المدينة فخرج اليهم نحو خمسمائة من رجالها وبايديهم رسائل الخضوع فاخذ اوكوس تلك الرسائل ولم يجب بكلمة بل سال تيناس ان كان قادرًا على تسليم المدينة فاجاب بالايجاب غير ان اوكوس لم يصغ الى هذا الكلام لانهُ كان راغبًا في النقمة من الصيدونيين ليلقي الرعب في الممالك الاخرى فامر بقتل الخمسمائة رافضًا التسليم اما تيناس فاتمامًا لخيانتهِ تعاهد مع الجنود المصريين ان يفتحوا طريقًا لدخول الفرس الى المدينة وكان الصيدونيون قد رأوا الخطر المحدق بهم وان الخيانة قد جعلتهم فريسة لاعدائهم فاحبوا الموت بايديهم وفضلوهُ على الموت بيد المنتصر ولذلك احرقوا سفنهم لكي لا يتمكن احد منهم من الهرب فيها ثم اجتمعوا

ودخل كل بيتهُ بنسائهِ واولادهِ واموالهِ واوقدوا النار فماتوا بها حرقاً بعدان صارت مدينة صيدا اتوناً من النار المتقدة قد امتدت فاحرقت زهاء الاربعين الفاً من النفوس مع كنوزهم وما يملكون ثم باع الملك الفارسي حق استخراج الذهب والمعادن من رمادها بمبالغ كبيرة جدًّا

اما تيناس هذا فراى انهُ لا يستطيع ان يقوى على المصائب والاحزان المتراكمة عليهِ لارتكابهِ تلك الخيانة المريعة فاحب ان يقتل نفسهُ غيران امراتهُ سبقتهُ الى ذلك فقتلتهُ وقتلت نفسها فوقهُ

الفصل الرابع

حروب اسكندر المكدوني

بعد ان فرغ الفرس من محاربة فينيقية وارجاعها الى الطاعة ساروا الى بلاد مصر ففتحوها وهو معلوم ان قتال المملكة الفارسية تلك المرة كان اخر محاربة فازت منتصرة بها في تلك الجهات وكانت اثينا يومئذٍ اول دولة بحرية في بلاد اليونان متمتعة بصيانة استقلالها الداخلي ذلك جعلها في عداوة مستمرة مع مملكة مكدونية وكان الفرس لم يزالوا متسلطين على عمارات قبرص وفينيقية ومصر ومن فحوى المعاهدة التجارية المنعقدة بين رومية وقرطاجنة سنة ٣٤٨ ق م يظهر ان فينيقية لم تكن معروفة في تلك الاقطار الا مستقلة وكانت المملكة المكدونية قد عظمت وخصوصاً في زمان ملكها فيليب وابنهِ الاسكندر اما دولة الفرس فلتسلطها على معظم البلدان وامتداد سطوتها كان لها قوة عظيمة ومقدرة على التداخل في امور غيرها من الامم وعلى الخصوص اذا كانت احوال تلك الامم مختلفة فلما عظمت دولة فيليب المكدوني واخذ بتنفيذ ماربهِ بالاستيلاء على الدول اليونانية ليضمها الى واحدة تصونها الوحدة وكان قد سار لمحاربة البارينثيين بعثت الدولة الفارسية جنود لنجدة تلك الامة الضعيفة وكان رجال سياسة الفرس يعرفون ان

بانضمام الممالك اليونانية تحت رياسة ملك كفيلب يأتي يوم تزحف فيهِ عساكر اليونان عليهم ولذلك لم يتاخر الفرس عن استعمال كنوزهم لاستمالة الاحزاب في اثينا لمضادة مشروع فيليب العظيم وقد ذكر سقراط بتحرير بعث بهِ الى فيليب بعد انعقاد المصالحة بين اثينا ومكدونيا سنة ٣٤٦ ق م كل ما يبين هذه الامور فلما عاد اوكوس ملك فارس راجعاً من مصر بالفوز والانتصار انعكف على ارتكاب الجرائم والمعاصي وسلم نفسهُ لاهوائها وغاص في كل الرزائل التي اشتهرت عن بلاط الفرس وشرع باجراء المظالم وعمل ما يوليهِ لذة وسروراً على انهُ كان مستوزراً رجلين من اصحاب العقل والمعرفة احدهما منتور الروسي وكان متولياً على الولايات الغربية والثاني بكواس الخصي وكان متولياً على الشرقية فلما تفاقم جور ملكهما ومقتهُ الشعب باحتقار ثار عليهِ بكواس فقتلهُ سنة ٣٣٨ ق م واقام عوضاً عنهُ ابنهُ ارسس مؤملاً ان ينال منهُ جزاءً عظيماً وولاية كبرى على ان ارسس مال للانتقام من قاتل ابيهِ فعرف بكواس ذلك وقتل ارسس في السنة الثالثة من ملكهِ ولما لم يترك احداً من النسل الملوكي جلس على سرير خلافة فارس داريوس نسيب ارتازركسيس منامون وذلك سنة ٣٣٦ ق م في سنة جلوس الاسكندر على سرير مكدونية وترأسهِ على بلاد اليونان حيث احتشد جنوداً كثيرين لقتال اسيا . ان مملكة اليونان لما ضعفت قواها من جرى حروب الفرس وبانت ممالكها دون الفارسية ذلت لها بعد ان سلمت كثيراً من مدنها فلما عظمت دولة مكدونيا تحت رياسة فيليب رغب ذلك البطل ضم الممالك اليونانية الى واحدة وجمع جيشاً جراراً يترأس عليهِ في قتال الفرس واسترجاع البلدان التي عنت لهم غيران فيليب لم يبرّ اتمام مشروعه حيث قتل وهو يعد الذخيرة والمون بعد ان ضم اكثر اليونان الى مملكتهِ المكدونية فخلفهُ ابنهُ الاسكندر وهو الذي يدعوهُ الافرنج بالكبير . اما العرب فيدعونهُ بذي القرنين فلما قبض صولجان الملك واستقل في الاحكام حارب الذين كانوا قد عصوا اباهُ من

اليونان والبربر وارجعهم الى ربقة الخضوع ثم حشد الجنود ودعاه القواد كبيرهم فسار ليقاتل داريوس الثاني ملك فارس غير ان سياسته لم تبح له المسير الى البلاد الفارسية راساً قبل ان يامن جانب الذين وراءه ولذلك سار بجنوده الى اسيا الصغرى وهي بلاد الانضول وحارب فيها معركة كرانيكوس سنة ٣٣٤ ق م وفاز فيها بالانتصار فتغلب على تلك البلاد وضمها الى مملكته العظيمة وحارب داريوس في معركة ايسوس بين سوريا وكيليكيا سنة ٣٣٣ ق م فتقهقرت جيوش داريوس وفر ذلك السلطان الفارسي الى ما وراء الفرات تاركاً سوريا وفلسطين لسطوة ذلك الغضنفر الباسل فللحال عين اسكندر مانون وقيل بارمانيون احد رجاله والياً على كلسيريا اي البقاع ودمشق

وكان داريوس قد بعث بالمال الذي حمله من عاصمته الى دمشق فلما تبطن بارمنيون البلاد قاصداً دمشق لاقاه في طريقه رسول من دمشق ومعه تحرير الى الاسكندر ففضه وعلم مفاده ذلك ان يرسل الاسكندر واحداً من قواده ببعض الجند فيسلم اليه الخزائن فامر بالرسول ليرسل الى دمشق مع خفر فلما سار الحراس به فر منهم فانشغل خاطر اليونان من ذلك الا قائدهم لعلمه بخط مولاه فساروا يقطعون البلاد وراء قوم من السوريين يدلونهم سواء السبيل وهم يحتفظون من المكيدة حتى بلغوا دمشق فما لبثت ان فتحت لهم ابوابها فقبض القائد منها الفين وخمسمائة وزنة واسر نساء من كل عظماء فارس واولادهم وكانوا يومئذٍ في المدينة

وكان داريوس قد ترك في دمشق رسلاً وفدوا عليه من المدن اليونانية فلما سلمت المدينة بخيانة الوالي اصبحوا في قبضة الفاتحين لكن الاسكندر عاملهم بالصفح وكرامة الاخلاق واطلق سبيلهم احراراً واما الغنيمة فاقتسمها الفاتحون وسروا بها سروراً عظيماً حيث راوا ما لم يروه من قبل

واما الاسكندر فسار الى الثغور فلاقاه في طريقه استراتو ابن جيرو ستراتوس ملك ارواد وجوارها وقدم له تاجاً من ذهب مسلماً لقبضته جزيرة

اروواد ومدينة ما راثوس التي تقابلها في البر (عين الحيه) مع بعض مدن اخرى بجوارها اما جيروستراتوس ملك اروواد وانيلوس صاحب جبيل وغيرهما من ملوك فينيقية وقبرص وحكامها فكانوا يومئذ في شيو مع العمارة البحرية التي يتامرها فارنابازوس واوتوبراداتس من قبل الدولة الفارسية ولما راى داريوس ان ذلك المنتصر العظيم قد دخل سوريا واستولى على اكثر اقطارها عرض عليهِ الاتحاد والصلح فلم يقبل الاسكندر ذلك بل ظل في مسيره حتى دنى من جبيل فخرجت اليهِ رجالها وسلموهُ المدينة . ثم دعاهُ سكان صيدا فدخلها منصوراً ولا ريب انهُ ما دخلها حتى مر على كل الثغور الشمالية منها كطرابلوس والبترون وبيروت وغيرها وكان الفرس قد اقاموا على صيدا رجلاً يتملكها يقال لهُ ستراتو على انهُ ربما انضم الى العمارة الفارسية فلما دخلها الاسكندر اقام على حكومتها ابدالونيموس وكان من انسباء العائلة الملوكية على انهُ كان فقيراً بستانياً اما كورتيوس وديودورس المؤرخان فيقولان ان هذه الحادثة انما كانت في صور وليست في صيدا وان اسم الملك المنتخب بالونيموس . وكان ازميلكوس ملك صور مع اوتوفاراداتس وجماعتهُ في شيو كما تقدم على ان اهل صور اجتمعوا وتحدثوا فيما بينهم بان يسلموا للاسكندر فارسلوا وفداً اليهِ وبينهم ابن ازميلكوس وكان بارعاً في السياسة فقدم الوفد الى الاسكندر علامة الطاعة مع الوعد باجراء اوامره والظاهر انهم كانوا يظنون ان الاسكندر يكتفي بهذه الطاعة الظاهرة فقط ويمر الى مصر حتى انهُ اذا عاد داريوس ففاز بالانتصار لا يُخلون من عدوهم الاسكندر والظاهر ان اسباباً خفية حملت الاسكندر على رفض تسليم غير تام لا يمتلك فيهِ المدينة ولا ريب انهُ كان يختشي من المسير الى مصر ليهاجمها تاركاً وراءهُ مكاناً غير خاضع لهُ فيطرح جنودهُ في خطر عظيم ربما يقعون فيهِ لقيامهِ بين عدوين او اكثر سيما وان الفرس يستمرون على قوتهم في البحر طالما ان صور تنجدهم بسفنها وكان عارفاً بانهُ اذا سار وصور حليفة الفرس

تاتي عمارة فينيقية الثغور التي تخلع نير فارس وتخضعها ومن ثم تسير الى اليونان وبمساعدة اللاسيدمون وقيام اثينا التي لم تعن للمكدونيين الا خيفة بطشهم تخضع البلدان العاصية وبالنتيجة تسقط دولة المكدونيين غير ان فتح صور يملكهُ عمارة فينيقية العظيمة ولا تلبث قبرص بعد ذلك ان تشاركها في طاعة فاتحها ويتسهل لهُ السير على مصر فطلب الى الصوريين ان يسمحوا لهُ بالدخول الى بلدتهم ليقدم عن نفسهِ كفارة الى هركيل لانهم كانوا يعتقدون ان الملوك المكدونيين من نسل ذلك المعبود غير ان الصوريين لم يلبوا الطلب واجابوا ان في صور القديمة هيكلاً لهركيل حيث يتمكن الاسكندر من تقديم الذبيحة فيهِ وزاد كورتيوس المورخ بقولهِ ان الصوريين قتلوا وفد الاسكندر وبما ان اريان لم يذكر شيئًا من ذلك بتنا بين الشك واليقين لا نعلم من الحقيقة الا ان الاسكندر صمم حال ورود الجواب عليهِ على حصار الجزيرة واخذها عنوة فشرع في العمل كما سياتي

فبعد ان طال الحصار زهاء السبعة شهور دخل الاسكندر المدينة ظافرا وسار نحو القصر ودخلت العمارة الميناء واما الصوريون فساءهم الفتح وعادوا الى دورهم واقاموا فيها محاصرين ليقتتلوا عن اخرهم سيما وان المكدونيين كانوا قد سئموا طول زمان الحرب وهالتهم ممانعة الصوريين فاصبحوا يترقبون لهم السقوط لينقموا منهم نقمة كبيرة ولبثوا مثابرين حتى فازوا فابلوا فيهم بلاء شديدًا واثخنوا فيهم قتلاً واسرى حتى كادت المدينة تخلو من الصوريين فاشفق الاسكندر عليهم وعلى خراب مدينتهم وجاء بقوم من الكاريين واسكنهم فيها

وبعد ان فاز الاسكندر بالنصر عزم على المسير الى مصر فزحف بجنده والنصر حليف حسامهِ والمدن تفتح لهُ ابوابها حتى مدينة غزة وكانت حصنًا حصينًا يتامرها خصيٌّ فارسي يقال لهُ باتيس جمع جيوشًا مستاجرة واذخر الذخائر والمون وزاد بتحصين المدينة واتاهُ جمهور من الادوميين المهاجرين اوطانهم فلما سألهُ الاسكندر التسليم اباه فاقام الفاتح يحصرها فامتنعت عليهِ

شهرين ثم فاز عنوة ودخلها غير ان اهلها لم يسلموا بل ظلوا يحاربون حتى ماتوا عن اخرهم واسر الاسكندر منهم نحوًا من عشرة الاف اما باتيس الخصي فثقبت اباهمهُ وربط في مركبة حربية وجُرَّ حتى هلك

ثم سار الفاتح في طريقهِ ولما دنا من اورشليم خرج اليهِ رئيس احبارها وقدَّم اليهِ الطاعة فدخل اسكندر المدينة وسمع نبوة الكتاب فسر واحسن الى اليهود جدًّا ومن ثم سار الى مصر وصرف هنالك كل فصل الشتاء سنة ٣٣١ ق م مهتمًّا ببناء مدينة الاسكندرية لكي يحول مجرى تجارة فينيقية اليها وفي الربيع التالي عاد الى صور حيث كانت عمارتهُ قد اجتمعت فدخل المدينة وقدَّم ذبيحة لهركيل ومن ثم بعث الى البلوبونيس مائة سفينة من سفن قبرص وفينيقية ثم ان الاسكندر اقام بمعركة شديدة انتصر فيها على السوريين والفينيقيين وقد دعاها التاريخ بمعركة اربالا ولما نجز منها ضمَّ سوريا باسرها الى كيليكيا وجعلها ولايةً واحدة اقام عليها واليًا يقال لهُ مانسي وعين لجباية مال فينيقية رجلاً يقال لهُ كوبرانس وهكذا استولى ذلك المنتصر على سوريا باسرها وجعلها ولاية مكدونية بعد ان كانت ولاية فارسية ولاشك ان المكدونيين كانوا يحسنون الي رعاياهم اكثر من الفرس اما صور فكانت قد ضعفت وخارت قواها غير ان التجارة كانت لم تزل مزدهرة فيها ولما سار الاسكندر لقتال داريوس تبعهُ كثيرون من الفينيقيين والسوريين ليتجروا هنالك ثم عادوا رابحين وكانت سفن كثيرة تسافر لنقل الامتعة التجارية من هيداسبس الى الاوقيانس الهندي ومنها الى مصب الفرات والدجلة وكان نوتيتها من الفينيقيين والقبرصيين والكاريين والمصريين ولما عاد اسكندر الى بابل امر ببناء سبعة واربعين سفينة فينيقية ذات مقادير مختلفة تصطنع قطعًا لتنقل برًّا وتركب في النهر ليعبر جنودهُ فيها الى بابل وكان يدبر هذه السفن قوم من الفينيقيين والسوريين وغيرهم من الذين يشتغلون بالارجوان وامر الاسكندر كل اهل سوريا وفلسطين ان يتقدموا اليه فمن

كان من الاحرار حاذقاً لبيباً امر باستخدامهِ او كان عبداً اشتراهُ ليستعبدهُ وكان من عزمهِ المسير لفتح بلاد العرب رغبةً في حاصلاتها الكثيرة غير ان القضاء وافاهُ وهو في ريعان صباهُ سنة ٣٢٣ ق م

الفصل الخامس

خلفاء الاسكندر

ولما حضرت الاسكندر الوفاة وكانت امرأته روكسانا حبلى وليس له ولد نزع خاتمهُ من اصبعهِ واعطاهُ الى برديكاس احد امرائهِ فسالهُ احد الحاضرين عمن يأمر ان يكون خليفة له فاجاب الاكثر استحقاقاً فلما مات اجتمع القادة واتفقوا على تعيين برديكاس وكيلاً ريثما تلد روكسانا غير ان العسكر لم يقبل ذلك بل نادوا بقيام اريدي اخي الاسكندر ملكاً عليهم وكان اريدي شريراً ضعيفاً واهن القوى فتملك بالاسم فقط اما برديكاس فقسم ممالك سيدهِ الى اربع وثلاثين ايالة اعطى كلاً من القادة واحدة منها غير انهُ كان مترأساً على سائرها . ولما ولدت روكسانا ذكراً تسمى باسم ابيهِ فاخذهُ برديكاس وبداء يعلمهُ ويهذبهُ على ان ارفاقهُ حسدوهُ على ذلك فاعملوا على هلاكهِ وكان انتيباتر حاكم مكدونيا يكره برديكاس فلما وطد حال ولايتهِ وقهر الاثينيين الذين جاهروا بالعصيان اتى ليحارب برديكاس وكراتير حليفهُ فوقعت بينهما حروب عظيمة مات كراتير باحداها وانتصر انتيباتر نصراً تاماً اما جنود برديكاس فقامت عليهِ وقتلتهُ في مصر حيث سار لمحاربة بطليموس وذلك سنة ٣٢٠ ق م وتولى انتيباتر الوكالة فالزم اوليمبياس ام الاسكندر ان تهرب بكنتها والملك الصغير الى ابيروس لانهُ كان عدواً لها من زمن فيليبس زوجها ولما مات انتيباتر خلفهُ بوليسبرشون صديقهُ غير ان كاسندر بن انتيباتر تكدر من ذلك وحارب بوليسبرشون اما انتيغونوس فكان من قواد الاسكندر المشهورين بالشجاعة والاقدام فاخذ بتوسيع فتوحاتهِ في اسيا بينما

كان رفقاؤهُ يقاتلون بعضهم بعضاً وقتل اومين وهو من المتحزبين للحزب الملكي باماتتهِ جوعاً فخاف رفقاؤهُ من قوتهِ واجتمعوا لمحاربتهِ فكسرهم جميعاً سنة ٣٠٧ ق م ثم سبق الجميع فتلقب ملكاً على البلاد التي اخذها ثم اشتبك القتال بينهم سنة ٣٠١ ق م في ايسبوس من فريجيا فدارت الدائرة عليهِ فقتل وفر ديمتريوس ابنهُ وبعد حين اجتمع القادة فاتفقوا على تقسيم المملكة فقسمت الى اربعة ممالك كبرى عدا بعض ولايات صغيرة

الاولى مصر اخذها بطليموس سوتير مع بر العرب وفلسطين التي هي جزء من سوريا

الثانية مكدونية وبلاد اليونان اخذها كاسندر

الثالثة ثراكيا وبيثينيا وبعض اجزاء اسيا الصغرى اخذها ليسيماخوس

الرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر لاندوس في الهند اخذها سولوقس وسميت مملكة سوريا وكانت اعظم كل تلك الممالك

ان سلوقوس بن ديمتريوس نيكانورس كان من كبار القادة في جيش اسكندر الكبير وكان شجاعاً صائب الراي حتى ان الاسكندر احبهُ واعتمدهُ في المهمات وقربهُ اليهِ ولما توفي بائع سولوقس الملك لاريدي اخي الاسكندر فسماهُ برديكاس نائب المملكة واليًا على بابل واستمر في ولايتهِ حتى اغار انتيغونس عليهِ وطلب منهُ ان يقدم لهُ دفاتر الجباية كأنهُ خاضع لهُ فابى سلوقوس ذلك واذ لم يكن قادرًا على الدفاع فرَّ الى مصر ملتجئاً الى بطليموس فانجدهُ هذا على العدو وسار معهُ فوقعت بين جنود المتحالفين معركة شديدة امام غزة سنة ٣١٢ ق م اجلت عن انتصار سلوقوس ومحالفهِ فعاد الى بلاد بابل واستولى عليها وضم اليها ولايتي اشور ومادي وتبوأ منصة احكامها ثم اخضع بلاد فارس وكل اسيا العليا وسار منها الى الهند لاستخلاص البلاد التي كان قد استولى عليها الاسكندر ثم مرت من طاعة المكدونيين لما مات فاتحها والتقاهُ ساندروكوتس ملكها بجيش عرمرم وعدد من الفيلة غير انهُ كان

خائفًا من بطشهِ فعقد معهُ عهدًا واعطاهُ خمسمائة من الفيلة ولما عاد منصورًا جمع جيشًا جرّارًا وسار لقتال انتيغونس فانتصر عليهِ وقتلهُ كما تقدم واضاف مملكتهُ الى بلادهِ وكان من جملة ولايتها سوريا وفريجيا وارمينيه وما بين النهرين وهكذا نشيدت دولة جديدة في سوريا سنة ٣١٢ ق م وفيها ابتداء التاريخ السلوقي وكان سلوقوس متزوجًا بابنة فارسية مسماة بامى وهي احدى بنات اردوان ولما تولى الملك تزوج ايضًا بابنة ديمتريوس بوليكريت احد ملوك اسيا الصغرى قيل ان اسمها استراتونيكي وانهُ لم يتزوجها الا ارضاء لخاطر ابيها وكانت جميلة المنظر جدًّا فاحبها انطيوخس ابنهُ وعلق بها شديدًا حتى مرض ولزم الفراش وكان ابوهُ يحبهُ جدًّا فاتاهُ بكثيرين من الاطباء على انهم لم يعرفوا علتهُ وكان عندهُ طبيب حاذق يقال لهُ اراسيستراتوس فلما رأى الوليد طريحًا على الفراش عرف انهُ عاشق وبمراقبتهِ عرف ان عشيقتهُ انما هي استراتونيكي امرأة ابيهِ سلوقوس وبعد مباحثة طويلة معهُ كشف انطيوخس ضميرهُ لطبيبهِ وهو على غاية من الكدر فقام الطبيب للحال ودخل على سلوقوس وقال لهُ اعلم ايها الملك ان ولدك على شفا خطر هارٍ فسالهُ الملك عن المرض اجابهُ العشق قال وبمن ولع قال الطبيب هو عاشق امرأتي فاخذ الملك يستعطفهُ ليعطيهِ امرأتهُ قائلاً لهُ ايحل لك ان تهلك هذا الوريث الوحيد لسلطنتي المتسعة وتطرح مملكتي بيد الاجانب فقال الطبيب كيف اعطيهِ امرأتي قس المسئلة على جلالتك فهل تعطيهِ امرأتك ستراتونيكي فاجاب الملك ليس فقط استراتونيكي بل والتاج ايضًا عندها اخبرهُ بما كان فللحال عمد الملك الى امرأتهِ المذكورة واخذ يستعطفها حتى اقبلت فزوّجها من ابنهِ فارتدت نفسهُ اليهِ ونال الشفاء التام فاعطاهُ ابوهُ تاج اسيا العليا . وقد روى بعض المورخين ان انطيوخس لم يعرف امراة ابيهِ الا بعد موتهِ وانكر بعضهم ذلك محتجين بان الفرس واليونان كانوا يتزوجون باشد نسيباتهم قرابة حتى انهم كانوا يتزوجون شقائقهم ايضًا

وكان انتيباتر اثناء نيابتهِ الملك قد بعث جنوداً الى سوريا يخفرونها اما بطليموس صاحب مصر فحالما تسلط على الولاية التي خصت بهِ سار بجنودهِ للاستيلاء على سوريا وفلسطين فلم يجد ممانعة لان الجنود لم تكن كفوءًا اصدهِ فاستولى على كل القطر على ان اورشليم دافعت عن نفسها قليلاً وكانت هذه الحوادث قبل زمان تسلط ساوقوس على سوريا فلما استولى بطليموس على البلاد اقام فيها خفراء حتى سنة ٣١٥ ق م حينما جاء انتيغونس من انتصارهِ في بابل فاسترجع المدن ولم تمانعهُ الا صور ولم يكن قد مضى عليها الا ثمان عشرة سنة من حصار الاسكندر ومع انها كانت قد خسرت في محاربتهِ معظم قوتها لم ياتها انتيغونس الا وقد عاودها نشاطها ورونقها وذلك من ازدياد تجارتها اما المدينة فكانت قد التصقت بالجزيرة وصارت وإياها واحدةً لانهُ أُخذ من البحر لانهما قد انضمتا الى بعضهما بواسطة سد الاسكندر

اما انتيغوس فاقام على حصار صور برًّا وجمع نحوًا من ثمانية الاف من قطاعي الاخشاب والنشارين وامرهم بقطع الارز وخشب الجفر من لبنان ففعلوا وجيء بالف ثور فربطوا ذلك الخشب باعناقها حيث جروهُ الى طرابلس وجبيل وصيدا ليبني بها سفنًا لهُ ولما تم بناء هذهِ السفن في فينيقية وبناء غيرها في كيليكيا ورودس اتى بكل هذه العمارة الى صور فحصرها وبعد خمسة عشر شهرًا اسلمت لهُ ولما سار ديمتريوس ابنهُ بجيوشهِ الى غزة انكسر كسرة تامة امام جيوش بطليموس وذلك سنة ٣١٢ ق م غير انهُ ما لبث ان سلم المدينة الى انتيغونس وعاد راجعًا الى مصر بعد ان دك حصون عكا وكانت مفتاح سوريا وهدم حصون يافا والسامرة وهما سور يهوذا واحط على غزة باب مصر فخربها ثم ان انتيغونس قاتل عمارة بطليموس قبالة سلاميس في قبرص وكسرها واستولى على الجزيرة وفي سنة ٣٠٧ ق م حاول الغارة على مصر غير انهُ لم يفز بالنجاح وبرجوعهِ استولى بطليموس على ثغور فينيقية مدة يسيرة حيث غنمت

لهُ كلها خلا صيدا فانها لم تسلم بل ثابرت على ولاء انتيغونس وبينما كان بطليموس يضايقها شاع خبرٌ ما لهُ فوز انتيغونس فوزًا مبينًا فخاف بطليموس وتهادن مع صيدا وعاد عنها راجعًا الى مصر ولما انتشبت نيران معركة ابسوس في فريجيه سنة ٣٠١ ق م مات انتيغونس وفر ديمتريوس ابنهُ تاركًا تاج سوريا لسلوقس الفائز كما مرَّ وفي اثناء الحرب بينهم استولى بطليموس على قبرص وتولى السيادة على فينيقية وما زال يسود فيها كل حياته

اما سلوقوس فاخذ كل سوريا خلا صيداء وصور فانهما لبثتا زمنًا غير خاضعتين لهُ ولما استبد سلوقس رأى من الضرورة ان يخضع فينيقية ويستخلصها من بطالسة مصر على انهُ لم ينل اربهُ حيث قتلهُ واحد من خواصهِ فخلفهُ في الملك ابنهُ انطوخس سوتير الاول وكان مالكًا في ما وراء الفرات فلما راق لهُ الزمان تجهز بجيش كثيف للاخذ بثار ابيهِ فانكسر وتشتت شملهُ وعاد الى بلادهِ فعلم بطليموش بذلك فبعث يقول لهُ ان المعاهدة المعقودة بين والدي وابيك تبيح الارض الواقعة بين مصر و دمشق الشام للدولة البطلوميسوية فاذا لم تسلمني الارض تحملني على اشهار الحرب فصعب الامر على انطيوخس ورفض تسليم شيء من ارضهِ فسار فيلادلفوس بجيوشهِ حتى ابواب دمشق التي كانت لانطيوخس وكان اليهود الذين يسكنونها قد كرهوا حكومة انطيوخس فخافوا وسلموا الشام للعدو الذي كان يحاصرها وكان في تلك الاثناء ان عدوَّه فيثراكيا قد تو في منكسرًا امام جيوش غالة فتجهز ضد بلاده وسار اليها بجيش وعمارة فانكسرت جموع انطيوخس وعادت ناكصةً على الاعقاب ولما دنا من بلاده وعرف بموت حبيبتهِ استراتو نيكي زاد كدره وارتباكهُ وحيث لم يكن موفقًا في الحرب جنح للصلح فعاهد الملوك الذين كان يحاربهم وحدث ان في ذلك العصر جاء الغاليون الى البلاد يفسدون فيها فضجر الناس منهم ونزع الملك انطيوخس الى محاربتهم فجيش جيشًا جرارًا مع رديف من الفيلة فلما بلغوا المصاف تركت الفيلة على المركبات فاجفلت

خيولها فانكسر العدو وانتصر انطيوخس نصرة تامة غير انهُ لم يسر بها بل قال لثيوذوكيوس رئيس عسكرهِ والجند الذين انوهُ وعلامة النصر في ايديهم انني لا انسى طول عمري العار الذي يلحق بنا لخلاصنا بواسطة ستة عشر فيلاً

وبعد ان فاز انطيوخس بهذا النصر وطرد البرابرة الغاليين من البلاد لقبهُ جماعتهُ بلقب سوتر ومعناهُ مُخلص وذكر دولة صبحي باشا في تكملة العبر ما لخصهُ ان دولتهُ قد اطلع على مسكوكات قديمة منقوش عليها انطيوخس ابولندس سوتر وتعريبها انطيوخس المخلص مثل ابولون ولا يخفى ان ابولون هو من معبودات تلك الامة الوثنية

لا جرم ان الدولة السلوقية كانت على الدوام تطمح بنظرها للاستيلاء على بلاد فينيقية سيما بعد امتداد سطوتها وعظمة دولتها ببناء مدينة انطاكية المنيعة على ضفة العاصي ومدينة سلوقيه على الفرات واخرى باسمها على المتوسط وكانت الدولة البطلوميسية مستولية على الساحل وفينيقية مع دمشق وكان ملوك سوريا يحكمون بلاد فارس ايضاً تلك سنة الدهر في ابنائهِ يرفعهم يوماً ويحطهم اخر وراى انطيوخس سوتر ان استيلاء بطليموس فيلادلفوس على الشام ذلة في حقهِ فاستعان بصهرهِ صاحب سبارتا فانجدهُ بجند فجاء بهم وبجندهِ وحاصر دمشق فاستولى عليها وطرد جيوش المصريين منها . وفي تلك الاثناء ثار عليهِ اومنس والي برغما وخلع نير طاعتهِ فسار اليهِ بجيش جرار وحاربهُ فدارت الدائرة على انطيوخس حيث قتل وانكسر جيشهُ سنة ٢٦١ ق م في افسس (وقيل سنة ٢٦٢ ق م) والاول هو الارجح اما فيسكونتي المورخ فيقول ان قاتل انطيوخس سوتر انما هو سنتارتوس الغالي وقد نهب جوادهُ بعد قتلهِ ولما اراد ركوبهُ كبى بهِ فمات القاتل ايضاً لكن الرواية الاولى اصح وارجح . ثم خلفهُ ابنهُ انطيوخس ثيوس سنة ٢٦١ ق م وكان ملكاً ردياً سيء الخلق يدمن الخمر ولا ينفك عنهُ اناء الليل واطراف النهار مهملاً مصالح الملك حيث القى زمام الحكومة الى شقيقين يقال لهما ارستوس وثميزون واعطى مناصب الدولة لكثيرين

من الشبان غير المتدربين فاخل بنظامها وكادت تسقط تحت سوء التدبير ثم حدثت ثورة في بيثينيا وهي ما يعرف اليوم بلواء خداوندكار منشاؤها الخلاف على تبواء الاريكة الملكية وكان ملكها المتوفي قد اقام بطليموس فيلادلفوس صاحب مصر وصيًا يفض مشاكل خليفته فحفت له المداخلة باحوال اسيا فلم يتقاعد انطيوخس عن مناظرته فيها ولذلك جيش جيشًا وعمارة بحرية وسار الى تلك الاطراف فحارب بيزاندون وضايقها ومع ان الارتباك والشقاق كان محيقًا بجنود سوريا كادت المدينة ان تسلم لو لم تنجدها اربعون سفينة من ذات الطبقات الثلث فانسحبت جنود سوريا عن الحصار وسارت عساكر ثراكيا لمقابلة العدو لان مكدونيا وثراكيا كانتا قد انشقتا عن حكومة سوريا وبعد حروب وحصارات طويلة عاد انطيوخس راجعًا عنها عازمًا على استخلاص فلسطين من ايدي بطليموس فيلادلفوس صاحب مصر اما التاريخ فلم يفدنا شيئًا عن تلك المحاربة ونتيجتها غير ان اقتران انطيوخس بابنة فيلادلفيوس واشراطه على نفسه قيام اولاده منها اولياء لعهد ملكه وطرد سلوقس بن لاوذيكس زوجته القديمة وانطيوخس ابنه الاخر ونفيهم جميعًا دليل استنتجه بعض المؤرخين على انكسار انطيوخس والخذالة في هذه الحرب

ثم ان تيماركوس والي مدينة ملتوس ملك دولة سوريا فخلع نير طاعته لانطيوخس ثيوس وبداء يعذب الاهلين وينزل بهم اضرارًا كثيرة فنهض انطيوخس اليه وحاربه فاعانه الاهلون النافرون من تيماركوس فانكسر العاصي واسترجع انطيوخس المدينة وافرج عن اهلها الذين احتسبوا خلاصهم من يد الظالم نعمة الهية ولذلك لقبوا انطيوخس بلقب ثيوس اي الاله المخلص

واتى بلاد فارس قوم من الفرتيين او البارفيين في اواخر خلافة آل كيان فقام احدهم وهو ارشك وثار على الملك واستولى على المملكة واستقل بها عن دولة سوريا التي كانت سائدة عليها منذ فتح الاسكندر فلما بلغ انطيوخس ثيوس ان الفرس خرجوا عن طاعته عزم على الغارة عليهم ليعود بهم الى

الانقياد على انهُ حدث ما اخرهُ عن اتمام مرامهُ ذلك انهُ كان قد استدعى اليهِ امرأتهُ لاوذيكس مع ولديها وترك امرأتهُ المصرية مع ولدها الطفل وبما ان لاوذيكس كانت قد اضمرت لهُ الشر على اهانتهِ اياها المرة الاولى سقتهُ السم في سارديس او في القرية التي تجاورها وكان ذلك سنة ٢٤٥ ق م قيل ان لاوذيكس هي شقيقتهُ ولا غرابة في ذلك لان الوثنيين كانوا يتزوجون شقائقهم كما ذكرنا وبعد ان تمكنت لاوذيكس من قتل زوجها بذلك السم القاتل بايعت ابنها سلوقوس كالنيكس بحيلة ثم سارت فقتلت كل المصريين الذين اتوا من مصر مع ورنكس ضرتها ومن ثم انت انطاكية فقتلت ابن ورنكس على ان تلك المرأة الجسورة اريد بها ورنكس لم تلبث هنيهة ان تبعت قاتل ابنها الذي ارسلتهُ لاوذيكس وضربتهُ برمح فاخطاءهُ ثم اخذت حجرًا وضربتهُ بهِ وهي سكرى من قتل ولدها فسقط على الارض ميتًا فمرت بعربتها فوق جسمهِ ثم سارت امام العسكر فلم يجسر احد ان يدنو منها بشرٍّ بل احترموا شجاعتها وقوة جنانها فتخصص لخفارتها وخدمتها بعض من جنود غالة غير انهُ بعد زمان قصير اشار عليها طبيبها ان تذهب الى قرية دفنة عند ضفة العاصي حيث معبد الشمس ففعلت وبلغ ذهابها مسمع لاوذيكس ضرتها فبعثت اليها وقتلتها وكان لورنكس حذب في انطاكية فلما بلغهم ما كان من قتلها تكدروا لكنهم كظموا غيظهم وارسلوا يخبرون بطليموس ايوارجيسنيس ملك مصر وهو اخوها فاحتشد عمارة بحرية كبيرة مع بعض فرق متجهزة من العساكر البرية وسار بهم سريعًا الى سوريا فاتى الثغور واخذ سلوقيا اما صور وعكا فسلمتا اليهِ بخيانة قائدها شيودتس واذ لم يكن للاهلين يومئذٍ تعلق بتلك الحوادث لانهم لم يعتبروا الانشقاق الرؤساء موجبًا لشغبهم لم يعارضوا بطليموس بدخولهِ الى بلدانهم فاخذوا يسلمون بلدة بعد اخرى غير ان بعض المؤرخين يقول انهُ حدثت معمعة بحرية بين سفن السوريين والمصريين وان نيقولاوس امير سفن المصريين اتى ملتجئًا الى صيدا وربما كانت هذه الرواية صحيحة لان سفن الفينيقيين كانت لا تدع فرصة

كهذه تمضي بدون حرب شديدة وسار بطليموس متوغلاً في الداخلية غير معارض حتى بلغ نهري الفرات والدجلة اما لاوذيكس فوقعت بيد بطليموس فقتلها وفرّ ابنها سلوقس كالينيكوس المالك في سوريا هاربًا الى داخلية الانضول المعروفة باسيا الصغرى وما زال هنالك حتى سنحت له الفرصة برجوع بطليموس الى مصر فكتب الى رومية متذكرًا بالود القديم مع الرومانيين وطالبًا النجدة والقاء انظار الحكومة الرومانية عليهِ فاجابتهُ مصادقة على المودة ونظرًا للقرابة مع صاحب كبدوكية امدته ازمير ورودس وغيرها ببعض السفن فسار بها لخلاص ملكهِ الموروث على ان الحظ لم يخدمهُ في هذه السفرة حيث هبت رياح عاصفة على مراكبهِ فتكسرت وبعد عناء طويل تخلص الى البر مع نفر قليل من السفن وكان بطليموس قد بعث بانطيوخس بن انطيوخس ثيوس حاكمًا على كيليكية واقام في سوريا واليًا يقال لهُ وكستانبوس فلما انكسرت سفن كيلينيكوس اشفقت عليهِ اهل سوريا والانضول وامدوهُ بالمال والرجال على ان ابا لهُ كليسيريا اي البقاع لم تنجدهُ لان الوالي كان مقيمًا فيها فسار بما جمع من الجند وحارب الوالي فدارت الدائرة عليهِ وكاد يهلك لو لم ينج بنفسهِ بسفينة في مياه العاصي وفكر عندها بلزوم عقد اتحاد مع اخيهِ انطيوخس الذي اقامهُ بطليموس واليًا في كيلكيا فاجتمعا ووعد اخاهُ انهُ اذا ساعدهُ بترجيع ملكهِ الموروث يعطيهِ حكومة الانضول وكان الانضوليون يحبون حكومة السلوقيين فرضوا بما اقترحهُ كالينيكوس فاتفق الاخان وعرف بطليموس باتحادهما فخاف منهما وطلب الصلح والمسالمة فعقدت العهود وعمل بها نحوًا من عشر سنوات. وكان انطيوخس هراكس صاحب الانضول رجلاً شجاعًا مع انهُ حديث السن فحدثتهُ نفسهُ بخلع اخيهِ عن الملك السلوقي فاحتشد كل من الفريقين عسكرًا وتقاتلا في كيليكيا فدارت الدائرة على هراكس فولى جيشهُ مدبرًا غير انهُ بعد زمن قصير تجددت المحاربة بينهما واشتبك القتال في انقرا فاستظهر هراكس على كيلينيكوس وانهزم هذا بعد

ان قتل من جنودهِ عشرون الف فسرّ هراكس بذلك سرورًا عظيمًا الا انهُ علم بمقتل اخيهِ فتبدل فرح نصرهِ بالكدر وظلّ آسفًا حتى تأكد كذب الرواية وعلم ان اخاهُ قد فرّ الى سوريا وكان لكالينيكوس معشوقة يقال لها ميستا وهي في غاية من الحسن والجمال وكانت قد رافقتهُ في تلك الحرب المشومة فاخذها المنتصر اسيرة وبيعت امة في رودس فلما رأت ما هي عليهِ من الذلة والقهر احكت خبرها فعادت الى عشيقها كالينيكوس ولم يفرح محالفو هراكس بانتصارهِ لانهُ كان خائنًا شريرًا يخشون منهُ المضرة فيهم اذا استفحل امرهُ على ان احتسابهم كان في موضعهِ لانهُ لما اشتد ساعدهُ وعرف من صاحب برغما الضعف والعجز عن مناواتهِ اعدّ جيشًا لقتالهِ وعزم يومئذٍ الغاليون الذين في خدمتهِ على الثورة ضدهُ نفرة من مظالمهِ فاصبح محاطًا بالمصائب والاخطار ولذلك رأى من الصواب مداواة الجرح الاعظم بمصالحة اخيهِ كالينيكوس فعقدا شروط الصلح سنة ٢٢٩ ق م ثم مال الى عسكرهِ وبذل فيهم مالاً كثيرًا فاصلح شانهم واخمد فتنتهم ولما رأى كالينيكوس ان اخاهُ عاهدهُ على الصلح امن جانبهُ فعزم ان يسير بشرزمة من جندهِ لاخضاع الاشكانيين الذين كانوا قد عصوهُ في المملكة الفارسية كما تقدم وكان المالك فيهم يومئذٍ تيرداد الاول وهو الارشك الثاني من الخلافة الثالثة الفارسية فاتفق تيرداد مع ثيوذوتيوس والي بكتريان حتى اذا جاءهما كالينيكوس حاربناهُ فانتصرا عليهِ ذلك سنة ٢٢٨ ق م

وكان لكالينيكوس شقيقة اسمها استراتونيكي متزوجة برجل يقال لهُ ذيمتريوس فلما رأت ان كالينيكوس مشغل في الحرب التي اقامها ضد الاشكانيين وانهُ قد رجع مقهورًا سارت الى اهل انطاكية وبدأت تحرضهم على القيام ضدهُ فلما بلغهُ ذلك رأى من الضرورة اخماد الثورة الداخلية قبل الخارجية فعاد راجعًا ولما دنا من انطاكية لم تجسر اختهُ على البقاء فيها ففرت هاربة الى جهة سلوقية فتعقبتها العساكر والقت عليها القبض فقتلتها وتنصب

هذه الفتنة لمداخلة هراكس انفاذاً لسياستهِ بالاستيلاء على سوريا غير انهُ لم يكن وقتئذٍ قد ارتاح في بلادهِ لان احوال الانضول كانت بارتباك شديد واضطراب تام على ان هراكس كان يرغب في الحرب ولا يكرهُ مداومتها لانهُ بعد ان فاز بحربهِ ضد اتالوس الاول خليفة اومنس حاكم برغما اراد الغزو فسار الى فركيا وكان السلوقيون قد وهبوها كصادق الى زوجة مهرداد والي بنتس فلما جاءها هراكس عاق ينهبها فتكدر كالينيكوس لانهُ محالف لمهرداد ووقع النزاع فتجددت الحرب بينهما وتزوج هراكس بابنة زيلاس ملك بيثينيا ليكون لهُ عضداً ثم ابتداء الحرب فدارت الدائرة على هراكس وفر وتعقبتهُ جنود كالينيكوس وما زالت في اثرهِ حتى التجاء الى جبال ارمينيا حيث كان قد اتفق مع ارساميس ملك الارمن فلحقهُ اكيوس واندرماكوش وكانا من انسباء كالينيكوس فادركاهُ مراراً وحارباهُ وكسراهُ واختفى في احدى مواقعهم بين القتلى حتى جن الليل فقام وصعد الى احدى التلال المجاورة ساحة الحرب ولمَّ شعث جنودهِ المتفرقة في المحال القريبة وتحصن في ذلك التل ثم بعث رجالاً الى اندروماكوس يدعي بقتلهِ ويطلب جثتهُ ليدفنها كما يليق بالملوك فاجاب اندروماكوس انهُ لم يجدهُ بين القتلى حال كونهِ قد فتش عليهِ كثيراً وبعد ذلك امر اندروماكوس اربعة الاف من الجند ان تسير الى عساكر هراكس المشتتة في الجبال بلا رئيس ويلزموها بتسليم السلاح للمنتصر وصيرورتهم عبيداً ولما راى هراكس التجريدة الاتية عليهِ امر جندهُ بان يستأصلوهم فقتلوا عن اخرهم وقطعوا اربا ومع نوال هراكس هذه النصرة المهمة لم يفز بالمرام لان مهماتهُ وذخائره كانت قليلة بحيث لا يستطيع الاكتفاء بها ففر هارباً ودخل الانضول وحارب هنا لك حروباً كثيرة كان اكثرها وبالاً عليهِ ثم التقى بجدهِ ابي امهِ واسمهُ اكيوش وكان متحداً مع كالينيكوس فحاربهُ وانتصر عليهِ واخذه اسيراً ثم قاتل وايس من النصر فقتل في الطريق حينما كان ذاهباً الى ثراكيا وقيل انهُ فر الى عند بطليموس فقربهُ اليهِ

اليولانهُ تأكد براءتهُ من قتل ورنكس حيث كان صغيرا فاقامهُ حاكمًا على كيليكيا وروي ان بطليموس امر بهِ فسجن في احدى القلع غير انهُ فرَّ منها فالتقاهُ بعض اللصوص وقتلوهُ

ولما مات هراكس امن اخوهُ كالينيكوس غائلتهُ فاخذ بتحسين المملكة ووسع مدينة انطاكية واتاها بخلق كثير من البلدان الاجنبية فازدادت بهاء ولم يكن من سياستهِ النظر الى اسيا الصغرى بل اخضاع الاشكانيين المتقدم ذكرهم فسار اليهم وحارب تيرداد ارشك الثاني فانكسر وربما كان الفائز قد اسرهُ زمانًا ثم عاد فاطلق سبيلهُ على ان كالينيكوس لما راى عجزهُ في الحرب مع الاشكانيين عقد الصلح فاستقل الفرس استقلالاً تامًا . ثم مات كالينيكوس سنة ٢٢٥ قبل الميلاد وخلفهُ ابنهُ الاكبر سلوقوس سيراونوس

وكان هذا الملك ضعيف البنية الا انهُ سريع الحركة فلقب بسيرانوس اي الصاعقة وبعد ان جلس على العرش بزمن قصير استولى صاحب مصر على سلوقية وتهدد انطاكية وحدث بعض اضطراب في جوارهِ فجمع جيوشهُ واقام اخاهُ انطيوخس لادارة مما لكهِ التي وراء الفرات ووزيرهُ ارمياس وكيلاً في سوريا ثم سار ففتح جبل طوروس وسار الى الداخلية ولما لم يكن عندهُ ما ينفق على مرتبات العسكر ضجروا منهُ وقبل ان يداوي الحال باحسن منها ثار عليهِ رجلان من ذويهِ واعطياهُ السم واتيا الى اخيوس بن اندرماكوس ليلبساهُ التاج فابى وقتل الخائنين وعاد الى سوريا واجلس انطيوخس بن سلوقوس سيراونوس على سرير الملك وذلك سنة ٢٢٢ ق م فلما تبوء الاريكة اخذ بتدبير المهام الداخلية وبدا يسد خللها فارسل اخاهُ مولون لبلاد مادي واخاهُ الكساندرس الى فارس على انا لنتعجب من هذه الرواية غاية العجب لان البلاد الفارسية كانت قد استقلت تحت حكومة الاشكانيين اما مادي فقد استولى عليها تيرداد ملك فارس بعد استقلالهِ وضمت الى حكومة الاشكانيين ولكن بما ان زمان خلافة اردوان الاول ارشك

الثالث لم تزل مجهولة فيحتمل ان السوريين عادوا فاستولوا على البلاد على ان حادثاً عظيماً مثل هذا لا يهملهُ المؤرخون وارسل انطيوخس ابن عمهِ الاصغر اكيوس الى الانضول واقام ابيكنوس رئيس الجيش اميراً على العساكر الخاصة وابقى هرمياس وكيل حكومة اخيهِ الاول في منصبهِ ولما وصل اكيوس الى محل ماموريتهِ استرد البلدان التي كان قد استولى عليها اتالوس والي برغما وكانت من سلطنة سوريا وكان هرمياس رديء السيرة والسريرة خبيثاً مكاراً عنيداً قاسياً ولذلك استخف مولون والكسندرس شقيقا انطيوخس باخيهما فاظهرا العصيان طالبين الاستقلال وبلغ انطيوخس ذلك وهو مهتم بتصليح شؤون المملكة الداخلية وكان يرى من ضرورة سياستهِ استخلاص الممالك السورية التي كانت قد تسلطت عليها الدولة المصرية فلما استقل اخواهُ جمع مجلسهُ للمذاكرة في الامر حاسباً وجوب ملافاتهِ اولاً وبما ان ابيكنوس امير الجيوش اشار بوجوب اخضاع مولون اولاً قام هرمياس الوزير الاول لمناقضتهِ لانهُ كان عدوهُ الالد وقرر وجوب الحملة على مصر وارسال جيش لاخضاع مولون العاصي وقد وافق هرمياس على مقصدهِ كل اعضاء المجلس لانهُ كان من اصحاب النفوذ وقد كتب دولة صبحي باشا في تاليفهِ ما ياتي وكان تصديق رايهِ ناشئاً عن تتبع الاعضاء لارباب النفوذ بحسب العادة الجارية في المجالس الدولية المختلة النظام (تكملة العبر وجه ١٧-١: ٢) انتهى ولما قر القرار بعث انطيوخس بكتيبة من الجند تحت امرة كاستون وثيوذوسيوس الى مادي لقتال ملك مصر في البقاع وفي اثناء مسيرهِ تزوج بابنة مهرداد وبينما كان يقيم افراح الزواج وردت عليهِ الاخبار باتحاد مولون والكسندروس ومحاربتهما جيوشهُ وانتصارهما عليها وفرار الاميرين اللذين عينهما هرمياس لقيادة الحملة فساء انطيوخس ذلك وانقلبت افراح العرس الى اكدار الكسر وندم الملك على اتباعهِ مشورة هرمياس وتركهِ اراء ابيكنوس مصمماً ان يكف عن قتال صاحب مصر ويسير الى اخضاع العصاة غير

ان هرمياس كان لم يزل مصرًّا على عناده قائلاً ان ملكًا جليل الشان كانطيوخس لا يسير لقتال العصاة بل يقابل ملوكًا مثلهُ وقاد الديوان مرة اخرى الى ارائهِ التي لم تكن الا لنفسانيات كنهاصدرهُ الحقود فرجع انطيوخس عن عزمهِ مرة ثانية وبعث بجيش اخر تحت امرة قسناتاس احد اصحاب هرمياس فسار الى مامور يتهِ وانجده بعض الولاة الا انهُ لما قابل بجنوده جيوش مولون العاصي اتاهُ بعض من عسكرهِ مدَّعين انهم انما هربوا من عسكر مولون ليؤكدوا لجيش الحكومة خضوع العصاة لهم وانهم متى اقتربوا منهم يسلمون لهم فانطلى ذلك المحال على قسناتاس واتى الضفة الاخرى من النهر التي كان العدو فيها وفي اليوم الثاني تظاهر العدو بالانكسار والخوف وتفرقوا ولم يعد ينظر منهم احد فسر امير الجيوش السورية بذلك وانعكف على السرور والانشراح قاطعًا النظر عن مركزهِ الخطر وبينما هو كذلك دهمتهُ جنود مولون وقد نجحت حيلتها واخذتهُ وهو غافل لاهٍ فقتلت جماعتهُ وفر بنفسهِ هاربًا

وكان انطيوخس الملك قد سار بجنودهِ لقتال المصريين واستخلاص البلاد السورية التي كانت قد عنت لهم وكان قد احطَّ على بعض المدن يحصرها وبينما هو كذلك ادركتهُ اخبار انكسار قسناتاس في تلك الحملة وان مولون اخاهُ العاصي قد عبر النهر واتى فافتتح مدينة سلوقية (وهي عند الفرات غير التي على المتوسط) فازداد انطيوخس كدرًا وامر فاجتمعت رجال الندوة وارباب المشورة وتباحثوا في امر تلك الخطوب فقام ابيكنوس صاحب الجيوش واخذ يلح بتنفيذ مباديهِ التي طلب تنفيذها اولاً وثانيًا ولم ينجح وبين بكل لطف وادب ان نتائج المقاومة كانت وبالاً على الدولة ومع ان خطابهُ كان مؤسسًا على الحكمة والادب ومشحونًا بالبراهين القاطعة نهض الخبيث هرمياس واخذ يؤيد رأيهُ بالنفاق والعناد موبخًا ذلك الحكيم الذي كان يفضل صوالح المملكة على صوالحهِ الخاصة ومعاكسًا نواياهُ ثم مال

بخطابهِ الى الملك وأظهر لهُ بصريح العبارة ان اضرابهُ عن اخضاع كاسير يا اي البقاع وتخليصها من ايدي المتسلطين عليها خفة وعدم ثبات اما رجال الندوة فبهتوا من كلام هذا الرجل غير انهم كانوا قد صحوا من سكرتهم وعرفوا ان اتباعهم آراءهُ تقودهم الى الخراب ولذلك تباحثوا وحكموا بصوابية اراء ابيكنوس صاحب الجيش وكان انطيوخس قد اظهر ميلهُ لعضد ارائهِ فقر القرار على ذلك اما هرمياس فلما راى اصرار المجلس وقرارهم وافقهم على ارائهم وبدا يسبق الجميع بالاستعداد للسفر وصدر الامر باجتماع الجنود في مدينة اباميا من سوريا ولما تكامل عددها ظهر الفساد والاختلال فيها لان العسكر كانوا يطلبون رواتبهم ولم يكن في الخزينة مال يوزع عليهم فتدارك هرمياس الحال واتى بالمال المطلوب واخمد الهيجان وقتل فرقة عددها ستة الاف جندي لانهم كانوا جرثومة العصيان ولم تكن هذه المرة الاولى التي اظهر فيها هرمياس كرمهُ باستحضار المال لانهُ كان من عادتهِ اسعاف الخزينة عند حاجتها وكان كثير المداهنة يسر الملك بعجبا لسنهِ فاخذ يبين للملك اقتدارهُ على القيام باعباء الملك وحدهُ بدون مساعد واظهر لهُ بوضوح ان ذهاب ابيكنوس بهذه الحملة مضر بالصالح لانهما متضادان لا يمكن اتفاقهما وطلب الى الملك بالحاح توقيف ابيكنوس في مدينة اباميا على ان انطيوخس تكدر من ذلك اولاً ولكن بعد مدة اضطر الى اتباع اراء هرمياس فامر ابيكنوس بالقيام في اباميا وكان في قلعتها رئيس من حزب هرمياس يقال لهُ الكسيس فاتفق مع صاحبهِ على اعدام ابيكنوس المسكين فحرر الكسيس تحريرًا مزورًا من مولون العاصي في مادي الى ابيكنوس بهِ يشكرهُ على همتهِ ومهارتهِ بالقاء الاختلاف والاختلال في المعسكر ثم رشا احد مماليك ابيكنوس فغافلهُ ووضع التحرير في محفظتهِ وبعد امد اتى هرمياس لزيارة ابيكنوس وقال لهُ لقد ورد لك تحرير من مولون فماذا تقول فتكدر ابيكنوس من ذلك جدًا لانهُ كان يعرف انهُ بريء من تلك الخيانة واجابهُ لا علم لي بما تقول فقال

هرمياس ان الملك قد علم بمراسلتكما وهو الذي امرني ان آتي اليك وافحص القضية مفتشًا اوراقك ثم اجرى التفتيش فوجد التحرير في المحفظة فاخذه ومضى الى الملك فصدر امرهُ للحال بقتل ابيكنوس بلا محاكمة وهكذا بات ذلك الحكيم ضحية حسد الخائن وانتقامهِ

ومع ان الشتاء كان قريبًا لم يتأخر انطيوخس عن الرحيل بجيشهِ فسار للحال الى ضواحي الفرات واشتبك الحرب بين الطرفين الى ان دارت الدائرة على عساكر مولون وولوا مدبرين فايس مولون من الفوز والانتصار فقتل نفسهُ وكان لهُ اخ صغير يقال لهُ ثيولاكوس ففر مسرعًا الى بلاد فارس وقص ما كان على اخيهِ الاكسندروس فشق عليهِ ذلك واحتار في امرهِ لانهُ كان لا يطيق التسليم للعدو فقتل اخاهُ وامهُ وامراتهُ واولادهُ واقرباءهُ ثم نفسهُ ايضًا وجاء انطيوخس فسلمت البلاد لهُ وكان يعامل الاهلين باللطف والمرحمة اما سولوقية الفراتية فكانت قد عنت للعاصي وسلمت اليهِ بلاحرب ولذلك لما اتاها هرمياس بعث بكثيرين من اهلها الى المنفى وجعل عليها ضريبة نحو الف تالاندون من الدراهم غير ان انطيوخس لما اتي تلك المدينة امر بتحصيل مائة وخمسين تالاندون فقط وعفى عن كثيرين ثم اخذ بتعيين الولاة والحكام وكان ينتخبهم من الامناء ويفرقهم في البلاد الطائعة وكانت اقامتهُ يومئذ في سلوقية الفراتية ثم حدثتهُ نفسهُ ان يشن الغارة على القبائل الساكنة اواسط آسيا ليخضعها لسلطانهِ القادر الا ان هرمياس فعل فعلة اضرت باجراء مقاصد الملك ذلك انهُ اتخذ علو منصتهِ ذريعة للتوصل الى اريكة الملك فصوّرت لهُ اوهامهُ ان يقتل الملك ويقيم نفسهُ وكيلاً على ابنهِ القاصر حتى يشتد ساعدهُ وترسخ قدمهُ فيطرح عنهُ رداء الوكالة وينادي باسمهِ ملكًا مستقلاً وكانت هذه النوايا موضوعًا لمذاكرات الناس واحاديثهم غير ان الجند وكثيرين من الاعيان والعامة كانوا ينقمون عليهِ لصلفهِ وكبرياء نفسهِ واتهامهُ ابيكنوس ظلمًا وبهتانًا تهمة آلت الى قتلهِ وكانوا يطلبون فرصة لاعدامهِ حتى

دخل طبيب الملك ابولوكانوس على مولاهُ وقص عليهِ ما كان من نوايا هرمياس الشائعة بين القوم واحكى لهُ عن هرج العسكر ورغبتهم في قتاله ولولا خشية الملك فتكدر الملك وتعاهد مع الطبيب على تدبير الامر للاقتصاص من الخائن فاشاع الطبيب ان الملك مريض لا يريد دخول احد عليهِ ثم اشار على الملك بالركوب في الصحراء والاحراش كل يوم وكان هرمياس يخرج معهُ فتبطنوا ذات مرة احد الاحراش وفيهِ اوما الطبيب الى جماعة اودعهم سرهُ فهجموا على هرمياس وقتلوهُ فسر الجند بذلك وعمت الافراح اهل اباميا فثاروا على نسائهِ واولادهِ وقتلوهم اما انطيوخس فلما استراح من اتعابهِ سار الى بلاد الكرج وبينما هو في طريقهِ ثار ابن عمهِ اكيوس الذي كان قد اقامهُ واليًا في الاناضول ورام الاستقلال فزحف على سوريا غير ان الجند السوري دفع ذلك الخناس عن الدخول الى البلاد فسار مسرعًا الى لاوذكية وهي في اقليم فراكيا وكان هنالك رجل منفي من مدينة سلوقية من الذين ثاروا ضد انطيوخس بثورة مولون يقال لهُ سينيريدس فاخذ ذلك المنفي يحرض اكيوس على لبس التاج ففعل واعلن الاستقلال ثم زحف على ايالة ايقونية وكانت من مملكة انطيوخس ايضًا فدافعت الجنود السورية اشد الدفاع وردت اكيوس عن البلاد فسار الى بلاد بيسيديا وسلب القرى والمدائن وكان انطيوخس قد استمر في مسيرهِ فمضى الى الكرج وقاتلهم وعاد عنهم راجعًا ولما استقر في انطاكية جمع ارباب الندوة للمشورة في شأن استخلاص كلسيريا من ايدي المصريين المغتصبين فاشار الطبيب ابولوكانوس بوجوب اخذ مدينة سلوقية التي على المتوسط عند مصب العاصي لانها اكثر لزومًا من غيرها فصادق ارباب الندوة على ذلك الراي وتعين ديوكنتوس اميرا البحر مامورًا لحصرها بحرًا وكان الملك يحاصرها برًا على انهُ شرع يستميل قلوب الاهالي بالاموال والاوعاد بالرتب والمناصب فلم ينجح لان الاعيان كانوا يفضلون حكومة المصريين فتشدد الحصار برًا وبحرًا وخان بعض

الخفر القلعة فسلمت وتبادلت شروط التسليم واهمها ان لا يضر انطيوخس بالمحصورين وكان ثيوذوسيوس من امناء بطليموس وقد اظهر كل نشاط واقدام بحصار القلعة غير انهُ بلغهُ ان بطليموس قد مال عن صحبتهِ فكتب الى انطيوخس والتمس قبول طاعتهِ بشرط ان يسلم المحلات التي تحت ادارتهِ الى حكومة سوريا فاجابهُ انطيوخس بالايجاب وللحال ارسل الى صور يطلب الى الاهلين ان تطيع انطيوخس ثم سار الى عكا وكان يقال لها بطولمايس ولما بلغها اعلن طاعتهُ لسوريا واقام فيها وكان بطليموس قد اقام رجلاً يقال لهُ ثيولاكوس ليساعد ثيوذوسيوس في محافظة بر الشام فلما سلم ذلك المحافظ اكثر المدن لحكومة سوريا تكدر ثيولاكوس من خيانتهِ فاقام جنودًا في المضائق الواقعة بين بطولمايس وساوقية ليقطع طريق انطيوخس واتى بشرذمة لحصر عكا غير ان انطيوخس لما سمع بما كان سار على خفراء المضايق وضربهم وتتبع اثارهم حتى مدينة عكا فقاتل ثيولاكوس ورفع حصارهُ عنها واستولى على اربعين سفينة مصرية كانت بمينائها وبميناء صور وما زال انطيوخس يحارب المصريين ويكسرهم حتى معركة رافية فان بطليموس فيلوباتر الذي جلس على سرير مصر سنة ٢٢١ ق م لما راى انطيوخس ما انفك ظافرًا على دولتهِ يستخلص منها البلدان التي سفك خلفاء مصر دماء عساكرهم على فتحها اخذتهُ الحماسة سنة ٢١٧ ق م وحدثتهُ نفسهُ بالخروج اليهِ فجمع جيوشًا جرارة واتى بها فاصطف الفريقان على بعد من رافية وهي مدينة سورية واقعة بين غزة وبلاد مصر وكان العسكران قريبين من بعضهما فلما كانت احدى الليالي المظلمة وقد غفل الحرس المصري دخل ثيوذوسيوس مصاف المصريين حتى اتى مضرب بطليموس فدخلهُ عازمًا على قتلهِ غير انهُ لحسن حظ ذلك الملك لم يكن في مضربهِ فقتل ثيوذوسيوس طبيبهُ ورجلين اخرين كانا نائمين هنالك اما جيش انطيوخس فكان عددهُ ثمان وستون الفًا من المشاة والفرسان وكان قد جمعهُ من كل

اقا ليم دولتهِ المتسعة وكان في طليعتهِ عديد من الفيلة المتعلمة فن القتال على ان جيش بطليموس كان اكثر عددًا اما افيالهُ فلم تكن قوية ومتدربة لانها كانت قد جلبت من صحراء ليبيا واستعرت الحرب فاطلقت افيال انطيوخس على افيال بطليموس فما لبثت الفيلة المصرية ان ولت مدبرة وداست جيوش المصريين فردتهم عن مراكزهم فلما راى انطيوخس ذلك حمل بالجناح الايمن من عسكرهِ وانطبق على الجناح الايسر من جيش العدو فكسرهُ كسرة هائلة ولما تم لهُ النصر تاثر المكسورين حتى ابعدهم عن المواقف فاطبقت جيوش المصريين من الجناح الايمن على جناح السوريين الايسر فانكسر السوريون كسرا عظيمًا وطاردهم العدو فلما راى انطيوخس ذلك الانكسار المريع بدا ينجد المكسورين غير ان الزمان كان قد مضى قبل ان يتمكن من لم شعث جنودهِ الذين لم يطل بهم الموقف حتى تفرقوا واخذ كثير ون منهم بالفرار اما هو فدخل رافية ومنها مضى الى غزة منشغلاً بجمع جنوده المشتتة عن اعادة القتال وقتل من السوريين يومئذٍ عشرة الاف واسر اربعة الاف وكانت هذه المعمعة سببًا ليأْس انطيوخس من نجاح سياستهِ بضم كل البلاد السورية الى واحدة والاستيلاء على الممالك التي استولى عليها سلفاؤُهُ واصبح بعد كسرتهِ يفتكر باتخاذ التدابير اللازمة لوقاية الممالك الاخرى الخاضعة لهُ متاكدًا ان قوة الدولة البطليموسية اعظم كثيرًا من قوة الدولة السورية ولذلك راى من الصواب ارسال وفدٍ الى بطليموس ليعقد معهُ عقد صلح اومهادنة فعين في هذه المهمة انتيبا تروس رئيس الفرسان وثيوذوسيوس هموليوس رئيس احدى الفرق فسارا الى مصر غير انهما لم يفوزا بالمرغوب من عقد الصلح مع المنتصر فعقدا هدنة لسنة واحدة غير انهُ بعد زمن قصير طرأَ على سياسة بطليموس ما غيَّر عزمهُ عن مداومة القتال فبعث الى انطاكية برجل يقال لهُ سوسيبيوس ليخابر انطيوخس بقبولهِ عقد الصلح بشرط ان يتخلى انطيوخس لهُ عن حقوقهِ القديمة بامتلاك فلسطين وفينيقية وكلسيريا

التي استولى عليها بطليموس بالسيف بعد معركة رافية فقبل انطيوخس ذلك ووقع على معاهدة الصلح فعادت سوز يا الى التجزؤ سدًّا لمطامع جيرانها المصريين اما اليهود فكانوا يانفون من الخضوع لبطليموس ولذلك لما اراد الدخول الى هيكل اورشليم لم تسمح لهُ الاحبار فكدرهُ ذلك جدًّا حتى اذا عاد الى مصر اصدر امرهُ بان يعرّض اليهود للفيلة كي تدوسهم بأرجلها فقتل منهم كثيرون

ولما راى انطيوخس ان لا امل لهُ باسترجاع الولايات التي افتتحها ملك مصر عزم على الحملة على اكيوس ابن عمهِ العاصي في الاناضول وكان اكيوس المذكور من اصحاب بطليموس غير ان المعاهدة بين انطيوخس وذلك المنتصر لم تذكر شيئًا عنهُ ولذلك من المحتمل ان بطليموس لم يصاحبهُ الا ليعادي انطيوخس فلما اتفق معهُ لم يرَ سبيلاً لنجدة عدوهِ جهارًا وسار انطيوخس بجنوده الى الاناضول ولم يكن لاكيوس من القوة ما يمكنهُ من مقاومتهِ ولذلك كان يلتجي الى الحصون والقلاع حتى مل الحرب وراى ان الاماكن الحصينة لا يمر عليها زمن حصار طويل قبل ان تسلم للفاتح فعقد شروط التسليم وسلم نفسهُ لانطيوخس فامر بقتلهِ غير محترم عهودهُ زاعمًا ان اعدام العاصي تامين للبلاد ولما راقت الاحوال سار انطيوخس الى مادي ليستخلصها من الاشكانيين الذين تربصوا عن ملاقاتهِ لانهم كانوا قد عزموا على قتالهِ في الرمال الداخلية فتبطن انطيوخس البلاد منتصرًا حتى همذان عاصمتها وكان يقال لها اكباتان وكان فيها هيكل كل جدرانهِ واركانهِ من الذهب والفضة والمعادن الثمينة فاخذهُ المنتصر وضرب المعادن نقودًا فبلغت اربعة الاف تالندون ذهبًا (التالندون من الذهب خمسة وخمسين الف فرنك تقريبًا غير انهُ ربما كان المقصود هنا اربعة الاف تالندون من الفضة لان قيمتهُ منها ستة الاف فرنك وهذا محتمل نوعًا فيكون مجموع السلب اربعة وعشرون مليون فرنك) وبلغت قيمة سائر السلب نحو

ثلاثة وعشرين مليون فرنك ولما بلغ الرمال التي كان الاشكانيون قد عزموا على قتالهِ فيها عقد معهم الصلح سنة ٢٠٨ ق م وسار الى بعض العصاة واخضعهم وعقد شروط الخضوع وما زال سائراً بفتوحاتهِ ينفق من اموالهِ الغزيرة حتى بلغ الهند فلقبهُ اتباعه بالكبير

وفي سنة ٢٠٤ ق م توفي بطليموس فيلوباتر مناظر انطيوخس الكبير وعهد بالملك لبطليموس ابيفانوس اي الظاهر وكان صغيراً قاصراً ولذلك قام باعباء الملك بعض الوكلاء غير انهم لم يكونوا جديرين بالنيابة لما هم عليهِ من الخباثة ورداءة الطباع فكانوا يضحون المصالح العامة للصوالح الخاصة ولذلك وقعت حكومة مصر بارتباك عظيم فراى انطيوخس وجوب الحملة على تلك البلاد وتقسيمها فارسل يستنجد بفيليب الخامس ملك مكدونيا غير ان بعض الظروف ومداخلة حكومة رومية حوّلت انطيوخس عن عزمهِ بتقسيم مصر وعاد الى سياسة سلفائهِ باسترجاع البلاد التي استولى المصريون عليها فسار نحوها واذا بفلسطين وكلسيريا وبعض فينيقية قد سلمت لهُ فارسل المصريون جيشاً جرَارا تحت قيادة سكوباس فجاء وقاتل بعض معارك صغيرة فاز فيها بالانتصار غير انهُ لم يلبث طويلا حتى انهزم امام السوريين في بانيوم فجاء صيدا ملتجئاً اليها غير انهُ لما انحصر شديدا سلم كل جيشهِ وفتحت صيدا فتم انضمام فينيقية لسوريا وذلك سنة ١٩٧ ق م

ثم ان بطليوس عقد عهداً مع انطيوخس وتزوج بابنتهِ كليوباطرة الاولى فوهبها والدها ولايتي كلسيريا وفلسطين صداق اقترانها فتقرر الود بين الدولتين وذلك سنة ١٩٢ ق م ثم عزم انطيوخس على تأسيس مملكة لسلوقس ابنهِ في الاناضول فارسلت حكومة رومية اليهِ وفدا بان يكف عن عزمهِ فصد الوفد عن رسالتهم وبلغهُ ان بطليموس قد مات فسار الى مصر ليفتحها واذ تحقق كذب الخبر اراد افتتاح قبرص فتكسرت مراكبهُ فدخل سوريا سالمًا وتجددت المخابرة مع رومية وكان انيبال القرطاجني قد انكسر

من امام جنودها فجاء الى انطيوخس ليحارب معهُ ولما ازداد اغبرار السياسة بين رومية وانطيوخس اشتهر الحرب بينهما سنة ١٩٢ ق م وجمع انطيوخس سفنًا من صور وصيدا وارواد وسار الى محاربتهم ومحاربة الرودسيين وبعد حروب كثيرة ومعارك شديدة لم يظفر انطيوخس ولا بواحدة منها فرّ الى سوريا وبعث برجلين من خاصتهِ وهما انتيباتروس وزكسز ليعقدا مع رومية صلحًا فعقدا معاهدةمآل بنودها ما ياتي . اولا ان يتخلى انطيوخس عن المالك التي كانت خاصعة للدولة السورية في اسيا واوروبا ويكون حد مملكتهِ جبل طاوروس في الاناضول . ثانيًا ان يدفع انطيوخس خمسة عشر الف اوبية مقسطة

ثالثًا ان يسلم عشرين نفرًا ينتخبهم الرومان من السوريين ليكونوا رهينة عندهم رابعًا ان يسلم لهم بعض الرجال الذين كانوا قد التجأُوا الى انطيوخس منهم انيبال غير ان هذا البطل كان قد فرّ هاربًا وارسل انطيوخس الى رومية قومًا يتبادلون العهود وكان هذا الصلح اخر العهد باعمال انطيوخس لانهُ سكر يومًا فضرب واحدًا من قادتهِ فقاموا عليهِ كلهم وقتلوهُ وروى اخرون انهُ لما راى ان المال المتعهد بهِ للرومانيين كثير جدًّا سار الى معبد في احدى المالك واراد سلبهُ فقامت عليهِ الاهالي وقتلوه وكانت وفاتهُ سنة ١٨٦ ق م ومدة ملكهِ ٣٦ سنة فتولى عوضهُ ابنهُ سلوقس فيلوباتر ولم تكن مملكتهُ يومئذٍ بذات الانساع الاول غير ان كلسيريا وفينيقية كانتا قد ضمتا اليها وكانت السطوة الرومانية تزداد ازديادًا عظيمًا حتى اصبحت مداخلتها في سياسة الامور السورية من اهم مقاصدها ولم يكن سلوقوس ممن يجسر على مقاومتها ولذلك كان يلبي اوامرها بالاجابة فان حاكمًا في اسيا الصغرى شهر الحرب على حاكم اخر من مجاوريهِ فلما اراد سلوقوس ان ينجد احدهما اظهرت الدولة الرومانية مناقضتها تلك السياسة ولزوم تحايد الدولة السورية فاطاع سلوقوس الامر ولم يذهب الى القتال

واستقرت الحكومة لسلوقوس وصفا لهُ الوقت غير انهُ لم يبدِ من الاعمال ما كان عظيماً فتزوج بلاوذيكس ارملة انطيوخس (هي شقيقتهُ وامراتهُ معًا) وكانت لاوذيكس قد ولدت لانطيوخس ولد اسمهُ ديمتريوش فلما بلغ الرابعة عشر من عمرهِ سار لاستجلاب اخيهِ انطيوخس بن انطيوخس الكبير الذي كان رهنًا عند الرومان والظاهر ان حكومة رومية كانت قد قبلت باطلاقهِ اما عن بدل شخصي او نقدي وفي رواية ان ديمتريوس اخاهُ اخذ رهنًا عوضًا عنهُ وبينما كان انطيوخس راجعًا الى سوريا بلغهُ وهو في اثينا ان ايلوزورس وزير سلوقوس فيلوباتر قام على مولاهُ وقتلهُ واستبد في الاحكام فاسرع انطيوخس الى سوريا وفي طريقهِ ضم اليهِ بعض ولاة الانضول ودخل البلاد فقاتل ايلوزورس وكسرهُ وجلس على سرير الملك سنة ١٧٥ ق م اما قتل سلوقوس فكان سنة ١٧٦ ق م ولذلك ربما تكون حكومة ايلوزورس قد استمرت نحو سنة من الزمان ولما استبد انطيوخس ابيفانوس بالملك سنة ١٧٥ ق م بداء يصرف اوقاتهُ بالبذخ والاسراف مشتغلاً بالملاهي والملاعب عن النظر في امور المملكة وكان ملك مصر اذ ذاك بطليموس فيلوماتر فاراد انطيوخس ان يسبر نوايا الحكومة المصرية ويستكشف حقيقة سياستها بالنظر للبلاد السورية وطلبًا للوقوف على الصحيح بعث برجل يقال لهُ ابولونيوس فسار اليها وبعد التدقيق راى ان نوايا الدولة المصرية سيئة ومن ثم اشتهرت الحرب بينهما والارجح ان السبب الموجب لانتشابها انما هو مسئلة الحدود او بالحري تسلط المصريين على فلسطين وغيرها وكان انطيوخس لم يزل يزداد بذخًا واسرافًا حتى نفذت اموال خزينتهِ مع ما كان قد سلبهُ من المال والانية الفضية والذهبية من بيت المقدس حينما اخذت الجنود السورية باجراء انواع القساوة البربرية في اورشليم من قتل اليهود واسرهم ذلك انهُ كان قد حدث بعض اضطراب داخلي بين اليهود فتداخل الملك ابيفانوس في امورهم مداخلة عظيمة تزيد عما يحق للسائس على المسوس

فتضايق اليهود لانهم متعودون على الحرية اكثر من كل امم تلك العصور غير ان قوتهم لم تكن تساعدهم على تنفيذ ما ربهم فكانوا يستعيضون عن العين بالاثر ولذلك سروا سرورا لامزيد عليهِ لما شاع خبر موت انطيوخس وكان الخبر كذبًا فعلم بسرور اليهود وغاظهُ ذلك جدًا فامر باورشليم فنهبت وقتل من اهلها ثمانين الفًا واقام مثال جوبتير وحتم على الناس عبادتهُ والسجود لهُ دون الله تعالى اما اليهود فلم يحدوا يدا واحدة بدفع هذا الخطب عنهم بل انشقوا وعبد بعضهم الصنم لكن رجلا صالحًا منهم يقال لهُ متثيا بن يوحانان الكاهن لم يكن ليرضي بذل امتهِ فبدا يحرضها على الخروج عن طاعة الظالمين فاجتمع اليهِ كثيرون من اليهود مصممين على استخلاص امتهم من ظلم السوريين فبلغت الدولة السورية عصاوتهم فارسلت فيلكس الوالي عليهم بجنوده فحاربهم ولما قتل متثيا الجندي الذي قدم الخنزير على المذبح تشدد اليهود وضربوا السوريين فانكسروا فازداد عدد اليهود المجتمعين لاستخلاص بلادهم من الظلم اما متثيا فمات في تلك السنة مجبورًا وقام مكانهُ ابنهُ يهوذا الملقب بالمكابي وما استقر في حكمهِ حتى جيش ملك سوريا انطيوخس ابيفانوس عسكرًا ضدهُ فوقع القتال بينهما ودارت الدائرة على السوريين فانهزموا ووقع انطيوخس في حيص بيص لان مركزهُ اصبح خطرًا لاحاطة الاعداء بهِ من كل الجوانب ولما كان سائرًا بجيش الى اسيا لاخضاع احدى القبائل التي تعطيهِ الجباية مات في الطريق وذلك سنة ١٦٤ ق م وكانت مملكتهُ اخذة بالضعف والانحطاط ودولة اليهود المكابية بالتقدم والنجاح لان يهوذا المكابي كان قد فاز بانتصارات عظيمة على قواد السوريين وحطم جيوشهم ولم يقف امامهُ لا ابولونيوس ولا سيرون ولا نيكانور ولا كورجياس اولئك القادة الذين كانت ترسلهم الدولة السورية واحدًا بعد اخر لمحاربة المكابيين اما ليسياس وثيموثاوس وبكيديس الذين ارسلتهم الدولة ايضًا فقد ارتدوا كرفاقهم خاسرين

وجلس انطيوخس او باتور المعروف ببعض التواريخ باسم افطر على سرير الساوقيين سنة ١٦٤ ق م وكان له من العمر نحواً من تسع سنوات فعهد بالنيابة لرجل من الخاصة يقال له فيلبس فاهتم هذا بالاشتغال في امور المملكة على ان قائداً يقال له ليسياس راى ان ياتي ويتقلد النيابة فسار على فيلبس حتى الزمه الهرب الى مصر ومنها الى بلاد فارس ولما قبض ليسياس على الادارة بداء باتخاذ التدابير اللازمة لاخماد ثورة اليهود فانتشبت بينهما حروب كثيرة كان الفوز فيها ليهوذا المكابي فراى ليسياس ضرورة عقد الصلح فعقده سنة ١٦٣ ق م على انه ما لبث ان عاد فيلبس بغتة الى انطاكية عازماً على ارجاع النيابة اليهِ فاحاط ليسياس انطاكية بالعساكر فخاف فيلبس وفر هارباً اما يهوذا فحارب بعض معارك ضد السوريين في عبر الاردن وكان الانتصار على الدوام حليف حسامهِ لان المملكة السورية كانت تنحدر في التاخير وكان الارتباك عظيماً فيها والاحوال باضطراب شديد حيث كانت الانقسامات الداخلية هي الاسباب الآيلة لاضمحلال الدولة وهي اعظم منجد للاعداء يتوسلون به الى الفوز بالمراد اما انطيوخس او باتور فاذ كان حتى ذلك الوقت قاصراً والحكومة بيد نوّابهِ ثار ديمتريوس بن سلوقس فيلو باتر مدعيًا بتاج الملك (هو الذي سار لاستخلاص اخيهِ انطيوخس من رومية ورهن عوضًا عنهُ) وكان هذا الامير قد شرع يحرض الدولة الرومانية على المداخلة بالامور السورية واعانته على تقلد زمام الدولة غير ان الحكومة الرومانية ابت في هذه المرة اجابة ملتمسهِ و بعثت الى سوريا بوفد يطلبون باسم حكومتهم تنفيذ شروط المعاهدة التي عقدها انطيوخس معهم فجاء الوفد الى سوريا وحدد وا عدد الجيوش التي فيها واحرقوا بعضاً من السفن واتلفوا الافيال التي كانت قد جلبت من بلاد الهند فتكدر السوريون من هذا العمل لانه احط بشانهم وجعل الدولة الرومانية كسائدة عليهم فثارت فيهم النخوة وقتلوا رجلاً من الوفد غير ان انطيوخس او باتر تكدر من ذلك جداً اخنشاء من سوء

العاقبة فبعث الى رومية يعتذر عن الاهانة قائلاً ان ذلك لم يجرِ عن طيبة خاطرهِ انما كان حدوثهُ من تعديات الاهالي غير ان المجلس العالي رفض رسالتهُ وشهر الحرب فاتخذ ديمتريوس بن سلوقس فيلو باتر هذه الفرصة وسيلة لتجديد طلبهِ بتتويجهِ على سوريا ولما لم يجب هرب بسفينة الى وطنهِ فاقتبلهُ الاهلون بمزيد السرور واقاموهُ عليهم ملكاً وسلموهُ انطيوخس او باتروليسياس نائبهُ فقتلها وكان حدوث ذلك سنة ١٦٢ ق م ولما احست رومية بهرب ديمتريوس ارسلت اليهِ سفارة من فحول الرجال لمناظرة اعمالهِ فجلس على الاريكة وتلقب بسوتير ثم اخذ يعد تلك السفارة باوعاد عظيمة نوالاً لاعتراف حكومة رومية بتملكهِ فصادقت رومية على جلوسهِ ولذلك بعث اليها بتاج من الذهب وزنهُ عشرة الاف ستاتير (الستاتير درهمان وخمسة قرار يط) اما لقب سوتير اي مخلص فقد اكتسبهُ لاستنقاذهِ بابل من ايدي ظالميها فانها كانت من المملكة السورية غير انهُ اتفق واليها ووكيل ما لها فخلعا طاعة الدولة واخذا بظلم الاهلين واعناتهم فحاربهما ديمتريوس وكسرهما فسر الاهلون بعملهِ ومنحوهُ ذلك اللقب وامر ديمتريوس فأُلقي القبض على قاتل رسول رومية وارسلهُ اليها اما يهوذا المكابي فمع انهُ كان قد امسى والياً مستقلاً في داخليتهِ خاضعاً بالاسم للدولة السورية جيش جيشاً لقتالها قياماً بمقتضيات الحال فقتل نيكانور وخمسة الاف من جيشهِ السوريين لان نيكانور كان قد اتى اورشليم ليقبض عليهِ فلم يتفق لهُ ذلك بل عاد عليهِ بالوبال ومع ان السوريين لم يصادفوا نجاحاً في كل معاركهم مع اليهود كانوا لا يفترون عن ارسال الجنود حتى بعد انكسار نيكانور ارسلت الدولة السورية بكخيدس والسيموس بجيوش الى اليهودية سنة ١٦١ ق م فحاربا يهوذا غير ان حظهُ لم يكن كاملاً فمات في النزال فقام عوضهُ اخوهُ يوناثان فجمع جيوشاً وحارب فقتل السيموس وانتصر في اكثر المعارك ثم عقدت شروط الصلح مع بكخيدس سنة ١٥٨ ق م وكانت الدولة المصرية لم تزل تنظر بعين العداوة للملوك السلوقيين ولذلك

اتحد بطليموس فيلوماتر ملك مصر مع بعض اعداء مملكة سوريا وبدأوا يحركون اهل البلاد ويحثونهم على طرح نير السلوقيين عنهم وما انفكوا حتى اغروا رجلاً ادعى انهُ ابن انطيوخس ابيفانوس فاتى سوريا ليمتلكها وكان اسمهُ اسكندر بالاس اما حكومة رومية فاذ كانت ترغب اندثار الحكومة السلوقية قبلت بقيام اسكندر ملكاً فدخل عكا اولاً وجمع جيشاً واخذ بالاستيلاء على البلاد اما ديمتريوس فكتب الى يوناثان المكابي صاحب اليهودية يطلب منهُ المعونة والمدد وكتب اسكندر بالاس لهُ ايضاً واعداً اياه بالمصافاة وحسن المعاملة اذا اجابهُ الى ما طلب فلبى يوناثان استنجاد اسكندر غير ان ديمتريوس خاطبهُ ثانية فلم يجبهُ واتحد العسكران وقاتلا ديمتريوس فغلباه واصبح قتيلاً فنودي باسكندر بالاس ملكاً في سوريا وكان ذلك سنة ١٥٠ او ١٤٩ ق م

ولم تكن هذه الحركة صادرة الا عن سياسة رومية الفعالة على انها وجدت من ابناء المملكة السورية رجالاً لم ينظروا الى الصوالح العامة بل اعملوا على تضحيتها لصوالحهم الخاصة فسهلوا مصالح رومية مسلمين تاج ملك السلوقيين لرجل لا نعرف حقيقة حالهِ ولا حرج على رومية فانها لم تسع الا لصالحها لكن الملامة اولى باكابر السوريين الذين قبلوا سياستها اما اسكندر بالاس المختلس فلم يكن من ذوي السلوك المستقيم على انهُ لم يكن من سياستهِ وتدبيرهِ ما يسد مسد النقص في ادابهِ ولذلك يضاعف التاريخ اللوم من سهل لهُ السبيل للبس تاج تلك المملكة العظيمة ولكي يستر نقائص اعمالهِ بعظيم الالقاب كتب على مسكوكاتهِ لقب ثيوباتر ومعناها البدر المعبود واخذ يعمل ما يعظم نفسهُ في اعين رعاياه فتزوج كليوبطرة ابنة بطليموس فيلوماتور ملك مصر وكان لهُ وزير عظيم الدها والمكر كثير التدابير يقال لهُ امنيوس ولم يكن اقل شروراً من سيدهِ ولذلك انهمكا بارتكاب المنكرات واضاعة الوقت جزافاً وكانت ازمة الحكومة بيد الوزير والملك ينقاد لرايهِ ولا يعمل

الا بقولهِ فاتفقا على إبادة السلوقيين غير انهما لم يفوزا بالمقصود لان ديمتريوس الثاني ابن ديمتريوس سوتير جاء سوريا مدعيًا بحقوق مملكتهِ المختلسة فاجتمع تحت لوائهِ جمع غفير من الذين لم تسرهم دولة اسكندر بالاس وانجده بطليموس فيلوماتر مع انهُ نسيب اسكندر وحاربوا الاعداء وكسروهم شر كسرة ذلك سنة ١٤٥ ق م ففر اسكندر بالاس هاربًا الى الملك زبدائل ملك العربية فالتقاهُ ولكن قطع راسهُ وكان يوناثان المكابي صاحب اليهودية من حزب اسكندر بالاس ولذلك صار بالطبع عدوًّا لديمتريوس نيكانور فاخذ يستعطفهُ بالهدايا والهبات فرضي عنهُ اما بطليموس فيلوماتر فمات في سوريا اثناء حملتهِ لنجدة ديمتريوس ولما علمت امرأتهُ كليوبطرة بصرعهِ اقامت اونيا اليهودي ابن اونيا الثالث قائدًا لجيش مصر فصفا الوداد بين ديمتريوس ويوناثان وعقدا عهدًا

وسلم ديمتريوس ازمة الملك لوزيرهِ لاستنس وكان قليل الخبرة والتدريب غير عارف باحوال السياسة ومع انهُ كان يرغب في الاصلاح لم يكن اهلًا للقيام بهِ وكان يقدم على اجراء الامور بدون روية ولا نظر في العواقب من ذلك انهُ امر باخراج الموظفين في العسكرية من اهل سوريا مع انهم كانوا قد مارسوا الفنون الحربية ومهروا فيها فخرجوا واجتمعوا جيشًا قويًا لاجل مرامهِ مضادة الدولة السائدة واذلالها

اما الجنود المصريون الذين اعادوا التاج لديمتريوس بعد اهراق دماء اخوانهم فقد اصبحوا ضحية لمقاصد ذلك الوزير لانهُ امر بقتلهم عن اخرهم فبات الحزب المضاد للحكومة قويًا نافذ الكلمة تهيجهُ انواع المظالم والاعمال التي كان يرتكبها ذلك الوزير فثار بعض ذلك الحزب في مدينة انطاكية حتى اذا احس الملك بتفاقم الخطب امر باتباع مشورة وزيرهِ وما لها جمع سلاح الاهلين فما بدأت الحكومة بذلك حتى ظهرت شرارة الثورة وتقلد مائة وعشرون الفًا من الاهلين سلاحهم ليشهروهُ على حكومتهم الجائرة وسار بذلك

الجميع الغفير الى القصر الملوكي حيثما كان الملك

فلما راى ديمتر يوس عظم الخطر المحدق بهِ من جها لهِ وزيرهِ بعث ابستنجد بيوناثان المكابي فجاء يوناثان بجيوشهِ الجرارة واحط على انطاكية ففتحها وانقذ ديمتر يوس من الخطر المحدق بهِ ونهب المدينة واحرقها بالنار وقتل جمهورًا غفيرًا من اهليها الثائرين ومع ان تلك الثورة قد خمدت لم يزد الشعب الا حقدا على الحكومة لكثرة القتلى فباتوا لها في المرصاد يترقبون الفرص للقيام عليها وظلوا كذلك حتى سار تريفون وكان حاكم انطاكية في زمان اسكندر بالاس الى زبدايل ملك العربية يطلب منهُ انطيوخس بن اسكندر المذكور الذي كان رهنًا عندهُ فاخذهُ وذهب بهِ الى العراق حيث نادى بهِ ملكًا على سوريا وكانت الاهلون قد كرهت ديمتر يوس والجنود ترغب في خلعهِ ويوناثان قد فصم عرى مودتهِ فاتحد جميعهم مع انطيوخس ولقبوهُ ثيوس (اي الله والعياذ بالله من كفرهم) وحاربوا ديمتريوس فانكسر وفر هاربًا والتجأ الى قلعة سلوقية ودخل انطيوخس ثيوس مدينة انطاكية ولبس تاج الملك وضرب نقودًا باسم واسيليوس انطيوخس ايفانوس ذيونيسيوس وظلت سلوقية وساحل البحر تحت احكام ديمتر يوس منشطرة عن سائر المملكة اما تريفون فالقى القبض بحيلة على يوناثان وقتلهُ في عكا فقام عوضهُ اخوهُ سمعان المكابي ولم يفعل تريفون ذلك الا طلبًا للاستبداد في النفوذ لان قوة يوناثان كانت عظيمة تستدعي لهُ البسطة ونفوذ الكلمة فلم يرَ منهُ خلاصًا الا بالقتل اغتيالا على انهُ لما فاز بما اراد صوَّرت لهُ الاماني خلع الملك والجلوس على العرش فثار على انطيوخس ثيوس وقتلهُ وتقلد زمام الحكومة ولم يكن ديمتر يوس قادرًا على مقاومتهِ فاتحد مع شمعان المكابي الا اننا لم نعلم بقدومهما على شيء وقد ورد في بعض الروايات التاريخية ان ديمتر يوس توغل في الداخلية لمحاربة الاشكانيين فوقع بايديهم اسيرًا فاحسنوا معاملتهُ وزوجوهُ بابنة ملكهم ذلك ما دعاهُ الى ترك امراتهِ كليوباترة في سلوقية وكانت

تحب الرعايا وتبذل وسعها في معاملتهم با لدعة والملاطفة فتوارد اليها كثيرون من السوريين الفارين من تريفون ولم تمضِ مدة حتي جمعت كليوباترة جيشًا جرارًا لقتال الاعداء واشهرت الحرب على الاشكانيين واليهود المستقلين بعد ان تزوجت بانطيوخس اوركتوس سيدتس اخي ديمتريوس المذكور وذلك سنة ١٢٧ ق م فسار هذا الملك بجنود امرأتهِ لقتال تريفون فحاربهُ وكسرهُ شر كسرة دافعًا غائلتهُ واستبد بالملك ومع ان انطيوخس سيدتس كان قد وهب اليهود حقوقهم الاولى واباح لهم ضرب النقود باسم ملكهم ما لبث ان حاربهم فانكسر اولاً ولكن سمعان المكابي لم يتمتع بفوزهِ طويلاً لان صهره بطليموس خانهُ فمات قتلا بيدهِ وتولى مكانهُ ابنهُ هركانوس وبعد حروب طويلة كان الفوز باكثرها لليهود تقررت شروط الصلح بين الطرفين وسار هركانوس بمعية انطيوخس حينما عزم على محاربة الاشكانيين فاستنجدا باهل بابل وغيرهم وساروا جميعًا وقاتلوا الايرانيين فانتصروا عليهم غير ان البذخ والترف اللذين كان يظهرهما السوريون اعادا ذلك النصر خسارة حيث بات كثيرون من الضباط والجنود ضحية جهلهم وانهماكهم وقتل انطيوخس فنقلت جثتهُ الى سوريا وكان يصحبهُ ابنة بارعة في الجمال فسباها المنتصر فرهاد ملك الاشكانيين وتزوج بها وكان حدوث ذلك سنة ١٢١ ق م وفي السنة التالية طرح اليهود تحت امرة رئيسهم هركانوس نير الطاعة للملوك السوريين واستقلوا في الاحكام وسار هركانوس لافتتاح كثير من مدن سوريا فضمها الى مملكتهِ

اما ديمتريوس نيكانور ملك سوريا سابقًا الذي كان لم يزل حيًا عند الاشكانيين فقد ثار قيامًا بسياسة مصرية قاصدًا الدخول الى سوريا غير انهُ لم يتمكن من مرامهِ كل التمكن لان وفدًا رومانيًا صدهُ عن اتباع مشروعهِ فاضرب عنهُ بعد ان كان قد دخل البلاد واخمد الوفد عصاوة مدينتي انطاكية وابامية وسار لاسترجاع المملكة اليهودية لربقة الطاعة على ان

مداخلة زومية لم تكن ناجحة الا عن استغاثة اليهود بها والتقى ديمتريوس باحد القادة فحاربهُ وانكسر ديمتريوس وفر الى عكا وكانت امراتهُ كليوبطرة فيها على انها كانت حاقدة عليهِ لتزوجهِ ابنة ملك الفرس فرفضت قبول التجائهِ الى حصنها فلم يرَ من السداد بقاءهُ غير محصن فهرب الى الجبال ومات هنالك سنة ١٢٥ ق م قبل ان الصوريين قتلوه وهو هارب

وكان القوم قد حرضوا رجلا يقال لهُ زابنياس ابن احد التجار الاسكندريين على الادعاء بكونهِ ابن اسكندر رسوتر فجاء البلاد ابان رجوع ديمتريوس اليها فلاقيهُ وحاربهُ فانتصر عليهِ وطردهُ حتى فر ومات كما تقدم ولما مات انفقت كليوبطرة مع زبيناس على اقتسام البلاد بينهما فتولى زبيناس شطرا وسلوقوس بن ديمتريوس الشطر الاخر وكان ذلك سنة ١٢٥ ق م فبعد ان تولى زمانا قصيرا خافت والدتهُ ان يقوم لاخذ ثار ابيهِ فقتلتهُ واستقلت بالاحكام لكن الاهلين لم يرضوا عن حكومتها فنفروا منها ودعوا بولدها الثاني من اثينا واسمهُ انطيوخس كريبوس واجلسوه على سرير الملك فلقب بابيفانوس اي الظاهر ولقبهُ الرعاع بالنسر ذي المنقار وما استقر بهِ الجلوس على السرير حتى ثارت الاهلون على زبيناس فقتلوه لانهُ لم يكن يحسن السيرة فيهم واستبد انطيوخس كريبوس بالملك وكان حكيما حاذقًا فعرف خبث والدتهِ كليوبطرة وانها تترصد قتلهُ لانها كانت قد قتلت ابنها ابيانوس وصممت على قتلهِ ليخلو لها الجو وتقيم على العرش ابنها انطيوخس بن انطيوخس سيدتس اخي زوجها الاول ديمتريوس فلم ترَ من حيلة الا وباشرتها على انها لم تنجع مسعى وظلت كذلك حتى ختمت حيوتها بشرب كاس من الشراب المسموم وكانت قد قدمتهُ لانطيوخس كريبوس وهو عائد من صيدهِ فاحس على دهائها واقسم الاَّ يشرب منهُ الا بعدها فشربت ضرورة وكان شربها مورد حتفها حيث ماتت سنة ١٢٠ ق م

وكانت تخاف على ابنها انطيوخس بن انطيوخس سيدتس فارسلتهُ الى ارواد يقيم فيها ملتجئًا من الوقوع في نتائج الارتباك والخلل الطارئين في

البلاد السورية ولم يكن انطيوخس المذكور ممن يهتم في السياسة بل كان يحب الانفراد والاعتزال غير انهُ لما توفت والدتهُ مالت افكارهُ للحوادث الجارية فبدا يتدبر توصلاً للعرش الملكي فتزوج بكليو بطرة امراة بطليموس المطلقة منهُ وهي شقيقة تركنا امرأة انطيوخس كريبوس فجمع جندًا ودخل بهم الى الثغور البحرية والى انطاكية فبايعهُ الاهلون واقاموهُ فيهم ملكًا ثم جمع جيشًا جرارًا وحارب اخاهُ سنة ١١٢ ق م فانكسر وترك امراتهُ في انطاكية ليطمان الاهلون بوجودها وفرَّ هاربًا وفي غيابهِ اتى كريبوس بجمهور من العسكر وحصر القلعة حصرًا شديدًا وحيث كان الاهلون يفضلون حكومة كريبوس سلموا لهُ بدون مدافعة شديدة فلما آيست كليو بطرة من الفوز حربيًا رغبت استمداد العرب الروحاني فدخلت احدى معابد الاصنام فلم تمد الجنود اليها يدًا لان كريبوس امرهم الَّا يفعلوا غير ان امراتهُ شقيقتها تركنا خافت على زوجها من ان يميل الى اختها فحركتهُ على قتلها فقتلت مع انها تمسكت بالمعبد ودعائمهِ وذلك عندهم قدس لا يتدنس بالقتل ولا يؤاخذ من يلتجيء اليهِ حتى يبارحهُ واحتشد الاخان جنودًا وجرّداها للقتال وانتصر انطيوخس انتصارًا تامًا وذلك سنة ١١٢ ق م فاخذ تركنا زوجة كريبوس اسيرة وقتلها لانها لم تشفق على اختها اما انطيوخس ففرَّ هاربًا الى احدى ولايات اسيا الصغرى وتولى اخوهُ المنتصر ولاية سوريا وتلقب بانطيوخس سيزسنوس وكان كريبوس قد جمع جيشًا فجاء سوريا حيث خابر اخاهُ وتوافقا على اقتسام البلاد دون سفك دم وكانت كلسيريا وفينيقية من مملكة سيزسنوس وكان سائر البلاد من مملكة كريبوس اما اليهودية فظلت للمكابيين وهكذا تم تجزء الملكة السورية العظيمة فكان ابتداء انحلالها قيل حدث ذلك سنة ١١١ وقيل سنة ١١٤ ق م

واتخذ سيزسنوس دمشق لهُ عاصمة واقام فيها حتى اشتهر امرهُ وعظم شانهُ فراى اليهودية صاعدة في معارج الفلاح لا يقعدها عن نوالهِ طارىء

فطمحت عينهُ الى تعكير صفائها فعبّى جيشًا كثيفًا وزحف بهِ عليها وملكها يومئذٍ بوحنا هركانوس المكابي محتجًا بان غارتهُ كانت للاخذ بناصر السوريين الذين ظلمهم اليهود في السامرةِ فلما انتشب القتال اجلى عن انكسار سيزسنوس وفرارهِ غير انهُ بعث يلتمس النجدة من بطليموس صاحب مصر فانجده مع ان امهُ كليوبطرة كانت تابى نجدة سيزسنوس وتطلب اعانة اليهود لان بعضًا منهم كانوا من اخصائها المقربين وكانت عدة عسكر المصريين ستة الاف ففرقهم سيزسنوس فرقًا وبدا ينهب القرى والضياع والمزارع غير ان اليهود قابلوهم بحريب ترتعد لها الفرائص فتشتت شملهم واخذوا يهربون راجعين الى مصر واما سيزسنوس ففرّ الى طرابلوس بعد ان اقام اثنين من قادتهِ على عسكر بعثهُ لقتال اليهود فانكسر احدهما وخان الآخر وعاد هركانوس فاستولى على السامرة سنة ١٠٩ ق م وقهر السوريين الذين فيها

وكانت مصر قد بدأت في الانقسام والشقاق مجاراة لسوريا جارتها فاخذت الاحزاب فيها مأْخذًا عظيمًا ذلك ما حمل بطليموس على الفرار منها نجاة من الوبال حيث جاء دمشق مستجيرًا بملكها سيزسنوس فاجاره واقام في حرمهِ زمنًا حتى ملهُ السكون فاراد ان يعيد الشحناء بين الاخوين فالتمس لذلك عذرا ولما لم يرَ موجبًا سياسيًا بعث بامراتهِ وهي محلاة بزينتها وامرها ان تاتي انطاكية لعلها تفتن ملكها كريبوس او تبهر عينهُ بجلاها فيكون ذلك داعيًا لتزوجهِ بها وبالنتيجة ذريعة للحرب فلما جاءت المرأة انطاكية حدث لها ما خمنهُ زوجها فكانت بالنتيجة سببًا لاعادة القتال بين الاخوين سنة ١٠١ ق م ولما احتدم الحرب قتل كريبوس بخيانة هيراكليوس احد ندمائهِ وخلف خمسة بنين وهم سلوقوس وانطيوخس وفيلبوس وديمتريوس وانطيوخس ولما راى سيزسنوس ان اخاهُ قد مات وان انطاكية قد خلت ممن يملكها دخل اليها بغتة واستولى عليها وذلك سنة ٩٨ ق م فتشدد وعزم على الاستيلاء على البلاد باسرها غير ان ابناء اخيهِ قاتلوهُ قتالاً شديدا حتى اخذه احدهم

سلوقوس اسيرًا وقتلهُ بثار ابيهِ وذلك سنة ٩٦ ق م ولما قتل سيزسنوس خلفهُ ابنهُ انطيوخس اوسيبوس فعزم على اخذ ثار ابيهِ وانتشبت لذلك حرب هائلة كان النصر فيها لاسيبوس اما سلوقوس ففر هاربًا الى كيليكية ودعا بالناس للتجند فلم يلبهِ الا القليلون فامر بضرب جزية على الشعب ليكثر مالهُ و يستاجر محاربين اجنبيين ثم اصدر امرًا آخر بضبط املاك احدى المدن فحنق الاهلون من ذلك واحاطوا بقصرهِ الملكي واحرقوهُ فمات وذلك سنة ٩٢ ق م

فنهض انطيوخس وفيلبس شقيقاهُ واستاجرا جيشًا من الرعاع الذين اتوا سوريا اثناء الاختلال للنهب والسلب وسارا بهم لقتال اهل المدينة الذين قاموا على اخيهما فاخذاها وقتلا كثيرين من اهلها واباحا نهبها للعسكر ولما نجزا منها وعلما بما هما عليهِ من شدة الباس زحفا بالجنود وقاتلا اوسيبوس ابن عمهما الجالس على كرسي دمشق فدارت الدائرة عليهما وغرق انطيوخس في العاصي

ورأى اوسيبوس بعد فوزه ان الوقت لا يروق لهُ حتى يقتل فيلبوس ابن عمهِ فباشر الحيلة توصلاً لما يريد فتزوج بسلمى امرأة بطليموس التي كانت قد تزوجت بكريبوس ملك سوريا وكانت سببًا في قتلهِ قاصدًا في ذلك ان ينال واسطة لازدياد قوتهِ على ان تلك الخبيثة المحتالة رات من سياستها غير ما رآهُ زوجها الجديد فان خطة بلغتها من الشهرة في سوريا صورَّت لها العودة الى زوجها الاول بطليموس فخابرتهُ وكان ديمتريوس او كاروس الابن الرابع الى كريبوس ملتجئًا الى مصر فارسلهُ بطليموس ليثير القتال على اوسيبوس ومن الجهة الاخرى ثار فيلبوس اخوهُ ففرَّ اوسيبوس الى بلاد الاشكانيين ملوك فارس والتجأ اليهم طالبًا نجدتهم فرات تلك الدولة سنوح الفرصة للمداخلة باحوال سوريا الداخلية فساقت عسكرًا اليها فانتشبت الحرب وكانت نتيجتها وبالاً على اوكاروس حيث بات

اسيرًا وجلس عوضهُ اخوه الاصغر انطيوخس ذيونيسيوس سنة ٨٧ ق م

فاصبحت سوريا على شفا خطرٍ هارٍ لان ملوكها كانوا يلهون عن الادارة بالجهل والفساد وحكامها يضربون عن كل ما يأول لخير الرعية كانما نصبوا في مراتبهم توصلاً لغاياتهم او تقربًا من شهواتهم ففسدت السياسة وكثر سفك الدم وقلت الامنية والراحة فضجر الاهلون ضجرًا شديدًا ورأى السياسيون ان البلاد آخذة في الخراب حتى صار يعسر عليها النهوض من انقاضهِ واليد الاجنبية تحيك المشاكل وتزيد القلاقل وتلقي الشقاق والمفاسد وان هذه الحالة قد انضبت موارد الغنى والنجاح فكانت رومية تطا لبها باجراء سياستها ومد بسطتها ومصر تناوشها طلبًا لاتساع بلادها عند الحدود ضمدًا لجراح أثخنت فيها بالسلاح الداخلي ودولة الاشكانيين تجتاح البلاد بسطوتها وصولتها حتى قررت لها السيادة الادبية فيها ذلك كلهُ آل الى تضعيف البلاد وانتهاك حرمة نظامها فتولى الخلل وعم الاضطراب وكثر الارتباك فانتج ذلك خسران قوام البلاد ومصادر غناها اعني الزراعة والتجارة والصناعة

وبينما كانت سوريا على هذه الحالة السئية من الارتباك كانت ارواد ناعمة البال حيث كان ملكها قد اتخذ مبدأً يجديهِ النفع لبلدتهِ ذلك انهُ فتح ابوابها للهاربين فجاءها جم غفير ولم يكن يسمح لاحد منهم ان يخرج من الجزيرة الا باذن الملك وكان بين القادمين اليها كثيرون من العظماء الذين لما عادوا الى اوطانهم بعد صفاء الحال اعطوا الارواديين قسمًا كبيرا من قبالة جزيرتهم ايفاء لمعروفهم وقيامًا بشكرهم اما صور وصيدا فيظهر انهما كانتا متمتعتين بالاستقلال الداخلي بدليل وجود مسكوكات لهما اولها سنة ١٢٦ ق م ويغلب على الظن ان هذه المنحة لم تعط للصوريين الا عندما قتلوا ديمتريوس الثاني لما فرّ اليهم هاربًا بعد انكسارهِ بدمشق وفي ذلك الوقت ظهرت في سوريا خلافة حديثة وهي ان الحارث المعروف بكتابات الافرنج باسم ارتاس وهو احد ملوك العرب من آل غسان اتى دمشق وافتتحها

مستخلصًا اياها من اصحابها السلوقيين سنة ٨٥ ق م

وكره السوريون ملوكهم السلوقيين وصاروا يتمنون زوال دولتهم ويلتمسون عونًا ليثيروا ويرفعوا نيرها عنهم ذلك شان الامم الذين يفهم عدل حكوماتهم ولا يستطيعون البقاء على حالهم وبينما كانوا يشكون ويتململون جاءهم تيكرانس او تيغران ملك ارمينيا واستولى على بلادهم سنة ٨٣ ق م. فسقطت دولة السلوقيين سقوطًا ذريعًا واقام ملك الارمن مكادانس رئيس عسكره واليًا على سوريا اما الملوك السلوقيون فاخذوا يلتجئون الى البلاد المجاورة على ان سالنا اوسا لان المحتالة امراة اوسبيوس سارت الى عكا وهي بتولمايس القديمة وحصنتها واقامت بها تدافع العدو والفاتح فحاربها تيكرانس وفتح المدينة عنوة وقاد سالان اسيرة الى سلوقية التي بين النهرين وهنالك قتلها واستمرت سلطنة الارمن في سوريا اربع عشرة سنة وكانت حكومتهم قاسية جائرة فلم يستقر لها الملك وجاء انطيوخس بن اوسبيوس فسلمت لهُ بعض البلاد سنة ٦٧ فتولى حكومة كوماجن في سوريا اربع سنوات ونال عنوان ابيفانوس كالينيكوس غير ان حكمهُ لم يدم طويلا لان طليعة جيش الرومانيين وافت البلاد تحت قيادة بومبيوس المشهور بعد ان كان قد هدم اركان الدولة الارمنية في اقطارها وبمجيء الرومان تم انقراض الدولة السلوقية من سوريا بعد ان تولى منهم واحد وعشرون ملكًا مدة مائتين وسبعة واربعين سنة

الفصل السادس

الدولة الرومانية

كل من طالع تاريخ السلوقيين علم عِلم اليقين ان المطامع الانسانية آلت الي خراب البلاد وانقراض الدولة وان سوء الادارة داع الى نفرة وابتعاد قلوبهم عن الولاء للحكومة ولم يكن الفاتح الارمني من يحسن السياسة فلم تجتمع على حبهِ قلوب الرعية السورية لذلك شرعوا با لتخلص منهُ وبافتتاح

بلادهم وحصونهم للرومان الذين جاءوها سنة ٦٥ ق م بعد ان فازوا في اسيا الصغرى بمعارك كثيرة وجعلوها ولاية رومانية اماغزة و يافا ودورا وتوريس ستراتونيوس فقد تحررت و بعد ان سار بمبيوس الروماني الى اليهودية واخضعها عاد ثانية الى سوريا ورتب امورها ترتيبًا رومانيًا وعاد الى ايطاليا فتولى ادارة الولاية السورية سكوروس الروماني ثم خلفهُ مارسيوس فيلبوس ثم لانتولاس مارسيلينوس وبعد هذا كابينوس فلما انفصل هذا صارت سوريا ولاية قنصلية تولاها كراسوس وكان العرب يغزون البلاد غزوات تترى املاً بالغنيمة على ان كراسوس كان يبعث عليهم بالكتائب فيعودون بهم الى الصحراء وقد روى المؤرخ بلوتارك ان كراسوس لم يكن خليقًا بالخطة العسكرية

وجهز كراسوس عسكرًا لقتال البرثيين ففازوا عليهِ لتخلف بعض قومهِ عنهُ وجاء ابناء مليكهم سوريا فاحط على انطاكية وحصرها وفيها يومئذٍ كاسيوس فاحسن حاميتها الدفاع حتى عبثت اسوارها بهجمات البربر فراى احد ابناء الملك ان يرفع الحصر عنها و يسير بجيشهِ ليعيث في البلاد فلما سار وقد تخلف اخوهُ على البلد بنفر قليل خرج كاسيوس على من اقام على الحصر وقتل ابن الملك وكسر عسكرهُ فارتد اخوه مفشولا

وفي سنة ٥٠ ق م صار بيبلوس واليًا على سوريا ولم يبدِ من الحزم ما يصد البرثيين عن بلادهِ الا انهُ سعى بثورة في بلادهم الزمتهم عند اتقاد نارها ان يبارحوا سوريا لئلا ياخذهم من حيث لا يعلمون وظلت الحكومة الرومانية تطلب من سوريا اجراء السنن المعروفة في بلادها وتصادرها خراجًا عظيمًا عن كل شيء حتى وقع النزاع على الخطة القيصرية بين فاتحها بمبيوس الظافر وشريكهِ بوليوس قيصر وكان قيصر قد عزل عن ولايتها ميتا لوس شيبيون لما اوجس منهُ شرًا واقام في منصبهِ ارستبوليس اليهودي وكان اسيرًا في رومية فجهز ميتا لوس سفنًا سورية وسار بها الى بلاد اليونان لينجد بمبيوس

ولما فاز قيصر على خصمهِ جاء سوريا وانعم على الاهلين بالمنح التي امتاز باعطائها وكانت علة فخر اعمالهِ ذلك انهُ نظم جيشاً وطنياً عهد اليهِ الذب عن الذمار ولم تطل اقامتهُ حيث دعتهُ مهامهُ للخروج من البلاد فمر في كيليكيا وخلف في حكومة سوريا رجلاً يقال لهُ ساكستوس وكان من اضعف انسبائهِ واكثرهم جبناً وكان هنالك رجلاً يقال لهُ كاسيليوس باسوس وهو من المتحزبين لبمبيوس فجاء صور واخذ يحرض الاهلين والحرس الذي كان يوليوس قيصر قد امر بوضعهِ فيها فاجابوهُ الى ما اراد ورفعوا راية العصيان فسار كاسيليوس والتقى بصاحب قيصر وهو بافع فنازلهُ وكسرهُ وفاز بقتلهِ فاجتمع اليهِ عديد من الرجال لكن كاسيليوس كان يخاف بطش قيصر فتحصن في اباميا وتحالف مع البرثيين فانجدوهُ حتى اذا جاءهُ الرومان كسرهم وهم يومئذ تحت انيبتيوس فاتوس الذي ارسلهُ عليهِ الديكتاتور (مأمور منتخب يستبدُّ في الاحكام لامد مسمى) الروماني ثم جاءهُ ستاتيوس ماركوس وكان قد نسي وكيل قنصل على سوريا وانجدهُ كريسبوس فحصراهُ في افاميا حصراً شديداً

وفي غضون ذلك قتل قيصر تاركاً سوريا بتلك الحالة المضطربة فتنازع حزبهُ وحزب بروتوس الولاية فيها على ان السناتو اعطاها لكاسيوس واما الشعب فمنحها للقنصل ديلابيلا صديق انطوان وكان كاسيوس قد بلغ سوريا اولاً فجمع حولهُ كل القوات الحربية وجاء اباميا فسلم محاصرها الامر اليهِ الا ان كاسيليوس لم يزعن فخابرهُ كاسيوس حتى فتح ابواب افاميا واما ديلابيلا فكان في اسيا الصغرى يجهز جيشاً ليأتي سوريا بهِ وكان قنصل الرومانيين قد ولى البينوس على فلسطين فما عتم هذا ان راى كاسيوس قد فاجأهُ بالجيوش بعد فتح افاميا والزمهُ ان يسير معهُ لقتال ذيلابيلا وكانت سوريا قد خضعت برمتها لهُ عدا مدينة اللاذقية فانها فتحت ابوابها الى ديلابيلا فاقام في فرضتها قائدهُ فيكلومس بعدة من السفن الرودية والليقية والكيليكية

والبمفيلية واما كاسيوس فاستنجد سفن صور وارواد فجاءته طوع امره وكان سيرابيون والي قبرص من قبل الدولة المصرية يسرّ الميل الى كاسيوس فانجدهُ طي الخفاء لانهُ كان عدو مولاته كليوبطرة وضرب ستاتيوس مرقص رئيس سفن المتحد بن عمارة فيكلوس وكسرها كسرة عظيمة فيئس اهل اللاذقية من صد اعدائهم ولهذا البثوا صابرين على حملاتهم ورغب كاسيوس فتح المدينة بالمكيدة فعجز عنها لان مارسوس حاميتها كان يخفر اسوارها بنفسهِ كل الليل فيحبط كل مساعي عدوهِ القادر الا انهُ كان ينام نهارًا تاركًا ادارة الامور بيد غيرهِ فكسلوا واهملوا واجباتهم ولذلك فتحت ابواب البلدة للمحاصرين فلما علم ديلابيلا بفتح البلدة قال لواحد من جندهِ ان يقتلهُ وان يحمل راسهُ للفاتحين فقتل الجندي مولاهُ والحق نفسهُ بهِ واما مارسوس الباسل فتمثل بهما ودخل الفاتحين البلدة واثخنوا فيها قتلاً وجرحًا حتى لم يبقوا على ذي نعمةٍ و وجاهة وحملوا على الدور والابنية العظيمة ودكوها الى الارض وما زالوا يفعلون منكرًا حتى اعترف القوم بولاية كاسيوس عليهم فلما صفا الحال قسم كاسيوس البلاد الى عدة مقاطعات صغيرة واخذ يبيع حكومتها الى من يزيد في الثمن

واما صور فالظاهر انها كانت يومئذ ذات حكومة ملكية يترأَسها ملك يقال لهُ ربون الا ان ولاية هذا كانت قصيرة الامد لان انطوني خلعهُ منها روى بعض الثقات ان حكومة القناصل الثلاثة المعرفة بالتريمفيرات عينت انطوني واليًا على سوريا فتأَخر في مصر لان كليوبطرة لم تاذن لهُ بالمجيء اليها ولذلك استعمل عليها اسيديوس ساكساس من المخلصين لهُ والمحنكين في الحروب وعرف انطوني ولو بعد حين خطا ادارتهِ وظهر لهُ ذلك ببيان لما دخل لابينوس البلاد وبدأَ الرومان يتخلفون عن رؤسائهم ويتحازون اليهِ حتى المدن فتحت لهُ ابوابها ولم يبق في طاعة الدولة الرومانية الا سكساس وكيل انطوني فذاق الحمام بيد البربر جزاء امانتهِ لمولاه واما صور فلم تفتح الا

بعد ان جاءها البرابرة بسفن وافتحموها بحرًا و برًّا ثم انقسم جيشهم وسار لابينوس شمالا وانطغيونس جنوبًا نحو اليهودية

وكان انطوني قد بعث من مصر بجيش يتامرهُ فانتيديوس فالتقى بالبربر وحاربهم واجبرهم على العودة الى طوروس حيث وقعت معركة ثانية فاز فيها الرومان على قلتهم فعادت سوريا الى الحكم الروماني خلا جزيرة ارواد وكان اكثر السوريين يفضلون حكم البربر على حكم الرومان فكان ذلك سببًا في اسراع المدن بالتسليم الى البرثيين واما تاخر ارواد عن الرجوع الى الطاعة فكان خشية العقاب على تعذيبها رسول انطوني فاحط الروماني عليها فثابرت على حصار طويل املاً بعودة البرثيين الى الغارة وفي سنة ٣٨ ق م تمت امانيهم حيث ظهرت طلائع الاعداء عند التخوم وكان فانتديوس قائد الرومان قد صرف معظم جيشهِ حتى لم يبقَ لهُ من يعتمد عليهِ في دفع الاعداء فعدل الى الحيلة حيث جعل من يبلغ البربر ان جيش الرومان كثيف فبدا الحاملون يسيرون الهوينا بينما كان الرومان يتجهزون و بلغ البربر سير هستيك فالتقوا بالقائد فانتدبوس وحاربوهُ وهم على وجل من كثرة قومهِ فغلبوا ثانية وفرَّ منهم خلق كثير لجاءوا الى كوماجن حيث اعلن انطيوخس حاكمها انهُ يحميهم فحنق الرومان وقصدوهُ فحصروهُ في ساموسات عاصمتهِ حتى ضايقوهُ فعرض عليهم الف وزنة نجدة لبلدتهِ وثمنًا للصلح وكاد فانتيديوس يقبل بها اولا امر انطوني بالكف عن المخابرة لقدومهِ فجاء وتقلد امارة الجيش واقام على الحصار طويلاً فلم يخدمهُ سعد نائبهِ بل التزم ان يقبل الكف عن القتال بثلاثمائة وزنة فقط ثم رحل عن سوريا تاركًا ادارتها بعهدة سوسيوس ولم يرجع اليها الا بعد سنتين فمر بالبلاد على عجل لياتي فينيقية ويجتمع بملكة مصر وكان قد وهب كل البلاد السورية الواقعة بين مصر والنهر ايلوثير وس اي الكبير الى كليوبطرة عدا عن صيدا وصور فانهُ حفظها لنفسهِ مع ان كليوبطرة كانت ترغب في ضمها اليها وروي ان البلدتين

حفظتها ما لانطوني عليها من الحقوق ولذلك حرمها اغوسطس قيصر من حقوقها وامتيازاتها الا ان استرابو يقول انهما حافظتا على استقلالها تمامًا

و بعدامد تشاجر انطوني واوكتافيوس فغلب اوكتافيوس عليهِ وصار قيصرًا لكل السلطنة الرومانية ومنها البلاد السورية فجاءها سنة ٢٠ ق م واقتبل فيها الامير تير يدات البرثي وكان قد لجاء اليها

وكانت الدولة الرومانية تعامل السوريين بالحلم والرفق آمرة بالعدل والامن حتى رتع الناس في نعيمها واعتاضت صور وصيدا عن اهميتها السياسية بالشهرة في المعارف والعلوم واتقان صناعتي الزجاج والارجوان وغيرها وكان هنالك مدرسة فلسفية تعلم على منهاج مدرسة الاسكندرية الا ان مبادئها كانت ممتزجة بين اليونانية والشرقية وكان البعض من اساتذتها يحاولون ان يقربوا الفلسفة للدين وعدد استرابو كثيرين من علماء صور وصيدا الذين عاصروهُ واشهر الذين سبقوه منهم فيلو الذي ترجم مولفات سانكونياثن وهو من اهالي بيبلوس او جبيل وتلميذه هرميبوس البيروتي اما بورفيري الذي كان اسمهُ الاصلي ما لكوس فابوه صوري واما بيروت فاصبحت مركزًا لمدرسة الشرائع واستمرت نحوا من ثلاثة اجيال تعد تلامذتها للقضاء في كل اقسام المملكة الشرقية اما مارينوس الصوري فكان اول مولف خطط الرسوم الارضية المعروفة بالخريطات محسوبة بحساب الطول والعرض وذلك في الجيل الثاني بعد المسيح وكان مصدرها ومصدر معارف مصححها بطليموس ما اخذوه بالسماع عن روايات السياح واخبار المسافرين

وكان في صور رجل يقال لهُ باولوس الفصيح فارسلهُ وطنهُ الى رومية سفيرًا الى ادريان الامبراطور الروماني وكان هذا القيصر يحب العلماء جدًا فلما وصل اليهِ الفصيح سرَّ بهِ وانعم على صور بلدتهِ بلقب مترو بوليس فاصبحت بعد حين مينا سوريا ومركز وكيل القنصل

فمما تقدم يظهر ان الامة السورية قد نجحت تحت ظل الرومان نجاحًا

ادبيًا تامًا رافقها امدًا طويلاً في زمن دولتهم

ولما كانت سنة ٢٧ ق م اقتسم مجلس السنات في رومية البلاد بينهُ وبين الامبراطور اغوسطوس قيصر مسلمين لادارتهِ الولايات التي يجاورونها قوم يقلقونها فكان من نصيبهِ الحكم في سوريا لان في جوارها قومًا من البربر لا يكفون عن الغارة الشعواء عليها اولئك هم البرثيون اما شحنة سوريا فكانت سبع كل الجيوش الرومانية

وفي غضون ذلك حدث في اليهودية امر عظيم ذلك هو ولادة السيد المسيح ونشأتهُ حيث شب وعلم وعمل المعجزات والعجائب اثناء ٣٣ سنة من عمرهِ

ولقد كثر الذين يؤرخون كتاباتهم منذ الميلاد المسيحي على ان بدائتهُ لم تكن قبل اواسط الجيل السادس حيث شرع فيهِ هوذيونيسيوس السكيثي حاسبًا ان مولد المسيح كان في ٢٥ ك ١ سنة ٧٥٣ من تأسيس رومية غير انهُ عرف بالتدقيق ان الميلاد كان سنة ٧٤٩ لتاسيس المدينة وبما ان الاربع السنوات التي وجدت مغلوطة لا يمكن اخراجها من الحساب الجاري اضافوها على الاربعة الالاف السنة التي قالوا انها اقرب مدة بين الخليقة والميلاد

وفي السنة الاولى من التاريخ المسيحي جرت المخابرة لعقد عهدة صلح بين الرومان والبرثيين فارسل امبركايوس قيصر الى الغزاة ليعقد العهد فعقدهُ وكان يصحبهُ المؤرخ فاليوس باتركولوس وهو يومئذ في خدمة الامير ولم يكن زمن هذا الصلح طويلاً لان حدثت قلاقل فيما بين البرثيين كانت سببًا في جلوس فينون على عرشهم وكان عدوًّا للرومان فالتجأ الى الارمن وطلب نجدتهم ليزعج الرومان ولم يكن هولاء يرغبون في الحرب ولا يستطيعون السكوت عما يجري في جوارهم فعدلوا الى الحيلة وبها تمكن كراتيكوس سيلاموس واليهم في سوريا من المجيء بفينون الى بلادهِ حيث قبض عليهِ ثم فصل كراتيكوس عن الولاية وتامرها بيسزون وكانت كوماجن في الاصل ولاية سورية لبثت حتى ذلك الوقت وبعده مستقلة في احكامها الا انهُ يظهر

من نفوذ احكام القياصرة فيها انها كانت نقر بسيادة رومية وقد اشتبكت فيها حروب شديدة غايتها التاج وما انقضت الا بحكم القياصرة واما الامبراطور كاليكولا فقد ابطل خطة الملك فيها زمنًا حتى اعاده اليها كلوديوس على ما جرت بهِ عادتهُ من الرفق بالولايات والغيرة على مصالحهنّ

وكان يسوس اليهودية امير وطني خاضع لسيادة رومية مع انهُ يلقب بملك اليهود وكان حليفًا للقياصرة عاملاً على مودتهم الا انهُ كان لايخلو الحال من قلاقل داخلية بذارها الطمع في الولاية والاعتساف في الحكم ذلك ما كدر عيش الدولة اليهودية واقلقها بما لا مزيد عليهِ

وفي سنة ١٨ مسيحية جاء بيزون سوريا فانتج قيامهُ فيها انقلابات كثيرة لان حكومتهُ كانت ذات كسل وفساد وكانت امراتهُ بلانسين تتداخل في المصالح العامة وتزيدها ضرًّا وفسادًا وكان القيصر قد بعث بجرمانيكوس فطاف اسيا الصغرى وجاء كوماجن وراى اضطرابها وارتباكها فاستعمل عليها رجلاً رومانيًا اسمهُ كونتيوس سارمينوس ثم جاء سوريا يطالب بيزون واليها بما فعل فيها فاجتمعا ولم يرض جرمانيكوس بما رتبهُ بيزون وكان اوسع منهُ سلطة فنقض بعض تدبيره ورفض بعضًا فغضب بيزون وتمكن منهُ كره جرمانيكوس ثم سار هذا الى مصر ولما عاد الى انطاكية راى ان ما اصلحهُ عاد الى فساده وان بيزون يميل الى فرنون عدو البرثيين وان قومهُ طلبوا التشديد عليهِ فمال جرمانيكوس الى طلب البرثيين وفعل حسب رغبتهم فانكى بيزون وفي تلك الاثناء مرض جرمانيكوس ثم مال الى الصحة فسر السوريون بهِ ورغبوا تقديم كفارات الى معبوداتهم فمنعهم بيزون عن ذلك ثم اشتد المرض على جرمانيكوس فاتهم بيزون باعطائهِ سمًّا وخاف بيزون من بطانتهِ ففرَّ الى سلوقية وركب البحر منها قاصدًا بلاده الا انهُ عرف بموت جرمانيكوس قبل ان بلغها فعاد واما السوريون فرفضوا قبولهُ وانتخب الجيش واليًا يقال لهُ سانتيوس فجهز بيزون جيشًا اخرجاء اكثره من غير سوريا لكنهُ لم يلق ترحابًا

فلجاء الى قلعة حصر فيها حتى سلمت وكان من شروط تسليمها ان يرحل بيزون الى ايطاليا من غير بطء وسر الجند باخذ ثار جرمانيكوس فاقاموا له تمثالا على ضريحهِ في انطاكية وقوس نصر على مضيق جبل عمان

وعقب هذه الاضطرابات سنو راحة وسكون تولى البلاد فيها بعض من كبار رومية وامرائها على ان ارتبان صاحب البرثيين طلب من الرومان ان يسلموهُ ما جاء بهِ فرنون من الاموال الى سوريا فرفض طيباريوس ذلك وتجنبًا من اشهاره الحرب راسًا على البربر بعث اليهم احد الارشكيين وكان قد نجا من مقتل قومهِ ولجا الى رومية واصحبهُ بمن يلازم فجاء سوريا يثير فيها الخاضعين لنير البربر الا انهُ مات فبعث تيباريوس رجلاً اخر يدعى الملك فالتقى هذا بالبرثيين وكسرهم مرتين ولكنهم لم يرتدعوا فاوعز القيصر الى والي سوريا ان سر على البربر فتجهز وسار وعلم البربر بهِ فاخلوا البلاد ورحلوا من وجههِ وعبر الرومان والسوريون الفرات وبلغوا الدجلة ولم يروا عدوا فعادوا على اعقابهم سنة ٣٧ للميلاد وفي سنة ٥١ م حدثت بعض القلاقل في بلاد الارمن وكان من سياسة رومية المداخلة فيها لاصلاح ذات بينها او لنفوذ كلمتها فتجهز جيش روماني سوري وزحف عليها ولكنهُ خاف من البرثيين فارتد عنها

وحدث في تلك الاثناء ان قبيلة من سكان جبل عمان قد انحدرت على كيدوكيا وهي رومانية فزحف عليهم نفرٌ من رومان سوريا واخضعوا البلاد فظلت طائعة حتى سنة ٥٢ م حينما اعتزت بقوتها وهاجمت سفيروس الروماني في كوماجن وعنده يومئذٍ شرزمة من فوارس السوريين

وكان الرومان يخافون نفوذ كلمة البرثيين في سوريا ولذلك بعثوا اليها رجلاً شهيرا اسمهُ كوربولون يضارع بهِ ما يزيد من بسطة البرثيين لكن هذا المامور لم يلق في سوريا اقل مما لقي جرمانيكوس من شدة مناظرة واليها وجدهِ في احباط مساعيهِ على ان كوربولون ما لبث ان عرف بوفاة مخاصمهِ فتولى الولاية السورية سنة ٦٢ م فجاءها وتمتع فيها بصلح تام مدة سنتين

وبينما كانت سوريا متمتعة بالراحة والسكون في ولاية كربولون طفق البرثيون يشنون الغارة على ارمينيه قاصدين ضمها الى بلادهم او بقر برسيادتهم عليها. وكان الذب عن هذه الولاية من واجبات ولاة سوريا فارتبك كوربولون في امره لاتساع الحدود التي يتعين عليه صيانتها سيما وانه كان يخشى ترك سوريا عرضة لغارة البربر فالتمس الى القيصر ان يبعث الى ارمينيا قائداً سواه واقام ينتظر الجواب. اما البرثيون فحصروا احدى المدن الارمنية فاستغاثت المدينة المحصورة بكوربولون فلم ينجدها علماً منه بعجز البرثيين عن فتحها بل بدا يحصن حدود سوريا ثم طلب الى البربر الكف عن الحصار فكفوه وجاء من القيصر قائد فخاف البرثيون من السور بين الرومان فتتاركوا سنة حتى اذا راى كوربولون من البرثيين اهبة للقتال التمس من القيصر ان يتخلى عن ولاية سوريا ويتامر الجيش في قتالهم فقبل نيرون وولى على سوريا سانسيوس فسار كوربولون واجتاز الفرات ولاقى البرثيين لكنه لم يلاحمهم بل عقد معهم صلحاً

وظلت صلات السور بين واليهود جارية على ما كانت عليه قبل الدولة الرومانية زمناً طويلاً واليهودية متمتعة باستقلالها الداخلي آمنة مداخلات رومية الا ان حالة صارت اليها دولتهم من جرى الشقاق والخلاف فتحت باباً متسعاً للسياسة الرومانية فاصبح ولاة الرومان في سوريا يمدون من انطاكية يدهم القادرة لحسم المنازعات وفض المشاكل بين الروساء على انه لما مات هيرودس راى ارخيلاوس لزوماً لاتخاذه حماية الرومان فالتمسها من الوالي فاروس قبل ان سار الى رومية ليلبس تاج الملك وبعد موت ارخيلاوس ازدادت مداخلة الرومان في اليهودية حتى اصبحت خاضعة لحاكم روماني من عمال والي سوريا وفي سنة ٣٣ م او ٣٤ م اخذت في التجزوء ودخل قسم منها عظيم في ادارة والي سوريا واما كاليكولا فكان يكره اليهود ولذلك بعث الى سوريا برجل من ذويه اسمه بترونيوس فجاء اليهودية يجري فيها بقوة الجند اوامر مولاه وكان اغريبا الملك عظيم الشان مقرباً من القيصر ولذلك

انعم عليهِ بما وسع نطاق مملكتهِ فحدث ما اوجب دعوة بعض الملوك للائتمار في طبريا فاوجس بترونيوس من ائتمارهم شرًا وجاءهم فامرهم بالتفرق وان يعود كل الى بلادهِ فغضب اغريبا وكتب الى القيصر يشكوهُ ففصل بترونيوس عن سوريا ومات اغريبا بعد حين وخلفهُ ابنهُ اغريبا

وفي سنة ٤٩ م اتحدت فلسطين مع بلاد العرب الايطوريين وانضم اليها من بعد ذلك مقاطعة شالسديك وكان من سياسة القياصرة وحكامهم في سوريا ان يبنوا بلدة في وسط بلاد اليهود يجعلون سكانها من السوريين وغيرهم فتشيدت مدينة قيصرية ونمت وعظمت فتم بنموها ما اراد الرومان من دثار سطوة اليهود

اما سياسة اليهود وادارة امورهم الداخلية وما جرى لهم فسيذكر باكثر ايضاح في الكلام عن عاصمتهم اورشليم

وحدث سنة ٦٦م ان سوريًا كان يضحي لاصنامهِ على مقربة من معبد اليهود فهجم اليهودُ عليهِ وقتلوهُ فهاج ابناء جلدتهِ وطردوا اليهود من البلد ثم تظاهر القوم بالسكون فعاد اليهود الى بيوتهم واذا بالسوريين قد قاموا عليهم وقتلوا منهم الفين فلما انتشر الخبر في انحاء فلسطين تجهز اليهود للنقمة والسوريون للدفاع وجرى في المدن الاخرى السورية مثال ما جرى في قيصرية من قتل اليهود وغصت اسواق دمشق ويافا وقدرة وغيرها وقد قال يوسيفوس ان بعض المدن الكبيرة كافاميا وانطاكية لبثت مستكنة دهرًا عن ارتكاب هذه الفظائع

وكان السوريون يتهمون النصارى بالائتمار مع اليهود على دناوهم تخلصًا من عبادة الاصنام وذلك لانهُ كان قد حدث في اليهودية جوع شديد فارسل نصارى انطاكية اليها زادًا كثيرًا وفي سنة ٦٧ م قال وثني كان يهوديًا ان اباهُ رئيس جماعة اليهود قد اتفق معهم على حرق انطاكية وان بعضًا من السياح لم ياتوها الا ليحملوا اليهود على ذلك العمل فهاج الشعب هياجًا شديدًا

وحملوا على الغرباء المتهمين وقادوهم الى الجزيرة واشار انطيوخس المرتد بان ياتوا اليهود فمن ضحى منهم للاصنام نجا ومن لم يذبح قتل ذلك ما كانوا يعاملون بهِ اليهود في سائر اقطار المملكة الرومانية فجرى ذبح كثيرين وسار انطيوخس لفئةٍ من شحنة المدنية يطوف الجوار وينزل باليهود هنالك انواع القسوة والمساوئ وكان حدوث ذلك مقاربًا زمان رجوع طيطوس من اليهود فائزًا فالتمس الانطاكيون اليهِ ان يامر بهاجرة اليهود من بينهم فرفض ذلك قائلاً لقد خربت بلادهم ولا يقبلهم احد فاين يسكنون

فابتدأ هذه المساوىء والاضطرابات وظلم حكام الرومانيين في اليهود قادهم لخلع الطاعة والمجاهرة بالعدوان فبدأت الدولة الرومانية ترسل جيشًا بعد آخر الى ساحة القتال وجاء سبسيانوس الروماني قائدًا من قبل نيرون الملك فحارب بعض البلدان ولما صار الى اورشليم قفل راجعًا الى رومية فلما اتاها وكان قد توفي فيتيلوس الامبراطور نادت بهِ جنودهُ قيصرًا غير انهُ كان قد ترك ولده طيطوس لحصار اورشليم فشدد عليها حتى اخذها سنة ٧٠م وقتل كثيرين من اليهود كما سياتي في تاريخ اورشليم

وسار طيطوس من انطاكية الى رومية ليفوز فيها بفخر المنتصرين على انهُ لو انصف الناس لجعلوا قبة النصر واكليل الغار للشقاق والتعصب لانهما يفتحان ابواب الحصون ويدكان الاسوار ويكسران قوى الامم

وكانت ادارة ولاية سوريا بيد رجل يقال لهُ كوليكا فما غاب طيطوس ان جاء نسيسانيوس باتيوس واليًا فسعى للحال بضم كوماجن الى سوريا ففاز بذلك سنة ٧٣م بعد ان سار عليها بغتة ولم يكن ملكها بانتظار خلعهِ لانهُ كان قد اخلص للرومان خدمتهُ ثلاثين سنة وانجدهم بقتال اليهود فكان ذلك نصيبهُ من نتاج قيامهِ على ابناء وطنهِ على انهُ لو سعى بالحلفة مع اليهود لا عليهم وانجد القومين غيرهم من ابناء جلدتهم السوريين لامنوا غائلة النير الاجنبي وضياع عاداتهم ولغاتهم واديانهم التي ورثوها عن اجدادهم

وظلت سوريا في سكون زمن دولة القياصرة الفلافيين حيث لم يجر فيها حادث مهم حتى اوائل الجيل الثاني فان البرثيين تذكروا سابق عداوتهم مع الرومان فتجهزوا للغارة سنة ١٠٥ م الا ان تراجان كان قد عقد صلحا مع محاربيو فحشد جيشًا جرارًا وجاء بهِ سوريا فوصل انطاكية في كانون الثاني فاجتمع اليهِ فيها كل جنود المحالفين وشحنة بلاد فينيقية واقصى بلاد سوريا و بعث اليهِ بعض الامراء المستقلين في الجوار بالهدايا فلما تمت الاهبة اراد تراجان ان يرضي معبوداتهِ قبل الرحيل فامر باضطهاد النصارى في انطاكية وضحى لجوبتير على جبل كاسوس وهو الاقرع ثم سار بجيشهِ سنة ١٠٧ م

فلما فاز على البرثيين عاد عنهم الا انهم ما انفكوا عن الغارة على ضفاف الفرات مرارًا في ايام تراجان حتى انهُ عاد عليهم سنة ١١٥ م ليصد غارتهم بعد ان استشار هركيل فاعطى جندهُ راحة كل الشتاء ودخل انطاكية فازدحمت بها اقدام الغرباء حتى غصت بالمامورين والقادة والتجار والسياح ونواب المدن فعدل بعضهم الى السرور واشتغل آخرون بهامهم واذا بالامطار قد كثرت والرياح قد عصفت فانبأ الحال عن دنو امر هائل ما لبث ان ظهر في ٢٣ كانون الاول وهو زلزلة عظيمة قلبت القصور والمنازل وقتلت معظم الاهلين وما نجا القيصر الا ونقاول الناس انها باعجوبة سماوية و بعد حين وجد بين الانقاض نفر من الاحياء واما جبل كاسوس فسقطت منهُ قطعة كبيرة نحو انطاكية كان انشطارها من قمتهِ واصبح الناس يرون تلالاً وهضابًا وعيون ماء في اماكن لم تكن فيها قبل الزلزلة

وكان ادريان واليًا على سوريا فعلم بان القيصر تراجان قد تبناهُ سنة ١١٧ م و بعد ذلك بيومين عرف بموتهِ فحزن واقام لهُ ماتمًا عظيمًا في كيليكيا ثم عاد الى سوريا فقلد مهامها لرجل يقال لهُ كاسيليوس سارفيليوس ورتبها وجاء ايطاليا ولم يأسف السوريون عليهِ حتى انهُ لما رجع الى سوريا سنة ١٢٢ م لقي فيها من بغضاء الناس ما تعوّدهُ منهم

وكان من عزمهِ ان يفصل فينيقية عن سوريا الا ان الظاهر ان ذلك لم يخرج من الفكر الى العمل لان ولاة سوريا كانوا ما فتئوا يجرون احكامهم في فينيقية وبعد ذلك ظل تاريخ البلاد مجهولاً زمناً الا انهُ يظن ان انطونين منح انطاكية حقوق المستعمرات الرومانية تشويقاً للقوم بسكناها ثانية على انها دهيت بحريق هائل خرب قسماً منها

ولما انصلت القيصرية بمرقس اوريليوس رتعت السلطنة الرومانية بسلام وراحة على ان ولاية سوريا لم تشاركها بهما لان غارات اعدائها وشقاق بنيها وسلبتها راحتها وربكتها بما لا مزيد عليهِ فان البرثيين كانوا قد فازوا في ارمينيا فجاءوا سوريا سنة ١٦٢ م واجبروا واليها اتيديوس كورنايلنوس على التقهقر من امامهم وابتدأ قوم يعيشون في البلاد التي تركها الوالي عرضة لغاراتهم الشعواء. ولم يكن الاهلون قادرين على الدفاع فاتحدوا مع الفاتحين لما عرفوا بمجيء لوسيوس فاروس ومن معهُ من القادة الماهرين فانتصروا على البربر وفازوا بمنافع كثيرة واقام لوسيوس امداً في انطاكية حتى خطب لوسيل ابنة القيصر فارسلها ابوها اليهِ مع نسيبهِ ليبو وفي سنة ١٧٦ م سار فاروس الى اوربا فتخلف افيديوس كاسيوس والياً في سوريا فظل فيها حتى شاع كذباً موت الامبراطور مرقس اوريليوس فنهض كاسيوس ثائراً ووافقهُ كالفسيوس صاحب مصر ونادى بعض الجيش بافيديوس قيصراً وانجدهُ بعض الملوك ومع ان القوم علموا كذب الرواية القائلة بموت القيصر لم ينفكوا عن الشغب بل اعلن كاسيوس انهُ لم يرَ القيصر كفوءًا للملك ولذلك عزم على خلعهِ وعلم القيصر اوريليوس وهو على الطونة يحارب عصاة اقليمها فراسل السنا الروماني بامر كاسيوس وبعث عليهِ قادة من الامناء الباسلين فلم يعرف من اعمالهم شيء الا ان غاية المتصل الينا خبرهُ ان اثنين من الجند قتلا كاسيوس فدخل جندهُ في الطاعة على ان اوريليوس عفا عنهم فاحكم في ذلك السياسة لانهُ لو آخذهم بجريرتهم لنقموا عليهِ وازداد الامر اشكالاً وانعم على ماربيوس فاروس

بولاية سوريا شرقًا وجاءها القيصر وعلم فيها ان انطاكية لم تكن لترضى بهِ وبت كاسيوس بل اعلنت اسفها فغضب القيصر عليها وسلبها اكثر المنح التي كانت لها ثم اعادها اليها

وحدث في سوريا ثورة جاءت بنظام قيصري مشهور كان من احكامهِ الا تقلد المصالح المهمة في الولاية الا للغرباء لتتقي الدولة بذلك السبل الموصلة الى الثورة ومع انجاز هذا الاحتياط لم تخمد روح الثورة لانهُ بعد بضع سنوات نهض من سوريا رئيس عائلة فصار قيصرًا رومانيًا ادخل الى عاصمتهِ بعض عادات السوريين ومعتقداتهم

وفي سنة ١٨٢ م تولى بارتنكيس ولاية سوريا فافسدت عظمتها حسن ادابهِ وسابق شهرتهِ بالعدل فاصبح هزاء للناس ذلك شان الذين يؤمل الناس منهم خيرًا فلا يلقون ما يؤملون ولما تولى كومودوس خطة القيصرية استعمل نيكيروس على سوريا فتولاها عشر سنوات ولم يبدُ منهُ فيها ما يشهرهُ وكان في اماسا وهي حمص رجل يقال لهُ جوليوس اسكندر وقد اقلق القيصر فبعث اليهِ قائدًا يقتلهُ فلما علم جوليوس بقدوم القائد ومأموريتهِ فرَّ هاربًا مع صديق لهُ وخرج الجند يتأثرونهُ وكان جوادهُ كريمًا الا انهُ وقف ينتظر صديقهُ فادركهُ الجند حتى كادوا يقبضون عليهِ فسبقهم الى قتل رفيقهِ واعدام نفسهِ

وكانت الدولة الرومانية كثيرة المشاغب والاضطراب في داخليتها حتى انها كادت لا تعرف الراحة يشهد بذلك ان كثيرين من ملوكها ورؤسائها لم يموتوا حتف انوفهم بل قتلاً بيد الجنود او الشعب

وفي ١٩٢ م قتل الشعب الوالي برتيناكس وكان بعضهم مصممًا على اقامتهِ قيصرًا فاجمع العسكر على ان يبيعوا المنصب الملكي بالمزايدة فاجتمع كثيرون من العظماء والاكابر وبدأوا يتزايدون الثمن وكان بينهم ديديوس جوليانوس وهو من الاغنياء جدًّا فاستقرت المبايعة عليهِ ونادوا بهِ امبراطورًا

بدون مصادقة الجند المتفرقين في انحاء المملكة اولئك الذين لما علموا ما حدث في العاصمة خلعوا نير الطاعة وابوا الخضوع لسنة العظماء وبداء كل اقليم ينادي برئيسهِ ملكًا ونادت ايطاليا برجل من عظمائها اسمهُ سابتيميوس سيفرس ونادت اقاليم المشرق باسم بسانيوس نيكروس غير ان سيفرس اسرع بجيشهِ واتى رومية ودخلها بموكب عظيم وتبوا سرير الملك اما المجلس العالي الروماني فاصدر حكمًا بقتل ديديوس جوليانوس كمجرم فقبضوا عليهِ وقتلوهُ بعد ان حكم ٦٦ يومًا. قيل انما قتل لتخلفهِ عن ايفاء وعدهِ بدفع ثمن الخلافة للذين بايعوهُ وجاء نيكروس من المشرق بجيش كثيف لقتال سيفرس فعسكر في انطاكيــة لانها كانت طائعة لهُ مع بيروت اما صور واللاذقية فابتا الا الانتصار لسيفرس فحنق نيكروس منها وارسل اليها كتيبة من الجند وحملة السهام فهاجموا اللاذقية بغتة واخذوها ودكوها الى الارض واما صور فلم تنجُ من الوبال بل انهم فتحوها واحرقوها فما انقضى الامر الا وجيوش سيفرس قد اجتازت معابر طوروس حيث لم يصدها تراكم الثلج ولا حطام العقاب ونزلت اسوس فالتقتها جيوش نيكروس وهم من شبان الانطاكيين واشتبكت الحرب بين تلال قام عليها الوف من اهل البلاد ينظرون الى المتحاربين وبينما القوم على تلك الحالة هطلت الامطار غزيرة فربك هطلها السوريين وزادهم قلقًا ما لاقوهُ من حر القتال فانكسروا واعمل السيف فيهم وفي الذين اختلطوا بهم من المتفرجين حتى صار الفتك ذريعًا اما نيكروس فلجاء الى انطاكية الا انهُ لما دخلها راى انها قد غادرت قواها وحميتها فخرج منها قاصدًا الفرات فادركهُ بعض المطاردين وقتلوهُ وهو حامل سلاحهُ على ان بعضًا من جندهِ كان اوفر منهُ حظًا حيث بلغوا بلاد البرثيين ولجأوا اليها مقيمين فيها لا يثنيهم عنها وعد سيفرس بالعفو عنهم واما انطاكية فكان جزاء تخلفها عن الطاعة الغاء امتيازاتها وجعلها تحت احكام اللاذقية اما هذه فاظهارًا لمنتها من القيصر تسمت باسمهِ سبتيميا سفيريانا

ولما شاعت اخبار كسرة نيكروس عدل حلفاؤهُ عن موالاته ونادوا بسيفرس قيصرًا فارسل اليهم جيشًا من المرتانيين المشاة وامرهم ان يهدموا المدن ويقتلوا اهلها ولا يبقوا على احد من الذين انجدوا نيكروس ففعل اولئك البربر ما امرهم به مولاهم

وخلا الجوّ لسيفرس فراقت له الاحوال فامر سنة ٢٠١ م بقيام فئة من العسكر في صور وكانت ثروتها قد قلت لما عراها من الحريق الذي شب فيها وما لبث الحال ان ثار على الخطة القيصرية رجل اخر اسمهُ ابينوس فاحتشد جيشًا واشهر عزمهُ فتجهز سيفرس سنة ١٩٥ م وخرج من سوريا لقتاله فسار على بيزانس وهي القسطنطينية وضرب من تخلف فيها عن طاعة نيكروس ومنها اتى فرنسا فانتصر على خصمهِ ثم عاد الى الشرق فائزًا سنة ١٩٧ م واستعمل على سوريا فانيدبوس روفوس فاهتم الوالي المذكور سنة ١٩٨ و١٩٩ م بتصليح الطرق الرومانية القديمة وترميمها وحارب سيفرس اليهود الذين تجمعوا على حدود فلسطين وكسرهم وحطم جمهورهم وحارب القيصر ملك ارنا فانكسر امامها جنودهُ الدوربون لتخلف رفاقهم عنهم لكنهم احرزوا بعد ذلك فخر فتوحات جديدة محت عنهم وعن قيصرهم عار الانكسار وعاد سيفرس الى سوريا ودخل انطاكية في السنة الاولى من الجيل الثالث وفيها تلقب ابنهُ كراكلا بيبوس اي التقي لكثرة خشوعهِ وصلواتهِ ويظن انهُ في تلك السنة عاد القيصر فانعم على انطاكية برجوع امتيازاتها اليها الا انهُ ما فتيء على ما قبل متأثرًا خطوات اصدقاء مناظرهِ التعيس وظلّ في سوريا حتى سنة ٢٠٢ م وكان لسيفرس امرأتان احداهما من بنات سوريا مولدها في حمص واسمها جوليا دومنا تزوجها لما جاء سوريا قائدًا سنة ١٨٠ م لان عرّافًا قال له انها ستتولى الملك فاولدت له ولدين كراكلا وجيتا وكان كراكلا شرفي المشرب والعادة وكانت جوليا تود ان ترفع نفسها الى خطة سبقت الرواة فحدثتها عن سيمارميس فلما جلس كراكلا على العرش وسار الى اسيا سنة ٢١٦ م رافقتهُ

اليها واقامت في انطاكية الى ان جاءها خبر مقتل ابنهـــا بيد ماكرسينوس فكدرها ذلك بما لامزيد عليهِ لخسارة ابنها والملك معًا فاماتت نفسها جوعًا وفي سنة ٢١٧م جاء الامبراطور الجديد الى انطاكية بعد موت جوليادمنا ونادى بعض القوم بدياديمينوس بن مكرينوس قيصرًا وسار الى رومية حيث قبل السنا بملك ابيهِ ولم يتمكن ماكرينوس زمن اقامتهِ في انطاكية من استمالة الاهلين فسار وحارب البرثيين وعقد معهم صلحًا وكان قد احدث في المعسكر ترتيبًا جديدًا فتغيرت قلوب العسكر عليهِ واعملوا على ارجاع آل جوليادمنا الى الملك وكان قد انتفى من عائلتها بعض الخواتين الى حمص وكان بينهن سيدة يقال لها سواميَاس ولها ولد يافع اسمهُ باسيانوس كان من حداثتهِ كاهنًا للشمس فاحبتهُ شحنة حمص وراوا فيهِ من الصفات ما يحاكي صفات كراكلا فاغتنمت جدتهُ امرأة كراكلا الفرصة واشاعت انهُ من ولد زوجها والبستهُ يومًا حلة القيصر كراكلا وكانت محترمة من العسكر وخرجت بهِ من ابواب حمص ومعها العائلة وسائر الحشم منهم ايتيشوس وكانيس الخصي المشهور بالحكمة والثبات في الراي ودخلوا بين العسكر النازل خارج البلدة فاعترفوهُ قيصرًا وسموهُ باسم اوغسطس وانطونين وعلم ماكرينوس بالامر في ذلك النهار فبعث لارجاع الراحة رجلاً يقال لهُ البوس جوليانوس واصحبهُ بشرذمة من الجند فجأوا معسكر باسيانوس الملقب ايلاكابال وداروا بهِ وكادوا يفوزون عليهِ لولم يامر قائدهم بالقهقرى وفي اليوم الثاني ظهر ايلاكابال من على الاسوار وهو حامل اكياس الذهب فامل الجند الحاصرون منهُ حسن الجزآء اقتداء بمثال ابيهِ ولذلك طرحوا سلاحهم وانحازوا اليهِ وهرب قائدهم وتبعهُ قوم منهم وقتلوهُ وحملوا راسهُ الى مولاهُ ماكرينوس

وعلم ماكرينوس بما كان فشق عليهِ الامر ونادي بالجند ان يبايعوا ابنهُ دياديمينوس قيصر ويلقبوهُ باغسطوس فيعطي كلاً منهم خمسة الاف (درخمة) ينقدهم منها الفًا وقال بالعفو عن كل الذين يرجعون اليهِ من عصاة حمص

ودعا العائلة الباسينية باعداء العموم ثم كتب الى السنا يعلمهُ بالامر فمال المجلس اليهِ خيفة ان يتقلد الخطة واحد من السوريين فينزع الى عادات بلادهِ ومشارب قومهِ ذلك ما لا يرضي الرومان وعلم ماكرينوس بميل السنا الا انهُ لم يفوعزمهُ الواهن بل استعظم مقتل فائدهِ وتفرق قومهِ فولى الادبار نحو انطاكية تاركاً كتائبهُ الالبانية لتضم الى القيصر الحديث فسار ذلك الفاتح نحو عاصمة سوريا والقوم يتقاطرون للدخول في طاعتهِ والخدمة في جيشهِ حتى صار على مقربة منها فخرج ماكرينوس للقائهِ بجيش كثيف ونازلهُ في ٧ حزيران سنة ٢١٨ م وكاد يفوز عليهِ الا ان بسالة الاكابال واقتدار ذويهِ وتشجيعهم الرجال حمل ماكرينوس على الرجوع القهقرى ولم يثبت من قومهِ غير كتيبةٍ ابت الا الموت في ساحة القتال فجرت بينها و بين المنتصر مخابرة لحفظ حقوقها وامتيازاتها فانضمت الى محاربيها واتت انطاكية وكان ماكرينوس قد لجأَ اليها ابقاءً على حياتهِ مفضلاً عار الانكسار والهزيمة على الموت فدخلها وارسل ابنهُ منها بكل سرعة واما هو فتزيا بزي رسول ملكي وسار في سوريا واسيا الصغرى حتى جاء خلكيدونية فقتل فيها مع فابيوس اكرينوس والي سوريا

فانتشر السلام في المشرق الا ان القيصر لم يأتِ رومية حتى السنة الثالثة من نصرهِ سنة ٢١٩ م وجاء العاصمة بالعادات الغريبة و بعبادة الاصنام التي كان من كهنتها فاجرى في زمن قيصريتهِ كل ما دلّ على خفة عقلهِ وسوء تصرفهِ فلما مات بطل من رومية التزيي بالعادات السورية التي كانت دخلتها اكراماً لهُ الا ان نسيبهُ اسكندر سيفرس الذي خلفهُ في الملك رغب في ابطالها فارجع الاصنام السورية الى بلادها واعاد بناء هيكل رومية

وكان هذا القيصر ابن رجل من افاميا (قلعة مضيق) اسمهُ جانسيوس مارسيانوس ولد في عرقة وقيل في عكا غلطاً في الترجمة وتلقب بسيفرس لانهُ احب ان يدعي الانتساب الى سبتيميوس سيفرس وقيل لقساوتهِ والارجح الاول واحسن سيفرس السياسة لما تقلد الخطة القيصرية سنة ٢٢٢ م وعدل

في الناس حتى احبهُ كثيرون واجمعت قلوبهم على ولائهِ ذلك احسن ما يذخرهُ الملوك العادلون المحسنون

وكان يملك الفرس يومئذٍ اردشير بن بابك راس الدولة الساسانية وقد استفحل امرهُ فسار سنة ٢٢٥ م يهاجم بلاد الارمن فارتد عنها خائبًا الى سنة ٢٣١ م قيل انهُ بعث الى سيفرس يطلب اليهِ ارجاع ما كان للفرس قديمًا من البلاد وقيل انهُ جاء سوريا محاربًا فتجهز القيصر وسار من رومية عابرًا حتى اتى البلاد السورية فنزل فيها ليحكم تعبئة الجيش وتنظيم اموره فراى منهم فسادًا وسوء ادب فلم يتقاعد عن الاهتمام بهِ حتى عدَّ اصلاحهُ من محسنات ملكهِ وكان في دفنة غياض من الاشجار الملتفة فاتخذها العسكر موضعًا للفساد فاصدر امره بعدم دخولها والا يستحم الجند والنساء سوية كما كانوا يفعلون وجعل على المخالفين قصاصًا صارمًا لم يباشر اجراءهُ حتى ساء الجند ذلك فلم يحفل بمعارضتهم بل عقد مجلسًا حربيًا وجاء بالمذنبين اليهِ وهم يسعون في القيود والاغلال وقام في المجلس خطيبًا طالبًا الاقتصاص من المذنبين ابقاء على الشرف الروماني فحكم المجلس عليهم بالقتل فضج العسكر بالاعتراض فخرج اسكندر اليهم قائلاً ليس صراخكم ما يرعبني انما يرعب اعداءكم فلما سمعوهُ جردوا سيوفهم فقال لماذا تقتلونني الا تبعث الدولة عليكم رئيسًا اخر ثم صرخ قائلاً اغمدوا سيوفكم ايها الوطنيون وارجعوا الى منازلكم فلما سمع الجند ذلك وقعت الرعبة في قلوبهم فعادوا وسكن الحال بعد قلقهِ فسار القيصر بنفسهِ على الفرس وكسرهم الا ان بعض المدققين المتأخرين برنابون في حقيقة فوزهِ على انهُ لما عاد الى رومية لاقاهُ قومها بالتعظيم والتهليل وظل متمتعًا بالخطة القيصرية حتى قتلهُ مكسيمين في سنة ٢٣٥ م وهو في جوار ماينس يحارب الالمان

على ان ابطال سيفرس بعض العادات السورية حين توليهِ الخطة القيصرية لم يمنع باتمام الاراء والمشارب السورية من رومية سيما ما كان من امر الدين والسياسة وظلت العادة تتاصل بينهم بالتدريج حتى اصبح النظام القيصري عند

الرومان بعد عهد وجيز يقارب نظام سلاطين الفرس سواء كان ذلك بتحسين القصور وزخرفها او باكثار الخصيان لخدمة النساء اللواتي كن ينفذن كل السلطة والنفوذ في امور البلاد وتفرعت هذه المبادي الشرقية وغيرها في رومية حتى صارت تلك العاصمة العظيمة بين اراء مختلفة متباينة المقاصد والغايات فنتج من جرى ذلك حدوث مغايرات عظيمة بين الولايات الشرقية والغربية فاشرفت البلاد منها على شفا خطر هارٍ زاد الامر اشكالاً باطماع الامراء وجدهم بالحصول على التاج ولو ملطخا بدماء الملايين من الناس

وكانت حيوة القياصرة من الرومان مشوبة بالاثام والمعاصي تلك شان النفوس اذا نمت على غير الاداب ولم تكن لتردعها وكان كثيرون من خلفاء سيفرس لا يهتمون بامر سوريا الى ان القيصر فيليب جاء انطاكية سنة ٢٤٤ م واقام اخاهُ بريسكوس رئيسًا للعساكر السورية وفي خلافة ديسيوس ثار على رومية عصيان في المشرق لم نعلم عنهُ الا قليلاً من ذلك انَّ اسم مثيرهِ جوتابيان فطنهُ تيلمونت من ولد جوتاب سليلة الملوك القدماء الذين ملكوا حمص وكوماجن ولما تولى العرش فاليريانوس زادت القلاقل والاضطرابات بتوعد السلطنة من كل تخومها والعجز عن صد غارات البربر حتى كانت سنة ٢٥٨ م حيث جاء سابور بن اردشير بجيش كثيف فدهم انطاكية والناس في حفلة فاخذهم على غرة وانزل بهم ضربًا ورميًا فاصاب منهم كثيرين وما كان بلاؤهم الا من خيانة وطني لم ينل من الفاتحين جزاء غير حرقهِ بين انقاض المدينة ولم يبقِ الفاتح على شيء من متاع الانطاكيين بل اباح لجنودهِ النهب فعاثوا في البلاد وجوارها الا هيكل دفنة فانهم لم يمسوهُ وتحاملوا بالقتل على من لم يرضَ من اسراهم بالجلاء عن البلاد ومن ثم نكصوا على اعقابهم راجعين فاجتازوا الفرات الا ان جلاءهم عن البلاد لم يكن قرين الراحة لقيصر الرومان لانهم ما غادروها الا وقد تركوا فيها ذريعة الفساد والبلاء ذلك بان تخلف فيها فتى من الرومان اسمهُ سيريادس وكان قد نشا عند البربر وتخلق باخلاقهم

ثم جاء فارس فحمل سابور على القيام بهذه الغارة واصحبهُ فيها فلقبهُ الفرس قيصرًا ولما فتحوا انطاكية لقبوهُ اوغسطوس فتولى البلاد التي مهدها لهُ سيف فارس على انهُ ما لبث ان نهض قومهُ واذاقوهُ كاس المنون ذلك لما علموا بقدوم فاليريانوس اليهم

وجاء القيصر فاليريانوس انطاكية وادعم مع واليها يد المساعدة فرمم انقاضها وجد بارجاع رونقها ثم رحل عن سوريا قاصدًا حرب السيثيين وصدهم عن التمادي في الغارة الى اسيا الصغرى ولما جاءهم بلغ منهم مرادهُ والزمهم حدودهم ثم حارب الفرس فلم ينل فيهم مرغوبهُ بل نصب لهُ سابور مكيدة آلت الى القبض عليهِ ذلك ان سابور عاد فاجتاز ما بين النهرين والفرات سنة ٢٦٠ م ودخل انطاكية ثانية ولما اراد ان ياتي كيليكيا لم يرَ ما راهُ في سوريا من الاهمال والتراخي لان بليست واليها الروماني كان قد اغتنم من مناعة موقعهِ فرصة الانضام الى اودنياثوس صاحب تدمر واستلحام العدو هنالك فدفع الفرس الى حيث كان اودنياثوس لهم بالمرصاد فاوقع هذا بهم حتى اتوا اديسا او اورفا فاشتروا خيانة تمكنهم من اجتياز النهر بالدراهم التي سلبوها من سوريا

اما اودنياثوس فكان ملكًا على تدمر وهي حصن قام في القفر الفاصل سوريا عن بلاد ما بين النهرين وقد لحق بها بعض المدن وصارت في ايام اودياثوس جزءًا من المملكة الرومانية لا تخضع لها الا بالاسم فقط على ان اودنياثوس لما لم يرَ من كالينوس بن فاليريانوس همةً باستخلاص ابيهِ بادر الى القيام بذلك العمل فلم يقدر على استخلاص فاليريانوس على انهُ طرد الاعداء من البلاد فسرت الحكومة الرومانية بهِ ورغب كالينوس ان يجعلهُ رئيسًا على الولايات الشرقية فابى ذلك بل طلب ان يكون شريكًا في السلطنة فانعم عليهِ بذلك ٢٦٤ م ولما انكسر الفرس وعادوا عن البلاد عابرين الفرات جاء سوريا من مصر حاكمها ماكرينوس فولى ابنهُ كوتيوس وعقد الى بليست على

شحنتها وسار بجنده قاصداً رومية ليلبس تاج القيصرية فلما تبطن البلاد تخلف عنهُ الجند فقتلهُ واحد من الخدم فلما علمت مدن المشرق بموته خافت نقمة اعدائه منها لتسليمها لهُ سرعة فهرب كوتيوس والتجأ الى حمص ليتحصن فيها من طارقة الرومان فاتاهُ اودينانوس محاصراً فوقع الرعب في قلوب المحصورين لما يعهدون من بسالة اودينانوس واقدامهِ ودقة معرفتهِ الحربية وكان بليست قد لجأ الى حمص ايضاً فنهض كوتيوس وقتلهُ ورمى براسهِ للمحاصرين من على الاسوار ثم فتح الابواب الى اودينانوس فدخلها ورفق الفاتح بالعصاة من الاهلين ولم يلحق بهم ضرراً ولما بارحها خاف بليست غائلة قيامهِ بدعوة ماكرنيوس ولذلك لبس الارجوان ودعى نفسهُ قيصراً لا يحكم غير ضمن اسوار المدينة فلم يعبأ احدٌ بهِ

وقتل اودينانوس فتقلدت ارملتهُ زنبوبيا زمام الاحكام فسر السوريون بحكمها لانها من بنات الوطن البالغات في الحكمة شأواً عظيماً وكان بدء حكومتها بالوكالة عن ابنها منابالاتوس الا انها ما لبثت ان جعلت نفسها اصيلة وتلقبت بملكة المشرق واخذت تغزو البلاد الرومانية حتى فتحت مصراً ولقبت ابنها اغوسطس فاغتاظ القيصر اورليانوس وكان قد عزم على ارجاع شأن السلطنة الرومانية وتعزيز كلمتها وجاء فحاربها وكسرها وفتح بلدتها وقادها اسيرة الى رومية تغل في القيود

والظاهر ان اورليانوس لم يشأ ان يرى دولة اخرى تناظر دولتهُ العظيمة في علو الشان ونفوذ الكلمة فاعمل على نزع سطوتها بالقتال وقد فاز بمرغوبهِ فاحرم سوريا ما املتهُ من التمتع ولو قليلاً بلذة الاستقلال عن الاجانب فعادت البلاد باسر مليكتها الى عبوديتها كانهُ قد كتب لها الا تحكم نفسها

ولما مات اورليانوس صار تاسيتوس قيصراً فولى ماكسيمين على سوريا الا ان صفات هذا الوالي لم تكن كصفات مولاهُ فاهتاج الاهلون من سوء تصرفهِ سيما وانهم كانوا خارجين بالسيف من حكومة وطنية فنشروا راية الثورة بعد

ان قتلوا الوالي المذكور على ان الذين قتلوهُ خافوا نقمة القيصر فساروا الى ملافاتهِ في اسيا الصغرى فلما جاءها وثبوا عليهِ وقتلوهُ فقام اخوهُ فلوريانوس مكانهُ فقتل فخلفهُ بروبوس فجاء سنة ٢٧٩ م الى سوريا وسار الى القفر الفاصل فلسطين عن مصر ليقاتل البلميين الذين يسكنونهُ ثم عاد الى اوربا مقلدًا ساتورنين بالمحافظة على المشرق قيل انهُ بنى مدينة اخرى اسمها انطاكية الا ان بعضهم يظن ان ساتورنين وسع عاصمة سوريا ورمم انقاضها وبعد حين نودي لساتورنين قيصرًا في الاسكندرية على انا لا نعلم الى اية جهة انحازت سوريا ولا ما كان من الحدود بين الفرس وبينها عندما جلس ديوكلاتينوس على العرش الروماني

وكانت الدولة الرومانية مع بسطتها وعظم اقتدارها لا تعرف الراحة ولا تألف السكون ذلك لان كثيرين من مجاوريها كانوا يشنون عليها الغارات فيربحون تارة ويخسرون اخرى فلما جلس ديوكلاتينوس على العرش راى ان ياتي بنظام جديد ليردا فيهِ التعديات الكثيرة عن اطراف السلطنة فقسمها وتولى بنفسهِ احكام القسم الشرقي وتلقب باغسطوس وتولى شريكهُ كالاريوس قيصر احكام الولايات الالرية وقبض مكسيميانوس على احكام ايطاليا وافريقيا والجزر وقام قسطنطيوس بامر الولايات الغربية كاسبانيا وغاليا وبريتانيا فتم بذلك بدء تجزوء السلطنة الرومانية العظيمة وكان تاريخها سنة ٢٩٢ م وفي غضون ذلك تبوأ نرسيس العرش الفارسي فرغب اتباع سياسة اجدادهِ بمعاداة الرومان والغارة على بلادهم ولذلك ناصبهم الشر في ارمينيا فدانت لهُ حتى جاء كاليريوس وكسرهُ سنة ٢٩٧ م فعقد الصلح مع ديوكلاتينوس والظاهر من بعض الادلة ان ديوكلاتينوس كان يصرف وقتًا طويلاً في انطاكية الا انهُ بارحها قبل حادثة اوجين تلك حادثة قيل فيها ان خمسمائة من الجند كانوا على طريق يتامرهم رجل اسمهُ اوجين فنادوا بهِ امبراطورًا حتى اذا جاء احدى الهيا كل نزع رداءً واحدًا من اصنامها

وكان ارجوانيّاً فلبسهُ وسار امام جندهِ الى انطاكية وهي آمنة شر العداة فدخلها ولما صار فيها استيقظ الشعب مندهشاً من صوت القضاة ودعاة الرومان يحرضونهم على الفتك بتلك الفيئة القليلة فمالوا عليهم وقتلوهم عن اخرهم و بلغ ديوكلاتينوس الخبر فشق عليهِ وكدرهُ سوء تصرف السوريين فولى عليهم ماكسيمين اميرًا يقتص منهم عن تلك القسوة البربرية وكان كاليريوس قد مات عن امرأة جميلة المنظر اسمها فاليري فجاءت انطاكية سنة ٣١١ م فعلق مكسيمين بحبها وطلب اليها الاقتران بهِ فابت لانهُ متزوج بغيرها فساءهُ رفضها وامر بها فطردت الي القطر السوري بطريق الفرات وكان السوريون قد نقموا عليهِ شدة جورهِ واتهموهُ بطرح بضعة من نسائهم من النهر وقد انهكهم المكس والتجند لمحاربة الفرس في بلاد الارمن وكادهم ما فعل مع ارملة كاليريوس من القسوة ذلك ما شاركهم في استقباحهِ امرائهُ نفسها فاضطربت البلاد ببعض الشغب والقلاقل مما يظن انها لم تكن تخلو من دسائس الاعداء وتفاقم الخطب بمجاعة وحدوث امراض معدية فاصبحت البلاد من جرى ذلك باضطراب عظيم لم يعبإ ماكسيمين بشدتهِ حيث فتح حربًا لقتال قسطنطين وليسينوس في بيثينيا فلم تكن النتيجة الا انهزامهُ وموتهُ في اسيا الصغرى

وسر السوريون بموتهِ لنجاتهم من آفة احكامهِ وجور تصرفاتهِ فجاء عوضهُ ليسنيوس سنة ٣١٣ م فشرع يعذب ابناء ماكسيمين وانسبائهِ عذابًا اليمًا حتى اماتهم واما ارملتهُ فالقاها من علٍ الى النهر وكانت امراة ديوكلاتينوس قيصر قد جاءت بعد وفاة زوجها فاقامت هي وابنتها فاليري منفردتين الا ان ظلم هذا العاتي وجورهُ حركاهُ الى طلبها ليلحق بهما اذاهُ فهربتا من سوريا وفي اثرهما رسل ليسنيوس يفتشون عليهما حتى ادركوهما فقتلتا في تسالونيك ولم تكن هذه الفظائع وحدها كل ما فعلهُ ليسنيوس الوالي فانهُ لم يترك نوعًا من الجور والقساوة الا واجراهُ فمن ذلك امرهُ الا يدخل احد من انسباء المحكوم عليهم

بالقتل او بالعذاب اليهم وهم محبوسون ولا برسل اليهم ماكلاً او شيئاً اخر
ومن خالف الامر جوزي شر جزاء وكان لا يبقي على حرمة احد ولا يعتبر امرًا
بل صال على اعيان انطاكية ولم يكن لديهِ شيء مصونًا فان السوريون من جورهِ
واشتكوا لكنهم لم يسمعوا حيًّا فسكتوا لكن على غير رضى وقد بلغت منهم المظالم
حدًّا ها فتخلفت قلوبهم عن ولاء حكامهم ذلك ما يسبق الدمار ويسرع بالخراب
وفي سنة ٣٢٤ م عزم قسطنطين على المجيء الى سوريا الا ان القلاقل
الداخلية اقعدتهُ حتى سنة ٣٢٧ م حيث جاءها واقام لامهِ هيلانة المتوفاة تمثالاً
عظيمًا في دفنة واباح حينئذ للسوريين التمذهب بالنصرانية فكانت هذه اباحة
بداءة عصرٍ ديني جديد تزعزعت فيهِ اركان الوثنية من البلاد السورية وكان
في البلاد يومئذ فيلسوفان احدهما يقال لهُ سوباترو والاخر ستراتخ وفي سنة
٣٣٢ م حدث فيها وباء عظيم ومجاعة شديدة غلت فيها الحنطة غلاء كبيرًا
فاشفق قسطنطين من تضور السوريين جوعًا و بعث اليهم احسانًا كثيرًا من
الحبوب تلك فعلة لائقة يمدح عليها الفاعلون ولما توفي قسطنطين اقتسم بنوهُ
الثلاثة السلطنة الرومانية بينهم فكان قونسطانس سلطان المشرق ومن
نصيبهِ القيام ابدًا بالذب عن تخومهِ ليرد غارات الفرس الذين لا يصبرون
عن مناصبة الشر للرومان فما عتم ان علم بمجيء سابور بالجند الى نصيبين
فيما بين النهرين واحاطتها محاصرًا فتجهز قونسطانس وجاء انطاكية سنة ٣٣٨ م
واذا بجيوش سوريا قد خلَّ نظامها وفسد رباطها فاصبح تعليمها ضربة لازب
فبدأ بذلك ليدرّبها على الحرب وابوابهِ ومع دقة متاعبهِ كان قونسطانس
يسر بهِ حتى جاء عن اخرهِ فسار في شهر تشرين الاول مجتازًا حمص و بعلبك
حتى التقى بالاعداء فواقعهم واستلحم فيهم ففاز عليهم فوزًا مذكورًا فتقررت
الراحة والامنية في سوريا سيما وان قونسطانس راى من صواب الراي السكن
فيها لتمتنع الغارة عليها من الاعداء فاصبحت انطاكية زمنًا طويلاً عاصمة المشرق
برمتهِ فزهت بمحاسنها وعظمتها وضارعتها بذلك فرضتها سلوقية لانها فازت

بعناية مخصوصة من اللدن القيصري سيما وانهُ وسع ميناءَها فخصن سفناً كثيرة
وفي سنة ٣٤١ م ابتدأَت الزلازل تتردد على سوريا الا انها لم تلحق بها ضرراً
عظيماً

وحدث في غضون ذلك ان قيصر المغرب قد مات فاشهر ماكنانيوس
راية العصيان ذلك ما الجا قونسطانس الى الخروج من اسيا على انهُ قبل
مبارحتها وفد اليهِ اسقفان من غاليا بعثها اليهِ الطاغية المذكور يستعطفانهِ
للصلح والحلفة فرفض وساطتهما وخرج سنة ٣٥١ م تاركاً زمام سوريا وجوارها
الى كالوس شقيق جوليانوس الجاحد وكان مسجوناً فجاء سوريا واقام فيها
باعباء النصرانية قياماً حسناً فتكدر الوثنيون منهُ وكان ماكنانيوس قد انكسر
ولكنهُ لم يزعن فارسل من يقتل كالوس فاتفق القاتل مع بعض اعداء كالوس
الانطاكيين فاجتمعوا ليلاً في مسكن امراة فقيرة في ضواحي البلدة وبدأوا
يتذاكرون في موامرتهم كانهم في امن من عدوّ طارق او نمام يفشي سرّ اجتماعهم
وكانت صاحبة البيت تسمع كلامهم فلما استوعبتهُ وادركت كنه ما يقولون
اسرعت الى منزل كالوس واباحت لهُ السر فبعث على المتوامرين سريّة من
الجند فقبضوا عليهم واجاز كالوس المرأَة خير جزاء حيث امر فطافوا بها ازقة
انطاكية شأْن المنتصرين اذا رجعوا الى بلادهم ومنذ ذلك الحين لم يلحق خطر
باحد من الامراء وكان كالوس قد رتب جماعة من العيون يدخلون بين
الناس ويحملون اليهِ اخبارهم فاذا عرف بشيء طاف الشوارع ليلا واتى مجتمع
الناس وعلم بما يسرون حتى خافهُ القوم وكان قونسطانس يخشى من كالوس
حداثة سنهِ وقلة خبرتهِ في الامور وعدم تقلبهِ في المهام ولذلك اقام عندهُ في
المصالح الاولى رجالا من المعروفين بالاقتدار وافاض اليهم تبليغهُ ما يفعلهُ
كالوس فتقلصت بذلك سلطتهُ الا انهُ لم يكدرهُ امرها لان بعض المناظرين
كانوا يطلعونهُ على تقريراتهم وهي ملآنة مدحاً لاعمالهِ وثناء على صفاتهِ وبعد
حين حدث في انطاكية جوع شديد سنة ٣٥٤ م فاراد كالوس الاحسان

على الجائعين فامر بتخفيض اثمان الماكول فلم يرضَ الباعة بذلك وطلبوا العود الى ما كانوا عليهِ فحنق ودعاهم الى مجلس كان اعضاءهُ من اهل البلد فحكموا على المعترضين بالقصاص الصارم فاعترض هونوراتس على الحكم وجد حتى فاز بهدم تنفيذهِ اما كالوس فعزم على الخروج من انطاكية حنقًا فخرج الجمع ووقفوا في طريقهِ يرجونهُ العدول عن مقصده ابقاء على الاهلين الذين كادوا يموتون جوعًا فاجابهم كالوس ان ثيوفيل صار واليًا على البلاد وهو قادر على اجراء ما ينفع الناس فاطمان القوم من كلامهِ وسار كالوس الى هاليبوليس اي بعلبك واصبحت مهام الامور بيد ثيوفيل وكان غير قادر على اعالتهم وليس بناظر سوء حالتهم سيما وان مصابهم لم يؤثر بهِ لانهُ كان يقضي وقتهُ باللعب والسرور وبينما هم في ضنك وشقاء فاهتاجوا من تهاملهِ وسوء تصرفهِ وهاجموهُ في دارهِ بغتة وقتلوهُ وساروا بعد ذلك في المدينة يطلبون مثريًا اخر كان يتنعم في غناهُ وكادوا يوقعون بهِ وبابنهِ لو لم يهربا تاركين ثروتهما للقوم الهائجين

ثم عاد كالوس وظن بنفسهِ مستقلا لان ثيوفيل كان قد قتل ومات غيرهُ من الاعيان حيث لم يعد ينازعهُ احد في ادارتهِ الداخلية وكان الامبراطور قد امرهُ مرارا ان يحضر لديهِ فلم يطع الامر بل ظل مقيمًا في انطاكية يحكمها مع كل سوريا بلا معارض او منازع ثم جاء مامور للمالية من لدن قونسطانس فمر من امام قصر كالوس فلم يات اليهِ ليخبرهُ بتعيينهِ مامورًا فكدر كالوس تصرفهُ وكان اسم ذلك المامور دومينيانوس فما لبث ان ابتداء يطلب من الناس ان يشكوا اليهِ ما يريدون ضد كالوس ليعرض ذلك الى القيصر ثم عرضت لهُ مهمة لدى كالوس فجاء اليهِ وقال لهُ بعبارة مختصرة ان يسرع بالاهبة ليخرج من سوريا والا فيتم خروجهُ جبرًا وكان قونسطانس قد طلب الى كالوس ان يقل شحنة انطاكية ففعل ولم يكن عندهُ يومئذ غير بضعة من الحرس فباح لهم كالوس بسرهِ وطلب اليهم الايقاع بدومينيانوس جزاء لقحتهِ

واقام مونتيوس رئيساً فتقدم مونتيوس الي الجند واعمل على تغيير قلوبهم عن كالوس فشعر كالوس بذلك واقسم علي الجند بالطاعة واقام عليهم اوسيكوس وامرهم بالقبض علي مونتيوس ففعلوا وغلّوهُ بالقيود ثم جاءوا بدومينيانوس وزجوهُ معهُ ثم قتلوهما ورموا بهما الي العاصي وبينما كان مونتيوس في حالة النزع تلفظ باسمي ابيكونيوس واسبيوس فسمع كالوس الاسمين ولكنهُ لم يعرف الشخصين المقصودين فاتهم ابيكونوس الفيلسوف واسبيوس الخطيب بالشغب عليهِ فقبض عليهما وزجهما بالسجن وكان القيصر قد بعث الى انطاكية رجلاً مشهوراً بالبسالة والاقدام اسمهُ اورسيسين فلما جاء انطاكية بدا يخاطب الامبراطور سرّاً بما كان يجري في سوريا فلما كان يوم الحكم جلس اورسيسين في منصة القضاء وقد غص المحفل بالقضاة وجاءت قونسطنطينا سرّاً لتسمع باذنيها محاكمة المتهمين فادخل ابيكونوس اولاً وعذب فاقر بذنبهِ ثم جاء اوسبيوس وكان معتاداً على المحاكمات فدافع عن نفسهِ باقدام وبدأ يظهر عدم الاستقامة فساء كالوس ذلك وامر بعذابهِ حالاً اما اوسبيوس فما انفك على حالهِ يدافع عن نفسهِ غير مبالٍ بعذاباتهِ فحكم عليهِ وعلى رفيقهِ بالموت ثم جاءوا بشخصين اسمها اوانيار احدهما لانهُ نسيب دومتيانوس والاخر لتهمةٍ نحوكما وصدر الامر بنفيهما من البلاد فخرجا حالاً واذا بقوم هجموا عليهما وقتلوهما وكان ذلك بايعاز كالوس

اما قونسطانس فلم يحفل بما سمعهُ عن هذه الاعمال البربرية بل كان جل همتهِ الطمانينة على سلطنتهِ في سوريا والتخلص من استبداد كالوس بامرها وكان يحرضهُ على ذلك قوم من الخصيان المحتالين وغيرهم ويزيدون لهُ الامور ليبلغ وطراً فاعارهم سمعاً ولذلك لم ينم من وشاياتهم الا على شوك القتاد تلك حالة الحكام الذين يسمعون للمنافقين ويميلون للمملقين الكاذبين فلم يرَ بدّاً من التحيل على كالوس لياتي بهِ اليهِ سرعة فكتب لهُ ان اضطرابات الغرب تستدعي مشورات كالوس وبسالتهُ ولم يكن ريب بنجاح هذه الحيلة

لو لم يمل قونسطاس اذنهُ للوشاية ثانية بمن كان في فكرهِ يجعلهُ عوضاً عن كالوس فان رئيس فرسان قونسطانس وواحد من كبار خصيانهِ كانا يحسدان من اورسيسين تعاظم قوتهِ ورفعة منزلتهِ فسعيا الى القيصر فيهِ حتى اوجس منهُ شرًّا فطلبهُ لينظم حملة على الفرس فلبي اورسيسين الطلب واما كالوس فلم يرغب فيهِ الآن امرأتهُ سبقتهُ الى هنالك مؤملة الفوز على اخيها قونسطانوس لكنها ماتت في بيثينية قبل ان بلغت غاية سفرتها وفكر كالوس بعد ذلك بعجزهِ عن مقابلة قونسطانوس لانهُ غير آمن من جندهِ وبدا يفكر بالمجيء الى العاصمة وبينما كان في حيرتهِ جاء من القيصر مامور كان غاية في الحيلة والتدبير فتغلب على تمنع كالوس حتى الزمهُ الرحلة للقسطنطينية فسار اليها ولم يلقَ في طريقهِ غير المسرة والانشراح فانستهُ رحلتهُ مخاوف نصيبهِ وما انفك كذلك حتى صار الى نوريك حيث التقاهُ مامور قيصري وخلع عنهُ علامات منصبهِ ثم حوكم امام لجنة عسكرية فحكمت عليهِ بالقتل فقتل سريعاً ولم يزد عمرهُ التسعة والعشرين

وما نجت سوريا من وبال كالوس حتى جاءها جور قونسطانس بارسال موسنيانوس ماموراً يفحص عن قتلة دوميتانوس ويقتص منهم فلما علم القتلة بذلك جاءوا بالمال الوافر الى موسنيانوس فغض عنهم النظر بائعاً العدل بالمال ذلك شان الخائنين

وفي سنة ٣٦٠م جاء القيصر قونسطانس الى سوريا ذاهباً الى حرب الفرس فمر بانطاكية وخرج الناس الى لقائهِ ورحبوا بهِ واقام فيها زمناً طويلاً متنعماً برخاء عيشها وبسطة سكانها وكان منصب ولاية سوريا فارغاً فاستعمل عليها هلبيديوس وكان رجلاً بسيطاً غاية في العدل وفي سنة ٣٦١م خرج قونسطانس الى ما بين النهرين

وكان قد شبَّ في جرمانيا حرب فارسل قونسطانس اليها رجلاً مشهوراً بالبسالة والاقدام هو جوليانوس شقيق كالوس فلما فاز دعاهُ جندهُ اوغسطوس

ونادوا بهِ قيصرًا فعلم قونسطانس بذلك واضطرب اضطرابًا عظيمًا وعاد قاصدًا ملاقاتهُ مخاطبًا جيشهُ بما لافاهُ من قسوة كالوس وكنود جوليانوس وغير ذلك فاتقدت حمية عسكرهِ وعدوهُ بمحاربة المختلس ثم دخل انطاكية متكدرًا من حلم راَهُ وكان الوقت شتاء فسار بعسكرهِ وهو متشائم فلما بلغ سفح طوروس فاجأتهُ المنية ومات

فلما خلا الجو لجوليانوس واستبد في السلطنة الرومانية عزل هلبيديوس عن ولاية سوريا لانهُ كان نصرانيًا وبعث اليها واليًا اسمهُ ساليستوس وفي سنة ٣٦٢ م جاء جوليانوس المشرق ورغب الفرجة على عاصمة سوريا فلما صار على مقربة منها خرج اليهِ كثيرون من اهلها كانوا من الوثنيين ورحبوا بهِ لانهُ اعاد الى السلطنة عبادة الاصنام فسر القيصر بذلك حتى اذا دخلها امر باحتفال ذكرى موت ادونيس ذلك يوم مشهور عند الفينيقيين كانوا يحتفلون بهِ عيدًا عظيمًا يقيمونهُ على ضفة نهر ابراهيم المسمى يومئذٍ باسم ذلك المعبود وصرف القيصر ايام الشتاء في انطاكية ينظر في امورها ويدبر مهامها سيما المسائل الحقوقية فانهُ صرف الغاية جهدهِ على انهُ لم يمل قط عنها الى المسرات والنعمات التي اعتاد عليها غيرهُ بل ثابر مجدًا على القيام بما ندب اليهِ مقتنعًا ببساطة العيش غير مائل الى الفخفخة ولا عامل بها الا اذا سار في حفلة الى مقام معبوداتهِ وكان مجلسهُ غاصًا بالعلماء والفلاسفة الا ان القديس يوحنا فم الذهب يصفهُ بما راهُ في ظاهرهِ من البذخ في المصرف والفخفخة في الحفلة غير آخذ على ما قيل بما كان من حقيقة امرهِ

وخرج جوليانوس الى الجبل الاقرع (كاسوس) وقرَّب عليهِ الضحايا لجوبيتر زعيم معبوداتهِ ولما اتم ضحيتهُ تقدم اليهِ رجل وانطرح على قدميهِ طالبًا عفوًا فسالهُ القيصر عن اسمهِ فقال لهُ انا ثيودوت حاكم هيرابوليس الذي اهاج غضب قونسطانس عليك فاصغى جوليانوس اليهِ حتى صار عن اخر كلامهِ فقال لهُ لقد علمت بما جئت تقولهُ فعد الى مكانك ولا تخف ملكًا من

همهِ زيادة عدد اصحابهِ واضعاف اعدائهِ . ثم جاء هيكل دفنة وضحى فيهِ الا انهُ راى ارجاع الوثنية الى سوريا يكاد يكون ضرباً من المحال لان الديانة المسيحية كانت قد اخذت تتأصل بين الناس

وسر القيصر من انطاكية فجعل عدد اعضائها في السنا نحو مائتين واباح للاهلين حرية انتخاب قضاتهم الحديثين فلم يحفل الانطاكيون بهذه النعمة حتى كدر ذلك جوليانوس وكاد يسترجع امرهُ

وحدث في غضون ذلك ان حريقاً هائلاً انتشب في هيكل ابولون في دفنة وان جوعاً انتشر في المشرق فساء القيصر امرها واضطر الى بارحة البلاد ولم يكن لتلك المجاعة من سبب الا مطامع النظار وغيرة جوليانوس الفائقة حد الادراك فانهُ لما جاء انطاكية انعم على اهلها بالسماح بكل البقايا وبتخفيض المكوس والجباية اربعة اخماس فيئتها الاصلية

ولما بدأت المجاعة ضرخ الشعب يطلب الرحمة فاصغى الامبراطور اليهم واوعز الى الاغنياء باسعافهم فتمادى الحال والقيصر غير عارف بشقاء الشعب فاسمعوهُ النداء ثانية فاضطهد المثرين وصادرهم وعين للماكول سعراً بخساً يبتاعهُ الجائعون بهِ وبعث على مصرفهِ قوماً الى اقاصي سوريا يبتاعون اربعمائة الف كيلة من الحنطة وبعد غيابهم مدة ورد من مصر اثنان وعشرون الف كيلة اشتراها الناس قبل ان بلغت مكانها وكان القيصر قد اقام من يناظر على بيع الماكولات للفقراء الجياع فساء التجار ذلك وفضلوا الرحلة على الالتزام ببيع بضاعتهم بثمنها البخس وزادت تشكيات القوم حتى كدرت جوليانوس فاصغى لدسائس بطانتهِ الذين حملوهُ على الامر بالقبض على اعضاء السنا الانطاكيين لكن ليبانوس السفسطي كان صديقاً لجوليانوس فالتمس اليهِ العدول عن اجراء هذا الامر الملآن ظلماً فتكدر مشيرو الامبراطور من ليبانوس وتوعدوهُ في حضرة مولاهم بالقتل ان لم يكف عن الالحاح بظلامهِ فلم يبل عن مشورتهِ حتى فاز بالرضاء عن ابناء جلدتهِ الذين ظلوا غير

راضين عن حكومتهم كل ذلك الشتاء

فكتب جوليانوس كتابًا سماهُ ميسو بوهون او الكتاب الانطاكي اودع فيهِ كل ما كان يفعلهُ من الخير مع الانطاكيين وما قابلوهُ بهِ من الكفران بنعمتهِ وخرج من انطاكية غاضبًا الا ان الشعب ودعهُ الى امدٍ وهم يلتمسون اليهِ الاَّ يغتاظ بل يعود اليهم فلم يصغَ جوليانوس لمقالهم وسار تاركًا لهم واليًا يقال لهُ الكساندر وكان رجلاً عاتيًا فقال جوليانوس ان الكساندر لا يستحق الخطة التي تقلدها لكن الانطاكيين يستحقون من كان من نظرائهِ لشحهم وصلفهم وبعد حين عرف جوليانوس بعقد موامرة عليهِ اشترك فيها بعض العسكر فقبض على المتوامرين وعفى عنهم فلما وصل الى هيرابوليس ترأس على الجيش وسار مسرعًا فعبر الفرات ودهم الاعداء وهم لا يشعرون فما زال يحاربهم حتى جرح فمات ولما علم الانطاكيون بمصرعهِ سروا سرورًا عظيمًا ولم يبكهِ منهم الا صديقهُ ليبانوس السفسطي لانهُ كان قد فاز من نعمائهِ بشهرة في الخطابة

وكانت مصالح السلطنة يومئذٍ على شفا الخطر فانقذها جوفيانوس بعقد عهدة مهينة كان لا بد منها ومن ثم بذل غاية جهدهِ باعادة الامن للبلاد والراحة للكنيسة وكان سلوك سلفهِ داعيًا لاثارة الفتن الدينية والمخاصمات المذهبية فنهض جوفيانوس ونشر راية الصليب المقدس وسار من ما بين النهرين الى انطاكية وبعث منذ لبسهِ التاج القيصري برسالة الى كل الولاة ما كها اقرارهُ بالعقائد النصرانية واتخاذهُ الدين المسيحي دين السلطنة الرسمي فنالت النصرانية في ايامهِ نصرًا كاملاً الا انهُ نشر كتابة اباح فيها حرية الاعتقاد وابان للوثنيين اقتدارهم على القيام بفروضهم الدينية وهم في امن مما يحذرون

ولما وصل الجند الى انطاكية لم يطل فيها القيام حتى امروا بالرحلة لان القيصر كان يطلب الوصول الى القسطنطينية لقضاء بعض المهام فما ادركها بل مات في غلاطية سنة ٣٦٤

وقام في خطتهِ فالنتنيانوس فاصدر امرًا بعقوبة الولاة الذين يامرون الفلاحين بالقيام باشغال عمومية حيث يتركون حقولهم عقيمة لان بقعًا مخصبة من البلاد كانت في بدء ايامهِ غير ذات جدوى وحتم على الفلاحين التشاغل بارزاقهم دون غيرها

وكان في جوار اباميا بلد يقال لها ماراتوكوبرس كان اهلها على غاية من الشقاء والاحتيال حيث كانوا ينهبون ويسرقون ويقطعون الطرقات ويرتكبون الاثام بالحيلة والغدر حتى اصبحوا مصدرًا لقلق كل المدن التي تجاورهم فلما تمادي حالهم وعلم القيصر بهم امر فاحاطهم العسكر وقتلوهم عن اخرهم

وكان فالينوس شريكًا لاخيهِ فالنتنيانوس في ملكهِ وقد عزم على المسير في محاربة الفرس فمر في انطاكية سنة ٣٧١ م وقضى فالينوس الشتاء مرارًا في هيرابوليس وفي سنة ٣٧٣ م اقام حفلة للسنة الثانية من ملكهِ فوفدت اليهِ هدايا كثيرة من البلاد الا ان راحتهُ لم تكن ذات امد طويل لانهُ اكتشف بعد حين على مؤامرة غرضها خلعهُ عن العرش القيصري واقامة رجل اسمهُ ثودور مقامهُ فصادر المتهمين واثخن فيهم قتلًا ونهبًا

وفي سنة ٣٨٢ احس فيلاكريوس والي المشرق بروح ثورة فبدأ يعامل الناس بقسوة وجفاء وكانت قد حدثت مجاعة شديدة جدًّا كان الاهلون يلقون تبعتها على عاتق المامورين وينهددونهم بالقتل فراى فيلاكريوس ان يقتل بعضًا من الاهلين المشاغبين فالقى القبض على كل الخبازين وسير بهم الى احدى محال المدينة وقد غص بالشعب فسئلوا عن المامورين الذين رفعوا اسعار الخبز فهرج الشعب لكن ليبانوس جاء فاسكن قلقهم وحمل الوالي على العفو عنهم واخلاء سبيلهم ولولاهُ لحدث الشغب يومئذ وكان عظيمًا

وكان عدد سكان انطاكية يومئذ مئتي الف نسمة خلا الغرباء الكثيرين الذين كانوا يترددون اليها للتجارة وقد اصبحوا مع الاهلين مزيجًا كثرت مشاربهم واختلفت عاداتهم لذلك لم يكن لهم رغبة في الصالح العام ولا دربة

في تفصيلهِ

ولما كانت سنة ٣٨٧ م راى القيصر ثيودوسيوس ان يزيد الخراج على الانطاكيين فلما عرفوا بهِ رسمًا هرجوا وخرج بعض اعضاء السنا اليهم وحرضوهم على رفضهِ فزاد القلق وسار الجمع قاصدين دار الندوة وفيها الوالي وحاكم البلد ورغبوا فتح الابواب فامتنعت عليهم فذهبوا منها الى دار واحد من اعضاء السنا كان قد تخلف عن موافقتهم وفيما هم ذاهبون انزلوا تمثال القيصر وبعض سلفائهِ ورموا بهِ الى الارض وكسروهُ ثم حملوا على بيت السناتور المتخلف عنهم فاحرقوهُ وكان الوالي وحاكم البلد قد جمعا الجند فسارا بهم على الثائرين فلما احسوا بالقوة هربوا وقبض الجند على روساء المشاغبين وعذبوهم وقتلوا كثيرين وما صار الليل حتى خمدت الثورة لكن نتائجها كانت مقتل كثيرين من الناس ولما علم القيصر ثيودوسيوس بعث باثنين من قادتهِ ليقتلا من الانطاكيين خلقًا كثيرًا فعارضهم كثيرون بالرجاء والتوسل حتى شفق احدهم وسار الى القيصر يرجوهُ عفوًا ولحق بهِ احد الاساقفة فالتمسوا من القيصر العفو عن الجانين فعفى

قيل ان مدينة سلوقية بعثت الى القيصر وفدًا ترجوهُ العفو عن المذنبين ايضًا

ولما سكن هذا الشغب عادت الامنية الى سوريا فرتعت في الراحة زمنًا طويلاً حتى سنة ٤١١ م حين هاجمتها بعض القبائل من البادية وارتدوا عنها على انا لا نعرف تفاصيل تلك الغزوة وفي سنة ٤٣٩ جاءت الامبراطورة ايودكسيوس زوجة ثيودوسيوس الى سوريا زائرة القدس الشريف فمرت بانطاكية والقت فيها خطابًا بالثناء على البلدة وانعمت على اهليها بالمال الوافر

وكانت انطاكيــة لا تنفك محتاجة نعماء القياصرة لانها قائمة في بقعة بركانية ولا تنفك الزلازل عن نطرقها ودك بناياتها ودورها وفي كانون الثاني سنة ٤٤٧ م حدث ذلك الزلزال العظيم الذي بلغ القسطنطينية لشدتهِ فابلى بانطاكية بلاءً شديدًا وهدم قسمًا كبيرًا منها وتكرر بعد نحو عشر سنوات

من حدوثه فاندكت صروح المثرين ودور الصناع الماهرين حتى كادت المدينة العظمى تصبح قاعًا صفصفًا سنة ٤٥٨ م وكان شعبها السوري غاية في التعصب والتمسك بالخرافات فنسبوا هذا البلاء لاتخاذهم عادات جديدة لم يكونوا معتادين عليها فجاءتهم بسخط المعبودات:

وكان يتولى السلطنة يومئذٍ الامبراطور ليون فمدوا للمدينة يد الاسعاف ونشط اهلوها لاعادة بنائها وعفى من الخراج وسائر المكوس كل من اهتم ببناء ما تهدم لهُ وانعم على المدينة بمبالغ وافرة وفي سنة ٤٧٦ صارت كابلا وهي بلدة اخرى في سوريا الى ما صارت اليهِ انطاكية فاسعفها حاكمها باسيليكوس الروماني بالمال الجزيل وفي سنة ٤٩٤ م عادت الزلازل فابلت بسوريا وفعلت في هيرابوليس وانطاكية ولاذقية فعلاً مريعًا وكان في انطاكية يومئذ شغبٌ مصدرهُ قيام بعض الاشقياء على الوالي كاليوبوس ليقتلوهُ ففرَّ هاربًا فراى انسطاسيوس ان يعيد الراحة للبلاد قبل ترميم البلدة فبعث اليها رجلاً مشهورًا بالاقدام يقال لهُ قونطسانتيوس فجاءها واحسن القيام بما انتدب اليهِ

ورتعت سوريا في الجيل الخامس براحة وسلام ولم تكن الغارة على تخومها الا نادرة فان في سنة ٤٥٠ م كان الفرس يتحاملون على الارمن بالشر والمضرة فاستنجد الارمن بالرومان فانجدهم والي المشرق وكان سوريًا وفي غضونها كان بعض العربان يغيرون على الحدود فانكسروا عند دمشق وعقد الصلح فيها ثم عادوا في اواخر الجيل سنة ٤٩٨ م يشنون الغارة الشعواء علي بلاد الفرات فاقتص الرومان من جسارتهم

وكان في اواسط الجيل الخامس ان زينون تزوج بابنة القيصر ليون وجاء بها فسكن انطاكية سنة ٤٦٩م وصار واليًا على المشرق فلما مات ليون خلفهُ على العرش صهرهُ زينون الا انهُ لم يكن قادرًا على التملص من حيل القصر ومداخلات القوم فارسل ايلوس اميرًا على المشرق واباح لهُ استخدام من

اراد من عظماء العاصمة فاكتسب ايلوس سنوح الفرصة وسار بحفلة من اعيان القوم وعظمائهم وفي عزمهِ الثورة على القيصر زينون مستنداً الى اسعاف ارملة الامبراطور ليون التي كانت مسجونة باحدى قلاع كيليكية فلما وصل ايلوس الى محبسها اخرجها وسار بها الى ترسوس فامضت نطقاً ما آلهُ انها اقامت لينوس قيصراً وخلفت زينون فاثر ذلك في المدن السورية لانها صارت بين امرين احدهما ان لينوس سوري والآخر انهم راضون عن زينون واما لينوس فاختار انطاكية عاصمةً وسار اليها فدخلها سنة ٤٨٤ م ورتب امورها وحشد عسكر الولاية فبلغ سبعون الفاً من الابطال واقام ليلابانوس ماموراً ثم سار لينوس وبصحبتهِ ايلوس صديقهُ بهذه العساكر الى شالسس موطنهِ فاخذها الا انهُ لما علم ان اونجانوس اخا زينون قادم الى انطاكية سار اليها ليذب عنها فالتقى العسكران عند المدينة وانتشب القتال فانكسرت عساكر اونجينوس ووقع فيها الفشل وقبض لينوس عليهِ واخذهُ اسيراً ثم سار الامبراطور السوري وصديقهُ ايلوس نحو اسيا الصغرى فالتقيا بجيش قادم من القسطنطينية فحارباهُ وانكسرا فلجأ الى قلعة في كيليكية وحُصرا فيها ثلث سنوات الى ان سلمت للرومان بخيانة فقتل لينوس وايلوس واما سوريا فلم تحفل بقيصرها بل تناست امرهُ حال خروجهِ من بلادها واصبح بنوها لا يكترثون بنصرهِ او كسرهِ حتى انهُ لما جاءهم نباء فشلهِ ومقتلهِ لم تحركهم الحمية للثورة بل ظلوا في طاعتهم العمياء للرومان لانهم راوها ضربة لازب واما زينون فلم يقتص منهم لتخلفهم عن طاعتهِ شأن سلفائهِ بل تناسي حالهم والظاهر ان القوم السوريين وبالاخص الانطاكيين كان يشغلهم عن سياسة هاتيك الايام انهماكهم الشديد بالاقتتال في المراسح تلك عادة كانوا يمارسونها وهم في امن من زجر الحكومة فكانت حرباً وطنية تنشب مخالبها في كثيرين من الاقوياء حتى اصبحت ضربة على الهيئة الاجتماعية واما اليهود فكانوا معرضين لاهانات وفظائع تنفر منها الانسانية ويمجها الذوق السليم وياباها الدين الصحيح والعدل وكان يقوم

بها قوم من رعاع الناس الذين اعمى الجهل قلوبهم وختمت العصبة الدينية على ابصارهم فلا يسمعون لمنادي التمدن ولا ينظرون المبادئ الدينية الصحيحة متجاهلين ماحق لمساكنيهم من الاسوة بانفسهم غير وافين حق الوطنية واما اولئك المظلومون المضطهدون لانهم على غير دين ظالميهم فكانوا يصرخون ولا مجيب ينادون ولا من يسمع يستغيثون ولا يغاثون كان الحكومة السائدة عليهم لم تكن الا لتقبض منهم مكوسها او تقتص منهم غير ناظرة الى شكواهم تلك حالة تنتج في الرعية النفرة عن راعيها والتخلف عن طاعته مع ترقب الفرص للمرق من ظلمهِ الماحق

وفي غضون ذلك حدث في سوريا مجاعة شديدة كانت كجزاء لمظالم شعبها فضاق بهم الامر وشكوا الى قيصرهم فلم يكن من احسانهِ الا ما زهد وزاد الامر اشكالاً بغارة العربان على التخوم الفراتية حيث عقد انسطاس معهم عهدًا

وفي سنة ٥٠٧ م هاج الانطاكيون وقتلوا كثيرين من مواطنيهم اليهود وكان يتولى المشرق يومئذٍ رجل من اورفا اسمهُ باسيل فلم يهتم بالخطب فساء ذلك انسطاس واقتص منهُ وامر فخلع عن منصبهِ وتولى عوضهُ بروكوبوس وصدر الامر ان يقتص من قتلة اليهود فذهب عاملهُ فياس وقبض في انطاكية على واحد من زعماء الاشقياء وقتلهُ ورمى بجثتهِ على العاصي فاهتاج الناس من ذلك وحملوا الجثة وطافوا بها فاجتمع اليهم خلق كثير وساروا الى قلعة المدينة وحصروا فياس فيها واسروهُ وقتلوهُ وعرضوا جثتهُ للاهانات الكثيرة . فلما احس بروكوبوس بالامر فرهاربًا وعلم القيصر فبعث عوضهُ ايرنيس فقبض هذا على العتاة واقتص منهم ولم يقاومهُ احدٌ وبعد حين ابطل افراموس حاكم انطاكية الملاعب الاولمبية في دفنة والغى قيام المامورين الذين يتامرون الحفلة فسكن الهياج وامنت البلدة

وفي سنة ٥٢٦ م انعم الامبراطور جوستينوس على الانطاكيين بمبلغ عظيم من المال ليصلحوا بهِ شؤونهم ويرمموا ما اتلفت النار من بلدتهم لان

حريقاً هائلاً كان قد شب فيها فابتدا العملة يعملون حتى كادت المدينة تعود الى هيئتها واذا بزلزال عظيم حدث في ٢٩ ايار مادت به الارض مبداً فدكت الدور وقلبت الاحياء ولم تبقِ على عمار. وكانت الساعة وقت اعداد الطعام والنيران في البلدة تزكو فعلقت بالمواد وصار حريقاً مريعاً اتم خراب ما ابقتهُ الزلزلة وكان الريح عاصفاً فحمل لهيب النار المتقدة الى اقصى الاحياء واحاطت النار يومئذٍ بالكنيسة الكبرى الا انها تغلبت عليها لانها كانت من الرخام والذهب ذات متانة مذكورة

وكان في جبال سوريا الشمالية وسهولها قوم من الرومان والبربر جعلوا دابهم السلب والنهب فلما سمعوا بمصائب انطاكية جاءوا اليها افواجاً واحاطوا بها وسلبوها ما ابقتهُ النار سالماً وثار في المدينة نفسها قوم ذبحوا بعضاً من ابناء جلدتهم جدولوا بحفظ متاعهم من افة النار والسلب وكان واحد من المامورين اسمهُ توماس قد جمع حولهُ بعض الرعاع وطاف بهم لينهب كسائر اللصوص ويحشد السلب في دار لهُ على بعد ثلاثة اميال من البلد فلما جاء اليوم الرابع على عملهِ اصيب بمرض فجائي فمات تاركاً اسلابهُ للانطاكيين المنكودي الحظ وقد ظن بعض الكتاب يومئذٍ ان عدد الذين اهلكتهم هذه الصروف يزيدون على مائتي الف نسمة ورووا ان بعضاً ظلوا تحت الردم حيث كانوا ياكلون ما جاءت بهِ الصدفة لجانبهم وقد حدثت الزلزلة ذاتها في سلوقية ودفنة وفعلت فيها ذريعاً

اما الامبراطور فساءهُ مصاب سورية سيما لانهُ كان يحب انطاكية كثيراً فبعث اليها والى سائر القطر اسعافاً حمل اولهُ اليهم كارينوس. ولم يمضِ على هذه الحوادث سنتان ان دهمت انطاكية سادسةً بزلزال هائل عاد بها الى الخراب وكان من نتاجهِ حريق عظيم كالمرة السالفة فهلك نحو خمسة الاف من الاهلين واما سولوقية واللاذقية فكان نصيبها كاختها اذ هلك فيها نحو سبعة الاف وخمسمائة نفر فاستعظم الاهلون الخطب ولكي يحتر زوا من اعادته

في الاستقبال اشار عليهم ناسك ان يسموا انطاكية ثيو بوليس اي مدينة الله

ولما تولى جوستنيانوس الخطة بدأ يحصن بعض المدائن الشمالية في سوريا لانهُ ظن ان تحصينها وقاية للبلاد الرومانية على ان العربان لم يجزعوا من تحصيناته بل كانوا يشنون الغارة على اطراف البلاد السورية قاصدين النهب والغنيمة وفي سنة ٥٢١ م جاء المنذر احد ولاة العرب وغار على شالسيس (قنسرين) وسار نحو انطاكية وعاث في ضواحيها وغنم من هنالك مالاً وافرًا واسر كثيرين ثم عاد الى الفرات ولما كان في طريقهِ قتل كثيرين من الاسرى وتهدد الباقين بذلك ان لم يدفعوا بمدة ستين يومًا فدية اسرهم فكتبوا الى ابناء جلدتهم في سوريا يحثونهم على الاداء فتليت محرراتهم في كنائس انطاكية وجمع لهم مال وافر وارسل على جناح السرعة فلما قبض المنذر الفدية اطلق سبيلهم وبعد ذلك بمدة جاء المنذر سوريا ثانية والفرس من ورائهِ وغار على اليهود غارة شعواء فحاربهم باليسارس عند كالينكوس حربًا ترتعد لها الفرائص وفاز عليهم فارجعهم الى وراء الفرات فظلوا مستكنين الى سنة ٥٢٧ م حيث تجهز المنذر للغارة ثالثة على سوريا ثم عدل عن ذلك لما وصل اليهِ من هدايا الرومان الثمينة

وفي سنة ٥٤٠ م ثار كسروس الفارسي بجيش كثيف وجاء غائرًا على سوريا ففتح سورا اول مدنها التي على الفرات بالحيلة وقيل اخذها مهاجمة واباح سلبها لعساكرهِ ثم راى بين سباياهم امراة جميلة المنظر عليها سيماء الوقار فشغف بحبها وتزوجها ثم اراد ان يحسن الى قومها بعد مصابهم فخاطب كانديدوس اسقف سرجيوبوليس (الرصافة) ان يفتدي اثني عشر الف اسير من السوريين بمائتي دينار ذهبًا فقبل الاسقف ذلك وادى ما تجهز عندهُ من المال فامهلهُ كسرى بالباقي واطلق لهُ سبيل الاسراء على ان اكثرهم كانوا مثخنين بالجراح البليغة فقضوا نحبهم قبل بلوغهم اوطانهم سالمين

وظل الفرس يتقدمون نحو هيرابوليس حتى صاروا على مقربة منها واذا

بالاسقف ميكاس يطلب المثول لدى الملك حاملاً مخابرة الصلح من المدن السورية فكدر هذا الامر الملك الفارسي وعدهُ اهانة فامر الاسقف ان يتبعهُ حتى صاروا امام هيرابوليس فهابهُ منظر حصونها ومناعة اسوارها فعرض على اهليها الا يتعرض لهم بشر بل يشتروا منهُ صلح مدينتهم بالفي دينار فضة فيتركهم ويسير الى الداخلية فتم لهُ الامر وراى ميكاس عند ذلك رغبة الملك في الانكفاف عن القتال والرضى بالمال فبدأ يكالمهُ حتى مال الملك اليهِ وفرض على المدن الاخرى الف دينار ذهبًا ثمنًا لرجوع عساكرهِ من البلاد وسار الاسقف ماشيًا ليخبر الانطاكيين بنتيجة عملهِ وكان الفرس يسيرون وراءهُ على مهل حتى بلغوا اسوار شالسيس ولم يرجع اليهم ميكاس بالخبر وحيث لم يكن قد تم الصلح طلب الملك من اهالي شالسيس ضريبة ثقيلة جدًّا ولم تكن المدينة قادرة على القتال ولا على دفع ما طلب الملك منها فعرضت عليهِ الفي دينار فضة فرفضها وجاء الليل فتوقع الاهلون من الفرس الحملة عليهم فحملوا متاعهم وكل ما يملكون ودخلوا القلعة واغلقوا ابواب المدينة فلما كان الصباح اصطف الفرس للقتال وقربوا من الاسوار فلم يروا بشرًا فعلموا باخلاء المدينة فاحرقوها وبينما هم على هذه الحالة واذا بميكاس قد عاد خائبًا فدخل القلعة وراى الاهلين الذين فيها يقاسون آلام العطش لان الماء الذي كانوا يستقون منهُ قد نضب فساء ميكاس ذلك وجاء متوافعًا على الملك بان يخلي سبيل الاهلين الفقراء فاذن الملك لهم واما الحرس الروماني الذي كان في القلعة فكان يخدم الدولة الرومانية بدمهِ ولا ينال منها ما يقوم باودهِ لان رواتبهُ كانت متأخرة فساءهُ ذلك وفضل التسليم للعدو وعلى البقاء في خدمة دولة لا تفيهِ الاجور في حينها فلما اشتد ساعد كسرى بمن جاءهُ من المدد الروماني سار في جيشهِ يحارب انطاكية فلما عرفت هذه المدينة بقدومهِ ارتاعت جدًّا وكان قد جاءها منذ حين جرمانوس نسيب يوستينوس بشرذمة من الجند عددهم ثلثماية فاقام فيها منتظرًا مجيء الجيش

الذي عرف ان القيصر سيبعث بهِ للذب عن بلادهِ. ومذ دخلها باشر المهمة في تحصينها وترميم اسوارها وقلاعها وكان موقع انطاكية يمكنها من الوقوف تجاه حملات المحاصرين لان نهر العاصي والصخور وغير ذلك من الحصون الطبيعية والصناعية كانت تجعلها حصناً ممتنعاً عن طارقيهِ ولم يكن هنالك الا عورة واحدة عرفها جرمانوس واراد سترها عن الاعداء والانتفاع بها دونهم الا ان الضباط الذين كانوا حواليهِ لم يسعفوهُ بل صار خوفهم داعياً لرغبتهِ وهربهِ الى كيليكيا

فلما فر جرمانوس من انطاكية جاءها ميكاس ونادى باهلها ان يشتروا الصلح بالمال لئلا يضر بهم العدو الباسل فوافقهُ على ذلك كثيرون وابتدأوا يجمعون المفروض واذا بوفد بعث بهِ القيصر اليهم فلما بلغ الوفد البلدة وعرف بما كان يجري ساءهُ ذلك وقال لا يليق بالمدينة الثانية في السلطنة الرومانية ان تشتري صلحاً من محاربيها فلحق بهِ كثيرون حتى خاب مسعى ميكاس وخرج من البلدة مأيوساً وكان ملك الفرس يعهد من الانطاكيين السعي بجمع المال فارسل اليهم سفيراً يقبضهُ فاهانهُ الانطاكيون وردوهُ خائباً فامر كسرى بالحصار وعرف ثغرة السور فجاء منهُ واقام الانطاكيون على الدفاع حتى وقع الرعب بينهم فولوا الادبار نحو دفنة وكانت مامونة من اذى المهاجمين فلما راى كسرى انكسارهم لغير داعٍ ظن ذلك خدعة فلم يامر بالدخول الى المدينة حتى علم بمهاجرة اكثر اهلها فدخلها وراى فيها بعض المصارعين فاقتتلوا واظهر اولئك الشجعان كل البسالة لكن الكثرة فازت عليهم فماتوا من صرد السهام وضرب السيوف واباح الملك البلدة للنهب والحريق حتى اذا راى الوفد الروماني ما كان جاء مضارب الملك وعقد معهُ العهد بالكف عن القتال وبان يؤدي القيصر كل سنة مبلغاً من المال لكن لا كجزية

ومع ان الصلح كان قد عقد طاف كسرى بجيشهِ كل سوريا فجاء سلوقية وذبح عند شاطئ البحر ضحية للشمس التي يعبدها ومر بدفنة فمات فيها واحد

من فرسانهِ فكدرهُ ذلك وللحال امر بالكنيسة فحرقت وسار منها الى افاميا فارتاع الاهلون منهُ حتى اذا صار على مقربة منهم صادرهم بالف من الفضة ليسير من ثم الى ما بين النهرين فاجتمع الاهلون للتذاكر بذلك لكن كسرى دخل بلدتهم وسلب الكنيسة متاعها وحصر الملاعب ثم سار نحو شالسيس ثانية وطلب الى اهليها ان يسلموهُ الحرس فانكروهُ عليهِ فصادرهم بمئتي دينار ذهبًا ورحل عنهم عابرًا الفرات وكان اسراهُ كثيرين جدًّا حتى بنى لهم مدينة مخصوصة سماها انطاكية كسرى

فلما انقضت هذه المصائب بعث القيصر جوستنيانوس بالاموال الغزيرة لاسعاف السوريين المصابين فجدد لهم في انطاكية ما اندثر من الكنائس ووسع مجرى النهر لتزداد مناعة البلد وبلط الاسواق وفرق المياه بالاقنية على الاحياء واحتفر لسكان البلدة العلياء آبارًا كثيرة تكفيهم مونة الاستقاء واقام باصلاحات كثيرة كان اكثرها فخرًا لهُ بناؤهُ ثلاث مستشفيات للمرضى كان احدها للرجال والاخر للنساء والثالث للغرباء وفي سنة ٥٤٢ م تجهز كسرى ثانية لمحاربة سوريا فجاء بليساروس ليصدهُ ومعهُ عدة من الامراء والقادة منهم بوذاس رئيس العساكر الرومانية ابان الحملة الاولى على انهُ كان مختفيًا بين عسكرهِ يقعدهُ الخوف عن الظهور امام الاعداء فلما جاء هذه المرة مع بليساروس قاوم ما ارتآهُ ذلك من وجوب التربص للقاء العدو داخل اسوار المدن فرفض بليساروس مشورتهُ واظهر الثبات والاقدام رغمًا عن مخاوف بعض العسكر حتى اذا شعر الملك بثبات خيانتهِ طلب اليهِ عقد الصلح فظلت سوريا بعد ذلك عشرين سنة راتعة بالسلام والراحة مع ان بلاد ما بين النهرين كانت عرضة دائمة للمنازعات ومرسحًا للخصومات وجاء الرومان فحصروا نصيبين فبعث كسرى جيشًا يرفع الحصر عنها واخر يسير نحو سوريا ليشغل افكار القوم عن تطرق بلادهِ وكان رئيس الفرقة الحاملة على سوريا ادارمانس وعدد رجالها ستة الاف فعبرت الفرات وسارت مسرعة حتى

كادت تدرك انطاكية دون مصادفة من يقاومها خلا بعض قبائل من العربان الذين كانوا على اهبة دائمة للسلب والنهب فلما عرف ماكنوس امير الشرق خاف وفر هاربًا وكاد يقع اسيرًا واما انطاكية فلم تكن ذات حامية ولذلك ولّى سكانها الادبار فاوشكت السقوط مرة اخرى بين مخالب البربر الا ان الفرس خافوها حاسبين انهم يلقون فيها دفاعًا شديدًا فابتعدوا عنها وانوا هيراكلية المجاورة دفنة واحرقوها ولما لم يجسروا على التوغل نكصوا راجعين فخافت اباميه بطشهم وبعثت تبتاع منهم صلحًا فاخذ قائدهم المال وسكن روعهم وامن قلقهم حتى اذا ارتاحوا لقوله دخل بلدتهم فنهبها واسر اهاليها وحملهم مكبلين بالقيود الى عبر الفرات وكان ذلك سنة ٥٧٣ م على ان خطوب سوريا لم تكن من الحروب فقط بل كانت الزلازل تتتابع وتفتك بها زريعًا فان في سنة ٥٨٩ م هلك من جراها ستون الفًا من النفوس

وبينما كانت البلاد تخبط في القلاقل والاضطرابات الداخلية والخارجية ثار فوقاس على موريس وجلس مكانه واراد ان يفعل نفلاً فتوعد اليهود بالقتل ان لم يتركوا شرائع موسى فغضبوا واجتمع الانطاكيون منهم وقتلوا الاسقف انسطاسيوس بحرقه حيًا فهاج الشعب عليهم وذبحوا منهم كثيرين دمًا باردًا كل ذلك شان القساة الطغام الذين يحركهم التعصب ويقودهم الجهل الى ما تنفر منه الانسانية

وحدث في غضون ذلك ان انتقض على هرمز كسرى قريبه بهرام وخلعه واستولى على ملكه وقتله فسار ابنه ابرويز الى موريس قيصر صريخًا فبعث معه العساكر ورد ابرويز الى ملكه وقتل بهرام الخارج عليه وبعث اليه بالهدايا والتحف كما فعل ابوه من قبله مع القياصرة وخطب ابرويز من موريس قيصر ابنته مريم فزوجه بها وبعث معها من الجهاز والامتعة والاقمشة ما يضيق عنه الحصر ثم وثب على موريس بعض ما ليكه لمداخلة قريبه البطريق فوقا فدسه عليه فقتله وملك على الروم وتسمى قيصر فملك ثماني سنين وقتل اولاد

موريكس وافلت صغير منهم فلحق بطورسينا وترهب ومات هنالك وبلغ بروبز كسرى ما جرى على موريكس واولاده فجمع عساكره وقصد بلاد الروم لياخذ بثار صهره وبعث عساكره مع مرزبانه خزرويه الى الفرس وعهد اليه بقتل اليهود وخراب البلد وبعث مرزبان آخر الى مصر واسكندرية وجاء بنفسه في عساكر الفرس الى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها واما خزرويه المرزبان فسار الى الشام وخرب البلاد واجتمع يهود طبرية والخليل وناصرة وصور واعانوا الفرس على قتل النصارى وخراب الكنائس فنهبوا الاموال وعادوا الى كسرى بالسبي وفيهم زخريا بطرك القدس فاستوهبته مريم موريس من زوجها ابرويز فوهبه اياها ولما خلت الشام من الروم واجتمع الفرس على القسطنطينية تراسل اليهود من القدس والخليل وطبرية ودمشق وقبرص واجتمعوا في عشرين الفًا وجاءوا الى صور ليملكوها وكان فيها من اليهود نحو من اربعة آلاف فقبض بطركها عليهم وقيدهم وحاصرهم عساكر اليهود وهدموا الكنائس خارج صور والبطرك يقتل المقيدين ويرمي رؤوسهم الى ان فنوا وارتحل كسرى عن القسطنطينية خائبًا فاجفل اليهود عن صور وانهزموا

وظل الفرس يحكمون البلاد السورية امدًا حتى طردهم منها هرقل بعد موقعتين كانت احداهما في اسوس ثم عاد القيصر فجال في سوريا وقرر عمالها وقبض منهم الاتاوة والخراج

الفصل السابع

الفتح الاسلامي ودولة العرب

لا جرم ان مدار علم التاريخ بيان الحوادث الصحيحة التي صدر منها قيام الامم وهبوطها ومن قواعده المهمة ان يكون مرآة للاستقبال يرى مطالعه فيها الحالة التي يمكن صيرورتها للامة التي استوعب احوالها وعليه لا ريب في ان حالة صارت اليها الدولة الرومانية في الجيل السابع للميلاد كانت موذنة

بانسلاخ قسم عظيم من السلطنة عنها وانحدار سطوتها القاهرة دركات الانحطاط لان سوء الادارة يحمل الرعية على كراهة راعيها والتربص للفرص نجاةً من شر طاعتهِ وقد ظهر مما رويناهُ عن ادارة الرومانيين كيف كانوا يتخذون الغرض الديني سياسة يجرون عليها احكامهم حيث كان الوثنيون من القياصرة يصادرون النصارى ويضطهدونهم ويبلون فيهم بلآءً فاحشًا والقياصرة المتنصرة يغضون عن اضطهاد الوثنيين واليهود حيث اصبح هولاء عرضة للفتك الذريع ولا منجد لهم فابتعد بذلك الوطنيون عن بعضهم بعدًا شاسعًا وتفرقت كلمتهم فصاروا لا يجتمعون على ولاء واحد من الملوك او الحكام بل من يرغب فيهِ الفريق الواحد ينفر منهُ الاخرون فساءت الاحوال واختلت الاحكام وثارت الثورات وقلبت العيال عن اريكتها مرارًا ذلك شان امة لا تحكم من السياسة ارتباطها بل تصير الى الاضمحلال والتجزوء

ومع سوء هذه الادارة الدخيلة على الاحكام الرومانية والحادثة فيها كان الرومان قد جاءوا البلاد منذ الاعصر الماضية بنور المعارف ولذة التهذيب والعدل في الاحكام والاسوة في الشريعة الا ان تباين العقائد وفساد اخلاق بعض القياصرة والعمال قد محى بالتمام كل اثر حسن جاءت بهِ فضائل بضعة من رجال الرومانيين الاولين وكان مصدر هذا الفساد نتيجة العظمة الحربية الاولى لان الامة الرومانية كانت في بدء امرها على جانب من الفضائل كادت لا تعرف في امة سواها لولا اليونان فكان حب القتال والفتح مع كثير من الخصال الحميدة داب اولئك الابطال القدماء وكانوا يتفاخرون بالفضائل ويتسابقون الى احرازها وهم في فاقة وعوز الا ان هذه الحالة لم تدم لان نتيجة اعمالهم العظيمة كانت فتح الممالك الغنية واضافتها الى سلطنتهم فاختلطوا بالمفتوحين وتعودوا مشاربهم حتى اذا قام على اريكة دولتهم قياصرة سوربون ازدادوا تعمقًا بالعادات الشرقية منها البذخ في المصرف والتقاعد عن العظائم حتى تمادى بهم الحال وخسروا بالتدريج كل ذرة من فخرهم الحربي

واصبح الجندي الروماني يطلب الستر من وجه العدو كما فعلت حامية شا لسيس يوم جاءها الفرس بعد ان كان جده يفضل الموت في حومة الوغى على نعماء العيش بدون فخر الحسام

وليس من المنكر ان سطوة بلغتها الدولة الرومانية كانت قذى بعيون كثيرات من الدول سيما الدولة الفارسية فانها ولئن كانت قد ناظرت في سالف عصرها الامم اليونانية والمصرية والفينيقية وغيرها وتغلبت على بعضها كانت لم تزل في ايام الدولة الرومانية في سمة عزها تحت احكام الساسانيين فاحييت في بنيها ذكرى حروبهم المجيدة وجاءت تقاتل الرومان مرة بعد اخرى ولا تنال منهم اكثر مما نالت من اليونان من قبلهم واما البرابرة الذين كانوا يحيطون بالرومان فلم يكن من شانهم الا شن الغارة على انحاء السلطنة والقا القلاقل فيها فآلت هذه الامور كلها الى تقلص ظل الرومانيين وضعف شوكتهم خصوصًا في سوريا لانها كانت بعيدة عن معظم قوتها غير راضية عن سياستهم بل ترى الخير في التملص من جور حكامهم

وفي غضون ذلك كانت نشاءة حضرة صاحب الرسالة الاسلامية محمد بن عبد الله القرشي فكتب في اخر سنة ست من الهجرة الى هرقل كتابًا قال فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الاريسيين و يااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ان لانعبد الا الله ولا نشرك بهِ شيئًا ولايتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون ٠ا ه

وبعث بهِ اليهِ صحبة رسول على انا لا نعلم بورود جواب من القيصر وكتب ايضًا الى الحرث ابن ابي شمر الغساني ملك غسان بالبلقا من ارض الشام وعامل قيصر على العرب مع شجاع بن وهب الاسدي يدعوهُ الى الاسلام قال شجاع فاتيتهُ وهو بغوطة دمشق يهيي ءالنزل لقيصر حين جاء من

حمص الى ايلياء فشغل عني الى ان دعاني ذات يوم وقرأ كتابي وقال من ينتزع مني ملكي انا سائر اليهِ ولو كان ما ليمن ثم امر بالخيول تنعل وكتب بالخبر الى قيصر فنهاهُ عن المسير ثم امرني بالانصراف وزودني بمائة دينار

وفي السنة الثامنة بعث حضرة الرسول بجيشهِ الى الشام وعليهِ زيد بن حارثة وعدد فرسانهِ ثلاثة الاف فبلغ الجيش ارض معان من بلاد الشام ونزل هرقل صاب من ارض البلقاء بمائة الف من الروم وانضمت اليهم جموع جزام والغبد و بهرام و بلى وعلى بلى مالك ابن زافلة ثم زحف المسلمون الى البلقاء ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب على موتة فكان التمحيص والشهادة واستشهد زيد (امير المسلمين وخليفتهُ) جعفر (وخليفتهُ) عبد الله وانصرف خالد بن الوليد بالناس فقدموا المدينة وفي رواية ان هرقل لم يكن حاضرًا في هذه المعركة وان المسلمين لم يرتدوا الا لانهم قضوا لبانتهم من الاكتشاف على مواقع العدو واقتدارهِ

ثم امر حضرة الرسول بالناس في السنة التاسعة بعد الفتح وحنين والطائف ان يتهيئوا لغزو الروم فكانت غزوة تبوك فبلغ تبوك واتاهُ صاحب ايلة وجرباء واذرح وادوا الجزية وصاحب ايلة يومئذٍ يوحنا بن روبة بن نفاثة احدى بطون جزام واهدى لهُ بغلة بيضاء و بعث خالد بن الوليد الى دومة الجندل وكان بها اكيدر بن عبد الملك فاصابوهُ بضواحيها في ليلة مقمرة فاسروهُ وقتلوا اخاهُ وجاءوا بهِ الى حضرة الرسول فحقن دمهُ وصالحهُ على الجزية وردهُ الى قريتهِ واقام بضع عشرة ليلة وقفل الى المدينة وبلغ خبر يوحنا الى هرقل فامر بقتلهِ وصلبهِ عند قريتهِ

وفي ابي الفداء ان خالدًا اخذ من اكيدر قبا ديباج مخوطًا بالذهب فاعجب المسلمون منهُ وفي السنة الثالثة عشر من الهجرة الموافقة سنة ٦٣٤ م جهز ابو بكر العساكر من مسلمي العرب لفتح الشام وجعلهم فرقًا عمرو بن العاص لفلسطين ويزيد بن ابي سفيان لحمص وشرجيل بن حسنة البلقاء

ورئيسهم ابو عبيدة بن الجراح ثم بعث بخالد بن سعيد بن العاص الى سماوه فالتقى بالرومان على الطريق و يتأمرهم البطريق ماهاب فهزمهم خالد الى دمشق ونزل مرجع الصفراء فاخذوا عليهِ الطريق ونازلوهُ ثانية فتجهز الى جهة المسلمين وكان خالد بن الوليد يحارب في العراق فارسل ابو بكر اليهِ ان يقدم الى الشام اميرًا على المسلمين فسار ونزل معهم دمشق ونزل هرقل بعد ذلك حمصًا وسمع فيها بتلاحم المسلمين وعسكرهِ في اليرموك وان الدائرة كانت على قومهِ فرحل عن حمص وجعلها بينهُ وبين المسلمين ولما فرغ خالد بن الوليد وابو عبيدة من وقعة اليرموك قصدا بصرى فجمع صاحب بصرى الجموع للملتقى ثم ان الروم طلبوا الصلح فصولحوا على كل راس دينار وجريب حنطة

وكان الامبراطور هرقل قد جاء اورشليم بحتفل عيد استرجاع الصليب المقدس فاخذ يضطهد اليهود رعاياهُ و يصادرهم كانهم عيون اعدائهِ ممتحنًا بهم انواع المحن حتى اجتمعت قلوبهم على بغضائهِ وحلت منهم عرى الاخلاص والطاعة فشغبوا وهرج جمهورهم سيما عند صدور امرهِ بخروج من كان منهم في اورشليم ذلك شان المتعصبين الطغام عقيب ان خفقت بنود فوارس العرب في اليرموك وفازوا مع قلتهم وسوء جهازهم على جند الرومان الذين كانت الدنيا ترتعد من ذكرهم وقد طار صيت انتظامهم في الكون الا ان من امعن النظر في احوال الفئتين تبين علة سوء مصير الرومان فانهُ لا يخفى ان كل امة اسست دعائم مجدها على الحروب والفتوحات لا يلبث ظلها ان يتقلص اذا غادر قومها ما اعتادوهُ من الرغبة في الحرب والاسترسال اليها والامر جلي في الامة الرومانية فانها لما نشأت من فيئة قليلة وجدت نفسها على التحالف واملت ان تقيم لها وجودًا بحد الحسام فبدأت تخرج من ضمن سورها لتصطاد بباسها طعامًا فغلبت وكبرت وعظمت واتسعت واستغنت و وفرت خيراتها وكثرت شعوبها فتمادوا في الرخاء والسرور وصاروا الى غير حالهم الاول فبدأوا

يتحدرون با لتدريج الى الخراب حتى خسر الرومان السوريون ايام العرب كل ما بثته فيهم رومية القديمة من روح الحرب الموروث والجد في الحسام على ان العرب كانوا امة بادية لم تضر بهم الحضارة او تؤذيهم الخيرات بل ما انفكوا منذ القدم يمارسون الغارات والقتال و يغزون و يتنافسون با لبأس والشجاعة والثبات والاقدام ولم يكونوا يعرفون البذخ ولا الترف ولا يرتاحون للتنعمات والرخاء فلما دعتهم العصبة الدينية للجهاد في سبلها و وعدتهم بالثواب سواء فازوا في مايريدون او ماتوا دون المرام صار حالهم الى بسالة تزداد با لثبات وشجاعة اذهلت العالم الروماني

وكان هرقل قد دعا بوزرائه وعظماء رجاله وابان لهم بجلاء ان الرومان قادرون على صد غارات العرب وكبح تعدياتهم وانهم ليسوا با لقوم الذين يخشى منهم ضرًّا ومع ان اخبار فوز العرب الاول قد اثرت فيه تاثيرا عظيماً عزم على مقابلتهم با لعدد الوافر املاً ان يسد مجرى سيلهم العرم

ولما فاز العرب بهذه النصرة حملوا الاسلاب الى الخليفة ابي بكر فسر بها جدًّا وعلم با لنصر كثيرون من الفرسان فلحقوا بالمجاهدين املاً با لغنائم الوافرة وابتغاء الثواب

ثم لحق القيصر بمدينة اميسيا وهي حمص و بدأ يجهد نفسه بتعبئة الجيوش وتنظيمها واكثار عددها وكان متوعك المزاج لم يستطع تقلد امارتها بنفسه بل بعث عليها اخاه ثيودور وكان ذلك وبالاً على الدولة لان وجود صاحب الملك بين قومه يبعثهم على الثبات امام العدو والشدة في القتال فلا يتركون للشقاق والخلاف سبيلاً

وكان حصار بصرى سنة ٦٣٢ م وهي بلدة يعرفها الرومان باسم بوسترا كان يتولاها رجل اسمه رومانوس فسلمها للفاتحين كما سياتي في تاريخها وجاءت فيالق الروم يتأمرها ثيودور اخو هرقل فوافقت العرب في اجنادين سنه ٦٣٤ م وفي اليرموك فانكسرت الجموع الرومانية وتفرقت بعد خسائر

مذكورة فرفع القيصر اخاه عن القيادة وعقد لواها لرجل اسمهُ وردان او فارتان او فاهان حسب اختلاف الرواة في ضبط اسمهِ فسار بكتائبهِ للقاء العرب الا ان الشقاق كان قد دب بينهم فعصتهُ فئة منهم وما زال حتى عاد بها الى الطاعة وسار فالتقى بالاسلام وحاربهم فكسروهُ كسرة عظيمة افعمتهُ كدرًا وخجلاً لم يرَ لهُ منهما نجاة الا بالانزواءِ في دير جبل سينا

وفي السنة الثالثة من الفتح اخذ الاسلام دمشق فدخلها ابو عبيدة من جهة وخالد من الاخرى معاهدًا سكانها على حمايتهم ثلاثة ايام ليخرجوا منها اذا لم يرغبوا البقاء فيها تحت الجزية فخرج منها كثيرون لكن العرب ادركوهم وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الاجل وظل كثيرون من النصارى في دمشق امنين لانهم قبلوا ان يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فمنح الفاتحون لهم التمتع بحريتهم الشخصية وتركوا كنيسة القديس يوحنا وفي غضون ذلك مضى هرقل من اديسا وهي الرها وعاد الى القسطنطينية واخذ معهُ الصليب المقدس الذي كان قد استرجعهُ من الفرس خوفًا عليهِ من العرب وكان الامبراطور قد اشرك ابنهُ هرقل قسطنطين بالملك منذ كان صغيرًا على انهُ كان قد شب يومئذٍ فصار اهلاً لتبوء العرش حتى اذا عاد ابوهُ الى رومية قبض على المهام السورية اما مؤرخو العرب فلا يميزون بين الاب وابنهِ غير ان ثيوفانس قد ذكر هذه الرواية فهو احرى بان يتَّبع

ولما تقلد الابن مهام ابيهِ في مملكتهِ السورية اخذ باعداد العساكر والعدد لنجدة جيوشهِ لعلها تتمكن من حفظ مركزها ان لم يكن من صد العدو وعن الفوز بالنصر وكان بين طرابلوس وحاران دير يقال لهُ ابيلا او ابي القدس يبعد ثلاثين ميلاً عن دمشق وكان حاكم طرابلوس قد اتى بعروسهِ اليهِ ليباركها الناسك فيهِ وكان في ذلك الدير كثير من الحلي والجواهر النفيسة والامتعة الغالية والاموال الكثيرة فطمحت اعين الفاتحين في السلب وسارت فئة من العرب تحت امرة عبدالله بن جعفر حتى ادركتهُ فحاربت وانتصرت واخذت سلبًا

كثيراً فلما بلغت اخبار هذه الوقائع مسامع الاهلين وكانوا يخافون على اموالهم لانهم كانوا من اصحاب الغنى الجزيل اخذوا يتسارعون لعقد هدنة مع الاسلام ولم يكن الحرس الروماني كافياً لصيانة الاهلين فاخذ السوريون يجدون بالتعاهد مع العرب وقاية لمدنهم من النهب والسلب عارفين ان حكومة الفاتحين لاتتحامل عليهم ولاتسومهم ما يكرهون ولما دنت الجنود العربية من اميسيا وهي حمص اخذ الحرس فيها بالدفاع عن المدينة دفاعاً شديداً مؤملاً عبثاً ان تدركهُ الجنود الرومانية غير انهُ لما لم يفز بمارَبِهِ طلب عقد الصلح مع الفاتحين فلبوا الطلب اما بقية المدن كارثوسا (رستن) وايبفانا (حماه) ولاريسا (شيذر) وهليبوليس (بعلبك) فكلها عاهدت الفاتحين على تادية الجزية والسكون تحت احكام المسلمين ثم سار ابو عبيدة الى اللاذقية ففتحها عنوة وفتح جبلة وانطرطوس ثم زحف على قنسرين وكانت كرسي المملكة المنسوبة يومئذٍ الى حلب وكانت حلب من جملة اعمالها ولما نازلها ابو عبيدة وخالد بن الوليد كان بها جمع عظيم من الروم فجرى بينهم قتال شديد انتصر فيهِ المسلمون ثم بعد ذلك طلب اهلها الصلح على صلح اهل حمص فاجابهم على ان يخربوا المدينة فخربت

وما زال النصر يخفق على بنوده حتى انكسر الرومان سنة ٦٣٦ م كسرة عظيمة دعتهم يقنطون من الامل بالفوز وآيس هرقل من الشام وسار الى القسطنطينية من الرها فلما كان سائراً علا على نشزٍ من الارض ثم التفت الى الشام وقال السلام عليكِ يا سوريا سلام لا اجتماع بعدهُ ولا يعود اليك رومي بعدها الا خائفاً حتى يولد الولد المشوم وليتهُ لم يولد فما اجل فعلهُ وامر فتنتهُ على الروم

واما اورشليم فطال حصارها واشتد على اهاليها الضيق فطلبوا من ابي عبيدة ان يصالحهم على صلح اهل الشام بشرط ان يكون الخليفة عمر بن الخطاب متوليًا امر الصلح فلما عرف عمر بما يريدهُ اهل اورشليم جاءها

وفتحها واستخلف عليها علي بن ابي طالب وكان بطريرك المدينة صفرونيوس هو عاقد العهد مع الخليفة ولما ارتفعت اليد الرومانية عن سوريا بعد ان اهرق انهر من الدماء خضاباً لارضها لم يرضَ هرقل الاصغر بما ضحاهُ من جندهِ املاً بالعود الى استملاكها فعبى جيشاً جراراً في اميدا وهي ديار بكر وذلك سنة ٦٣٨ م وجاء فقاتل الاسلام بهِ لكن لم يكن نصيب هذه الكتائب الا كنصيب سلفائها

انهُ لامر غني عن البيان ان تمدن اليونان كان يسير بسيرهم فلما احطت جيوش الاسكندر في الجيل الرابع قبل المسيح على حصار صور وغيرها من مدن سوريا نشرت بين الاهلين روح الرغبة في تجديد فخرهم بتمدنهم السابق فنشط الاهلون اليهِ وجدوا وراء التمدن ورتعوا فيهِ متنعمين بالمعارف والعلوم ومتلذذين بحلاوة التمدن على ان تواتر الحروب والقلاقل التي مرّ بنا ذكرها لم تسنح لهم بالشهرة في معارفهم كشهرتهم ابان الدولة الفينيقية وظل ذلك امرهم حتى جاءهم الرومان بالادارة وعلم السياسة والاخذ بناصر الفضيلة فرتعوا بظلهم وكادوا يدركون شأْواً الراحة وبسطة العيش لولا انهماك الرومان الدائم في الحرب واتباع حكومتهم طرق السياسة على انواعها وكانت الامة العربية بادية لم تذق لذة الحضارة ولم تعرف ارتباط الامم فلم يتأتَّ لها ان تاتي السوريين بما ينفعهم ادبيًا

قلنا ان الاسلام لما فتحوا المدن خيروا اهلها بين السكنى تحت ظلهم بشرط تادية الجزية لهم وبين الاسلام او الهجرة من البلاد فكان لكل من الحالات الثلث حزب يسير ورائها ذلك ان بعضاً من السوريين اعتنقوا الدين الاسلامي واشتدت غيرتهم فيهِ حتى صاروا يسيرون في طليعة الجيوش يدلونهم على الطرق ويعلمونهم باحوال الاهالي على ان كثيرين من الامراء والاعيان وكبار المملكة وساستها فضلوا الرحلة على البقاء تحت ذل الخضوع ومذ رحل هولاء رحلت في اثرهم ثمالة التمدن الروماني وانقلبت الهيئة الاجتماعية لما طراء

عليها من العوارض الموثرة وحل بمكانتهم كبار العرب وعظماؤهم الذين كانوا غريقين في البداوة

اما سكان لبنان فكانوا لا يسكنون الى الخضوع ولا يرغبون في تأييد سيادة الاجنبي فيهم لذلك لم يزعنوا للعرب ولم يرهبوا سيوفهم الباترة ورماحهم السمهرية بل ظلوا على حريتهم في جبالهم المنيعة يتمردون على الغزاة الفاتحين فسموهم مردة واشتهر المردة في معاداتهم الاسلام وشنهم الغارات متتابعة على اطراف فتوحاتهم ينزلون بها ضرًّا ذلك ما اغاظ الفاتحين ودعاهم الى تجريد السلاح وتسيير الغزاة على انهم كانوا لا ينالون من عقاب لبنان اربًا

ولما استقر قدم العرب في سوريا اقام الخليفة عمر بن الخطاب يزيد بن ابي سفيان الاموي واليًا عليها فظل في عمالتهِ حتى مات في طاعون عمواس سنة ١٨ هجرية فتولاها اخوهُ معاوية بن ابي سفيان سنة ١٩ للهجرة الموافقة لسنة ٦٣٩ م وكان نشطًا شجاعًا مشهورًا بالاقدام والحمية فلما مات ابوهُ ورث الامارة على قبيلتهِ بني قريش والرئاسة على عائلتهِ بني امية ثم توفي الخليفة عمر وتولى مكانهُ الخليفة عثمان بن عفان فاقرهُ في عمالتهِ وكان سن معاوية حينئذٍ بين الثلاثين والاربعين وكانت الثغور من عمالتهِ فعرف ان بينها فرضًا تامن السفن فيها فخطر له اشادة عمارة بحرية ترفع منارة الاسلام في غير اصقاع البر فالتمس من الخليفة عمر ان ياذن لهُ بالغزو بحرًا فابى خيفة امتداد سطوتهِ بحيث يعجز عن حصرها فلما تبوأ الخلافة عثمان بن عفان اعاد التماسهُ فاذن لهُ في السنة الرابعة وكانت قبرص لم تزل بيد الامبراطور قسطنطين بن هرقل الاول فلما انتظمت العمارة العربية سار معاوية بها اليها وكانت حامية قبرص من النصارى على انهم لم يحسنوا الدفاع ثم صالح الاهلين على الجزية ومقدارها سبعة الاف دينار في كل سنة ذلك بعد قتل كثيرين من الاهلين وسبي النساء ومن ثم سار الى جزيرة ارواد فحصرها فدافع الاهلون عن انفسهم بشجاعة غريبة حتى رفع الحصر عنهم ونكص راجعًا فاحتشد جيوشًا اكثر وسار اليها

حتى فتحها عنوة ونفى اهليها وهدم للارض اسوارها ثم احرقها

ومن عظيم فعالهِ البحرية انهُ قاتل سفناً رومانية كان القيصر فيها فبعد معركة ترتعد لها الفرائص فاز بتشتيت شمل تلك السفن وكان القيصر في احداها ففر هارباً اما معاوية فسار بعمارتهِ منصوراً الى كريت ومالطة وفتح جزيرة رودس ودك للارض تمثالها المشهور وبعث بنحاسهِ قطعاً الى الاسكندرية فبيع هنالك الى تاجر يهودي من اديسا وكان كافياً لتحميل تسعمائة جمل وحارب في البحر عمارة اخرى نصرانية لم يعلم حقيقة نتيجتها لان كلاًّ من الفئتين ادعى النصر فيها على ان ما اظهرهُ معاوية بعد تلك المعركة من الجسارة بالدخول الى بلاد العدو يشهد لهُ بالفوز والانتصار

اما احوال دار الخلافة اريد بها مكة المكرمة فكانت قد اخذت يومئذٍ منهجاً غير ما عهد في عصر الخلفاء الذين سبقوا عثمان بن عفان لان بعض الاحزاب الذين يدعون حقوق الخلافة كانوا قد اخذوا يشوشون الراحة بفنون المغايرات حتى فازوا بقتل الخليفة عثمان فبايع القوم عوضهُ علياً بن ابي طالب على ان حضرة عائشة لم ترضَ بهِ فاشهرت مقاومتهُ بالاتفاق مع العمال والاهالي الذين انكروا على مقتل عثمان ولما تولى علي اريكة الخلافة استعمل على سوريا سهل بن حنيف فسار هذا الى ايالتهِ غير ان السوريين كانوا يحبون معاوية بن ابي سفيان الاموي ويسرون بهِ فلما بلغ سهل مدينة تبوك اتاهُ قوم من الفرسان فسالوهُ عن اسمهِ ومهنتهِ فقال اما اسمي فسهل بن حنيف اما شغلي فعامل هذه البلاد بالنيابة عن امير المومنين الخليفة علي فاجابوهُ ان على الشام عاملاً حكيماً عادلاً هو معاوية الاموي وانهُ بناءٌ على حبهم لهُ لا يبيحون لسهل ان يدوس البلاد ثم جردوا سيوفهم ولما لم يكن لابن حنيف جند ليصد عنهُ الفرسان عاد راجعاً ليخبر مولاهُ بما كان فتكدر الخليفة من رجوعهِ على انهُ تربص عن قتال سوريا ريثما يذعن الثائرون ثم جيش جيشاً جراراً عدده تسعون الفاً اما معاوية فاعد الذخيرة وحشد الجند وكان الاهلون

يميلون اليهِ لانهُ كان يقول لهم انهُ انما يقاتل اخذًا بثار الخليفة عثمان وكان عمرو بن العاص واليًا في مصر فعزلهُ الخليفة علي فلما بدأت هذه القلاقل راسل معاوية عمرًا بالاتفاق واعدًا اياهُ بالاستعمال على مصر اذا فاز بما يريدهُ فتقدم عمرو بجيش من صحابهِ الى دمشق وهنالك عقد مع معاوية اتحادًا تامًا ونادى بين الجند والناس بقيام معاوية خليفة وكان الخليفة علي برغب من صميم فوادهِ الا يقيم حربًا ولا يسفك دمًا فاتخذ كل الوسائل السلمية لمنع القتال ورفع السلاح الا ان مقاصدهُ لم تقرن بالنجاح وعلم بذلك الاتحاد فسار لفصم عروتهِ ولما صار على مقربة من سوريا حدثت لهُ اعجوبة تفاءل الجيش منها بالخير

وفي اليوم الاول من السنة السابعة والثلاثين للهجرة الموافق سنة ٦٥٧م تقابل الجيشان وكان عدد جيش معاوية ثمانون الفًا فاحتلوا سهول صفين عند الفرات على حدود سوريا وبلاد بابل وكان بين عساكر الخليفة علي قوم من الصحابة الذين تشرفوا بخدمة الذات النبوية في يوم بدرٍ وغيرهِ ومنهم عمار بن يسر وكان قد صار كهلاً على انهُ متقلد امارة جيش الفرسان وكان محرم وهو شهر يحرّم القتال فيهِ فامتنع الفريقان عنهُ وعقدا هدنة ولما انصرم الشهر اشتبك القتال واستل الخليفة علي حسامهُ وصرخ على جيشهِ آمرًا الا يكونوا البادئين والا يضربوا الهاربين او يهينوا النساء ووقعت الحرب بينهم مرات كثيرة قيل بلغت تسعين وقعة قتل فيها من عسكر معاوية ٤٥ الفًا ومن عسكر علي ٢٥ الفًا و٢٦ رجلاً من الصحابة فساء الجيشان مصرعهم لانهم من الابطال المجاهدين لقيام الدين الاسلامي وقتل عمار بن يسر فتكدر القومان عليهِ كدرًا عظيمًا وتمنى عمرو لو انهُ مات من عشرين سنة ولا يرى يومًا مشومًا كيوم مقتل عمار اما علي فغاب عن رشدهِ حزنًا على الفقيد وعزم على فصل الامر ضربة واحدة فركب باثني عشر الفًا من نخبة الفرسان وهجم على جيش معاوية فوقع الارتباك بالجيش السوري لانهُ لم يكن منتظرا تلك الحملة

واشتبكت نيران تلك المعركة الهائلة وكثر فيها عدد القتلى والجرحى وكادت الدائرة تدور على جيش معاوية فاشفق علي من كثرة دماء المسلمين ان ورام بكفها

ثم نادى يا معاوية علامَ نقتل الناس ما بيننا هلمّ احاكمك الى الله فايّنا قتل صاحبهُ استقامت لهُ الامور فقال عمرو انصفك ابن عمك فقال معاوية ما انصف انك تعلم انهُ لم يبرز اليهِ احد الا قتلهُ فقال عمرو وما يحسن بك ترك مبارزتهِ فقال معاوية طمعت بالامر بعدي

فلما انفصل القومان عن القتال اجتمعوا ليقيموا محكمين لفصل الخلاف بحسب نص الكتاب فرغب علي بتعيين عبد الله بن عباس فرفض لقرابتهما فعين غيرهُ فرفض ايضًا فعين اخيرًا رجلاً تقيًا على غاية من البساطة يكنى بابي موسى وعين معاوية عمرًا بن العاص ومن ثم سار الخليفة علي الى الكوفة وعاد معاوية الى دمشق تاركين الجيش لعناية قادتهِ

ثم اجتمع الحكمان للمذاكرة وكان عمرو بن العاص اقدر من رفيقهِ واشد معرفة بتقلبات الامور فقال لهُ ان تلك الحروب مضعفة للسطوة وانها تسفك دماء المسلمين عبثًا فالاولى بنا ان نعزل الخليفتين وندع المومنين ينتخبون ثالثًا فقبل ابو موسى ذلك لانهُ كان قد عهد بعمرو حسن الطوية فاسترسل الى كلامهِ ومن ثم نادى بالناس فاجتمعت وصعد ابو موسى على علوّ وقال لهم انهُ عزل علي ومعاوية وخلص الملك منهما ثم اخرج الخاتم من اصبعهِ فوضعهُ امامهُ ونزل فصعد عمرو وقال لهم انكم سمعتم كيف ان ابا موسى عزل عليًا وانا اعزلهُ ايضًا واترك الخلافة لمعاوية لانهُ احق بها ثم وضع الخاتم باصبعهِ ونزل ولما راى القوم من عمرو ما راوا اخذ بعضهم بالتذمر غير قابلين بما كان ولو لم تعقد بينهم هدنة لعادت الحرب واشتبك القتال ثم انسحبت كل فئة الى مقرها

ولما همدت الاحوال قليلاً واستقر علي في بلدتهِ ثار عليهِ قوم تحت رئاسة رجل يقال لهُ عبد الله بن وهاب فحاربهُ الخليفة وقتل من معهُ الا تسعة

وكانت مصر قبل ذلك عمالة عمرو بن العاص كما قدمنا فلما قتل عثمان وتولى علي مكانتهُ اقام فيها رجلاً اسمهُ سعد بن قايص فحكمها بعدل وكان معاوية يلتمس له جنحة تحمله على خلعهِ توصلاً لاستعمال عمرو على البلاد فزوَّر تحريرًا عن لسان ذلك العامل لمعاوية واحتال بايصالهِ للخليفة علي فلما اطلع على التحرير ورأى ان عامل مصر يؤكد خلوصهُ لمعاوية عزلهُ عن عمالتهِ واقام مكانتهُ محمدًا ابن ابي بكر فبدأ محمد يحكم بيد قاسية حتى قتل كثيرين من حزب عثمان الذين اتخذوا مقتلهُ علة للثورة والتحزب فنتج من اعمالهِ قيام المصريين وانتشار روح الثورة بينهم حتى عرف الخليفة علي بالامر فكدرهُ ظلم رعيتهِ وامر بعزل محمد وبعث غيرهُ رجلاً يقال لهُ مالك فمر في طريقهِ على فلاح فبات عندهُ ليلة وكان الفلاح من حزب معاوية فاطعم مالكًا سمًّا في عسل ولما بلغ معاوية الخبر بعث بعمرو ومعهُ ستة الاف فارس ليحملوا على مصر وهي مرتبكة باضطرابها فلما بلغها انضم الى جيوش ابن شيرج زعيم المتحزبين لعثمان فقاتلا محمدًا بن ابي بكر واستاصلا جنودهُ واخذاهُ اسيرًا ثم قام عليهِ بعض اصحابهِ فقتلوهُ واحرقوهُ وتقلد عمرو العمالة

وكان للخليفة علي اخ اسمهُ عقيل فسار الى معاوية كدرًا من اخيهِ فرحب معاوية بهِ واحسن اليهِ وقربهُ ثم عاد علي فحشد جيشًا جرارًا اعدده ستون الفًا من الذين آلوا على انفسهم الا يرجعوا ان لم يفوزوا بالنصر على معاوية السائرين لقتالهِ

وكثر الشقاق بين الامة حتى ساء المحبون فطلب بعضهم وسائل لرفع الاسباب عنهم ولم يروا لذلك سبيلاً الا بقتل الرؤساء الثلاثة الذين كانوا لهُ مصدرًا فانتدب للقيام بذلك الامر الخطير ثلاثة منهم فاجتمعوا في الجامع الاعظم في مكة المكرمة فقال احدهم وهو عبد الرحمن بن ملجم انا اكفيكم عليًا وقال البرك بن عبد الله انا اكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكير وانا اكفيكم عمرو بن العاص فتواعدوا لسبع عشرة تمضي من رمضان في يوم الجمعة عند الصلاة فتفرقوا في الانحاء بعد ان صمموا على ان يضعوا سمًّا في سلاحهم حيث

نقضى اللبانة ضربة واحدة وسار ابن ملجم الى الكوفة حيث مقر الخليفة علي فاحب هنالك امراة من قبيلتهِ ولما طالبها بعقد النكاح وكانت ارملة ابت اجابة طلبهِ لانها كانت قد آلت على نفسها الاتتزوج الا من يقدم لها صداقًا ثلاثة الاف درهم من الفضة وعبدًا وامة وراس الخليفة علي فقبل عبد الرحمن وعاهد اثنين من اصحابهِ على اجراء مرامهِ فلما كان اليوم المعين كمن بمن معهُ في الجامع حتى حان وقت الصلوة فجاء الخليفة علي حسب عادتهِ فلما راءَ الكامنون استلوا سيوفهم كانهم يتنازعون فلما اراد مصالحتهم ضربهُ احدهم فلم تكن ضربتهُ قاطعة على ان عبد الرحمن اعقبهُ بضربة اخرى اصابت راسهُ ثم هرب الضاربون فتعقبهم الناس وقتلوا واحدًا منهم على عتبة دارهِ وفر الثاني هاربًا اما عبد الرحمن فلما فتشوا عليهِ وجدوهُ في احدى زوايا الجامع وسيفهُ مشهر بيده فقطع راسهُ اما عمرو بن بكير فاسرع الى مصر ودخل الجامع في الساعة المعينة فراى الامام يخطب مكان عمرو لانهُ كان مريضًا لم يخرج من منزلهِ فلم يعلم القاتل بما كان وضرب الامام فقتلهُ فقبض عليهِ واتي بهِ الى حضرة عمرو فاقر انهُ كان قاصدًا قتلهُ فاخطاه فقتل للساعة وسار البرك بن عبد الله الى دمشق واقام في حشم معاوية الى ان جاء اليوم المعين ومعاوية يخطب في الناس فقام البرك وضربهُ بالسيف فاخطاهُ فلما قبض عليهِ بشرهُ بقتل علي واحكى لهُ ما كان فتكدر معاوية وامر بقتلهِ

وكان مصرع علي لثلاثة ايام من جرحهِ وذلك في السنة الاربعين من الهجرة (سنة ٦٦٠ م) وكان صهر حضرة النبي اي زوج ابنتهِ السيدة فاطمة ولهُ منها ولدان الحسن والحسين فلما مات لم يرضَ ان يقيم لهُ خليفة على ان الامة انتخبت ولده الحسن وبايعتهُ بدون تردد وكان محبوبًا ومقربًا من حضرة جدهِ لانهُ شبيه لهُ في الصورة وكان اديبًا لطيفًا نقيًا مخلصًا حنونًا وديعًا فلما قبض على ازمة الخلافة حدثتهُ سلامة ضميرهِ ان يكف عن القتال حجبًا لدماء المسلمين سيما وان الامة كانت قد ملت من الحروب لكن كثيرين من قادتهِ

كانوا يحرضونهُ على مداومة القتال فاجابهم اخيرًا الى ذلك وسار بالجيش الذي تجهز للحملة على الشام ثم عقد لاحد خواصهِ راية اي اقامهُ اميرًا او قائدًا على اثني عشر الفًا من الزحف (المشاة) و بعث بهم لصد السوريين عن تقدمهم فالتقى ذلك الجيش بقوم معاوية وحاربهم وردهم الى الورآء وبات ينتظر مجيء الخليفة الحسن غير ان هذا الخليفة شعر بثقل حملهِ وعلى الخصوص حيث كان العراقيون الذين في جيشهِ غير راضين بالحرب فكان يخشى الفتنة وظل سائرًا حتى مدينة مديان حيث تشاجر بعضهم فقتل واحد منهم ولما اراد الحسن فصل نزاعهم جرح جرحًا بليغًا فلجا الى الحصن ووهم الحسن بعظم الخطر المحدق بهِ و بالامة فارتبك في امورهِ حتى عزم على المصالحة فبعث الى معاوية برسالة يعرض بها عليهِ ان يتخلى لهُ عن الخلافة بشرط ان يسمح لهُ بثلاثة امور الاول ان يترك لهُ كل خزائن الكوفة اي عاصمة مملكتهِ الاولى . الثاني ان يترك لهُ دخل ملك عظيم في بلاد فارس الثالث ان يضرب عن التكلم رديًا بحق المرحوم والدهِ فاجابهُ معاوية الى الشرطين الاولين اما الثالث فلم يجبهُ اليهِ كل الاجابة بل انهُ عاهدهُ ان لا يذكر اباهُ بالسوء امامهُ وتقررت الخلافة على معاوية مشروطا بها ان اذا مات قبل الحسن تعود الخلافة اليهِ وابى الكوفيون ان يسلموا الخزينة العامة للحسن مدعين ان ذلك حقهم فاذن معاوية للحسن واخيهِ بدخل جسيم فانسحب بهِ الى المدينة ليكون لهُ هنالك حظ وسلام فعاش منشرحًا يصرف معظم اموالهِ على الزكوة والاحسان

واشتهر معاوية بالحزم واصابة التدبير والحلم مع العفو عند المقدرة فزاع صيت مكارمهِ وتحدث بهِ الركبان ومن ذلك ما نقلتهُ لنا الرواة انهُ مر يومًا باحدى السيدات الهاشميات من آل الخليفة علي فاعترضتهُ واخذت توبخهُ على تصرفهِ نحو عائلتها قائلة لهُ انهُ اشبه فرعون في معاملتهِ لبني اسرائيل فلم يغضب معاوية من اهانتها لهُ بل اجابها قائلاً فليصفح الله لنا عما مضى ثم سأَلها عن مرغوبها فاجابت انها تريد الفي قطعة ذهبًا لانسبائها الفقراء والفين كصداق

لاولادها والفين لاعالة نفسها فامر الخليفة بان تعطى مطلوبها ولا نصد ولما صفا الزمن لمعاوية وحكم في سورية آمنًا متخذًا دمشق عاصمة والسوريين شعبًا ثار عليهِ بعض رعاياهُ املاً بانقلاب دولتهِ فاحط عليهم بالجند السوريين والعراقيين حتى جاء بهم الى الطاعة والانقياد

ورأى معاوية ان الفتح الاسلامي قد محق من سوريا بدر ادابها الرومانية وعلم انهُ يعسر عليهِ توطيد اركان دولتهِ ما لم يبذل عنايتهُ بالعلوم والمعارف فاخذ بيد العلماء وبدأ يشجعهم وصارت عنايتهُ راسخة فيهِ حتى انهُ لما فتح الجزر اليونانية اصحب معهُ كثيرين من اربابها الذين جاؤا بعلوم قومهم ومولفات فلاسفتهم فترجموها وكانت سببًا لازدهاء المعارف تحت ظلهِ

وكان محمد ابو سفيان والد معاوية قد واقع امة رومية فاولد منها ولدًا لم يعترفهُ فدعتهُ امهُ زياد بن ابيهِ فلما كبر الولد شب فردًا في الفصاحة ثم صار قاضيًا فعدل في الناس حتى احبوهُ ثم صار عاملاً في فارس وكرت الايام فبلغ اخوهُ معاوية منصب الخلافة فامسك عن مبايعتهِ ذلك ما حمل معاوية على الايجاس شرًا من تخالفهِ محتسبًا من انضمامهِ الى بني هاشم فارسل اليهِ مخبر صاحبهُ وجاء بهِ اليهِ فاكرمهُ كل الاكرام وعدهُ اخًا فتذمر كثيرون لاعدادهِ بين اشراف بني امية لكن معاوية لم يرعهم سمعهُ بل كان يحسبهُ عدةً لهُ ثم قلدهُ العمالة على بعض الايالات فسار فيها سيرة مستحسنة

قلنا ان الامة الاسلامية كانت تكره من معاوية كيانهُ علة الحروب الداخلية والشقاق على انهُ لما احس بذلك اراد ان يستره بعمل مجيد فجهز جيشًا جرارًا عازمًا على الجهاد ضد المملكة الرومانية وقاصدًا فتح القسطنطينية ولما اتم الاهبة عقد راية الامارة لرجل من اشراف الصحابة يقال لهُ سفيان بن عوف وكان الخليفة الحسين من الذين قد انخرطوا في صف المجاهدين مع كثيرين من الصحابة الاشراف وكان معاوية يريد ان يكسب ابنهُ يزيد ميل الامة فعزم ان يبعثهُ مع المجاهدين لعلهم يفتحون القسطنطينية فيفوز بفخر

العمل فندبهُ للذهاب معهم فتثاقل فتركهُ ثم عرف يزيد بصائب الجيش فلحق بهم بجماعة من الصحابة والاشراف ولم يدرك الاسلام البوسفور الا بعد ان صرفوا في سواحل اسيا الصغرى شتاء كاملا فبلغوه في ربيع سنة ٦٧٢ م وكان القيصر الروماني قد اعدكل ما يلزم للدفاع فجاء الاسلام واحطوا على المدينة برًّا وبحرا من جهاتها الاربع وكان هنالك رجل يقال لهُ كالينيكوس من مدينة هيلوبوليس اي بعلبك وقد اخترع آلةً سماها النار اليونانية وهي حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وغيرها من المواد القابلة الاشتعال فكانت اذا نزلت على جيش احرقتهُ وان وقعت في الماء لا تطفئ فلما احط الهاجمون على البلدة استعمل المحصورون هذه الآلة فاضروا بالحاصرين ضررًا عظيمًا حتى خافوا والحوا على روسائهم بالعودة الى بلادهم فرجعوا عن الحصار واقاموا في سيزيكوس حيثما تمكنوا من ان ياتوا بذخائر ومون تعولهم فصل الشتاء واما العمارة فاقامت في الهيلسبونت اوچناق قلعة وكانت تتمكن من الصلة مع سورية ولما جاء الربيع التالي استانف الاسلام الحصار فارتدوا ثانيةً فعادوا يصرفون الشتاء حيث قاموا في السنة الماضية وظلوا كذلك الى المرة السابقة حيث اصابهم فيها خسائر لا تحصى فاضطر معاوية ان يامر بتحول الجيش عنها بعد ان عقد صلحًا مع القيصر الروماني ملتزمًا ان يدفع لهُ ضريبة اثناء ثلاثين سنة ثلاثة الاف قطعة من الذهب وخمسين عبدًا وخمسين جوادًا اعربيًا عن كل سنة

ولم يكن معاوية من الذين يسكرهم النصر فرحًا او يعميهم الكسر ترحًا حيث يباتون غير قادرين على القيام بالواجبات ولذلك بعث وهو يحاصر القسطنطينية بفيئة من رجالهِ للاستيلاء على جزيرة كريد وكان قد جاءها نفر من الاسلام سنة ٦٥١ م فلم يتمكنوا منها فلما جاءوها هذه المرة وضايقوها سلمت لهم فصارت تقوم بدفع الجزية وكان معاوية قد امر بمعاملة النصارى سكانها بالحلم والدعة ليتمكن بذلك من امالتهم اليهِ حيث يصبح قادرًا على

توسيع نطاق فتوحاتهِ فعد لهُ ذلك من حسن السياسة ولم يكن تصرفهُ مع نصارى سورية اقل حلماً من تصرفهِ مع الكريتيين فانهُ امر باعادة بناء كنيسة للنصارى في ادسا وهي الرها

وهو غني عن البيان ان دخول العرب الى البلاد اليونانية واستمرارهم بها ست سنوات متتابعة واختلاطهم بكثيرين من اهلها وضم بعض جزر يونانية اليهم قد اوجد بينهم ما لم يكن معروفاً عندهم من التحضر الروماني والمعارف اليونانية التي زهت بعد ذلك عند الاسلام واشتهرت بهم واستغنم مردة لبنان فرصة غياب معاوية بجيشهِ عن سوريا فساروا ضد الدولة العربية وقويت شوكتهم بتماديهم دون رادع سيما لما علموا برجوع الخليفة ميؤُساً من الفوز على الرومان فاتوا الثغور وبدوا ينزلون باهلها ويلاً وهواناً وكان عددهم عظيماً جداً حتى صاروا جيشاً جراراً يعيثون في البلاد ويسلبون وينهبون

ومع انهُ كان من سياسة معاوية ان يعهد بالملك لابنهِ يزيد فقد استعظم الامر لما في سرعة التغيير من المضرة فلم ينم عن ابداء الوسائل اللازمة توصلاً للمرغوب ملازماً الحذر سيما ان الامة كانت ترى في انتخاب الحسن بن علي حجباً لدماء العباد وابقاء لراحة البلاد وطفق معاوية يعمل في تنكيد الحسن ليخلو لهُ الجو ويصبح قادراً على وضع ابنهِ موضعهُ فلم يرَ لذلك سبيلاً الا باغراء احدى نسائهِ الكثيرات على ان تدس لهُ سماً في طعام حتى اذا فعلت ذلك اشرف الحسن على الموت فدعا باخيهِ الحسين فسألهُ عن قاتلهِ ليأْخذ منهُ بثارهِ فاجابهُ ان يصفح عنهُ حتى يوم يلتقيان امام العادل الديان ولما مات تكدرت الامة جداً لانه كان عزيزاً مكرماً

ولما شاخ معاوية جمع وزراءهُ وكبار قومهِ واشهدهم على اتخاذهِ يزيد ابنهُ خليفةً ومع ان ذلك كان بدعة لم يلقَ معاوية من قومهِ مناقضة لان سطوتهُ كانت عظيمة جداً وبعث الى العمالات ان يقدموا الى مبايعة يزيد فجاءَ منهم خلق كثير فبايعوهُ ومات معاوية سنة ستين للهجرة اي سنة ٦٧٩ للميلاد ولم

يكن ابنهُ يزيد حاضرًا حين وفاتهِ فارسلوا يدعونهُ من ضواحي حمص فجاء دمشق بعدان دفن ابوهُ وكان سن معاوية حين وفاتهِ سبعين سنةً وقيل خمسًا وسبعين وكان رجلاً حسن الخصال محبًّا للعلوم مقربًا للعلماء نشطًا يميل الاصلاح وكان اول من علم الاسلام سفر البحر وشوقهم اليهِ فاقاموا بفتوحات مهمة ومهاجمات كثيرة لم تكن متاحةً لهم من ذي قبل لانهم كانوا لا يعرفون البحار لتوغلهم في الداخلية وقد اهالهم منها الكبير وكان اول من غير هيئة الحكومة فجعلها ميراثية بعد ان كانت انتخابية واول من غادر بساطة العيش وانعكف على مسرات ملوك المشرق فان سرير خلافتهِ دمشق كانت وحدها سببًا كافيًا لانها كهف في ملاذ العيش ونعماء الحضارة واول من اوجد للاداب ذكرًا بين قومهِ وكان هو اول من اتخذ ديوان الخاتم واحدث حزم الرسائل ولم تكن تحزم امر بذلك بعد تزوير عمر بن الزبير كتابةً لزياد .

وقبض يزيد بن معاوية على صولجان الخلافة الاموية في اول شهر رجب سنة ٦٠ هجرية موافقًا لليوم السابع من نيسان سنة ٦٨٠ م وكان عمره اربعًا وثلاثين سنة على انهُ كان غير مشهور بحسن صفاتهِ وكانت القلاقل قد تأصلت في البلاد فنشأ عنها ثورات كثيرة اخصها ما نهض بهِ حسين بن علي وعبد الله بن الزبير وكان نعمان بن بشير عاملاً في الكوفة الا انهُ لم يكن عارفًا باحوالها وحركاتها وغير قادر على ملافاة الامر فعلم يزيد بذلك وبعث برسالة الى عبيد الله بن زياد اخي معاوية ان يقدم من عمالتهِ البصرة بفئةٍ من جيشهِ الى الكوفة ففعل فلما صار على امدٍ منها والقوم ينتظرون الحسين بن علي خرجوا الى لقائهِ وكان قد تزيا بزيهِ حتى صار بين القوم فنادى المنادي ان لا يدنو احد من الامير عبيد الله بن زياد ثم دخل القلعة وقبض على رسول الحسين وكان قد بعث بهِ ليتجسس البلد وامر بقطع راسهِ اما الحسين فكان بعض قومهِ يحرضونهُ الا يذهب الى العراق غير انهُ لم يصغَ لكلامهم بل سار بفيئة من الفرسان واتي الكوفه فخرج بعض اصحاب عبيد الله عليهِ وقصدوا

اعتقالهُ فلم يتمكنوا من ذلك ثم بعث عبيد الله اليه رسالة بالصلح بشرط اقراره
بخلافة يزيد فابى ذلك غير ان عبيد الله بعث عليهِ قوماً من جنده فواقعوهُ
وانتصروا على قومهِ واثخنوا فيهم قتلاً واسراً اما هو فسقط قتيلاً ولم ينجُ من
جماعتهِ غير شقيقتهِ السيدة زينب وابنهِ علي وكان على وشك الرشاد فجاء
رجل من الكوفيين وقطع راس الحسين ورفعهُ على رمح ودخل بهِ البلدة
فسر عبيد الله بذلك واسكره النصر حتى كاد يفتك بالسيدة زينب وبعلي
بن الحسين لو لم يتلافَ الامر مدبروه الحكماء على انهُ خال الخليفة يزيد من
القوم الذين يسرون بالنقمة من اعدائهم فبعث اليهِ برأس الحسين وبشقيقتهِ
وابنهِ فلما راى يزيد ذلك تكدر كدراً عظيماً وبكى وقال انهُ كان يفضل
عدم قتلهِ لان اباهُ اوصاه بذلك فلما علم ان عبيد الله قد منع الحسين وقومهُ
عن ورود الماء ساءهُ ذلك جداً ولعن نسل زياد على انهُ احسن الى السيدة
زينب وابن اخيها واكرم مثواهما ووضعها في قصره حيث اشتركت نساء ابيهِ
مع عائلة الحسين بالحزن على مصرعهِ ولما طلبا العودة الى المدينة بعث معهما
واحداً من مامورِيهِ واجزل لهما العطاء ولما بلغ عبد الله ابن الزبير مقتل
الحسين سوَّلت لهُ نفسهُ الادعاء بالخلافة وكان محبوباً ومكرماً في مكة المكرمة
والمدينة المنورة ولهذا تمت لهُ البيعة من كثيرين فرفع راية العصيان على يزيد
لكن يزيد بادره بجيش جرار بعث بهِ تحت امرة احد اخصائهِ فسار ذلك
الجيش حتى ادرك المدينة واحاط عليها فحصرها حصراً شديداً حتى اخذها
وقتل كثيرين من اهلها واستعبد من نجا منهم من سيف الفاتكين ثم زحف
الجيش على مكة المكرمة فاحاط عليها وكان عبد الله فيها يبذل وسعهُ لدرء
الحاصرين عنها وفي اثناء ذلك علم المحصورون بموت يزيد فطلب عبد الله
الى قائد ان يرفع الحصر عن المدينة فلم يلتفت لمقالهِ حتى علم بصحة الخبر فاجتمع
بعبد الله واتفقا على دخول الحاصرين الى الكعبة بلا سلاح فلما انقضى فرضهم
نكصوا راجعين الى بلادهم بعد ان استفكوا من كان مسجوناً من بني امية

وكانت وفاة يزيد في حوارين من سوريه سنة ٦٤ للهجرة اي سنة ٦٧٣ للميلاد بعد ان حكم ثلاث سنوات وستة شهور ولم يكن زمن ملكهِ خاليًا من اكدار الحيوة لان الحروب والقلاقل لازمتهُ كل زمان ملكهِ على انهُ كان غير خال من الملامة عما تقدم من الحوادث سيما قتل الحسن والحسين وحصار المدينة ومكة وما لحق بهما من الضرر على ان الدولة الاسلامية لم تكن قليلة الجنى في ايامهِ حيث فتحت جنودهُ كل خراسان وخوارزم واستولوا على خزائن سمرقند المشهورة بثروتها

ولما توفي تمت البيعة لابنهِ معاوية الثاني وكان معاوية هذا رجلاً بسيطًا على جانب من التقى الا انهُ لم يكن اهلاً لتقلد مهام الملك في زمن امتد فيهِ السلطان الاسلامي امتدادًا عظيمًا وكان في عاصمته دمشق احد الحكماء فكان يستشيرهُ في المهام حتى انهُ يقال انهُ استشاره في قبوله المبايعة فاجابهُ ان لا يقدم عليها ما لم يكن على يقين من جدارتهِ ولما راى بعد جلوسهِ بستة اسابيع وقيل ستة شهور انهُ ليس باهل للخلافة خلع نفسهُ منها ولم يعين لهُ خليفة تاركًا حق الخلافة لانتخاب الامة

فاستاء بنو امية من ذلك ونسبوهُ لمشورة الحكيم عمر فقبضوا عليهِ ودفنوهُ حيًا كما كان يفعل العرب قبل الاسلام ببناتهم

وفي غضون ذلك بايعت الامة مروان بن الحكم في دمشق اما سائر الولايات كالعربية والعراق وخراسان ومصر و بعض مدائن الشام فبايعت عبد الله بن الزبير اما معاوية بن يزيد فاحتبس في غرفةٍ مظلمة قضى فيها اجلهُ بعد زمان قصير وقد اختلف الرواة في سبب موتهِ فذهب بعضهم انهُ مات مطعونًا وقال اخرون انهُ مات بالسم

وتبوأَ مروان بن الحكم الاريكة والاعداء لهُ بالمرصاد يتوقعون سقوطهُ في الخطاء وكان رجلاً طاعنًا في السن خبيرًا متدربًا في الامور مشهورًا انهُ كان كاتب الخليفة عثمان بن عفان ولعلهُ كتب الرقيم عن لسان ذلك الخليفة

لعامل مصر وكان سبباً في قتلهِ

فلما تمت لهُ البيعة في دمشق ولعبد الله بن الزبير في الولايات المذكورة ثار عبيد الله بن زياد عامل البصرة وخطب في القوم حتى مال بهم اليهِ فاقروهُ على العمالة وعهدوا اليهِ بالنجدة متى انضم للخليفة الشرعي ثم بعث الى الكوفة يطالب اهلها بمماثلة البصريين فابى الكوفيون وندم البصريون وكان في البصرة ستة عشر مليونًا من المال اخذها عبيد الله واعطى منها لانسبائهِ ونادى بالقوم ليذهب ببعضهم الى سوريا فتخلفوا عن طاعتهِ ولم يجدهِ نفعًا ما فرق من المال فاوجس حينئذٍ شرًّا وخاف من القوم الذين يحيطون بهِ فدعا بضعة من بطانتهِ وفر بهم الى دمشق راكبًا حمارًا وهو مطرق في الارض فقال واحد من قومهِ انهُ انما فعل ذلك نادمًا على مقتل الحسين فالتفت عبيد الله اليهِ وقال انهُ لم يندم على ذلك انما ندم لتوقفهِ عن قتل البصريين الخائنين لانهم كانوا قد عاهدوهُ ونكثوا ولما وصل دمشق بايع مروان وصفا بينهما الحال اما عبد الله بن الزبير فاحتشد جيشًا جرارا واتى الشام فحارب مروان فانكسر فتجهز مروان وسار على مصر فحارب عامل ابن الزبير عليها وكسرهُ واناط العمالة بابنهِ عبد العزيز ثم عاد عنها فالتقى بجيش بعثهُ عبد الله بن الزبير عليهِ فحاربهُ وكسرهُ

ولما راى اهل خراسان اشتباك الحروب استكنوا على الحيادة لابثين على السلام منتظرين الخليفة الذي تتفق الامة عليهِ ليخطبوا باسمهِ على انهم دعوا بسالم بن زياد فامروهُ عليهم فسار فيهم سيرة حسنة حتى احبوهُ جدًّا فدعوا نحو عشرين الفًا من مواليد تلك السنة باسمهِ

وكان القوم لما بايعوا مروان عاهدوهُ ان تكون الخلافة من بعدهِ لخالد بن معاوية وليس لابنهِ غير انهُ لما تمكن من الملك واستفحل امرهُ فيهِ ابى الا مبايعة ابنهِ عبد الملك فطالبهُ خالد بالعهد فشتمهُ داعيًا اياهُ لغلاً فساءَ خالد ذلك وقص الواقعة على امهِ فلم تمضِ ايام حتى توفي مروان بغتةً فخال لبعضهم انهُ مات مسمومًا وظن اخرون ان امرأتهُ وضعت مسندًا على

فمهِ وجلست فوقهُ فمات

وتبوأ العرش بعده ابنهُ عبد الملك فعنت لهُ سوريا ومصر وثغور افريقيا وكانت قد دخلت تحت الراية الاسلامية منذ عهد قريب نريد بذلك في اليوم الثالث من رمضان سنة خمس وستين هجرية المعادلة سنة ستمائة واربعة وثمانين م وكان عبد الملك مشهورًا بسعة الصدر والمعرفة والشجاعة ففاز بثقة القوم سيما بعد ما حارب في افريقيا

اما عبد الله بن الزبير فكان لم يزل قابضًا على ازمة الخلافة في العمالات التي كانت قد بايعتهُ عدا مصر و بعض انحاء سوريا فانها كانت قد عادت للدولة الاموية وفي غضون ذلك قام المختار لياخذ بثار الحسين بن علي و يقتص من قاتليهِ فبعث عبد الملك جيشا يتجد ابن زياد عليهِ فانكسرت جنود الشام وقتل ابن زياد فولى عبد الملك مكانهُ الحجاج وكان ظالمًا عاتيًا اما المختار فكان قد اتخذ لهُ كرسيًّا تتبرك الجنود منهُ فيتحمسون بوجودهِ بينهم حتى عدهُ بعض المورخين من الاسباب الاولية في نجاح القوم و بعث المختار بابراهيم بن الاشتر لقتال بن زياد و بعث معهُ وجوه اصحابهِ وفرسانهم وشيعتهُ واصحبهم بالكرسي الذي كان يستنصر بهِ وهو كرسي قد غشاهُ بالذهب وقال للشيعة هذا فيكم مثل التابوت في بني اسرائيل فكبر شانهُ وعظم وقاتل ابن زياد فكان لهُ الظهور وافتتن بهِ الشيعة و يقال انهُ كرسي علي بن ابي طالب وكان المختار قد اعمل على محاربة ابن الزبير فجرت بينهما ملاحم كثيرة كانت نتيجتها انكسار المختار وقتلهُ

ولما وقع الشقاق في الدولة الاسلامية وتفرقت وحدتها ثار بضعة من الناس خالعين كل رئاسة وطارحين كل سيادة يقصدون بذلك معاداة الدولة الاموية وكان منشاهم في البلاد الفارسية وقد عرفهم القوم باسم الازارقة فتجمهروا واتوا العراق وعاثوا فيهِ حتى دنوا من الكوفة واثخنوا فيها قتلاً واسرًا هادمين كل بناء حتى اغاظوا عبد الملك فعزم على تنكيلهم فامر

اخاهُ بشر بن مروان على البصرة وارسلهُ لحرب الازارقة في من ينتخبهُ من اهل البصرة وان يبعث من اهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالباس والنجدة والتجربة في جيش كثيف الى المهلب فيتبع الخوارج حتى يهلكوهم فارسل المهلب جديع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان وشق على بشران امراة المهلب جاءت من عند عبد الملك ودعا عبد الرحمن بن مخنف فاعلمهُ منزلتهُ عندهُ وقال اني اوليك جيش الكوفة بحرب الازارقة فكن عند حسن ظني بك ثم اخذ يغريهِ بالمهلب وان لا يقبل رايهُ ولا مشورتهُ فاظهر لهُ الوفاق وسار الى المهلب فنزلوا رام هرمز ولقي بها الخارج فخندق عليهِ على ميل من المهلب حيث يتراآى العسكران ثم اتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مجيئهم وانهُ استخلف على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد فافترق الناس من اهل المصرين الى بلادهم ونزلوا الاهواز وكتب اليهم خالد بن عبد الله يتهددهم ويحذرهم عقوبة عبد الملك ان لم يرجعوا الى المهلب فلم يلتفتوا اليهِ ومضوا الى الكوفة واستاذنوا عمر بن حريص في الدخول ولم ياذن لهم فدخلوا واضربوا عن اذنهِ

ووقف المهلب وعبد الرحمن بن مخنف للخوارج برام هرمز فلما امدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة تاخر الخوارج من رام هرمز الى كزرون فاتبعتهم العساكر حتى ادركوهم واستعر الحرب بينهم وكان سجالاً وطال على المتحاربين الامد وظلوا بين انتصار وانكسار حتى وقع بينهم الاختلاف فابلى منهم بلاء فاحشاً

وكان اشتباك هذه الحرب سنة ٦٨ للهجرة اي سنة ٦٨٧ للميلاد وفي تلك السنة حدث في بلاد الشام قحط ومجاعة مفجعة لم تقوَ الدولة الاموية على سدها وفيها خرج عبد الملك بشرذمة من جنده الى بطنان بجوار قنسرين وعسكر فيها فاغتنم بعض الخوارج فرصة غيابهِ واضرموا في دمشق نار الثورة فعاد اليها واخمد العصيان وتفصيل الامر انهُ لما خرج عبد الملك لقتال ذخر بن الحرث الكلابي بقرقيسيا واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي ابن

اخته وسار معهُ عمر بن سعيد فلما بلغ بطنان انتقض عمر واسرى ليلاً الى دمشق وهرب ابن ام الحكم عنها فدخلها عمر وهدم دارهُ واجتمع اليهِ الناس فخطبهم ووعدهم وجاء عبد الملك على اسره فحاصرهُ بدمشق ووقع بينهما القتال اياماً ثم اصطلحا وكتبا بينهما كتاباً وامنهُ عبد الملك فخرج اليهِ عمر ودخل عبد الملك دمشق فاقام اربعة ايام ثم بعث الى عمر ليأتيهِ فقال لهُ عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو صهرهُ وكان عندهُ لا تاتهِ فاني اخشى عليك منهُ فقال والله لو كنت نائماً ما ايقظني ووعد الرسول بالرواح اليهِ ثم اتى بالعشا ولبس درعهُ تحت القبا ومضى في ماية من مواليهِ (اي عبيده) وقد جمع عبد الملك عنده بني مروان وحسان بن بجدة الكلبي وقبيصة بن ذويب الخزاعي واذن لعمر فدخل ولم يزل اصحابهُ يجلسون عند كل باب حتى بلغوا قاعة الدار وما معهُ الا غلام واحد ونظر الى عبد الملك والجماعة حولهُ فاحس بالشر وقال للغلام انطلق الى اخي يحيى وقل لهُ ياتيني فلم يفهم عنه واعاد عليهِ فيجيبهُ الغلام لبيك وهو لا يفهم فقال لهُ اغرب عني ثم اذن عبد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمر ودخل فاجلسهُ معهُ على السرير وحادثهُ زمناً ثم امر بنزع السيف عنهُ فانكر ذلك عمر وقال اتق الله يا امير المومنين فقال لهُ عبد الملك اتطمع ان تجلس معي متقلداً سيفك فاخذ عنه السيف ثم قال لهُ عبد الملك يا ابا اميه انك حين خلعتني حلفت ان انا رايتك بحيث اقدر عليك ان اجعلك في جامعة فقال بنو مروان ثم تطلقهُ يا امير المومنين قال نعم وما عسيت ان اصنع بابي امية فقال بنو مروان ابر قسم امير المومنين يا ابا اميه فقال عمر قد ابر الله قسمك يا امير المومنين فاخرج من تحت فراشهِ جامعة وامر غلاماً فجمعهُ فيها وسالهُ الا يخرجه على رؤوس الناس فقال امكر عند الموت ثم جذبهُ جذبةً اصاب فمهُ السرير فكسر ثنيتهُ ثم سال الابقاء فقال عبد الملك والله لو علمت انك تبقى ان ابقيت عليك وتصلح قريش لابقيتك ولكن لا يجتمع رجلان مثلنا في بلد فشتمهُ عمر وخرج عبد الملك الى الصلاة وامر اخاه عبد العزيز بقتله فلما قام اليهِ بالسيف ذكره

الرحم فامسك عنهُ وجلس ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الابواب فغلظ لعبد العزيز ثم تناول عمر فذبحهُ بيده وقيل امر غلامهُ ابن الزبير فقتلهُ وفقد الناس عمر مع عبد الملك حين خرج الى الصلاة فاقبل اخوه يحيى في اصحابهِ وعبيده وكانوا الفًا ومعه حميد بن الحرث وحريث وزهير ابن الابر فهتفوا باسمهِ ثم كسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيوف وخرج الوليد بن عبد الملك واقتتلوا ساعة ثم خرج عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي بالراس فالقاه الى الناس والقى اليهم عبد العزيز بن مروان بدر الاموال فانتهبوها وافترقوا

ولما صفا الشام لعبد الملك عزم على الغارة على العراق فجاءتهُ الكتب من اشرافها يدعونهُ اليهم ليقاتل مصعب اميرها من قبل عبد الله بن الزبير فسار اليهم بجنده ولما تدانى العسكران بعث عبد الملك الى مصعب يقول نجعل الامر شورى فقال مصعب ليس بيننا الا السيف فقدم عبد الملك اخاهُ محمدًا وقدم مصعب ابراهيم بن الاشتر وامدَّهُ بالجيش فازال محمدًا من موقفهِ وامدَّه عبد الملك بعبد الله بن يزيد فاشتد القتال وكثر الاخذ والرد حتى انكشف الامر عن انخزال مصعب وانضمام كثيرين من قومهِ الى جيش امير المومنين واخيرًا قتل مصعب وولده وسكن الحال بعد الهرج وبايع الناس لعبد الملك

فعلم ابن الزبير فعظم عليهِ الخطب وخطب في الناس مستعظمًا انتصار عبد الملك ومبايعة العمالات لهُ بعد نصرهِ ومقتل مصعب وانتهى قتل مصعب الى المهلب وهو يحارب الازارقة فبايع الناس لعبد الملك بن مروان ثم بعث عبد الملك براس مصعب الى الكوفة ثم الى الشام فنصب بدمشق وارادوا التطاوف بهِ فمنعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية فغسلتهُ ودفنتهُ

وفي سنة ٧٠ للهجرة المعادلة ٦٨٩ تجددت المحاربة في سوريا بين قياصرة القسطنطينية والدولة الاسلامية على ان عبد الملك لم يكن يومئذٍ في عاصمتهِ فلم

يتمكن من مقاومة الروم بالقوة وكان ملك الروم يومئذٍ جوستنيانوس الثاني تبوأ الاريكة ٦٨٤ م فافتتح اعمال سلطنتهِ بان ارسل جيوشهُ لقتال الاسلام مع ان الخليفة عبد الملك عرض عليهِ الجزية ابقاء على الصلح المعقود مع ابيهِ فبعث جوستنيانوس بجيش عرمرم الى ارمينيا تحت امرة ليونتيوس فباتت كل البلدان التي اظهرت ميلها للاسلام عرضة للخراب والدمار وغنم ذلك الجيش غنيمة عظيمة جدًّا واخذ كثيرين من سكانها عبيدًا و بلغ الامر الدولة الرومانية ان سمحت للجيوش ان تنهب الولايات التي تسكنها النصارى وان تعدم سكانها مع انهم كانوا عضدًا للامبراطور مؤكدين الخضوع للحكومة الرومانية فامست اعظم بقع الارض خرابًا قفرًا وقاعًا صفصفًا وكانت الشجاعة الرومانية المشهورة قد صارت حدثًا تاريخيًا لااثر لهُ بالعسكر الروماني المهاجم ابطال المسلمين وكان الخليفة عبد الملك مشغلاً بحرب يقصد بها تثبيت دعائم خلافتهِ ضد مناظرين اشداء ومرتبكًا بالعصاة الذين ظهروا في ذات سلطنتهِ السورية فاصبح ملتزمًا بان يوقف نجاح الجيوش الرومانية بمشترى صلح عقدهُ بشروط اكثر موافقة للسلطنة من شروط العهدة المنعقدة بين قسطنطين ومعاوية وقبل الخليفة ان يدفع للقيصر ضريبةً سنوية مقدارها ثلاث ماية وخمسة وستين الفًا من قطع الذهب وثلاثماية وستين عبدًا وثلاثماية وستين جوادًا كريمًا وانقسمت ولايات ابيريا وارمينيا وقبرص بين العرب والروم بالسوية وعلم عبد الملك ان خصمهُ ضعيف البصيرة لايرى بالعواقب ففاتحهُ بجزل المردة والاعمال على طردهم من سوريا فتم ذلك بخيانة ليونتيوس فانهُ دخل بلادهم كصديق وقتل زعيمهم وحمل منهم بين جند الروم اثنى عشر الفًا توزعوا بعد ذلك حرسًا يخفرون ارمينيا وتراس ثم تالفت منهم نزلة في اشاليا من بانفيليا فكان هذا العمل ذريعة لانحطاط شوكة هذا الشعب الباسل وقد حسبهُ الناس من سوء السياسة التي ارتكبها جوستنيانوس لان المردة لما كانوا في لبنان بجوار عاصمة العرب كانوا يخدون السلطنة الرومانية بتواتر غاراتهم على البلاد الاسلامية لاسيما ايام انشغال

الخلفاء عنهم بغزو الروم

والظاهر ان جوستنيانوس حيث لم يكن ضليعاً بالسياسة ولا عارفاً بابواب الحكمة رضخ لما طلبهُ منهُ الخليفة العربي طمعاً بمال كان كثيراً فبعث قائداً من قادة جيشهِ مصحباً بتحف وبدر اموال الى امير المردة المسمى بيوحنا متظاهراً باستمداد نجدتهِ ضد العرب على انهُ كان قد اسرَّ الى قائدهِ ان يمكر بالامير فجاء القائد الى قب الياس حيث مسكن الامير فلقي ترحاباً وتكريماً وجلس يحدث الامير عن غزوة العرب ثم اشار الى جنده وكانوا على علم بمقصده فوثبوا على الامير وقتلوهُ وفتكوا بكثيرين من بطانتهِ فلما احس باستيحاش المردة منهُ بدا يعتذر اليهم محتجاً برغبة القيصر في نجدتهم وطفق يزين لهم ان يصحبوهُ الى القسطنطينية لينالوا رضاء القيصر فاجابوهُ الى ما طلب وتجهز وا اثنا عشر الفاً يتأمرهم الامير سمعان ابن اخت الامير يوحنا وساروا الى القيصر ولم يكتفِ جوستنيانوس بما فعل بل جيَّش على المردة جيشاً جراراً تحت قيادة مربق ومرقيان كما سماها البطريرك الدويهي وبعث بهِ سنة ٦٩٤ الى بلادهم فلما ادرك العاصي وكان على ضفتهِ دير للقديس مارون دك العسكر ذلك الدير وقتلوا رهبانهُ وكانوا خمسمائة او يزيدون ثم زحف الجيش على لبنان فحل في الكورة فوق طرابلس بين قريتي اميون والناووس اما الناووس فهي الان انقاض معروفة فوق قرية كسبا حجارها كبيرة تونسب الانذهال فلما صار الجيش الى ذلك الموقع وردت الاخبار بتغلب لاونس احد قيادة العسكر على جوستنيانوس ونفيه وجدع انفهِ ذلك ما كان سبباً لتلقيبهِ بالاخرم فعلم المردة بذلك وجاءهم الاذن بطرد عسكر جوستنيانوس فهبوا من الجبال وانحدروا على العسكر فواقعوه عند اميون وفازوا عليهِ فقتل مريق وجرح مرقيان جرحاً مميتاً كان سبباً في انقضاء اجلهِ بقرية شوتيا من عكار

فمما تقدم يظهر لنا جلياً سوء السياسة الرومانية وحسن السياسة العربية وبالمقابلة يزيد الامر ايضاحاً فان جوستنيانوس كان يتمادى في اتباع هوى

نفسهِ عاملاً بالاميال المذهبية ومحكماً في اخلاقهِ العصبة الدينية متخذاً اياها مركزاً ترجع اليهِ دائرة سياستهِ اما العرب فانهم ولئن كانوا قد اشتهروا بعصبتهم الدينية فلم يكونوا ليتركوا اميالهم المذهبية تتغلب على صوالحهم السياسية بل كانوا حتى ذلك الوقت يداً واحدة في فتح الفتوحات وصد الاعداء وكان جوستنيانوس يرى تقدم العرب ويتوقع منهم انتشار سطوتهم واستخلاص المدن الشرقية منهُ ولذلك نشط لبناء مدن حصينة في الغرب نقل اليها كثير بن من رومان المشرق وكانت سياستهُ في قبرص سيئة وحكومتهُ بعيدة عن العدل ولذلك يخال لنا انهُ انما دعا برعاياه منها الى مدنهِ الغربية لئلا ينظروا حسن الحكومة العربية وعدلها في اخوانهم الخاضعين لهم فيكرهون مظالم عمالهِ ويابون الطاعة لقوم لا يعدلون

لاجرم ان مسيء السياسة جوستنيانوس لم يؤذن باطالة زمن السلام لانهُ بينما كان يقبض الجزية من العرب درهماً رومانياً او فارسياً اخذ العرب يقدمون لهُ مسكوكات ذات كتابة خالها تخالف عقيدة الثالوث انما ابن خلدون يقول كان عبد الملك كتب في صدر كتابهِ الى الروم قل هو الله احد وذكر النبي مع التاريخ فانكر ذلك ملك الروم وقال اتركوه والا ذكرنا نبيكم في دنانيرنا بما تكرهون فعظم ذلك عليهِ واستشار الناس فاشار عليهِ خالد بن يزيد بضرب السكة وترك دنانيرهم ففعل ثم نقش الحجاج فيها قل هو الله احد فكره الناس ذلك لانهُ قد يمسها غير الطاهر ثم بالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة يزيد بن عبد الملك عليهِ ثم زاد خالد القسري عليهم في ذلك ايام هشام ثم افرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة والامتحان وضرب عليهِ فكانت الهبيريه والخالديه واليوسفيه اجود نقود بني اميه ثم امر المنصور ان لا يقبل في الخراج غيرها وسميت النقود الاولى مكروهة اما لعدم جودتها او لما نقش عليها الحجاج وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً واثنا عشر وهي انصاف

المثاقيل فجمعوا قراريط الانصاف الثلاثة فكانت اثنين وار بعين فجعلوا ثلثها وهو اثنى عشر قيراط وزن الدرهم العربي فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل وقيل ان مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة ايام اخيهِ عبد الله والاصح ان عبد الملك اول من ضرب السكة في الاسلام وقال غيرهُ ان سيمور الاسرائيلي اوجد للعرب الهيئة المتاخرة من نقودهم

وهكذا اتخذ القيصر الروماني تلك الكتابة على المسكوكات ذريعة للحرب فسار بجيشهِ العرمرم والتقى بالعرب في ثغور كيليكيا فحاربهم وانكسر الاَّ ان الافرنج ينسبون انكسارهُ لخيانة القائد السلافي قبل ان ذلك القائد انضم الى العرب مع عشرين الفًا من جندهِ وفر جوستنيانوس الا انهُ قتل في طريقهِ كثيرين من السلاف الذين ظلوا على طاعتهِ نقمة من ابناء جنسهم الذين خانوهُ وجاء كثيرون من الرومان الى بلاد الاسلام فحباهم الخليفة مساكن في ثغور سوريا وجزيرة قبرص حيث تمتعوا بعدالة لم يعرفوها من قبل فنجحوا واثروا اثراء غريبًا وبعد حين بدأت الدولة العربية تجبيهم الخراج قيامًا بمصارف الحروب ومع ان كثيرين من المؤرخين يحسبون ذلك خطاء لتمييز الدولة الاسلامية بين رعاياها لا ارى ذلك التنديد في محلهِ لان لذلك الامتياز سببين مهمين اولهما استخدام الاسلام بالجندية مما لم يكن يسوغ النصارى فكان الحكومة قد فرضت على بعض رعاياها الخدمة الفعلية وعلى البعض الاخر الخدمة الاسمية او المدنية ومنع النصارى عن الدخول في الجندية من صواب السياسة وعلى الخصوص في ملاحظة احوال تلك القرون حيثما كانت العصبية الدينية المحرك الاول للغايات والاميال وان اكثر حروب الاسلام انما كانت ضد النصارى فلا يسوغ والحالة هذه ان يستخدم بضعة منهم في ذلك الشان الثاني اتمام النصوص الشرعية والاحاديث الشريفة حيث لا يسوغ للدولة الاسلامية ان تبقي على امة غير امتها ان اخذت بالسيف ما لم تقم تلك الامة صاغرة بدفع الجزية عن يد وقد اقام الاسلام منذ الفتح بذلك فتظلم بعض النصارى ورحل بعض

منهم للديار الرومية

وكانت الدولة الاموية تجهز كل سنة ايام الصيف جنوداً وتبعث بهم على الروم يغزونهم ويقتلون منهم وكانت هذه الجنود تعرف بالصوائف فمنذ وفاة معاوية تعطلت من الشام فلما اشتدت الفتن ايام عبد الملك واجتمع الروم واستجاشوا على اهل الشام صالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على ان يؤدي اليهِ كل يوم جمعة الف دينار خشيةً منهُ على المسلمين ونظرا لهم وذلك سنة سبعين لعشر سنين من وفاة معاوية ثم لما قتل مصعب وسكنت الفتنة بعث الجيوش سنة احدى وسبعين هجرية في الصائفة ففتحت قيسارية ودخل عثمان بن الوصيد من ناحية ارمينية في اربعة الاف ولقيهُ الروم في ستين الفاً فهزمهم واثخن فيهم بالقتل والاسر ثم غزا محمد بن مروان فبلغ انبولية ثم غزاهم من ناحية مرعش ومن ناحية ملطية مرة اخرى وما انفك يبعث عليهم بالصائفة كتيبة بعد اخرى حتى كثر فيهم فتكهُ وفتح عدة من المدائن والقرى وغنم المسلمون من فتوحهم مالا كثيرًا

هذا ما كان من امر الدولة الاسلامية والروم اما ما كان من جهة تنازع الخلافة بين ابن الزبير وعبد الملك فان هذا المنتصر بعد ان قتل مصعباً ودخل الكوفة بعث منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة الاف من اهل الشام لقتال ابن الزبير وكتب معهُ بالامان لابن الزبير ومن معهُ ان اطاعوا فسار في جماذى سنة اثنتين وسبعين فلم يتعرض للمدينة ونزل الطائف وكان يبعث الخيل الى عرفة ويلقاهم هناك خيل ابن الزبير فينهزمون دائمًا وتعود خيل الحجاج بالظفر ثم كتب الحجاج الى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق اصحابهِ ويستاذنهُ في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده فكتب عبد الملك الى طارق يامره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين واخرج عنها طلحة الندى عامل ابن الزبير وولى مكانهُ رجلا من اهل الشام وسار الى الحجاج بمكة في خمسة الاف وكان ميقات الحج

فلم يضر بالحجاج بل نزل حول المدينة المكرمة حتى انقضى الحج ولم يبقَ الا ابن الزبير وجماعتهُ فرماهم بالمجانق يومئذٍ فقتل عدد من اهل الشام ومن اصحاب ابن الزبير فكانت الحجارة تقع بين ايدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف ولم يزل القتال بينهم وغلت الاسعار واصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسهُ وقسم لحمها على اصحابهِ و بيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد من الذرة بعشرين و بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً ولا ينفق منها الا ما يمسك الرمق يقوي بها نفوس اصحابهِ ثم اجهدهم الحصار و بعث الحجاج الى اصحاب ابن الزبير بالامان فخرج اليهِ منهم نحو عشرة الاف وافترق الناس عنهُ وكان ممن فارقهُ ابناهُ حمزة وحبيب واقام ابن الزبير حتى قتل من معهُ وحرض الناس الحجاج وقال قد ترون قلة اصحاب ابن الزبير وما هم فيهِ من الجهد والضيق فيتقدموا واملئوا ما بين الحجون والابواء فدخل ابن الزبير على امهِ اسماء وقال يا امه قد خذلني الناس حتى ولدي والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رايك فقالت لهُ انت اعلم بنفسك ان كنت على حق وتدعو اليهِ فامض لهُ فقد قتل عليهِ اصحابك ولا تمكن من رقبتك وقد بلغت بها علمين بين بني اميه وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فليس هذا فعل الاحرار ولا اهل الدين فقال يا امه اخاف ان يمثلوا بي و يصلبوني فقالت يا ابني الشاة اذا ذبحت لا تتالم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل راسها وقال هذا رأيي والذي خرجت بهِ داعياً الى يومي هذا وما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة وما اخرجني الا الغضب لله وان تستحل حرماتهُ ولكن احببت ان اعلم رايكِ وقد زدتني بصيرةً واني يا امه في يومي هذا مقتول فلا يشتد حزنك وسلي لامر الله فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر ولم يغدر ولم يظلم ولم يقر على الظلم ولم يكن آثر عندي من رضا الله تعالى اللهمَّ لا اقر هذا تزكية لنفسي لكن تعزية لامي حتى تسلو

عني فقالت اني لارجو ان يكون عزائي فيك جميلاً ان تقدمتني احتسبتك
وان ظفرت سررت بظفرك ثم قالت اخرج حتى انظر ما يصير امرك جزاك
الله خيراً قال فلا تدعي الدعاء لي فدعت لهُ وودعها وودعتهُ ولما عانقتهُ للوداع
وقعت يدها على الدرع فقالت ما هذا صنيع من يريد ما تريد فقال ما لبستها
الا لاشد منك فقالت انهُ لا يشد مني فنزعها وقالت لهُ البس ثيابك مشمرة
ثم خرج فحمل على اهل الشام حملة منكرة فقتل منهم ثم انكشف هو واصحابهُ
واشار عليهِ بعضهم بالفرار فقال بئس الشيخ اذن انا في الاسلام اذا واقعت
قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم وامتلأت ابواب المسجد باهل الشام
والحجاج وطارق بناحية الابطح الى المروة وابن الزبير يحمل على هؤلاء وعلى هؤلاء
وينادي ابا صفوان لعبد الله بن صفوان بن امية بن خلف فيجيبهُ من جانب
المعترك ولما راى الحجاج احجام الناس عن ابن الزبير غضب وترجل وحمل
الى صاحب الراية بين يديهِ فتقدم ابن الزبير اليهم وكشفهم عنهُ ورجع فصلى
ركعتين عند المقام وحملوا على صاحب الراية فقتلوهُ عند باب بني شيبة واخذوا
الراية ثم قاتلهم وابن مطيع معهُ حتى قتل ويقال اصابتهُ جراحة فمات منها بعد
ايام ويقال انهُ قال لاصحابه يوم قتل يا آل الزبير لو طبتم لي نفساً عن انفسكم
كاهل بيت من العرب اصطلحنا في الله فلا يرعكم وقع السيوف فان الم الدواء
في الجرح اشد من الم وقعها صونوا سيوفكم بما تصونون وجوهكم وغضوا ابصاركم
عن البارقة وليشغل كل امرء قرنهُ ولا تسالوا عني ومن كان سائلاً فاني
في الرعيل الاول ثم حمل حتى بلغ الحجون فاصابتهُ حجارة في وجههِ فارعش لها
ودمي وجههُ ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل في جمادى الاخرة سنة ثلاث وسبعين
وحمل راسهُ الى الحجاج فسجد وكبر اهل الشام وسار الحجاج وطارق حتى وقفا
عليهِ وبعث الحجاج براسهِ وراس عبد الله بن صفوان وراس عمارة بن عمرو
ابن حازم الى عبد الملك وصلب جثتهُ منكسة على ثنية الحجون اليمنى وبعثت
اليهِ اسما في دفنهِ فابى فركب اخوهُ عروة وسبق الحجاج الى عبد الملك فرحب

به واجلسهُ على سريرهِ وجرى ذكر عبد الله فقال عروة انهُ كان قال عبد الملك وما فعل قال قتل فخر ساجدًا ثم اخبرهُ عروة ان الحجاج صلبهُ فاستوهب جثتهُ لامهِ فقال نعم وكتب الى الحجاج ينكر عليهِ صلبهُ فبعث بجثتهِ الى امهِ وصلى عليهِ عروة ودفنهُ وماتت امهُ بعدهُ قريبًا ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل مكة فبايعهُ اهلها لعبد الملك وامر بكنس المسجد من الحجارة والدم وسار الى المدينة وكانت من عملهِ فاقام بها شهرين واساء الى اهلها وقال انتم قتلة عثمان وختم ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافًا بهم منهم جابر بن عبد الله وانس بن مالك وسهل بن سعد ثم عاد الى مكة وقيل ان ولاية الحجاج المدينة وما دخل منها كانت سنة اربعة وسبعين وان عبد الملك عزل منها طارقًا واستعملهُ ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناهُ ابن الزبير واخرج الحجر منهُ واعادهُ الى البناء الذي اقرهُ عليهِ حضرة صاحب الرسالة

وراق الحال للخليفة عبد الملك حيث لم يعد ينازعهُ احد وكادت تتم لهُ الراحة لو لم يقم عامل في خراسان عليهِ بثورة حملت الخليفة على ارسال عامل اخر مكانهُ مفوضًا باخماد عصاوتهِ فسار ذلك العامل وفاز باخضاع العاصي حتى سكن الحال وسر الخليفة باعمال الحجاج فولاهُ العراق سنة ٧٥ فدخل المجلس وصعد المنبر وقال عليَّ بالناس فظنوهُ من بعض الخوارج وكان اولئك ما انفكوا يحاربون المهلب فلما اتم خطبتهُ عرف الناس انهُ عامل الخليفة وطفق يحرض الناس على المسير لمدد المهلب ثم جاء البصرة فحدث فيها شغب عظيم افضى الى القتال وتلت ذلك حوادث آلت الى خلع طاعة عبد الملك فحارب الحجاج العصاة وقهرهم

وكان ليونتيوس الرومي قد اختلس من مولاه سرير السلطنة الشرقية فما لبث ان راى عظم الخطر المحدق بالمملكة ولم يكن عارفًا بما يسد الخلل ويثبت دعائم الملك على انهُ حتم بوجوب محاربة الاسلام ذلك ان الخليفة عبد الملك الذي كان لا يكل من العمل ولا يمل من الفوز ارسل كتائبهُ الى

افريقيا تحت امرة حسان فما غنمت ان فازت بفتح البلاد اما قرطاجنة فقد دافعت عن نفسها دفاعًا قليلاً ثم سلمت فارسل ليونتيوس عسكرهُ لاستخلاص الولاية فما ادركتها الا وقد فات وقت النجاة على ان امير الجيوش دخل قرطاجنة عنوةً وطرد العرب عنها وعن سائر المدن الحصينة في الثغور الا ان قوة الاسلام لم تضعف لكثرة ما لحق بهم من المدد بينما كان الرومان يلتمسون نجدة قيصرهم وهو لا يجيبهم الى ما يطلبون ثم جاءت العمارة العربية البحرية وحاربت الرومان في البحر ففازت عليهم حتى اجبرتهم ان يتركوا قرطاجنة فدخلها العرب فائزين فخربوها عن اخرها وكان اكثر جند الاسلام من رعاياهم المصريين والسوريين وكان في سفنهم كثيرون من النصارى الذين لو لم يستخدموهم لما قدروا على ادارة السفن لان العرب لم يكونوا شعبًا بحريًا اما الرومان فلما عادوا من افريقيا مكسورين نزلوا جزيرة اكريد فشغبت العسكر وقتل الامير ونادى باسم ابسيمار رئيس العساكر القبرصية قيصرًا فدعي طيباريوس ثم ساروا الى القسطنطينية فاسروا القيصر ليونتيوس وجدعوا انفهُ وسجنوهُ في دير وتولى القيصر الجديد السلطنة فاحسن ادارتها واقام اخاه هيراكليوس اميرًا على الجيش فكان بايامهِ حليف النصر ثم صدر الامر للعساكر فزحفت على سوريا وبلغت ساموسات فاشتبك فيها حرب ترتعد لها الفرائص فانتصر الروم على انهم اسرفوا في القسوة والبربرة وزادوا كثيرًا على ما كان يفعلهُ العرب في بعض معاركهم وقتل من العرب في هذه الحرب نحو مائتي الف اما ارمينيا فكانت عرضة لانتقام كل من الحزبين حيث كانت اذا انتصر العرب ينقمون عليها تحزب بعض ابنائها للروم واذا انتصر الروم انكروا عليهم تحزبهم للمسلمين فاصبحت ارمينيا من جرى ذلك خرابًا وقاعًا صفصفًا

وفي ابن خلدون انهُ لما مات ملك الروم جاء القون الى سليمان فاخبرهُ وضمن لهُ فتح الروم وسار سليمان الى وابق وبعث الجيوش مع اخيهِ مسلمة

ولما دنا من القسطنطينية امر اهل المعسكر ان يحمل كل واحد مدين مدين من الطعام ويلقوهُ في معسكرهم فصار امثال الجبال واتخذ البيوت من الخشب وامر الناس بالزراعة وصاف وشتى وهم ياكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوهُ مدخرًا ثم جهد اهل القسطنطينية الحصار وسالوا الصلح على الجزية دينارًا على الراس فلم يقبل مسلمة وبعث الروم الى القون ان هزمت عنا المسلمين ملكناك فقال لمسلمة لو احرقت هذا الزرع علم الروم انك قصدتهم بالقتال فناخذهم باليد وهم الان يظنون مع بقاء الزرع انك تطاولهم فاحرق الزرع فقوي الروم وغدر القون واصبح محاربًا واصاب الناس الجوع فاكلوا الدواب والجلود واصول الشجر والورق وسليمان مقيم بوابق وحال الشتاء بينهم وبينهُ فلم يقدر ان يمدهم حتى مات واغارت برجان على مسلمة وهو في قلة فهزمهم وفتح مدينتهم انتهى

وكان عبد الملك يروم خلع اخيهِ عبد العزيز من ولاية العهد والبيعة لابنهِ الوليد وكان قبيصة ينهاه عن ذلك ويقول لعل الموت ياتيهِ وتدفع العار عن نفسك فسكن مدة حتى دخل عليهِ قبيصة بن ذوئب من جنح الليل وهو نائم وكان لا يحجب عنهُ واليهِ الخاتم والسكة فاخبره بموت عبد العزيز اخيهِ فامر بالبيعة لابنهِ الوليد وسليمان وكتب بالبيعة لهما الى البلدان وكان على المدينة هشام بن اسماعيل المخزومي فدعا الناس الى البيعة فاجابوا وابى سعيد بن المسيب فضربهُ ضربًا مبرحًا وطاف بهِ وحبسهُ وكتب عبد الملك الى هشام يلومهُ ويقول ان سعيدًا ليس عنده شقاق ولا نفاق ولا خلاف وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير فضربهُ جابر بن الاسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطًا وكتب اليهِ ابن الزبير يلومهُ ومما يقال عن حكم عبد الملك انهُ قدم عبد العزيز اخوه من مصر فلما فارقهُ اوصاه عبد الملك فقال ابسط بشرك والن كنفك وآثر الرفق في الامور فهو ابلغ لذلك وانظر حاجبك وليكن من غير اهلك فانهُ وجهك ولسانك ولا يقفن احد

ببابك الا اعلمك مكانهُ لتكون انت الذي تاذن لهُ او تردهُ فاذا خرجت الى الى مجالسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك واذا انتهى اليك مشكل فاستظهر عليهِ بالمشورة فانها تفتح مغاليق الامور المبهمة واعلم ان لك نصف الراي ولاخيك نصفهُ ولن يهلك امروء عن مشورة واذا سخطت على احد فأخر عقوبتهُ فانك على العقوبة بعد التدقيق عنها اقدر منك على ردها بعد اصابتها

و بعد ان تمت البيعة توفي عبد الملك وكان من الذين امتازوا بالحمية والفوز والغلبة وهو الذي ادخل اصلاحات كثيرة في بلادهِ فان العرب كانوا في اول دولتهم يجهلون الاعمال المالية والسياسة والاقتصاد فكانوا ياتون بالاموال التي يجبونها من الولايات الخراجية اويغنمونها من البلاد التي ينتصرون عليها الى الخزنة العامة ويصرفونها بهبات او بمصارف لاطائل تحتها فضاع من جرى ذلك مال كثير فان المال الذي اكتسبهُ الاسلام من الرومان والسوريين والفرس لم يكن مما اتى البلاد بكبير نفع لانهُ لم يكن مضبوطًا ضبطًا صحيحًا واستمر الحال كذلك الى زمان خلافة معاوية الاموي فامر بتنظيم دفاتر وحسابات مضبوطة باللغات المختلفة فما كان لسوريا كان باليونانية وما خص العراق كان بالفارسية وما في غيرها من الولايات الاسلامية باللغة العربية على ان عبد الملك لم يشا ان يترك الامور على هذا النمط حيث امر ان تكون حسابات الدولة باللغة العربية فاصطلحت احوال المالية واستحكم ضبطها وكان عبد الملك موجد النقود الاسلامية وكان شاعرًا لبيبًا وعالمًا مدركًا وكان يسر بالشعراء والعلماء فكان مجلسهُ حافلاً بهم ولما توفي اوصى بنيهِ وصية حكيم مختبر الامور حيث قال اوصيكم بتقوى الله فانها ازين حلية واحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير وانظروا مسلمة فاصدروا عن رائهِ فانهُ نابكم الذي عنهُ تفترون واكرموا الحجاج فانهُ الذي وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد واذل لكم مغنى الاعداء وكونوا بني ام بررة لاتدب بينكم

العقارب وكونوا في الحرب احرارًا فان القتال لا يقرب فيئة وكونوا للمعروف منارًا فان المعروف يبقى اجره وذخره وذكره وضعوا معروفكم عند ذوي الاحساب فانهُ اصون لهُ واشكروا لما يوءتي اليهم منهُ وتعهدوا ذنوب اهل الذنوب فان استقالوا فاقيلوا وان عادوا فانتقموا ولما دفن عبد الملك قال الوليد انا لله وانا اليهِ راجعون والله المستعان على مصيبتنا بموت امير المؤمنين والحمد لله على ما انعم علينا من الخلافة فكان اول من عزى نفسهُ وهناها ثم قام عبد الله بن همام السامولي وهو يقول

الله اعطاك التي لا فوقها وقد اراد الملحدون عوقها

عنك ويابى الله الا سوقها اليك حتى قلدوك طوقها

وبايعهُ ثم بايعهُ الناس بعدهُ وقيل ان الوليد صعد المنبر فحمد الله واثنى عليهِ ثم قال ايها الناس لا مقدم لما اخرهَ الله ولا موءخر لما قدمهُ الله وقد كان من قضاء الله وسابق علمهِ وما كتب على انبيائهِ وحملة عرشهُ الموت وقد صار ابي الى منازل الابرار وولي هذه الامة بالذي يحق لله عليهِ في الشدة على المذنب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما اقام الله من منازل الاسلام واعلائهِ من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على اعداء الله فلم يكن عاجزًا ولا مفرطًا ايها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع المنفرد

فلما جلس الوليد بن عبد الملك على سرير الخلافة راى انها في غاية من الامن لان اباه كان قد صرف معظم ايامهِ بحروب وكفاح ليخمد الارتباكات الداخلية على ان الهيئة الاجتماعية في تلك المملكة وعاصمتها دمشق كانت حينئذ قد صارت الى حالة تختلف كثيرًا عن الذوق العربي البحت وتحضرت جامعة بين الذوق اليوناني والفارسي فكان البذخ والترف والمخمخة قد اخذت من الامراء والاعيان ماخذًا عجيبًا اما الوليد فكان قد غادر كل طباع العرب من البدو ومال الى عوائد الفرس واليونان وكان يحب البناء ويميل اليهِ جدًّا ويصرف في سبيلهِ مالاً غزيرًا ولما امر ببناء المسجد في المدينة المنورة

احضر فعلة من الروم لاتمام ذلك . وكتب الى ملكهم انهُ بريد بناء المسجد فبعث اليهِ ملك الروم بمائة الف مثقال من الذهب ومائة من الفعلة واربعين حملاً من الفسيفساء (هي احجار صغيرة ملونة) واكثر من فعلة الشام فتم البناء

وكان قد امر ببناء جامع كبير في دمشق يقال لهُ الان الجامع الاموي وهدم كنيسة القديس يوحنا وضمها اليهِ مع ان الخليفة ابا بكر كان قد سمح بها لاهل الشام لما سلموا وبينما كان يصرف معظم ايامهِ في البناء والمناظرة عليهِ كان اخوهُ مسلمة مشتغل بالفتح في اسيا الصغرى ومحاربة الروم فيها ولم يكن ذلك فقط بل ان جيوش الاسلام افتتحت السند ومدائن اخر كثيرة لا حاجة لذكرها على ان فتوحاتهم اتصلت الى ضفات الكنك وكان الوليد يحب التنعم والملذات وكانت لهُ نساء كثيرات على انهُ لم يترك لهُ ولدًا وفي ايامهِ امتدت سطوة الاسلام امتدادًا عظيماً لان موسى بن نصير كان قد بدأ بالفتوحات حتى دوخ افريقيا وبلغ الغرب الاقصى ومدينة طنجة حيثما لم يكن بينهُ وبين اسبانيا او بالحري الاندلس سوى اثنى عشر ميلاً وكان يملك اسبانيا يومئذٍ رجل يقال لهُ رودريك الكوث وفي التواريخ العربية لزريق ملك الغوط وكان القوم يكرهون ملكهُ واحكامهُ لانهُ كان هاملاً وكان من ولايتهِ الكونت جوليان والامام ابن خلدون وغيرهُ من مورخي العرب يدعونهُ يليان وكان من الذين لا يعرفون للوطن مقاماً ولا يرعون حرمتهُ ولذلك خان بلادهِ منضماً الى الفاتح العربي على ان ابن خلدون يقول انهُ كان ينقم على رودريك اهانتهُ بفعلة مع ابنتهِ

ورأى موسى بن نصير ان الاندلسيين قد ملوا من مظالم حكومتهم الكوثية وانهم يفضلون الانزواء تحت راية الاسلام على البقاء في ولاء حكامهم الجائرين فاستدعى رجلاً من نصارى طنجة واستخبر منهُ عن دقائق احوال الاندلسيين ولما صار على علم بما هم عليهِ بعث الى الخليفة يستمد الاذن بفتح البلاد فلما اذن لهُ بعث طارقاً ليتجسس البلاد ويتعرف احوالها واردفهُ بخمسمائة من

الفرسان فدخلوا اسبانيا سنة الواحد والتسعين وفي سنة ٩٢ بدأُوا يفتحون مدنها ويدوخون بلادها حيث لم يروا ممانعة من سكانها فلما تم لهم الفتح جاءها كثيرون من الاسلام ونشروا فيها الشرائع الاسلامية والتمدن العربي واستعمل الوليد احد رجالهِ عليها وخولهُ استقلالاً داخليًا في ادارتها

ولم تكن هذه المأثرة كلما تم من الفتوحات في ايام الوليد بل ان الراية الاسلامية اصبحت تخفق في ايامهِ فوق حصون الهند وكشغر وكان اخوه يفتك بالاعداء في اسيا الصغرى وغيرها وكان من صفاتهِ الحسان التواضع حتى بلغ فيهِ منزلة الافراط حيث كان يمر بالبقال فيسالهُ بكم حزمة البقل ويسعر عليهِ قيل انهُ كان يحفظ القران الشريف ويختم قراءتهُ في ثلاث وفي رمضان في يومين

وكان عبد الملك حين عداوتهِ مع ابن الزبير قد بنى مسجدًا وحرض المسلمين ان يحجوا اليهِ فلما جلس الوليد على الاريكة زاد في عمارهِ وقال ابن خلدون انهُ انما هو بانيهِ

ولما استفحل امر الوليد طمع في خلع اخيهِ سليمان من المبايعة التي جعلهُ ابوه عبد الملك مشاركًا لهُ فيها عاملاً على مبايعة ابنهِ عبد العزيز فلما احس سليمان بذلك اظهر المقاومة فكتب الوليد لعمالهِ واستدعاهم الى ذلك فلم يجبهُ اليهِ الا الحجاج وقتيبة بن مسلم ثم استدعى الوليد اخاه سليمان فابطأ فاجمع السير اليهِ ليخلعهُ فمات دون ذلك سنة ٩٦ وبوفاتهِ تمت البيعة لاخيهِ سليمان وكان بالرملة فعزل الحجاج وغيره من العمال بيد انهُ خشي من قتيبة بن مسلم فلم يعزلهُ عن خراسان بل اقرّهُ عليها قيل لان قتيبة بعث اليهِ يقول ان انت عزلتني اتيتك محاربًا فاخلعك عن عرشك وابطأ اليهِ الجواب بالاقرار على الولاية فبدأ يحرك الناس على خلع الخليفة فلم يرضوا بذلك فغضب وشتمهم ذلك ما افضى الى شغب عظيم كانت نتيجتهُ قتلهُ مع اخوتهِ واهلهِ وتولى الخطة بعده اخوه يزيد بن المهلب فبدأ هذا بتعبئة الجيوش واعداد المهمات

قياماً بغاراته المهمة في داخلية اسيا مما ال الى ضم جرجان وطبرستان الى المملكة الاسلامية اما الخليفة فسار بكتائبهِ على الروم واقام في وابق او دابق من ارض قنسرين وحاربهم فلم يفز عليهم فساءه ذلك جدًّا حتى مرض فمات سنة ٩٩ تعادل سنة ٧١٧ م ولما كان مريضاً رغب ان يبايع ولده داود لكنهُ استصغره فعدل عنهُ الى عمر بن عبد العزيز وكانت الحرب يومئذ على قدم وساق بين الروم والعرب

وكتب الخليفة سليمان الى عمر بن عبد العزيز كتاباً نصه بعد البسملة هذا كتاب من عبد الله سليمان امير المومنين لعمر بن عبد العزيز اني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الله فاسمعوا لهُ واطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم

وتولى عمر بن عبد العزيز سرير الخلافة وكان تقيًّا فاضلاً يحب الاقتصاد في المصرف مراعاةً لصالح البلاد شان الملوك العاقلين قيل انهُ لما راى امرأتهُ فاطمة بنت عبد الملك محلاةً بالزينة الكثيرة قال لها انهُ لا يجتمع هو واياها والمال والحلي والجواهر في بيت واحد وكانت فاضلة فخلعت حليها وردت ما كان معها الى بيت المال ثم اعلن لرعاياهُ بالمنع عن شتيمة عليّ ذلك ما كان يبيحهُ سلفاؤهُ من بني أُمية

والظاهر من روايات التاريخ العربي ان بعض عظماء الاسلام قد خانوا امتهم اثناء الحرب مع الروم وباعوها الى الاعداء فكانت خيانتهم سبباً في رجوعهم مكسورين وتقهقر سليمان وموتهِ على انهُ ربما كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد راى بخبرتهِ وجوباً لاجراء ما اهملهُ سلفهُ حيث دعا بمسلمة بن عبد الملك وهو بارض الروم يامرهُ بالقفول بالمسلمين غير ان الامام ابن خلدون يقول ان عمر بعث بالجند لقتال الاعداء ولم ينم عن مضرتهم وكان عمر يكره يزيد بن المهلب عامل خراسان ويظن بهِ مكرًا ورياء فبعث يامرهُ بالمجيء اليهِ فاتى واستخلف ابنهُ مخلدًا في عمالتهِ فلما بلغ العراق جاءهُ عامل البصرة

بامر من الخليفة فاعتقلهُ و بعث بهِ الى العاصمة والسبب في ذلك ان يزيد لم يرسل لبيت المال الا خمس سلب جرجان وجزيتهامع ان ذلك من الحقوق المقررة لدار الخلافة ولما صار يزيد بين يدي الخليفة امر بهِ فسجن في قلعة حلب وظل فيها حتى موت عمر

على ان حيوتهُ كانت قصيرة حيث توفي سنة ١٠١ وكان يدعى اشج بني امية رمحتهُ دابتهُ وهو غلام فشجتهُ ولما مات ولي بعدهُ يزيد بن عبد الملك لعهد سليمان اليهِ كما تقدم وقيل لعمر حين احتضر اكتب الى يزيد فاوصهِ بالامة فقال بماذا اوصيهِ انهُ من بني عبد الملك ثم كتب اما بعد فاتقِ يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة انك تترك ما اترك لمن لا يحمدك وتصير الى من لا يعذرك والسلام

ولما تمت البيعة ليزيد بن عبد الملك قبض على ازمة الخلافة فامر بعزل كثيرين من العمال واعاد على اليمن الخراج الذي كان قد رفعهُ عمر عنهم اما يزيد بن المهلب الذي كان محبوساً في قلعة حلب فلما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز خاف من موتهِ وقيام يزيد بن عبد الملك لان الخلفة كانت قد وقعت بينهما منذ صدر امر سليمان بعذاب قرابة الحجاج وكانت امراة يزيد بن عبد الملك ابنة اخي الحجاج فعاقبها يزيد بن المهلب باشد القساوة ولم يقبل توسط ابن عبد الملك فيها ولا مال لوعيدهِ فالتزم يزيد بن عبد الملك ان يفتدي المرأة بمائة الف دينار فلما بلغ ابن المهلب وهو في السجن ان عدوهُ سينال المنصب العالي احتال بالهرب فاستخدم المال حتى فر من القلعة واتى العراق فصدرت اوامر الخلافة بمسكهِ فوقعت بينهُ وبين بعض العمال وقائع صغيرة افضت الى قتلهِ

ولقد ذكر بعض المؤرخين ان يزيد بن عبد الملك كان يصرف اوقاتهُ بالملاهي على ان قوادهُ وعمالهُ كانوا من اصحاب النشاط والاقدام فغزوا الترك والصغد وفتحوا بلنجر وغنموا غنائم لا تحصى

وكان العباس بن الوليد ومسلمة بن عبد الملك قد دخلا يوم مسيرها الى ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك فقال لهُ العباس ان يعهد الى عبد العزيز بن الوليد وهو اخوهُ خوفًا من موته فجأةً وهما في الحرب فيرجف اهل العراق فابى مسلمة ذلك وقال ان يبايع اخاهُ هشامًا و بعدهُ ابنهُ الوليد لان الوليد كان قاصرًا لم يزد عن الاحدى عشرة فبايع لهما فسارت حملة العراق ورجعت ولم يمت يزيد بن عبد الملك الا في شعبان سنة مائة وخمسة للهجرة وولي بعدهُ اخوهُ هشام بعهده اليهِ

واشتهر هذا الخليفة بالعدل في الاحكام والنشاط في العمل وكان عامل الاندلس لا ينفك عن الفتوحات والحروب مما يرفع منار العرب و يزيد في سطوتهم حتى تم للدولة الاموية الحكم في تلك البلاد فاصبحت اسبانيا مملكة عربية تزدهي فيها القوة الاسلامية ودانت لسيف الاسلام كل البلاد خلا جبال استريا حيث لجأ اليها الامير بيلاجيوس احد امراء العائلة المالكة فاقام مستقلاً فيها مع بضعة من رجال دولتهِ الا ان المسلمين لم يرضوا بالانحصار ضمن بقعة اسبانيا بل طمحت اعينهم ببلاد اوربا وهي يومئذٍ في حالة يرثى لها من الجهل والتوحش فعزموا على فتحها وعبروا التخوم الافرنسية وكان يومئذٍ في فرنسا بطل يقال لهُ شارل مارتل وهو ابن بابين دهرشتال دوك اوسترسيا قهرمان دار الملك ومشيرهُ وذلك في ايام الدولة المارونجية فجمع هذا القائد جيشًا جرارًا وزحف لقتال العرب فالتقى بهم في السهول بين طور و بواطير واشتبكت بينهم حرب استمرت سبعة ايام كان النصر فيها للافرنج وقتل من الاسلام ثلاثمائة الف محارب اما شارل المذكور فلم يكن نصره هذا الا علة لنوال ابنهِ بابين الاصغر تاج الملك بعد زوال السلطنة من يد شاليدريك الثالث المارونجي فصارت الدولة التي راسها بابين بن شارل مارتل تعرف باسم كارلوفنجيه نسبة لشارلمان المشهور بابن بابين

وطالت خلافة هشام بن عبد الملك حتى سنة ١٢٥ هجرية فمات في الرصافة

وكان الوليد بن يزيد متلاعباً وله مجون وشراب وندمان فراى هشام ان ذلك ليس من الخصال الممدوحة في خليفة الدولة الاسلامية ولذلك رغب في خلعهِ على ان الفرصة لم تمكنهُ من ذلك فخرج الوليد بن يزيد يوماً الى البرية في جماعة من خاصتهِ ومواليهِ وخلف كاتبه عياض بن مسلم ليكاتبهُ بالاحوال على ان هشام قبض على الكاتب عياض وضربهُ وحبسهُ اما الوليد فاقام في البرية حتى مات هشام ووفد اليه الرسول بالخبر فبعث من قبض على اموال آل هشام الا مسلمة ابنهُ لانهُ كان يراجع اباه هشاماً في الرفق بالوليد

فاستعمل الوليد العمال للحال وكتب في البيعة فجاءتهُ بيعة الاهلين وعهد الوليد لابنيهِ الحكم وعثمان من بعدهُ

على ان زمان الوليد لم يدم طويلاً لان اعمالهُ كانت مما يشمئز منها اهل الكتاب والسنة واصحاب الفضل وقد كثر وساء القالة في الوليد فاتصل الحال الى الهرج وازداد الشغب في المدينة فاتاها بعض من الناس لمبايعة يزيد بن الوليد بن عبد الله وتمت البيعة رغماً عن ابائة الكبراء وافضى ذلك الهرج الى دخول فئة من المشاغبين دار الوليد وقتلهِ وهو يقرأُ القران ويقول يوم كيوم عثمان فقطع راسهُ واتي بهِ الى يزيد فامر بتعليقهِ وطوافهِ في المدينة وحاول بعضهم ان يتوسط منع ذلك احتراماً للخلافة وللنسبة بينهما وخوفاً من التحزب لهُ وكان مقتلهُ في اخر جمادى الاخرة سنة مائة وستة وعشرين وتولى يزيد الخلافة خمسة شهور حيث مات باواخر سنة ١٢٦ قيل مات بالوباء وتمت البيعة بعدهُ لاخيهِ ابراهيم على ان الناس انتقضوا عليهِ في ذلك ولم يتم لهُ الامر لان مروان بن محمد بن مروان قام عليهِ فخلعهُ ومات بعد ذلك سنة ١٣٢ اما مروان فلما اتى ليقبض على ازمة الخلافة الاموية وجد المملكة الاسلامية في اضطراب وارتباك لان بلاداً كثيرة ابت مبايعتهُ وعمالاً كثيرين بدأُوا يعادونهُ وبينما هو يضطرب في القتال الداخلي واخماد تلك الاحوال ظهرت الدعوة العباسية بروح جديدة في خراسان وكان مثير

الفتنة السفاح وكان من آل عباس فبذل من العناية جلها حتى فاز بمبايعة القوم له خليفة حيث عد راس الدولة العباسية على ان حالة صارت اليها الدولة الاموية من الاهمال وعدم تدارك صغار الامور قد آلت الى زوال ملكها ذلك ما كان يخشاهُ احد نصرائها حيث قال

اری خلال الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو وان الحرب اولها الكلام
فان لم تطفئوها يخرجوها مسجرة يشيب لها الغـــلام
اقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام
فان يكُ قومنا اضحوا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام.
تعزي عن رجالك ثم قولي على الاسلام والعرب السلام

لكن ابى الدهر الا ان يجري سنتهُ في ابنائهِ ذلك بانهُ اعد للدولة الاموية الاسباب الآيلة لهبوطها وعجل عليها بالسقوط مع انها جاءت الاسلام بالمنافع الجزيلة الا ان بعضاً من الخلفا لم يحكموا السياسة حيث استعملوا قوماً لا يفقهون شريعة ولا يراعون عدالة فجاءوا البلاد بالخراب حتى نفرت قلوب الرعية عن ولاء الخلافة الاموية وصاروا يطلبون منها بدلا متذكرين مساويها وناسين حسناتها التي عددناها ولما تمت البيعة لابي العباس الملقب بالسفاح جاء فحارب مروان وهزمهُ الى مصر وبعث يتأثرهُ حتى قتلهُ سنة ١٣٢ هـ معادلة سنة ٧٥٠ م وكان شعار الامويين ابيض وشعار بني العباس اسود وشعار الفاطميين وهم شيعة علي اخضر ومع ان السفاح قد فاز بقتل خصمهِ مروان لم يرق في عينيهِ ان يبقي على احد من الامويين نجاة لملكهِ من دسيستهم فاعمل على قتلهم ونصب لهم شركاً وقبض عليهم وقتلهم الا واحداً وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فانهُ فر مستتراً الى بلاد الاندلس حيث اشاد فيهـــا الدولة الاموية

وكان من نتاج انقلاب الامويين انقسام الدولة الاسلامية ولم يكن

ذلك امرًا معروفًا عندهم مع تواتر المنازعات والخصومات وانتقال العاصمة من دمشق الشام الى بغداد فاورث ذلك لسوريا كمودًا وتنكيدًا لانها اصبحت عمالة تحكمها الولاة فيبدون فيها من استبدادهم مازاد في قلاقلها وكان مدرجة لتهورها في الخراب

واستعمل السفاح على الشام عبد الله بن علي ولبثت سوريا منذ يومئذٍ غير هامة في شؤونها العمومية الا انها لا ينقصها حوادثها الخاصة من ذلك انهُ لما جلس المهدي على الاريكة العباسية بعث على الشام موسى بن عبد الله فلم يرضَ الاهلون عنهُ بل اعتقلوهُ مع ابنهِ وحملوهما الى المنصور فضربهما وحبسهما ومن ذلك ان في سنة ١٧٥ وقعت الفتنة بين المصرية واليمنية باثارة ابي الهدام عامر بن عمارة فلم يقوَ عبد الصمد بن علي على ردعهِ فجاء السندي مفوضًا من الخليفة هرون الرشيد مردفًا بجيش وجاء موسى بن عيسى عاملا فلم يتمكنا من مرامهما على ان الفتنة ما انفكت في احتدامها حتى مجيء جعفر بن يحيي البرمكي ففصلها

وفي سنة ١٩٥ ثار رجل من بقية بني امية يقال لهُ علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية و يلقب ابا العميطر و يعرف بالسفياني وجيش بعضًا من كلب وحارب عامل دمشق والنصر بينهما سجال الى ان كسر وكان قبل ادعائهِ بالبيعة عاملاً في صيدا ثم ان آل نمير بايعوا امويًا اخر يقال لهُ مسلمة بن يعقوب وهو من نسل مسلمة بن عبد الملك المشهور بحروب الروم وغيرها لكنهُ انكسر ايضًا لتخاف الشام عنهُ وهرب سنة ١٩٨

وكان الخلفاء يتخذون اهل الشام ظهراء لهم في مغازيهم وحروبهم لانهم اجرأ واقدم ممن سواهم والشاهد عليهِ ان المامون قدمهم على اهل العراق في قتال طاهر ايام فتنتهِ اتباعًا لمشورة عبد الملك بن صالح على انهم ما لبثوا ان اختلفوا مع رفاقهم الخراسانيين على دابة سرقت فوجدت عند بعض السوريين واشتبك لذلك بينهم قتال افضى الى انتصار الشاميين وكان في

فلسطين رجل يقال له المبرقع قصده واحد من العسكر الى داره مريدًا الدخول فصدته احدى النساء فضربها فدخلت واحكت للمبرقع فخرج اليه وقتله على انه خاف العقوبة ففر الى جبال الاردن واختفى فيها ملثمًا فاجتمع اليه كثيرون من الناس ظنًا منهم انه السفياني وبداوا يفتنون ويعيثون في الارض فسادًا فبعث الخليفة المعتصم رجاء بن ايوب بجماعة من الجند فقاتلوه واسروه بعد ان قتلوا من اصحابه عشرين الفًا وكان حدوث ذلك سنة ٢٢٧ وفي سنة ٢٤٤ نقل المتوكل سرير خلافته من بغداد الى دمشق ثم استوبئها فرجع بعد ان قام فيها شهرين

وظلت سوريا ساكنة تحت ظل العباسيين تؤديهم الجزية والخراج وتخضع لعمالهم كل زمان دولتهم على انها كانت تعز بعزهم وتذل بذلهم من ذلك انه لما قام المعتز بالخلافة بدات الفتنة وكان منشأها القوم الذين احسن اليهم حيث كان قد استوزر بعضًا من الترك وقدم بعضًا آخرين واستعمل بابكال اكبرهم على مصر فارسل بابكال ابن اخته احمد بن طولون يتولاها ولم يكن حكمه عامًا عليها بل كان محصورًا في بعض انحائها على انه لما قتل المعتز بابكال وقلد امارة مصر لبارجوع اقرَّ احمد بن طولون عليها كلها فصارت تراثًا لبنيه ثم بعث المعتز بعيسى الشيخ ابن سرير الشيباني عاملاً على الرملة فجاءها واستولى عليها وعلى دمشق وعمالاتها وقطع عن الخليفة ما كان يحمل اليه من مال الشام ولما جلس المعتمد على اريكة الخلافة بعث ماجور عاملا على دمشق وعمالاتها فلما علم عيسى بذلك بعث ابنه منصورا في عشرين الف مقاتل فانهزم وقتل وسار عيسى الى ارمينيا وفي سنة ٢٦٤ توفي ماجور عامل دمشق فاقام مكانه ابنه علي فكتب احمد بن طولون اليه من مصر بان المعتمد اقطعه الشام والثغور فاجاب مطيعًا فسار احمد واستخلف على مصر ابنه العباس فلما ادرك الرملة لقيه ابن ماجور فيها فولاه عليها ثم سار الى دمشق وحمص وحماه وحلب فملكها واقر امراء الاقطاع على ولاياتها على انه كان يحكم انطاكية

وطرسوس سيما الطويل من قواد الترك فكتب ابن طولون اليهِ بالطاعة فيقره على ولايتهِ فامتنع فزحف عليهِ ونزل على سور البلدة حتى علم بعورة فيهِ فنصب عليها المجانق وضربها فملكها عنوة وقتل سيما ثم سار الى طرسوس فدخلها واراد القيام بها فشكا اهلها اليهِ غلاء السعر فسالوهُ الرحلة عنهم فمضى الى حران وحارب محمدًا بن اتامش وهزمهُ واستولى عليها ثم علم بانتقاض ابنهِ العباس بمصر وانهُ اخذ الاموال وسار الى برقة فلم يكترث بذلك واصلح احوال الشام ونزل بحران عسكرًا

لاجرم ان الدولة العباسية قد شربت من كاس الدهر الجرعة التي عود ابناءهُ عليها فاحطها عن اثيل مجدها معتاضًا عنها بالدولة التركية وما رجا لها الأَّ مماليك العباسيين اولئك الذين لعب الشقاق بهم فآل الى سقوط دولتهم على انها كانت لم تزل اسمية ايام ابن طولون لكن لم ينل حظ سلفائهِ حيث لم يغز جيشهُ المجرّد على ابن طولون بطائلة سوى قطع اسمهِ من الدعاء في الخطب والذكر في الطرر وكان لؤلوء مولى ابن طولون عاملاً لهُ في شمال سوريا فلما علم بتخلف ابن طولون عن ولاء الخليفة انتقض عليهِ وفي سنة ٢٧٠ انتقض حاكم طرسوس على ابن طولون فار لحصاره ومات دون بلوغ اربهِ فقام عوضهُ في ولاية مصر والشام ابنهُ خمارويه فكانت بداءة ملكهِ مفتتحة بعصاوة دمشق عليهِ فلم يمكنها من التمادي بثورتها حيث بعث عليها كتيبة فطوعتها

وكان يومئذ بالموصل والجزيرة اسحاق بن كنداج وعلى الانبار والرحبه وطريق الفرات محمد بن ابي الساج فكاتبا الموفق في المسير الى الشام واستمداه فاذن لهما ووعدهما بالمدد فسارا وملكا ما يجاورهما من الشام واستولى اسحاق على انطاكية وحلب وحمص فهرب خمارويه الى شيزر وهي في طاعتهِ وجاء ابو العباس ابن الموفق وهو المعتضد من بغداد بالعساكر فكبس شيزر وقتل من جند ابن طولون مقتلة عظيمة ولحق فلهم بدمشق وابو العباس في اتباعهم فجلوا عنها وملكها في شعبان سنة ٢٧١ ورجعت عساكر خمارويه الى

الرملة واقاموا بها وزحف اسحاق بن كنداج الى الرقة وعليها وعلى الثغور والعواصم ابن دعاص من قبل خمارويه فقاتله وكان الظهور لاسحاق ثم زحف ابو العباس المعتضد من دمشق الى الرملة وسار خمارويه من مصر واجتمع بعساكره في الرملة على ماء الطواحين وكان المعتضد قد استفسد لابن كنداج وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن في انتظارهما اياه في محاربة خمارويه وعبى المعتضد عساكره ولقى خمارويه وقد اكمن له فانهزم خمارويه اولاً وملك المعتضد خيامهُ وشغل اصحابهُ بالنهب فخرج عليهم الكمين فانهزم المعتضد الى دمشق فلم يفتح لهُ اهلها فراح الى طرسوس واقام العسكران يقتتلان دون امير واقام اصحاب خمارويه عليهم اخاه سعداً مكانهُ وذهبوا الى الشام فملكوه اجمع واذهبوا منهُ دعوة الموفق وابنه وبلغ الخبر الى خمارويه فسر واطلق الاسرى الذين كانوا معهُ ثم ثار اهل طرسوس بابي العباس فاخرجوهُ وسار الى بغداد وولوا عليهم مازبار فاستبد بها ثم دعا لخمارويه بعد ان وصلهُ بمال جليل يقال انفذ اليهِ ثلاثين الف دينار وخمسماية ثوب وخمسماية مطرف وسلاحاً كثيراً فدعا لهُ ثم بعث اليهِ بخمسين الف دينار

ولم تقتصر دولة بني طولون على سوريا فقط بل امتدت ايضاً الى داخلية مملكة العباسيين فان الزمان كان يسهل لها نيل الاماني ولذلك اتخذ خمارويه حدوث بعض الفتن بين ابن الساج وبين اسحق بن الكنداج واسطة لمداخلتهِ فما انتجت تلك الفتن الا تسلطهُ على بلادهما الخاضعة للدولة العباسية لكن الدولة الطولونية كانت قصيرة الامد لانها اندثرت ايام المكتفي وعادت مصر وسوريا وكل البلدان التي خضعت لبني طولون للدولة العباسية وفي غضون ذلك ظهرت شيعة القرامطة في بعض مدن العراق وجاء زعيمهم الشام فلم يستقر فيها وعاد مقهوراً وقتل بامر الخليفة

وفي سنة ٣٢٧ هـ ظهر رائق في العراق واتى الشام فسولت نفسهُ تملكها فاتاها من العواصم وثغور قنسرين وحل على حمص اولاً فملكها ثم اتى دمشق

وبها بدر بن عبد الله الاخشيذي ويلقب بدير فملكها من بدءٍ ثم سار الى الرملة ومنها الى عريش مصر يريد ملك الديار المصرية ولقيهُ الاخشيذ محمد بن طفج وانهزم اولاً وملك اصحاب ابن رائق خيامهُ ثم خرج كمين الاخشيذ فانهزم ابن رائق الى دمشق وبعث الاخشيذ في اثره اخاه ابا نصر بن طفج وسار اليهم ابن رائق من دمشق فهزمهم وقتل ابو نصر فكفنهُ ابن رائق وحملهُ مع ابنهِ مزاحم الى الاخشيذ بمصر وكتب يعزيهِ ويعتذر فاكرم الاخشيذ مذاحمًا واصطلح مع ابيهِ على ان تكون مصر للاخشيذ من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الاخشيذ عن الرملة في كل سنة ماية واربعين الف دينار

ثم ان الخليفة دعا اليهِ ابن رائق فترك على عمالتهِ الشام ابا الحسن احمد بن علي بن مقاتل وسار اليهِ فاحسن اليهِ على انهُ قتل بعد ذلك فقام الاخشيذ صاحب مصر واتى سوريا وعاصمتها دمشق وبها من قبل ابن رائق محمد بن بذداد فاستامن اليهِ وملك الاخشيذ دمشق واقر ابن بذداد عليها ثم نقلهُ الى شرطية مصر

وفي سنة ٣٣٠ ايام المتقي اتى الروم بجيوش عرمرمية حتى حلب فعاثوا في البلاد وبلغ سبيهم خمسة آلاف ثم ارتدوا عنها ولما استولى ناصر الدين بن حمدان على الموصل وجوارها تولى اخوهُ سيف الدولة حلب وحمص سنة ٣٣٣ وفي ايامهِ كانت غزوات الروم كثيرة جدًّا وقد دافع عن وطنهِ بكل جهدهِ وابدى خدامات لامزيد عليها حملت ابا الطيب المتنبي شاعر ذلك الزمان على مدحهِ بقصائد رنانة

ثم ان سوريا استمرت كفريسة تتناوشها الحكام والعمال تارةً يقوم عمالها فيعصون وطورًا ياتيها غريب فيطيعون ويومًا تقوى فيهم حلقة الخلافة فيذكرون سابق العهد ولا يلبثون ان يرضخوا وما انفكت على حالها المضطرب الى ان عظم شان المعتز لدين الله وهو اول خلفاء الفاطميين المستقلين في

مصر (كان قبله ثلاثة منهم استقلوا في بلاد المغرب) واستخلص البلاد المصرية من الدولة العباسية او بالحري من الاتراك الذين امسوا في المملكة الاسلامية كالمماليك في مصر اي مستبدين في الاحكام وكان قد اتى القرامطة تحت امرة ملكهم الاعصم واحتلوا دمشق وقد استامن عاملها للمعتز فانكسروا اولاً لكنهم عاودوها واخذوها وقتلوا عاملها وعزم الاعصم على المسير الى مصر لقتال المعتز وكتب جوهر للمعتز فعزم على مقابلة الاعصم وقتاله

وقد ذكر ابن خلدون ذلك مفصلاً قال كان للقرامطة على بني طغج بدمشق ضريبة يؤدونها اليهم فلما ملك ابن فلاح بدعوة المعتز قطع تلك الضريبة واسفهم بذلك فرجعوا الى دمشق وعليهم الاعصم ملكهم فبرز اليهم جعفر بن فلاح فهزموهُ وقتلوهُ وملكوا دمشق وما بعدها الى الرملة وهرب من كان بالرملة وتحصنوا بيافا وملك القرامطة يافا وجهزوا العساكر عليها وساروا الى مصر ونزلوا على شمس وهي المعروفة لهذا العهد (عهد ابن خلدون) بالمطريه واجتمع اليهم خلق كثير من العرب واولياء بني طغج وحاصروا المغاربة بالقاهرة وقاتلوهم اياماً فكان الظفر بهم ثم خرج المغاربة واستامنوا وهزمهم فرحلوا الى الرملة وضيقوا حصار يافا وبعث اليهم جعفر بالمدد في البحر فاخذهُ القرامطة وانتهى الخبر الى المعتز بالقيروان وجاء الى مصر ودخلها كما ذكرنا وسمع انهم يريدون المسير الى مصر فكتب الاعصم يذكرهُ فضل بنيهِ وانهم انما دعوا لهُ ولابائهِ وبالغ في وعظهِ وتهديدهِ فاساء في جوابهِ وكتب اليهِ وصل كتابك الذي قل تحصيلهُ وكثر تفصيلهُ ونحن سائرون اليك والسلام وسار من الاحساء الى مصر ونزل عند شمس في عساكره واجتمع اليهِ الناس من العرب وغيرهم وجاء حسان بن الجراح في جموع عظيمة من طي وبث سراياهُ في البلاد فعاثوا فيها واهمّ المعتز شأنهُ فراسل ابن الجراح واستمالهُ بمائة الف دينار على ان ينهزم على القرامطة واستحلفوه على ذلك وخرج المعتز ليوم عينوهُ لذلك فانهزم ابن الجراح بالعرب وثبت

القرامطة قليلاً ثم انهزموا واخذ منهم نحو الف وخمسمائة اسير وساروا في اتباعهم ولحق القرامطة باذرعات وساروا منها الى الاحساء وقتلوا صبرًا ونهب معسكرهم وجرد المعتز ابا محمود في عشرة الاف فارس وساروا في اتباعهم ولحق القرامطة باذرعات وساروا منها الى الاحساء وبعث المعتز القائد ظالمًا بن موهوب المعقيلي واليًا على دمشق فدخلها وكان العامل بها من قبل القرامطة ابو اللجاء وابنهُ في جماعة منهم فحبسهم ظالم واخذ اموالهم ورجع القائد ابو محمود من اتباع القرامطة الى دمشق فتلقاه ظالم وسر بقدومهِ وسالهُ المقام بظاهر دمشق حذرًا من القرامطة ففعل ورفع ابا اللجاء وأبنهُ فبعث بهم الى مصر فحبسوا بها وعاث اصحاب ابي محمود من دمشق فاضطرب الناس وقتل صاحب الشرطة بعضهم فثاروا بهِ وقتلوا اصحابهُ وركب ظالم بذراريهم واجفل اهل الضواحي الى البلد من عيث المغاربة ثم وقعت في منتصف شوال من سنة ثلاث وستين فتنة بين العامة وبين عسكر ابي محمود وقاتلوهُ اياماً ثم هزمهم وتبعهم الى البلد وكان ظالم بن موهوب يداري العامة فاشفق في هذا اليوم على نفسهِ وخرج من دار الامارة واحرق المغاربة ناحية باب الفراديس ومات فيها خلق واتصلت الفتنة الى ربيع الاخر من سنة اربع وستين ثم وقع الصلح بينهم على اخراج ظالم من البلد وولاية جيش بن الصمصامة بن اخت محمود فسكن الناس اليهِ ثم رجع المغاربة الى العيث وعاد العامة الى الثورة وقصدوا القصر الذي فيهِ جيش فهرب ولحق بالعسكر وزحف الى البلد فقاتلهم واحرق ما كان بقي وقطع الماء عن البلد فضاقت الاحوال وبطلت الاسواق وبلغ الخبر الى المعتز فانكر ذلك على ابي محمود واستعظمهُ وبعث الى زياد الخادم في طرابلس يامره بالمسير الى دمشق لاستكشاف حالها وان يصرف القائد ابا محمود عنها فصرفهُ الى الرملة وبعث الى المعتز بالخبر واقام بدمشق الى ان وصل افتكين واليًا على دمشق وكان افتكين هذا من موالي عز الدولة بن بويه ولما ثار الاتراك على ابنهِ بختيار مع سبكتكين

ومات سبكتكين قدمة الاتراك عليهم وحاصروا بختيار بواسط وجاء عضد الدولة لانجاده فاجلوا عن واسط فتركوه ببغداد وسار افتكين في طائفة من الجند الى حمص فنزل قريباً منها وقصده ظالم بن موهوب العقيلي ليقبضهُ فعجز عنهُ وسار افتكين فنزل بظاهر دمشق وبها زياد خادم المعتز وقد غلب عليهِ وعلى اعيان البلد الاحداث والذعار فلم يملكوا معهم امر انفسهم فخرج الاعيان الى افتكين وسالوا منهُ الدخول اليهم ليولوه وشكوا اليهِ حال المغاربة وما يحملونهم عليهِ من عقائد بعض الرفض وما انزل بهم عمالهم من الظلم والعسف فاجابهم واستحلفهم وحالف لهم وملك البلد وخرج منها زياد الخادم وقطع خطة المعتز العلوي وخطب للطائع العباسي وقمع اهل الفساد ودفع العرب عما كانوا استولوا عليهِ من الضواحي واستقل ملك دمشق وكاتب المعتز بطلب طاعتهِ وولايتها من قبلهِ فلم يثق اليهِ ورده وتجهز لقصده وجهز العساكر فتوفي بعسكره ببلبيس كما يذكر اه

ولما توفي المعتز وولي العزيز قام افتكين وقصد البلاد التي لهم بساحل الشام فبدأ بصيدا فحاصرها وبها ابن الشيخ في رؤوس المغاربة وظالم بن موهوب العقيلي فبرزوا اليهِ وقاتلوه فاستجد لهم ثم كر عليهم واوقع بهم وقتل منهم اربعة الاف وسار الى عكاء فحاصرها وقصد طبرية وفعل فيها مثل صيدا ورجع واستشار العزيز وزيره يعقوب بن كلس فاشار بارسال جوهر الكاتب اليهِ فجهزه العزيز وبعثهُ واقبل افتكين على اهل دمشق يريهم التحول عنهم ويذكرهم بذلك ليختبرهم فتطارحوا اليهِ واستماتوا واستحلفهم على ذلك ووصل جوهر في ذي القعدة سنة خمسة وستين فحاصر دمشق شهرين وضيق حصارها وكتب افتكين الى الاعصم ملك القرامطة يستنجدهُ فسار اليهِ من الاحساء واجتمع اليهم من رجال الشام والعرب نحو من خمسين الفاً ادركوا جوهراً بالرملة وقطعوا عنهُ الماء فارتحل الى عسقلان فحاصروه بها حتى بلغ الجهد وارسل جوهر الى افتكين بالمغاربة والوعد والقرمطي يمنعهُ ثم

سالهُ الاجتماع فجاءهُ افتكين ولم يزل جوهر يعتل لهُ في الدورة والمغارب وافتكين يعتذر بالقرمطي و يقول انت حملتني على مداراتهِ فلما آيس منهُ كشف لهم عما هم فيهِ من الضيق وسالهُ الصنيعة وانهُ يتخذها عند العزيز فحلف لهُ على ذلك وعزلهُ القرمطي واراهُ جوهر ان يحمل العزيز على المسير بنفسهِ فضم من عذلهُ وابى الا الوفاء وانطلق جوهر الى مصر واغرى العزيز بالمسير اليهم فتجهز في العساكر وسار وجوهر في مقدمتهِ ورجع افتكين والقرمطي الى الرملة واحتشدوا ووصل العزيز فاصطفوا للحرب بظاهر الرملة في محرم سنة سبعة وستين و بعث العزيز الى افتكين يدعوهُ الى الطاعة و يرغبهُ و يعدهُ بالتقدم في دولتهِ و يدعوهُ الى الحضور عندهُ فتقدم بين الصفين وترجل وقبل الارض وقال قل لامير المؤمنين لو كان قبل هذا لسارعت واما الان فلا يمكنني وحمل على الميسرة فهزمهم وقتل الكثير منهم وانتعص العزيز وحمل هو والميمنة جميعاً فهزمهم و وضع المغاربة السيف فقتلوا نحواً من عشرين الفاً ثم نزل في خيامهِ وجيء بالاسرى فخلع على من جاء بهم و بذل لمن جاء بافتكين مائة الف دينار فلقيهُ المفرج بن دغفل الطائي وقد جهده العطش فاستسقاه فسقاه وتركهُ بعرشهِ مكرماً وجاء الى العزيز فاخبره بمكانهِ واخذ المائة الالف التي بذلها فيهِ وامكنهُ من قياده ولما حضر عند العزيز وهو لا يشك انهُ مقتول اكرمهُ العزيز ووصلهُ ونصب لهُ الخيام واعاد اليهِ ما نهب لهُ ورجع بهِ الى مصر فجعلهُ اخص خدمهِ وحجابهِ و بعث الى الاعصم القرمطي من يرده اليهِ ليصلهُ كما فعل بافتكين فادرك بطبرية وامتنع من الرجوع فبعث اليهِ بعشرين الف دينار وفرضها لهُ ضريبة وسار القرمطي الى الاحساء وعاد العزيز الى مصر ورفع رتبة افتكين وخص بهِ الوزير يعقوب بن كلس مسمعهُ وسمع العزيز بانهُ سمهُ فحبسهُ اربعين يوماً وصادره على خمسمائة الف دينار ثم خلع عليهِ واعاده الى وزارتهِ وتوفي جوهر الكاتب في ذي القعدة من سنة احدى وثمانين واقام ابنهُ الحسن مقامهُ ولقب قائد القواد وكان افتكين قد استخلص

ايام وزارته بدمشق رجلاً اسمهُ قسام فعلا صيتهُ وكثر تابعهُ واستولى على البلد ولما انهزم افتكين والقرامطة بعث العزيز القائد ابا محمود بن ابراهيم واليًا على دمشق كما كان لابيهِ المعتز فوجد فيها قسامًا قد ضبط البلد وهو يدعو للعزيز فلم يتم لهُ معهُ ولاية وبقي قسام مستبدًا عليهِ الى ان مات ابو محمود سنة سبعين ثم جاء ابو ثعلب بن حمدان صاحب الموصل الى دمشق عند انهزامهِ امام عضد الدولة فمنعهُ قسام من الدخول وخاف ان يغلبهُ على البلد بنفسهِ او بامر العزيز واستوحش ابو ثعلب لذلك فقاتلهُ قليلاً ثم رحل الى مصر وجاءت عساكر العزيز مع قائده الفضل فحاصروا قسامًا بدمشق ولم يظفروا بهِ ورجعوا ثم بعث العزيز سنة تسع وستين سليمان بن جعفر بن فلاح فنزل بظاهرها ولم يمكنهُ قسام من دخولها ودس الى الناس فقاتلوهُ وازعجوهُ عن مكانهُ وكان مفرج بن الجراح امير بني طي وسائر العرب بارض فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكتهُ وعاث في البلاد وخربها فجهز العزيز العساكر لحربهِ مع قائده بلتكين التركي فسار الى الرملة واجتمع اليهِ من العرب قيس وغيرهم ولى ابن الجراح وقد اكمن لهم بلتكين من ورائهم فانهزم ومضى الى انطاكية فاجاره صاحبها وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية الى بلاد الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور مولى سيف الدولة وعاملهُ على حمص ولجأ اليهِ فاجاره ثم زحف بلتكين الى دمشق واظهر لقسام انهُ جاء لاصلاح البلد وكان مع قسام ابن الصمصامة ابن اخت ابي محمود قد قام بعده في ولايتهِ فخرج الى بلتكين فامره بالنزول معهُ بظاهر البلد هو واصحابهُ واستوحش قسام وتجهز للحرب ثم قاتل وانهزم اصحابهُ ودخل بلتكين اطراف البلد فنهبوا واحرقوا واعتزم اهل البلد على الاستئمان الى بلتكين وشافهوه بذلك فاذن لهم وسمع قسام فاضطرب والقى ما بيده واستأمن من الناس الى بلتكين لانفسهم ولقسام فامن الجميع وولى على البلد اميرًا اسمهُ خطلج فدخل البلد وذلك في المحرم سنة ثنتين وسبعين ثم اختفى قسام بعد

يومين فنهبت دوره ودور اصحابهِ وجاء ملقياً بنفسهِ على بلتكين فقبلهُ وحملهُ الى مصر فامنهُ العزيز وكان بكجور في غوية من غلمان سيف الدولة وعاملهُ على حمص وكان يمدد دمشق ايام هذه الفتنة والغلاء ويحمل الاقوات من حمص اليها و يكاتب العزيز بهذه الخدم ثم استوحش سنة ثلاث وسبعين من مولاه ابي المعالي فاستنجز من العزيز وعده اياه بولاية دمشق وصادف ذلك ان المغاربة بمصر اجمعوا على التوثب با لوزير بن كلس ودعت الضرورة الى استقدام بلتكين من دمشق فامرهُ العزيز با القدوم و ولاية بكجور على دمشق ففعل ودخلها بكجور في رجب من سنة ثلاث وسبعين وعاث في اصحاب ابن كلس وحاشيتهِ بدمشق لما كان يبلغهُ عنهُ من صد العزيز عن ولايتهِ ثم اساء السيرة في اهل دمشق فسعى ابن كلس في عزلهِ عند العزيز وجهز العساكر سنة ثمان وسبعين مع منير الخادم وكتب الى نزال عامل طرابلس بمظاهرتهِ وجمع بكجور العرب وخرج للقائهِ فانهزم ثم خاف من وصول نزال فاستأمن لهم وتوجه الى الرقة فاستولى عليها ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها وارتفعت منزلتهُ عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب وكان بكجور بعد انصرافهِ من دمشق الى الرقة سأل من سعد الدولة العود الى ولاية حمص فمنعهُ فاجلب عليهِ واستنجد العزيز لحربهِ وبعث الى نزال عامل طرابلس بمظاهرتهِ فسار اليهِ با لعساكر وخرج سعد الدولة من حلب للقائهم وقد اضمر نزال الغدر ببكجور بتقدم اليهِ بذلك عيسى بن نسطوروس وزير العزيز بعد ابن كلس وجاء سعد الدولة للقائهم وقد استمد عامل انطاكية للروم فامده بجيش كثير وداخل العرب الذين مع بكجور في الانهزام عنهُ ووعدوه ذلك من انفسهم فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بخديعة العرب فاستمات وحمل على الصف يقصد سعد الدولة فقتل لوءلوء الكبير مولاهُ بطعنهِ اياه ثم حمل عليهِ سعد الدولة فهزمهُ فسار الى بعض العرب وحمل الى سعد الدولة فقتلهُ وسار الى الرقة فملكها وقبض جميع اموالهِ وكانت شيئاً لا يعبر عنهُ وكتب

اولاده الى العزيز يستشفعون بهِ فشفع الى سعد الدولة فيهم ان يبعثهم الى مصر ويتهددهُ على ذلك فاساء سعد الدولة الرد وجهز لحصار حلب الجيوش مع منجوتكين فنزل عليها وحاصرها وبها ابو الفضائل بن سعد الدولة ومولاهُ لوءلوء الصغير وارسلا الى باسيل ملك الروم يستنجدانهِ وهو في قتال البلغار فبعث الى عامل انطاكية ان يمدها فسار في خمسين الفًا حتى نزل جسر العاصي وبلغ خبرهُ الى منجوتكين فارتحل عن حلب ولقي الروم فهزمهم واثخن فيهم قتلاً واسرا وسار الى انطاكية وعاث في نواحيها وخرج ابو الفضائل في مغيب منجوتكين الى ضواحي حلب فنقل ما فيها من الغلال واحرق بقيتها لتفقد عساكر منجوتكين الاقوات فلما عاد منجوتكين الى الحصار جهز عساكره وارسل لوءلوء ابي الحسن المغربي في الصلح فعقد لهُ ذلك ورحل منجوتكين الى دمشق وبلغ الخبر الى العزيز فغضب وكتب الى منجوتكين بالعود الى حصار حلب وابعاد الوزير المغربي وانفذ الاقوات للعسكر في البحر الى طرابلس واقام منجوتكين في حصار حلب واعادوا مراسلة ملك الروم فاستنجدوه واغروه وكان قد توسط بلاد البلغار فعاد مجدًّا في السير وبعث لوءلوء الى منجوتكين بالخبر حذرًا على المسلمين وجاءتهُ جواسيسهُ بذلك فاجفل بعد ان خرب ما كان اتخذه في الحصار من الاسواق والقصور والحمامات ووصل ملك الروم الى حلب ولقي ابا الفضائل ولوءلوءا ثم سار في الشام وافتتح حمص وشيذر ونهبهما وحاصر طرابلس اربعين يومًا فامتنعت عليهِ وعاد الى بلاده وبلغ الخبر الى العزيز فعظم عليهِ واستنفر الناس للجهاد وبرز من القاهرة وذلك سنة احدى وثمانين ثم انتقض منير في دمشق فزحف اليهِ منجوتكين الى دمشق

اما ما جاء بذكرهِ الامام من دخول ملك الروم سوريا فهو مطابق للرواية الافرنجية فانهُ لا يخفى ان باسيل المكدوني كان سائسًا عند سلفهِ ميخائيل الثالث الا انهُ اخذ بالترقي حتى اشترك معهُ في الاحكام فراى ان ميخائيل غير جدير بالسلطنة وان البلاد قد اشرفت على شفاء الخطر فثار عليهِ وقتلهُ

سنة ٨٧٦ واستبد في الملك حيث اخذ بالاصلاحات اللازمة لبلاده من اشتراع القوانين المشهورة بالباسلية نسبة اليهِ وكانت نحوًا من ستين مجلدًا واجرى اصلاحات اخرى في الادارة الرومانية ثم حمل على الشام فحارب وافتتح المدن والجزائر ثم توفي العزيز قبل تمكنهِ من الحملة على الشام لقتال ملك الروم وقام مكانهُ في الخلافة ابنهُ الحاكم بامر الله سنة ثلاثمائة وست وثمانون للهجرة وكان العزيز قد وكل باعباء الملك برجوان الخادم وجعل رديفهُ في ذلك ابا محمد الحسن بن عمار على ان منجوتكين اظهر الانتقاض لتقدم ابن عمار في المملكة فكاتب برجوان فتكدر ابن عمار من ذلك وجيش لقتا لهِ تحت امرة ابن فلاح فلقيهُ عند عسقلان ووقعت بين الفئتين ملحمة عظيمة دارت فيها الدائرة على منجوتكين فاسر وقتل كثيرون من جنوده وعظم الفل ولما اتي سليمان بن فلاح قائد ابن عمار بمنجوتكين الى مصر عفى عنهُ وتولى خطة الشام سليمان المذكور ويكنى ابا تميم فبعث من طبرية اخاهُ عليًا على دمشق على ان اهلها ابوا قبولهُ اولاً فكتب ابو تميم يتهددهم ويستميلهم حتى زعنوا فدخل على البلد وفتك ببعض اهلها ثم جاءها ابو تميم فامنهم واحسن الى بعضهم وبعث اخاهُ عليًا الى طرابلس بعد ان عزل عنها جيش بن صمصامة فسار هذا الى مصر وتداخل مع برجوان وثارت الفتنة على ابن عمار فخلع من مصلحتهِ وكتب الحاكم الى الشام بالقبض على ابي تميم بن فلاح المذكور فقبض عليهِ ونهبت خزائنهُ واشتدت الفتنة في الشام اشتدادًا عظيمًا حتى انتقضت صور اي خلعت عنها نير الطاعة وقام بها رجل ملاح اسمهُ العلاقة وحدثت فتنة اخرى في الرملة مثيرها ابن الجراح فعاث في البلاد

قال ابن خلدون وزحف الدوقس ملك الروم الى حصن افاميه محاصرًا لها (قلت) ان رواية الامام مبهمة جدًّا لعدم ايضاحه بل لان في قولهِ الدوقس ملك الروم يفهم ان المسمى انما هو ملك القسطنطينية والحال ان من اطلع على الحقيقة التاريخية يرى ان في تلك الايام اي بدء ولاية الحكم

كان في مملكة الروم الملك باسيل المكدوني المتقدم ذكره وحسبنا شاهدًا ذات رواية الامام بعد ذلك ولا يحتمل امكان وجود ملك آخر مشترك مع باسيل في ذلك التاريخ غير اننا نرى ان الدوقس ربما كان محرفًا عن اسم حاكم انطاكية او بعض المدن التي استرجعها الروم حديثًا واعطاءه اياهُ لقب ملك انما هي كلمة يكثر استعمالها في ابن خلدون وغيره من المورخين كما كان يكثر استعمالها للعمال او اصحاب الاقطاع اما حصن افاميا فهو قلعة مضيق الحالية قال الامام بعد تلك العبارة وجهز برجوان العساكر مع جيش بن صمصامة فسار الى عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدون واسطولاً في البحر واستنجد القلاقه (هو الملاح الذي ثار في صور) ملك الروم فانجده بالمقاتله في المراكب فظفر بهم اسطول المسلمين واضطرب اهل صور وملكها ابن حمدان (حسبك شاهدًا اعطاء ابن حمدان لقب ملك وهو عامل) واسر القلاقة وبعث به الى مصر فسلخ وصلب وسار جيش بن صمصامة الى الفرج بن دعقل فهرب امامه ودخل الى دمشق وتلقاه اهلها مذعنين واحسن اليهم وسكنهم ورفع ايدي العدوان عنهم ثم سار الى افاميه وصاف الروم عندها فانهزم اولاً هو واصحابه وثبت بشارة اخشيدي بن قرادة في خمسة عشر فارسًا ووقف الدوقس ملك الروم على رابية في ولده وعدة من غلمانه ينظر فعل الروم في المسلمين فقصد كرديًا من مصاف الاخشيدي وبيده عصا من حديد يسمى الخشت وظنه الملك مستامنًا فلما دنا منهُ ضربهُ بالخشت فقتله وانهزم الروم واتبعهم جيش ابن الصمصامة الى انطاكية يغنم ويسبي ويحرق ثم عاد مظفرًا الى دمشق فنزل بظاهرها ولم يدخل واستخلص روساء الاحداث واستحجبهم واقيم لهُ الطعام في كل يوم واقام على ذلك برهة ثم امر اصحابه اذا دخلوا للطعام ان يغلق باب الحجرة عليهم و يوضع السيف في سائرهم فقتل منهم ثلاثة الاف ودخل دمشق وطاف بها واحضر الاشراف فقتل روساء الاحداث بين ايديهم وبعث بهم الى مصر وامن الناس ثم انهُ توفي

وولي محمود بن جيش وبعث برجوان الى سيل (باسيل) ملك الروم فصالحهُ لعشر سنين اه

وكانت قد حدثت فتنة اخرى فاخمدها الحاكم بقوة السلاح وقتل كثيرين وعفى عن كثيرين حتى صفت البلاد زمناً يسيراً حيث مات الحاكم قتلاً وتولى عوضه الظاهر لاعزاز دين الله فانتقض عليهِ اهل الشام خلال ذلك وتغلب صالح بن مرداس من بني كلاب على حلب فعاث بنو الجراح في نواحيه فبعث الظاهر سنة عشر بن قائده الدزبري والي فلسطين في العساكر واوقع بصالح ابن الجراح وقتل صالح وابنهُ وملك دمشق وملك حلب من يد شبل الدولة نصر بن صالح وقتلهُ وكان بينهُ وبين بني الجراح قبل ذلك وهو بفلسطين حروب حتى هرب من الرملة الى قيسارية فاعتصم بها واخرب ابن الجراح الرملة واحرقها وبعث السرايا فانتهت الى العريش

وزحف صالح بن مرداس في جموع العرب لحصار دمشق وعليها يومئذٍ ذو القرنين ناصر الدولة بن الحسين وبعث حسان بن الجراح اليهم بالمدد ثم صالحوا صالحاً بن مرداس وانتقل الى حصار حلب وملكها من يد شعبان الكتامي وجردت العساكر من الشام مع الوزيري وكان ما تقدم وملك دمشق واقام بها

وبعد ان تولى الظاهر لاعزاز دين الله ست عشرة سنة توفي في منتصف شعبان سنة ٤٢٧ ﻫ فتولى موضعهُ ابنه ابو تميم معد ولقب المنتصر بامر الله وقام بامره وزير ابيهِ ابو القاسم علي بن احمد الجرجراي وكان بدمشق الوزيري واسمهُ اقوش تكين وكانت البلاد صلحت على يديهِ لعدلهِ ورفقهِ وضبطهِ وكان الوزير جرجراي يحسده ويبغضهُ وكتب اليهِ بابعاد كاتبهِ ابي سعيد فانفذ اليهِ ان يحمل الوزيري على الانتقاض فلم يجب الوزيري الى ذلك واستوحش وجاء جماعة من الجند الى مصر في بعض حاجاتهم فداخلهم الجرجراي في التوثب بهِ ودس معهم بذلك الى بقية الجند بدمشق

فتعللوا عليهِ فخرج الى بعلبك سنة ثلاث وستين فمنعهُ عاملها عن الدخول فسار الى حماة فمنع ايضًا فقوتل وهو خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض اوليائهِ من كفرطاب فوصل اليهِ في الفي رجل وسار الى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادي الاخرة من السنة وفسد بعدهُ امر الشام وطمع العرب في نواحيهِ وولى الجرجراي على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى امرهِ منع الشام وملك حسان بن مفرج فلسطين وزحف معز الدولة بن صالح الكلابي الى حلب فملك المدينة وامتنع عليهِ اصحاب القلعة و بعثوا الى مصر للنجدة فلم ينجدهم فسلموا القلعة لمعز الدولة بن صالح فملكها

وكان بعد ذلك ان بعض الاتراك قد فسدوا في الدولة العلويه او الفاطمية وارتبكت الاحوال واي ارتباك وكان بدر الجمالي رجلاً من الارمن اقامهُ صاحب دمشق حاجبًا فمات مولاهُ وقبض هو الاحكام الى ان اتى الامير ابن منير فعاد الى مصر واخذ با لترقي الى ان صار واليًا في عكاء وحاز ما لا مزيد عليهِ من الشهرة والاقدام بعث المنتصر بعد تلك الاحوال يستقدم بدر الجمالي لتدبير الاحوال فاستاذنهُ باكثار الجند لقهر الثائرين فاذن وجهز بدر عشرة مراكب بجند كثيف فوصل الى مصر وحظي من الخليفة بمكان عالٍ ولقبهُ بالالقاب الفخيمة فقبض على ازمة الامور واسترد ما كان تغلب عليهِ اهل النواحي مثل ابن عمار بطرابلس وابن معرف بعسقلان وبني عقيل بصور وكل ما اخذ القواد في مصر وغيرها

هذا ما كان من استيلاء دولة الفاطميين على سوريا على انهُ في اواخر هذا الزمان ظهرت اعلام الدولة السلجوقية تحت امرة طغرلبك فاتكة بالاقطار و هذا ما قيل عن بدء دولتهم وامتدادها وحالتها

كان السلجوقية وعساكرهم من الغز قد استولوا في هذا العصر على خراسان والعراقين و بغداد وملكهم طغرلبك وانتشرت عساكرهم في سائر الاقطار وزحف اتسز بن افق من امراء السلطان ملك شاه وسموهُ الشاميون

افقس والصحيح هذا وهو اسم تركي هكذا قال ابن الاثير فزحف سنة ثلاث وثلاثين بل ستين بعد الاربعمائة ففتح الرملة ثم بيت المقدس وحصر دمشق وعاث في نواحيها وبها المعلى ابن حيدرة ولم يزل يوالي عليها البعوث الى سنة ثمان وستين وكثر عسف المعلى باهلها مع ما هم فيهِ من شدة الحصار فثاروا بهِ وهرب الى باسيس ثم لحق بمصر فحبس الى ان مات ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة وولوا عليهم انتصار بن يحيى منهم ولقبوهُ وزير الدولة ثم اضطربوا مما هم فيهِ من الغلاء وجاء امير من القدس فحاصرهم حتى نزلوا على امانهِ ونزل وزير الدولة بقلعة بانياس ودخل دمشق في ذي القعدة وخطب فيها للمقتدى العباسي ثم سار الى مصر سنة تسع وستين فحاصرها وجمع بدر الجمالي العساكر من العرب وغيرهم وقاتلهُ فهزمهُ وقتل اكثر اصحابهِ ورجع اتسز منهزمًا الى الشام فاتي دمشق فشكر اهاليها ورفع عنهم خراج سنة تسع وستين وجاء الى بيت المقدس فوجدهم قد عاثوا في مخلفهِ وحاصروا اهلهُ واصحابهُ في مسجد داود عليهِ السلام فحاصرهم ودخل البلد عنوة وقتل اكثر اهلهِ حتى قتل كثيرًا في المسجد الاقصي

ثم جهز امير الجيوش بدر الجمالي العساكر من مصر مع قائدهِ نصير الدولة فحاصر دمشق وضيق عليها وكان ملك السلجوقية السلطان ملك شاه قد اقطع اخاهُ تتش سنة سبعين واربعمائة بلاد الشام وما يفتحهُ منها فزحف الى حلب وحاصرها وضيق عليها ومعهُ جموع كثيرة من التركمان فبعث اليهِ اتسز من دمشق يستصرخهُ فسار اليهِ واجفلت عساكر مصر عن دمشق وخرج اتسز من دمشق للقائهِ فقتلهُ وملك البلد وذلك سنة احدى وسبعين وملك ملك شاه بعد ذلك حلب واستولى السلجوقية على الشام اجمع وزحف امير الجيوش بدر الجمالي من مصر في العساكر الى دمشق وبها تاج الدولة تتش فحاصرهُ وضيق عليهِ وامتنع عليهِ ورجع وزحفت عساكر مصر سنة ثنتين وثمانين الى الشام فاسترجعوا مدينة صور من يد اولاد القاضي عين الدولة

بن ابي عقيل وكان ابوهم قد انتذى عليها ثم فتحوا مدينة صيدا ثم مدينة جبيل وضبط امير الجيوش البلاد وولى عليها العمال وفي سنة اربع وثمانين استولى الافرنج على جزيرة صقلية وكان امير الجيوش قد ولى على مدينة صور منير الدولة بجيوش من طائفتهِ فانتقض سنة ست وثمانين وبعث اليهِ امير الجيوش بالعساكر فثار بهِ اهل المدينة واقتحمتهم العساكر وبعث منير الدولة الى مصر في جماعة من اصحابهِ فقتلوا كلهم ثم توفي امير الجيوش بدر الجمالي سنة سبع وثمانين في ربيع الاول لثمانين سنة من عمره

وفي سنة ٤٩١ مات تتش صاحب الشام فاختلف ابناهُ رضوان ودقاق وكان دقاق بدمشق ورضوان بحلب فخطب رضوان في اعمالهِ للمستعلي بالله العلوي صاحب مصر الذي تولى بعد ابيهِ المنتصر ولكن خطبتهُ لم تدم طويلاً حيثما عاد رضوان فخطب للعباسيين الذين باستيلاء السلاجقة عادوا لتملك البلاد بالاسم لان اولئك كانوا كعمال لهم وهكذا مر بنا التاريخ في الدولة الاسلامية بخمسة دول الاول دولة الراشدين وهم الخلفاء الاولون الذين تولوا في مكة المكرمة وذلك في بادي الخلافة الاسلامية اما شعوبهم فلم تكن قد خرجت الخروج التام من البدوية الى الحضارة بل كانت الفضائل العربية لم تزل منحصرة في بساطة الامة وكان العدل قسطاس الدولة والحمية الدينية تختلج بصدر كثيرين من الناس وقد مضت السنون في الفتوحات والفوز ثم انتقل الحال الى الدولة الاموية في دمشق وقد ذكرنا عن فتوحاتها واعمالها كثيراً لانها كانت مملكة سورية لوجود العاصمة في بلادها وفي ايام هذه الدولة بزغ هلال الاداب والمعارف وكثرت اسباب التجارة والصناعة والزراعة وتقدمت الامة تقدماً عجيباً ثم انتقلت الخلافة ليد العباسيين واندثرت الخلافة الاموية من المشرق كما اندثرت الخلافة الراشدية على ان الاموية قد ظهرت في الغرب وتلك لم يقم لها اثر اما العباسيون فكانت عاصمتهم بغداد وفي ايامهم انقسمت المملكة حيث تفرعت الى اموية في الاندلس وفاطمية في الغرب ثم مصر

وفروع كثيرة شرقًا وغربًا ولما ضاق نطاق العباسيين استولى الفاطميون وهم الدولة الرابعة الاسلامية على سوريا وضموها الى ممالكهم حينما كثرت فيها الفتن تخلصًا من احكامهم وحبًا بالرجوع للدولة العباسية او غيرها ثم انتقل الامر للسلاجقة وكانوا ملوكًا على ان الظاهر ان خطتهم كانت للعباسيين مقربين بخلافتهم وهذا يظهر من روايات الامام ولقد تقدم ان المعارف دخلت البلاد التي استولى عليها العرب ورقصت زمانًا طويلاً في مرسحها ومن مراجعة الاحوال والروايات التاريخية لا يوجد ما يحملنا على الظن بزوال الاداب او نقصانها بتقهقر الدولـــة العباسية وعدم حماية غيرها لها على اننا نعلم امرًا واحدًا وهو ان حكام سوريا وغيرها اي الخلفاء الفاطميين والاتراك لم يكونوا من العدل على ما كان عليهِ بقية الخلفاء من العباسيين ومن قبلهم بل ان كثيرين من اولئك قد خالفوا الشرائع الدينية والانسانية فما لبثت ان تخللت احكامهم وكثرت بينهم الفتن الى ان نهض قوم من اصحاب الدين والناموس فجددوا دولاً يرتاح الى استماع اخبارها الانسان

الفصل الثامن

الحروب الصليبية

بينما كانت اوروبا سابحة في بحار الجهل والتعاسة وممالكها في غاية من الانقسام والاضطراب واحوالها في حروب وخصام وملوكها في نزاع مستديم واهلوها في قيود الاستعباد للاعيان والامراء منهم وعدالتها قد بارحت الى امد بعيد والطاعة العمياء لخدمة الدين قد صارت سنة صرخ صوت ناسك بجيّ على الجلاد داعيًا جمهور الاوربيين الى المسير نحو الشرق واسماً لهم تلك الحرب بوسمة الصليب المقدس مشجعًا ببراءة من لدن الحبر الروماني اورمانوس الثاني

وكان كثيرون من المسيحيين يعتقدون ان موقع القبر المقدس في اورشليم معروف تمامًا ولذلك كان جمهور من الاوربا ويين يأتون

لزيارة تلك الذخيرة المقدسة منذ الجيل الرابع ولما تسلط العرب وحكم الاسلام البلاد تقررت للزائرين الحرية التامة فكانوا يأتونها و يبارحونها بدون ممانعة او اذى على ان بعض المؤرخين الاوربا ويين يقولون ان في زمان دولة الحاكم بامر الله المتقدم ذكرهُ وفي دولة سلفائهِ وللسلجوقيين لم تكن الحرية للزائرين تامة ولا العدالة للنصارى الوطنيين فجاء بطرس الناسك زائرًا فاجتمع بالبطريرك سمعان فقص عليهِ ما كان من بلايا قومهِ فعاد بطرس راجعًا الى اوروبا وانطرح على اقدام البابا اوربانوس الثاني طالبًا اليهِ قيام حرب غايتها استخلاص القبر المقدس من ايدي الاسلام

ولا ريب في ان كل من امعن النظر في احوال تلك الايام لا يلبث ان يشجب السياسة التي كانت مصدرًا لهذه الحرب المشومة لان الرؤساء الذين اضرموا نارها بتحريضاتهم لم يحسنوا معرفة احوالهم ولم يدركوا الفرق بينها وبين حال العرب اولئك الذين كانت بلادهم قد امست في غاية من الغنى والثروة بينما كانت اوروبا تقاسي خطوب الجهل والفقر لان المحل كان قد فاجأ البلاد وكاد يستوطن فيها واوشكت المجاعة تصير عامة الا انهُ كان للرؤساء يومئذٍ غايات فدعوا الناس الى الغزو فبادروا اليهِ جاهلين ما وراء ذلك واجتمعوا ليسيروا نعاجًا الى الذبح في بلاد غريبة

ولقد كتب كثيرون تاريخ حوادث تلك الحروب وعرّب بعضها فحدانا ذلك الى الاختصار في الرواية غير ناقلين ما فيهِ شك فنقول انهُ لما جهر صوت ذلك الناسك في اقطار اوروبا بادرهُ كثيرون بالقبول وعقد البابا مجمعًا وبدا يحث الناس على الذهاب الى الحرب واسماً لهم الصليب المقدس علامة فتألفوا كتائب وجيوشًا وساروا على غير ترتيب ولا نظام وكثيرون منهم بلا سلاح يسير امامهم قائدهم بطرس الناسك وردينهُ رجل من اشراف اهل فرنسا يقال لهُ ولتر فاجتاز الجيش بلاد المانيا ليأتي هنكاريا طريقًا للقسطنطينية عاصمة الروم فلما تبطنوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيثون في

البلاد ينهبون و يسلبون وهم في امن مما يحذرون حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجموها لكن الاهلين نشطوا عليهم وقتلوا منهم كثيرين وكان ما فعلوهُ في بلغار يا شاهداً على ان مقصدهم بمحاربة الاسلام ليس الا النهب والسلب وان كان ظاهرهُ لغايات دينية يابى التقى ان يعترفها

وخرج من اوروبا جمهور اخر من المحاربين يتأمرهُ كونشاك الكاهن والكونت اميكو فاحتملا من العناء اعظمهُ حتى بلغا القسطنطينية وهنالك انضما لسائر الحملة على انهما لم يبارحا وطنهما قبل ان انزلا باليهود الذين فيهِ ظلماً واعما لاً فاحشة لاتحتملها الانسانية التي يدعون بزحفهم لنجدتها

ثم سار جيش ثالث يتأمرهُ كودفراي دو بوليون دوك برابنت واخواهُ اوستاس و بودوين وسار جيش اخر يتامرهُ اخو ملك فرنسا هاك دوفرماندوا و بوهموند امير نورماندیا ونسيبه تانكريد وذلك بحرا فما بلغت هذه الجيوش القسطنطينية الا وقد هلك منها مائة الف من الجنود فلما تكاملوا في عاصمة الروم وعدوا ملكها الكسيوس كومنوس باسترجاع كل المدن اليونانية الى حكمهِ فاذن لهم بالمسير الى اسيا فلما بلغ الجيش نيقية احصوهُ فكان مائة الف من الفرسان وثلثماية الف من المشاة وكان هنالك من القادة عدا من ذكر روبرت النورمندي ابن وليم الفاتح واستفانوس دو بلوا وقد فتح قلعًا بعد ايام السنة والكونت رايمون من تولوس الفرنساوي وكان على جانب عظيم من الغنى والقوة فبعد ان حصروا نيقية واخذوها ساروا في سهول تلك البلاد وهي في قبضة السلاجقة الذين لم يتقاعدوا عن قتالهم في السهول والجبال على انهم لم يفوزوا بالنجاح اما الافرنج فقل زادهم وتمردوا وعاد منهم كثيرون الى اوطانهم وفلَّ منهم اخرون الى الداخلية واقاموا لانفسهم حكومة مستقلة عند ضفة الفرات واخيرًا بلغت تلك الجيوش مدينة انطاكية سنة ١٠٩٧ واقاموا تسعة شهور تحت اسوارها يقاسون الوبال حتى احتال بوهيموند على احد خفراء قلعتها فاغراه بفتح باب المدينة على ان اولئك الذين ادعوا ان

مقصدهم نجاة الناس من المظالم قد فعلوا من البربرة والتوحش ما يخجل القلم من خطهِ على القرطاس على انهُ ما لبث الافرنج في المدينة الا ثلثة ايام (وابن خلدون يقول ١٢ يوماً) حتى دهمهم صاحب الموصل السلجوقي فحصرهم حتى اوشكوا يهلكون جوعاً لنفاد زادهم غيرانهم اعتقدوا بان الحربة التي وجدها الكاهن الفرنساوي انما هي تلك التي طعن بها جنب السيد المسيح فتشجعوا واقتحموا صفوف السلجوقيين فكسروهم وقرروا سلطانهم في المدينة ثم ساروا نحو اورشليم. على ان ذلك الاعتقاد لم يدم طويلاً لاسباب كثيرة اخصها مؤَامرة الجند

وساروا الى اورشليم وهم يحاربون فبلغوها واشرفوا عليها من التلال على مقربة من الرملة وعمواس وذلك سنة ١٠٩٩ وكان يعسر عليهم اقتحامها لحصانتها وبسالة الدولة المالكة فيها ولا سيما انهُ لم يكن معهم تلك الآلات اللازمة لفتح البلدان فطال الحصار على ان قلة الماء وحر الشمس كانا يضران بالمحاصرين اكثر من سهام الاسلام ومع كل ذلك كانت عزائمهم تتشدد كلما ذكرهم رؤَساؤهم بامتلاك المدينة ففازوا بعد ان حصروها ٣٩ يوماً وذلك في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ فلما دخلوها ابدوا فيها من الفظائع والقتل والنهب ما تأباه الانسانية سيما وان حنقهم كان ياخذ اليهود لانهم يخالفون معتقدهم

قال ابن خلدون وكان بيت المقدس قد اقطعهُ تاج الدولة تتش للامير سليمان بن ارتق التركماني وقارن ذلك استفحال الافرنج واستطالتهم على الشام وخروجهم سنة تسعين واربعماية ومروا بالقسطنطينية وعبروا خليجها وخلى صاحب القسطنطينية سبيلهم ليحولوا بينهُ وبين صاحب الشام من السلجوقية والغز فنازلوا اولاً انطاكية فاخذوها من يد باغيسيان من قواد السلجوقية وخرج منها هارباً فقتلهُ بعض الارمن في طريقهِ وجاء براسهِ الى الفرنج بانطاكية وعظم الخطب على عساكر الشام وسار كربوقا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع اليهِ دقاق بن تتش وسليمان بن ارتق

وطغتكين انافك صاحب حمص وصاحب سنجار وجمعوا من كان هنا لك من الترك والعرب و بادروا الى انطاكية لثلاثة عشر يوماً من حلول الفرنج بها وقد اجتمع ملوك الفرنج ومقدمهم بميد وخرج الفرنج وتصافوا مع المسلمين فانهزم المسلمون وقتل الفرنج منهم الوفاً واستولى على معسكرهم وساروا الى معرة النعمان وحاصروها اياماً وهربت حاميتها وقتلوا منها نحواً من مائة الف وصالحهم ابن منقذ على بلده شراز وحاصروا حمص فصالحهم عليها جناح الدولة ثم حاصروا عكا فامتنعت وادرك عساكر الغز من الوهن ما لا يعبر عنهُ فطمع اهل مصر فيهم وسار الافضل بن بدر با لعساكر لاسترجاع بيت المقدس فحاصرها و بها سقمان وابو الغازي ابنا ارتق وابن اخيهما ياقوتي وابن عمهما سوتج ونصبوا عليها نيفاً واربعين منجنيقاً واقاموا عليها نيفاً واربعين يوماً ثم ملكوها بالامان في سنة تسعين (واربعماية) واحسن الافضل الى سقمان وابي الغازي ومن معهما وخلى سبيلهم فسار سقمان الى بلد الرها وابو الغازي الى بلد العراق وولى الافضل على بيت المقدس ورجع الى مصر ثم سارت الفرنج الى بيت المقدس وحاصروهُ نيفاً واربعين يوماً (رواية الافرنج ٣٩ يوماً كما مر) ونصبوا عليها برجين ثم اقتحموها من الجانب الشمالي لسبع بقين من شعبان واستباحوها اسبوعاً ولجأ المسلمون الى محراب داود عليهِ السلام واعتصموا بهِ الى ان استنزلهم الفرنج بالامان وخرجوا الى عسقلان وقتل بالمسجد عند الشجرة سبعون الفاً واخذوا من المسجد نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة يزن كل واحد منها ثلاثة الاف وستمائة وتنوراً من الفضة يزن اربعين رطلاً بالشامي ومائة وخمسين قنديلاً من الصفر وغير ذلك مما لا يحصى واجفل اهل بيت المقدس وغيرهم من اهل الشام الى بغداد باكين على ما اصاب الاسلام ببيت المقدس من القتل والسبي والنهب و بعث الخليفة اعيان العلماء الى السلطان بركيارق واخوتهُ محمد وسنجر بالمسير الى الجهاد فلم يتمكنوا من ذلك للخلاف الذي كان بينهم ورجع الوفد قانطين

من نصرهم وجمع الافضل امير الجيوش بمصر العساكر وسار الى الفرنج فساروا اليهم وكبسوهم على غير اهبة فهزموهم وافترق عسكر مصر وقد لاذوا بجم الشعراء هناك فاضرموا عليهم نارًا فاحترقوا وقتل من ظهر ورجع الافرنج الى عسقلان فحاصروها حتى انزلوا لهم عشرين الف دينار فارتحلوا اه

و بعد ان فتحت اورشليم انتخب كودفراي دو بوليون ملكًا على انهُ ابى ان يلبس تاج الملك في بلد توج المسيح فيهِ باكليل الشوك وابى الا ان يلقب بالحامي عن القبر المقدس فلما كان شهر آب سنة ١٠٩٩ فاز بنصر عظيم في موقعة عسقلان وانهزمت جيوش سلطان مصر الا انهُ لم يتمتع بنعيم ملكهِ طويلاً حيث توفي في السنة الثانية فارتقى اخوهُ بدوين (يدعوهُ الامام تارةً بغدوين والانكليز يلفظون اسمهُ بالدوين)امير ارفا وهي ادسا على الفرات الى السدة الملكية وكانت فتوحات السلطنة الاورشليمية قد امتدت لكنها بلغت يومئذٍ مركزًا خطرًا من جرى تكرار مهاجمات الاسلام التي تزعزع الجبال حيث اهتم صاحب الموصل باسترجاع الرها منها وكانت اوروبا قد قطعت عنها المدد

ثم بعث الافضل امير الجيوش بمصر العساكر لقتال الفرنج مع سعد الدولة الفراس مملوك ابيهِ فلقي الفرنج بين الرملة ويافا ومقدمهم بغدوين فقاتلهم وانهزم وقتل واستولى الفرنج على معسكره فبعث الافضل ابنهُ شرف المعالي في العساكر فبارز وهم قرب الرملة وهزمهم واختفى بغدوين في الشجر ونجا الى الرملة مع جماعة من زعماء الفرنج فحاصرهم خمسة عشر يومًا حتى اخذهم فقتل منهم اربعماية وبعث ثلثماية الى مصر ونجا بغدوين الى يافا ووصل في البحر جموع من الفرنج للزيارة فندبهم بغدوين للغزو وسار بهم الى عسقلان فهرب شرف المعالي وملك الفرنج عسقلان وبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى ابيهِ الى عسقلان وبعث الاسطول في البحر الى يافا مع القاضي ابن فادوس فبلغ الى يافا واستدعى تاج العجم وحبسهُ وبعث جمال الملك من مواليهِ الى عسقلان مقدم العساكر الشامية ثم بعث الافضل

سنة ثمان وتسعين ابنهُ سنا الملك حسين وامر جمال الملك بالسير معهُ لقتال الفرنج فساروا في خمسة الاف واستمدوا طغتكين اتابك دمشق فامدهم بالف وثلثماية والقوا الافرنج بين عسقلان ويافا فتفانوا بالقتل وتحاجزوا وافترق المسلمون الى عسقلان ودمشق وكان مع الفرنج بكتاش بن تتش عدل عنهُ طغتكين بالملك الى بني اخيهِ دقاق بن تتش فلحق بالافرنج مغاضباً

وبلغ اوروبا ما حدث في سوريا وكيف اوشكت المملكة الاورشليمية الخراب فنهض برنارد احد الكهنة وحرك حرباً جديدة هي التجريدة الثانية من تلك الحرب المشؤمة ذلك سنة ١١٤٩م وكان نفوذ ذلك الكاهن عظيماً حيث فاز بحمل ملكي فرانسا وانكلترا على تجريد عساكرهما على الاسلام والمسير الى القسطنطينية ومنها الى اسيا الصغرى فتبطنوها وكان يقودهم بعض من الروم فخانوهم حيث مروا بهم في ارض لا ماء فيها فهاجمهم قوم من الاتراك فاقتتلوا وانكسر الافرنج ولم ينج منهم اكثر من عشرهم بصحبة كونراد فبلغوا القسطنطينية اما الجيش الفرنساوي الذي كان يسير على الساحل فادركتهُ المصائب والرزايا لكن كونراد الانكليزي ولويس الفرنساوي جمعا جندهما وسارا بهم نحو اورشليم فبلغوها بعد المشقة والعناء ولم يكن وصولهم نافعاً كثيراً لانهُ لم يكن الدولة من الثبات تجاه عواصف الايام سيما وانهُ نبغ في غضون ذلك في مصر بطل اقر بشجاعتهِ اعداؤهُ وهو صلاح الدين بن ايوب الكردي وكان قد استولى على مصر ثم ضم الى ملكهِ كل البلاد الواقعة بين القاهرة وحلب مسترجعاً مدناً كثيرة من ايدي الصليبيين لكنهُ لم يلزمهم بالخروج منها فاضطربت المملكة الاورشليمية وداخلها الخوف والوجل وعاهدها صلاح الدين على الهدنة لكن واحداً من فرسان الصليبيين خرقها متجاوزاً الحدود اللائقة لانهُ علم بمرور والدة السلطان فاعترضها وسلب متاعها من الجواهر والحلى وقتل خدمها فغضب ابنها الباسل وزحف بجيش كثيف مشهراً الحرب فانكسر الافرنج في المعركة التي حاربوها في طبرية سنة ١١٨٧ واسر الملك

كاي اللوسيناني صاحب اورشليم مع كثير من الاعيان واستولى على يافا وصيدا وعكا ثم اورشليم العاصمة ولما دخلها غض الطرف عما جناه العسكر في الكنائس الا انهُ امن الاهلين ولم يعامل النصارى الا باللين والدعة ذلك ما اوجب لهُ مديح المؤرخين الصادقين قال وبر الالماني ان صلاح الدين اعظم فضيلة من اعدائهِ النصارى حيث لم يعب نصره بالقسوة

وفي سنة ١١٨٩ اذاع الخبر في اوروبا فاحدث هيجانًا عظيماً آل الى الجمهرة فتيا لفت التجريدة الثالثة وكثر الجند الذين فيها وتقرر ان من لا يتجند يدفع ضريبة يقصد بها الجهاز للقتال عرفت بعشر صلاح الدين وكانت قادة هذه التجريدة اعظم قادة اوروبا يومئذٍ وهم فردريك بربا روسا قيصر المانيا وفيليب اوكوست الثاني ملك فرنسا وريشارد كور دوليون اي قلب الاسد (تلقب كذا لفرط شجاعتهِ) ملك انكلترا وسار فريدريك برًّا بجيش منظم الى اسيا الصغرى ولما بلغ ايقونة واقع سلطانها فكسرهُ مظهرًا من الشجاعة اعظمها الى ان قرب من نهر صغير فحملتهُ عزة نفسهِ ان يجتازهُ فساقتهُ الامواج واغرقتهُ فارتد كثيرون الى اوطانهم والباقون انحازوا الى ولدهِ الثاني فردريك دوسوابيا فوصل هذا الى فلسطين واشترك بحصار عكاء وجاءها ملكا فرنسا وانكلترا بعده بزمان يسير لانهما سافرا بحرًا وابدت القادة كل البسالة والاقتدار حتى فازوا باخذ عكا واقام ريشارد بافعال حملت ذكره الى اقصى الارض وارعبت الاعدا منهُ حتى صاروا يرهبون اولادهم بذكره الآن شجاعتهُ كانت قد تلطخت ببربرتهِ حين قتل الاسراء لاضرابهم عن اداء الضريبة التي فرضها عليهم وكان قد جرى بينهُ وبين الامير ليوبول النمساوي نزاع آل بهم الى الانقسام وبالنتيجة تفريق الكلمة والعجز عن اخذ اورشليم ذلك ما كدر ملك فرنسا وعاد بهِ فورًا الى بلاده اما ريشارد فعاهد الاسلام على على ان يتخلوا لقومهِ عن البلاد البحرية من صور الى يافا وان لا تمس حرمة الاماكن المقدسة التي في اورشليم وغيرها

ثم عاد الى بلاده فقادته الرياح الى سواحل ايطاليا وسار في بلاد النمسا فأُسر فيها انتقاماً من اهانة ليوبولد النمساوي وسنة ١٢٠٢ تجيشت تجريدة رابعة على انها لم تبلغ الارض المقدسة بل حصرت اجرآتها في القسطنطينية عاصمة الروم وكانت نتيجة تجريدها ضعف شوكة الصليبيين في الشرق وفي سنة ١٢١٢ تجمهر بعض الولدان الاحداث فبلغوا عشرين الفاً وساروا قاصدين المملكة الاورشليمية على انهم لم يبلغوها لان المجاعة والتعب فتكا بهم قبل ان ادركتهم سهام المسلمين فاسر منهم كثيرون واستعبدوا ثم تجندت تجريدة اخرى سار بها اندرو الهونكاري الى مصر فلم يجنِ منها ثمرة

وفي سنة ١٢٢٨ بلغ القيصر فردريك الثاني ملك المانيا فلسطين وسوريا وكان الملك ناصر الدين ابن سيف الدولة يقاتل حاكم دمشق فعاهد القيصر على ان تكون اورشليم وغيرها في حوزة النصارى وان يمارس الاسلام والنصارى طقوسهم الدينية فيها غير معارضين فلم يرضَ النصارى بذلك لان فردريك كان محروماً من قداسة البابا الذي قيل انهُ اضطر ان يحرم اورشليم والقبر المقدس ايضاً تشفياً من القيصر فوضع فردريك بيده تاج المملكة الاورشليمية على راسهِ بدون احتفال كنائسي . على انهُ لما راى انهُ قد صار مكروهاً ومهاناً من النصارى والكهنة عاد راجعاً الى بلاده

وكان قد ظهر رجل من الاكراد يقال لهُ جنكيزخان فبدا بالحروب والمخاصمات وعاث على طوائف العرب والتتر والعجم فدوخ البلاد واقلق العباد فهرب كثيرون منهم ومن جملة من هرب شعوب خوارزم فاحاطوا بسوريا وانزلوا بها ضرراً بليغاً وفتحوا القدس ونهبوهـــا واخرجوا ذخائر النصارى واهانوها وقاتلهم الفرنج في غزة فقتل منهم كثيرون ولم يبقَ في حوزة النصارى غير عكاء وبعض من مدن الساحل

وشاعت هذه الاخبار في اوروبا فتجهز لويس التاسع ملك فرنسا وهو الذي يدعوهُ بعضهم قديساً وسار بحراً الى مصر فاسر هنالك ثم افتدى نفسهُ

وعظماء مملكتهِ وسار ببقايا قومهِ الى فلسطين ومنها الى اوروبا

ولما تسلط المماليك على الدولة الكردية زحف الملك الظاهر بيبرس البندقداري بجيش كثيف على فلسطين وكانت الافرنج قد ضعفت فيها فاستولى بيبرس على المدن واوقع بالمسيحيين وقتل منهم وأسر واخذ انطاكية ثم سار لويس التاسع الى تونس فقاتل ومات هنالك حاسبًا مع المؤرخين ان تلك التجربة انما هي من المعروفة بالصليبية ايضًا ثم اتى الملك الناصر محمد بن قلاوون في جيش كثيف من مماليك مصر عدده نحو مائتي الف مقاتل فاقام على المسيحيين او بالحري الافرنج وضايقهم في مرج ابن عامر ففاز الاسلام وانكسر النصارى وعادت سوريا باسرها لاحكام الاسلام وكان عدد من مات من الافرنج نحوًا من مليونين

وكان دخول الصليبيين الى سوريا جلب البلاء اليها من بقائهم غير ناظرين الى حالة قومها لانهم انما جاءوا ليخربوها ولينزلوا بها انواع المساوئ وليسلبوها غناها ويشغلوها عن الاستمرار بطلب التمدن والاداب العربية الزاهية فيها على انهم نالوا من مجيئهم نفعًا عميمًا بما اكتسبوهُ من الاقتداء بالمسلمين في مصالحهم الحسية والمعنوية وجدهم وراء التقدم متعاضين عما سفكوهُ من الدماء بما حملوه من المعارف ونقلوه من الانتظام والترتيب الى بلادهم . ذلك ما كان بذارًا لما نراه الان من يانع اغصان تمدن احفادهم .

الفصل التاسع

دولة المماليك

لما عاد العلم الاسلامي يخفق في ارجاء سوريا كانت دولة المماليك الاكراد هي السائدة فعنت سوريا لها خاضعة تؤديها واجب الطاعة والجزية الى ان جاءت الاخبار تروي عن اعمال تيمورلنك الشهير وتدويخهِ البلاد وهو شهر سيف النقمة من مخالفيهِ وبعث يطالب صاحب سيواس بالطاعة لهُ والخطابة باسمهِ فاسرع ذلك بتبليغ الخبر الى ساكني الجنان السلطان بايزيد العثماني

والسلطان برقوق الظاهر المصري لان الاول كان سلطان الاناضول والثاني سلطان سوريا ومصر وسار تيمورلنك حتى جاء عين تاب ففتحها ثم قدم حلب الشهباء وحصرها حتى اخذها وفيها جماعة من القادة المشهورين فقبض عليهم وقتل من الاهلين جمًّا غفيرًا وسلب المدينة ونهب دورها وصادر اغنيائها ثم اتى حمصًا فبادرهُ حاكمها بالهدايا والتحف فسر بهِ ولم يضر بالبلدة بل سار عنها الى حماة فنهبها وعاث في قراها وجاء دمشق فحصرها واخذها ثم ملك قلعتها بعد طول ممانعتها واباح السلب لجنده فلم يبقوا على متاع واقام في دمشق حتى الزمتهُ حوادثهُ مع السلطان بايزيد ان يبارحها فسار عنها غير مأسوف عليهِ فعادت سورية الى ولاية المماليك وظلت تحت اكنافها حتى توفق لفتحها حضرة ساكن الجنة السلطان سليم العثماني

الفصل العاشر

الدولة العلية

لقد حدانا داعي التعميم في الرواية ان نختصر في ايراد تاريخ الدولة العلية العثمانية مرويًّا عن اصح المصادر فنقول . روى كثيرون من المؤرخين ان اصل العائلة العثمانية من التركمان الرحل من طائفة التتر الاغوزية نزحوا من ضواحي خوارزم سنة ١٢٢١ واتوا جبال طوروس والتصقوا بسلاطين قونية من السلجوقيين وكانوا تحت امرة سليمان شاه عامل مدينة نيرة على بحر قزبين ومن روساء الاقوام التركمانية فاحسن السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان قونية ملقاهم واكرم سليمان شاه واستخدمهُ وكان الامير ارطغرل بن سليمان شاه اميرًا على عشائر كثيرة من التركمان خاضعين لسلاطين قونية وقد حكمها مدة اثنتين وخمسين سنة فلما مات ابوهُ اتى مدينة سرغونة ومعهُ عشائرهُ فلما مات خلفهُ ولدهُ الامير عثمان سنة ١٢٩٦ وفي غضون ذلك توفي سلطان قونية فثار الامير عثمان وكان على جانب من الشجاعة والاقدام وقبض على اعنة السلطنة السلجوقية واسس دعائم الدولة العثمانية في اوائل سنة ١٣٠٠

على جزءٍ من مملكة بورصة و بلاد الاناضول وسن لقومهِ قواعد ونظامات جديدة وتلقب عليهم سلطانًا . ثم صفا لهُ زمانهُ فجهز جيشًا جرارًا واقام حروبًا عظيمة كانت نتيجتها فتوحًا عظيمًا لقب لاجلهِ با لغازي ثم نقل كرسي ملكهِ الى مدينة يني شهر وتوفي بعد ان تسلطن سبعًا وعشرين سنه وتولى عوضهُ السلطان اورخان وهو ابنهُ فسلك على اثار ابيهِ واقام بحروب ومغاز كثيرة ووسع نطاق الملك ونقل كرسي مملكتهِ الى بورصة ووسعها وحسنها وغيَّر الجندية الاولى وانشأَ وجاق الانكشارية وفيهم يقول بعض مؤَرخي الافرنج انهم كانوا من اولاد اسرى النصارى الذين اسرهم السلطان عثمان وابنهُ السلطان اورخان وبعد تنظيم هذه الامور سار السلطان اورخان الى بلاد اليونان فافتتح اكثر بلدانها وكان يعامل اهلها با لشفقة والرحمة وينعم على المصابين فتمكن حبهُ وحب دولتهِ من قلوب الناس . اما دولة الروم فكانت قد صارت الى الخراب والتاخر وكان الانقسام والاضطراب قد حلا بها واشتبكت بها الحروب الاهلية فالتجأَ حزب منهم للعثمانيين فامدهم السلطان وانتصر على الاعداء ففاز العثمانيون بفتوحات جديدة وفي سنه ١٣٥٩ تجهز الامير سليمان بن السلطان اورخان وسار بالعساكر فاجتاز بوغاز چناق قلعة وفتح مدينة غاليبولي وهي باب القسطنطينية وتوفي السلطان اورخان سنة ١٣٦٠ مغمومًا على ابنهِ الامير سليمان لانهُ توفي قبلهُ فخلفهُ السلطان مراد الاول وكان شجاعًا وافعالهُ اكثر من ان تذكر على انهُ فتح ادرنة وفليبي السرب والبلغار سنة ١٣٦٥ واخضع الامراء الذين كانوا لم يزالوا مستقلين في الاناضول واستولى على قرمان ومدينة كوتاهيه بتزويج ابنهِ لابنة اميرها ثم اخذ معظم مكدونيا والارناؤوط وانتصر على الثائرين من اهل السرب والفلاخ ودالماثيا والمجر والبلغار فقهرهم . على انهُ قتل غدرًا بيد جندي بلغاري كان مستترًا بين القتلى

وفي سنة ١٣٨٨ خلفهُ ابنهُ السلطان بايزيد الاول وكان كسلفائهِ على غاية من النشاط والشجاعة فافتتح ما كان قد بقي مستقلاً من الممالك الصغيرة

في الاناضول ثم اخذ الروملي ومكدونيا والبلغار وبعد ذلك تجهز لقهر القسطنطينية فسار بجيش عظيم واخذ سالونيك وتقدم فشن الغارة على الافرنج في المجر وانتصر عليهم في موقعة ٢٨ ايلول سنة ١٣٩٦ وحاصر القسطنطينية وامبراطورها مانوئيل باليولوغس ثم عقد معهُ صلحًا على عشر سنين بشرطان يدفع الروم للسلطان كل سنة ثلاثين الف ريال وان يجعل في القسطنطينية قاضيًا للاسلام وبنى لهم بها مسجدًا

ثم بعد انسحابهِ عنها راجعها فحصرها حصرًا شديدًا وضايقها حتى كاد ياخذها . على ان قدوم تيمورلنك حملهُ على الانسحاب فسار اليهِ وحاربهُ لكن حظهُ لم يرافقهُ فانكسرت جنودهُ واخذ اسيرًا فمات هنالك فقسم الملك بين ولديهِ تجانبًا للخلاف على انهما عادا فتحاربا وانفرد بالملك السلطان محمد الاول فهنا تهُ الافرنج وكان شجاعًا محبوبًا فارجع لامبراطور الروم الولايات التي كان ابوه قد ضمها الى المملكة وكان اول من شرع بتعليم العساكر البحرية في الدولة العثمانية وفتح ازمير ونقل كرسي السلطنة الى ادرنة وبالاجمال اعاد للسلطنة الرونق الذي كادت تخسرهُ بحرب تيمورلنك ولما مات خلفهُ السلطان مراد الثاني سنة ١٤٢١ وكان مغرمًا بالفتوحات فجهز جيشًا جرارًا وسار بهِ الى القسطنطينية وحاصرها ثم ارتد عنها ليخمد فتنة الروم التي اضرموها في الداخلية ثم اذن لخليفة ملك الروم ان يستولي على ملكهِ بدفع جزية معلومة وانعم عليهِ بالتخلي عن بعض ضواحي القسطنطينية فامتدت بذلك السلطنة العثمانية واستولى السلطان مراد الغازي على كل القلاع والحصون التي كانت لم تزل تحت تصرف الروم في سواحل البحر الاسود وشطوط الروملي ومملكتي مكدونيا وثيسا ليا واستخلص ايضًا كل البلدان الى ما وراء برزخ كورنثوس حتى تبطن المورة وقاتل الحلفة التي عقدها البابا اوجينوس بين ملوك اوربا القتال لهِ ولكثرة جنودهم واسباب اخرى كاد يتقهقر على انهُ تلافى الحال بحكمة وعقد صلحًا فانسحب وفي سنة ١٤٤٢ لما راى سكون الفتن

تنازل لولده السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح واقام في دارهِ منعكفًا على العبادة على ان رئيس الحالفة الاوربية انتهز تلك الفرصة لفسخ الهدنة وتقدم لمحاربة الدولة فعاد السلطان مراد الى عرشهِ العظيم وسار بجيش كثيف لمقاتلتهم فتلاقى الفريقان تجاه مدينة فارنا على سواحل البحر الاسود في ١٠ ت ٢ سنة ١٤٤٤ وقاتلت جيوش الدولة العلية قتال الاسود وفازت بالانتصار على حلفة ملوك اوربا وقتل لادسلاس ملك بولونيا الذي كان قائد الحملة وانهزم الافرنج بعد ان قتل منهم عشرة الاف رجل

ولما عاد السلطان مراد من نصرهِ العظيم رغب في التنازل ثانية لولده السلطان محمد فلم ترض الانكشارية بهِ ولذلك دام متقلدًا زمام السلطنة السنية وسار بجيشهِ نحو بلاد الارناووط فاستسلم يوحنا كاتريوحاكم قسم من البلاد وصار من عمال الدولة ووضع بنيهِ الاربعة رهينة في الاستانة وقاتل قسطنطين امير المورة فاستولى على بلاده وما جاورها وغزا غزوات متتابعة وكان يقاتل المجر والارناووط ومات بداء النقطة فتولى عوضهُ سنة ١٤٥١ ابنهُ السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح وكان من اشهر رجال العصر موصوفًا بكل الاوصاف الحميدة وكان جل مقصده فتح عاصمة الروم وهي القسطنطينية حسب وصية ابيهِ وكان فيها قسطنطين دراغاسيس ابن عمانوئيل فبلغهُ مقصد السلطان فبعث اليهِ سفارتين الواحدة بعد الاخرى وذلك لتسكين غيظهِ فلم يلتفت السلطان الى ذلك وشرع ببناء القلاع والحصون على جهات البوغاز اما الامبراطور فلم يتجهز بل ترك نفسهُ لحكم القدر وعوضًا عن الاستعداد اللازم بدأ يستنجد ملوك اوربا ويحرض البابا واعدًا اياهُ بضم الكنيستين ومع ان البابا بعث بنجدة من عسكر الافرنج لم يكن يؤمل صد المنتصر لان الروم انفسهم كانوا يفضلون الخضوع للاسلام على الخضوع للبابا والالتزام بضم الكنيستين حتى ان الدوك نوتاراس وهو وزير ملك الروم قال باعلى صوتهِ احب اليَّ ان ارى في القسطنطينية تاج السلطان محمد من ان

اری فيها اكليل البابا

اما السلطان فاتى المدينة بجيش قيل ان عدده ٢٦٠ الفًا وعمارة مؤلفة من ٣٠٠ سفينة وحصر المدينة وطلب تسليمها بشروط مذلة فابى الامبراطور المغرور بقوته الواهنة وصمم على الدفاع وعين السلطان اليوم ال ٢٩ من شهر ايار للهجوم وجمع القيصر قسطنطين الاعيان والامراء والقواد ومن يلوذ به من اكابر الروم وبعد ان حرضوا بعضهم على القتال بكوا تواد عًا

ثم انتشبت الحرب وكان الامبراطور يقاتل على الاسوار كجندي واخيرًا قتل فانتهت الحرب ودخل الفائزون المدينة وعامل السلطان اهلها بالمرحمة والشفقة ودعا الروم من ضواحيها واقام لهم بطريركًا واعطاه عصا البطريركية وخاتمها حسبما جرت عادة ملوك الروم وقسم المعابد والكنائس وبقية المدينة بين الاسلام والنصارى وجعل تلك العاصمة الشهيرة مقرًا الكرسيه ثم جرت بينه وبين ملوك اوروبا حروب ومعارك شديدة كانت نتيجتها على الاكثر فوزه التام وانتصاره المجيد ولما وقع النفور بين حكام المورة استولى السلطان عليها خلا بضعة حصون اعطيت للبابا ولاهالي البندقية

ثم استولت الدولة على طرابزون وكانت لم تزل وحدها في ملك الروم واردفتها بولاية سينوب وقتل السلطان محمد صاحبها داود كومونين وضمت بوسنه وشنت الغارة على الفلاخ والبغدان والصقالبة ثم سار السلطان نحو البندقية ففتح احدى جزرها واستولى على كل بلاد الارناؤوط ثم بعث قيطن باشا وهو من بقايا العائلة البا ليولوغية القيصرية الى رودس بمائة الف مقاتل وارسل جيشًا الى قبرس وسار بجيش اخر الى قتال العجم فمات في الطريق وكانت مدة حكمه احدى وثلاثين سنة

وخلف السلطان محمد ابنه السلطان بايزيد الثاني وكان شاعرًا اديبًا لطيفًا وشجاعًا بطلاً اقام بحروب وغزوات كثيرة وحارب الافرنج وغيرهم سنة ١٤٨٦ م وسار الى بولونيا سنة ١٤٩٤ واستولى على جانب عظيم منها

وكانت قد حدثت بعض المشاجرات في ايامهِ فكدرتهُ وافضت اخيرًا الى تنزلهِ عن السلطنة لابنهِ السلطان سليم الاول اما هو فانزوى الى مدينة ادرنة يقضي بها بقية ايامهِ فقبض السلطان سليم على ازمة الدولة العلية العثمانية سنة ١٥١٢ وفي السنة الثالثة تجهز لقتال مملكة العجم فسار اليهم وهزمهم امام طوروس وفاز بنصر عظيم ولما اراد القادة المسير على بلادهم امتنع الانكشارية عن المسير فعدل عنهُ اتقاء لشرورهم

وكانت سوريا في هذه الايام لم تزل تشكو وتأن من سوء سياستها وتنازع حكامها وبلوغها خطة الخراب لان تربتها قد اجدبت وتجارتها قد كسدت ومنار معارفها قد اظلم واضحى اهلوها اسارى بعد ان كانوا احرارًا . على ان نير المماليك لم يؤثر في رقابهم ليس لخفتهِ بل لان الجهل قد قسى الرقاب فدملت وعادت لا تشعر بثقل مسلمة نفسها للقدر حتى جاء ساكن الجنان السلطان سليم العثماني لقتال الغوري صاحب مصر فالتقى الجيشان في سهول حلب واشتبك القتال بينهما فدارت الدائرة على الغوري فانهزم ودخل السلطان سليم حلبًا واستملكها واتى سوريا فاخذها وتم لهُ النصر العظيم سنة ١٥١٧ م ومات الغوري يومئذٍ فخلفهُ طومان باي وتبع السلطان سليم اثر العدو تحت غزة فاشتبكت نار معركة شديدة تقهقر فيها المماليك ايضًا وفازت اعلام السلطان سليم بالنصر وفر المماليك الى داخلية مصر وتبعهم الفاتح منصورًا فتجمعوا على بعد ستة اميال من القاهرة تحت قيادة سلطانهم طومان باي فقاتلهم قتالاً عظيمًا حتى شتت شملهم وفرق جمعهم وقبض على طومان باي وشنقهُ واستولى على مصر واقام فيها نائبًا

لا جرم ان السوريين كانوا يتمنون من صميم القلب الخلاص من ربقة الخضوع للمماليك لانهم كانوا يسومونهم خطة العسف ولا يعاملونهم بالقسط بل يطلقون لاستبدادهم العنان فلا يأتون الا منكرًا الا انهم كانوا لا يشعرون بجسامة مظالمهم لتأصل الاستعباد فيهم فلما جاءهم العثمانيون رحبوا بهم لكن

هؤلاء لم يروا وجهاً لشفاء ميت نقادم عهده سيما وان سوريا بعيدة عن العاصمة لا تبلغها اخبارها الا بعد العناء. وصلات هانيك الايام اشهرمن ان تذكر فتركت البلاد وشانها مهملة تتمرغ في حمأة التاخر والاضطراب والانقسام ملقية ازمتها بايدي امرائها واعيانها الجهلة ومسلمة قيادها لمن يلقي بها في التهلكة توصلاً لمآربهِ الذاتية

ومات السلطان سليم بعد ان تولى ثمان سنوات وخلفهُ السلطان سليمان وكان موصوفاً بكل الاوصاف الحميدة جامعاً شوارد الفضل والشجاعة محاكياً معاصريهِ العظام هنري الثالث ملك انكلترا وشارل الخامس (شارلكان) امبراطور اسبانيا والمانيا وفرنسوا الاول ملك فرنسا وكانت اوروبا مشغلة بالخصام والنزاع الذي حدث من جرى الاصلاح فاتخذ السلطان سليمان تلك الفرصة وزحف الى اوروبا فاتى المجر وحصر بلغراد فاخذها مع انها من امنع حصونهم ثم قفل راجعاً وصمم على فتح جزيرة رودوس فارسل اليها ٢٠٠ الف مقاتل مع عمارة بحرية مؤلفة من ٤٠٠ سفينة تحت قيادة وبيري باشا فاقاموا الحصار ولم يكن فيها الا ٦٦٠٠ فارس من وجاق فرسان ماري يوحنا المعروفين بانصار بيت المقدس وزعيمهم شفاليردي ليل آدم الذي كان من شجعان الرجال وقد التمس المدد من بعض ملوك اوروبا فلم يجب وحصرت الجزيرة حصراً شديداً على ان شجاعة السلطان سليمان الباسل جاءت بهِ مدداً للجيوش ففتحت الجزيرة وشكر السلطان قائد الفرسان على شجاعتهِ وعزّاه وقبل شروطهُ بصيانة حقوق النصارى وابقاء كنائسهم واعفائهم خمس سنوات من الجزية

وقفل السلطان سليمان راجعاً الى القسطنطينية سنة ١٥٢٧ وجهز ٢٠٠ الف مقاتل وزحف بهم على بلاد المجر فلقيهُ ملكها فقتل وغنم السلطان غنائم لا تحصى ورجع منصوراً ظافراً وبعد سنتين سار الى قتال النمسا وحل بجيشهِ امام اسوار فينا وبعد قتال مجيد تحول عنها ثم سار سنة ١٥٣٢ الى السرب

فاخذ اربعة عشر قلعة واستولى على تخوم النمسا وسنة ١٥٣٣ عقد صلحًا مع ملوك اوروبا و بعث جيشًا الى قتال العجم فافتتح تبريز و بغداد ثم سار بنفسهِ الى هنالك وعاد راجعًا و بعث بخير الدين باشا المشهور عند الافرنج باسم بربروس لاحمرار لحيتهِ رئيسًا على العمارة البحرية فسار بها الى تونس فافتتحها على انها عادت بعد ذلك لحاكمها المنلا حسن وجاءت العمارة فاخذت بعض الجزر التي لجمهورية البندقية و بعث السلطان بجند اصد البورنكا ل عن التقدم بافتتاح البلدان العربية وحدث يومئذٍ حريق مهول في العاصمة وطاعون امات كثيرين فتعطلت مقاصد السلطان الحربية و وجَّه غاية جهدهِ لجبر النكبات الملمة بالعاصمة واستولى على تاج المجر وسنة ١٥٤٤ هادن فرديننند ملك بوهيميا خمس سنوات بشرط ان يدفع فرديننند للسلطان جزية سنوية قدرها ثلاثون الف دوق ثم سار الى العجم واستولى على بعض المدائن وسنة ١٥٦١ حارب العمارة الاسبانيولية فانتصر عليها ومات سنة ١٥٦٦ في قتال المجر فاخفى وزيرهُ جسدهُ ولم يعلن موتهُ حتى جلس السلطان سليم وبالاجمال ان السلطان سليمان كان سلطانًا عظيماً لم يقم بين سلاطين آل عثمان اعظم منهُ حتى كان جميع اهل الارض ترتعد فرائصهم عند استماع اسمهِ ولم يعمل السلطان سليم الثاني امرًا مهماً وفي سنة ١٥٧٤ خلفهُ السلطان مراد الثالث وخلفهُ السلطان محمد الثالث سنة ١٥٩٥ فسار الى قتال الافرنج الذين كانوا قد تحالفوا عليهِ فكسرهم وفي ايامهِ نقض شاه العجم شروط الصلح وقتل عامل تبريز وكان محبًا للعلوم والصنائع راغبًا في ترقية اسبابها و رواج بضاعتها غير ان الدولة ضعفت في ايامهِ نظرًا لتمرد العساكر وعدم انقيادها

ومات السلطان محمد الثالث فخلفهُ ابنهُ السلطان احمد الاول وكان لهُ من العمر ١٥ سنة فقط ولم يسبق جلوس من كان في سنهِ على سدة الخلافة العثمانية فلما مات وزيره استدعى مراد باشا بكر بيك من مصر وكان كهلاً مسنًا فاخذ بانفاذ مرغوبات والده فارسل جيشًا لقتال العجم وكان النصر

مجالاً وسنة ١٦٠٦ تصالح السلطان مع الامبراطور رودولف قيصر كل المانيا وذلك بان تضرب النمسا عن دفع الجزية المعتادة وان تكون الرسائل المتبادلة بغاية من الوداد ككتابة اخ لاخيهِ وان يتبادل السفراء وكان ذلك اول العهد بهِ عند العثمانيين ثم عادوا فعقدوا مثل ذلك مع فرنسا وفي غضون ذلك قام الامير فخر الدين المعني وجاهر بالعصيان في سوريا و بدأ يستولي على المدن فارسلت الدولة العلية اليهِ جيشاً فقهرهُ وعاد طائعاً مزعنا

ثم توفي السلطان احمد فخلفهُ اخوه مصطفى على انهُ لم يكن يصلح للملك فخلعوهُ وحجزوهُ واقاموا مكانهُ السلطان عثمان ابن السلطان احمد وكان صغيراً فحدثت قلاقل كثيرة داخلية افضت الى قتلهِ واعادة السلطان مصطفى ثانيةً

على ان جلوس السلطان مصطفى على السدة السلطانية لم يكن الا لازدياد الوبال والارتباك فعصت الولاة وتحرك العجم وثارت الثوار فائتمر الاعيان وارباب الدولة على خلعهِ ولما احس بذلك اختار ان يخلع نفسهُ ففعل بعد ان حكم سنة واربعة شهور

وجلس عوضهُ السلطان مراد ابن السلطان احمد الاول وكان مع صغر سنهِ مشهوراً بسمو عقلهِ وقوة جنانهِ فلما قبض على ازمة السلطان قام باعباء الملك اتم قيام واصلح احوال المالية حتى صارت الدولة في يسر على ان جنودهُ لم تكن حليفة النصر على الدوام كما كانت دائماً في ايام السلاطين من سلفائهِ

و بعد وفاة السلطان مراد سنة ١٦٤٠ خلفهُ ولدهُ السلطان ابراهيم على انهُ لم يكن على ما كان عليهِ اجداده من النشاط والشجاعة فخلع وخنق وعادت الدولة في ايامهِ للاضطراب ولما تولاها ابنهُ السلطان محمد الرابع لم يخمدها حتى تولى الصدارة العظمى المرحوم كوبرلي محمد باشا فاقام باعباء السلطنة احسن قيام واصلح احوالها وضبط الاحكام حتى عادت الى سطوتها ثم حمل

السلطان على المسير لقتال البنادقة في دلماثيا فسار السلطان الى ادرنه سنة ١٦٥٨ اما كوبرلي باشا فاقام في العاصمة وحدث في غضون ذلك ثورة مهمة في سوريا اوجبت اعتناء الدولة بها وذلك انهُ بعد وصول السلطان ببضعة شهور الى ادرنه حدثت ثورة عظيمة في نواحي حلب والموصل بدسيسة ابرهيم باشا واليها وذلك ان رجلاً ادَّعى انهُ ابن مراد الرابع وسمى نفسهُ بايزيد زاعماً انه نجا من القتل عندما امر بقتلهِ وعضدهُ جمهور غفير فبعث محمد باشا بجيش صغير لمحاربة ذلك المدعي زوراً واطفآء نار الثورة فانكسر الجيش ولم يثبت فاضطر الى اعادة الجيش الذي ذهب بهِ السلطان الى ادرنه وارسال كل قوة الدولة لاخماد نار العصاة فانهزم المدعي المذكور وتمزق جمعهُ وتفرق ثم قبض عليهِ في الاسكندرية مع ابراهيم باشا الذي كان السبب في ذلك وقتلا وعادت الراحة الى الدولة وذلك سنة ١٦٦٠

ومات كبرلي باشا الصدر الاعظم في ادرنه قيل انهُ سار لقتال الافرنج واقام السلطان ابنهُ احمد فاضل باشا صدراً وكان كابيهِ وسار الى اوروبا وقاتل فكانت الحرب سجالاً ثم عقد الصلح سنة ١٦٦٥ وكان السلطان محمد الرابع قد نقل الكرسي الى ادرنه ثم خاف من اهل العاصمة فسار اليهم ثم رحل عنهم وسنة ١٦٦٨ سار الصدر احمد فاضل باشا الى كريت فافتتح الجزيرة مع ان المدد من الافرنج كان باتصال تام لان الذين اسعفوا الجزيرة هم الفرنسا ويون والبابا وسائر دول ايطاليا (لا يخفى ان ايطاليا كانت دولاً كثيرة متفرقة) وفرسان مالطة وهم انصار بيت المقدس المتقدم ذكرهم

ومات احمد فاضل باشا بعد ان تولى الصدارة خمس عشرة سنة مما لم يسبق لهُ مثيل في الدولة العلية العثمانية وقد اقام بكل فضيلة وخلفه قره مصطفى باشا وكان يعادل سلفهُ في السطوة على انهُ كان اقل حذقاً وحدث بينهُ وبين كوزاق اوقرينية ننو رافضى الى اشهار السلاح واستنجادهم بالدولة الروسية التي اشهرت الحرب على الدولة العلية وجرت بينهما مواقع كثيرة واخيراً اعقد

الصلح بين المتحاربين وسنة ١٦٨٣ سارت الجيوش السلطانية راسًا الى تحت اسوار فينا واخذت تحصرها حصارًا شديدًا بضرب المدافع والقنابر المهلكة حتى اقلقت اهلها ولبكتهم واستنجد قيصرها ليوبولدو بملوك اوروبا فانجدوهُ اجابة لتحريض البابا انوسنت وجاءوا جمًّا غفيرًا فاشتبك القتال وظهر من العثمانيين بسالة لا مزيد عليها الا ان كثرة العدد الجأتهم الى الارتداد وتذمر الجند على قره مصطفى باشا الصدر فقتلوهُ بامر السلطان وشهرت النمسا والبندقية الحرب على الدولة العلية وكان الفوز لها لانهُ لم يكن من قائد يحسن القيادة فتآمر القوم على السلطان محمد واخرجوا فتوى بخلعهِ فخلعوه واقاموا اخاه السلطان سليمان الثاني سنة ١٦٨٧ وكانت الدولة في بدء ايامهِ كثيرة الحروب والخصام فرام قيادة الجيش لقتال الافرنج بنفسهِ على انهُ خاف من الفشل فبعث غيرهُ فانكسر وتولى الصدارة مصطفى باشا كوبرلي المشهور وهو من نسل كوبرلي احمد باشا فاخذ القيادة وقاتل النمسا فانتصر انتصارًا عظيماً وسنة ١٦٩٠ اخذ بلغراد وكانت قد اخذت من الدولة وفازت جنود الدولة بالنصر في البندقية وفي اثناء ذلك توفي السلطان سليمان بعد ان حكم ثلاث سنين وتسعة اشهر

وتولى بعدهُ السلطان احمد الثاني سنة ١٦٩١ فلم يبدُ في ايامهِ ما يستحق الذكر غير بعض حروب مع النمسا لم ينل بها ظفرا تامًا ولما مات تولى مكانهُ اخوهُ السلطان محمد الرابع سنة ١٦٩٥ وكان اديبًا عالمًا حاذقًا فحارب جزيرة ساقس واخذها وكانت للبنادقة وسار بجيش كثيف لقتال النمسا على انهُ لم ينل منها مرامًا ثم حارب الروس وبسعي سفيري انكلترا وفرنسا انعقدت شروط الصلح بين المتحاربين ثم هاجت العساكر على السلطان فخلعوهُ

وتولى بعدهُ السلطان احمد الثالث ولم يكن في بدء ملكهِ نزاع ولا قتال على ان الحرب كانت يومئذٍ على ساق وقدم بين القيصر الرومي بطرس الاكبر وكارلوس الثاني عشر ملك السويد واستمرت الحرب حتى سنة ١٧٠٩

فانكسر كارلوس في معركة بلتوفا فانهزم واتى الحدود العثمانية ونزل في بندر فامر السلطان باكرامهِ كثيرًا وان يكون مصروفهُ من خزينة الدولة العلية مع كل من كان معهُ اما كارلوس فالح على السلطان بان ينجدهُ فلم يقبل نظرًا للمعاهدة مع الدولة والروسية و بقي ست سنوات في بلاد العثمانيين وكانت لهُ شهرة عظيمة في بلاط السلطان وكانت والدة السلطان تلقبهُ بالاسد لما كان حائزًا من عظيم السطوة والشجاعة و بعد مداخلات عظيمة صممت الدولة العلية على اجابة طلبهِ واشتهرت الحرب على روسيا سنة ١٧١١ وسار الصدر الاعظم بجيش عظيم فانكسر الروسيون ولولا حذق كاترينا الامبراطورة لأُخذ زوجها القيصر بطرس الاكبر اسيرًا على ان الصدر الاعظم فاز بعقد شروط مذلة لروسيا بها تقررت للدولة العلية حقوق عظيمة

وسنة ١٧١٤ شهرت الدولة الحرب على البندقية ولم يكن لها قوة كافية تمكنها من صد جنود الدولة ولذلك استولى السلطان دفعة واحدة على كل المورة فضمت الى السلطنة السنية سنة ١٧١٥ واخيرًا اشتبكت الحرب بين العثمانية والمانيا والبندقية وانعقد الصلح بتداخل دولتي انكلترا وهولاندا وتقررت المورة لان تكون تابعة للدولة العثمانية وسنة ١٧٢١ حدثت حريقة عظيمة في العاصمة دمرت نحو ربعها واستولى السلطان على بلاد العجم عند موت الشاه حسين! فلما قام الشاه طهميز وابت الدولة ارجاع البلاد التي استولت عليها بموت ابيهِ ثار بجند الى تبريز واستولى عليها فهاج الناس والانكشارية على السلطان لعدم مبالاتهِ بالامور فخلعوا السلطان وقتلوا الوزير فقام باعباء المملكة السلطان محمود خان الاول ابن السلطان مصطفى الثاني سنة ١٧٣٠ فرفق بالرعايا واقتفى اثار اجدادهِ بالغزو والجهاد فحارب الفرس و بعض دول اوروبا وعقد هدنًا وصالح المحاربين واسترجع الافلاليم التي كانت قد دخلت في ملك المانيا واشرط على روسيا عدم ادخال سفن حربية او تجارية في بحر الاسود و بحر ازوف وان تهدم قلعها على ازوف ومنذئذ

عم السلام في المملكة حتى وفاة السلطان محمود سنة ١٧٥٤ وتولى بعدهُ السلطان عثمان الثالث وكان يحب الانفراد وليس لهُ في زمانهِ من الامور ما يستحق الذكر وتوفي سنة ١٧٦٧

وتولى الاريكة بعدهُ السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان احمد الثالث وكان على جانب عظيم من العدل والحلم فنظم احوال السلطنة وسلك مع الرعايا سلوكًا مجيدًا وكان يركن الى وزيرهِ محمد راغب باشا وكان حاذقًا لبيبًا وهو الذي بنا جامعًا وانشا مكتبة في العاصمة وبعد وفاة الوزير اشتهرت الحرب بين الدولة وروسيا ولم تكن نتائجها مرضية للعثمانيين ثم تحرك اليونان للثورة بيد سياسة الروس وكذلك الارناؤوط وثار علي بك من المماليك في مصر وخلع نير الطاعة واراد الاستقلال بها اما سوريا فقام بها الشيخ ظاهر العمر وحكم قسماً منها باستقلال تام فباتت الدولة من جرى ذلك في مركز صعب جدًّا ومع ذلك لم تفتر همة السلطان مصطفى الباسل فما زال يحارب اعداه حتى شعر بقرب حلول الاجل فدعا اخاه السلطان عبد الحميد واوصاه بولدهِ سليم الذي صار بعد ذلك سلطانًا باسم سليم الثالث ومات السلطان مصطفى فتسلطن بعده اخوه السلطان عبد الحميد ولم يكن من المشهورين بادارة الحرب ولذلك لم ينجح بمحاربة الروسيين فاستولت تلك الدولة على بعض التخوم وكان السلطان يرى ذلك ويتكدر فتجهز للسير على ان المنية سبقتهُ فمات سنة ١٧٨٩

فجلس بعده ابن اخيهِ السلطان سليم وتلقب بالثالث فللحال اخذ بتدبير الاحوال لينجو بالدولة من وبال السقوط الذي كان يتهددها فبعث بالجيوش لقتال روسيا والنمسا واخيرًا تداخلت بروسيا وانكلترا فعقد الصلح سنة ١٧٩١ مع النمسا ثم مع روسيا فسر اهل العاصمة بالصلح على ان اخبار سوريا ومصر لم تكن مرضية للدولة

وذلك ان نابوليون بونابرت الذي كان حينئذٍ قائد حملة الفرنسا وبين

الى مصر من قبل حكومة الدركتوار كان قد اتى سوريا ليقاتل عمالها و يفتح لهُ طريقاً للهند ليقيم لهُ سلطنة شرقية تضاهي السلطنة الانكليزية في الهند وتسمو عليها فقاتل وحارب بعد ان قرر الحكومة في مصر فالتزمت الدولة العلية ان تحافظ على بلادها فارسلت اوامر بالمسير الى القتال

ودخل نابوليون سوريا واخذ بعضاً من مدنها ذلك ما سنذكرهُ في تاريخها وكان قبل دخول نابوليون اليها ان الدولة العثمانية قد انعمت على احمد باشا الجزار بالولاية في صيدا فاتى وقبض الاحكام وعامل الاهلين بظلم مشهور عنهُ ولما خاف نقمة الدولة خلع الطاعة و بدأ يعمل كيف خطر لهُ وكان قاسياً جائراً سفاكاً للدماء لا يصطلي لهُ بنار حتى ضرب المثل بشدة جورهِ واستبدادهِ ذلك ما سنذكرهُ فيما ياتي ان شاء الله

واما بونابرت فلما عاد الى فرنسا سنة ١٨٠٢ عقد صلحاً مع الدولة ولما ارتقى الى المنصب الامبراطوري بعث سفيراً الى الدولة يطالبها بمعرفتهِ فلم يسرع السلطان سليم الى ذلك لان روسيا وانكلترا تداخلتا في توقيفهِ على انهُ لما بلغ السلطان ما فاز فيهِ نابوليون من النصر في اوسترليتيز اعترف بامبراطوريتهِ سنة ١٨٠٦ وجددت فرنسا علاقاتها الودادية مع الدولة العثمانية وساعدتا بعضهما في حرب روسيا لانها كانت قد اشتهرت الحرب بين نابوليون وروسيا لما سارت جنود الدولة العثمانية لقتال الروسيين تحت امرة مصطفى باشا شابي ومصطفى باشا البيرقدار فضرب العثمانيون الروسيين وكسروهم وحاولت انكلترا ان تصد الباب العالي عن قتال روسيا لان ذلك يحبط مسعاها صداً لنابوليون فلم يمل السلطان لمشورتها

وكان السلطان سليم قد رأى مضرة الانكشارية وتجاوزهم الحدود واستعدادهم للعصيان فرغب في ملاشاتهم ورتب فرقاً على النظام الافرنجي فتكدروا وهاجوا فقتلوا كثيرين من الاهلين واخيراً خلعوا السلطان سليم واقاموا مكانهُ السلطان مصطفى الرابع حفيد السلطان عبد الحميد وذلك

سنة ١٨٠٧ وفي تلك السنة انعقد صلح تيلسين بين نابوليون وقيصر روسيا. وتهادن السلطان مع القيصر وانسحب العسكران الى بلادهما ثم حدثت قلاقل وفتن قتل فيها السلطان سليم وخلع السلطان مصطفى واقيم مقامهُ السلطان محمود الثاني فاستوزر مصطفى باشا البيرقدار فاخذ هذا الرجل يسن نظامات توافق روح العصر فلم يسر بها كثيرون من الناس فاجتمعوا حول دار الوزير واحرقوا الدار وهو فيها فمات شهيد الاصلاح وكاد الثائرون ينزلون السلطان عن العرش الذي كان قد اخذ بالرجوع الى مجدهِ فارسل ديوان الشورى وقد راى ان العلة من السلطان مصطفى فمنعهُ بدون ارادة السلطان محمود وضايقوا الانكشارية ثم طلبوا الامان فعفى عنهم الى حين

وعادت الحرب فاشتبكت بين روسيا والدولة فرام نابوليون المداخلة بالصلح على ان السلطان محمود ابى ذلك لانهُ كان قد تاثر من الشروط السرية التي كان قد عقدها بونابرت مع امبراطور روسيا اسكندر الاول باقتسام ممالك اوروبا والعثمانية بينهما وبينما كانت الحرب على قدم وساق اشهر بونابرت الحرب على روسيا سنة ١٨١٦ فالتزمت روسيا ان تسحب جنودها عن حدود الدولة وتعقد صلحًا موافقًا لخصمها كل الموافقة ثم سكنت الاحوال ثمان سنوات فاجرى السلطان نواياه الخيرية واخمد بعض العصيان في الولايات وفي سنة ١٨٢١ جاهرت بلاد اليونان بالعصيان فارسلت الدولة الى محمد علي باشا خديوي مصر بان يرسل جيشًا ليضم الى جيشها فارسل ولدهُ ابرهيم باشا بخمسة وعشرين الفًا محارب وكان دائمًا يفوز بالانتصار على ان اليونان طلبت مداخلة الدول الاجنبية فاجابتها دولتا فرنسا وانكلترا غير ان السلطان محمد رفض اولاً السماح باستقلال اليونان فلما تداخلت الدولتان وروسيا بالفعل اجاب السلطان الى ذلك وسمح بامضاء الشروط

وفي غضون ذلك امر السلطان باعدام الانكشارية في كل المملكة

فهجمت عليهم العساكر المستنجدة والاهالي وقتلوهم عن اخرهم

وسنة ١٨٢٩ شهرت روسيا الحرب على الدولة العلية وجعلت جيشها شطرين جاءها شطر من صوب اسيا والآخر من صوب اوروبا عند ضفاف الدانوب فبعث السلطان محمود جيشًا ليصد الروس وانتشب بين القومين قتال مريع عند سليستره وشوملا كان النصر فيهِ للروس فعلم السلطان بذلك وبالنصر الذي حازوهُ في اسيا فساءهُ ذلك جدًا وامر بعقد الصلح على الشروط المطلوبة وكان ذلك في ٢ ايلول سنة ١٨٢٩ وعرف بصلح ادرنة

وفي سنة ١٨٣١ ارسل محمد علي باشا خديوي مصر ولده ابرهيم باشا بثلاثين الف مقاتل للاقتصاص من عبد الله باشا والي الدولة العلية في عكاء فجاء المصريون وفتحوا عكا واخذوا عبد الله باشا اسيرًا ثم توغلوا في البلاد وافتتحوا كل المدن السورية واستقرت فيها قدمهم

وفي سنة ١٨٣٩ توفي السلطان محمد لرحمة مولاهُ وتولى الاريكة حضرة ساكن الجنان السلطان عبد المجيد فوجه عنايتهُ لاستخلاص البلاد السورية من الحكومة المصرية فعقد اتحادًا مع بعض الدول الاوربية فجاءت عماراتهم لتضرب الثغور حتى استخلصت البلاد وعادت الى حكمهِ سنة ١٨٤٠. وبعد ذلك اشهر التنظيمات الخيرية فكانت سببًا لخروج الاهلين من ظلام الاعصر الخالية

وفي ايام سلطنتهِ شهرت الدولة الروسية الحرب على الدولة العثمانية وزحفت جنودها في اسيا واوروبا لذلك وبعثت دول فرنسا وانكلترا وسردينيا جندها لاسعاف العثمانيين وكان ملك السردينيين يومئذٍ المرحوم فيكتور امانوئيل الذي صار بعد ذلك ملكًا على ايطاليا المتحدة وبعد ان تحارب الاعداء فاز المتحدون على الروس ونالت العثمانية بموجب عهدة عقدت في باريز حقوق الدول الاوربية ومنع من سواها عن التداخل في

شؤونها الداخلية وذلك سنة ١٨٥٦ وما نجت سوريا من وبال الحرب واضطراب ساكنيها من جراها ان دهمتها بلية اعم وخطب اعظم ذلك هو حادث سنة ١٨٦٠ فان بعضاً من جهلة المسلمين في دمشق ابوا الا ان يسلموا انفسهم للتعصب جارين على سبيل ساكنة دروز لبنان حيث جردوا سيوفهم وفتكوا بساكنيهم النصارى فاهتزت اوربا لذلك واضطربت العاصمة وساء الدولة العلية بلية رعاياها الامناء فارسلت يومئذٍ فؤاد باشا وكان صاحب مسند الخارجيـــة فجاء البلاد مفوضاً حيث وافته معتمدو الدول العظيمة وكتائب من عساكر فرنسا ونزل جميعهم في بيروت فنظروا في حالة البلاد واقتصوا من الفاعلين وعوضوا على المضرورين واعاد فؤاد باشا بجدهِ وحسن سياستهِ الراحة لسوريا بعد ان امست على شفاء الخطر فرجعت الجنود الفرنساوية الى بلادها

وفي سنة ١٨٦١ توفى السلطان عبد المجيد تغمده المولى برضوانهِ وتبوأ الاريكة السامية اخوه المرحوم السلطان عبد العزيز وفي ايامهِ الاول جرت الامور على محور السلام في انحاء البلاد على ان سوريا قلقت لشيء من الاضطراب الجاري في شمال لبنان على انهُ ما لبث ان خمد

ورغب المرحوم السلطان عبد العزيز في الاصلاح الا ان السياسة الخارجية كانت تشغلهُ عن الاهتمام بهِ حيث صرف اليها كل عنايتهِ على انهُ بذل في سبيل اصلاح الجندية والبحرية مالاً جزيلاً حتى صارت جنودهُ كثيرة وعمارتهُ من الطراز الاول عدداً

وكان من العثمانيين اول سلطان رغب السياحة في اوروبا والتعرف بتمدنها وحضارتها حيث جاء بعض عواصمها وعاد للاستانة مسروراً

الا ان الادارة لم تكن جامعة اسباب الكمال لان كثيرين من العمال ليسوا بالجديرين لها سواء كان لجهلهم اصول الحكم والسياسة في الرعية او لفساد اخلاقهم مما ياتي بالنفرة ويبعد القلوب عن الولاء للحكومة السائدة

وهو غنيٌ عن البيان ان من الممالك العثمانية بلاداً يسكنها قوم من الصقالبة وهم اكثر الرعايا تذكراً بجنسيتهم وسابق تاريخهم واقربهم للفتنة وكان منهم جماعة الرومانيين سكان الفلاخ والبغدان واهل السرب والجبل الاسود النائلون بعهدة باريز حقوق الاستقلال الداخلي ولم يبق للدولة العثمانية من بلاد الصقالبة الا البلغار على سعتها و بلاد الهرسك و بوسنه تحكمها راساً بولاة من العثمانيين وكان بضعة من اولئك الولاة يسرفون في معاملة البلغاريين بالشدة غير ناظرين الى ان استقلال اخوانهم في جوارهم مرض تسري عدواهُ اليهم اذا قصرت الدولة في الملاحظة والعناية وكان من العشارين قوم يظلمون و يسلبون فتظلم الهرسكيون ولما لم تسمع شكواهم تجمهروا وخلعوا الطاعة فسيرت الدولة عليهم عسكراً فحاربوهُ حتى اذا صار على وشك كبحهم انضم اليهم ثائروا البشناق فاخذت الدولة تجتهد في تسكين الحال على ان مداخلتها ذهبت سدى

وحدث في العاصمة قلاقل كثيرة اوجبت خلع السلطان عبد العزيز عن عرشهِ واعطاء الخلافة للسلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد وحجز على السلطان عبد العزيز

ورأى البلغاريون تمرد اخوانهم الهرسكيين والبشناقيين فارادوا اقتفاء آثارهم احياء للاستقلال الصقالبي الذي يريدون فاجتمعوا لكن الدولة العلية بعثت عليهم بشرذمة من الباش بذوق والجراكسة ليردعوهم عن تمردهم فوقع بينهم مناوشات واتهمهم البلغاريون بالعيث في بلادهم

وفي غضون ذلك انتحلت السرب لها اسباباً اوجبت اشهار الحرب على الدولة فاشتبك القتال بين الطرفين الا ان السرب لم تقوَ على قتال العثمانيين فانكسروا واما الجبل الاسود فاشهر الحرب ايضاً و بدأت المعارك وكانت السياسة كل هذا الزمن في ارتباك واضطراب والجيوش العثمانية تتطارد من اقطار ممالكها وسوريا تقوم بتادية المال والرجال نجدة لدولتها

وبينما الامور على هذا المنوال افتى حضرة شيخ الاسلام بخلع السلطان مراد لاختلال في شعوره وتولى مسند الخلافة حضرة اخيهِ سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد خان الغازي

والحت الدول العظيمة بفض المشاكل العثمانية نجاة للدولة من الخطر ومنعًا لشبوب حرب الروسية فاجتمع موءتمر الاستانة من معتمدي الدول للنظر في المصالح وفي يوم اجتماعهِ كان اشهار القانون الاساسي الذي بهِ قررت الدولة العثمانية ابطال زمان الاستبداد واتخاذ الحكومة الشوروية

الا ان مطالب الموءتمر لم تحز لدى الدولة قبولاً فخرج المعتمدون على غير نجاح ذلك ما آل اخيرًا الى اشهار الدولة الروسية الحرب على العثمانية وكانت السرب قد انكسرت وصالحت فلما شهرت روسيا الحرب واشتبكت المعارك في اسيا واوربا والبحر الاسود والطونة عادت السرب الى القتال وجاءت حكومة رومانيا بعطا لبها فشهرت الحرب واحتدم القتال وبما ان مصر وتونس من عمالات الدولة فقد انجدتاها بالمال والرجال ففازت الدولة العثمانية اولاً بصدم الروس الا انهم تمكنوا اخيرًا من اسر كثيرين من القادة والرجال ومن فتح المعاقل العثمانية الحصينة في اسيا واوربا وبلغوا الى ضواحي الاستانة ونزلوا ايا استفانوس في البوسفور فتقررت يومئذٍ بين المتحاربين هدنة عقبها عقد شروط المصالحة الاولية فعرفت بعهدة سان استفانوس الا ان صوالح الدول ابت ان توافق الروسية على ما عاهدت العثمانية بهِ فاجتمع في برلين عاصمة المانيا موءتمر بعثت اليهِ الدول العظيمة كبار وزرائها وبعد تكرار الجلسات تقرر فيهِ بتات الصلح على ان يعطى للروس قسم بسارابيا الذي ضم لرومانيا في حرب القرم مع القارص واردهان وجوارها وان تنقد الروسية غرامة الحرب مبلغاً كبيرًا وان تنال رومانيا والسرب والجبل الاسود استقلالها بعد ان كانت تعترف بسيادة الدولة العثمانية وتتسع تخومها وان تكون البلغار امارة مستقلة في الداخل الا انها

خراجية يحكمها امير ينتخبهُ اهلوها وكان ذلك سنة ١٨٧٨

وكانت سوريا في اوائل القرن التاسع عشر رابضة تحت مظالم ولاتها القساة الذين ضربت بهم الامثال لاعتسافهم سبيل الرشاد ونبذهم كل شريعة ونظام واتخاذهم ارادتهم وازعًا واغراضهم آمرًا يمثلهم في اعمالهم احمد باشا الجزار ومن قبلهُ ومن بعدهُ من القوم الظالمين الا ان الدولة العثمانية بدأت منذ عهد السلطان عبد المجيد باجراء الاصلاحات فكانت الولاة اقل اعتسافًا واكثر توكأً على الشريعة والنظام فوقفت المظالم على حدها وعرف الكثيرون حدودهم فاستوى الناس في الحكومة لولا اعتساف المامورين وارتكابهم الرشوة وابتعادهم عن جادة الاستقامة وكان الامراء والاعيان ينفذون في الرعية احكامهم غير معارضين ولا مطالبين الا انهم لما رفقت الدولة برعاياها بعين العناية انقذتهم من مخالب الجائرين واباحت للرعية الاستقلال عنهم ومساواتهم امام الحكومة اما المعارف فقد كانت مظلمة في سوريا لان كرور ايام المظالم والجهل واشتغال الناس باحوالهم لم تمكنهم من طلب العلم فانذوى وجفت نضارتهُ ولما كانت بداءة القرن التاسع عشر كان اعظم السوريين معرفة من يتمكن من كتابة اسمهِ غير مغلوط على ان المسلمين كانوا يعرفون شيئًا من لغتهم دون سواها

لا جرم ان كرور ازمنة الجهل والذل والاسترقاق والتمتع بالسيادة على قوم لا يعرفون كيف يتخلصون من مخالب الزمان قد ابلى في السوريين ابلاءً سيئًا واضاع منهم كل ذرة من العلم والحماسة والشرف والحرية وليس من ينكر على ان الرياء والمكر وفساد الاخلاق من نتائج الذل والعبودية وكانت البلاد لا تعرف من الخصال الا تلك او ما كان على شاكلتها فضاعت بذلك وغيرهُ الشمائل الباقية من اداب السوريين

اما العادات السورية فكانت اليق بالمراسح لانها تفعم الناس ضحكًا سيما تلك الازياء الغريبة التي كان يلبسها الرجال والنساء كالطنطور والعسكرية

والطاسة والقرص والعاقوص والصفا على القفا والغنباز المنقش والطربوش المشموط والزربول المقيطن وغير ذلك مما كان من ثمار الخلو عن الذوق واللطف

على انهُ قبل انقضاء النصف الاول من هذا القرن توارد كثيرون من الاوربيين والاميركانيين الى سوريا وانتشروا فيها راغبين بث المعارف وتهذيب الاخلاق فاشادوا المدارس وفتحوا المطابع وانشأُوا المحلات العمومية الخيرية فكثرت وسائط العلم وازداد رغابةً فتهافت كثيرون عليهِ ونهض فشمروا عن ساعد الجد واخذوا عن الغربيين وطفقوا يهتمون باسعافهم على انارة البلاد فعمرت المدارس في انحائها سيما في بيروت وجوارها ولم يمضِ على هذه اليقظة الا سنون قليلة حتى ظهرت النتيجة المنتظرة فاستنار كثيرون بضياء العلم ونشرت الكتب المفيدة والجرائد السيارة فرتعت سوريا من الادب بحالة اذا ظلت على معدل سيرها فيها مقرونة بما تكسبهُ فيها من قوة العلم تدرك شأْواً في الفلاح

اما التجارة السورية فهي تجارة واردات كثيرة وصادرات قليلة على انها ليست كذلك بالنظر الى افراد المدن فان طرابلس وعكا مثلاً تصدر من الحاصلات اكثر مما تاخذ من الواردات واما بيروت واسكندرونة وغيرهما فعكسهما وليس في سوريا صنائع تستحق الذكر لتباري صنائع الاجانب عنها فتنتفع بها تجارتها اما حراثتها فمن ادنى الانواع واكثرها نحوساً وابعدها عن الفائدة ولا يعرف الفلاحون فيها الا ما ورثوهُ من اجدادهم منفعلاً باحوال القرون السالفة ومظالم العشارين والحكام وكثرة الضرائب الا ان لبنان اسعد بقع سوريا حالاً واحسنها خصباً واوفرها خيراً وقد ازداد حال الزراعة تاخراً بتقدم المعارف في سوريا لان كثيرين من الاغنياء قد ارسلوا اولادهم للمدارس فلما تعلموا العلم ابتعدت الزراعة عن افكارهم وصاروا يطلبون غيرها شغلاً لهم ومن ويلات الزراعة والصناعة ان لا مدرسة لها في البلاد السورية

ولقد عرف العصر التاسع عشر بعصر البخار لتسيار السفن فيهِ بجوب

البحار على انتظام ابانها مقربة قاصي البلاد وناقلة البضائع الى حيث تروج التجارة اما سوريا فتاركة ملاحة ثغورها للاجانب حيث تاتيها السفن فتحمل بضاعتها وهي غير قادرة لفاقة بنيها وقلة ذات يدهم وتقاعدهم عن الاهتمام بالاصلاحات العايدة بالنفع على الوطن الان الخدمة البرقية مخصصة بالدولة العلية تبعث بماموريها وتقبض رسومها وتتقلد مصارفها كما في سائر المملكة

واما طرقات سوريا فهي من حطام الطرق لان كرور الايام قد ذهبت باثار الطرق الرومانية وليس في كل البلاد سوى طريق بين دمشق وبيروت تولت ادارتها شراكة افرنسية وما زالت تمر المركبات عليها الا ان بعض الولاة الكرام امروا بتصليح الطريق بين يافا والقدس الشريف واخرون قرروا اصلاح طريق اسكندرونه وحلب ومدحت باشا شرع باصلاح طريق بين دمشق وحمص واخرى بين حمص وطرابلس

اما سورية الان فهي قسمان الاول ولاية سورية ومركزها دمشق الشام ويحكمها والٍ من قبل الدولة العلية والثاني ولاية حلب ومركزها مدينة حلب الشهباء واما القدس الشريف فهو متصرفية مستقلة تخابر الباب العالي في المهام رأساً

الباب الثالث

تاريخ اشهر مدن سوريا

الفصل الاول

مدينة حلب

هي مدينة حلب الشهباء موقعها على بعد سبعين ميلاً عن البحر وهي مركز الولاية المنسوبة اليها وفيها اقامة الوالي وتقسم الولاية الى ثلاث متصرفيات وهي مركز حلب ومتصرفية اورفه وهي الرها ومرعش وعدد سكان الولاية ١٠٠٠٠٠٠ وتقسم المتصرفية الى اثني عشر قضاء وهي الاتية حلب واذلب

ومعرة النعمان وجسر الشغر وخارم وانطاكية و بيلان وريحانية وعزيته وكلس وعينتاب والباب اما مدينة حلب فهي قائمة على نهر قويق وعدد اهلها الان نحو ماية وعشرة الاف نسمة وقيل سبعون الفاً

والمدينة محاطة بجنائن و بساتين كثيرة منها نحو ٢٤٨ بستان للفستق قيل ان محصولها نحو اربعماية قنطار من الفستق الاخضر و١٢٦ كرم زيتون محصولها الف شنبل سنة اقبالها و٢٦٣ على جانب نهر قويق وهذا النهر يجري في الجهة الغربية من المدينة الى الجهة الجنوبية وفيها مطبعتان احداهما للحكومة والاخرى للمدرسة المارونية وفيها مكتب صنائع عمومي

وتجارة هذه المدينة واسعة وكانت قبل فتح السويس الطريق الوحيد لتجارة العراق ويباع في بنادرها نحو عشرة الاف قنطار من الصوف ومن محصولاتها القطن والحبوب بانواعها والزيت والصابون والعنب والفستق والعفص وترد اليها المنسوجات الانكليزية والجوخ وكثير من مصنوعات اوروبا والهند وياتيها البترول من اميركا وصناعتها مشهورة وترسل من منسوجاتها الى بر الترك ومن صادراتها الى مصر السمن والاغنام والتبغ والمنسوجات ولعدم وجود اشجار التوت في غياضها و بساتينها لا يوجد فيها حرير ولذلك يرسل اليها من محلات اخرى

ولقد قرر كثيرون من الافرنج ان حلب ليست بمدينة ذات اثار تاريخية تستدعي الناس الى التقاطر اليها للبحث في متعلقاتها وانها ليست بذات موقع ظريف وليس بها شيء مما يفيد من جهة البناء القديم والاثار التاريخية ولذلك قلما يرغبها السياح بل انها بلدة تجارية وصناعية اما تجارتها فلوقوعها محطة لاقفال الداخلية وصادرات او واردات اوروبا اما صناعتها فلكثرة النساج فيها وان سوق النسيج قد امسى في كساد بالنسبة للزمان الاول حيثما كان الاهلون يستعملونه عوضاً عن منسوجات اوروبا

اما ازقة المدينة وشوارعها فنظيفة و بيوتها مبنية من الحجر وتشابه دور

دمشق اما سطوحها فتكاد تكون كلها متساوية ملتصقة ببعضها حتى انهُ يمكن للانسان ان يسير مسافة طويلة فوقها بدون ان يلتزم المرور في الشوارع وفي المدينة قلعة قديمة قيل انها من ايام ابراهيم الخليل وثكنتان للجنود بناهما المرحوم ابرهيم باشا صاحب الجنود المصرية حينما كان في سوريا

قلنا ليس في حلب من الآثار ما يستحق الذكر على ان هنا لك كتابة بالكوفية عند باب انطاكية وقد ذكر احد السياح من الافرنج ان عند باب النصر حجر مكتوب عليهِ بعض احرف يونانية تشير الى تدشين هيكل للمعبود ارطاميس على ان تلك الحروف كاد يعتريها الفساد ويمحيها الزمان وان الناس على اختلاف طبقاتهم يعتبرون تلك الكتابة وانهم جميعًا من اسلام ونصاري عند مرورهم امامها يضمون اصابعهم ويلمسون بها تلك الكتابة ثم يقبلون اصابعهم اللامسة وقد تعجب المولف الذي اورد هذه الرواية من اشتراك الاسلام بذلك لانهم يحرمون مثل هذا الاعتبار للوثن على انهم ربما كانوا مع النصارى معذورين في ذلك لاخذهم العادة عن السلف وهنالك بعض ابواب القصور والجوامع فان هندستها عربية اما القلعة فتستحق الزيارة لانها كانت حصينة جدًّا

وتأتي المياه الى المدينة بقناة قيل اجرتها هيلانة ام القيصر قسطنطين وفي المدينة بعض آبار وقيل ان المياه هي علة خروج الدمل المشهور بحبة حلب او السنة وهي خراجة صغيرة تصيب كل انسان او حيوان يستقي من الماء المذكور وذهب الآخرون الى ان مناخ المدينة وبعض جوارها انما هو الداعي لخروج هذه الحبة ويصاب الاهلون بها في طفوليتهم اما الغرباء فيصابون بها عند زيارتهم او بعدها بمدة طويلة وتبقى الحبة في المصاب سنة واكثر خروجها في الوجه على انها تشوههُ احيانًا باحداث نقعر فيهِ وقد تصيب الكلاب والهررة ايضًا وقد قال بعض الكتبة انها لا تنحصر في حلب بل انها تعم كل الاماكن التي يسقيها قويق والفرات حتى بغداد

ومدينة حلب قديمة العهد جدًّا وقد قال بعض المؤرخين من العرب انها سميت بذلك لحادثةٍ جرت مع سيدنا ابرهيم فانهُ كان يحلب بقرة شهباء على التل القائمة عليهِ قلعة حلب وذلك حين مروره من بلاد ما بين النهرين الى كنعان فكان اهل القرية يقولون ان ابرهيم حلب الشهباء اما المدققون في التاريخ فكانوا يعتقدون ان حلبًا هي حلبون التي ذكرها حزقيال وشاليبون التي ذكرها سترابو و بتولماي على ان بعض السياح والمدققين يخالفونهم في ذلك سيما وقد وجدوا حلبون قريبة من دمشق وهذه كانت مشهورة بخمرها اما الرومان فيدعون حلبًا باسم بيريا ولما اراد القيصر جوليانوس الجاحد ان يسير الى قتال سابور الثاني ملك العجم خرج من انطاكية فبات ليلتين في طريقهِ اما الثالثة فباتها في بيريا اي حلب كما سبق في تاريخه

قيل ان سولوقس نيكانور ملك سوريا هو الذي دعا حلبًا باسم بيريا فظلت كذلك حتى زمان العرب والفتح الاسلامي

وكانت بيريا او حلب بلدة تجارية راجت فيها التجارة الى درجة قصوى حتى صار اهلها على جانب عظيم من الغنى والثروة وكانت مركز حكومة رومانية تمتد حتى الفرات ولما خفقت الاعلام العربية في سوريا واستبد الاسلام في فلسطين امر الخليفة عمر وهو في بيت المقدس ان يكون يزيد بن ابي سفيان في فلسطين والثغور وابا عبيدة بن الجراح في سوريا الشمالية من حوران حتى حلب وحرضهُ على فتح المدائن التي لم تكن قد عنت لهم بعد فسار ابو عبيدة واتى قنسرين فخرج اليهِ اهلها مسلمين فقبلهم بعد ان تعهدوا ان يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ثم سار الى حلب وكانت ذات قلعة واسوار وحصون منيعة لا يعادلها موضع في الشام وكان القيصر الروماني قد اقام فيها حاكمًا يتولاها مع ملحقاتها ففي غضون ذلك مات الحاكم تاركًا ولدين احدهما يقال لهُ يوكنا والآخر يوحنا وكان يوكنا رجلاً شجاعًا وقرمًا مناعًا اما اخوه يوحنا فكان يحب الانفراد والانزواء و يفضل السكينة والراحة على الحرب والقتال

والحكومة وكان مولعًا با لدراسة والآداب والدين فلما شاعت اخبار دنو
الفاتحين من حلب خافت الناس من القتال لانهم تيقنوا تعطيل تجارتهم
وخرابهم اذا انتشبت بين الفئتين نار القتال اما يوكنا فكان يرغب الحرب والصدام
ولذلك وبخ اخاه يوحنا الذي طلب اليهِ بلسان الشعب ان يسلم للفاتحين وخرج
يوكنا ببعض من رجالهِ للقاء العرب اما التجار في المدينة فاجتمعوا وقر رايهم
ان يسلموا للفاتحين فيعاملونهم بالحلم والشفقة ولذلك بعثوا وفدًا منهم لمقابلة
ابي عبيدة امير العرب فبلغت رسل التجار مضارب القائد وعقدوا واياه
شروط تسليم المدينة اما يوكنا فلم يعلم بما كان على انهُ قاتل الطليعة فكسرها
وعند انفصال القتال علم بما كان من التجار فانسحب من النزال ودخل
المدينة واخذ يقتل من اهلها ناسبًا اياهم للخيانة فعلم اخوه يوحنا بذلك
واقبل يرجوه العفو عن الناس فوبخهُ وقال لهُ لعلك انت سبب الخيانة
وضربهُ فقطع رأسهُ واشتد الهرج وجاء العرب فكسروه وقتلوا من جيشهِ
كثيرين فدخل القلعة وهي خارج المدينة وكانت منيعة عن طارقها وتم
استيلاء الاسلام على حلب دون قلعتها وعقد ابو عبيدة وخالد بن الوليد
مشورة لحصرها ثم قر قرارهم عليهِ فحصروها شديدًا واقاموا على ذلك خمسة شهور
فلم ينالوا اربًا فكتب ابو عبيدة الى الخليفة يستاذنهُ بالانسحاب عن الحصر
فاجابهُ ان يقيم عليها ولا يبارحها حتى يفتحها لئلا يستخف بهِ العدو وبعث اليهِ
مددًا من الرجالة والفرسان وبعد ان اقاموا زمانًا ثار من بينهم عبد يقال لهُ
دامس وكان من فحول الرجال وطلب ان يصحب بثلاثين من نخبة الابطال وسار
فتوصل بحيلة الى القلعة وقتل بعض الحراس وكانوا سكارى وفتح الابواب
فدخلها قومهُ الفاتحون وكادوا يفتكون بالذين فيها لو لم يطلبوا الامان فعرض
عليهم الاسلام فاسلم يوكنا وبعض رجالهِ ونسائهِ واخلص يوكنا للاسلام الخدمة
حيث اصبح من المجاهدين ولهُ وقائع مذكورة

وضمت حلب الشهباء الى الدولة الاسلامية بعد ان تم فتح اكثر المدن

السورية وحسبت المدينة كسائر المدن عالة لا اهمية لها في التاريخ الخاص لولا تعلقها احياناً بالحوادث الكبيرة اما التغيرات والانقلابات التي تناوب حدوثها في الامة الاسلامية فلم تهمل حلباً بل ان هذه المدينة القديمة شاركت سائر انحاء الشام باحوالها

وكانت حلب في اواسط الجيل الرابع الاسلامي عاصمة ملكية لسرير دولة بني حمدان الذين كانوا يخطبون للخلفاء العباسيين فتولى الخطة الشامية اي السورية كثيرون من هولاء السلاطين والامراء واشهرهم سيف الدولة بن حمدان وهو اول من اخذ حلبا وبقية الشام للملك وكان سيف الدولة بطلاً مجاهداً اقام بحروب كثيرة وغزا الروم مرات متعددة وصد حملاتهم وفي ايامهِ جاء زمياس قائد جيوش الرومان وهو المعروف عند العرب باسم الدمستق والظاهر انهُ فاز بالاستيلاء على اكثر الثغور غير انهُ اخرج منها وقد ذكر الامام ابن خلدون ما يأتي كان امر الثغور راجعاً الى سيف الدولة بن حمدان ووقع الفداء سنة خمس وثلاثين (وثلاثماية للهجرة) في الفين من الاسرى على يد نصر الثملي ودخل الروم سنة ثنتين وثلاثين مدينة واسرغين ونهبوها وسبوها واقاموا بها ثلاثاً وهم في ثمانين الفاً مع الدمستق ثم سار سيف الدولة سنة سبع وثلاثين غازياً الى بلاد الروم فقاتلوهُ وهزموهُ ونزل الروم على مرعش فاخذوها واوقعوا باهل طرسوس ثم دخل سنة ثمان وثلاثين وتوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً كثيرة وغنم وسبا ولما قفل اخذت الروم عليهِ المضايق واثخنوا في المسلمين قتلاً واسراً واستردوا ما غنموهُ ونجا سيف الدولة في فل قليل ثم ملك الروم سنة احدى واربعين مدينة سروج واستباحوها ثم دخل سيف الدولة سنة ثلاث واربعين الى بلاد الروم فاثخن فيها وغنم وقتل قسطنطين ابن الدمستق فيمن قتل فجمع الدمستق عساكر الروم والروس وبلغار وقصد الثغور فسار اليهِ سيف الدولة ابن حمدان والتقوا عند الحرث فانهزم الروس واستباحهم المسلمون قتلاً واسراً واسهر صهر الدمستق

وبعض اسباطهِ وكثير من بطارقتهِ ورجع سيف الدولة بالظفر والغنيمة ثم دخل بلاد الروم النصرانية ثم رجع الى اذنه واقام بها حتى جاءهُ نائبهُ على طرسوس فخلع عليهِ وعاد الى حلب وامتعض الروم لذلك فرجعوا الى بلادهم ثم غزا الروم طرسوس والرها وعاثوا في نواحيها سبيًا واسرًا ورجعوا ثم غزا سيف الدولة بلاد الروم سنة ست واربعين واثخن فيها وفتح عدة حصون وامتلأت ايدي عسكره من الغنائم والسبي وانتهى الى اخرسنة ورجع وقد اخذت الروم عليهِ المضايق فقال لهُ اهل طرسوس ارجع معنا فان الدروب التي دخلت منها قد ملكها الروم عليك فلم يرجع اليهم وكان معجبًا برايهِ فظهر الروم عليهِ في الدرب واستردوا ما اخذ منهم ونجا في فلٍ قليل يناهزون الثلثماية ثم دخل سنة خمسين قائد من موالي سيف الدولة الى بلاد الروم من ناحية ميا فرقين فغنم وسبا وخرج سالمًا اه

وفي المحرم من سنة احدى وخمسين نزل الدمستق في جموع الروم على عين زربة وملك الجبل المطل عليها وضيق عليها حصارها ونصب عليها المنجنيقات وشرع في النقب فاستامنوا ودخل المدينة ثم ندم على تامينهم لما راى من اختلال احوالهم فنادى فيهم ان يخرجوا بجميع اهاليهم الى المسجد فمات منهم في الابواب بكض الزحام خلق ومات اخرون في الطرقات وقتل من وجدوا اخر النهار واستولى الروم على اموالهم وامتعتهم وهدموا اسوار المدينة وفتحوا في نواحي عين زربة اربعة وخمسين حصنًا ورحل الدمستق بعد عشرين يومًا بنية العود وخلف جيشهُ بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان واعترضهُ الدمستق في بعض مذاهبهِ فاوقع بهِ وقتل اخاه واعاد اهل البلد الخطبة لسيف الدولة والقى ابن الزيات نفسهُ في النهر فغرق ثم رجع الدمستق الى بلاد الثغور واتخذ السير الى مدينة حلب واعجل سيف الدولة عن الاحتشاد فقاتلهُ في خف من اصحابهِ فانهزم سيف الدولة واستلحم آل حمدان واستولى الدمستق على ما في

داره خارج حلب من خزائن الاموال والسلاح وخرب الدار وحصر المدينة واحسن اهل حلب مدافعتهُ فتاخر الى جبل حيوش ثم انطلقت ايدي الدعار بالبلد على النهب وقاتلهم الناس على متاعهم وخربت الاسوار من الحامية فجاء الروم ودخلوها عليهم وبادر الاسرى الذين كانوا في حلب واثخنوا في الناس وسبي من البلد بضعة عشر الفًا ما بين صبي وصبية واحتمل الروم ما قدروا عليهِ واحرقوا الباقي ولجأ المسلمون الى قصبة البلد فامتنعوا بها وتقدم ابن اخت الملك الى القلعة يحاصرها فرماه حجر منجنيق فمات وقتل الدمستق بهِ من كان معهُ من اسرى المسلمين وكانوا الفًا ومائتين وارتحل الدمستق عنهم ولم يعرض لسواد حلب وامرهم بالعمارة على انهُ يعود ابن عمهِ عن قريب فخيب الله ظنهُ واعاد سيف الدولة عين زربة واصلح اسوارها وغزا حاجبهُ مع اهل طرسوس الى بلاد الروم فاثخنوا فيها ورجعوا فجاء الروم الى حصن سبته فملكوه وملكوا ايضًا حصن ولوكة وثلاثة حصون مجاورة لهم ثم سار نجا غلام سيف الدولة الى حصن زياد فلقيهم جمع من الروم فانهزم الروم واسر منهم خمسماية رجل وفي هذه السنة اسر ابو فراس بن سعيد بن حمدان وكان عاملاً على منبج وفيها جيش من الروم في البحر الى جزيرة اقريطن وبعث اليهم المعتز بالمدد فاسر الروم وانهزم من بقي منهم ثم ثار الروم في ثنتين وخمسين بعدها بملكهم فقتلوهُ وملكوا غيرهُ وصار ابن السميسرة دمستقا

والظاهر ان الامام ابن خلدون كان يدعو كل قائد روماني دمستقا

على ان غارات سيف الدولة لم تقتصر على بلاد الروم وهو الذي امتدحهُ ابو الطيب المتنبي الشاعر المشهور في كثير من قصائدهِ توفي في حلب سنة ٣٥٥ وتولى الخطة عوضهُ ابنهُ ابو المعالي شريف

وفي سنة ثلثمائة وثمان وخمسين للهجرة دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها ولم يجد من يدافعهُ فعاث في نواحي طرابلس وكان اهلها قد اخرجوا عاملهم الى عرقة لسوء سيرتهِ فنهب الروم اموالهُ ثم حاصر الروم عرقة فملكوها

ونهبوها ثم قصدوا حمص وقد انتقل اهلها عنها فاحرقوها ورجعوا الى بلاد السواحل وملكوا منها ثمانية عشر بلدًا واستباحوا عامة القرى وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم الا ان بعض العرب كان يغيرون على اطرافهم ثم رجع ملك الروم مجمعًا حصار حلب وانطاكية و بلغهُ استعدادهم فرحل عنهم الى بلادهِ ومعهُ من السبي مائة الف فارس وكان بحلب قرعوبة مولى سيف الدولة فمانعهم و بعث ملك الروم سرايا الى الجزيره فبلغوا كفرثوثا وعاثوا في نواحيها ولم يكن من ابي ثعلب مدافعة لهم

وفي تلك السنة ثار قرعوبة وهو غلام سيف الدولة على ابي المعالي ابن سيده وانتقض عليهِ فاخرجهُ من المدينة فسار الى ميافارقين فابت امهُ قبولهُ اولا ثم قبلتهُ وسار لحصار حلب و بينما هو يحصرها انفذ ملك الروم جيشًا كثيفًا اليها فلما دنوا منها اقلع ابو المعالي عنها وتبطن البر فامتلك الروم المدينة اما قرعوبة وخواصهُ فانحصروا في القلعة واخذ الروم يشددون الحصار تشديدًا عظيمًا ثم تهادنوا على مال يحملهُ قرعوبة وان لا يمنع الروم اذا ارادوا اخذ الميرة من قرى الفرات وكانت هذه الهدنة تعم حمصًا وكفرطاب والمعرة وافامية وشيذر وما بين ذلك من الحصون والقرى

وخرج الروم من حلب وكان ملك الروم قد بعث جيشًا الى ارمينيا فعاث فيها وكان قرعوبة قد استناب على حلب مولاه ابي عبدهُ بكجور فقوي عليهِ وحبسهُ في القلعة ومالك المدينة سنين فكتب اصحاب قرعوبة الى ابي المعالي ابن سيف الدولة فسار اليها وحاصرها اربعة شهور وملكها واصلح احوالها وزادت عمارتها واتصل الملك في حلب لسعد الدولة بن حمدان وفي سنة ٣٨٥ توفي بالفالج وكان كبير دولتهِ مولاه لوءلوء فنصب ابنهُ ابا الفضائل واخذ لهُ العهد على الاخبار على ان الخبر بلغ للحال عزيز مصر وهو يومئذٍ مالك قسمًا كبيرًا من سوريا وكان بعض الكبار قد اغراه بملك حلب فارسل قائدهُ منجوتكين في العساكر لياخذها فجاءَ وحاصرها فملك البلدة واعتصم ابو

الفضائل ولوءلوء بالقلعة فبعثا يستنجدان ملك الروم وكان يقاتل البلغار فارسل الى نائبهِ في انطاكية ان يسير اليهم فسار في خمسين الفًا ونزل جسر الجديد على وادي العاصي فاتاهُ منجوتكين وقاتلهُ فهزمهُ حتى انطاكية واتاها فنهب قراها وعاث في نواحيها واحرقها وكان ابو الفضائل ولوءلوء قد خرجا من القلعة واخذا ما في المدينة من الزاد والمهمات واحرقا الباقي و بعد ان فعل منجوتكين ما فعل مع الروم عاد فحاصر ابا الفضائل ولؤلوءًا في حلب

وراسل لوءلوء اباحسن المغربي في الوساطة لهم في الصلح فصالحهم منجوتكين وعاد الى دمشق مركز ولايتهِ ولم يكتب للعزيز فغضب العزيز فكتب اليهِ يوبخهُ و يامرهُ بالعود الى الحصار فعادوا واقام على حصارها ثلاثة عشر شهرًا فبعث ابو الفضائل ولوءلوء مراسلة الى القيصر الروماني يحرضانهِ فيها على استرجاع انطاكية وكان الامبراطور قد توغل في البلغار فرجع عنها واكثر من العسكر وجاء حلب فعلم منجوتكين واجفل عنها بعد ان احرق خيامهُ وهدم مبانيهِ وجاء ملك الروم فخرج اليهِ ابو الفضائل ولوءلوء وشكراهُ ورجعا الى بلدتهما اما الملك فسار الى حمص وشيذر ونهبهما و بعد ذلك ثار ابو نصر لوءلوء على مولاه ابي الفضائل بن حمدان واخذ البلد منهُ ومحا الدعوة العباسية وخطب للحاكم العلوي عزيز مصر وهكذا عادت حلب لدولة العبيديين ثم غلب عليها صالح بن مرداس الكلابي وكانت بها دولة لهُ ولقومهِ وورثها عنهُ بنوه وكان صالح هذا قد صار ملكًا للرحبة وذلك بالحيلة فلما اخذ حلبًا وقطع دعوة العباسية وخطب لعزيز مصر ترأَى لهُ ان يستبد بالملك فعرف العزيز قصده واستوحش منهُ ثم تولى حلبًا وقلعتها بعض نواب الحكم الى ان افضت الولاية لرجل من بني حمدان يقال لهُ عزيز الملك كان قد اصطنعهُ الحاكم وولاه حلبًا فلما تولى الظاهر سرير الخلافة ابى عزيز الملك الطاعة لهُ وكانت عمتهُ مدبرة لامور الملك فارسلت من قتل عزيز الملك وتولى عوضهُ على حلب عبد الله بن علي بن جعفر الكتامي و يعرف بابن شعبان الكتامي

وعلى القلعة صفي الدين .وصوف الخادم

ولما مضى الجيل الرابع من تاريخ الهجرة وضعف امر العبيديين وانقضى امر بني حمدان من الشام والجزيرة تطاولت العرب الى الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة واجتمع عرب الشام فتقاسموا البلاد على ان يكون لحسان بن مفرج بن دغفل وقومهُ طيء من الرملة الى مصر ولصالح بن مرداس وقومهُ من بني كلاب من حلب الى عانة ولسنان بن عليان وقومهُ دمشق واعمالها وكان العامل على هذه البلاد من قبل خليفة مصر انوشتكين الى عسقلان وملكها ونهبها حسان وصار ابن مرداس الى حلب فملكها من يد ابن شعبان وسلم لهُ اهل البلد ودخلها وصعد ابن شعبان الى القلعة فحصرهم صالح بالقلعة حتى جهدهم الحصار واستأمنوا وملك القلعة وذلك سنة ٤٢٤ هجرية وامتد ملك صالح ما بين بعلبك وعانة وبلغ الظاهر ذلك فجهز الجند وعقد لانوشتكين الراية عليهم وبعثهُ لقتال صالح بن مرداس وحسان بن مفرج فالتقيا بهِ عند طبرية على الاردن وقاتلها فانهزما وقتل صالح بن مرداس صاحب حلب وولده الاصغر ونجا ولده الاكبر ابو كامل نصر بن صالح فاتى حلب وتولاها وكان يلقب شبل الدولة لما شاعت هذه الاخبار وعلم الروم الذين في انطاكية بما كان طمحت عينهم بالاستيلاء على حلب فسار ملك الروم بجيش كثيف قيل ان عدده ثلثمائة الف مقاتل ونزل قريباً من حلب وكان معهُ ابن الدوقس من اكابر الروم فوقعت بينهما فتنة سببت انشقاقهما وبالنتيجة انسحابهما عن القتال على ان المسلمين اكتسبوا تلك الفرصة فخرجوا اليهم وتبعوهم ونهبوا اثقال ملك الروم اربعمائة حمل وكان الظاهر لاعزاز دين الله خليفة مصر قد مات وتولى الخلافة بعده المستنصر بالله سنة ٤٢٨ ه الموافقة سنة ١٠٣٦ م فارسل في السنة الثالثة الوزيري بعسكر جرار لقتال صاحب حلب فالتقاه شبل الدولة بن صالح عند حماة واشتبك القتال فدارت الدائرة على نصر وولى منهزماً ثم قتل وملك الوزيري حلب في

رمضان سنة ٤٢٩ فعادت الى ملك الدولة الفاطمية المصرية على ان ذلك لم يطل لان الوزيري قصد الاستبداد واكثر من الاتراك في الجند فبلغ المستنصر ووزيرهُ الجرجاي فدس لاهل الشام الثورة عليهِ وكان الوزيري قد استولى على الشام واقام بدمشق فلما اعياه امر الثوار في دمشق سار الى حلب بمساعدة صاحب كفرطاب على ان المنون اسرع بهِ من الوجود فمات سنة ٤٣٣ ولما مات عادت القلاقل والحروب وفسد امر الشام وانحل النظام وتزايد طمع العرب وجاء ثمال ابن صالح بن مرداس الى حلب وكان قد اقام في الرحبة منذ مصرع ابيهِ واخيهِ فحصرها وملك المدينة ولجأ اصحاب الوزيري الى القلعة فامتنعت عليهِ فحصرها حولاً كاملاً وملكها في صفر سنة اربع وثلاثين وما زال قابضاً زمامها الى ان جاءتهُ عساكر مصر تحت امرة ابي عبيد الله بن ناصر الدولة حمدان فخرج اليهم وقاتلهم فكسرهم وافرجوا عن حلب خوفاً من سيل عرمرم كاد يذهب بهم وفي سنة ٤٤١ جاءت عساكر مصرية لقتال حلب مع رفق الخادم فانكسروا واسر ثمال رفقاً ومات عندهُ اسيرًا وتكررت غزوات المصريين لحلب حتى كل ثمال ومل وعجز عن المدافعة عنها فكتب سنة ٤٤٩ الى المنتصر بالمصالحة وان يتنزل لهُ عن حلب ففعل وتولاها بامر خليفة مصر مكين الدولة ابا علي الحسن بن ملهم فتسلمها اخر تلك السنة على انهُ لم يلبث اكثر من سنتين حتى ثار بهِ الاهلون فحصروهُ في القلعة وكان معهم محمود بن نصر بن صالح واستمد ابن ملهم المنتصر فارسل اليهِ احد عمالهِ وخاف محمود وجماعتهُ الحلبيون فاخلوا المدينة ثم تواقعوا ظاهرها فانكسر ابن ملهم والمدد واسر ودخل محمود بن نصر المدينة فتولاها واطلق ابن ملهم وابن حمدان قائد المدد فرجعا الى مصر وكان رجوع محمود في شعبان سنة ٤٥١ فما استقر الحال لمحمود بن نصر الا وقد وافاهُ عمهُ ثمال بن صالح الذي كان قد سلم المدينة للمستنصر واتى مصرًا فلما رأى المستنصر خروج حلب من بده سرح ثمال اليها فجاءها وحصر ابن اخيهِ فيها واستمد محمود خالهُ صاحب

حران فجاء بنفسه واخرج ثمال عنها حتى عاد صاحب حران الى بلده فاطبق ثمال عليها واخذها في ربيع سنة ٤٥٢ وفي ذي القعدة سنة ٤٥٤ توفي ثمال فعهد بالمدينة لاخيه عطية بن صالح فملكها ثم حدث ان بعض السلاجقة الذين نجوا من القتل جاءوا محمود بن نصر وهو يومئذٍ في حران واخذوا يعرضون له تملك حلب فسار اليها وحصرها ثم اخذها في رمضان سنة ٤٥٥ وما لبث فيها ان جاءها السلطان الب ارسلان وحصرها حصرًا شديدًا وما انفك عنها حتى خرج محمود اليه ملتمسًا الصلح فخلع عليه وذلك اخر سنة ٤٧٣ وقد زحف تتش ابن الب ارسلان من دمشق الى حلب فانف اهلها التسليم للترك ثم كتبوا الى مسلم بن قريش فجاءهم واخذ البلد سنة ٤٧٣ على ان سابق بن محمود واخاهُ وثاب دخلا القلعة وبعد ايام استامنها مسلم بن قريش فسلماها وبعث مسلم الى السلطان ملك شاه بالفتح وان يضمن البلد على العادة فاجابهُ الى ذلك وصارت في ولاية مسلم بن قريش الى ان قتله سليمان بن قطلمش وكان مقدم اهل البلد رجل يقال له ابن الحسين العباسي فارسل بعد سليمان يملكها وكذلك تتش لانهُ كان قد حصرها ونمى الخبر الى تتش فسار اليها وجاءه سليمان فاقتتلا وقتل سليمان سنة تسع وسبعين واربعمائة وبعث تتش براسهِ الى مقدم حلب فاجاب ان لا يسلمها الا بعد مشاورة السلطان ملك شاه فغضب تاج الدولة تتش وحاصره وخان بعض اهل البلد فغدر بالمقدم وادخل تتش ليلاً وكتب بعضهم الى السلطان ملك شاه فجاء من اصفهان حتى حلب وكان اخوه تتش يحاصر القلعة وقد مضى له على حصارها سبعة عشر يومًا فاخذ السلطان المدينة ورمى القلعة بالسهام نحو ساعه من الزمان وولى السلطان على حلب قسيم الدولة اقسنقر جد العادل نور الدين بهذا تم دخول حلب في حكم السلاجقة كسائر سوريا

وظلت حلب كل ايام الصليبيين خاضعة للاسلام يتولاها منهم اتابك وزنكي وبعدهما نور الدين وقد جيش زنكي على الافرنج جيوشًا جرارة

وقاتلهم وكان النصر بينهما سجالاً ولم ينل الصليبيون من حلب ماربًا مع انهم اتوها وحصروها قال احد المورخين من الافرنج وفي سنة ١١٢٤ حصر الصليبيون حلبًا على ان فيضان النهر بغتةً اضر بعسكرهم ضررًا بليغًا فانسحبوا عنها الى انطاكية

بيد ان حلب ما انفكت عرضة للزلازل تتعاقب عليها مرة بعد اخرى فان في سنة ١١٣٩ م حدثت زلزلة هائلة اعقبتها زلزلة اخرى سنة ١١٧٠ فهدمتها على انها عادت فترممت وتولاها السلطان صلاح الدين بن ايوب ودخلت في دولتهِ ثم انتقلت لدولة المماليك بانتقال سوريا اليهم فاصبحت تحت لوائهم عاصمة الولاية السورية واستمرت كذلك الى ان دهمها بلاء تيمورلنك وكان الخليفة قد اصدر امرًا الى النائب بدمشق وسائر النواب والحكام بان يسيروا الى حلب ليردأوا عنها ذلك الويل وكان نائب دمشق سيدي سودون فتجهز ودخل في شهر صفر سنة ٨٠٣ فبلغ حلب واستعد للمبارزة والقتال وكان تيمورلنك قد اتى عين تاب وامتلكها من اركماس الذي فر ولجأ بحلب فحرر امرًا الى اهل حلب ان يقطعوا الخطبة لخلفاء مصر ويخطبوا لهُ ويرسلوا لهُ اطلاميش وكان عندهُ وفر فلجأ بالخليفة وغير ذلك مما يدل على اخضاعهم فلم يلتفت سيدي سودون الى الرسالة بل ضرب عنق الرسول وتاهب للقاء ذلك الفاتح وعقد مع النواب الذين عندهُ مشورة فاشار صاحب طرابلس الشام بما يعود لخير حلب على ان نائبها تمرداش لم يرضاها بل حمل القوم على مضادتها قال احد كتبة الاسلام وكان تمرداش قد خالف الجمهور ووافق في الباطن تيمور وهذا يظهر ان الخيانة كانت علة لفتح حلب

ولما كان الخميس تاسع ربيع الاول نازل تيمورلنك حلب وكان نائبها المقر السيفي تمرداش وقد حضرت اليهِ عساكر البلاد الشامية وعسكر دمشق مع نائبها سيدي سودون وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي وعسكر حماه مع نائبها المقر السيفي دقماق وعسكر صفد وغيرها

فاختلفت اراؤُهم فمن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار وقائل اخرجوا ظاهر البلد تلقاء العدو بالخيام فلما راى المقر السيفي اختلافهم اذن لاهل حلب في اخلائها والتوجه حيث شاءوا وكان نعم الراي فلم يوافقوا على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر وفد تمرلنك فقتلهُ نائب دمشق قبل ان يسمع كلامهُ ويوم الجمعة حصل بين الاطراف تناوش يسير فلما كان يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الاول زحف تيمورلنك بجيوشهِ وقبيلتهِ فولى المسلمون نحو المدينة وازدحموا في الابواب ومات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يقتل وياسر واخذ تيمورلنك حلب عنوةً بالسيف وصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة وكان اهل حلب قد جعلوا غالب اموالهم فيها وفي يوم رابع عشر شهر ربيع اول اخذ القلعة بالامان وفي ثاني يوم صعد اليها وفي اخر النهار طلب علماءها وقضاتها فجاءها عدد منهم ابن الشحنة المؤرخ فالقى تيمورلنك عليهم المسائل وما اجابوه وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة مع انهُ كان قد امن الاهلين وقال ان لا يقتل احدًا واخذ كل ما كان فيها من الاموال والاقمشة والامتعة ما لا يحصى مما لم ياخذهُ من مدينة قط وعوقب غالب المسلمين بانواع من العقوبة وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجز ومسجون ومرسم عليهِ ونزل تيمورلنك من القلعة واقام بدار النيابة وصنع وليمة على ذي المغلي ووقف سائر الملوك والنواب في خدمتهِ وادار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون في عقاب وعذاب وسبي وقتل واسروجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ونبش الى اخر ربيع الاول

قيل ان ذلك الظالم فتك بكثيرين من الناس في حلب حتى اقيمت بناية من رؤُوس القتلى ثم سار الى الشام ولم ترَ منهُ نصيبًا اقل من حلب ولما كان سابع عشر شعبان من السنة المذكورة وصل تيمورلنك عائدًا من الشام الى الجيول شرقي حلب ولم يدخلها بل امر المقيمين بها من جهتهِ بتخريبها واحراق المدينة ففعلوا. قيل ان النار شبت بالمدينة ثلاثة ايام فلم تبقِ ولم تذر

قال مؤرخ اخر من المسلمين ان تيمورلنك لما فتح المدينة والتجا نواب مدن سوريا الى القلعة وضايقهم فيها تقدم تمرداش نائب حلب فانزلهم بالامان اليهِ فقبض على سيدي سودون وشيخ علي الخاصكي والتونبغا العثماني وكان نائب صفد وعمر بن الطحان نائب غزة وغل الجميع بالقيود اما تمرداش فانعم عليهِ قيل ان الذي حمل تيمورلنك على بناء القبة من الروس انما هو نسيب الرسول الذي قتلهُ نائب دمشق فانهُ طالبهُ بالثار فاباح لهُ ان يعمل ما اراد ففعل على ان المؤرخ ابن الشحنة يقول: وجاءنا امير يعتذر ويقول ان سلطاننا لم يامر باحضار رؤوس المسلمين وانما امر بقطع رؤوس القتلى وان يجعل منها قبة اقامة لحرمتهِ على جرى عادتهِ الخ اما النواب الذين معهُ فقد قتلوا الواحد بعد الاخر على ان سيدي سودون لم ينج من الوبال فمات وهو اسير واستقر في نيابة دمشق تنكرى وردى

وعادت حلب الى العمران فجائتها الاعلام العثمانية تخفق فوق رؤوس جيوش يتقدمها النصر والفتح المبين وكان الغوري صاحب مصر قد علم بذلك فوافاها حتى سهول حلب فاشتبك القتال بينهما وفاز السلطان سليم العثماني بالنصر على عدوهِ الغوري وفر المكسور منهزمًا ومات في اثناء انكسارهِ واخذ السلطان حلبًا وغيرها سنة ١٥١٧

وجعلت الدولة العثمانية حلبا من ولايتها على انها لم تكن منفصلة عن سوريا بل منضمة اليها وكانت الدولة ترسل اليها النواب والعمال لسائر المدن والثغور فاخذت المدينة ترقى في التقدم والنجاح سيما لانها كانت مركزًا مهمًا للتجارة ومفتاحًا للداخلية اسيا حيث وافاها كثيرون من الافرنج في سنة ١٥٨١ تشكلت الشراكة الشرقية بامر الملكة اليصابات الانكليزية وبعد ذلك بزمن يسير فتحت محلاً للتجارة في حلب مع بلاد الفرس والهند في الطريق البرية وتعين للدولة المشار اليها قونسلوسًا وعرفهُ حضرة السلطان (ربما كان ساكن الجنان السلطان مراد الثالث فان مدة خلافتهُ دامت لحد ١٥٩٥) وكان في حلب وغيرها

من الممالك العثمانية كثير من المحلات التجارية الفرنساوية والفينيسية (كانت مملكة مستقلة وقد ضمت الى ايطاليا) وفي سنة ١٧٤٠ كانت النذلة من الانكليز قد كثرت فكان لهم قنصل وعشرة تجار وقسيس وكاتب اسرار وطبيب وفي سنة ١٧٥٢ عدت الدور فكانت ٨ بما فيه دار القنصل وفي سنة ١٧٧٢ اصبح عددها اربعة فقط فان افتتاح طريق التجارة راساً من الهند حول راس الرجا الصالح كان سبباً فعالاً لتاخير الشراكة الشرقية ومن تجار هذه الشراكة من زار تدمر ١٦٩١ وادهش اوروبا بوصف خرابانها وصفا مدققاً ومنهم هنري موندرل وهو مؤلف الكتاب المشهور وعنوانهُ سفر من حلب الى اورشليم سنة ١٦٩٧ للميلاد وكان قسا للتجار المذكورين ومنهم الدكتور باتريك روسل مؤلف تاريخ حلب الطبيعي واخوهُ الكسندر مؤلف المجلد الثاني من ذلك الكتاب الغريب وكلاهما كانا طبيبين لابناء وطنهما في اواسط الجيل السابع عشر

والظاهر من تعديل نشرهُ المسيو داريفو ان الحكومة العثمانية وتردد الاوربيين قد نفعا حلباً كثيراً فانهُ روى ان عدد سكانها بلغ ٢٨٥,٠٠٠ سنة ١٦٨٢ وقال روسل المذكور آنفاً في كتاب الفهُ بعد ذلك المؤلف بنحو قرن ان عددهم نحو ١٢٥,٠٠٠ وذكر غيرهما من المؤرخين المتاخرين انهُ لا يظن ان سكان حلب زادت عن ١٥٠,٠٠٠ نفس في اي وقت كان

ورجح المدققون الرواية الاولى وفي سنة ١٦٠٥ عصا جان بولاد والي حلب (لم يتولَّ حلباً رجل بهذا الاسم وبالبحث في مدققات التاريخ ظهر ان الوالي الذي عصا هو علي باشا جانبلاط) على الدولة في زمان السلطان احمد الاول وانهُ سار الى بعض مدائن سوريا فاخذها حتى بلغ دمشق واخذها ولكن سنة ١٦٠٧ استرجع السلطان احمد المدن السورية بتدبير محمد باشا الصدر الاعظم ثم اشتبكت حرب مهولة دامت ثلاثة ايام بالقرب من حلب ولم يظهر النصر لاي الفريقين حتى شاعت الاخبار بقدوم والي الشام ووالي

طرابلس فخاف علي باشا واذعن للدولة العلية وسار الى الاستانة العلية فاعتبره الوزير واكرمهُ وسمح لهُ ان يعود الى سوريا واستقر حال حلب حتى سنة ١٦٥٨ فجرى في نواحيها والموصل حركة من ابرهيم باشا واحد المدعين بالخلافة العثمانية وجرى بين جنود الدولة وذلك الثائر حرب مهولة افضت الى اسر المدعي وابرهيم باشا

وفي سنة ١٧٢٢ اصيبت حلب بزلزلة مهولة دمرت اكثر بيوتها وقتلت كثيرين من اهلها وفي زمان استيلاء الحكومة المصرية على سوريا كانت حلب ايضًا قد عنت لها وقد اقام بها المرحوم ابرهيم باشا بعض اعمال لم تزل شاهدة على عظمتهِ وبنا فيها بعض ابنية ثم عادت الى الدولة العلية كسائر سوريا

وها هي حلب الان راس ولاية عثمانية باسمها تدبر جملة من المتصرفيات الا ان تجارتها وقفت دون ذلك التقدم السريع لان فتح برزخ السويس قد اضر بها بتقريبهِ الهند الى اوروبا

الفصل الثاني

قنسرين

هي بلدة صغيرة تبعد عن حلب نحو اربع ساعات الى الجنوب بميلة الى الشرق كان يقال لها قديمًا شالسيس وقد ذكر اصحاب التخطيط القديم انها على بعد ثمانية عشر ميلاً رومانيًا من بيريا اي حلب وعلى بعد ٥٩ من ابيفانيا وهي حماه وانها كانت في وسط طريق بين حماه وحلب الا ان تلك الطريق قد تغيرت خوفًا من مهاجمات البدو وكانت شالسيس في زمان بتولمايس عاصمة قسم سياسي من سوريا قال بوكوك المؤلف انهُ يوجد فيها بعض اثار من المدينة القديمة والسور المنيع الذي كان لها وان بجانبها خرابات حصن حصين قائم على اكمة عالية ولقد اختلف المدققون في حقيقة موقع صوبة وبالافرنجية زوبة المذكورة في صموئيل ٢ ص ٨ فقال بعضهم انها هي شالسيس او قنسرين وقال غيرهم انها في موقع اماسيا او حمص وقال اخرون

انها نسيبس او نصيبين في ما بين النهرين ولقد ورد في الكتاب ان داود النبي جاء لقتال هدر عزر ملك صوبة فقاتلهُ وكسرهُ وكسر الاراميين الذين انجدوه وان ملك حماة بعث اليهِ ابنهُ ليسال عن سلامتهِ و يباركهُ لانهُ كان نافرًا من ملك حوبة

الفصل الثالث

الاسكندرونة

بعد ان يخرج الانسان من بلاد كيليكية وهي ولاية اطنة يدخل جبال عمان المعروفة عند الافرنج باسم امانوس بمضيق يقال لهُ باب سوريا وهو مفتاح البلاد على ان منهُ مر الفاتحون الذين نكرر دخولهم للبلاد اما الاسكندرونة فواقعة على ساحل البحر وهي فرضة حلب و باب تجارتها

وكانت اسكندرونة تدعى قديمًا باسم الكسندريا اداسيوم نسبة لسهول اسوس التي تجاورها اما اكسنفون فيذكر ان هنالك مدينة اسمها ميراندروس وان نحلة فينيقية كانت ساكنة فيها. على ان البعض يظنون ان اسكندرونة هي تلك المدينة وان اسمها الحالي لم يشتهر الا بعد ان لمعت اسلحة الاسكندر الكبير بمحاربة هائلة جرت في جوارها

وفي ذلك الجوار مر كورش الفارسي كما روى لنا المورخ اكسنفون وسار حتى ضفات شالوس وهو نهر قويق الواقع عند حلب ومنها الى ثابسكوس على الفرات

و بعد نحو سبعين سنة جاء الاسكندر المكدوني وقاتل داريوس الفارسي عند اسوس فكسره اشرَّ كسرة فالتزم ذلك السلطان العظيم ان يتقهقر وحل اسكندر الكبير محلهُ في تملك بلدان سوريا كما تقدم وهكذا كانت الاسكندرونة كما هي فعلاً باب البلاد السورية اما المدينة الان فليست بذات اهمية تستحق الذكر على انها لوقوعها فرضة لحلب امست تجارتها في رواج وفيها كثيرون من الاجانب وتمر عليها اكثر البواخر التي تاتي المين السورية وهي تابعة قضاء

بيلان واهلها اقل من ثلاثة الاف . اما مناخها فغاية في الرداءة وفيها قناصل لاكثر الدول الاجنبية ومنذ حين قريب لما اظهرت الدولة العلية رغبتها بشان مد طريق حديدية من احد الفرض السورية الى بغداد اشار بعضهم بان يبتدا من الاسكندرونة . على ان الظاهران ذلك لم يصادف قبولاً لان ذلك التخطيط يكلف اكثر من تخطيط طرابلس بمقدار النصف مع ان الطريق اقصر

الفصل الرابع

مدينة انطاكية

هي عاصمة السلوقيين واحدى المدن الرومانية الثلاث . موقعها على بعد احدى عشرة ساعة من الاسكندرونة وهي قائمة على ضفتي نهر العاصي المار فيها فيشطرها شطرين بعد ان يجري من مخرجهِ في البقاع نحو ماية وعشرين ميلاً ثم يخرج منها مارًا بين سفحي الاقرع وعمان فيصب في البحر المتوسط وقد خسرت كل ما كان لها في الازمنة الاولى من المجد والفخر وامست وقد خلت من كل ذكرى كانها لم تكُ بالامس شيئًا مذكورًا فان الزمان قد كر عليها كرورًا عظيماً ولم يبق من جمهور سكانها الكثيرين غير نحو سبعة عشر الف فقط وكان بعض المدينة قائمًا على جزيرة صناعية على ان ذلك امسى في خبر كان ولم يعد من المدينة غير قسم ربما كان اضيق من حي من احياء المدينة الاولى اما مركزها فخليق بان يكون لعاصمة مملكة عظيمة وكان يقال للاكمة المجاورة لها جبل سيليبوس وعلى قمتهِ اثار سور قديم كان يحيط بالمدينة

اما تاريخها فهو ما ياتي . ذلك انهُ لما فاز سولوقوس نيكاتور بكسر انتيغونس مناظره وبتشييد دعائم مملكتهِ على اثار سلطنة الاسكندر شاد مدينة انطاكية تكريمًا لاسم ابيهِ انطيوخس وذلك بعد ان رصد النسر من الجبل الاقرع وقد حل موقع سلوقية في ٢٣ نيسان سنة ٣٠١ ق م فامر ببناء سلوقية ثم انهُ كفر وضحى في جبل سيليبوس ورصد النسر في اول ايار من تلك السنة

فاكمل بناء انتيغونيا وكان مناظره المنكسر قد شرع في بنائها على بعد قليل من موقع انطاكية على انهُ راى بعد ذلك انها ليست بذات موقع يسرهُ سيما ان النسر حمل فريستهُ واتى بها سفح سيليبس فصدر الامر ببناء انطاكية فانتقلت المواد التي كانت قد استحضرت لبناء انتيغونيا وسير بها في نهر اورنتس اي العاصي وكان انتيغونس يحب ان يظهر ميلهُ لانسبائهِ واصدقائهِ فكان يامر ببناء المدن على اسمائهم قال احد المؤلفين انهُ بنى تسع مدن باسم سولوقية ليخلد اسمهُ وست عشر مدينة باسم انطاكية تشرفًا باسم ابيهِ او باسم ابنهِ لان اسم كل منهما كان انطيوخس وستة مدن باسم لاوديسيا ليخلد اسم امهِ ومدينة باسم اباميا اكرامًا لامراتهِ وقال اخرون انهُ انما بنى خمس مدن باسم لاوديسيا امهِ وثلاثا اباميا باسم امراتهِ وقال مؤرخ اخر ان انطاكية بنيت في موقع مدينة كان يقال لها ربلاتا والله اعلم

ولقد اورد لنا المورخون وصفًا مدققًا عن حالة المدينة فقالوا ان الحي المركزي كان مبنيًا في السهل وسفح الجبل الواقع بين النهر و بين سيليبوس وتم بنا ثلاثة احياء كل منها محاط بسور منيع حتى امست المدينة كانها اربع مدن كل واحدة منها منفصلة عن الاخرى ولذلك دعاها استرابو باسم تترابوليس اي ذات الاربع مدن وقيل انها دعيت تترابوليس لكيانها واحدة من المدن الاربع الكبيرة الملوكية التي بناها سولوقس وهي انطاكية وسولوقية واباميا واللاذقية وكان سولوقس يرغب جدًّا في انماء هذه المدينة وكبرها لانهُ كان قد صمم على ان يجعلها عاصمةً لمملكتهِ التي شادها بقوة الباس والشجاعة فقرر للغربا الذين ياتونها للسكنى فيها حقوق الوطنيين بقطع النظر عن جنسيتهم الاولى اي ان لافرق في الحقوق التي يمنحها بين شعبهِ اليونان و بين اليهود الذين كانوا اشد الناس عداوةً . على ان سياسة ذلك الفاتح العظيم كانت تقرير حقوق المساواة ولقد احسن في ذلك ولئن لم يكن القصد المحرك لهُ الحصول على سياسة عادلة وكان جمهور السكنة من الوطنيين ينقسم الى ثمانية

عشر سبطًا يقطنون في الاحياء وكان لهم منتدًى اي دار شورى عامة كان يعقد جلساته في المرسح فاصبحت انطاكية عاصمة المملكة السورية اليونانية وهي الدولة السلوقية ومات سولوقس وخلفهُ ولدهُ انطيوخس سوتر. فزين المدينة بالهياكل والدور الوسيعة والمنازل الجميلة اما سولوقس قالينكوس وهو رابع السلوقيين فقد بنا مدينة حديثة على جزيرة وضمها الى المدينة بخمسة جسور وقد نقل الينا كتبة ذلك العصر وصفًا مدققًا جدًا عن هيئة ذلك الحي

وفي زمان انطيوخس ابيفانوس سنة ١٧٠ ق م بني حي آخر من المدينة وضم اليها وشاد الملك دارًا للشوري او مجلسًا للشيوخ يعرف بالسنا و بنا هيكلاً لجو بتير واقام شارعًا في غاية من الظرف مزينًا باعمدة مزدوجة كان يخرق المدينة من الشرق الى الغرب وانشا اسواقًا اخرى كانت تخرق المدينة من الجهة اليمنى حتى تصل الى النهر والى الجنان والحدائق التي الى سفح الجبل من الجهة الاخرى وفي ملتقى الشارعين كان بناء مرتفع على مثال ابولو وما زالت هذه الحالة الحسنة حالتها حتى كانت سنة ١٤٥ ق م حينما كان ديمتريوس الثاني نيقاتور الغالب ملكًا على السلوقيين وكان صغير السن عديم التدريب والتدبير وغير اهل للقبض على ازمة سلطنة كثرت فيها المتاعب والمشاغب واحاطت بها كاحاطة الهالة بالقمر فاقام لاستنس رجلاً جاهلاً من اخصائهِ وقلدهُ وكالة الدولة واستوزرهُ فاخذ ذلك الوزير باعمال ظن بها ينبوع خير للدولة على انها لم تكن موسسة على الحكمة والاصول ولذلك عادت بعظيم ضرر فان الوزير اصلاحًا لشان المملكة طرد من الجندية كل الجيوش السورية الذين صرفوا معظم حيوتهم بخدمة الدولة وقتل بلا ذنب عددًا غفيرًا من جنود المصريين الذين ساعدوهُ لارجاع الملك فهاج الاهلون من جراذلك وحدث في انطاكية شغب عظيم و بلغ الملك ما كان. و بمشورة وزيره الجاهل صدر الامر الملكي بجمع اسلحة الاهلين المضطر بين فاشهر مائة وعشرون الفًا منهم السلاح ضد الدولة واتوا فحصروا قصر الملك ديمتريوس وكان قد التجأ اليه

مع وزيره وفرقة من الرجال فاستنجد ديمتريوس بيوناثان المكابي ملك اليهودية فاتى انطاكية وفتك بالاهلين بعد ان قتل منهم جمهورًا غفيرًا قيل نحو ماية الف ونهب المدينة واحرقها وارجع ديمتريوس لسرير ملكهِ واخمد الثورة على ان الاهلين لم يسكنوا عن اخذ الثار من هذا الحادث بل كانوا يترقبون الفرص حتى سار تريفون محافظ انطاكية الى العراق واعلن هنالك السلطنة باسم انطيوخس بن اسكندر الكبير السلوقي وبعد ان اتى سوريا حارب عند انطاكية ديمتريوس الثاني فانتصر عليهِ وملك انطيوخس ابيفانوس زيوفيسوس وقد تقدم شرح هذه الحوادث في تاريخ السلوقيين على ان مجيء تيغرانس ملك ارمينيا واستيلاءهُ على دولة السلوقيين سنة ٨٣ ق م لم يضر بانطاكية ولما عاد عن سوريا متقهقرًا اعاد الرومان انطاكية لانطيوخس فيلو باتر فبنا دار تحف على قمة جبل سيليبوس وكان الملوك السلوقيون يهتمون كثيرًا بنشر الفوائد بين قومهم وكانوا يبذلون الوسع بالتجارة والصناعة والزراعة اما المعارف فمع انهم لم يكونوا يهتمون فيها كثيرًا لم يتاخروا عن ايجاد الوسائط الفعالة لتقدم شعبهم حتى ان انطيوخس الثالث جمع مكتبة عظيمة في انطاكية واقام غيره من الملوك باعمال كثيرة تاول لتقدم الشعب وفي زمان انشاء انطيوخس فيلو باتر المتحف المذكور كانت انطاكية قد رقت اعلى درجة من التقدم والنجاح في الامور الادبية

وفي سنة ٦٤ ق م لما صارت سوريا برمتها ولاية رومانية منح بومبيوس الفاتح الروماني انطاكية حق الولاية في داخليتها اي ان تقيم المدينة لنفسها قضاة وحكامًا يحكمونها بشرط خضوعهم للدولة الرومانية وكانت المدينة لم تزل رافلة بحلل الفخر الاثيل وهي يومئذٍ المدينة الثانية في الدولة الرومانية فانشأ الفاتحون بها هياكل وقصور ومراسح واتوها بمياه لذيذة في اقنية وانشأوا حمامات واشادوا ندوة كان يقال لها سيذاربوم

اماهيرودوس الكبير فانشأ طريقًا باعمدة على الجانبين من باب المدينة

الى الشرق حتى حلب روى الكتاب المقدس انهُ لما استشهد استفانوس جرى ضيق عظيم على النصارى المتجددين فجاء بعض رجال من قبرس والقيروان ودخلوا انطاكية واخذوا يخاطبون اليونانيين مع ان رفاقهم كانوا لا يخاطبون الا اليهود فاثر كلامهم في السامعين حتى آمن كثيرون وتنصروا وارسل نصارى اورشليم اليهم برنابا ليكون معلمًا وواعظًا فاتاها واذ لم يرَ بدًّا من شريك لهُ اتى طرسوس بعد ان مر في جبال عمان واخذ شاول وكان فصيحًا ولعل السبب في انتخابهِ شاول ان برنابا لم يكن من الذين يتمكنون من القاء العظات على شعب متقدم في المعارف والفلسفة فجاء شاول وتعاونا على الوعظ والانذار حتى كثر عدد النصارى فتسموا مسيحيين في انطاكية اولاً ثم جاء بعض الرسل من اورشليم وتنبأ اغابوس ان مجاعة عظيمة مزمعة ان تلحق بالبلاد فاجتمع النصارى وجمعوا من بعضهم مالاً لمعونة اخوتهم في اورشليم وارسلوا المجموع بيد برنابا وشاول على ان تلك المجاعة قد حدثت في اليهودية سنة ٤٨ للميلاد في زمان دولة كلوديوس قيصر الروماني

ثم نهض بعض الناس وانذروا بوجوب الختان وحفظ ناموس موسى فارتاب النصارى بذلك وسار بولس وبرنابا الى اورشليم واخبرا بما كان فحكم الرسل فيها بعدم الختان واتباع شريعة الناموس وحرروا رسالة لاهل انطاكية وبعثوا باثنين من الاخوة اليها وهكذا تمكنت دعائم النصرانية في انطاكية حيثما كانت قد غرستها يد الرسل واخذت منذ ذلك الحين تزداد اهميةً ونجاحًا حتى صارت بعد ذلك عاصمة النصرانية وكانت رومية لم تزل في حال عبادتها للاوثان ولذلك لم ترَ بدًّا من تنفيذ ما ربها بمضادة الديانة المسيحية واضطهادها الا ان ذلك الاضطهاد كان سببًا في سرعة انتشار الديانة حيث تزعزعت اركان الوثنية الا ان اداب الديانة المسيحية ونفوذها لم يكونا قادرين على ازالة الشرور والمعاصي التي اشتهرت انطاكية بها من زمان طويل فان جودة هوائها ونضارة نواحيها قد اتاها بجمهور من اليونان

والرومان من الذين مامن داب لهم غير الحظ والسرور ومع ان مدارسها قد اشتهرت ببعض المبادىء العالية وتاريخها قد احيا ذكرى كثيرين من علمآئها لم يكن لكثيرين من اهلها شيءٌ من الاداب والمعرفة فان معظم اشغالهم كان محصوراً بحضور المراسح والالعاب وكانوا يميلون جدًّا للمسابقة على الخيول وهذه وتلك كانت تستغرق ايامهم وتخفض حميتهم وكانوا يعتقدون بكل ما يعتقدهُ الشرقيون من الاوهام وكان في المدينة كثيرون من منجمي الكلدانيين وسحرة اليهود وكان لهم اتباع كثيرون على ان الملذات واسباب الحظ كانت تسود على الكل وكانوا يقيمون في محال كثيرة معدة للحظ وبالنتيجة كانوا يرتكبون المعاصي والشرور

ومذ نمت الديانة المسيحية وانتشرت اهتم قياصرة الرومان بشانها فصار اضطهادها سياسة لهم ولذلك لما مر الامبراطور تراجان على انطاكية قبض على رئيس اساقفة المدينة وكان يقال لهُ اغناطيوس وبعث بهِ الى رومية ليطرح في جب الاسود في الكولوسيوم قال احد الكتبة ان بعضًا يعتقدون ان اغناطيوس هذا انما هو ذاك الولد احتضنهُ السيد المسيح يوم قال دعوا الاولاد يأتون اليَّ ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات وانهُ آمن بالانجيل على يد يوحنا البشير . اما علة غضب الامبراطور عليهِ فيظهر من الظروف والروايات انها كانت لمحاماتهِ عن النصارى الذين كان يرعاهم ومجاوبتهِ الامبراطور بجرائة بما يتعلق في النصرانية وقد قال احد موءرخي الكنيسة انهُ للحال وضع في السجن ونكل ثم جلد وكلف بان يقبض النار بيديهِ والصق على جانبيهِ ورق مغموس بالزيت واجلس على النار ثم مزق لحمهُ بملقط محمي وبعد احتمال هذه العذابات القي للاسود الضارية فمزقتهُ وكان من افاضل الرجال ولهُ رسائل كثيرة الى اهل الكنائس يعظهم ويشجعهم على احتمال الاضطهاد ولم يكن استشهادهُ كلما حدث في انطاكية من المصائب في زمان دولة الامبراطور تراجان بل حدثت في ايامهِ زلازل مهولة كادت تدمر المدينة

فهرب كثيرون من الاهالي حتى ان الامبراطور انتقل الى سيركوس وفي سنة ١٩٣ مسيحية لما كادت السلطنة الرومانية تقع في الارتباك والانقسام ونودي لكثيرين بالقيصرية نادت مدينة انطاكية عاصمة الروم في اسيا باسم بيشانيوس نيجور امبراطور على ان سبتميوس سفيروس لاقى هذا القيصر الانطاكي في اسوس وانتشبت بينهما حرب دموية كان النصر فيها لسفيروس فدخل البلاد وغضب على انطاكية فعاقب اهاليها وحرم المدينة حقوقها وامتيازاتها ومنح كثيرًا من الانعام لمدينة اللاذقية لانها كانت قد تحزبت له لتضاد انطاكية مناظرتها وقد قيل انه الحقها باللاذقية اي صارت اللاذقية رئيسة على انطاكية وفي سنة ٢٠١ توسط كراكلا بن سبتميوس سفيروس القيصر مع ابيهِ فاعاد لانطاكية حقوقها وامتيازاتها على ان المدينة قامت بحق شكره وذلك ببناء حمامات و بعض بنايات عمومية تشرفًا باسمهِ

وفي غضون ذلك تحركت ملوك الفرس لاستخلاص سوريا من يد الرومانيين فثار سابور الاول ابن اردشير الذي طرد حكومة الارشكيين اي البرثيين من فارس وجاء سوريا مغتنمًا فرصة انهماك الرومانيين بارتباكات داخلية ومقاتلات كثيرة لنوال القيصرية و بدا يغنم المدن حتى اخذ انطاكية وقصد حمصًا وكان فاليريانوس الروماني قد فاز على مناظره فسار بجيش كثيف لقتال سابور فادركهُ وانتشبت بينهما حرب مهولة فاز فيها سابور وتقهقر الرومان واسر القيصر فاليريانوس وظل اسيرًا مهانًا حتى مات. قيل كان فاليريانوس قد لجأ الى انطاكية فاسر منها وقيل ان اهل انطاكية لم يكونوا يعلمون من امر الفرس شيئًا وانهم يوم دهمتهم الفرس كانوا مجتمعين في المرسح لحضور الالعاب والملاهي فاتاهم العدو ومن وراء الجبال التي فوقهم وقد سلم المدينة رجل من اهلها اسمهُ ماريازس فنال جزاء خيانتهِ ان حرقهُ الفرس ونهب الفرس المدينة وفتكوا بالاهلين واحرقوا المباني العظيمة والهياكل الفاخرة وقتلوا من تخلف في البلد غير اسير وذلك سنة ٢٥٨ ولما

قام اورليانوس قيصر لقتال زنوبيا ملكة تدمر قابلته تلك الملكة العظيمة في سهول انطاكية فانكسرت فيها بعد ان لاح النصر لها والظاهر من عبارات المؤرخين ان اودناتوس زوج زنوبيا كان قد استولى على سوريا كلها من يد الرومانيين وذلك اولاً بكسره سابور الفارسي الذي كان قد اسر فاليريانوس وفتح انطاكية وحمص واخذ بعض المدن الشمالية وثانياً باشراك غالينوس بن فاليريانوس اباه بالملك بعد ان عرض عليه رئاسة الولايات الشرقية ولا يخفى ان ضعف غالينوس وانهماكه بالملذات والملاهي فتح باباً لنمو مملكة تدمر على ان اورليان لم يكن كسلافه فجاء لحربها وقابلته زنوبيا خليفة اودناتوس بالملك وهي زوجته ولم تعارض المدن الشمالية مسير اورليان اما زنوبيا فادركته عند انطاكية وحاربته هناك وبعد ان رأت علائم النصر تقهقرت ثم جددت الحرب فلم تقدر عليه ولذلك عادت لحمص

وكان القياصرة الرومان كثيراً ما يقيمون في انطاكية وفيها اتخذ الضابط اوجين سنة ٣٠٣ لقب الامبراطور وكان مقدماً على فرقة مؤلفة من ٥٠٠ عسكري اقامها ديوكلتيانوس لحفر ميناء سلفكة (سولوقية) فدخل المدينة ولم يلبث حتى قتله اهلها خوفاً من القيصر المذكور الذي عاقب مع ذلك قضاة البلدة اشد العقاب وقد اتاها ليكينوس ايضاً اشد الضيقة بما انزله على اهلها من التعديات والمظالم

ولما انشأ الملك قسطنطين في مدينة بيزنطية بنايات ودوراً كثيرة ودعا المدينة باسمه ونقل اليها كرسي الحكومة سنة ٣١٢ اخذت انطاكية بالرجوع الى الوراء حيث اصبحت الثالثة بين مدائن السلطنة الا ان القيصر ابى الا ان يقيم بها له اثراً فانشأ دار ندوة ودسكرة يأوي اليها الغرباء والمسافرون وكان في انطاكية في ذلك العصر رجلان من فحول العلماء والكتبة وهما ليبانوس وكريسوستم وهو يوحنا الذهبي الفم وعنهما قد نقل كثيرون من المؤرخين اشياء كثيرة الفائدة مما يتعلق بوطنهما قال كريسوستم ان عدد

اهالي انطاكية في ايامهِ كان مائتي الفًا نصفهم من النصارى وفي سنة ٣٣٨ اثناء ولاية قسنطس بن قسطنطين الكبير بلغت انطاكية مبلغًا عظيمًا من الارتقاء والتقدم وكانت تتقدم تقدمًا عجيبًا واستمرت قاعدة سلطنة المشرق الحقيقية وتزينت بابنية عظيمة جدًّا حتى سنة ٣٥٠

وفي سنة ٣٥٤ حدثت فيها مجاعة عظيمة فهاج الناس لقلة الزاد وقتاول القيصر قسنطس وسنة ٣٦٢ حدثت مجاعة اخرى وسنة ٣٨٢ منيت البلاد بمجاعة ثالثة وجاء في كتاب آثار الادهار ان اهل انطاكية كانوا على جانب عظيم من الحدة يوءثرون الحركة والثورة لاقل الامور وهكذا في سنة ٣٨٧ اذ اراد ثاودوسيوس القيصر ترتيب زيادة في الاموال الاميرية لضيق خزينتهِ ثار اهل انطاكية وذهبوا الى الكنيسة حيث كان قونت المشرق فلم يتمكنوا منهُ فكسروا تمثال ثاودوسيوس وتمثالي ارقاديوس وانوريوس وفعلوا بعض شناعات في المدينة ولم تلبث الثورة حتى خمدت وهرب قسم من الاهلين فوقعوا في ايدي اللصوص فسلبوهم والقوهم في العاصي واخذ الوالي بمعاقبة المجرمين ودام الوجل والخوف في المدينة ستة ايام متوالية ولم يعف ثاودوسيوس عن المدينة التي نزع عنها جميع امتيازاتها الا بتوسط اسقفها فلايبانوس الذي ذهب بنفسهِ الى القسطنطينية ونال العفو عنها

وفي سنة ٤٣٩ بينما كانت الملكة افدوكسية امرأَة ثاودوسيوس القيصر الروماني ذاهبة الى اورشليم مرت بطريقها على انطاكية فاقتبلها الاهلون بالاكرام والاحتفال ولما دخلت المدينة جلست على سرير من الذهب مرصع بالجواهر الكريمة وتلت على مسامع الشعب المجتمع خطابًا في مدح انطاكية فسر الشعب بذلك وتهلل وشرع في قيام ذكرى لها فصنع مثالين احدهما من ذهب وضعوهُ في دار ندوة الشعب اي السناتو والاخر من نحاس اقاموهُ في المتحف

وفي زمان القيصر ليو الاول حدثت في انطاكية زلزلة مهولة انتها

بخسائر جسيمة على ان الامبراطور احسن الى الاهلين شيئاً كثيراً ولقد حذا حذو سلفهِ بما يخفف خطوب رعاياهُ ويحسن احوالهم حتى انهُ لما دهمت انطاكية بالزلزلة المهولة سمح بمكوسها واموالها التي كانت تبلغ الف وزنة من الذهب ومنح الذين يجددون بناء دورهم المهدومة اعفاء تاماً عن كل ما يتكلفونهُ

وفي سنة ٤٨٤ لما قام لاونس مغتصب السلطنة ارسل ذينون اخاهُ لونجينوس بجيش جرار الى قرب انطاكية فتواقع الحزبان ودارت دائرة الحرب على جيش الامبراطور واسر اخوه القائد وفي سنة ٤٩٤ حدثت في انطاكية زلزلة مهولة جداً كادت تخرب المدينة وغيرها وفي تلك الاثناء ثار الاهلون ضد والي البلدة وحدث نزاع زاد خراب البلدة

وفي سنة ٥٢٦ في زمان سلطنة جوستين دهمت انطاكية بزلزلة اخرى كادت تذهب بها الى العدم على ان ذلك الامبراطور ما لبث ان انجد المدينة بارسال مبالغ وافرة من المال ولما قبض القيصر جوستنيانوس على ازمة الدولة امر باعادة بنائها فاخذت بالرجوع حتى صارت برونق جديد على انهُ لم يمض على ذلك زمان طويل حتى دمرتها زلزلة اخرى . قيل ان عدد من مات فيها من الحريق وفعل القتلة مائتان وخمسون الفاً وفي اواسط الجيل السادس اتى كسرى الفارسي (الافرنج يدعونهُ كسرى و بعض مؤرخي هذه الايام يدعونهُ قرمز بن فيروز وبما ان لقب كسرى عام لكل العائلة المالكة الفارسية التي تغلبت على الاشكانيين ربما تكون رواية من دعاهُ قرمز اصح لان كسرى انوشروان وقرمز وغيرهما حاربوا الروم) فاستولى على انطاكية ودكها للارض على انها بعد حين يسير نهضت من انقاضها واعيد بناؤها غير انهُ لم تعد لما كانت عليهِ اصلاً ولا يخفى ان بتسلط الفرس على انطاكية وقع الرعب الشديد على الرومان في سوريا غير ان القيصر جوستنيانوس بعث للحال قائده بليساريوس فقاتل الفرس بملاحم كثيرة لم يظهر النصر فيها لاحد منهما فتهادنا نحو خمسين سنة ولقد كتب احد المورخين من الافرنج ما ترجمتهُ .

لقد جاء كسرى الى سوريا سنة ٥٤٠ بجيش جرار وحصر انطاكية وهي المدينة الثانية في السلطنة (الظاهر ان المولف اخص با لسلطنة الدولة الرومانية الشرقية ولم يحسب رومية العاصمة معها) بالنظر لكثرة سكانها وغزارة غناها وعرض على الاهلين ان يرفع الحصار عنهم ان ارادوا ان يدفعوا له الف وزنة من الذهب على انهم ابوا دفع تلك الحسبة الجزئية ولذلك غضب كسرى وهاجم المدينة ففتحها عنوة وأمر بخراب ديارها وبناياتها فصارت طعاماً للهيب النار واخذ اهليها اسارى وسار بهم الى بلاد فارس حيث اقاموا محلة هنالك اما هيرابوليس وبيريا (حلب) (واباميا) قلعة مضيق (وشالسيس) قنسرين فقد نجت من ذلك الوبال بدفع الضريبة المطلوبة اما الحكومة الرومانية فرات ضرورة تخليص سوريا مما حل بها فارسلت بليساريوس القائد يتقلد قيادة الجيش الذي فيها على انهُ لم ينجد كالواجب فلم يفز بنصر عظيم . اه

ولقد كتب غيرهُ ان هذه الحروب ولئن لم تكن قرينة النصر للدولة الرومانية الا انها كانت قد انقذت سوريا من الخراب المهول الذي كان يتهددها وان معركة سنة ٥٤٢ كانت مجيدة وان تلك الحروب دامت عشرين سنة ولم تكن من نتيجة لاحدى المتحاربين على ان سنة ٥٦٢ عقدت هدنة خمسين سنة بين الدولتين بشروط مذلة للدولة الرومانية حيث التزم الامبراطور جوستنيانوس ان يدفع لكسرى في كل سنة ثلاثين الف قطعة من الذهب وان يدفع حالاً مبلغ مائتين وعشرة الاف قطعة عن سبع سنوات وجدد يوستنيانوس بناء انطاكية واسعف الاهلين على ذلك بملء يده فعادت المدينة الى عمرانها الاول وشيدت فيها المباني العمومة وكنيستان جديدتان للسيدة العذراء ولمار ميخائيل وحول مجرى نهر العاصي على طريق قصد فيها زيادة تحصين المدينة التي رصفت اسواقها بالبلاط

ولما استبد الامبراطور هرقل وهو هيراكليوس القيصر الروماني بالمملكة

الشرقية واهتم بتصليح احوال سوريا وتسكين الاضطراب الذي فيها جاء فاقام في انطاكية عاصمتها بعد ان استخلصها وغيرها من المدن السورية والولايات الرومانية من يد ابرويز خسرو ملك فارس الذي كان قد استولى عليها منذ ايام فوكاس ليتمكن من مراقبة حركات الفرس وتخميد الاحوال الداخلية ولم يخطر له ببال ان العرب سيشنون الغارة على بلاده ويقبضون عليها وان سوريا وانطاكية ستصيران عربيتين ولذلك لم يهتم اهتمامًا شديدًا بما بلغهُ من العرب المتنصرة عن قدوم الاسلام لفتح سوريا فظن بهم قومًا اتين لشن الغارة والغزو كما سبقت العادة لبعض قبائل العرب الذين كانوا ياتون اطراف البلاد ويغزونها فلا تتكلف الحكومة لردعهم غير بعض نفر من الخفر وذلك لان اولئك لم يكن لهم مقصد في الغزو غير الكسب والغنيمة اما هولاء فمتحدون برباط الدين والعصبة على ان القيصر لم يكن يعلم بشيء من ذلك واستخف هو ودار شوراه با القادمين اليهِ ومع ذلك ارسل لقتالهم بضعة من الجنود كانوا اكثر عددًا من جنود العرب . وكانت انطاكية مركز الجيش وقد استمرت بيد الرومان حتى بعد توغل الاسلام في سوريا وكان الخليفة عمر بن الخطاب يرغب جدًّا في فتح انطاكية العاصمة ولذلك عزم الامير ابو عبيدة قائد المجاهدين ان يسير بعد فتح حلب لحصارها وقتال الامير هرقل فيها على ان يوكنا الذي كان قد اعتنق الديانة الاسلامية بعد فتح قلعة حلب كما تقدم قال بل الاولى والاصح في التدابير الحربية ان توخذ قلعة اعزاز اولاً وكان فيها ثيودورس فاستولى الاسلام على القلعة بعد قتل حاميها بيد ولده ليوفا فتكدر يوكنا من فتحها على غير يده فسار ببضعة من اتباعه الذين كانوا قد اسلموا قاصدًا انطاكية ولما دنا منهم تركهم على بعد وجعل نفسهُ هاربًا من الاسلام ولما أُتي بهِ الى حضرة الامبراطور اوضح لهُ انهُ لم يصر مسلمًا من طيبة خاطر وبرهن لهُ عن اخلاصهِ للنصارى بدفاعهِ الشديد في قلعة حلب فسر الامبراطور بهِ واستخدمهُ ببعض المهام وفي تلك الاثناء وقع

ضرار بن الازور وبضعة من الجنود بيد الرومان فسر بوكنا بذلك ثم ان ابا عبيدة اتى بجيشهِ الجرار فحل في جسر الحديد واستولى على حصنين من الحصون المجاورة للعاصمة بدون قتال وعلم القيصر فتكدر بما لا مزيد عليهِ وامر بقتل الاسرى على ان يوكنا توسط امرهم قائلاً انهُ اذا قتل اسراء لا يلبث الاسلام ان يعاملوا النصارى بمثل ذلك وهذا يعود بالويل والحرب عليهم وسار الاساقفة باسراهم الى الكنائس لعلهم يتنصرون فلم يتغلبوا الا على واحد منهم وسالهم القيصر اموراً كثيرة عن دينهم وخليفتهم فكانوا يجيبون بكل جسارة وحرية ثم خرج الروم الى ظاهر الاسوار وتصافوا مع المسلمين وبرز من بين الروم قائد عظيم يقال لهُ نسطوريوس (ان مؤرخي الاسلام يدعون قائد الروم بطريقاً ثم بعد استيلائهم على سوريا واستبداد الاحوال وبالحري بعد مجيء الدمستق صاروا يدعون القائد دمستقاً) وطلب ان يبرز اليهِ احد الابطال من الاسلام فوافاه الى مطلبهِ دامس البطل الذي كان قد احتال باخذ قلعة حلب كما تقدم وبعد ان طال بينهما الجدال كبا جواد دامس بهِ فاخذه نسطوريوس اسيراً وبعثهُ الى سرادقهِ ثم طلب غيرهُ فوافاه بطل اخروهو الضحاك واخذا بالعراك والصدام حتى صار وقت المساء فانصرفا عن بعضهما وكان دامس في سرادق نسطوريوس ينظر الى نزاع بين خدم آسره الثلاثة الذين قالوا لهُ انهم يحلون وثاقهُ ليسعفهم في ترتيب السرادق فاجابهم الى ذلك على انهم للحال حلوه فثار من مكانهِ وقبض على الثلاثة فقتلهم دفعة واحدة وركب جواداً كان مسرجاً عند الباب وسار الى قومهِ ولما انفصل نسطوريوس والضحاك عن القتال عاد نسطوريوس الى مضربهِ وراى العبيد الثلاثة ساقطين فعرف بهرب دامس وانتشر الخبر في العسكر وفي تلك الليلة حلم الامبراطور هيراكليوس حلماً ارتعدت منهُ فرائصهُ وخاف على سلطنتهِ فقام وجلاً واتى ساحل البحر وركب احدى السفن مع عيالهِ وخواصهِ وسار الى القسطنطينية ولما اصبح الصباح قاتل قواد الرومان قتالاً

نشيطًا على ان العرب استظهروا عليهم وذلك لان بوكنا كان في المدينة وقد حل وثاق الاسرى فخرجوا الى ظاهر الاسوار واشتبك القتال ولما راى الاهلون في انطاكية ان لا نجاة الا با لتسليم عقدوا مع الفاتح عهود الفتح واستامنوا على ارواحهم واموالهم وهكذا اتى على انطاكية عصر جديد وانتقلت عاصمة الرومانيين في سوريا الى يد الفاتحين الذين شادوا دولتهم القاهرة على اثار تلك وكان هذا الفتح في الحادي والعشرين من آب سنة ٦٣٨ مسيحية اما ابو عبيدة فطلب من الاهلين ضريبة ثلثمائة الف دينار من الذهب فدفعوها ولم يسمح ابو عبيدة للجند من المسلمين ان يقيموا في انطاكية كي لا تؤثر في عوائدهم الحميدة وبساطتهم ملاهي عاصمة سوريا ومتنزهاتها وكتب بذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب فاجابهُ شاكرًا همتهُ با لفتح ولائمًا اياهُ على منعهِ قيام الاسلام في انطاكية ليرتاحوا من اتعابهم مانحًا اياهم حق التزوج با لنساء الروميات وان الانسان منهم اذا شاء يقدر يتسرر بكثيرات ممن يشتريهن بما لهِ واستمرت انطاكية في يد المسلمين على انها لم تكن على ما كانت عليهِ في ايام الرومان والسلوقيين بل كانت تنحدر الى التاخر

ولا يخفى ان الروم بعد خروجهم من سوريا كانوا لم يزالوا متملكين اسيا الصغرى ولم تخرج من ايديهم خروجًا تامًا الا بعد زمان طويل ولذلك كان الخلفاء من معاوية ومن بعده لا يتوانون عن الغزو والجهاد في البلاد المجاورة ومن مراجعة ما مضى غنى عن الاعادة على اننا لم نعثر في التواريخ الافرنجية على خبر رجوع الروم الى انطاكية في سنة ٧٩ هجرية التي توافق سنة ٦٩٨ مسيحية كما روى ابن خلدون غير انهُ لا يخفى ان في تلك السنة استولى القيصر طيباريوس ابسيمار على ازمة الدولة الرومانية وفي سنة ٧٠٣ مسيحية التي تعادل سنة ٨٤ هجرية حدثت كاينة عظيمة بين الاسلام وهيراكليوس اخي طيباريوس الثالث المذكور وذلك في كيليكيا فمن الممكن اذًا ان تكون قد دخلت احدى الفرق الرومية البلاد وعاثت في نواحي انطاكية والله اعلم

ومن تتبع الروايات التاريخية نرى ان الروم لم يتملكوا انطاكية يومئذٍ ولذلك ربما اراد الامام بقولهِ وغزا العباس بن الوليد سنة اربع وتسعين ففتح انطاكية اي انطاكية بسيدية في اسيا الصغرى اما سنة اربع وتسعين هجرية فتعادل سنة ٧١٢ مسيحية في السنة الاولى لجلوس القيصر فيليبكوس وما زالت انطاكية في طاعة الخلفاء وقد حدث عليها من التغيير والانقلاب ما حدث على اخواتها من مدن سوريا حيث لم ترجع قط ليد الروم على انهُ قد تكررت في التواريخ الاسلامية رواية فتح الروم لها واستخلاصها من يدهم وخضعت انطاكية للعلويين المصريين وعنت من قبلهم لدولة احمد بن طولون وهو غني عن البيان ان عمال سوريا كانوا من قادة الاتراك فلما استقام امر احمد بن طولون واستبد بالاحكام في مصر اتى سوريا ففتح بعض مدنها واقام عليها عمالاً ثم اتى انطاكية وعليها سيما الطويل من قواد الاتراك وكان يتولى طرسوس ايضًا فبعث احمد بن طولون اليهِ بالطاعة وانهُ يقره على ولايتهِ فامتنع فسار اليهِ وحصر انطاكية وضايقها وعرف ابن طولون بعورة في السور فنصب عليها المجانق وقاتل فملكها عنوةً بعد ان قتل حاميتها سيما وما زالت المدينة في يده حتى مات بعد ان حارب بازمان الخادم في طرسوس وكان قد عصاه فسار اليهِ وحاصره ولما لم يتمكن منهُ رجع الى انطاكية ومرض فيها ومات على ان بعد موتهِ تولى الدولة ابنهُ خمارويه وحدث لانطاكية من الصروف ما حدث لغيرها من مدن سوريا ولما صارت انطاكية لدولة بني حمدان واستقر بها حالهم مع ما كان يحدث في جوارها من هجمات الروم وغزواتهم ثار بعض الرجال بالعصاوة فيها وذلك ان الرشيق النعيمي وابن ابي الاهوازي اغتنما فرصة غياب سيف الدولة ابن حمدان في ميا فارقين ثم قام رجل اخر من الديلم اسمهُ وزبر فركب عرقوبة لاخماد الثورة ولم ينل مأربًا الى ان جاء سيف الدولة فقاتل اياماً واسر وزبرًا وابن الاهوازي وقتلهما واصلح شان انطاكية حيثما كان قد حدث فيها جور عنيف من تصور

وزير الديلم حاكمها

وروى الامام ان الروم في سنة ٣٥٥ كانوا متملكين في طرسوس فجاءوا انطاكية وحصروها على انها امتنعت عليهم فعاثوا في ضواحيها واثخنوا جرحًا واسرًا ولما لم يتمكنوا من المدينة عادوا الى طرسوس

وفي الجيل العاشر كثر ترداد الروم على سوريا ودخلوا الثغور ولما ارادوا الدنو من حلب وانطاكية امتنعتا عليهم وذلك سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وفي السنة الثالثة جاء اخو ملك الروم فنزل اولاً على حصن الوفاء وسكانهُ من النصارى وهو بقرب انطاكية فحاصروهم ثم افرجوا عنهم بعد ان اتفقوا بان يذهب اهل الحصن الى انطاكية وانهم يثورون عند دنو الروم منها وبعد ذلك بشهرين جاءها الروم بأربعين الفًا ونازلوها فاخط لهم اهل الوفاء السور من ناحيتهم وملكوا البلد وسبوا منها عشرين الفًا وقائد هذه الحملة هو يوحنا زاميساس المعروف عند بعض مؤرخي العرب بالشمسق كان رئيسًا للعسكر الرومي في سلطنة نيكوفورس فوكاس قيصر المملكة الشرقية سنة ٩٦٢ مسيحية اتى انطاكية بعد فتح قبرص وسنة ٣٨١ لما حصر صاحب العلوي ابا الفضائل بن حمدان ولؤلؤًا بحلب استنجد المحصورون بملك الروم وهو يومئذٍ لقتال البلغار فلبي الطالب وحرر لنائبهِ في انطاكية ان يسير اليهم فسار في خمسين الفًا ونزل في جسر الحديد على وادي العاصي فالتقاه منجوتكين صاحب العلوي في عساكر المسلمين واشتبك القتال فانهزم الروم لانطاكية فتبع اثرهم ونهب البلاد التي جاورتها مع قراها واحرقها وما زالت بيد الروم حتى اخذها السلجوقيون منهم سنة ١٠٨٤م فتهافت الاسلام الى سكناها وما استقروا فيها اكثر من اربعة عشر سنة حتى دهمتهم جنود الافرنج المعروفين بالصليبيين

قيل ان المدينة كانت في غاية من التحصن وان حولها ثلثمائة برج قيل ان في ذلك مبالغة لان المدينة كانت منيعة الا ان المسلمين كانوا يخافون

عليها من الروم فلما شاعت اخبار انتصار الصليبيين في داخلية اسيا الصغرى وتغلبهم على كثير من الموانع تحصن صاحب انطاكية السلجوقي واذخر كثيرًا من المونة والسلاح واعد الرجال وكان يتولاها يومئذٍ باغيسان الابن الاصغر لملك شاه ودخل المدينة كثيرون من الهاربين من جوارها

وكان الممر الوحيد الى السهل الواقع امام انطاكية على جسر فوق نهر العاصي وكان على جانبي ذلك الجسر برجان محصنان فيهما كثير من الرجال فحاربهما الافرنج اولاً واخذوهما ومن ثم دنوا من انطاكية ونصبوا خيامهم امام الاسوار وعقد الامراء والقواد مجلسًا حكموا فيهِ بوجوب محاصرة انطاكية فتفرق القواد بجيوشهم حول اسوارها واخذوا بالاهبة للقتال اما الاهلون المحصورون داخل الاسوار فلم يبدُ منهم احتراك ولم يظهر منهم ولا مقاتل فوق الاسوار والابراج ولذلك استخف الافرنج بهم واخذوا ينبذون التحفظ والوقاية ظهريًا كانهما غير لازمين بل انعكفوا جميعًا على التلذذ بالملاهي وبنضارة ذلك المكان وطفقوا يرتكبون كل القبائح والرذائل بينما كان المحصورون في المدينة يتاهبون للدفاع عن ذمارهم ويستعدون ايما استعداد حتى غنموا فرصة انشغال اعدائهم بالملذات والمعاصي وخرجوا من المدينة واولئك متفرقون في القرى فهجم المسلمون عليهم هجمة الاسود فانكسر الافرنج انكسارًا مهولاً وبعد ذلك حدثت معارك كثيرة بين المتحاربين كان النصر فيها حليفًا للمحصورين ونفذت مونة الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان وسوء الادارة اخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذٍ بنقص الاهبة الحربية فاقاموا ابراجًا لصدم الابراج التي كانت للمحصورين وصمموا على تدقيق الحصر وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ مآربهم الى ان وقعوا في الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بينهم مرض البرداء واشتد فيهم حتى مات كثيرون وقد ذكر احد المؤرخين انهُ لم يكن للاصحاء وقت كاف لدفن الموتى واشتد الحال جدًا حتى ان كثيرين من الذين وسموا ظاهرًا بسمةٍ

دينية مقدسة وباطنًا بافكار النهب والسلب او ارتكاب ما ظهر نموذجهُ في حصار انطاكية فروا هاربين للتخلص من مشاق الحروب الشرقية ولا غروَ فان هربهم هذا برهان اخر على انهم انما اتوا البلاد انقيادًا او خوفًا ومن غريب الامور ان بطرس الناسك المنادي بتلك الحرب كان مقدام الهاربين الا انهُ أُدرك وعاد فاقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب اما المحصورون فاقاموا بكل انواع الحكمة واصول الدفاع وكان لهم عيون او جواسيس من السريان ولذلك كان الاسلام يعرفون بكلما يحدث في عسكر الاعداء ولذلك قرر ديوان المشورة العسكرية باشارة بوهيموند احد الامراء ان يصير التدقيق بالقاء القبض على الجواسيس وان من يمسك منهم و يذبح يصلح لحمهُ للطبخ او يؤكل مشويًا ولا شك ان هذا العمل غاية في البربرة وقد اقربهِ مؤرخهم وليم الصوري على ان المحاصرين لما سمعوا بما كان اضربوا عن اعادة ارسال عيونهم الى المحاصرين خوفًا من ان يباتوا ضحية لذلك العمل فانقطعت اخبار المحاصرين عنهم اما الافرنج فلما راوا امناعة المدينة وعدم امكان اخذها الا بالصبر وان قلة الزاد والموونة عندهم تضعف سطوتهم ومقدرتهم اخذوا بحراثة تلك الارض التي كانوا حالين فيها وزرعها وكان الشتاء يزول بسرعة والامراض تخف عن العسكر وفي اثناء ذلك بعث المستعلي بالله العلوي من مصر وفد الى الافرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة وانهُ يرجع اليهم الكنائس التي شيدها المسيحيون وان يحامي عنهم و يفتح ابواب اورشليم للزوار على انهم يدخلونها بلا سلاح ولا يقيم الواحد منهم فيها اكثر من شهر واذا رفضوا ذلك فالخليفة مستعد لان يعقد حلفة من المسلمين لصدهم وكفاحهم فلم يحتفل الافرنج بالحاح الخليفة على عقد الصلح مع انهُ خولهم المقصد الذي ادعوا انهم يحاربون لاجلهِ ولم يشاوا حجب دماء العباد والرجوع الى اوطانهم سالمين بل اجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مبالين بما يصادفونهُ من قوة الاسلام

وكان صاحب حلب وغيره من امراء البلاد قد بعثوا بمدد من الجنود

لنجدة انطاكية وعلم الافرنج بذلك فساروا اليهم قبل ان يدركوا المدينة وحاربوهم فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عددًا غفيرًا وبعثوا برؤوس كثيرين الى الوفد المصري ورموا برؤوس اخرى الى المدينة فجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارةً للافرنج وطورًا للمحصورين واخيرًا طلب اهل المدينة هدنة فجددوا الذخائر والمهمات وتمادى الحال ولم ينل الافرنج اربًا سيما لان الشقاق كان سائدًا بينهم وكان بوهيموند يود ان يتولى مدينة انطاكية ليناظر بودوين والي الرها وبذل في ذلك عناية عظيمة حتى اسعفهُ فيروز وكان ارمينيًّا فاسلم ولذلك كان مقربًا من باغيسيان وقد جعلهُ اميرًا على ثلاثة من الابراج الكبيرة وكان هذا الرجل من التقلب وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ولذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة وكشف كل من الفريقين مكنونات ضميره للآخر ثم جمع بوهيموند الامراء والقواد واخذ يحرضهم على وجوب استعمال الخيانة لامتلاك المدينة وان يسهل اخذها ببذل شيء من المال في سبيل ذلك فلم يشا القواد ذلك وكان اكثرهم مضادة لمقصده الكونت دوطولوزا على ان بعد ذلك ببضعة ايام شاعت الاخبار بقدوم صاحب الموصل بالوف من الرجال لنجدة المدينة فخاف الافرنج وخاطب بوهيموند في المجلس الذي عقدهُ بوجوب الخيانة لامتلاك المدينة فاذعنوا لانهم لم يروا سبيلاً لامتلاكها الَّا بها وفي تلك الليلة اجتمع بوهيموند بفيروز الخائن واتفقا على وقت وظرف وانفصلا وفي اخر اليوم الثاني جمع الافرنج خيامهم واغراضهم وانسحبوا عن ساحتهم وما زالوا سائرين نحو اورشليم بالطبول والحركة والصريخ حتى تواروا عن العيون ثم انعطفوا راجعين بهدوٍ حتى بلغوا تحت البرج الذي كان فيروز فيهِ فاقام ذلك الخائن بفظائعهِ حيث قتل اخاه بيده وسمح للصليبيين بان يقتلوا الاخر وصعد الصليبيون على السلالم الى البرج بعد تردد كثير فامتلكوا الابراج التي كانت بعهدة فيروز الخائن وسبعة غيرها اخذوها بالسيف بعد ان قتلوا حراسها وكسر الباقون الابواب ودخلوا

المدينة فملكوها وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر حزيران سنة ١٠٩٨ وفتك المحاصرون بالاهلين ذريعًا وفر باغيسيان فقتلهُ بعض الارمن وجاءوا برأسهِ الى انطاكية اما القلعة فكانت لم تزل بيد الاسلام واقام بوهيموند رايتهُ في اعلى برج من المدينة دلالة على استيلائهِ عليها واقام الافرنج ثلاثة ايام في انطاكية وهم يولمون الولائم ويصرفون اوقاتهم بالملذات والملاهي وفي اليوم الرابع من حلولهم فيها جاء صاحب الموصل بجنود كثيرين ومعهُ سلاطين فينيقية وحلب والشام وحاكم اورشليم وثمانية وعشرون اميرًا من بلاد فارس وفلسطين وسوريا من الخاضعين لهُ وعظم الخطب على عساكر الشام وسار كربوقا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع اليهِ دقاق بن تتش وسليمان بن ارتق وطغتكين اتابك صاحب حمص وصاحب سنجار وجمعوا من كان هنالك من الترك والعرب وبادروا الى انطاكية لثلاثة عشر يومًا من حلول الفرنج بها وقد اجتمع ملوك الفرنج ومقدمهم بوهيموند وخرج الفرنج وتصافوا مع المسلمين فانهزم المسلمون وقتل الفرنج منهم الوفًا واستولوا على معسكرهم

اما الروايات الافرنجية فتدل على انهُ لما قدمت جيوش الاسلام تحت امرة كربوقا صاحب الموصل وحصرت انطاكية واضطرب الافرنج وخافوا واخذ الضيق منهم كل ماخذ فلم يعد عندهم زاد كاف ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى الواقعة بجوار انطاكية كانت قد باتت مدمرة من نتاج الحرب ولذلك تضايق المحصورون جدًّا وامسى حالهم تعيسًا وبعدة وجيزة نفذ كل القوت والذخيرة حتى التزم الافرنج ان ياكلوا البهائم وتضايق كثيرون منهم الى درجة دنيا فكنت ترى كثيرين من الاعيان يستعطون للقيام بالاود وفر كثيرون من المحصورين طلبًا للنجاة من الموت جوعًا وهكذا مضت مدة ايام على هذا المنوال فخارت قوى الجنود وضعفت وكان الاسلام يعلمون ذلك ويزيدهم ما يعلمون املاً بالنجاح وكان بوهيموند امير انطاكية الافرنجي قد راى كسل اصحابهِ وتقاعدهم فاحرق دورهم قصاصًا لهم على ان لسان اللهيب تجاوز حدهُ فساء الامير تجاوزهُ الا

ان تلك النار لم تحرك حماسة قوم اقعدهم الجوع الشديد والضعف ولذلك اخذ كثيرون من الناس يقصون احلامًا ونبوات كثيرة تدل على فوز الافرنج وذلك لتدب الحمية في قلوب اولئك الكسالى وتوصلاً لما يريدون قال كاهن فرنساوي من مرسيليا اسمهُ بطرس برتيلوني ان القديس اندراوس الرسول ظهر لهُ في الحلم ثلث مرات وبشرهُ باكتشافهِ الحربة الحديدية التي طعن بها جنب المخلص وذلك في كنيسة ماري بطرس ثم انتخب اثنى عشر شخصًا من الاعيان والكهنة ليكونوا شهودًا على اكتشافها ولم يسمح لاحد من الجند والاهلين بحضور الحفر واشتغلوا حتى اغربت الشمس فوجدوها بعد ان توارى نور النهار ونزل الكاهن بنفسهِ الى تلك الحفرة فامن العسكر بها لان الكهنة كانوا يحرضونهم على ذلك فكان وجودها بينهم كمدد ولذلك صمموا على قتال الاسلام فخرجوا اليهم وبعد قتال كاد ينتصر فيهِ الاسلام فاز الافرنج بالغلبة وانهزم كربوقا وجموعهُ وكان ذلك في اخر اليوم التاسع والعشرين من حزيران اما الحربة ففيها اقوال لان المورخين الاكليريكيين او المنتسبين اليهم يقولون انها معجزة الهية وغيرهم يقولون ان الافرنج لما راوا وهن عزائم جنودهم وانهم لا ينشطون بلا محرك فعال دبروا هذه الحيلة فنجحت نجاحًا عظيمًا على انهُ بعد حين يسير انكشف الغطاء عن اعين كثيرين وبات جمهور غفير من الناس لا يركنون اليها ولا يصدقون بها وغنم الافرنج غنائم لا تحصى وجمعوا مالاً غزيرًا فعادوا الى انطاكية بثروة عظيمة جدًا وبعد ان امتلك الافرنج المدينة لم يشاؤا الخروج منها حالاً نحو اورشليم فاستولت عليهم بتلك الفترة الامراض الوبائية ومات احد الاساقفة المشهورين اسمهُ ادهارد ومونتيل اسقف بوي ودفن في كنيسة ماري بطرس

قلنا ان قلعة انطاكية لم تزل بيد السلاجقة حتى بعد فتح المدينة على انهُ لما انكسرت جيوش كربوقا سلمت القلعة فوقع بين بوهيموند صاحب انطاكية وهو الذي يدعوهُ الامام بوهيموند وبين الكونت دوطولوزا نفور وخصام

بشان تملكها

وفي تلك السنة حدثت مجاعة عظيمة في انطاكية وكانت اعظم من الاولى قيل مات فيها نحو ماية الف نسمة وفي سنة ١١٠٠ كان بوهيموند يقاتل الاسلام فثار عليهِ واحد من الارمن وسلمهُ الى الاعداء فاضحت انطاكية بلا حاكم سيما لان كودفرواد و بولدوين ملك اورشليم كان قد مات وخلفهُ اخوهُ بودوين الاول صاحب الرها وظلت كذلك حتى تصالح مع تانكريد فبعث بهِ اميرًا الى انطاكية واقام بوهيموند بالاسر نحو سنتين ونصف ثم نجا واتى انطاكية فتولاها ولم يكن يقر بسلطة اورشليم عليهِ ولذلك كان قد اقام حربًا مع الكسيوس ملك الروم وكثر بينهما الاخذ والرد فكان النصر بينهما سجالاً اي تارةً للقيصر وطورًا لبوهيموند وكان يصد غارات كثيرة من العرب على انهُ تضايق جدًا ولم يعد لهُ منجد ففر هاربًا باحدى السفن واتى ايطاليا وترامى على اقدام البابا الذي كان قد منحهُ حق الاميرية بكونهِ هو الباعث للحرب فاسعفهُ ولما اتى فرنسا قبلهُ ملكها فيليب الاول بغاية من الاكرام وازوجهُ بابنة قسطنسا وذلك سنة ١١٠٦ وانجدهُ بعسكر جرار فجاء بهِ وابتدا بحرب اليكسيوس ثم عادت انطاكية لولاية تانكريد الفرنساوي فاقام فيها زمنًا وزاد في تحصينها حيث ابتنى اسوارًا منيعة وابراجًا عالية قيل كان تنكريد نائبًا عن ابن بوهيموند الوريث لسرير انطاكية ذلك يدل ان هذه الاميرية كانت بالارث كالمملكة غير ان وكالة تانكريد لم تكن من ذات بوهيموند بل من روجار البثلياني وهو يومئذٍ الوكيل عن بوهيموند والوصي على ابنهِ القاصر وفي مدة ولاية تنكريد بعث اليكسيوس ملك الروم وفدًا الى تنكريد يسألهُ اخلاء اقليم انطاكية من اسيا الصغرى وارجاعها للروم فاجاب تنكريد ان قومهُ قد افتتحوها بعد ان اهرقوا دمًا غزيرًا ولذلك لا يسلمها وهو حي اما الاسلام فكانوا لا يفترون عن الغارة والقتال فاصيب تنكريد في احدى مواقع سنة ١١١٢ وقضى نحبهُ قتلاً ثم عاودت المجاعة انطاكية فاهلكت كثيرين

من سكانها واعقبتها الزلازل فدمرت دورها و بلغت بها حد الخراب

ولما مات تانكريد قبض روجار وصي بوهيموند على النيابة فلبث فيها حتى سنة ١١٢٠ حينما دهمتهُ جنود الاسلام تحت امرة الغازي امير التركمان فاستولى الجند على المواقع التي حول المدينة فلما راى روجار ذلك تحركت فيه الحمية وابى التربص لحلفائهِ الذين كان قد استنجدهم بل خرج بعسكره على قلتهِ وسوء جهازه وواقع الاسلام فدارت الدائرة على قومهِ واصبحوا بين قتيل وجريح الا ان الاسلام ما فرحوا بسرورهم ان دهمتهم جنود الافرنج فاقتتلوا قتالاً شديدًا جدًا افضى الى انسحاب الاسلام من ميدان الحرب

وفي اثناء جلوس الملك فولك على سرير اورشليم اصبحت انطاكية عرضة للنزاع والمشاجرات رغبة بتملك سريرها وعلى الخصوص بعد ان جاء رايموند بن بوهيموند طالبًا امتلاكها فادركتهُ المنية في طريقهِ عقيب حرب اضرمها سهول كيليكية فادعت زوجتهُ اليزا ابنة بودوين الثاني بالوراثة واستنجدت امراء الافرنج ووقعت الخلفة بينها و بين النائب يومئذٍ ذلك ما حمل صاحب اورشليم الى السرعة في المجيء اشفاقًا من الشقاق وكان صاحب طرابلس متشيعًا لاليزا فحارب ملك اورشليم لكنهُ كسر فسار فولك الى انطاكية منتصرًا وسد دخلها باصلاحهِ وخطب احدى بنات العائلة للامير رايموند دو بواتيراس وهو يومئذ في اوروبا ثم استدعاه فازوجه وملكهُ انطاكية ولما جاء الملك لويس السابع الفرنساوي بحملة صليبية حل في مصب العاصي واتى انطاكية فاقتبلهُ اميرها رايموند بكل اكرام وطلب اليهِ ان يحملا على حلب فلم يقبل الملك بذلك بل سار قاصدًا بلاد فلسطين سنة ١١٤٧ وفي ١١٤٩ انتشبت حرب بين نور الدين وجنود الافرنج امام انطاكية فدارت الدائرة على امير انطاكية رايموند دو بواتيراس فقتل اما جوسيلين دوكورتناي فاخذ اسيرًا ولما مات رايموند تولى عوضهُ رافود دوشاتيليون لانهُ كان قد تزوج بقسطانسا ارملة رايموند وهي الوريثة لاميرية انطاكية وفي سنة ١١٦٣ حينما كان

الملك بودوين الثالث فيها لتسوية امور كثيرة داخلية مرض مرضاً شديداً فطلب ان يحمل الى طرابلس ومنها الى بيروت حيث مات فيها قيل ان طبيباً سورياً سقاهُ السم في انطاكية فمرض ومات في بيروت على انهُ دفن في اورشليم وكان نور الدين لا يفتر عن محاربة انطاكية فاسر رانود دوشاتيليون اميرها واخذه الى حلب فسجنهُ في قلعتها زماناً طويلاً ولما جاء المدد من الغرب ووقع بعض مواقع بين المتحاربين انكسر الافرنج واسر بوهيموند الثالث امير انطاكية الذي كان قد تولاها بعد رانود دوشاتيليون واخذ فسجن في قلعة حلب مع سلفهِ رانود ومع انا لم نعلم عن رواية اطلاق سبيلهما شيئاً علمنا ان رانود دوشاتيليون المذكور اسر مع الملك كاي دو لوسينيان بعد معركة حطين يوم انتصر عليهم السلطان صلاح الدين الايوبي على انهُ ربما كان قد فر من اسر الاسلام ثم اخذ يضر بهم ضرراً جزيلاً الجأ ذلك السلطان ان يقسم بقتلهِ اذا اسر ثانية فلما مثل لديهِ صحبة الملك كاي منعهُ عن ورود الماء وضربهُ بالسيف فقتلهُ

وبعد ان فتح المسلمون اورشليم واستولى صلاح الدين على كثير من المدن كانت انطاكية ما زالت مستمرة تحت سلطة الافرنج حتى اخر دولتهم وكان الروم يجتهدون ايضاً في تملك انطاكية واخذها من يد الافرنج على ان كثيرين من ولاتها كانوا يقاتلون القياصرة قيل ان عمانوئيل الذي تولى سنة ١١٤٣ قد اخضع امير انطاكية وقد ذكر بعضهم انها فتحت لهُ ابوابهـا سنة ١١٩٠ وكان روجار ملك صيقلة اي سيسيليا محالفاً للافرنج فساءهُ ذلك وحارب عمانوئيل الرومي انما لم تطل مدة التسلط الرومي في انطاكية لانها عادت فخضعت للافرنج ودليل ذلك دخولها سنة ١١٩٢ في عداد المدن التي لا يعارض المسلمون اهلها في زمان الهدنة وظلت انطاكية في قبضة الصليبيين حتى دهمها السلطان بيبرس البندقداري وكان حاميتها يومئذٍ امير طرابلس ولعلهُ كان متولياً انطاكية فلما اتاها بيبرس فرَّ حاميتها المذكور

فاخذ الفاتح المدينة وقتل اربعين الفًا من اهلها واسر مائة الف وكتب لحاميها كتابًا بهِ يصف حالة اخذه المدينة وقتلهُ وفتكهُ وكلما فعل من هدم وحريق اقتصاصًا من اهلها الذين لم يزعنوا لسيفهِ الفاتك وكان حدوث ذلك سنة ١٢٦٨ و بعد ان اقامت فيها ولاية الافرنج مائة وسبعين سنة وعقيب خروج الافرنج من البلاد لم يجرِ في انطاكية حادث يستحق الذكر لانها اخذت في الانحطاط والتاخر واخذ عدد سكانها بالنقصان وعلى الخصوص لان الزلازل كانت تنتابها ولما كانت سنة ١٥١٦ مسيحية استولى عليها السلطان الغازي سليم الاول العثماني بعد ان فاز بنصره على قانصوه الغوري سلطان المماليك المصرية في مرج دابق عند حلب كما مر فظلت تحت احكام الدولة العلية العثمانية يتامرها عمالها الى اليوم الحاضر وفي سنة ١٨٧٢ دهمتها الزلزلة فدكت كثيرًا من دورها وقتلت كثيرين من اهلها فاشفق السوريون من مصاب اخوانهم ومدوا لهم يد الاسعاف تنشطها الحكومة السنية العثمانية والقناصل الاجانب حتى اسفرت عن عودة المدينة الى حالها

الفصل الخامس

مدينة دفنة

هي القرية المسماة الان بيت الماء بناها سولوقس نيكاتور الاول منتزهًا لاهل انطاكية وشاد فيها الدور الفسيحة والمراسح والمنتزهات وجعلها مقصدًا للمتفرجين وكان فيها هيكل عظيم لاله النور معبود السلوقيين وغيرهم وكانت زينة ذلك الهيكل مما يكل القلم عن وصفها وكان على بعد نحو ستاديا من المدينة بين غياضها مرسح الالعاب الاولومبيكية وكانت انطاكية تقوم بمصارف الاحتفالات اما نضارة الموقع فكانت نادرة المثال ولذلك كان يقصدها كثيرون من الناس سيما ابنا الاغنياء المفسودين فيرتكبون فيها انواع المعاصي اما احوالها السياسية فلم تختلف عن العاصمة الا قليلاً فانهُ لما اتى يوليانوس الى جوار انطاكية اراد ان يعيد اليها رزائلها التي كانت قد

ابطلتها الاداب المسيحية فلم يوافقهُ روح العصر فسار الى دفنة ليجد لهُ طريقة للانتقام من النصارى واضطهادهم وكانت عظام اغناطيوس اسقف انطاكية فيها فامر باخراجها من المدفن وحرقها لان النصارى ابتنوا لهم كنيسة فوق ضريح ذلك الشهيد فساء كهنة الوثن ذلك البناء واستمطروا على النصارى غضب الجاحد ومن العجائب ان في الليلة نفسها احترق هيكل ابولو فاندك الى الارض فقال النصارى ان ذلك فعل القديس باسيليوس اما الامبراطور يوليانوس فظن ان النصارى انما فعلوا ذلك حنقًا منهُ فاخذ يعامل كثيرين من الاكليروس بانواع العذاب فقتل احدهم وبما ان معظم ازدهاء دفنة انما كان بالشرور والمعاصي لم يعد لها اشتهار بعد بزوغ الديانة المسيحية

الفصل السادس

مدينة سولوقية

روى بعض المؤرخين منهم صاحب سوريا المقدسة ان مدينة سولوقية انما هي مدينة فينيقية وكانت تدعى اولاً باسم اوليا وهيريا وان نحلة فينيقية قد اشادتها فكانت كميراندروس موطنًا لبعضهم غير ان المتعارف ان سولوقس نيكانور الاول لما رغب بتقديم ضحية لجوبتير على قمة جبل كاسيوس وهو الاقرع القائم فوق اللاذقية جاء نسر على احدى تلك الضحايا وطار بها ونزل في موقع سلوقية فنزل الملك الباسل واشاد هنالك مدينة دعاها باسمهِ متفائلاً بسعادة المشروع ونجاحهِ على ان هذه الرواية ايضًا لا تدحض ما قالهُ بعضهم من ان نزول النسر بالضحية في موقع سولوقية حمل ذلك الملك الذي يحب بناء المدن على ترميم مدينة الفينيقيين فصارت سولوقية فرضة انطاكية حصنًا منيعًا للدولة السلوقية وتسمت باسم سولوقية بياريا نسبة للجبل القائم فوقها وكان يقال لهُ يومئذٍ جبل موسى وما اضيفت لجبلها الا لتعرف بهِ وتمتاز عن تسعة مدن باسمها وقال بعضهم انهُ لما مات سولوقس دفن فيها وانكر اخرون ذلك قائلين انهُ دفن في مدينة سولوقية التي بجوار بابل وهي

عاصمة المملكة السلوقية قبل انتقالها الى انطاكية سنة ١٤٠ ق م وفي هذه المدينة تنازع بعض من خلفائهِ على امتلاك البلاد وكانت المدينة في كل زمان دولة السلوقيين مهمة جدًّا حتى ان تقدمها دام لزمان دولة الرومان فانها دافعت بنشاط وحمية تيكرانس ملك ارمينيا الذي كان قد استولى على البلاد المجاورة فلذلك منحها بومبيوس القائد الروماني الحرية فصارت بلدة حرَّة روى بعض المؤرخين ان طيباريوس قيصر انشأَ ميناها وان نيرون اصلحها وزاد كثيرون غيره من قياصرة الروم في تحسينها وان قسطنس بن قسطنطين الكبير قد وسع الميناء وحسنها على ان المدينة كانت تسرع الى الخراب بفعل الزلازل خصوصًا سنة ٥٢٦ وسنة ٥٢٨ فلما جاء الفتح الاسلامي لم تكن تستحق الذكر بل كان صيتها خاملاً وقد ضاع اسمها فلما جاء الافرنج باواخر القرن الحادي عشر لقيام الحروب الموسومة بالصليبية كانوا يدعونها مينا سمعان اما الان فقد خربت تمامًا وعلى بعد قليل منها قرية يقال لها السويدية قيل هي في موقعها وقيل بل الى جانبها

الفصل السابع

مدن الداخلية

ان في داخلية سوريا مدنًا كثيرة كانت في بعض الازمنة ذات تقدم ونجاح على ان الدهر كرَّبها فلم يبق لاكثرها من الاهمية ما يستحق ان نخص لهُ ذكرًا مخصوصًا ولذلك نقول ان منها

البارا وهي تبعد عن حلب نحو ست ساعات ولا يعرف من تاريخها شيء غير انهُ قد وجد بين اثار خراباتها صلبان وغير ذلك فعلم المدققون ان سكانها من النصارى ومن هيئة هندسة البناء تحقق القوم ان وجودهم في تلك البقعة كان من الجيل الخامس الى العاشر ومامن ذكر لهذه المدينة الان روبارتوس موناكوس يقول ان الافرنج سنة ١٠٩٨ استولوا على مدينة يقال لها الالباريا فانشأُوا فيها اسقفية ولا شك ان المقصود عن هذه المدينة غير ان المحققين

لا يرون بناياتها تعادل ذلك الوقت بل هي قبلة بزمن

ومنها قلعة مضيق وهي على بعد نحو خمس ساعات من البارا على انها هي اباميا القديمة التي كان يدعوها مورخو العرب باسم افامية اما موءسسها فهو سولوقس نيكاتور وقيل انهُ لم يكن الا مرممها ومصلحها وقد دعاها باسم امرأتهِ. روى ان انتيغونوس كان قد سماها بلا ولوقوعها في مضيق صمم ذلك الملك السلوقي العظيم ان يجعلها محطة لجنوده الفاتكة ومدرسة للفرسان ولخصب تربتها ذخر فيها خمسمائة من الفيلة وثلثة وثلاثين الفًا من الجياد وثلثمائة جاموس وبعد ذلك بزمان ثارديوتوس تريفون ولي عهد السلوقيين عليها واخذها لحين والظاهر انها كانت مكانًا حصينًا جدًّا حتى انهُ لما عصت سوريا تحت امرة كاسيليوس باسوس استمرت هذه القلعة ثلث سنوات متمنعة عن الثائرين حتى اتاها كاسيوس سنة ٤٦ ق م وفي اول انتشار الديانة المسيحية صارت مقرًّا اسقفيًا وفي سنة ٥٤٠ لما اتى كسرى الثاني ملك فارس سوريا واخذ انطاكية اتى اباميا ايضًا وسلب المدينة وكنيستها واخذ من اهلها ضريبة ثم عاد اليها سنة ٥٧٣ بعد ان سار عنها واخذ من اهاليها الضريبة فدخلها قائده ادارمانيس بغتة ونهب المدينة واحرقها وقيد الاهلين بالاغلال وقادهم اسرى الى بلاده وبعد ذلك عمرت اباميا على انها اخذت بالانحطاط منذ الفتح الاسلامي وفي زمان الصليبيين كانت قد عادت فصارت ذاهية مزدهرة وبعد ان اقام فيها الافرنج استخلصها منهم نور الدين زنكي عنوة

فدعاها العرب افامية لكنها خربت بعد حين ولم تسكن ونسي الاسم الاول ولم يبق الدهر من تلك المدينة الظريفة الا قلعة يقال لهُ مضيق يحيطها بضعة اكواخ يسكنها قوم من البدو والمتوحشين الذين لا يعرفون شريعة على انهم لا ينفكون عرضة لغزوات النصيرية الذين كانوا يسلبونهم قبل ان قصرت الحكومة العثمانية تعدياتهم ومنها قلعة سيجار وهي لاريا القديمة الواقعة على بعد عشرة اميال من اباميا وفي خراباتها اكتشف بوكاردت على مذبح

مكتوب عليهِ باليونانية تاريخ سنة ٥١ المعادلة سنة ٢٩٨ ق م وموءسس هذه المدينة ذلك البناء الملوكي سولوقس نيكاتور ولما اشرقت الانوار المسيحية صارت دار اسقفية وفي التخطيط القديم انها واقعة في الوسط بين اباميا وابيفانيا اي حماه على بعد ستة عشر ميلاً من كل منها اما القرية الحالية فهي ضمن اسوار القلعة والاهلون في خطر دائم من غزوات النصيرية

الفصل الثامن

مدينة اللاذقية

هي مدينة قديمة قائمة على ساحل البحر المتوسط كان يقال لها اولاً بالفينيقية امانثا قيل انها راماثا اي المرتفعة وقال فيلون مترجم سانكونياثو انها راما واثاس ومعناها الاله السامي ولا يعلم من زمان الفينيقيين شيئًا عن اللاذقية غير اسمها والظاهر انها كانت لحكومة ارواد الفينيقية ان لم تكن مستقلة في داخليتها وقد ذكرها بليني واختلف المدققون في كونها فينيقية فمن قائل ان اللاذقية الحالية ليست الا من بنا سولوقس واخر ينسب الاثار لغيرها على ان في سوريا بلدة اخرى بهذا الاسم وهي في كلسيريا اي البقاع وواقعة بين حمص وبعلبك على ان الكتابة التي وجدت لتاجر فينيقي في دلوس تصرح ان اللاذقية بلدة فينيقية وقد اكتشف على قطعة من المسكوكات الفينيقية مكتوب عليها لاوديسية بلدة في كنعان وبما انهُ من المحقق ان كنعان انما هي فينيقية يظن قوم ان هذه تشير الى اللاذقية الحالية التي يميزها القوم بتسميتها لاذقية العرب قال بعض العلماء ان لتسلط الرياح العاصفة في ذلك الشاطىء قد اهتم الفينيقيون بعمل ميناء فلما اصبحت ذات شهرة عظيمة كان يلتجىء اليها عدد وافر من سفن القدماء الصغيرة وقد ذكر انطونينوس في تخطيطهِ انها تبعد عن جبلة ثمانية عشر ميلاً والظاهر ان حاصلات البلدة ترسل الى مصر رواه استرابو وشاسناي وغيرهما ولما اخذ سولوقس نيكاتور ملك السلوقيين في سوريا يشيد المدن جدد بناء رامانثا ودعاها اللاذقية

باسم امهِ وذالك سنة ٢٩٠ ق م وقد اخطأ من زعم ان سولوقس هو بانيها وقد ذكرها سترابو بقوله انطاكية عند دفنة وسولوقية في بياريا وإباميا ولاذقية على البحر كلها مدن عظيمة وكانت تسمى اخوات لاتفاقها

والظاهر من هذه الرواية وغيرها ان اللاذقية كانت تعرف بالتي على البحر وما زالت بيد السلوقيين حتى اندثرت دولتهم واقيمت على اثارها الدولة الرومانية ولما وقعت الخلفة بين حزبي جوليوس قيصر وبروتوس عيَّن مجلس السنا كاسيوس لولاية سوريا اما الشعب فاقام دولابلا لها فاتى الواليان سوريا اما اهل اللاذقية فمانعت كاسيوس فحصرها اياماً ثم فتحها وامر العسكر فنهبها ولما مات كاسيوس تذكر انطونيوس ان اهل اللاذقية قد احتملوا اشد المصائب ليصدوا عدوهُ عن المدينة فاجازهم برفع الجزية عنهم قيل ان جوليوس القيصر الروماني جعلها مدينة حرة وشرفها باسم جوليا وسنة ١٩٢ للميلاد خلا منصب قيصرية رومية فبايع اهل العاصمة رجلاً وبايع الجند اخرين حتى كادت تتمزق المملكة وكان جند بريطانيا قد بايع سفيروس رجلاً من الابطال فتقدم الى رومية وقاتل عسكر واليها ودخلها وتتوج قيصراً ثم حارب العصاة ومنهم بيسانيوس بنجراي الاسود فانتصر عليهِ وكانت انطاكية قد تحزبت لبيسانيوس المذكور اما اللاذقية فكانت من حزب سفيروس فاتاها بنجر وخربها ولما انتصر سفيروس انتصاراً تاماً واستبد بالسلطنة امر بابطال كل امتيازات انطاكية قصاصاً لها على انهُ منح اللاذقية امتيازات كثيرة ذات اهمية فجعلها كنحاة لها حق المدن الرومانية ودعاها سبتيميا السافرية ومنح اهلها شرف الانتساب اليهِ فصاروا يدعون سبتيميين ويظن بعضهم ان قوس النصر الباقية اثارهُ انما كان مشيداً تكرمة لذلك العظيم وظلت بايدي الرومان حتى افتتحها المسلمون سنة ١٥ للهجرة الموافقة سنة ٦٣٧ للميلاد

وما زالت اللاذقية تحت الحكومة الاسلامية على اختلاف دولها حتى

زمان الصليبيين على انها لم تكن في كل تلك المدة ذات اهمية تستحق الذكر والظاهر من تواريخ الصليبيين انها عنت لهم بدون قتال وكانت من اميرية انطاكية التي يتأمرها بوهيموند كما تقدم ولما وقعت الخلفة بين الوصي وارملة المذكور ابنة بودوين سنة ١١٢٠ جاء بودوين ومنح ابنته جبلة واللاذقية وازوجها برايموند دو بواتيراس وأمَّره انطاكية ولقد روى بعضهم ان الملك لويس السابع ملك فرنسا قاتل حربًا دموية عند اللاذقية سنة ١١٤٧ اكاد يقتل بها راويًا ان حدوث ذلك كان في المدينة على انها ليست كذلك بل امام مدينة اللاذقية بين بيسيديا وفريجيا حيثما توجد مدينتان احداهما يقال لها انطاكية والاخرى اللاذقية . ومن تتبع الحوادث وامعن النظر بالوقائع ظهر له خطأ الواهمين

ولما فاز السلطان صلاح الدين الايوبي بالنصر على الافرنج واستخلص منهم اكثر البلدان التي كانوا قد امتلكوها سنة ١١٨٥ مسيحية عادت اللاذقية للاسلام ايضًا

ثم سار السلطان الى اللاذقية ووصل اليها في الرابع والعشرين من جماذى الاولى ولها قلعتان فحصر القلعتين وزحف اليها فطلب اهلها الامان فامنهم وتسلم القلعتين ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها الى ابن اخيهِ الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب فعمرها وحصن قلعتها وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماه ثم رحل السلطان عنها ولكن لم يطل زمن حكمهِ فيها حتى رجعت للافرنج واستمرت في ايديهم حتى اخذها الملك قلاوون سنة ١٢٨٦ واستمرت بيد الدول الاسلامية حتى لمعت بيارق الدولة العلية العثمانية

ولم تكن اللاذقية ذات شهرة في زمن الصليبيين ومن بعدهم الا انها دهمت بزلزلتين هدمتا منها جانبًا كبيرًا حدثت الاولى سنة ١١٥٧ والثانية سنة ١١٧٠ .

وقد زارها ابن بطوطة في اواخر الجيل الرابع وكتب عنها ما يدل على انها كانت تحت حكم طرابلس الشام وبعد ان فتحتها الجنود العثمانية باتت مشاركة سائر بلدان سوريا في نصيبهن من الشدة والرخاء

وما اللاذقية الان الا بلدة صغيرة هي مركز حكومة البلاد التي تجاورها على انها تحوي كثيرًا من الاثار القديمة وليس يسكنها اكثر من عشرة الاف من النفوس اربعة اخماسهم من المسلمين والخمس من النصارى . اما تجارتها فقليلة الاهمية على ان معظمها في الدخان وقد كان لها فيه ربح جزيل حتى كثرت عليه الضرائب واصبح اصداره الى القطر المصري محفوفًا بالمخاطر المالية فقلت زراعتهُ وتقلصت التجارة واهل اللاذقية على جانب من اللطف وقد كانت بلدتهم منذ بضعة سنوات من اقضية لواء طرابلس شام الا ان ابهة مدحت باشا المعظم راى ان بتشكيلهِ فيها متصرفية يدنو بالقوة من بلاد النصيرية . فتم بذلك ما كان يتمناهُ اللاذقيون من الانفصال عن لواء طرابلوس

ويعلو اللاذقية جبل النصيرية وهم قوم كثيرو العدد يسكنون القرى والمزارع الا انهم ما انفكوا لا يعرفون التمدن ولا يراعون واجبات الاجتماع الانساني حيث يصرفون معظم اوقاتهم بقطع السبيل ونهب القرى والقاء الفتن في البلاد منضمين عصبة واحدة لا تقوى الحكومات المحلية على ردعها الا بتجريد السيف . ذلك ما فعلهُ بعض الولاة الكرام اخص منهم بالذكر حضرة المرحوم راشد باشا حيث دوخ الساحل وقتل بعضًا منهم الا ان فتنتهم ابت الا السكون تحت رماد الخوف وتراهم في كل حين على اهبة اقلاق الحكومة السنية والقائها في الارتباك فليس اذًا من دواء لقطع تعدياتهم والزامهم حد الانسانية الا معاملتهم بما ياتي بهم الى حظيرة الحضارة حيث يتعلمون الانتفاع من السكون والطاعة وخدمة الدولة والوطن

واما الجبل الاقرع فهو المعروف عند القدماء بجبل كاسيوس ولا يبعد عنها الا قليلاً وكان الناس يعتقدون ان من صعد الى قمتهِ راى الليل والنهار

دفعة واحدة كناية عن عظم ارتفاعه حكى ان ادريانوس عزم على الصعود الى قمته ليقف بذاته على حقيقة المقال فمنعهُ من ذلك عاصف شديد وقد ذهب كثيرون من المحققين انهُ كان تخم فينيقية .

الفصل التاسع

جبلة وطرسوس وما بينهما

لم يتحقق المؤرخون الزمن الذي بنيت فيهِ جبلة على انها كانت تعرف قديمًا باسم كبلا قيل هي من زمن الفينيقيين ولما جدد الامبراطور جوستنيانوس بناء بعض المدن على الساحل جدد بناءها ايضًا ويعلم من الآثار الرومانية انها كانت زاهرة في دولهم . قال ابو الفداء في الجغرافية جبلة بلدة صغيرة ولها مزار وقد اشتهر انهُ قبر ابراهيم ابن الادهم قال في العزيزي ومدينة جبلة اكبر من مدينة بانياس وبين جبلة وبلنياس اربعة وعشرون ميلاً ومن جبلة الى اللاذقية اثنا عشر ميلاً ولها اعمال واسعة

فتحها الاسلام في السنة الخامسة عشر للهجرة الموافقة ٦٣٧ فاخذها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ثم استرجعها منهم السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٥ ثم استردها الافرنج وضمت جبلة الى طرابلس بولاية برتران الصليبي على انها بعد وفاتهِ ضمت الى بوهيموند كما تبين من تقرير كوي عاملها الذي نقلهُ المؤرخ ميشود وعادت برجوع الافرنج للدول الاسلامية ثم عنت للدولة العلية العثمانية

وسنة ١٦٢٤ تعهد مدبر الامير فخر الدين المعني للدولة بدفع مائتي الف ذهب من مولاة الامير فانعم السلطان على الامير بولايات سوريا من حدود حلب الى حدود القدس ولقبهُ سلطان البر على هذه المعاملات وامره باعطاء راحتها وصيانتها فسار الامير فخر الدين الى جبلة فقدم لهُ اهلها النفقات ثلثة ايام وعشرين الف غرش فطيب خاطرهم ورتب احوالهم اما المدينة الان فهي قرية صغيرة تكاد لا يبلغ سكانها الالف وهي قذرة الاسواق حتى ان الهواء الاصفر

الذي دهم سوريا سنة ١٨٧٠ ظل فيها يفتك فكانت ضحاياه فيها اكثر منها في بيروت وطرابلس . اما بلدة فيظن انها بالتوس القديمة وهي بجوار المرقب وقد جدد بناءها الامبراطور جوستنيانوس وعلى مقربة منها مدينة بانياس او بلنياس وقد ذكرها سترابو وانطونينوس في تخطيطهِ باسم بلنياس ودعاها غيرها باسم بلنيس ويظن انها تسمت من حمام شهير كان بجوارها

اما المرقب فهي قلعة كبيرة قديمة قائمة على علو ١١٦٢ قدماً عن معدل سطح البحر ولا يعرف باني هذا الحصن ولا زمان بنائهِ . قال ابو الفداء في الجغرافية . المرقب والبلنياس . المرقب اسم للقلعة وهي قلعة حسنة البناء مشرفة على البحر وبلنياس اسم لبلدتها وبينهما قريب من فرسخ وهي ذات اشجار وفواكه

اما الان فالقرية تدعى بالمرقب وقد ظن بعض الكتبة ان المرقب انما هي ماراثوس القديمة او مراكيا وناقضهم اخرون وقال سترابو عن ماراثوس انها كانت خراباً في ايامهِ وان الارواديين اقتسموا ارضها

وفي الجيل الحادي عشر تملك الافرنج المرقب بعد حصر شديد وكان يقيم بها بعض فرسان ماري يوحنا المعروفين بانصار الهيكل وما زالت بايديهم حتى دهمها الملك قلاوون سنة ١٢٨٥ بجيش عرمرم ولم يكن الخفر قادراً على صد الفاتح فاندكت الاسوار وقاتل الفرسان بذلك قتالاً عنيفاً وكان عدد المحاصرين يزداد عليهم حتى فتحت

وقلعة المرقب الان مركز الحكومة وقد ذكر سترابو مدناً كثيرة بين النهر الكبير الذي يدعوهُ ايلاثيروس ومدينة اللاذقية على ان معظم تلك المدن اصبحت اطلالاً بالية ولم يبق في حيز الوجود غير كبالا الا ان هنالك بعض قرى لعلها بقايا هاتيك المدن العامرة

اما طرسوس فهي مدينة قديمة جداً واقعة تجاه جزيرة ارواد في البر وكان يقال لها انترادوس اي قبالة ارادوس او ارواد وقد دعيت في الاعصر

المتوسطة باسم طرطوسه وهي من بناء الفينيقيين الارواديين قيل كانت تخماً بين الفينيقيين والامم الشمالية ولعل الارواديين قد بنوها تسهيلاً لتجارتهم مع البر وقد روى بعض المؤلفين انها خربت مرات كثيرة وان اهلها اجتهدوا باعادتها الى رونقها الاول فلم يقدروا وقيل ان الامبراطور قسطنطين جدد بناءها سنة ٣٤٦ م وسماها قسطنسا فصارت تعرف بالاسمين

ولما جاء الاسلام سنة ٦٣٧ مسيحية افتتحها ابو عبيدة بن الجراح وتقلبت عليها الدول الاسلامية حتى سنة ١٠٩٩ حينما جاءت الافرنج واخذوا انطاكية كما تقدم فسار الجيش قاصدًا اورشليم ولما بلغ رايموند دوطوران اليها ولم يكن معهُ من الجنود اكثر من الف وقد جن الظلام اوقد مصابيح كثيرة بعيدة عن بعضها وسط الغابة الغربية منها فخال للمحصورين ان كل الافرنج قد اتوا لحصارها فتركوا المدينة و ولوا منهزمين الى الجبال وفي الصباح دخل الافرنج البلدة بدون ان يرى يشواسيها واحدًا و بعد ان نهبوها احرقوها انتقامًا لانها لم تدفن في ثراها احدًا منهم

وروى بعضهم ان تولاها رايموند بالات وما زالت بايدي الافرنج حتى استرجعها صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٥ ذلك انهُ سار من حصن الاكراد فنزل على انطرطوس سادس جماذى الاولى فوجد الافرنج قد اخلوها فدخلها وضرب سورها واحرقها كما روى المقريزي في الخطط ثم استرجعها الافرنج واستمرت الى سنة ١٢٩٠ حين اخذها صلاح الدين خليل احد ملوك الدولة التركية المصرية بدون حرب ولما اتى بطرس اللوسيناني ملك قبرس لقيام حرب جديدة سنة ١٣٦٦ واخذ طرابلس واللاذقية وغيرها اخذ طرطوس ايضًا ثم غادرها خوفًا من المسلمين ولم يزل يوجد فيها الى اليوم بعض اثار صليبية وهي الان بلدة صغيرة عدد سكانها لا يبلغ الالفين وفي هذه البقعة اثار كثيرة وخرابات عظيمة على ان اكثرها لم يزل مردومًا بالتراب ولنا عظيم رجاء ان بكرور الزمان يستخرج من هذه البقعة او غيرها اثر يدلنا على صحة روايات

تاريخية كثيرة لم تزل قليلة الثقة

الفصل العاشر

مدينة حماه

هي مدينة حماة السورية الوارد ذكرها مرارًا في الكتاب المقدس كان يقال لها حمث الكبرى تمييزًا لها عن حمث الصغرى في كيليكيا يسكنها الان نحو ثلاثين الفًا اكثرهم من الاسلام وفيها بضعة الوف من النصارى وهي قائمة على نهر العاصي الذي يخرقها فيشطرها شطرين . اما تاريخها فقديم جدًّا ولا يخفى ان الحماني من ابناء كنعان فان كان هو باني هذه المدينة كما يظن الاكثرون فهي لا محالة قائمة منذ اكثر من اربعة الاف سنة ومن روايات كثيرة في الكتاب المقدس وغيره يتضح ان حماه كانت في زمان خروج الاسرائيليين من مصر مملكة مستقلة تتاخم ارض الميعاد التي احتلها الاسرائيليون على انها لم تكن وحدها كل المملكة التي دعيت باسمها بل انها كانت تمتد من مخرج العاصي حتى مصبهِ مع كل السهل الشرقي منهُ وكان يتاخمها من الجنوب مدينة دمشق ومن الغرب بلاد فينيقية ومع كل شهرة هذه المدينة في زمان الاسرائيليين لا نعرف عنها خبرًا وثيقًا يتعلق بالفينيقيين والاراميين

والظاهر انها لم تكن من املاك الفينيقيين او انها لم تنل في ايام دولتهم من المجد والعز ما يوجب لها الشهرة الا انهُ لما تقلبت عليها الاحوال وسقطت كغيرها تحت تسلط اليونان السلوقيين حيث تشيدت دعائم دولتهم في سوريا تسمت باسم ابيفانيا تشرفًا بالملك انطيوخس ابيفانوس السلوقي واستمرت معروفة بهذا الاسم كل زمان دولة السلوقيين حيث لم يحدث بها امر يستحق الذكر على ان بخروج السلوقيين اضرب القوم عن استعمال الاسم اليوناني وعادوا الى العبراني فعرفت بهِ حتى اليوم

وكانت قد اصبحت من قرى حمص التابعات لها وقد ذكرها امرؤ القيس في قصيدتهِ حيث قال

تقطع اسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيذرا

قال بعض الشراح حماة وشيذر قريتان من قرى حمص

فلما كان الفتح الاسلامي جاءها ابو عبيده فخرجت الروم التي بها اليهِ يطلبون الصلح فصالحهم على الجزية لرؤوسهم والخراج على ارضهم وجعل كنيستهم العظمى جامعًا وهو جامع السوق الاعلى من حماة ثم جدد في خلافة المهدي من بني العباس وكان على لوح منهُ مكتوب انهُ جدد من خراج حمص ثم سار ابو عبيدة الى شيذر فصالحهُ اهلها على صلح اهل حماه

وعنت حماة لسيف الفاتحين فاستمرت كغيرها من مدن سوريا بلدة اسلامية تتناوبها دولهم الى ان كان زمان الدولة السلجوقية ودخول الافرنج سوريا فلم يظفروا من هذه المدينة بطائل بل استمرت هي وبضعة بلدان غيرها في الداخلية السورية حصونًا حصينة ضد هجمات اولئك الاقوام

وفي سنة ٥٢٣ كان يتولاها تاج الملوك نوري صاحب دمشق السلجوقي وقد اقطعها ولده سونج فجاء عماد الدين زنكي من الموصل وكاتبهُ بموافاتهِ لقتال الافرنج الذين كانوا يومئذ قابضين على السواحل السورية فاجابهُ الى ذلك ووافاهُ الى حلب فقبض زنكي على سونج واتى حماة فملكها ولم يطلق اميرها حتى افتداهُ ابوه نوري باطلاق دبيس ولبثت حماه بيد زنكي الى شوال سنة ٥٢٧ وكان قد توفي تاج الملوك نوري وخلفهُ في ولاية دمشق اخوه شمس الملوك اسماعيل بن طغتكين فسار من بلده الى حماه وكانت لم تزل بولاية عماد الدين زنكي كما تقدم فاحط عليها وحصرها حتى اخذها عنوة وامن اهلها ثم حصر القلعة وكان قد لجأ اليها نائب زنكي ولكنها لم تكن حصينة فانها حصنت فيما بعد لان تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين قطع جبالها فلما حصرها شمس الملوك اسماعيل عجز النائب بها عن حفظها فسلمها اليهِ فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح

وفي سنة ٥٥٢ هجرية حدثت زلزلة مهولة خربت حماه وغيرها وقد قال

ابو الفداء في هذه السنة في رجب كان بالشام زلازل قوية فخربت بها حماة وشيذر وحمص وحصن الاكراد وطرابلس وانطاكية وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الاسوار والقلاع فقام نور الدين محمود بن زنكي في ذلك الوقت المقام المرضي من تداركها بالعمارة واغارته على الافرنج ليشغلهم عن قصد البلاد وهلك تحت الهدم ما لا يحصى ويكفى ان معلم كتاب كان بمدينة حماه فارق المكتب وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يحضر احد يسال عن صبي كان هناك

وفي سنة ٥٧٠ هجرية قويت شوكة صلاح الدين بن ايوب وجاء يستولي على البلاد الشامية حيثما كان السعد يخدمهُ فجاء حماة فملكها في مستهل جماذي الاخرة من هذه السنة على ان القلعة كانت قد امتنعت عليهِ وكان حاميتها الامير عز الدين جرديك احد المماليك النورية اي الذين ينسبون لنور الدين

فلما عزت القلعة على صلاح الدين قال لجرديك انهُ انما اتى ليحسن نظام البلد ويضبط امورها للملك الصالح اسماعيل وانهُ لا يريد منهُ ان يكون رسولاً الى حلب فاذعن جرديك لذلك واستخلف في القلعة اخاهُ فاتى حلب على ان كمشتكين قبض عليهِ واوثقهُ وعرف اخوهُ الحال فسلم القلعة لصلاح الدين

وفي تلك الاثناء وقعت في حماة موقعة مهولة بين صلاح الدين وجنود الملك الصالح بن نور الدين فانكسروا وفاز صلاح الدين بالنصر واستقرت البلاد التي فتحها في الشام بيدهِ ثم ان صلاح الدين اقام خالهُ شهاب الدين الحارمي نائبًا في حماه وفي سنة ٥٧٣ ﻫ سار الفرنج وحصروا مدينة حماه في جماذى الاولى وطمع الفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمتهِ من الفرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن اخيهِ صلاح الدين وليس عندهُ كثير من العسكر وكان توران شاه ايضًا كثير الانهماك في اللذات مائلاً الى الراحة ورفاه العيش ولما حصروا حماه كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض واشتد حصار الفرنج لحماه وطال زحفهم عليها حتى

انهم هجموا على بعض اطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرًا ثم جد المسلمون في القتال واخرجوا الفرنج الى ظاهر السور واقام الفرنج كذلك على حماه اربعة ايام ثم رحلوا عنها الى حارم وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان لهُ ابن من احسن الناس شبابًا مات قبلهُ بثلاثة ايام

ومن العجب ان هذه الرواية غامضة عند الاوربيين اي ان مؤرخي تلك التجريدات المعروفة بالصليبية لم يذكروا شيئًا عنها مما وصل الينا . والظاهر من روايات المؤرخين من الاسلام وغيرهم عدم خضوع حماه لغير الدول الاسلامية منذ اخات الروم البلاد السورية ومن اطلع على مؤلفات المؤرخ ابي الفداء يرى لها ذكرًا عظيمًا فانهُ كان سلطانها او حاكمها من قبل الملك الناصر صاحب مصر وسوريا وذلك سنة ١٣١٠ وكانت حكومة حماة قد صارت تتداولها نواب من عايلة تقي الدين الايوبية الى اوائل ذاك القرن وقد مات الملك المظفر ابن عم السلطان اسماعيل ابي الفداء فخلفهُ بضعة من الامراء كان يرسلهم السلطان صاحب مصر على ان الخلافة عادت في حماه الى العائلة التقوية بجلوس ابي الفداء في امارتها كما تقدم ولم يكن في كل ذلك ما يستحق الذكر عنها

واستمرت بيد الاسلام حتى جاء السلطان سليم العثماني وانتصر على الغوري في مرج دابق فصارت سوريا بعد حين ولاية عثمانية وكذا حماه ولما جاء ابراهيم باشا صاحب الجنود المصرية واخذ اكثر مدن سوريا عنت حماه لجيشهِ ثم خرجت من يدهِ سنة ١٨٤٠ وعادت للدولة العلية العثمانية وهي الان مركز متصرفية من ولاية سوريا ولفرط قذارتها قد دهمها الهواء الاصفر سنة ١٨٨٥ ام بقوة وقيل انهُ انما نشا فيها ثم انتشر في كثير من الانحاء السورية على انهُ لم يفتك ذريعًا ولم تطل مدتهُ

الفصل الحادي عشر

مدينة حمص

والى الجنوب الشرقي من حماه وعلى بعد ٥ ٢ ميلاً منها مدينة حمص عدد سكانها نحو عشرين الفاً منهم نحو سبعة الاف من الروم الارثوذكس ومايتين من اتباع يعقوب البرادعي المعروفين با ليعاقبة وهي مبنية وسط سهل متسع في غاية من الخصب والكلا قال ابو اسحاق الاسطخري هي مدينة في مستواة خصبة جدًّا اصح بلاد الشام هواء وتربةً وفي اهلها جمال مفرط وليس بها حيات ولا عقارب

اما نهر العاصي فيجري الى الغرب على مسافة نحو ميل منها وتحيطهُ جنائن و بساتين ويسمى هنالك بالمقلوب

اما المدينة ففي غاية من النظافة على ماذكره بعض السياح وليس فيها من البنايات القديمة شيء على ان خارج بقايا سورها اثار قلعة قريبة من الخرات ان حمصاً قديمة العهد على انها لم تذكر قبل زمان استرابو و بليني امـا اسمها القديم فهو امسا ولقد ظن بعضهم انها هي صوبة المذكورة في الكتاب وقال آخرون غير ذلك واشتهرت امسا قديمًا بهيكل الشمس الفاخر الذي كان فيها حيثما كان تجتمع اناس كثيرون لاحتفال طقوس معبودهم اله النهار

اما خدمتهُ فكانوا من اعيان البلاد حتى ان اشراف رومية كانوا يفتخرون بالحصول على هذه المرتبة العظيمة وفي اواخر الجيل الثاني كان رئيس الكهنة رجل فينيقي يقال لهُ باسيانوس صار بعد ذلك قيصراً رومانيًا طار صيت عائلتهِ في الافاق وفيها قتل اودينا توس زوج زنو بيا المشهورة ملكة تدمر بعد ان فاز بنشاطهِ وشجاعتهِ بلقب اوغسطس ما لم يمنح قبلهُ لغير قياصرة الروم وفي غضون ذلك لما ابى القيصر اورليان الروماني مشاركة زنو بيا ملكتها بالعظمة والفخر الروماني واشتهرت تلك الحرب بينهما تحارب الجيشان عند انطاكية اولاً ثم عند امسا فدارت الدائرة على جنود تلك الملكة الشهيرة التي

لو لم تسكرها خمرة الطمع لتمكنت من تخليد ملكها فلما كسرت في معركة حمص فرت الى تدمر لتلتجي الى اسوارها وقلاعها على ان زمان عظمتها كان قد اضمحل فانكسرت وقيدت اسيرة بالاسلاسل الذهبية الى رومية عاصمة العالم الروماني

وكانت امسا موطن لونجينوس الفيلسوف الشهير وكان قد اتى تدمر زائرًا فجعلتهُ زنوبيا استاذا لها ليعلمها اللغة والمعارف اليونانية وكان مشيرًا ومدبرًا لها ولما انتشرت الديانة المسيحية في سوريا تمذهب اهل امسا بها وفي سنة ٦٣٦ ميلادية اتى ابو عبيدة بن الجراح امير جيوش الاسلام بابطالهِ وخاطب اهل حمص الذين كانوا قد هادنوه على سنة مضت ان يسلموا المدينة وان يعتنقوا الدين الاسلامي او يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون فرفض اهل المدينة ذلك وللحال تجمعت الجيوش العربية فحصرتها . على ان مناعة البلد وكثرة الذخرة والمونة كانت تكفل لها طول زمان الحصر فبعد ان اشتبكت معركة استمرت نهارًا كاملاً رای ابو عبيدة ان المدينة لا تؤخذ الا بالحيلة فخابر حاكمها الرومي ان يفرج عنها إذا امدتهُ حمص بالذخرة لقتال بلدان اخرى فقبل الحاكم ذلك وبذل العرب المال في مشترى الذخرة والمونة من حمص حتى فرغت المخازن التي كانت مذخرة لزمن الصيف واتمامًا للعهدة سار ابو عبيدة عن البلد واخذ بلدتين في جوارها منهما شيذر وعاد لحمص فطلب التسليم من اهلها فاجابوه كيف ذلك وقد عاهدتنا قال عاهدتكم ان اسير عنكم لقتال غيركم ولم اعاهدكم على عدم الرجوع وهكذا فعلت فتحاربوا واخيرًا اخذ العرب حمصًا اما تسميتها بهذا الاسم العربي فان لم يكن تعريب اسمها الاول اي امسا فهو على ما ذكرهُ بعضهم اسم رجل من عماليق وقيل من عاملة وكان اول من نزلها

وبما ان حمص من البلدان السورية فقد طرأ عليها ما طرأ على تلك من تغييرات الدول الاسلامية الى زمان دخول الافرنج الصليبيين الى سوريا

فان اولئك الجيوش لما اخذوا انطاكية وساروا نحو فلسطين لفتح اورشليم مروا على حمص قال ميشود صاحب تاريخ الصليبيين الفرنساوي ان رفاق رايموند وروبار وتانكريد لم يتخذوا السبيل المستقيم في مسيرهم نحو اورشليم فمروا على حماه وهي ابيفانيا القديمة وعلى حمص المدعوة اليوم باسم هورم (لعل المقصود بهورم قلعة حارم وليس حمص) وباقترابهم من البحر ساروا لحصر عرقه وهي مكان قائم عند سفح لبنان على مقربة من طرابلس

وذكر ذلك ايضاً في كتاب الصليبيين تأليف مكسيموس مونرود المترجم للعربية بقلم البطريرك مكسيموس مظلوم قال قد سافروا من انطاكية الى جهة بلاد سوريا العليا واجتازوا مقاطعة قيسارية وحماه وحمص وكان مسير هذه الجيوش الصليبية بصورة انتصار حقيقي

وقال مؤرخ اخر ان في سنة ١٠٩٩ بعد ان فتح الصليبيون انطاكية ساروا الى السهول التي يخرقها العاصي ففتحت حمص كغيرها ابوابها لهم . وقد ذكر ابو الفداء في تاريخه انهم ساروا الى حمص فصالحهم اهلها وذكر الامام ابن خلدون وحاصروا حمص فصالحهم عليها جناح الدولة

ومع ذلك فالصليبيون لم يفتحوا حمصاً واما مصالحة جناح الدولة لهم فربما كانت بدفع مال او اعطاء ذخيرة كما فعلوا في بعض المدن ودليل ذلك تصريح المؤرخين بان حمصاً من المدن الداخلية التي لم يحكمها الصليبيون ومنذ ذلك الحين اشتركت البلدة اشتراكاً تاماً بتاريخ البلاد اي ان نصيبها من حوادث الدهر ما اصاب اخواتها فتداولت عليها الحكام والدول وكرّ بها دولاب الدهر على انها كانت اكثر سعادة من كثيرات غيرها من مدن سوريا التي امست قاعاً صفصفاً وباستيلاء المرحوم السلطان سليم على سوريا دخلت حمص في ولاية العثمانية وما زالت كذلك حتى اخذها ابراهيم باشا خديوي مصر وبجوارها كانت الواقعة بين جيوش الدولة العلية العثمانية وجنوده وسنة ١٨٤٠ استرجعتها الدولة العلية حينما استرجعت باتفاق مع

بعض حليفاتها من الدول الاوربية كل البلاد السورية التي استولى عليها ذلك الخديوي ولقد نشأ فيها بضعة من العلماء الاعلام منهم المعلم بطرس كرامة الحمصي المشهور صاحب القصيدة الخالية التي مطلعها

امن خدها الوردي افتنك الخالُ   فسحَّ من الاجفان مدمعك الخال

وهي طويلة التزم فيها لفظة الخال وقد اشتهرت حمص ببعض المنسوجات القصبية والحريرية على ان عدم تنشيط الصناعة في البلاد من اهمال الاهلين وقلة معارفهم الا انهُ منذ عهد قريب صدر امر حضرة ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان الغازي ان يؤخذ من منسوجات حمص وغيرها من مدن سوريا اثاث لفرش القصر الشاهاني في الاستانة العلية

الفصل الثاني عشر

ارواد وعرقا

ارواد جزيرة صغيرة واقعة الى الجنوب الغربي من طرطوس وعلى نحو ثلاثة اميال منها تبعد عن البر نحو عشرين ستاديا اي ميلين ونصفًا طولها سبع ستاديات الا ان سيلاكس يقول انها كانت لا تبعد عن البر اكثر من ثمان ستاديات على ان الرواية الاولى مرجحة ولاسيما ان مولف المرآة الوضية قد اثبتها بقولهِ انها على ثلاثة اميال من طرطوس اما محيط الجزيرة فقد ذكرهُ ولسن المورخ بقولهِ انهُ الف وخمسماية خطوة ووافقهُ على ذلك العلامة صاحب المرآة الوضية وكانت هذه الجزيرة مغطاه بالدور والبنايات الجميلة الشاهقة العلو ولها الان اثار سور مزدوج في غاية من المتانة والمناعة كان يحيط بالجزيرة ليقيها من غارات الاعداء وقد اخرج من اطرافها بناء منيع فتكوَّن من ذلك مرسى امين للسفن وقد ذكر كانريك صاحب تاريخ فينيقية ما ياتي وكان لارادوس ميناوان صغيران الى الجهة الشمالية الشرقية على ان من الممكن ان كارنوس اوكارن التي في البر الى الجهة الشمالية كانت ميناها الاولى وموضع سلاحها

وفي الجزيرة الان كثير من الاثار القديمة من اعمدة وخرابات وغيرها وهناك كتابات كثيرة ما للغة اليونانية يفتتح اكثرها بقوله: السناتو والشعب اما السناتو فهو مجلس الشيوخ او دار الشورى او الندوة ولا يخفى ان هذه العبارة تدل على ان حكومة ارواد كانت تقوم بالاكثر بادارة المجالس التي كانت تشخص الامة كما في سائر الممالك المتمدنة اما تاريخها فقديم جدًّا وعلى الخصوص لانها ذكرت مرات كثيرة في البقية القليلة المحفوظة للآن من تواريخ الامة الفينيقية لانها كانت احدى الامهات الثلث بين مدائن البلاد

لقد ظن بعض من ارباب التاريخ ان الاروادي بن حام بن نوح المذكور في الاصحاح العاشر من التكوين هو باني المدينة في تلك الجزيرة وساكنها فتسمت بهِ وعمرت المدينة بسكانها حتى امست تعد بعد صور وصيدا اللتين كانتا من اعظم مدائن ذلك العصر

وقد قال بعضهم ان الصيد وبين بنوها والحال ان شهادات كثيرة تاريخية تثبت عبارة من قال ان بانيها هو الاروادي المذكور في الكتاب او اقرب رجل من ذريتهِ اليهِ اي انها لم تكن اقرب عهدًا من صيدا التي بناها ابن الكنعاني على ما ذهب اليهِ الاكثرون كما سياتي

وتقدمت ارادوس تقدمًا عجيبًا بزمان الفينيقيين فان نطاق تجارتها كان متسعًا كثيرًا وجاب تجارها البلدان والامصار كاخوانهم الفينيقيين المشهورين ولا ريب انهم ساروا كاهل صور وصيدا الى البلدان الكثيرة التي ذكرنا ذهابهم اليها ان كان للتجارة او لاقامة مستعمرات ولم يكن الارواديون اقل من سائر الفينيقيين معرفة بسلك الابحر فكانت سفنهم تجيب البحار المعروفة ناشرة شراعها ومبرهنة للعالم ان نشاط اهليها احرزلهم قصبات السبق في ميدان تمدن ذلك العصر اما حكومتهم فكانت ملكية كحكومات باقي مدن الفينيقيين ومع ان ارادوس وما يليها من الشاطي المقابل للجزيرة كان مستقلاً لم يكن هذا الاستقلال مانعًا من التحالف حيث اصبحت كل المدن الفينيقية

واحدةً لاتحاد الصالح وقد اسهبنا بذكر ذلك في كلامنا عن حكومة الفينيقيين غير اننا قبل ان نترك هذا الموضوع نقول ان سترابو المؤرخ باثناء كلامهِ عن ارادوس (١٦-٧٥٤) قال وكان يسوس الارواديين في الازمنة القديمة كغيرهم من البلدان الفينيقية ملوك وطنيون: ومن تتبع الرواية نرى ان ملوك البلدان كانوا يتقلدون المنصب الملكي بالارث وكانت مملكة ارواد نعم المدن الزاهرة التي على البر قبالتها واستمرت ارادوس تزهو وتزهر في التقدم والنجاح زماناً طويلاً حتى ان حزقيال النبي ذكرها مرتين في تهديده صوراً قال ص ٢٨ ع ٨ اهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك: وص٢٧ ع ١١ بنو ارواد مع جيشك على الاسوار من حولك والابطال كانوا في بروجك علقوا اتراسهم على اسوارك من حولك هم تمموا جمالك: ذلك ما يظهر رفعة ارواد في ذلك الزمن وما كان لها من الفخر والصولة على انها ظلت على تقدمها حتى عنت خاضعة لملوك فارس كما خضع غيرها من المدن فكان ملوكها الوطنيون يدفعون الجزية للفرس

ولما جاء اسكندر بن فيلبس المكدوني الملقب بالكبير وانتصر في معركة ايسوس سنة ٣٣٣ ق م وتقدم لاخذ سوريا قبل ان يسير الى بلاد فارس التقى بهِ سترابو بن جير وستراتوس ملك ارواد وما يليها وقدم لهُ تاجاً من ذهب مسلماً اليهِ الجزيرة مع مدينة ميراثوس التي في البر وبعض مدن اخرى كانت من حكومة ارواد فقبل اسكندر ذلك بكل توقير واحترام اما جير وستراتوس ملك ارواد فكان قد سار مع كثيرين من ملوك فينيقية في العمارة الفارسية لقتال المكدونيين جنود الاسكندر الذي صالحهُ ابنهُ ولما استبد السلوقيون بسوريا كانت ارواد قد خضعت لهم كغيرها وقد ذكرت كثيراً في تواريخ دولتهم وعلى الخصوص باعداد السفن للحروب التي كان يقيمها بعض الملوك على انها لم تكن ذات اهمية كبرى كما كانت ايام الفينيقيين غير ان الانقسام الذي طرأ في المملكة السلوقية اتى ارواد بنفع عظيم ذلك ان

في الحرب التي انتشبت نارها بين سولوقس كالينيكوس وانطيوخس هيراكس تمكن ملك ارادوس من ان يجعل جزيرتهُ ملجاءً للهاربين السياسيين الذين كانوا يلتزمون بالاقامة في الجزيرة حيث لا يخرجون بدون اجازة الملك وكانت الحكومة مخيرة في تسليم الهاربين ولذلك باتوا عندها في مأمن وسلام وكان منهم كثيرون من اصحاب المراتب العالية فلما انفضَّ النزاع وعادوا الى مواطنهم امنين اخذوا يسعون بمكافاة ارواد فتملكت تلك الجزيرة قسماً متسعاً من الارض التي تقابلها فنالت بذلك درجة حسنة على انها ما لبثت ان خضعت لنير الرومان بعد ان فتح بومبيوس القائد كل سوريا وجعلها ولاية رومانية ونقلت الجزية على الاهلين فشهروا السلاح واحرقوا اكورتيوس وسالسيوس القائدين فانتقم الرومانيون منهم بقتل كثيرين من معتبريهم وليس في الجزيرة نبع ماء فان تملك عدوٌّ الشاطئ الذي قبالة الجزيرة وقع الاهلون باشد الاضطرار فيلجاؤن الى ماء المطر المتجمع في الشقوق والابار الباقية اثارها ظاهرة للعيان وكانوا ياتون بالماء العذب البارد من ينبوع ماء تحت البحر واقع على عمق خمسين قصبة في وسط المضيق وقد ذكر سترابو الطريقة التي كان يؤتى بالماء فيها بواسطة انبوبة طويلة شعرية في اسفلها قطعة من القصدير فيضعونها في البحر حتى تصل لفم الينبوع فتبعد ماء البحر فيصعد الماء العذب في الانبوبة الشعرية ويجمع في وعاء يكون على وجه الماء المالح . اما الانبوبة الشعرية فليست من شعر وانما عرفت بالشعرية لدقة الزجاج الذي تتركب الانابيب منهُ ومن لهُ المام بمبادي الجاذبية الشعرية وهي من خصائص الفلسفة الطبيعية يعلم تفاصيل هذه الطريقة التي كان يستعملها الارواديون

وفي سنة ٦٢٧ بعد ان عاد الخليفة معاوية بن ابي سفيان الاموي من غزوة قبرس اتى بسفنهِ جزيرة ارادوس ودعا سكانها للخضوع لهُ فابوا فشدد حصار الجزيرة على انهُ لم ينل منها اربًا فارسل اليهم اسقف حماه واسمهُ توما ركل ليأتي بهم الى المسالمة والصلح فامسكوا الاسقف عندهم وكان الشتاء قد دنا

واشتدت الامطار والارياح فافرج معاوية عنهم وعاد الى دمشق ثم جاء في السنة الثانية فحصرها ولما راى الارواديون شدة الحاصرين عقدوا واياهم عهدة التسليم بشرط ان تكون لهم الحرية ليسير وا اين شاؤوا فدخلتها العساكر واحرقتها ودكت اسوارها ومنذ ذلك الحين اخذت ارادوس بالتقهقر وتاخرت تجارتها وما زالت بايدي الاسلام تتناوبها الدول التي استولت على سوريا حتى جاء الصليبيون فتملكوها واستمرت بايديهم حتى سنة ١٣٠٢ حينما بارحوا البلاد بجملتها وقد ذكر صاحب سفر الاخبار رواية هي ما ياتي وفي سنة ١٧٢٠ نفي اليها المطران ابريهام مطران الارمن الكاثوليكيين في حلب اذ حرك الارمن الغير الكاثوليكيين الاضطهاد عليه وعلى شعبه في حلب وبقي المطران ابريهام المذكور منفياً في ارواد نحو سنتين الى ان شفع به عند والي طرابلس الخواجه طربيه بن الشدياق يعقوب اسحق الشدرواسي الماروني الاطرابلسي وانقذهُ من النفي اه

واهلها الان قلايل اكثر اعمالهم في البحر والمواشي ولهم تجارة في زبل تلك المواشي يشحنونهُ في السفن الى الاطراف البعيدة لادمال البساتين

والجزيرة مديرية تابعة طرابلس الشام التي كانت ارواد احدى المدن الثلث التي بنتها فسبحان الدائم الازل

اما عرقة فهي بلدة قديمة واقعة على بعد قليل من طرابلس في بلاد عكار التابعة لها وهي في سفح لبنان عند طرفهِ الشمالي قايمة على شرفة وادٍ عميق تجري فيهِ مياه جدول صغير من لبنان والى الغرب منها تل لا يزيد ارتفاعهُ عنماية قدم والى شمالهِ خرابات وآثار كثيرة تدل على ان موقع المدينة القديمة كان في تلك الناحية وهو يشرف على السهل المتسع والبحر المتوسط وهناك اثار سور كان يحيط بالمدينة اما تاريخ البلدة فقديم جدًا وهي من المدن الفينيقية فان العرقي بن كنعان هو الذى اتى بنسلهِ فبنى المدينة وسكنها ويستدل على ذلك من رواية الكتاب المقدس ولقد صمت التاريخ بعد ذلك

فاقام معها مدة يسيرة وتوفي فاتفق والدهُ (برتران) مع الجنو بين وتوجه معهم بسبعين مركبًا الى بلاد الشام لكي يتولى على متخلفات ابيهِ فوجد ابن عمهُ بوردان محاصرًا طرابلس وحدث بينهما خصومة عظيمة على الاماكن التي بيد رايموند فتوسط بينهما اعيان الافرنج فجعلوا عرقا وطرطوس وما بينهما بيد يوردان وجبيل وجبل الغربا الذي بنى فيهِ يوردان برجًا بقرب طرابلس وما يليها بيد برتران . وان يوردان يكون خاضعًا للبرنس صاحب انطاكية وابن عمهِ لملك بيت المقدس

روى ميشود المؤرخ الفرنساري ما يزيد ذلك ايضاحًا . قال . انهُ في سنة ١١٠٨ جاء برتران بن رايموند كونت دوسان جيل الى المشرق بسبعين سفينة جينا وية ساعدتهُ على فتح مدن كثيرة من فينيقية حيثما ابتدا بمدينة بيبلوس وهي جبيل واقام بحصرها بحرًا ففتحت ابوابها لهُ على انهُ امتلكها وتقدم نحو طرابلس وكان فتح هذه المدينة مطمح اعين ذلك الكونت الشيخ رايموند فكان يستخدم كثيرين من الجيوش التي جاءت من الغرب لفتحها وبنى لذلك قلعة على اكمة مرتفعة في جوار البلدة عرفت بالقلعة التي على جبل السياح او الغربا على ان ذلك البطل الهرم سقط من احدى شرفات القلعة ومات من اثر السقوط متاسفًا حيث لم يتمكن من فتح المدينة وجاء ملك اورشليم لحصار المدينة بخمسمائة من الفرسان فتضاعفت بوجوده همة الحاصرين حتى تضايق المحصورون فاخذوا يستنجدون قومهم في الموصل و بغداد ومصر على ان نداءهم لم يجد كبير نفع فاشار البعض على الاهلين بالتسليم فخابروا الحاصرين ان يفتحوا لهم ابواب البلدة بشرط ان يكون المحصورون احرارًا بالخروج منها باكراعهم او البقاء فيها تحت الجزية فقبل الافرنج هذا الشرط وصار اجراء التسليم وتم الملك بالدوين والكونت برتران وعدها . انتهى ملخصًا .

وحيث انا نقلنا الرواية عن الافرنج وجب علينا نقل رواية العرب لئلا يكون ثمة ما يوجب الشك في الاخبار قال ابن خلدون كانت طرابلس

بذلك ولم ينجز الوعد بل اتحد مع الاسلام على مضادتهم اسيا الصغرى فلما خابرهم هذه المرة ابوا الاجابة ثم جاء وفد صاحب مصر يكرر عليهم طلب المصالحة وان يبيح للزوار دخول القدس بلا سلاح فلم يقبلوا واغلظوا في الجواب ولم يتمكن الصليبيون من اخذ عرقة مع انهم حصروها نحو شهرين بشدة لا مزيد عليها فساروا عنها لان الجنود كانوا يريدون الوصول السريع الى امام اورشليم ليقاتلوا تحت اسوارها لانها كانت مطمحًا لانظارهم فغادروا اخذ عرقة كغيرها الا انهم عاودوها سنة ١١٠٩ فاخذوها بعد غيرها ولم يخرجوا منها حتى بارحوا البلاد وكانت في زمان ولايتهم من ولاية طرابلس الشام ومن ذلك الحين اخذت بالانحطاط والتقهقر حتى امست اليوم قرية حقيرة يسكنها قليلون من الناس وهي من قضاء عكار التابع لواء طرابلس الشام

الفصل الثالث عشر

مدينة طرابلس الشام

طرابلس بلدة قديمة العهد واقعة في طول شرقي ٣٥° ٤٤َ ٣٠ً وعرض شمالي ٣٤° ٢٦َ ٣٦ً على بضعة ميل من البحر وهي فينيقية النشأة مع ان اسمها المعروف يوناني لا يعرف لها سواه ولم تذكر في الكتاب المقدس مع ان غيرها قد ذكرت مرارًا الا ان الابوكريفا اي الاسفار غير المتفق على قانونيتها قد ذكرتها في الاصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الثاني

ولقد كاد يرتبك القوم لما وقع من اللبس بين طرابلس وبلدة اخرى باسمها في شمال افريقية لو لم يميزها الكتاب الا انهم اختلفوا في وجه التمييز فقال ياقوت في المشترك وقد فرق بعضهم بينها وبين مدينة اخرى بهذا الاسم في شمال افريقيا فجعلوا التي في الشام اطرابلس بزيادة الهمزة والاخرى طرابلس بغير همزة الا ان المتنبي خالفهُ بقولهِ في قصيدة لهُ

اكارم حسد الارض السماء بهم　　　وقصرت كل مصر عن طرابلس

وعليهِ جرى اللباب حيث ورد عنهُ ان تسقط الالف من التي بالشام للفرق

بينهما و بين التي في المغرب مخالفًا رواية ياقوت على ان الاشهر في التمييز بينهما ان يقال لهذه طرابلس الشام ولتلك طرابلس الغرب وعلى هذا عول الناس قاطبة

فطرابلس الشام بلدة من احسن مدن سوريا جمالاً وابهجها منظرًا واكثرها رياضًا وهي قائمة على ضفتي نهر ابي علي المعروف عند الاقدمين بنهر قاديشا اي المقدس وتحفها البساتين والغياض وتكثر فيها المياه والاثمار فتزيدها نضارة وحسنًا وتظهر طرابلس للرائي كالحمامة البيضاء فان اكثر جدرانها وسطوحها مبيضة بالكلس الابيض ناهيك عما يرى فيها من جمال الطبيعة ذلك ما وصفهُ ابن مامية الرومي بقولهِ

بار بعة سادت وساد مقامها على سائر الامصار في البحر والبر
بابيض ثلج واحمرار كثيبها وخضرة مرج قد جلا زرقة البحر

اما المياه فتاتيها من لبنان باقنية قديمة يظن قوم انها من بقايا الصليبيين بدليل تسميتها حتى الان باسم قناطر البرنس . وتتوزع في كل انحاء البلدة وشوارعها وتدخل دورها و بناياتها وتتصل الى الطبقة الثالثة على ارتفاع اكثر من خمسة عشر ذراعًا ومخرج الماء من ينبوع عذب يقال لهُ رشعين في ناحية الزاوية من قيمقامية البترون التابعة متصرفية لبنان

اما النهر فمخرجهُ من جبل لبنان فوق قرية بشرى تحت الارز الشهير من مكان يقال لهُ الدواليب ويجري الى الجنوب الغربي قليلاً فيتحد معهُ جدولان يقال لاحدهم رشعين وللاخر المخاضة ومن ثم يدخل طرابلس و يخرقها من الشرق الى الغرب فيشطرها شطرين غير متساويين ويخرج منها فيمر في ارض كثيرة الجنائن والبساتين ويصب في بحر الروم الى الشمال من الميناء على مسافة ميل عنها . وغزارة الماء وخصب تربة البلاد حملا الاهلين على الرغبة في حراثة الارض فاتقنوها حتى صارت طرابلس اول بلدان سوريا تقدمًا في الزراعة وامست ارضها ذات اثمار كثيرة مشهورة عنها اخصها الليمون بانواعهِ . ذلك ما اصبح مصدرًا لتجارة متسعة فيهِ اما التجارة فهي متسعة في

تصدير الحاصلات ضيقة في ايراد البضائع الاوربية واخص الاصناف الصادرة الحرير والحبوب والليمون والزيت والصابون وغير ذلك اما الصناعة فقاصرة جدًّا مع انها اشتهرت في الزمن السالف كما شهد بذلك مؤرخو الافرنج الذين كتبوا وقائع الحرب الصليبية وليس منها الان في البلدة غير صنع الزنار الطرابلسي من الحرير وفي جوار البلدة بضواحي صافيتا وعكار قوم من الاكراد وغيرهم يشتغلون البسط والسجادات الصوفية على غاية من الاتقان الا ان المعارف في طرابلس اكثر منها في غيرها من مدن سوريا الا بيروت فان مدارسها الكثيرة قد نشرت لواء العلم فيها اما الطرابلسيون فمشهورون بحب العلم والعلماء والرغبة في تحصيل المعارف وبينهم كثيرون من العلماء اما العامة فيها فعلى جانب من الفهم والذكاء وكثيرون من المسلمين والنصارى يبرعون في اللغة العربية وفروعها وللاسلام كثير من المدارس التي تعلم هذه العلوم اللغوية والفقهية وكثيرون من الطلبة يذهبون الى الجامع الازهر في مصر فيكملون فيه العلوم الفقهية والدينية ومن ثم ينالون مناصب القضاء حتى ان كثيرين منهم فائزون الان بهذه الرتب الا ان هذه المدارس على كثرتها ليست بجامعة اصول التعليم والعلم ولا وافية بحاجة البلاد انما انشاد المرسلون الاميركان والعازريون مدارس للصبيان والبنات اكثر تقدمًا من تلك

وفي السنة الماضية انشئت مدرسة عالية بهمة بعض اعيان الارثوذكس وذلك في دير كفتين من الكورة على قيد ساعة من طرابلس وعدد سكان البلدة نحو عشرين الفًا ثلثاهم من الاسلام . اما الروم الارثوذكس فعددهم نحو ستة الاف نفس وفيها بعض من الموارنة و بضعة انفار من اليهود والكاثوليك والبروتستانت واللاتين وفي الشتاء يزداد عددهم حيث ياتيها بعض من اهالي لبنان وجميعهم الا القليل منهم يشتغلون في الارض والبساتين اما نساؤهم واولادهم فيطوفون للتسول بالاثواب الرثة مع انهم يعيشون

برخاء في وطنهم كل زمان الصيف . اما تاريخ البلدة فقديم جدًّا ومع ان ذكرها لم يرد في الكتاب المقدس يعتقد بعض المدققين بكيانها منذ حين قديم. اما ما يعلم عنها تاريخيًا فهو انهُ بعد ان اخذت بلاد فينيقية با لتقدم الحسي والمعنوي وكانت ولايات مستقلة تنضم الى بعضها برباط الدين والجنسية على انها منفصلة عن بعضها في الاحكام الداخلية والخارجية خلا الحلفة الوطنية با لدفاع والهجوم رأَت امهات الممالك وهي صور وصيدا وارواد وجوبًا لاقامة دار شورى ترى في المصالح العامة للبلاد فانشأ المجلس المذكور في مدينة طرابلس ومع ان التاريخ لم يذكر زمان انشائهِ ولا اول زمان عرفت بهِ طرابلس بلدة يرى ان المجلس لم يقم يومئذٍ في بلدة معروفة بل ان عدم قبول تلك الدول الكبيرة قيام ندوتها في بلدة احداهن لمغايرة الاخرى وتحذرًا من استبدادها با لقوة وعدم رغبة جميعها باعطاء تلك المنحة العظيمة للدول الثانوية حمل القوم على انتخاب ارض متحايدة او قرية صغيرة يشيدون فيها مجلسهم فكانت حينئذٍ نشأَة طرابلس وهي غير ذات اسم عام بل ربما اطلق على كل قسم منها اسم القطر الذي تنسب اليهِ ومع انهُ عرف تمامًا ان هذا المجلس كان مركبًا من اعضاء صوريين وصيدونيين وارواديين لم يعرف ان كانت الولايات الاخرى الفينيقية قد اشتركت با لعضوية كاشتراكها بقبول احكامهِ مما برهنتهُ بعض الحوادث التاريخية التي سياتي ذكرها . وهذا التخمين يقارب الواقع لانهُ حتى الان لم يعرف للبلدة اسم فينيقي مع ان دار الشورى قد ذكرت مرارًا في تاريخ تلك البلاد ولو وجدت اقل مشابهة بين الكلمة اليونانية التي تركب منها اسم طرابلس وهي تريبوليس واللغة الفينيقية لحكم القوم المدققون بالاشتقاق ولا جرم ان التاريخ يقول ان اعضاء ذلك المجلس كانوا مائة عضو من الصيدونيين وبما ان صيدا لم تكن اكثر اهمية واشغالاً من معاصرتيها صور وارواد لا يظن ان اعضاء تينك البلدتين كانوا اقل عددًا ولا يخفى ان وجود ثلاثمائة عضو كافٍ لبناء تلك حالل لان اكثر

الاعضاء كانوا يلتزمون باحضار نسائهم معهم وكرّ الزمان فكثرت الذكور والمهاجرون فعمرت البلدة بهم والظاهر ان حكومتها استمرت بيد الثلث دول ذلك ان كلاً منها كانت تحكم حلتها بشرائعها الخصوصية فكان بين كل حلة واخرى مسافة ستاديا وهي نحو فرسخ يؤيد ذلك الاثار المستمرة حتى يومنا دليلاً على مواقع الحلل حيث كانت الاولى في محل الميناء الحالية والثانية في السلفتانية وهي الان مدفن للروم الارثوذكس وهنا لك بقايا قناة ماء يظهر انها كانت تاتي تلك الحلة من الضنية حيثما تمرّ في اراضي مجدليا فتظهر اثارها عند طواحين السكر والثالثة غربي المدينة الحالية عند البحصاص

ولقد قلنا ان التاريخ لم يكشف لنا عن زمان بنائها الا ان من الادلة ما يظهر شيئًا من ذلك فنقول ان تشكيل المجلس لم يتم الا بعد مجيء نبوخذ نصر لسوريا ولا يخفى ان ذلك الفاتح اتى البلاد غازيًا في سنة ٦٠٦ واخذ اورشليم وجلا اليهود فاستمروا في الاسر سبعين سنة وسنة ٥٧٢ اخذ صور بعد ان حصرها ثلاثة عشر سنة فان كان تشكيل الديوان في تلك الاثناء فيكون بناؤها اذًا في اواسط الجيل السادس قبل المسيح على اننا لا نبرم في ذلك حكمًا لاننا خمنا المقدمات فانتجنا هذه النتيجة اما الادلة التاريخية فقاصرة في هذا الصدد ولم نعثر على ذكر لطرابلس الا في اواسط الجيل الرابع قبل الميلاد ولا يستبعد عدم امتداد قدميتها لاكثر من ذلك . على ان المجلس الذي عقد سنة ٣٥٢ ق م للمفاوضة في اعمال الفرس المغائرة وتسلطهم على البلاد بعنف كان في مدينة طرابلس وعليهِ قر القرار على رفع راية العصيان ضد الفرس الظالمين كما مرَّ في تاريخ فينيقية

ووجود المجلس في ذلك دليل يدحض راي من زعم بان اسكندر المكدوني هو الذي امر ببناءها حال كونها قد ذكرت بصراحة قبل زمانهِ بعشرين سنة كما تقدم ولم يكن لطرابلس موقع مهم في التاريخ ولذلك كان يمر عليها مر السحاب على انهُ بزوال دار شورى الفينيقيين منها حطت اهميتها الى ان

تدولت عليها الدول فلما صارت سوريا مملكة يونانية مستقلة بعد وفاة الاسكندر واستبد السلوقيون بالسلطة حتى جرت بين انتيغونوس وسولوقس بعض الملاحم والمعارك الشديدة فاخذ انتيغونوس يهتم ببناء السفن فكانت طرابلس ايضًا من المدن التي تبنيها ولذلك امر بالاخشاب فجيء بها من لبنان على الف نير كناية عن الفين من الثيران و بنيت السفن فيها لخدمته على انهُ لم يحز نصرًا فتسلط السلوقيون على البلاد ولم يكن لطرابلس اهمية تذكر غير انها بعد حين ذكرت في اخبار المكابيين حيث قيل ان ديمتريوس بن سولوقس باتر العاشر من الملوك السلوقيين (جلس سنة ١٦٢) كان في رومية ففر عند حدوث المشاغب في سوريا بعد ان ابت ندوة رومية (السناتو) ان تسمح لهُ بالرجوع ليتبوأ تخت ملكهِ واتى بجمع عظيم وسفن ميناء طرابلس وسار الى المحلات الواجبة (٢ مك ص ٨ و١٤ عدد ١) وقد ذكر صاحب سفر الاخبار قولهُ : وروى يونتانوس ان طرابلس سجدت في ايام السلوقيين للمشتري الاطرابلسي . ذكرهُ مولف كتاب سوريا المقدسة . وروى لاكويان في مجلد ٣ صحيفة ٩٩ انهُ توجد معاملات عديدة لانطونيوس مع قلوبطره ثم لاغوسطس ونيرون وتريانوس عليها اسم طرابلس (ان حضرة مؤلف سفر الاخبار من الذين يميزون طرابلس بالالف دون نسبتها الى الشام كما يرى في كل كتاباتهِ عنها) .

ولما تفرقت الرسل وساروا لينذروا بالانجيل في الاقطار مرَّ بطرس الرسول وهو ماضٍ من صور لانطاكية بمدينة طرابلس . فاقام اسقفًا واثنى عشر كاهنًا واستودعهم ارشادات ونظامات رواهُ صاحب سفر الاخبار نقلاً عن لاكويان ونقل عن بياجيوس موءلف سوريا المقدسة ان اسقفها في الجيل الخامس يقال لهُ ثاودوسيوس . وقد امضى الرسالة الى لاون وذكر ايضًا عدة من الشهداء الذين استشهدوا فيها وقد ذكرت طرابلس اثناء الفتح الروماني فان يوسيفوس يقول ان بمبيوس بمروره في طرابلس قتل رجلاً قيل هو

حاكمها واسمهُ دبو يوس ولعل المقتول من الذين لما راوا ان الدولة السلوقية قد اشرفت على الخراب شهروا راية العصيان وتسلقوا الجبال الحصينة عند اقتراب بومبيوس (يوسيفوس ك ١٤ و٣ عدد٣) ولقلة اهمية طرابلس في تلك الازمنة الرومانية لم يكن لها ما يستحق الذكر من الحوادث على انها كانت تتقلب عليها الحوادث العمومية التي حدثت في سوريا اجمالاً وقد ذكرت . وفي تاريخ ملوك الروم في السنة العاشرة لملك قسطنطينوس بن قسطنطين (٣٢٧) جاء الى نواحي طرابلس فينيقية وبنى بلاداً سماها باسمهِ وجاء الاسلام ففتحوا انطاكية وهرب القيصر هراكليوس منها فلم يقتصر يوكنا الذي اسلم واتحد مع الفاتحين على الحيل الاولى التي سلم بها المدن الحصينة بل انهُ اتى مدينة طرابلس شام ولم تكن قد اخذت مع بعض الثغور فلما دنا من البلدة بفرقتهِ وكانوا من الرومان الذين اسلموا خرج لملاقاتهِ الرومان الذين في طرابلس ظانين انهُ لم يزل مخلصاً لدولتهم غير عارفين بالذي جرى وفتحوا لهُ ابواب المدينة فدخلها واقام فيها منتظراً الزمان المسمى لمجيء الاسلام فلما حان الاجل حمل على القلعة فاخذها بلا ممانعة على انا لا نعلم المقصود بالقلعة لان القلعة الحالية انما هي من بناء الصليبيين فلا يبعد ان تكون القلعة المأخوذة يومئذٍ من حصون الرومان واقام يوكنا فيها ناشراً راية الصليب الرومانية الا انه ارسل خبراً الى ابي عبيدة بما كان وبعد حين وصل ميناء طرابلس سفن كثيرة من قبرس واكريت مشحونة بالسلاح والموءن لنجدة جنود قسطنطين وهي غير عالمة بحالة طرابلس فلما رست اقبل يوكنا عليها واعتقلها واخذ رجالها اسراء حرب وكان ابو عبيدة قد بعث شرذمة من جنده الى طرابلس فسلمها يوكنا الى العسكر وركب السفن بمن معهُ ورفع الراية الرومانية وسار الى صور كما سترى

وقامت الحكومة الاسلامية في طرابلس الان صاحب سفر الاخبار يقول ان الدولة الاسلامية لم تستقر فيها والظاهر ان ذلك كان لان مردة

لبنان كانوا يتملكونها

ولما استقر الخليفة معاوية بن ابي سفيان في دمشق الشام وصفت له الاحوال عزم على حصار القسطنطينية وهي يومئذ سرير سلطنة قنسطنس الروماني فبداء ذلك الخليفة النشيط بالاهبة لتلك الحملة في مدينة طرابلس الشام وكان في سجون المدينة كثيرون من اسرى الروم فثار اخوان طرابلسيان بفئة من رجالها واتيا دارا لسجن فكسرا الابواب وكان يتبعهما كثيرون من الاهالي فاخذوا المدينة بعدان ذبحوا حاكمها واحرقوا العمارة التي كان معاوية الخليفة قد اهتم ببنائها ولما اعد الخليفة عمارة اخرى والتقى بالعمارة الرومانية امام جبل فانكس في كيليكية ودارت الدائرة على جنود قنسطنس وعمارته ادرك الاسلام سفينة الملك فحمله احد الاخوين الطرابلسيين المار ذكرهما على ذراعيهِ واتى بهِ سفينة اخرى فنجا من الهلاك

وظلت طرابلس بايدي الخلفاء تتداولها الدول الاسلامية كغيرها من مدن سوريا حتى سنة ٣٥٨ ه وهي الموافقة لنحو ٩٦٢ م حينما جاء قائد ملك الروم فاخذها قال الامام ابن خلدون وفي سنة خمس وثمانين (خطاء في الطبع والاصح ثمان وخمسين) دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها ولم يجد من يدافعهُ فعاث في نواحي طرابلس وكان اهلها قد اخرجوا عاملهم الى عرقة لسوء سيرتهِ فنهب الروم اموالهُ ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها الخ

اما مؤرخو الافرنج فيذكرون ان فاتح طرابلس وغيرها من مدن سوريا هو القائد زاميشاس و يعرف عند كتبة العرب بالشمشق ايام القيصر نيكافورس فوكاس في القسطنطينية وقد نقل صاحب سفر الاخبار عبارة القائد شمشق عن طرابلس بانناء رسالتهِ الى الشودشاهان ملك ارمينيا وذلك عن متى الرهاوي . قال . وقبل ان نبلغ مدينة طرابلس قد ارسلنا فرقة من الفرسان لتستحوز على المضيق الذي يسمى كوراراد حيث كنا نعلم ان اشرار الافريقيين انزووا هناك فوضعت لهم العساكر من الجانبين للقبض عليهم

فنفذت اوامري ومنذ راوا طلائع جيشنا اتى الفان من الافريقيين يصدمونهُ فانزل بهم جنودي الوبال للحال والبقية اسروا . . . ولا يمكننا ان نواريسه اننا اتلفنا كل ما جاور طرابلس اذ ذبحنا الحيونات وابدنا الكروم وقطعنا الاشجار وحملت الجسارة بعض الافريقيين فاتوا لنزالنا فلم يكن الا نالهم ما نال اهل وطنهم المار ذكرهم فقطعوا اربا اه

اما الافريقيون الذين تكرر ذكرهم هنا فربما كانوا جنود العزيز احد خلفاء الفاطميين بمصر المستولي يومئذٍ على سوريا غير ان حكومة الروم لم تطل هذه المدة في طرابلس لانهم خرجوا منها بعد ثلاثة عشر سنة عند ما اخلوا المدن التي اخذوها من سوريا فعادت كاخواتها للدولة الاسلامية

ولقد روى المؤرخ ابن خلدون انهُ في سنة ٣٨١ هجرية حصر ملك الروم مدينة طرابلس اربعين يوماً فلم ينل منها اربًا فعاد راجعًا الى بلاده

وقد تكرر ذكر طرابلس في اثناء حكومة المصريين الفاطميين فانهُ لا يخفى ان بر الشام كانت قد صارت من البلدان الخاضعة لهم وكان في كثير من بلدانها جمهور من الاتراك السلاجقة عمالاً للخلفاء المذكورين وكانوا شديدي القوة والبطش ولما وقعت الوحشة بين وزير العزيز ابن كلس و بكجور الذي كان قد تولى دمشق جهز الوزير منير الخادم ببضعة من الجند وامر نزال عامل طرابلس بمظاهرته فجمع بكجور جندًا من العرب وقاتل جيش الوزير فانكسر ولما علم ان نزال عامل طرابلس قادم خاف فسلم لمنير وسار الى الرقة ثم امر نزال مرة اخرى بالقتال عن جنود العزيز ولم تكن نتيجة حربهِ اقل شهرة من الاولى

وكانت طرابلس كبعض مدن سوريا خاضعة للدولة العلوية المصرية عند ما وفدت جموع الصليبيين اليها كما ذكر الامام ابن خلدون

وسنة ٤٨٤ هـ لما سار قسيم الدولة اقسنقر وتاج الدولة تتش اخي السلطان ركن الدين ملكشاه بن الب ارسلان و بوزان صاحب الرها بجيش

عرمرم واخذوا من الشام مدناً كثيرة كحلب وحمص وغيرها وفتحوا قلعتي عرقة وافامية ساروا الى طرابلس ونازلوها فراسل صاحبها اقسنقر وحمل اليهِ ثلاثين الف دينار وتحفاً بمثلها وعرض عليهِ المناشير التي في يده من السلطان بالبلد فقال اقسنقر لتاج الدولة تتش انا لا اقاتل من في يده هذه المناشير فاغلظ لهُ تتش وقال هل انت الا تابع لي فقال انا اتابعك الا في معصية السلطان وانقلب من الغد عن موضعهِ فرحل تاج الدولة تتش غضبان وعاد بوزان الى الرها

والظاهر من بعض الروايات ان عرقا وجبيل كانتا اذ ذاك من اميريتها ولهذا التزم امير طرابلس ان يفتديهما والبلد يوم مرَّ بها الافرنج سنة ١٠٩٩ مسيحية فانهُ بعد افتتاح انطاكية سارت جموعهم فرقتين والتقتا عند عرقا فشددوا الحصار عليها شهرين فارسل صاحب طرابلس لهم خمسة عشر الف دينار وخيلاً وبغالاً واقمشة بدلاً عن طرابلس وعرقا وجبيل وقدم لهم الميرة في الطريق ووجه معهم رجالاً ترشدهم فوصلوا الى قيسارية سطراتون الخ

الا ان البطريرك لم يذكر المعركة التي انتشبت بين امير طرابلس والافرنج قبل ان راى الاصابة في شراء الصلح منهم اما ذكر كثيرون من المؤرخين منهم ميشود المورخ الفرنساري في م اك ٤ ص ٢١١ قال بعد ان تمكن الصليبيون من كسر امير طرابلس في معركة اقامها عليهم حتى بات مجبوراً ان يشتري منهم سلام بلدتهِ وراحتها بضريبة ساروا نحو اورشليم وكان ذلك في غاية ايار اه

والظاهر ان نضارة طرابلس وكثرة فاكهتها واشجارها كانت مما حمل الصليبيين على السرور بها وبما جاورها سيما لانهم اتوها في ايام الربيع وهي مكتسية بحللها السندسية ولم يكونوا يعرفون قصب السكر فلما ذاقوهُ فيها اصبحوا غاية في الحظ والحبور فنقلوا منهُ اولاً الى صقلية وايطاليا ثم الى غيرها من الممالك وكان الاهلون يستخرجون منهُ المادة المعروفة بالسكر وكان كثيرون

من الحاصرين ايا كلونة عند اشتداد المجاعة ايام الحصر ومع انهُ الان يعد من الاصناف التجارية المهمة في اوربا لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت في الغرب

ثم ان الصليبيين افتتحوا عدة من المدن فراوا شدة اضطرارهم لاخذ طرابلس وغيرها من الثغور فعادوا اليها والظاهر ان عودتهم كانت سنة ١١٠٤ على ان المورخ ابا الفداء يقول ان في سنة ٤٩٥ المعادلة سنة ١١٠١ م سار صنجيل الافرنجي (لا نعلم من هو صنجيل ولعلهُ اسم لاميرطولوزا) في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس ثم وقع الصلح على مال حملهُ اهل طرابلس اليهِ فسار صنجيل الى انطرطوس ففتحها وقتل من بها من المسلمين الخ وفي سنة ٤٩٧ المعادلة سنة ١١٠٣ سار صنجيل وقد وصلهُ مدد الفرنج من البحر الى طرابلس وحاصرها براً وبحراً فلم يجد فيها مطمعاً فعاد عنها الى جبيل وتسلمها بالامان

وفي سنة ٤٩٩ الموافقة سنة ١١٠٥ كان صنجيل قد ملك مدينة جبله ثم سار واقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحتهُ ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج الملك ابو علي بن عمار صاحب طرابلس فاحرق الربض ووقف صنجيل على بعض سقوفهِ المحرقة فانخسف بهِ فمرض صنجيل من ذلك وبقي عشرة ايام ومات وحمل الى القدس ودفن فيهِ ودام الحرب بين اهل طرابلس والفرنج خمس سنين وظهر من صاحبها بن عمار صبر عظيم وقلت الاقوات بهم وافتقرت الاغنياء

وفي سنة خمسماية وواحد الموافقة ١١٠٧ م توجه فخر الملك ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستنفراً لما حل بطرابلس وبالشام من الفرنج واجتمع بالسلطان محمد وبالخليفة المستظهر فلم يحصل منهما غرض فعاد الى دمشق واقام عند طغتكين واقطعهُ الزبداني . واما طرابلس فان اهلها دخلوا في طاعة خليفة مصر وخرجوا عن طاعة ابن عمار

وفي سنة ١١٠٨ قصد رايموندوس امير طولوسا العودة الى فرنسا وخلف موضعهُ ابن اخيهِ بوردان وفي حال وصولهِ تزوج بنت فرديناند ملك فرنسا

عن ايراد خبرهم من مدينة عرقا واستمر بسكونهِ حتى بدء التاريخ المسيحي حيثما ذكرها بليني و بطولمايس . اما يوسيفوس بن كربون المؤرخ اليهودي فقد قال ان طيطوس الروماني بعد ان فتح اورشليم وخربها وجاء من بيروت مر بعرقة وان هنالك قدم الضحايا والذبائح في هيكل الزهرة شكراً للالهة على انتصاره وظفره بشعب اليهود وقد ذكر ان باني ذلك الهيكل انما هو اسكندر المكدوني وان القيصر الروماني اسكندر سفيروس ولد فيهِ . ولما صارت الولاية السورية اقليماً رومانيًا وذلك في اواسط الجيل الاول قبل المسيح ودخلت عرقة في ولايتهم سماها الرومان سيذريا ادلبنوم اي قيصرية لبنان واستمرت عرقة ترقى في النجاح والتقدم تارة وتهبط في التاخر اخرى حتى زمان العرب واستيلائهم على البلاد فكانت اقل منزلة من حالتها الاولى على ان في زمان الصليبيين كانت قوية متينة فسارت الجنود الصليبية من انطاكية بعد فتحها قاصدة اورشليم وبمرورهم امام عرقة طلبوا الى من فيها ان يسلموا فابى الاهلون ذلك فحصرت البلدة والقلعة حصرًا شديدًا على ان القلعة كانت على غاية من المناعة فلم يكن للمحاصرين مقدرة على فتح حصونها وهدم قلاعها بسرعة على انهُ بينما كانت الحرب قائمة على قدم وساق حدث امام اسوارها نزاع وخصام بين القائلين بصحة وجود الحربة المقدسة التي طعن بها جنب السيد المسيح و بين الجاحدين هذا الزعم فافضى ذلك الى جدال اسهب بالشرح عنهُ كثيرون من الكتبة على ان الكاهن الذي ادعى وجودها واكتشافها قال لهم ان من يمس الحربة و يلج النار المضطرمة لا يلحقهُ ضرر و بعد ان اضرموا لهُ نارًا عظيمة مر فيها مرات كثيرة فقال كثيرون منهم انها اعجوبة اخرى تؤيد صحتها فهجموا عليهِ يمزقون ثيابهُ ليتقدسوا بها فضره الازدحام حتى مرض ومات بعد حين فنسب الاكثرون موتهُ لضرر الازدحام واخرون لفعل النار به

وقبل ان تمكن الصليبيون من فتح المدينة واخذها جاءهم وفد الملك اليكسيوس صاحب القسطنطينية يعرض عليهم النجدة وكان قد وعدهم

رجعت الى صاحب مصر وكان يحاصرها من الافرنج ابن المرداني صاحب صنجيل والمدد ياتيهم من مصر فلما كانت سنة ثلاث وخمسين (وخمسمائة وهي تعادل سنة ١١٠٩) وصل اسطول من الفرنج مع ويتد بن صنجيل من قامصنهم فنزل على طرابلس وتشاجر مع المرداني فبادر بغداوين صاحب القدس واصلح بينهم ونزلوا جميعاً على طرابلس والصقوا ابراجهم بسورها وتاخرت الميرة عنهم من مصر في البحر لركود البحر فافتحها الفرنج عنوةً ثاني الاضحى من سنة ثلاث وخمسين وقتلوا ونهبوا واسروا وغنموا وكان واليها قد استامن قبل فتحها في جماعة من الجند فلحقوا بدمشق انتهى

وفي ابي الفداء ان الخليفة العلوي في مصر بعث بالسفن الى طرابلس فنجدها فردتها الرياح بحيث تمكن الافرنج من البلد

وكانت طرابلس في ذلك الحين مشهورة بغنى طبيعتها وحسن رونقها ونجاحها وكانت حاصلاتها غزيرة جدّاً حتى ان السهول والتلال والاكم المجاورة كانت مصدرًا لكثير من الغلال الفاخرة والزيتون والحرير فضلاً عما هنالك من قصب السكر والكرم وانواع الفاكهة والاشجار وحسبنا بذلك شهادة المورخ ميشود الذي نبع قولهُ بقولهِ . ان في المدينة اكثر من اربعة الاف نول لنسج الاقمشة الصوفية والحريرية والقطنية غير ان قسماً كبيرًا من هذا الغنى بات طعامًا لانتقام الافرنج او معطلاً من جرى حروبهم وحصارهم الطويل فانهم كانوا في زمان الحصار قد اضروا بجوار البلدة ولما تملكوها لم يعتنوا بما فيها من المعامل الصناعية فانحطت انحطاطًا عظيماً ولم يكن ما ذكر كل ما اشتهرت بهِ طرابلس من الغنى في ذلك الزمن فان خزائنها كانت ملئت من الكتب المفيدة التي احالها الافرنج رماداً فخسر العالم بفقدها كنزًا عظيما

فان بين مجلداتها كثيرًا من كتب الفرس والعرب واليونان وكان فيها عديد من الكتبة يشتغلون على الدوام بنسخ كتب الخط وقال ابن طيء المورخ العربي ان عدد هذه الكتب كانت ثلاثة ملايين من المجلدات غير ان مورخا

اخر يقول ان عددها لم يتجاوز المائة الف مجلد وان جامعها القاضي ابو حسن طالب وهو نفسهُ قد الف كثيرًا وانهُ كان متوليًا البلدة وقد بعث برسائل الى الاقطار مفتشًا على الكتب النادرة مهما كان ثمنها عظيمًا وقد ندب مؤرخو العرب فقدان تلك المكتبة على ان المؤرخين الصليبيين القدماء لم يذكروا عنها شيئًا ليستروا زلة قومهم

ومذ صارت طرابلس بلدة صليبية ضم اليها بعض المدن المجاورة كجبيل وعرقا وطرطوس وما بينها فتشكلت اميرية باسمها كان يتأمرها اولاً برتران بن رايموند كونت دونولوس ثم نسلهُ من بعدهُ وكانت تلك الاميرية متعلقة رأسًا بحكومة ملك بيت المقدس وبما ان احدى الاقسام الاربعة المشهورة (مملكة اورشليم واميرية انطاكية واميرية طرابلس واميرية الرها) كانت ذات سطوة ونفوذ ولذا نرى ذكرها مرات كثيرة في تاريخ تلك التجريدات فان لاميرها يدًا في حروب كثيرة ومشاكل مهمة سنذكراهمها

من ذلك انهُ في سنة ١١١١ سار برتران مع بقية امراء الافرنج لقتال جموع العجم في نواحي حلب فتفرق القوم من دون قتال

وسنة ١١١٢ لما اتى الموصليون تحت امرة مودود وحاربوا الافرنج عند الاردن وكسروهم استنجد الملك بودوين بالبرنس صاحب انطاكية والكونت صاحب طرابلس وقبل ان يدركاه دارت الدائرة على جنوده فانكسرت ولم ينتفع الافرنج من امير طرابلس في هذه المعركة

وسنة ١١١٥ جاء اقسنقر البرسغي نائب الموصل بجيشهِ لغزو الافرنج فنزل عند حلب وكان طغتكين صاحب دمشق قد قتل مودود امير جيوش الموصل فخاف من اقسنقر واستنجد الافرنج وامير طرابلس وحاربوا اقسنقر فكسروه غير انهُ عاد في سنة ١١٢٥ واتحد مع طغتكين صاحب دمشق وحارب الافرنج فسار بودوين ملك اورشليم وامير طرابلس بجيوشهما فادركوا الاسلام في بلاد انطاكية ووافاهم امير الرها فانكسر الاسلام .

وفي سنة ١١٢٦ غزا صاحب طرابلس نواحي حماه فنجدهُ الملك بالدوين فحاصرا رافانا وملكاها في اليوم الثامن عشر بالامان ورجع الملك الى القدس

وفي سنة ١١٣٢ جمع عماد الدين زنكي ابن اقسنقر التركمان وقصد طرابلس فخرج اليهِ بونك صاحبها وتواقعا فوق المدينة فانهزمت الافرنج وقبض على بونك فاخذوهُ الى الجبل وقتلوهُ وحاصر التركمان الافرنج في حصن بعرين فجمع رايموند بن بونك الافرنج وخرج اليهم فطردهم عن ذلك الحصن وقبض على الذين كانوا تواءَمروا على قتل والده فاخذهم الى طرابلس مع اولادهم ونسائهم

وابو الفداء يقول ان بونك ويدعوه القومص حضر الى بعرين وهرب منها بعشرين ولم يذكر مقتلهُ بتلك الحملة ولعل هذا اقرب الى الصحيح

وفي غضون ذلك وقع خلاف بين الافرنج في انطاكية بشان الملك فعزم الملك بودوين على المسير اليها لفصل الخلاف وكان امير طرابلس المعروف باسم بونك متحزبًا لفئة تباين حزب الملك فانتشبت بينهما معركة شديدة في سهول طرابلس افضت الى انكسار الامير بونك اما الملك فسار الى انطاكية وحسم النزاع وعفا عن امير طرابلس لاذعانهِ وطاعتهِ

واتى زنكي ايضًا بجيش التركمان والعربان الى اعمال طرابلس ونصب الحصار على حصن منغرشت الذي فوق رافانا فلما بلغ الملك فولك صاحب بيت المقدس ذلك سار بفرسان الافرنج الى جهة طرابلس فرفع زنكي الحصار عن ذلك الحصن وخرج الى لقاء الملك فحصر الافرنج في موضع ضيق وضرب بهم السيف وقبض على القومص صاحب طرابلس واخذ خيام العسكر وخيلهُ ومواشيهُ وتحصن الملك فولك في ذلك الحصن بنفر قليل ثم ان زنكي اعاد الحصار على الحصن فقتل وجرح منهم ولم يزل يضايقهم نهارًا وليلاً حتى سلموهُ الحصن بالامان بشرط ان يطلق سبيل القوم ولا يضر باحد من اصحابهِ

وفي سنة ١١٥٢ قتل رايموند القومص صاحب طرابلس غدرًا داخل المدينة وكان في تلك الايام الملك بالدوين وزوجتهُ وزوجة جوسين واختها في طرابلس فحزنوا عليهِ فرتب الملك امور طرابلس وسلم تدبيرها الى زوجة رايموند وابنها رايموند لان الولد كان صغيرًا ورجع بالدوين الى القدس

وفي سنة ٥٥٢ ه المعادلة سنة ١١٥٧ م حدثت بالشام زلازل شديدة خربت بها مدن كثيرة منها مدينة طرابلس رواهُ ابو الفداء في التاريخ ومر ذكر تلك الزلزلة بتاريخ حماه قال المؤرخ المذكور ان في سنة ١١٦١ حاصر نور الدين قلعة حارم التي بيد الافرنج ثم رحل عنها وقصد طرابلس ونزل في البقيعة ودهمتهُ الافرنج فقتلوا واسروا اكثر عسكره فانهزم بجواده ونزل على بحيرة حمص وحلف بالله انهُ لا يظللهُ سقف حتى ياخذ ثاره قال

وفيها توفت هيريني ملكة الروم فارسل الملك منوال (مانوئيل) يطلب الى الملك بالدوين ان يخطب لهُ بنتًا افرنجية فجهز لهُ الملك بالدوين اخت القومص صاحب طرابلس واعطاها اخوها القومص اموالاً كثيرة وهيأ لها اثني عشر مركبًا للسفر فلم ترضَ فساء ملك الروم ذلك فتكلموا مع البرنس صاحب انطاكية بابنتهِ فارتضى فاخذوها الى القسطنطينية بعز عظيم فحنق القومص وارسل الاثني عشر مركبًا تخرق في بحر الروم فخرجوا واخربوا الكنائس وسلبوا الزوار واهل السواحل ولم يكفوا عن شر . اه

وفي سنة ٥٥٩ ه المعادلة سنة ١١٦٣ م كان الافرنج في مصر فسار الملك نور الدين بجيشهِ الى محاصرة طرابلس فخرجت اليهِ الافرنج منها وحاربوه فانكسر وغنموا اموالهُ وفر منهزمًا بلا سيف ثم جمع رجال المدن والعربان وسار بهم الى قلعة حارم وحاصرها فلما بلغ البرنس صاحب انطاكية ذلك خرج اليهِ بالقومص صاحب طرابلس وقولمان صاحب كيليكيا وطور قائد جيش الارمن وكانوا يومئذٍ عنده فخاف نور الدين وفر هاربًا عن حارم فاخذهم الطمع واقتفوا اثره فوضع لهم كمينًا في وادٍ وبينما كانوا متفرقين رجع

اليهم على حين غفلة منهم فقتل جمًّا غفيرًا واسر البرنس القومص وقولمان وعشرة الاف رجل وسار بهم مسرورًا الى قلعة حلب ورجع الى حارم فملكها بالسيف

ولم تطل مدة اسر رايموند امير طرابلس المعروف بالقومص اكثر من تسع سنوات. فانهُ في سنة ١١٧٢ بذل عن نفسهِ لنور الدين الف وخمسمائة درهم فاطلقهُ من الاسر وعاد الى طرابلس وفي تلك السنة تنصر من النصيرية القاطنين في الجبال المجاورة لطرابلس نحو ستين الفًا وضعف الملك بودوين الرابع وكف بصره فتخلى عن الملك وعهد بالوكالة الى صهره ريثما يشب ابنهُ القاصر على ان الصهر لم يكن كفوءًا لذلك فاقام رايموند كونت طرابلس وكيلاً وتقلبت الاحوال فنزعت الوكالة من رايموند فساءهُ ذلك جدًّا وانزوى في املاكهِ الخاصة بمدينة طبرية وفي سنة ١١٧٥ ابينما كان سائرًا الى بانياس لاقتهُ عند جبيل والمنيطرة جيوش الدماشقة تحت امرة شمس الدولة اخي صلاح الدين الايوبي المشهور فتواقعوا فيها غير ان الدائرة دارت على شمس الدولة ففر بنفر قليل واستولى رايموند على خيامهِ وامتعتهِ وفي سنة ١١٧٦ رجع فيلبس امير فلندرة الى زيارة القدس واتفق مع القومص امير طرابلس ومع البرنس صاحب انطاكية على محاصرة قلعة حماه وحاصروها اربعة اشهر ولما قدم صلاح الدين الى دمشق وبصرى وزحف بجيش كثير الى سواحل طرابلس ونزل في عرقا بين القومص صاحب طرابلس وبين فرسان الديوانية المتولين الحصون الشمالية لكيلا يقدر احدهم ان ينجد صاحبهُ ثم حاصر طرابلس وغارت جماعتهُ على ايالتها فقتلوا ونهبوا واحرقوا ثم امر مراكب مصر ان تسير الى محاصرة جزيرة ارواد فلما راى القومص ذلك ارسل يطلب الهدنة من صلاح الدين فهادنهُ ورجع الى دمشق ولقد تقدم ان القومص صاحب طرابلس كان قد اغتاظ من الافرنج لانهم نزعوا منهُ وكالتهُ وانهُ سار الى طبرية وفي سنة ١١٨٧ اتحد مع الاسلام وفي سنة ٥٨٢ ه جمع

السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضايق الكرك خوفًا على الحجاج من صاحب الكرك وارسل فرقة اخرى مع ولدهِ الملك الافضل فاغاروا على بلدة عكا وتلك الناحية وغنموا شيئًا كثيرًا ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتاخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعتهِ فارسل الفرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونهُ عن موافقة السلطان ويوبخونهُ فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان

ولما فتح السلطان مدينة طبرية اجتمعت الفرنج ملوكهم بفارسهم وراجلهم وساروا الى السلطان فركب السلطان من عند طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الاخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما راى القومص شدة الامر حمل على من قدامهُ من المسلمين وكان هناك تقي الدين صاحب حماه فافرج لهُ وعطف عليهم فنجا القومص ووصل الى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبنًا ولما مات القومص صاحب طرابلس ارسل بوهيموند برنس انطاكية ابنهُ اميرًا عليها فتهادن مع صلاح الدين لما حاصرها سنة ١١٨٨

وفي سنة ١١٩٢ وقعت الهدنة بين الافرنج وصلاح الدين فكانت طرابلس من الاملاك التي اخذها الافرنج وسنة ١١٩٨ ارتقى البابا اينوشنيوس ذرى الرئاسة فارسل بطرس كردينا ل دير القديس مارثلوس الى الامصار الشرقية فاجتمع بهِ في طرابلس البطريرك ارميا العمشيتي و يوسف اسقف دير ماراسيا وتاودورس اسقف كفرفو وغيرهم من كهنة وشمامسة نحو سبعين نفسًا فتلوا صورة اقرارهم بالطاعة للبابا وخلفائهِ و بعض العقائد الدينية المحتوية معتقدات الشرقيين وجحد حينئذٍ بعض الملكية في طرابلس اعتقاد الروم بحضرة الكردينا ل المذكور

وسنة ١٢٠٣ اجتمعت الافرنج في حصن الاكراد وطرابلس والمرقب

والسواحل وتواقعوا مع الملك المنصور صاحب حماه مرتين فانهزموا هزيمة قبيحة وفي سنة ١٢٠٧ زحف الملك العادل بجيشهِ الى عكاء وحاصرها فصالحهُ صاحبها و بذل لهُ مالاً واطلق الاسرى ثم نزل برج الاكراد وفتح برج اغناز ثم نازل طرابلس ونصب عليها المنجنيقات وجاز العساكر بلادها وقطع قناة الماء عن المدينة ثم نازل سنجار وضربها بالمنجنيقات فاخذها ثم رجع الى بحيرة قدس في ظاهر حمص وارسل الى الملك المعظم عيسى يحثهُ على قتال الافرنج ونزل على الطور وبني هنالك قلعة منيعة انفق عليها اموالاً كثيرة واما امير طرابلس فهادن الملك العادل عند بحيرة حمص وفي سنة ١٢١٨ مرض ملك قبرس في طرابلس مرضًا خطرًا ومات باثره فيها وما زالت طرابلس على هذا النمط من السكون والحركة مشاركة بقية انحاء المملكة الصليبية باضطرابها حتى دهم تلك المملكة جيش الملك الظاهر بيبرس البندقداري المصري سنة ١٢٦٤ حيث خرج بعساكره من الديار المصرية ففتح القليعات وعرقا وحلبا وحاصر طرابلس فانحدرت اليهِ الرجال من قمم الجبال انحدار الماء المنهمر فهزموه ورحل عنها وفي سنة ١٢٦٦ عاد الملك الظاهر الى نواحي طرابلس وقطع اشجارها وغوّر انهارها وضرب اربع وعشرين قرية من اعمالها فانسكبت عليهِ الرجال من تلك الجبال ففر الى حصن الاكراد ومنهُ الى انطاكية فنازلها بغتةً و بعد اربعة ايام من حصارها ملكها بالسيف وقتل اهلها وسبي ذرياتهم واحرق كنائسهم وغنم اموالاً جزيلة واطلق من فيها من الاسرى وكان البرنس يومئذٍ في طرابلس ثم استولى الملك الظاهر على حصن بغراس بالامان

وقد ذكر مكسيموس مونز وند بتاريخ الصليبيين المترجم الى العربية ان كونت طرابلس كان متوليًا انطاكية وقد فرمنها عند ما اوشكت السقوط بايدي الفاتحين وان الفاتح بعث بتحرير الى ذلك الامير يخبره بهِ بفتح مدينة انطاكية وفي سنة ١٢٧٠ اتى الملك الظاهر الى طرابلس وانعقد الصلح بينهُ

وبين البرنس صاحبها الى عشر سنين وفيها كتب ابن ابي الجيش بامضاء الامير جمال الدين حجي بن محمد والامير زين الدين علي كتاباً الى البرنس صاحب طرابلس الافرنجي يستخبرهُ عن اشياء توجب وقوع الدرك عليهما اذا وقف السلطان عليهِ واحتال ابن ابي الجيش حتى اوصل جواب البرنس الى الملك الظاهر فلما بلغهُ حنق من الاميرين وامر بالقبض عليهما فسجنا وكان الملك الظاهر قد اقطع الامير جمال الدين سنة ١٢٦٠ بعض قرى ومزارع في لبنان

وسنة ١٢٧٣ سارت العساكر الاسلامية من نواحي طرابلس الى فتح جبة بشري فحاصروا اهدن اربعين يوماً حصاراً شديداً فملكوها ونهبوها وقتلوا وسبوا ودكوا القلعة التي في وسطها والحصن الذي على راس الجبل ثم انتقلوا الى بقوفا ففتحوها وقبضوا على اكابرها واحرقوهم بالبيوت ونهبوا وسبوا وهدموها الى الارض وضربوا اهل حصرون وكفرصارون بالسيف وشتتوهم وانتقلوا الى الحدث فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج ماء فقتلوا الذين لحقوهم واخربوا القرية وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيهِ عسكراً واميراً عليهم وبعد زمان مستطيل اخذوهم بالامان وضربوا فيهم السيف ثم هدموا جميع الاماكن العاصية وحاصروا قلعة حوقا التي قبالة الحدث ولما لم يقدروا على فتحها اشار عليهم ابن الصبحا من كفرسغات ان يحولوا الماء الذي فوق بشري فحولوه فملكوها بقوة الماء لانها داخل صخر وانعموا على ابن الصبحا بلبس عمامة بيضاء وان يقتني عبيداً لخدمتهِ

قال البطريرك الدويهي في تاريخهِ انهُ في سنة ١٢٨٧ توفي بيومند البرنس صاحب طرابلس الذي بنى دير البلمند فوقها للتنزه . على ان ما نعلمهُ عن هذا الدير لا يطابق نص هذه الرواية لانهُ لم يذكر في مصنفات موءرخي الصليبية مع كل تطويلهم باخبار تلك الحروب والاقرب الى التصديق ان البلمند مصحف بل مونت اي الجبل الظريف كما ان القلمون مصحفة عن

كلامونت اي سفح الجبل
وعلى رواية البطريرك ان بناء الدير المذكور انما كان في اواخر الجيل الثالث عشر والحال انهُ يوجد على مائدة الهيكل في كنيسة البلمند الجديدة تاريخ سنة ١١٤٣م فضلاً عما يقال من ان الدير المذكور كان في اصلهِ بقايا قصر عظيم استمرت اثاره الى عهد قريب من ايامنا حيثما قال لي بعض الرهبان انهم اشتركوا بهدمهِ ولم تزل بعض حجارهِ ظاهرة عند الباب وليس في قربهِ قرية باسمهِ كما روى بعضهم وقد رأيت في الدير كراسة قديمة بخطوط كثيرة تدل على ان افتتاح الدير مجدداً كان سنة ٧١١١ لآدم وهي تعادل ١٦٠٣ للمسيح

وبلغ الملك قلاوون موت امير طرابلس فسار بالجيوش المصرية وكتب الى حسام الدين نائب دمشق ان يوافيهُ بالجيوش الشامية لفتح طرابلس فنازلها ونصب عليها المنجنيقات من جهة الشرق وشدد عليها الحصار والقتال شهراً وثلاثة ايام واقتحم عسكر الاسلام البحر وعبروا بخيولهم سابحين الى جزيرة سن طماس التي تجاه المدينة فقتلوا جميع من فيها من الرجال واغتنموا المال وسبوا النساء والصبيان وفتح الملك قلاوون المدينة بالسيف واما المردة الذين قدموا من الجبال لنجدتها فقتلوا كثيرين من الاسلام ولما افتتحها الملك قلاوون امر بقتل من فيها فقتل اكثر رجالها وسبيت ذراريهم وغنم العسكر غنيمة عظيمة ولم ينج من الافرنج الا القليل ثم امر بحرقها وهدمها الى الارض ثم بنيت على نصف فرسخ منها في وادي الكنائس وجعلوا الكنائس جوامع وتوطنوها وكانت مدة ولاية الافرنج عليها مائة وثمانين سنة

وكتب ابو الفدا في تاريخهِ عن سنة ٦٨٨ المعادلة سنة ١٢٨٩ قال في هذه السنة في اول ربيع الاخر فتحت طرابلس الشام وصورة ما جرى ان السلطان الملك المنصور خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة وسار الى الشام ثم سار بالعساكر المصرية والشامية ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الاول من هذه السنة ويحيط البحر بغالب

هذه المدينة وليس عليها قتال في البر الا من جهة الشرق وهو مقدار قليل ولما نازلها السلطان نصب عليها كثيرًا من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاث رابع ربيع الاخر من هذه السنة ودخلها العسكر عنوة فهرب اهلها الى الميناء فنجى قليلهم في المراكب وقتل غالب رجالهم وسبيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وحصار طرابلس هو ايضًا مما شاهدته وكنت حاضرًا فيه مع والدي الملك الافضل وابن عمي المظفر صاحب حماه ولما فرغ المسلمون من قتل اهل طرابلس ونهبهم امر السلطان فهدمت ودكت الى الارض وكان في البحر قريبًا من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس الميناء فلما اخذت طرابلس هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت اليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد الى الديار المصرية واعطى صاحب حماه الدستور فعاد الى بلده وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس في سنة ثلث وخمسمائة في حادي عشر ذي الحجة فبقيت في ايديهم الى اوائل هذه السنة اعني الى سنة ثمان وثمانين وستماية فيكون مدة لبثها مع الفرنج مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور .اه

ولقد كتب المؤرخ ميشود الفرنساوي عن هذا الحصار شرحًا طويلاً ملخصهُ ان سلطان القاهرة بعد ان استولى على كل البلاد التي في جوار طرابلس راى ضرورة فتحها فلم يراع عهود الهدنة ولا غيرها بل تقدم الى الحصار بجيش عرمرم ولم يقدم احد من امراء الافرنج لنجدة البلدة لان روح الشقاق كانت متسلطة بين اكابر الافرنج واعيانها حتى ان فرسان الهيكل اتحدوا مع صاحب

جبلة ليسلموا جميعًا مدينة طرابلس ليد الفاتح وان المؤلف ميشود راى رسالة حررت بامر كوليوم دو بوجو صاحب طرابلس عن اعتراف كاي صاحب جبلة بانهُ كان مزمعًا ان يسلم البلدة ليلاً فجاء قلاوون واقام على البلدة سنة عشر الف وكان يحاصرها برًا ويرمي المحصورين بالنار اليونانية ودام الحصار خمسة وثلاثين يومًا ودخل المسلمون المدينة عنوة وبدأوا ينزلون بسكانها العصاة ويلاً وهوانًا حتى قتلوا سبعة الاف منهم واستعبدوا النساء والاولاد وهرب بعضهم لجزيرة قريبة من البر يقال لها سان نقولا (ابو الفداء يدعوها سان طوماس) فسار المماليك اليهم وقتلوهم. اه

وقد خالفهُ صاحب اخبار الاعيان بقولهِ ان المردة انحدروا الى طرابلس وانجدوها وكما ان المورخ ميشود يطنب بوصف مدينة طرابلس وحالها كذلك قال ابو الفداء ك ٤ وجه ٢٥ في ذكر فتوحات السلطان قلاوون قال فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب وطرابلس التي لم يجسر احد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض اليها لحصانتها. انتهى

ولما فتحت المدينة سر الملك قلاوون بالفتح جدًا فهنأتهُ الشعراء ومن ذلك ما قالهُ مجد الدين الخيمي

هنيئًا ايها الملك الهمام ... بنصر لا يريم ولا يرام
نزلت على طرابلس بجيش ... فدار لثغرها منهُ لثام
وكان الدوح خيم في حماها ... فزال وعرشت فيها الخيام
وما زال الحمام ينوح فيها ... الى ان صار موضعهُ الحمام
وكانت قد علت وسمت فظنت ... بان النيل منها لا يسام
بسور قد اطل على الثريا ... وصار مقصرًا عنهُ الغمام
مرام في السماك لها مرام ... فما ان للسهام لها سهام
فمذ قابلتها سجدت وخرت ... ولكن فاتها منك السلام
تعلقت الرجال بها الى ان ... تعالى الجيش وانحط القتام

ولو علموا باخذكها سريعًا　　لقاموا للفرار وما اقاموا
وظنوا انهم قومٌ عظام　　فما هم في جوانبها عظام
حسمت مواد اهل الشرك طرًّا　　وقام بعون نصرتك الحسام

وكانت طرابلس قد رجعت الى الدولة المصرية الاسلامية وكان قد تولاها رجل يقال لهُ سندمر ومع ان ميشود يذكرانها فقدت كل حصانتها وقوتها نرى انها كانت حتى ذلك الحين نجدة لجيوش الدولة التي خضعت لها قيل ان الملك محمد الناصر الذي خلف قلاوون امر نائب دمشق وسندمر نائب طرابلس وغيرها بمحاربة كسروان فلم تنجح تلك التجريدة كل النجاح واستمرت احوالها زمانًا على هذا المنوال وقد ذكرها ابو الفداء في تاريخ سنة ٧٤٤هـ الموافقة سنة ١٣٤٣ بقولهِ ان عسكرين من حماه وطرابلس تجهزا الى بلاد سيس لتمرد صاحبها كنداصطيل الفرنجي ومقدم عسكر طرابلس الامير صلاح الدين يوسف الدواتدار وان هذه الحملة عادت من بلاد سيس بلا طائل لخيانة اقسنقر وارتشائهِ من اهل اذنة وفي سنة ٧٤٥هـ في رمضان اتفق سيل عظيم بطرابلس هلك فيهِ خلق منهم ابناء القاضي تاج الدين بن محمد البارنباري كاتب سرها وكان احد الابنين الفريقين ناظر الجيش بها والاخر موقع الدست ورق الناس لابيهما .اهـ

وفي سنة ١٣٤٩ سار الامير سيف الدين الجيبغا نائب طرابلس الى دمشق ومعهُ جملة امراء وبيده مرسوم فقبض على سيف الدين ارغون شاه ليلاً وهو نائم فضبط اموالهُ ومضى بهِ الى طرابلس فكتب امراء دمشق الى الملك الناصر ناصر الدين يعلمونهُ بما كان فاجابهم لا علم لي بما حدث وان المرسوم الذي بيده مزوَّر فجمع نائب صفد العساكر بطلب سيف الدين الجيبغا فقبضوا عليهِ في مدينة طرابلس واتوا بهِ الى دمشق مهانًا وقتلوهُ وعلقوا جثتهُ وجثة من كان معهُ على الخشب وتولى النيابة بعده الامير ايتمش الناصري

وفي سنة ١٣٥١ خرج امير طرابلس عن طاعة الملك صلاح الدين

مع جماعة من الامراء واتوا الى ملك التتر فاصحبهم بعسكر فدهم دمشق ثم فرّ عنها لما قدم صلاح الدين وقبض على النواب الذين عصوهُ وقتلهم وفي سنة ١٣٥٦ كتب ابن بطوطة المغربي من طنجر رسالة في سياحتهِ المشهورة وقد ذكر طرابلس الشام فقال: ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والاشجار ويكنفها البحر بمرافقهِ العميمة والبر بخيراتهِ المقيمة ولها الاسواق العجيبة والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه نحو اربعين من امراء الاتراك واميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنهُ منها بالدار المعروفة منها بدار السعادة ومن عوائدهِ ان يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معهُ الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزلهِ ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديهِ حتى يدخل منزلهُ وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل امير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل الخ

وفي سنة ١٣٦٢ خال لبطرس اللوسنيا ني ملك قبرس ان يثير حرباً جديدة لاستخلاص القدس من الاسلام فدعا اوروبا. على ان مسعاه لم يصادف كل القبول في ضواحيها فاستنجد فرسان رودس وجمهورية البندقية فنجدتاه واتى الثغور الشامية فاخذ طرابلس واحرقها وطرطوس واللاذقية وغيرها من فينيقية على ان سلطتهُ لم تدم لانهُ لم يحسن السياسة ولم تثبت ولايتهُ فيها بل استمرت طرابلس وغيرها تحت حكومة الاتراك الجراكسة كما رواه ميشود وسنة ١٣٦٥ كتب نائب دمشق الى نائب طرابلس (نائب دمشق الامير علي الماردیني وامير طرابلس منجك امرها الملك الناصر ناصر الدين سنة ١٢٥٣ حينما اتفق القوم على ارجاعهِ الى سرير السلطنة بعد اخيهِ الصالح

صلاح الدين) ان يقبض على البطريرك جبرائيل الحجولاوي الماروني فقبض النائب المذكور على اربعين رجلاً حجولاويًا وامرهم باحضارهِ فاحضروهُ جبرًا عنهم فامر بحرقهِ خارج طرابلس عند جامع طينال المعروف بطيلان

وفي سنة ١٤٠٠ ادهم سوريا البلاء الماحق بقدوم تيمور الاعرج المعروف بتيمورلنك صاحب التتر ولما دنا من حلب تجمعت فيها نواب المدن السورية ومنهم المقر السيفي الشيخ الخاصكي نائب طرابلس بعساكره الوافرة وعقد مع بقية النواب مشورة لملاقاة العدو او الحصار ولما اخذت حلب أُسر الخاصكي مع النواب ثم نجا معهم خلاسودون نائب دمشق فانهُ كان قد قضي عليهِ اما طرابلس فلم تمسها ارجل ذلك الفاتك لان اسراعهُ لمحاربة المرحوم السلطان بايزيد العثماني اجبره على كف ويلاتهِ عن مدن الشام

وسنة ١٤٢٤ قدمت مراكب الافرنج الى ناحية مصر واخذوا مركبًا اسلاميًا كبيرًا فامر الملك الاشرف بتجهيز عمارة مراكب في مينا طرابلس وارسل ثلاثة امراء من مصر وامير دمشق وامير حلب وامير صفد مع امير طرابلس باربعين مركبًا كبارًا وصغارًا الى قتال ملك قبرص الافرنجي فتوجهوا اولا الى الماغوصة ثم الى الملاحة براس العجوز فالتقوا باثني عشر مركبًا و بعد قتال شديد فازوا بالنصر

وسنة ١٤٢٩ قدم البادري فراجوان ورفاقهُ الى مينا طرابلس بالتثبيت لبطرك الموارنة كالعادة فصار فرح وهرج بالمدينـــة وبرها فقبض نائب طرابلس على فراجوان ورفاقهِ وهماً منهُ ان ملك الروم لم يدخل بلاد الافرنج لانعقاد المجمع بل لاستخلاص القدس ومعاملتها من يد ملك مصر فلما بلغ بطرك الموارنة ذلك ارسل اناسًا فكفلوهم فاطلقهم النائب فتوجهوا الى دير ميفوق وسلموا التثبيت للبطرك وتوجهوا الى بيروت فارسل النائب يطلبهم ولما لم يحضروا ارسل فنكب الدير وقبض على الرهبان والكفلا ونهب بيوتهم واحرقها وجرمهم وقتل بعضًا منهم وذكر ان البطريرك يوحنا الحاجي الماروني

هو الباعث البادري فراجوا ان الى البابا با لتماس التثبيت وانهُ برجوعهِ صار القاء القبض عليهِ وذلك سنة ١٤٤٠

واستمرت طرابلس بيد المصريين الجراكسة الاتراك حتى انقرضت دولتهم بحسام الغازي المرحوم السلطان سليم الاول العثماني حيث جاء سنة ١٥١٥ لقتال الغوري قانصوه ملك مصر والشام لنجدتهِ ملوك الفرس في حرب العثمانيين وكانت النفرة واقعة بين الملك قانصوه و بين قائدي جيشهِ كيرو بك والغزالي فكتبا الى السلطان سليم يستعطفان خاطره فوعد احدهما بولاية الشام والاخر بولاية مصر وكان الغزالي يتولى دمشق فلما وصل قانصوه الى بلاده امره بالاهبة للمسير فكتب الغزالي الى الامير فخر الدين بن الامير عثمان المعني والي الشوف والى الامير منصور الشهابي والي وادي التيم يستقدمهما بعسكرهما فاتيا بمن معهما وانضما الى الغزالي نجدةً لجيش قانصوه وساروا الى مرج دابق عند حلب فالتقاهم السلطان سليم واشتبك القتال ففر الغزالي وكيرو بك بمن معهما من الميمنة الى جنود السلطان سليم وتبعهم الامراء فخر الدين ومنصور ومن معهما من الميسرة فبقي الملك قانصوه الغوري في القلب ببعض الرجال فوهت عزيمتهُ سيما لما راى ان نواب دمشق وطرابلس وصفد وغيرهم قد اصبحوا يخبطون بدمائهم فغضب كثيرًا وسقط مغشيًا عليهِ فمات وانتصر السلطان سليم فاستولى على ما تركهُ الغوري واتى حلب فدخلها وامن اهلها وخطب لهُ خطيبها ولقبهُ بخادم الحرمين فسر السلطان وخلع عليهِ واقام في حلب وعدل في امورها واحكامها واتى حماه وحمص فرتبهما ثم اتى دمشق فخرج اهلها الى لقائهِ طالبين الامان فاجابهم الى ذلك وضبط حصونها ومهد امورها وقلد الامير فخر الدين امور الشام وخلع عليهِ فتقدم نحو مصر فلما دخل الى غزه عدل الى زيارة القدس الشريف فزاره ورجع الى عساكره اما الجراكسة فلما علموا بموت قانصوه الغوري اقاموا طومان باي الدوادار ملكًا ولقبوه بالملك الاشرف فجمع العسكر وخرج الى الريدانية ونصب المدافع لقتال العساكر

العثمانية اما السلطان سليم فارسل جواسيس الى معسكر الملك طومان باي وزحف بعد كشف احوال عدوه من وراء الجبل المقطم فالتقاه طومان باي والجراكسة وقاتلوه قتالاً شديداً على انهم تقهقروا وفاز السلطان سليم بالنصر التام وقبض على طومان باي وفقد من عسكر السلطان سليم جمهور غفير منهم سنان باشا وزيره الاكبر واسف السلطان عليهِ ودخل مصر بموكب حافل وامر بصلب طومان باي على باب زويلة . وبموتهِ انقرضت دولة الاتراك السلاجقة واستولى السلطان على سوريا وضمها الى البلاد العثمانية واستعمل الغزالي في الشام الا ان طرابلس و بعض الثغور والمدن الشمالية لم تكن من ولايتهِ بل كانت عمالات اوحدها وسنة ١٥٢٨ وقع القتال بين اولاد شعيب اهل عرقة و بين الامراء اولاد سيف التركمان فنزح السيفية من بلاد عكار الى الباروك والتجأوا الى الامير قرقماز فارسل ثلاثمائة مقاتل مع السيفية لقتال اهل عرقا فدهموهم وقتلوهم وتولوا بلاد عكار

فحنق محمد اغا شعيب والي طرابلس على الامير منصور (العساف) وطلب منهُ مالاً فارسل لهُ الامير منصور عبد المنعم وولدي حبيش الشيخ يوسف والشيخ سليمان ونحو خمسمائة مقاتل فكمنوا عند حارة الحصارنة وعندما دخل عبد المنعم وولدا حبيش المحاسبة في جامع طيلان قدام القاضي وثب عبد المنعم ورفاقهُ على محمد اغا وقتلوه مع ابنهِ ثم اصلحوا امورهم مع القاضي فافتى لهم انهم ابرياء من قتلهِ

وفي سنة ١٥٧٠ احدثت فتنة بين المقدم رزق الله واخيهِ عشينا مقدمي بشرة لان عشينا كانت اعمالهُ سيئة فوبخهُ اخوه رزق الله فانتقل عشينا الى حصرون واخذ يتهدد اخاه رزق الله بالقتل ثم تصالحا ورجع عشينا الى بشره ولم يكف عن اعمالهِ السيئة فقدمت فيهِ السعاية الى نائب طرابلس انهُ نهب قافلة عند المسقية وفي ذات يوم دعاه اخوه رزق الله اليهِ الى البرج حيث كان قد اقام لهُ كميناً من اهالي الضنية ولما دخل عشينا الى البرج وثبوا عليهِ وقتلوه اما صاحب القافلة فطلب اسلابهُ من المقدم رزق الله فلم يحصل لهُ اياها فانكاد من

ذالك و بعد ايام ذهب المقدم رزق الله الى طرابلس لامر ما فرصده صاحب القافلة حتى دخل الحمام فارشى حارس الثياب وختم طرف عمامة المقدم بالعلامة التي كانت على قماشهِ ولما خرج المقدم من الحمام امسكهُ بيده وقال لهُ يامقدم ايحل لك سلب مال الاسلام فاجابهُ منكرًا فاخذه الى القاضي وادعى عليهِ مستشهدًا بالعلامة التي على عمامتهِ فامر القاضي و والي المدينة ان يجروه باذناب الخيل فجروه حتى مات

وفي سنة ١٥٧٩ تقدمت الشكوى للدولة العلية على الامير منصور العساف لقتلهِ محمد اغا شعيب حاكم طرابلس وامراء فتقا وعبد الستار وغيرهم من الاكابر فاصدر السلطان امرًا بان تكون طرابلس مقر وزير فتنكسر بسطوتهِ شوكة ابن عساف فتولاها يوسف باشا ابن سيفا التركماني غير ان زمان ولايتهِ لم يكن طويلاً لانهُ في سنة ١٥٨٤ كانت رسل السلطان مراد سائرين بخزينة الاموال الاميرية في جون عكار الى اسلامبول فوثب عليهم قوم ونهبوا تلك الاموال فتقدمت الشكوى الى السلطان فابرز امرًا لجعفر باشا الطواشي ان يجمع العساكر و يقبض على يوسف باشا فجمع وسار بهم الى عكار فلما بلغ يوسف باشا ذلك فر الى البرية فحرق جعفر باشا عكار وكان جعفر باشا قد غدر بثلاثة من امراء الدروز فاعتقلهم واخذهم الى دار السعادة

وقبض على رجالهم فقتل نحو خمساية منهم وبرز الامراء ذواتهم في الاستانة فاطلق سبيلهم وعادوا الى البلاد بمناصب منها ان الامير محمد بن الامير منصور العساف تقلد ايالة طرابلس عدا المدينة فاستقر في ولايتها بضع سنين حتى قتل سنة ١٥٩٠ في المسيلحة وذلك انهُ جند عسكرًا لقتال يوسف باشا سيفا في عكار ليستحصل المال الاميرى الذي كان مكسورًا عنده فاحس يوسف باشا بذلك واقام لهم كمينًا بين البترون والمسيلحة فوثبوا عليهِ وقتلوه وانقرضت بهِ سلالة العساف وسنة ١٥٩٣ تزوج بامرأة محمد العساف الذي قتلهُ واستولى على املاك آل عساف وبعث بامرأته الى طرابلس وسنة ١٥٩٨ وقيل سنة ١٥٩٥ كانت

الواقعة بين الامير فخر الدين قرقماس المعني و يوسف باشا في نهر الكلب بسبب ولاية كسروان فانكسر يوسف باشا وتشتت عسكره وقتل ابن اخيهِ الامير علي وتولى الامير فخر الدين بيروت وكسروان سنة واحدة ثم تركهما لهُ برضاه وعاد الى الشوف وسنة ١٦٠٢ سار يوسف باشا الى بلاد بعلبك فقاتل الحرافشة لانهم دهموا جبة بشري فكسرهم ونهب بلادهم واحرق حدث بعلبك وعاد غانمًا وكان يوسف باشا كثير الاعداء داخلاً وخارجاً بحيث كانوا لا يتركون لهُ راحة وكان منهم علي باشا جانبلاط والي حلب الا ان عداوتهما لم تظهر قبل اشهار علي باشا عصيانهُ على الدولة العثمانية ومن اعداء يوسف باشا ايضًا الامير فخر الدين المعني قاتلهُ سنة ١٦٠٥ عند جبلة فانكسر يوسف باشا وسنة ١٦٠٧ جرت حروب شديدة بين يوسف باشا و بين علي باشا جانبلاط فاستنجد علي باشا بالامير فخر الدين فانجده والتقاه بعسكره الى ارض عراد في حماة ووقع الحرب بينهما فانكسر يوسف باشا وتبع الامير فخر الدين اثره ولم يمكنهُ من الدخول الى طرابلس فانهزم بحرًا الى بلاد حارثة فاغاثهُ الامير احمد طرباي وارسلهُ الى دمشق فلما بلغ علي باشا ذلك ارسل لهُ عسكرًا وكتب الى الامير فخر الدين يستنجده فانجده وحاصره يوسف باشا في دمشق ولما ضاق بهِ الحال دفع لعلي باشا مائة الف غرش ليرضى عنهُ فقبلها فخصص علي باشا الامير فخر الدين بشيء منها فلم يقبل ثم خرج يوسف باشا الى حصن الاكراد بالامان ولما تولى علي باشا حلب ومرق من طاعة السلطان احمد ارسل عليهِ عسكرًا كان يوسف باشا سرداره فالتقاهم علي باشا بثمانين الفًا فانكسر وفتحت عساكر السلطان حلب ورجع يوسف باشا الى عكار فائزًا

وفي سنة ١٦١٢ مات رعد بن خاطر الحصروني مسموماً من امراتهِ وكان حاكماً على جبة بشري فاقام يوسف باشا سيفًا والي طرابلس شلهوب الحسيناني حاكماً وكان لرعد المتوفى ثلاثة اخوة نعمة وداود وجرجي اولاد خاطر الحصروني وكانوا يزاحمون شلهوب في الحكومة فسعي المذكور مع الحاج

سليمان الملكي كاتب ديوان طرابلس عند يوسف باشا فقبض الوزير على نعمة وداود وسجنهما وطفق يعدهما بولاية الجبة حتى استجر منهما مخلفات والدهما فضعفت قوتهما فامر بحملهما ليلاً الى قبور الغرباء فخنقوهما وزجوهما في البئر الازهري اما المقدم شلهوب حاكم الجبة الذى سعى بقتلهما فقبض على اخيهما جرجي وغرقهُ عند راس النبع في المدينة وبقي شلهوب مقدماً على الجبة الى ان قتل وسنة ١٦١٨ ولت الدولة العلية عمر باشا على طرابلس وامرتهُ باستحصال المال الاميري من يوسف باشا سيفا فكتب عمر باشا يستنجد بالامير فخر الدين المعني فلباه واتى الامير بعسكره الى تولا وقيل قبولا في الضنية وعرف يوسف باشا بما كان ففر ليلاً الى قلعة الحصن فغنم الامير مالهُ واحرق داره ثم حصره فتضايق يوسف باشا واستنجد بوالي دمشق ووالي حلب فانجداهُ وقدما الى حماه وكتبا الى عمر باشا والامير برفع الحصار فلم يقبلا حتى دفع لهما ماية الف غرش وكتب يوسف باشا صكاً للامير فخر الدين بمائة الف غرش وكتب بين يوسف باشا والامير صك ابراء عام فارتفع الحصار ثم ان يوسف باشا عاد الى ولايتهِ في طرابلس وسنة ١٦١٩ ارسل الامير فخر الدين مدبره الى دمشق ومعهُ عشرة الاف قرش ملتمساً ان تكتب عليهِ ايالة طرابلس فلم يقبل وزير دمشق بذلك بل ولى عليها حسين باشا الجلالي ثم امر الوزيران تهدم قلاع طرابلس التي بيد يوسف باشا سيفا وتضبط ارزاقهُ فلما بلغ يوسف باشا ذلك ارسل ولده الامير حسن الى الامير فخر الدين يسترضيهِ فالتقاه الامير فخر الدين بالبشاشة وتراضيا فانعقد نكاح الامير علي المعني على كريمة الامير حسن ونكاح الامير بلك اخيهِ على كريمة الامير علي المذكور ثم دخل مدبرو يوسف باشا على علي باشا ودفعوا لهُ ثلاثين الف قرش وللدولة مائتي الف ذهب لتقرير البلاد على يوسف باشا فتقررت عليهِ وعزل عنها حسين باشا الجلالي ثم تولى حسين باشا البستانجي البلادة فارسل الباشا مصطفى اغا الى الامير فخر الدين يطلب اليهِ ان يتحول على يوسف باشا بالمال فنهض الامير للتحويل

عليهِ فنزل برج النحصاص خارج طرابلس فانتقل يوسف باشا الى جبلة وسار اليهِ ولده الامير حسن وباع برضى والده الى الامير فخر الدين جميع متخلفات آل عساف التي في بيروت وانطلياس وغزير فلما تسلم الامير فخر الدين صك المبيع كتب الى يوسف باشا يطلب منهُ مال السلطان المتحول فيهِ فامتنع يوسف باشا عن ذلك واستنجد بسليمان باشا والي دمشق وبعربان حمص والبقيعة وتركمانها واستنجد الامير فخر الدين بالامير علي الشهابي فنهض لنجدتهِ فحاصر الامير فخر الدين طرابلس وكان معهُ من السكمان ثمانمائة مقاتل فملكها ثم وضع الحصار على القلعة فلم يمكنهُ افتتاحها ثم نازل الابراج وقاتل حاميتها اما سليمان باشا فارسل مائة رجل للصلح بين الامير فخر الدين ويوسف باشا وفي غضون ذلك جاء العربان والتركمان لنجدة يوسف باشا فانكاد الامير فخر الدين من ذلك وخرج اليهم وتواقع الفريقان عند نهر البارد فقتل من الجانبين خلق كثير وفي اثناء ذلك قدم مصطفى اغا قبوجي باشي ومعهُ خلعة للامير فخر الدين وكتاب برفع الطلب عن يوسف باشا وجاءت خمس سفن حربية لاسعاف يوسف باشا فلما بلغ الامير ذلك قام عن طرابلس ورجع الى بلاده مظهرًا قبول ان الدولة العثمانية لم تأمر برفع الطلب عن يوسف باشا الا لانهُ اعرض لها ان الامير فخر الدين المعني لا يقصد تحصيل المال بل امتلاك القلعة واستشهد بذلك حصاره لها ومن حوادث هذا الحصار انهُ بينما كان بعض فرسان الامير يغسلون ثيابهم عند النهر خرج اليهم فرسان الابراج واختطفوا افراسهم فاقتتلوا وعندها امر الامير بهجوم ثمانمائة من السكمان على المدينة ففعلوا ولما دنوا من المدينة اطلق عليهم سكمان الابراج الرصاص فقتل منهم اربعة غير ان احد اولئك الفرسان تسلق السور ونزل الى المدينة وتبعهُ تسعة من رفاقهِ فهرب بنو حماده محافظو البلد ودخلوا القلعة وتحصنوا فيها واتى رجال الامير فحاصروا دار حسين باشا سيفا وهي بقرب القلعة فقتل من الحاصرين اربعة احدهم قايد ودخل الامير البلدة وشدد

حصار القلعة على حسين باشا الذي كان قد تحصن فيها واستحضر الامير مركبين فرنساوية من صيدا واقام فيها خمسين رجلاً من السكمان ليمنعوا دخول الميرة من البحر الى البلد وظن حسين باشا يوماً ان الامير في ايوان الدار فاطلق على المكان ثلاثة مدافع فانهدم الترس ولم يكن الامير حاضراً فلما علم بذلك قال انهم يريدون هدم دارهم فانا اولى منهم بذلك فخرج منها وهدمها الى الارض وروى بعضهم ان الامير موسى الكردي وهو من الذين اسكنهم المرحوم السلطان سليم العثماني في الكورة ويعرفون بامراء راس نحاش الاكراد اتى دار آل سيفا وهو حينئذٍ منزل الامير فخر الدين فظهر للامير انهُ آتٍ لتوسط الصلح بينهُ وبين حسين باشا ورآه في الايوان فاخبر الباشا وجرى ما ذكر على ان بعد ذلك جاء المامور السلطاني موءذناً برفع الحصار عن طرابلس وكان الباشا قد تعهد بدفع المال بعد ثلاثة ايام من انصراف الامير عنهُ فلما رفع الحصار تهاون الباشا في دفع المطلوب وما عتم ان تصالح يوسف باشا والامير فازوج الباشا ابنهُ من ابنة الامير

وفي سنة ١٦٢٢ وقيل ١٦٢١ عزل يوسف باشا عن طرابلس وتولاها عمر باشا الكتانجي فكتب الخلف الى الامير فخر الدين ان يجده ليحصل لهُ من يوسف باشا المال الاميري المكسور عنده فاجابهُ الامير الى ذلك وبعث اليهِ مملوكهُ سرور اغا صاحب كسروان فسر الباشا بذلك وانعم على الامير بولاية جبيل والبترون وبشرة والضنية وعكار بشرط ان يدفع لهُ سلفاً عشرة الاف غرش فقبل الامير وزاده اربعة الاف غرش خدمة والف غرش لاحد اصحابهِ وارسل فجمع اصحابهُ وسار الى طرابلس فخرج عمر باشا والقاضي واعيان المدينة الى البحصاص بموكب عظيم وفي اليوم الثاني دعاه عمر باشا للوليمة ودعا ايضاً كثيرين من الاعيان وخلع عليهِ وعلى الامير محمد الشهابي والامير بلك بن يوسف باشا سيفا وكل المناصب ثم ان الامير خرج الى مقام البداوي وهي بركة السمك الشهيرة واقام هنالك امداً يسيراً حتى وفدت الاوامر

السلطانية بتقرير ولاية طرابلس على يوسف باشا وسنة ١٦٢٢ وقع نفور بين مصطفى باشا والي دمشق والامير فخر الدين افضى الى اقتتالهما فجمع الوالي عشرة الاف مقاتل وسار بهم وبالامير يونس الحرفوش لقتال الامير فخر الدين وكان يوسف باشا سيفا والي طرابلس قد تجهز لنجدة والي الشام فسار بجنوده على طريق المسقية فعلم يوسف الشاعر مقدم البترون بما كان وكتب الى الامير يخبره فاخذ الامير بعض الرجالة وسار الى عيناتا من بلاد بعلبك ليمسك طريق الباشا على ان والي طرابلس لما علم بحركة الامير غيّر حركاته ايضًا وسار الى حمص عن طريق الحصن فورد هذا الخبر من بشري الى الامير ومن ثم وفدت جيوش مصطفى باشا والي دمشق الى خان ميسون فسار الامير اليها برجالهِ

وفي تلك الاثناء توفي حسين باشا ابن يوسف باشا سيفا في طرابلس فلما بلغ الخبر مسامع الامير فخر الدين بعث للحال رسولاً الى يوسف باشا يطلب ابنتهُ زوجة المتوفي وامر بحصار القلعة وكان في القلعة سكمان الباشا ولذلك تقاعد سكمان الامير عن حصارها للجنسية فحنق الامير منهم ونصب مضاربهُ في خندق القلعة الجنوبي تجاه السور فلما رات السكمان شدة اهتمامهِ وباسهِ تبعوهُ بخيامهم وشرع ببناء الاتراس والخنادق والاسوار ووضع جسورًا عالية وصناديق مملوّة ترابًا وغطى الخنادق بخشب وجعل ينتقل الى ان وصل الى حائط القلعة واخذ الفعلة ينقبون الحائط وهو لا يفارق المحاصرين اصلاً اما يوسف باشا فاجاب الرسول طالبًا من الامير مهلة شهر بحيث اذا رغب الامير ازواجها باخي المتوفي والاَّ اعادها الى ابيها بالامن والسلامة ثم جاء عمر باشا واليًا لطرابلس فمنعهُ يوسف باشا من الدخول اليها فاتى البترون وجاءها الامير بخمسين فارسًا فاجتمع الباشا بهِ واعطاهُ امرًا من الدولة بحثهِ على انجاده وكان الامير قد اذن لابنتهِ ارملة حسين باشا ان تتزوج الامير عمر لان يوسف باشا كان قد تعهد ان يدفع لهُ اثنى عشر الف غرش

ذلك لقاء الا انهُ يظهر ان يوسف باشا حنث بوعدهِ فالتزم الامير ان يجرد ضده العسكر بالاشتراك مع عمر باشا فبعث يوسف باشا رسولاً الى الامير يرجوه ان لا يسعف عمر باشا لان الدولة لاتلبث ان ترضى عنهُ وان يدفع للامير الاثني عشر الف غرش المتعهد بها فقبل الامير وانثنى راجعاً الى غزير فلما تاخر يوسف باشا عن اداء المال عاد الامير فنادى العسكر بالاهبة لحصار طرابلس نجدة لعمر باشا الا ان في اليوم الثاني جاء ثلثة من اخصاء الباشا ليدفعوا المال و يستعطفوا خاطر الامير الا انهُ اصر على عزمهِ بالمسير على طرابلس حتى تعهد لهُ الرسل بخمسة عشر الفًا نفقة عسكره وكتبت عليهم الى اجل مسمى فخلع الامير على كبيرهم واكرم من معهُ وكتب الى احد اخصائهِ في بعلبك ان يمضي الى طرابلس ليقبض المال من يوسف باشا و يجري عقد ابنتهِ على الامير عمر سيفا

وكان عمر باشا قد حصر يوسف باشا في قلعة الحصن ولم يتحول عنهُ حتى حرر على نفسهِ صكًا بخمسين الف غرش وصدرت الاوامر السامية بتحصيلهِ وابى يوسف باشا بعد ذلك تسليم البلدة الى عمر باشا فكتب عمر باشا الى الامير يعرض عليهِ نجدتهُ وانهُ يعطيهِ الصك الذي على يوسف باشا مع امر الدولة بتحصيلهِ فيكون نفقةً لعسكر الامير فقبل الامير ذلك وكتب الى يوسف باشا يخبره فاجاب الباشا بطلب مهلة نصف شهر الى ان ياتيهِ جواب الدولة بتقرير المنصب عليهِ والا فيسلم طرابلس لعمر باشا ولم تمض مدة طويلة حتى تقررت الولاية على عمر باشا فطلب من الامير المساعدة لاستلام طرابلس فجمع الامير رجاله ورجال اخيهِ وسار بالجميع وبعمر باشا حتى اتوا البترون وهنالك وفدت الاخبار بتقرير طرابلس على يوسف باشا فانثنى الامير راجعاً اما عمر باشا فطلب من الامير عسكرًا يوصلونهُ الى حماه

وفي سنة ١٦٢٤ انعمت الدولة العلية بولاية عرب لستان اي سوريا من حدود حلب الى القدس على الامير فخر الدين المعني ولقبتهُ بسلطان البر

وصدر في ذلك فرمان شاهاني جاء به السلاحدار فاتى الامير الى عكار فالتقاه يوسف باشا سيفا احسن ملتقى فطلب منهُ المال تادية الخمسين الف غرش التي احالهُ بها عليهِ عمر باشا بموجب صك فدفعها وفي سنة ١٦٢٤ توفي يوسف باشا سيفا وهو اول من تولى طرابلس من الباشوات وكان رجلاً جليل القدر شهماً شجاعاً جرت لهُ حوادث كثيرة اخصها مع الامير فخر الدين المعني وخلفهُ في الولاية ابنهُ الامير قاسم اما الامير فخر الدين فجمع العسكر وعبى الكتائب وسار بهم الى بلاد بعلبك ثم الى جبة بشري ومنها الى طرابلس فدخلها واخذت جماعتهُ تنهب مدة اربعين يوماً حتى دخل اليها وزير حاب ثم قدم مصطفى باشا بن اسكندر من قبل الصدر الاعظم احمد حافظ باشا وتولى على ايالة طرابلس فظلم كثيراً

ولجأ الامير قاسم بن يوسف باشا مع بعض اصحابهِ الى قلعة المرقب فسار اليهِ مصطفى باشا اسكندر سنة ١٦٢٥ ليحاصره فارسل لهُ الامير قاسم عشرين الف غرش فرجع الى طرابلس وبعث يستنجد بالامير فخر الدين المعني على آل سيفا فسار الامير لنجدتهِ فاسترضى الامراء بعد قتل الامير سليمان الامير فخر الدين باعطائهِ قلعتي الحصن والمرقب فعاد عنهم ورفع يد وزير طرابلس ايضاً وفي سنة ١٦٢٦ عزلت الدولة احمد مصطفى باشا عن ايالة طرابلس وسلمتها الى عمر باشا دفتردار ولما وصل مصطفى باشا الى ديار بكر قتلهُ واخذ مالهُ ثم قدمت الشكوى على الامير فخر الدين انهُ ظلم الرعايا ونهب طرابلس وفي اثنائهِ عزل الحافظ عن الصدارة وتولاها خليل باشا فسار بالعساكر الى حلب لقتال الامير ولما وصل اليها عزل عمر باشا عن طرابلس وولى عليها ابراهيم باشا وسنة ١٦٢٧ تولى الامير فخر الدين محافظة ايالة طرابلس فاجرى ساقية القاع وبنى القليعات وسنة ١٦٢١ توزع القشلق على بلاد الشام فتضايق الناس وجاء فخر الدين من صيدا لطرابلس فلاقاهُ الناس الى باب الحلق والتمسوا منهُ ان يمنع القشلق عنهم ثم جاءهُ الشيخ احمد حماده الى مريين

ومعهُ جماعة ولم تتمسولا منهُ لايدخل المدينة ووعدوهُ بمبلغ فلم يقبل فصدموه وقتلوا بعضًا من جماعتهِ وسنة ١٦٢٣ لما قدم جعفر باشا وزير البحر العثماني من الاستانة لنجدة الكجك لقتال الامير فخر الدين لمصاولتهِ حل ذالك الباشا في طرابلس ثم اتى بيروت وصحبهُ بعض آل سيفا فلما قبض على الامير فخر الدين تولى طرابلس قاسم باشا ابن يوسف باشا سيفا سنة ١٦٢٤ فورد لهُ الامر بالمسير لقتال العجم فاشار عليهِ مدبراه الأ يذهب فلم يثنِ عزمهُ بل سار مرحلتين فخاف وجعل نفسهُ مجنونًا وانفرد عن عسكره وعاد العسكر الى طرابلس فاجتمع الاعيان واقاموا ابن اخيهِ الامير علي بن الامير محمد فساس الولاية شهرين ثم تولاها غيره بعد قتال

وسنة ١٦٢٥ تولى ايالة طرابلس مصطفى باشا نيشانجي وسار لقتال العجم وفوض تدبير البلاد في غيابهِ للامير عساف فكدر ذلك الامير علي فدهم اميون ونهبها وتقاتل مع الامير عساف وظفر عساف اخيرًا وسنة ١٦٢٦ تولاها احمد باشا فامر مصطفى باشا الامير عساف ان يطردهُ فلم يقبل بل قتل اتباع مصطفى باشا فانهزم هذا ليلاً ودخل الحاكم البلدة مع الامير عساف والامير علي وكانا قد اصطلحا وسنة ١٦٢٧ حارب الامير عساف سيفا الامير علي سيفا وكانت الحرب بينهما سجالاً حتى شاع الخبر بانفصال احمد باشا عن ايالة طرابلس وتوليتها شاهين باشا ففرت العساكر وتفرقت وتقدمت الشكوى لشاهين باشا ان آل سيفا خربوا البلاد ودمروها وكان قد اتى البقيعة فخاف الامير عساف من ذلك وامر مدبره بمال وميرة ليستعطف الوزير فاظهر الوزير سرورهُ وخلع على المدبر وامن الامير حتى اطمأن وسار اليهِ فلما قرب منهُ امر باخذهِ الى قلعة الحصن وشنقهُ على بابها وقتل اتباعهُ فلم ينجُ منهم الا القليل ثم تتبع الوزير اثر آل سيفا وفتك بهم ونهب اموالهم

وسنة ١٦٢٩ عزل محمد باشا بن درويش باشا عن ايالة طرابلس وتولى عوضهُ محمد باشا الارناووطي وكان مدبره مصطفى بلك الصهيوني وفي

سنة ١٦٤٠ دهم الوالي جبة بشري للقبض على ابي كرم يعقوب بن الراس الحدثي شيخ المقاطعة لانهُ لم يسلم عليهِ حين حضوره وفتشوا عليهِ كثيرًا فلم يجدوهُ فضايق البلاد وقبض على ابن عمهِ سعد و بعد حين سار ابو كرم وسلم للوزير عن يد القاضي فامر الوزير برفعهِ الى القلعة ثم طوفهُ في شوارع المدينة راكبًا على جمل واعرض عليهِ الاسلام فابى فامانهُ معلقًا على كلاب وكان رجل من الجبل يقال لهُ حميدان الشعار مامور من قبل وزير طرابلس فاستعاق في هذه السنة مرتبهُ واتى البلدة يطلبهُ من كاتب الوزير فابى الاداء لهُ فخنق حميدان وقتلهُ مع ابنهِ وفر هاربًا فجمع مدبر الوزير الرجال وجد السير في طلب حميدان فلم يدركهُ فنهب العسكر حردين وكفور العربة وفي سنة ١٦٤٣ صدرت الاوامر السلطانية ان تكون بيروت وصيدا تحت ولاية محمد باشا الارناووطي والي طرابلس فارسل مدبره زلفي اغا يتسلمها و بنا هذا الوزير على نهر رشعين قصرًا وكلف الرعايا اموالاً وسنة ١٦٤٦ عزل محمد باشا الارناووطي عن ايالة طرابلس وتولى عوضهُ حسن باشا وكان مدبرهُ الشيخ ابو رزق البشعلاني وفيها قدمت الشكوى الى الدولة العلية بان الرعايا مظلومون بالمال يلتمسون عدد الشجر والرجال والبيوت فحضر عمال من قبل الدولة وفعلوا ما طلبوا ولما رجع العمال ابطل الوزير ما فعلوا واعاد الرعايا الى ما كانوا عليهِ وظلمهم بالمال فتشتتوا

وفي سنة ١٦٤٦ عزل حسن باشا عن ايالة طرابلس وعاد اليها محمد باشا الارناووطي وكان مدبرهُ مصطفى الصهيوني والحاج قمر الدين وكان مطلوب الدولة عن ايالة طرابلس ثلثمائة الف غرش عوضًا عن غلال الزيتون التي كانت الدولة تاخذ نصفها فوزعوها على الرؤوس والارض والشجر فتشتت الرعايا من جرى ذلك وفي سنة ١٦٤٧ عزل الارناووطي مدة وتولاها مكانهُ محمد باشا الصوفي فلم تطل مدتهُ حتى عاد اليها الارناووطي على انهُ ظلم كثيرًا واستمر في ولايتهِ الى سنة ١٦٤٩ فعزل وتولى مكانهُ عمر بك وكان مدبره

حسن ذيب فعذله واقام مكانه مصطفى الصهيوني واخذ عمر بك لقب الباشاوية
وتبعهُ فيها مصطفى الصهيوني بعد ان احيلت لعهدته امارة الحج الشريف
وسنة ١٦٥١ عزل عمر باشا وتولى المنصب حسن باشا واتخذ ابا رزق البشعلاني
مدبرًا غير ان زمان وظيفة ابي رزق لم تطل حتى كبر احد آل الصهيوني
فصار مدبرًا وكسر شوكة ابي رزق وفي سنة ١٦٥٢ عادت الايالة فتقررت
على محمد باشا الارناووطي فاتخذ البشعلاني مدبرًا ولقبهُ شيخ المشايخ وعزفت
لهُ الموسيقى السلطانية فكثر حساد البشعلاني حتى لم تدم مسرتهُ فان قومًا من
بني حبيش جاءوا الى داره ببعض الرجال لانهم كانوا يهتمون بزواج احدهم
فبلغ الوشاة الارناووطي ان القوم اتون لاخذ البشعلاني الى بلاد الامير ملحم
المعني فامر الوزير للحال بالقبض عليهِ وعلى اولاده وعلى الذين نزلوا في
دارهِ ورفعهم الى القلعة واوثقهم بالسلاسل وكانوا تسعين رجلًا ثم امر بداره
فنهبت وفي غضون ذلك عزل الارناووطي وتولى منصبهُ قره حسن باشا فسار
الارناووطي الى حماة لجباية المال واخذ البشعلاني معهُ وباقي المسجونين
وسجنهم عندهُ وحاسب البشعلاني فاثبت عنده اثنى عشر الف غرش ثم قدم
قره حسن باشا الى حماه ونزل عند الارناووطي وجرى الحساب امامهُ
فثبت عند البشعلاني اربعة الاف وخمسمائة غرش فدفعها عنهُ ابن الصهيوني
فاطلق سبيلهُ وسبيل من معهُ ولما اراد قره حسن باشا ان يفوض اموره اليهِ
كما كان جاء قبوجي من الاستانة العلية بطلب راس البشعلاني فاشاروا عليهِ
ان يسلم فاسلم ونجا من القتل فاكرموا القبوجي بالف قرش وارجعوه ثم حضر
قره حسن باشا وصار مكانهُ محمد باشا الكبرلي وسنة ١٦٥٥ تكدر محمد باشا
والي طرابلس من الامير اسماعيل الكردي والحاج سعد حماده لعصيانهما بالمال
السلطاني فسار لقتالهما واوقع بهما عند حريشة الهري فانكسرا وسنة ١٦٥٦
ارتقى محمد باشا الارناووطي والي طرابلس الاسبق الى مسند الصدارة العظمى
فعزل عن طرابلس محمد باشا الكبرلي وولاها محمد اغا الطباخ وسنة ١٦٥٩

تولى ايالة طرابلس قبلان باشا وصدرت الاوامر له بقصاص المشايخ الحمادية فبلغهم ذلك والحال فروا من وجههِ فسار اليهم ونهب بعض قراهم وهدم دورهم وفي سنة ١٦٧٢ عزل محمد باشا عن ايالة طرابلس وتولى بعده حسن باشا فولى المشايخ الحمادية على مقاطعاتهم ورفع عنهم اكلاف المال فطمعوا وتصرفوا بهِ وقتلوا اناسًا عند نهر رشعين ونهبوا تلك المقاطعات فخربت وكان بنو حماده قد تصرفوا بالمال فبعث حسن باشا سنة ١٦٧٧ بشرذمة من عسكره اليهم تحت قيادة مدبره فطردهم ولم يثنهِ عنهم الا هجوم الظلام ثم صدر الامر السلطاني ان يكون والي دمشق ووالي صيدا نجدة لوالي طرابلس فاجتمع الوزراء بعسكرهم في سهل قب الياس وكتبوا للامير احمد المعني بتسليم العصاة فاجتمع الامراء الشهابيون والاهالي وكتبوا الى والي صيدا ان حسن باشا لم يحارب الحمادية الا لان لهُ عليهم عشرة الاف قرش فتدفع لهُ متى سلم الاسراء الذين في القلعة فتسلم اسماعيل باشا الرهاين ودفع العشرة الاف وانصرف للحال

وكان للحمادية رهاين في قلعة طرابلس فلما انعزل محمد باشا عن البلاد وكانوا قد قتلوا ابن اخيهِ في حلبا هجموا على القلعة واخرجوا الرهاين منها بالسيف وسنة ١٦٧٦ تولى علي باشا النكدلي ايالة طرابلس شام فصدر لهُ الامر السلطاني بمحاربة عرب البكداشة فهاجت الحمادية وقتلوا بعض الاعيان فقتل الوزير منهم اثني عشر نفرًا ثم عاد الى طرابلس فورد لهُ امر مع عبد الله جلبي ابن مخائيل الافرنجي ان يحارب الامير شديد الحرفوش لانهُ نهب قرية راس بعلبك واحرق قلعتها فسار الباشا اليهِ بجمع وعاد ظافرًا وسنة ١٦٨٧ تولى حسين باشا ايالة طرابلس وقبض على اولاد الشعلاني فهربوا ليلاً الى الامير احمد المعني وسنة ١٦٩٢ تولى طرابلس علي باشا فقدم اليها في اخر السنة فلقبوه باللقيس اي المتاخر فجهز لقتال الحمادية وسار اليهم وسنة ١٦٩٢ ارتقى علي باشا والي طرابلس الى مسند الصدارة العظمى فاقام مكانهُ ارسلان

باشا ابن احمد اغا المطرجي محافظ سنجقية اللاذقية فجهز ارسلان باشا عسكرًا لطرد الحمادية فلما بلغ العسكر بتاثر نزلت عليهِ رجال الامير احمد المعني وطردتهُ عن نهر ابراهيم فاعرض ارسلان باشا الواقعة للدولة العلية فصدرت الاوامر السلطانية بتجهيز ولاة دمشق وصيدا وحلب وغزة لنجدة والي طرابلس على قتال احمد المعني واستخلاص البلاد منهُ فاجتمع عندهم جمهور غفير فوقع الرعب في قلب الامير احمد فاختفى عند آل شهاب مدة ثم عاد واستعطف وزير صيدا فاتاه بالعفو من لدن السدة السلطانية وفي سنة ١٦٩٦ زاد ارسلان باشا على المال الاميري الجوالي والصرصار والبلدار والصليان فنزحت الرعايا من اوطانهم

وفي سنة ١٦٩٧ صار ارسلان باشا اميرًا للحاج وتولى اخوهُ قبلان باشا المطرجي ايالة طرابلس ثم عاد ارسلان باشا لولاية طرابلس وسنة ١٦٩٨ كان الحمادية يترددون عن اداء المال الاميري فارسل ارسلان باشا شرذمة من الجند فقبضوا على بعضهم واتوا بهم قلعة طرابلس وفر نفر منهم الى دير القمر واعرضوا الواقعة للامير بشير الشهابي فتوسط الصلح بينهم وكفل للباشا اداء المائتين وخمسين الف غرش التي تثبت للباشا عندهم فاطلق الباشا سبيلهم وفي سنة ١٧٤١ قبض عبد الرحمن باشا والي طرابلس على الشيخ كنعان بن شديد الظاهر وسجنهُ ثم اعرض عليهِ الاسلام ليطلقهُ فابى ثم قال لهُ اذا اسلمت جعلتك عندي مدبرًا مكرمًا فلم يرض عنهُ فعذبهُ الوالي عذابًا متنوعًا اليمًا ثم امر بقطع راسهِ فاخذه الجند وقطعوا راسهُ عند باب التبانة فاخذ النصارى يدهُ ووضعوها في كنيسة حارة الحصارنة وفي سنة ١٧٦٦ اتت طرابلس فئة من الحمادية الذين كان الامير قد قبض على بعض منهم واستنجدوا وزيرها فانجدهم برجال خرجوا معهم حتى بزبزا وهي في الكورا فوق اميون فالتقاهم الامير يوسف وانتشبت الحرب عند اميون فانكسر عسكر طرابلس ولجا نفر منهُ الى البرج الذي في اسفل القرية فحصروا فيهِ

وقتل بعضهم فسلموا وعادوا الى طرابلس وكان بنو الرعد ولاة الضنية من اصحاب الحمادية ولذلك تجهز الامير يوسف الشهابي سنة ١٧٧٢ وسار لقتالهم في بلاد هم فمر في الكورة وحل في عنصدبق وهي يومئذٍ للامير احمد الكردي وبلغ الامر بني الرعد فخافوا من الامير وارسلوا كبيرهم يلتمس من وزير طرابلس ان يسعى لهم في الصلح فحرر الوزير رسالة لتوسط الصلح بعث بها الى عنصدبق فاخذ الامير الكتاب وقبل الصلح وارتحل عن عنصدبق وكان الامير احمد صاحبها من حزب الحمادية ولذلك امر الامير يوسف بحرقها عند قيامهِ منها وفي سنة ١٧٩٥ لما عاد الجزار من الحج الشريف واطلق سبيل الامير بشير واخيهِ الامير حسن وخلع على الامير بشير بالولاية سار لقتال الاميرين ولدي الامير يوسف فسار الاميران حتى طرابلس واقاما عند فاضل اغا رعد متسلم طرابلس واتى الامير بشير برجا لهُ جسر المعاملتين واشاع ان الجزار لم يأذنهُ بدخول طرابلس ثم نهبت رجالهُ البترون وبعث اخاه الامير حسناً بشرذمة الى زغرتا لينزل منها ويحصر طرابلس اما هو فسار الى اهدن ثم رجع بامر الجزار الى دير القمر وبعد حين اتى خليل باشا والي طرابلس من الحج الشريف فانعم على احد اولاد الامير يوسف بولاية البترون وكان الامير سليم صغيرًا فانجده بعض الولاة برجال ووالي طرابلس نفسهُ اصحبهُ ببعض الرجالة فانتشبت الحرب سنة ١٧٩٦ وانكسر عسكر الامير سليم فعاد الى طرابلس ثم جاءت نجدة من الجزار بحرًا فانهض الامير حسن اخو الامير بشير لملاقاة عسكر طرابلس فانهزم عسكر المدينة بدون قتال الى عكار

وكان قد نبغ في طرابلس رجل يقال لهُ مصطفى اغا بربر تولاها زمانًا وبما انهُ كان على جانب من الشجاعة والاقدام والفراسة يحلو لي ان اذكر بعض تاريخهِ قبل المسير لتتبع بقية حوادث ايامهِ فاقول ملخصًا عن تاريخ حيوتهِ المطوَّل تاليف المرحوم الياس افندي صدقه ما ياتي ولد مصطفى بن يوسف القرق من اهالي طرابلس سنة ١١٨٠ ھ المعادلة سنة ١٧٦٧ فتلقب

بربرًا وكان لهُ اخ يقال لهُ محمد عزرائل فتوفي ابوهما وهما قاصران فاخذتهما والدتهما وقطنت بهما قرية برسا من الكورة السفلى ولما شب مصطفى خدم الامير علي الايوبي من دده في الكورة السفلى وبعد ان اقام عنده زمانًا سار فخدم عند الشيخ رعد صاحب الضنية ثم خدم امراء راس نحاش وتردد على المشايخ بني زخريا حكام القويطع ثم خدم الامير يوسف الشهابي الى سنة ١٧٨٨ حينما عاد الى طرابلس وانخرط في وجاق الانكشارية تحت رئاسة زعيمهم يومئذٍ مصطفى اغا الدلبه وكان بين كبيرهم هذا وابراهيم اغا سلطان زعيم الانكشارية سابقًا نفور وعلى الخصوص لانهُ اتى بفئة من الارناوط كانت تضر بالبلد فهاج الاهلون وثاروا وكان مصطفى اغا قد احتشد بعضًا من الشبان فقاتل بهم واظهر الكل غاية الاقدام ثم خمد الهيجان وبعد حين سار بزمرتهِ الى عكا واقام بخدمة احمد باشا الجزار فاقامهُ في بيروت ولما علم ان عبد الله باشا العظم تولى طرابلس فاكثر فيها الاعتساف والظلم سار الى عكا واستاذن وجاء الى طرابلس لينقذها من الوبال فطرد عبد الله باشا منها فاشتهر بهذا الحادث جدًا وعقد العهود والمواثيق مع بعض الشبان وبعث باحدهم محمد اغا القوندقجي لينام في القلعة عند المحافظين فذهب وربط حبلاً بمدفع ودلاهُ من شرافة القلعة وكان بربر وجماعتهُ قد كمنوا الى جوانبها فلما ادلهم الليل خرجوا من الكمين واتوا الحبل فبعث بربر رجالهُ قبلهِ ثم صعد بعدهم ولما صاروا كلهم في اعلاها هجموا على المحافظين فاردوهم كؤوس المنية واخذوا يطلقون المدافع علامة على قتلهم وتولى بربر القلعة فهرب ابراهيم سلطان واستقل مصطفى اغا الدلبه زعيم قومه في احكامهِ وما زال كذلك الى ان توفي فصار بربر هو الحاكم وفي غضون ذلك انعمت الدولة العلية بولاية طرابلس على احمد باشا الجزار والي صيدا فارسل الجزار امرًا بتوجيه منصب القيمقامية لعهدة بربر اغا

وفي تلك الايام زار طرابلس السائح فولناي الفرنساوي الشهير فذكر

عنها ما ياتي ملخصًا اما باشا طرابلس فيتمتع بكل حقوق مسنده على ان بيده زمام العسكرية والمالية واستلام الحكم هو على سبيل الالتزام الذي يعطى به من الباب العالي صك الاجار لسنة فقط وثمن ذلك ٧٥٠ كيسًا الا انهُ يلتزم علاوة عما ذكر بتقديم الجردة زخرة الحج الشريف وهي من الحنطة والشعير مع الارز وغيرها مما تبلغ قيمة مصر وفاتها ٧٥٠ كيسًا ايضًا وينتدب ان يسير بذاته الى الصحراء صحبة الزخيرة المذكورة لملاقاة الحجاج ويستورد المال من الخراج والمكوس وملتزمي النصيرية وكسروان ويضيف الى ذلك الضرائب الخارجة والبلص وهذا الاخير لو لم يكن مقرونًا بغيره لكفى به اهمية عظمى ويعين لهذا الباشا نحوًا من خمسمائة من الفرسان لكنهم ليسوا باكثر انتظام من فرسان حلب (وكان قد وصفهم بعدم النظام والترتيب) ويستخدم ايضًا بعضًا من حاملي البواريد من النوع المغربي وكان باشا طرابلس يود لو يتمكن بذاته من سياسة بلاد النصيرية والموارنة على ان هذين الشعبين كانا يعترضان دخول الاتراك الى جبالهم فاضطر الباشا الى جباية الخراج بواسطة ملتزمين يقبلهم الاهلون وايجار الملتزمين كايجار الباشا اي لسنة فقط وكانت هذه الالتزامات لا تقرر الا بالمزايدة فينتج من ذلك مناظرة الاغنياء لبعضهم وتحدث الاضطرابات الكثيرة بين الطوائف الخراجية (الى ان يقول) ان التزام النصيرية اليوم انما هو مقسوم ما بين ثلثة روساء او (مقدمين) والتزام الموارنة بيد الامير يوسف وهو يعطى من ذلك ٣٠ كيسًا .اه

وفي سنة ١٨٠٤ لما كان اسعد صعب المشهور عاملاً على القلع من قبل الامير حسن وليس عنده من الفرسان غير اربعين خرج مصطفى بربر اليه بالف وخمسمائة فارس فقاتلهم اسعد عند مجدليا باهل عكار توصلاً لطرد بربر من القلع فعلم الامير بشير عمر وجهز عسكرًا الى اميون وهناك جرى قتال دام برز فيه فارس من عسكر طرابلس يقال لهُ حسن بربر وطلب من يبارزه من لبنان فخرج اسعد اليه وبعد ان تعاركا واطلقا على بعضهما

الرصاص فاخطأ قبض اسعد عليهِ فاخذه اسيرًا و بعث بهِ الى اميون فقتلهُ المتاولة فتكدر اسعد من ذلك وسنة ١٨٠٦ ارشى مصطفى اغا بربر احد الرجال و بعث بهِ ليمكر باسعد ابي صعب و يقتلهُ و بينما كان اسعد مارًا في سهل الكورة واذا بفارس اعترضهُ في الطريق فسالهُ الفارس عن اسعد فاخذ اسعد يذم بذاتهِ متنكرًا عن مخاطبهِ ليرى النتيجة فظن الفارس ان مخاطبهُ من اعدائهِ فاحكى لهُ القصة من الاول فعندها اخبره اسعد بانهُ هو المطلوب فوضع الفارس يده على القاربينة واراد اطلاقها عليهِ واذا براسهِ قد صار امامهُ بضربة حسام الاسعد الشجاع

وفي سنة ١٨٠٧ استنجد مصطفى اغا بربر بالامير بشير الشهابي على قتال الشيخ صقر المحفوظ حاكم صافيتا لانهُ لم يدفع لهُ المال الاميري المطلوب منهُ فارسل لهُ الامير عباس اسعد والامير حيدر اسماعيل اللمعي وغيرهما من الامراء ببعض الرجال فنهضوا جميعًا من طرابلس الى صافيتا فنهبوها واحرقوا زروعها فخاف الشيخ صقر وبعث يطلب الامان فلما رضي بربر عنهُ رجع الامراء الى اوطانهم وفي سنة ١٢٢٤ الموافقة ١٨٠٨م احيلت ولاية طرابلس لعهدة كنج يوسف باشا فصدر امره الى بربر ان يسلم القلعة لعسكر الدولة ويستمر حاكمًا في المدينة فابى بربر ذلك واغتاظ الباشا وجاء بالجيوش فحل في ظاهر البلدة ونادى بربر باهل البلد مخبرًا اياهم بانهُ سيحصر في القلعة وان الباشا ينتقم من اهل البلد فهربوا الى الجبل ودخل بعض الاعيان والمتوظفين القلعة ودخل الباشا البلدة ونهبها وهدم بعض الدور ثم حصر القلعة احد عشر شهرًا حتى نفذ الزاد وانهدم بعض سور القلعة ففر بربر منها وسار الى صيدا واستقبلهُ سليمان باشا بالاكرام ثم ورد الفرمان العالي بقتل كنج يوسف لانهُ اضر بطرابلس جدًا وتقررت الولاية على سليمان باشا والي صيدا اما كنج يوسف باشا فهرب الى مصر وانعم سليمان باشا على بربر اغا بقيمقامية طرابلس فعاد اليها واستامن الناس بهِ وكان العدل والامان كل

زمان حكومة سليمان باشا ومن رواية صاحب اخبار الاعيان يظهر ان سليمان باشا انما ارسل بربر متسلمًا لطرابلس بعد ان اخذ دمشق وفر يوسف باشا الى مصر عن طريق طرابلس وان سليمان باشا لم ياذن لبربر باستلام القلعة بل جعلهُ حاكمًا على البلدة فقط

وفي سنة ١٨١٦ بينما كان احد الاطباء من الانكليز يجول في جبال اللاذقية هجم عليهِ بعض اشقياء النصيرية وقتلوه فصدرت الاوامر مرات عديدة بالقاء القبض على الفاعلين فلم يكن من ثمرة بل زاد شرهم وضرهم وابوا دفع المرتبات الاميرية فارسل سليمان باشا عسكرًا لردعهم وسار معهم بربر اغا فغزا بلادهم وفتك فيهم وقتل سبعين رجلاً من كبارهم وحشا رؤوسهم تبنًا و بعث بها الى الوزير ومع ان حركاتهم كانت قد خمدت اولاً عادوا الى العصيان ولم يدفعوا المال فسار العسكر الى تنكيلهم تحت امرة بربر فضربهم وقتل من كبارهم خمسًا واربعين رجلاً فوقع الرعب في قلوب الناس وخافوا فسكن الهيجان وتحصلت الاموال الاميرية وكان الاغا قد اعاد بناء ما هدم من القلعة وصرف على ذلك من مالهِ غير انهُ احتاج الى الاستقراض فاخذ من الناس ثم وفاهم المال وفي سنة ١٨٢٠ توفي سليمان باشا وتولى البلاد بعده عبد الله باشا على انهُ كان سيء السيرة قبيح السلوك اما بربر فسار اليهِ الى عكاء على انهُ بعد حين انفصل عن ولايته بطرابلس واقيم على بلك الاسعد متسلمًا في البلدة اما هو فانزوى في دارهِ في ايعال وكان قد بناها بعد ان تملك القرية وغيرها وكان عبد الله باشا سريع التقلب مقربًا اليهِ جماعة من محبي المفاسد والقلاقل حتى آل امره الى الحنق على الامير بشير الشهابي وتوليتهُ لبنان لغيره ثم رضي عنهُ وولاه البلاد وحدثت حرب العامية ففر الامير فارس والتجا الى الشيخ عباس رعد صاحب الضنية وكان الامير بشير الشهابي بعسكره على نهر ابي علي فارسل آل الرعد يستشيرون بربر اغا وهو في داره فاشار عليهِ باكرام الامير فارس وان ينزل الشيخ عباس الرعد والشيخ محمد الفاضل

للسلام على الامير بشير وهو في نهر ابي علي و يستعطفان خاطره على الامير فارس ففعلا غير ان الا مير بشير لم يقبل ذلك ولما علم علي بك الاسعد متسلم طرابلس بنزول الامير فارس عند بني الرعد بعث يشكوهم لعبد الله باشا ففر الامير فارس الى بلاد الحصن نزيلاً على واليها

وفي سنة ١٨٢١ او سنة ١٨٢٢ ورد امر من عبد الله باشا الى علي بك الاسعد ان يقبض على بربر و يحجز كل موجوداتهِ فعلم بربر بالامر وفر هارباً الى جبة بشري قاصداً المسير الى بلاد الشام على انهُ لم يتمكن من ذلك لكثرة الثلج واقام في بشري وارسل منها تحريراً الى الامير بشير يطلب بهِ مساعدتهُ وضمن الكتاب عريضة للباشا باستعطاف خاطره وكان بين الامير و بربر نفور خفيف فارسل بربر المرحوم نعمة الله غريب امن اعيان طرابلس رسولاً يستعطف الامير فارسل الامير كتاب بربر بكتاب منهُ الى الوزير فامن الوزير بربر وصفح عنهُ فحضر بربر على الفور الى الامير يشكره ثم كتب الامير الى الوزير يخبرهُ ان بربر قد حضر اليهِ يشكرهُ وسالهُ ان يطيب قلبهُ و يرفع الشماتة عنهُ فمال الوزير الى بربر وعزل علي بك الاسعد عن طرابلس وقرر حكومتها لبربر وارسل لهُ الخلعة فرجع بربر الى طرابلس واسترجع كل ما كان قد اخذ منهُ

و بعد ذلك ظهر ان عبد الله باشا والي عكا يحاول الخروج عن طاعة الدولة العلية فتحولت ولاية صيداء بما فيها طرابلس على درويش باشا والي الشام فسار هذا بوالي حلب ووالي ادرنة لقتال عبد الله باشا في عكا وحاطت جنود الولاة حول عكا اما درويش باشا فنصب علي بك الاسعد متسلماً لطرابلس وامر بربر اغا ان يسلم البلدة والقلعة فابى بربر ذلك مكابرة فحصرت طرابلس واستمر الحصار ثلاثة شهور الى ان نفذت الاقوات والذخيرة عن البلد فتضايق الاهلون على ان بربر دخل القلعة ببعض المتوظفين وعيالهِ وحاصر فيها واخذ علي بك الاسعد البلدة وما زال بربر محاصراً في القلعة مدة شهر حتى توسط الصلح مع درويش باشا فارسل حسين اغا الشركسي

امين رسومات بيروت واخرجهُ من القلعة بالامان وسلمها الى عساكر الارناؤوط وسار امين الرسومات الى معسكر الباشا واصحب معهُ بربر اغا فطمن درويش باشا خاطرهُ وامرهُ بالاقامة في بيروت

ولما وقعت الحرب بين الامير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط اختفى الشيخ بشير عند والي طرابلس ثم تقلد علي بك الاسعد الولاية على طرابلس ولقب باشا وكتب الى الامير بشير يخبره و يعتذر اليهِ عن اقامة الشيخ بشير عنده وانها كانت بامر الوالي السابق و يعرض على الامير ارسال شرذمة من الجند لنجدتهِ فاكرم الامير رسول الباشا بخمسمائة غرش و بعث يهني الباشا بالمنصب اما بربر فكان قد اقام في بيروت قيل انهُ لما جاءت سفن اليونانيين العصاة وحاصرت بيروت بحرًا كان لبربر اغا يد في ردعهم وتحصين المدينة وتقويتها ولما توسط محمد علي باشا خديوي مصر امر عبد الله باشا عند الدولة العليــة وحاز رضاءها وعفوها ورفع الحصار ورجع المنصب اليهِ توجهت ولاية طرابلس على حسين باشا امين رسومات بيروت وهو الذي كان قد اخرج بربر من القلعة مستامنًا وحاز رتبة مير ميران وما استقر ان سار الى الجردة فوافاهُ القضاء ومات في الطريق فتولى طرابلس محمد باشا و بعد ان اقام مدة في البلد ذهب الى اللاذقية ليجبي المال الاميري منها فظهر للناس انهُ يميل الى مذهب النصيرية فثاروا عليهِ وقتلوهُ وسنة ١٨٢٤ تولى منصب طرابلس سليمان باشا العظم من حماه وكان عسوفًا ظلومًا حتى ان اهالي حماه لم يحتملوا جوره يوم كان قيمقامًا عندهم فلما علم اهالي طرابلس من الاسلام والنصارى بقدومهِ فروا هاربين الى الجبال فكدره ذلك لخلو الوظائف المهمة من متوظفيها فاضمر لهم الشر وعزم على هدم دورهم فهدم دار آل غريب وكانت دارًا كبيرة في غاية من الاتقان ولم يبقَ منها مع كل كبرها الا قبو واحد ثم شرع في هدم دار آل الصراف على ان الوبل لم يمتد حتى اخمدتهُ الوسائط بالمال ودار كتهُ امور الجردة فاقام اخاه حسين بك قيمقامًا وامرهُ

بان يهدم بعض دور الاعيان و بينما الفعلة ذاهبون لهدم دار آل صدقة
واذا بثورة وهياج بين الناس فحصر حسين بك في سرايا الحكومة من جهة
باب تل الرمل وفتحوا السواقط على الجنائن التي تحيط با لسرايا فلم يتمكن
من الهرب حتى مر بين اقذار تلك المياه فتلقب با لفليطي وسار الى البداوي
واستدعى علي بك الاسعد فتا لف عندهما جيش يذكر. واما اهالي البلد فلم
يكن لهم يومئذ رجل من اهالي الخبرة والاقدام ليقودهم في هذه الحملة لان
اكابرهم كانوا قد هربوا فترأس على الثائرين رجل من باب التبانة اسمهُ
الشيخ علي دنون وسار في منتصف النهار ليضرب القوم ولم يكن عسكرهُ
مستعدًا فانكسر ودخل حسين بك البلد وانتقم من الاهلين انتقامًا فظيعًا
وجاء اخوه من الجردة مريضًا وازداد مرضهُ في طرابلس ومات وحصل علي
بك على عرائض وفتاوي شرعية بتقليده المنصب فتقلدهُ ولما خلا لهُ
الوقت وقبض على ازمة الامور فكر ببناء انقاض دار آل غريب جامعًا واتم
ذلك على ان الدولة العلية لم تاذن بالصلوة فيهِ لمخالفة ذلك للنصوص الشرعية
و بالمداخلة فاز بالحصول على امر باعدام بربر اغا وضبط موجوداتهِ وارزاقهِ
ولما بلغ الامير بشير ذلك دعا بربر اليهِ واسكنهُ الشويفات و بعد ذلك نهض
بعض الاحزاب على الامير بشير وحصروه في بتدين فحارب بربر معهُ ولما
صدر امر الدولة العلية بطلب عبد الله باشا و بربر اغا اخذ بربر تحارير
توصية من الامير بشير وسار الى مصر فا التقاه الخديوي محمد علي باشا بكل
اعتبار واحترام واقامهُ في ثغر دمياط وما زال هناك حتى صحب ابراهيم باشا في
حملتهِ على سورية سنة ١٨٣٠ ولما جاء الامير بشير برجالهِ لمقابلة ابراهيم باشا خرج
بربر اغا وحنا بك البحري لمقابلتهِ من لدن ابراهيم باشا ثم ارسل بربر اغا متسلمًا
لطرابلس واصحبهُ بطابورين من العسكر فاتى البلد واقام فيها سنة ١٨٣١ و بعد
حين ولت الدولة العلية عثمان باشا على طرابلس فلما جاء لياخذ البلد تحصن بربر
وابى التسليم فحشد عثمان باشا جموع عكار وصافيتا وحل في المنية اما ابراهيم باشا

فامر الامير خليل بن الامير بشير ان يسير بشرذمة من العسكر للمحافظة على طرابلس من عسكر الدولة فنهض الامير خليل واتى الشويفات وجمع اليهِ بعض اعيان لبنان وسار بهم و بالفي مقاتل لنجدة طرابلس واشتد الحصار عليها وفي تلك المدة كتب الشيخ حمود النكدي الى عثمان باشا وهو يومئذٍ في اللاذقية انهُ لم يزل مطيعاً للدولة العلية فاجاب عثمان باشا شاكراً لهُ فوقع الجواب بيد الامير خليل فبعث بهِ الى والدهِ ثم ان عثمان باشا ارسل مدبره الى عكار لجمع الجند فلما علم الامير خليل بذلك بعث فاخبر ابراهيم باشا فقام باربعة الاف رجل وزحف على طرابلس . اما مدبر عثمان باشا فلما دنا من المدينة خرج الامير خليل اليهِ فانكسر عسكر عكار بعد ان قتل منهم ثلاثة وواحد من عسكر الامير وانهزم المدبر وكان بعض اعيان طرابلس قد حرروا رسالة الى عثمان باشا بها يطلبون اليهِ الاسراع ليسلموه البلد فوعدهم بالحضور على ان الجواب وقع في يد بربر فقتل الرسل وقبض على القاضي والمفتي وبعض الاعيان ووضعهم في القلعة وجاء عثمان باشا المنية ونزل على تل يشرف على البلدة وكان عدد عسكره اربعة الاف فخرج بربر اليهِ بمائتين من الطرابلسيين ومائتين من العسكر النظامي فانكسر بربر غير ان الامير خليل لما راى انتصار عثمان باشا حمل بجنده فانكسر عثمان باشا وارتد فتبعهُ نحو ستمائة من المصريين وكان عثمان باشا يجمع جنوده عند التل وكان اكثرهم من الارناؤوط فلما راوا اقتراب الستمائة من المصريين هجم عليهم الف وخمسمائة فارس من اصحاب عثمان باشا فكسروهم واخذوا منهم خمسين فارساً فقتلوا بعضهم واسروا الباقين فكدر ذلك الامير خليل وكر برجالهِ على الارناؤوط ورفاقهم فانكسروا وارتدوا حتى البداوي وقتل منهم خمسة . ومن جماعة الامير كذلك. ولما اقبل ابراهيم باشا على طرابلس خرج الامير خليل والامير عبد الله الى ملاقاتهِ وعرف عثمان باشا بقدومهِ فسار ليلاً الى حماه وفي الصباح ارسل ابراهيم باشا الامير عبد الله لياتي بما تركهُ عثمان باشا في

المنية وثار هو الى حمص وظلت حكومة طرابلس بيد بربر اغا حتى سنة ١٨٣٢ ذلك لان الحكومة المصرية اصدرت امراً بتلزيم بعض الرسومات والخانات فرفض الدخول في قضية الخانات فعزل عن طرابلس وتولى المنصب بعده علي اغا الترجمان من كبار اهل الشام واستقر بربر في طرابلس منزوياً عن الاحكام ثم توفي علي اغا وتقلد المنصب يوسف بك شريف من اعيان حلب وفي ذلك الوقت انتقل بربر الى ايعال وسنة ١٨٣٣ حدث شغب في كل سوريا لخلع طاعة ابراهيم باشا والرجوع الى الدولة العثمانية واشتركت طرابلس فيهِ. على ان ابراهيم باشا كتب الى الامير بشير الشهابي ان يرسل ولده الامير خليل لنجدة سليم بك المامور المصري باخماد الثورة في البلد فسار الامير خليل الى طرابلس والتقاه سليم بك فقبض على خمسة وعشرين رجلاً من اعيان الاهالي لان حركاتهم كانت قد عرفت وسجنوا بالقلعة وسار الامير والبك برجالهما الى عكار فقبضوا على بعض كبارها ولما مرض الامير خليل عاد الى طرابلس وسار منها الى بيت الدين وكان مصطفى اغا بربر قد خاف التهمة بالاشتراك في المؤامرة ولذلك سار الى بيت الدين ملتمساً من الامير ان يستعطف خاطر ابراهيم باشا عليهِ ففعل فاعطاه ابراهيم باشا الامان واعاده الى موطنهِ ايعال. الا انهُ ما لبث ان توفي فجأة فخرج يوسف بك شريف قيمقام البلد وبعض اعضاء المجلس لضبط موجوداتهِ على ان احد اخصائهِ سار الى مصر وعرض الواقعة للخديوي فامر برفع الحجز وما زالت طرابلس بيد المصريين حتى سنة ١٨٤٠ حينما خرجت سوريا من ايديهم ورجعت الى الدولة العلية العثمانية باتفاق مع الدول. وصار اطلاق بعض المدافع على ميناها قبل ان عادت عثمانية وكانت منوطة بايالة صيدا وهي قيمقامية ثم انيطت بولاية سوريا وصارت متصرفية بعد ان ضمت اليها اللاذقية وجبلة وصافيتا وعكار وكان مجموع خراجها السنوي نحو مائة الف ليرا عثمانية وسنة ١٨٨٠ انسلخت اللاذقية وجبلة عنها وقد تعاقب في مسند المتصرفية كثيرون من الذوات

منهم ابراهيم حقي باشا الذي بذل جهده بانشاء طريق المركبات بين البلد والمينا

ان سكان طرابلس ما انفكوا منذ القديم يرغبون في اجتناء العلوم على اختلاف درجاتهم الا ان الطلبة كانوا قليلين بالنسبة لسائر الاهلين ومع ذلك لم تخل البلدة من قوم لا يعرفون الفرق بين النور والظلمة . على ان العلم الذي كان يدرسهُ الكثيرون من الطلاب انما كان محصورًا في المسلمين الطالبين دراسة الفقه والعلوم الدينية واللغوية ولم يكن من النصارى الا النذر القليل يطلبون الكتابة والحساب. على ان نور المعارف اتسع حديثًا في الاقطار السورية حتى قاد كثيرين الى المطالعة فاصبحت طرابلس تفتخر بخاصتها ولا تنكر ذكاء عامتها الا ان هذا التقدم المعنوي لم يخرج عن دائرة الاذهان حيث لم يبد الطرابلسيون ما يوهلهم اليهِ مركزهم فلبثت بلدتهم على حالتها لا تخرج منها الا باليد الخارجية . على ان فضل ابنائها اتاهم النعمة في عيون ولاة الامر فتقلد البارعون منهم مناصب القضاء والفتوى في كثير من الخطط العثمانية والمصرية

وكان مطمع انظار الطرابلسيين مد الطريق الحديدية بين بلدتهم و بين بلاد الهند ذلك ما تقولت بهِ صحف البلاد الانكليزية حتى صار من الاماني التي يرغبون في نوالها لا جرم ان ميناء طرابلس وسهولة طرقها و وفرة حاصلاتها وكثرة القادرين على الشغل في جوارها قد حملت كثيرين من المهندسين على استحسانها وتفضيلها عما سواها لتكون النقطة الاولى للطريق الحديدية المؤدية الى الهند وتقدمت في ذلك خطب ونشرت كتابات كثيرة تفصح عن ذلك وحيث ان طرابلس تبعد عن مينائها مسافة ميلين او اكثر وكانت طريقها غير ذات سهولة نظرًا للوحول والغبار مما لا يسمح بهِ تقدم العصر فقد بذل العناية بتسهيل الطريق وتمهيدها بحيث تصلح لسير المركبات عليها فسرَّ القوم بذلك ولبثت هذه الطريق على سيرها حتى ولاية مدحت باشا في اوائل سنة ١٨٧٩ ورأى الطريق فاستحسن نضارة جانبيها بعد ان علم ما وراء

تحسين الطرق من احياء التجارة والاثراء فدعا بكثيرين من اغنياء البلدة وحرضهم على انشاء طريق حديدية تسير عليها المركبات بجر الخيل وتعرف بالافرنجية ترامواي فلباهُ كثيرون من الناس وتألفت بحضوره لجنة وطنية لادارة العمل وتعيين راس مال الشراكة عشرة الاف ليرة منقسمة الى الفين من السهام

وقد تألفت الشركة وتم العمل واخذت المركبات بالنجاح حتى ادركت الشراكة فوق ما املت من التقدم والفلاح

وحيث ان الطريق بين طرابلس وحماه مهمة فقد عني بمدها وتصليحها مدحت باشا المشار اليهِ وحضرة والينا الحالي دولتلو حمدي باشا الافخم وهي الان تصلح للعربات لكنها لم تجر عليها بعد

الفصل الرابع عشر

البترون وجبيل

والى الجنوب من طرابلس اماكن كثيرة جديرة بالالتفات والبحث وهنالك انقاض مدن كثيرة كانت عامرة زاهرة فان بينها وبين راس الشقعة قرية يقال لها انفة يظهر انها ترياريس التي ذكرها بليني مع اختها قلاموس ولعلها القلمون وجيغارتا وهي غير معروفة الموقع اما راس الشقعة فهو جبل داخل في البحر على شكل راس وفي جنبهِ الشمالي دير للروم الارثوذكس يقال لهُ النورية وعلى قمتهِ دير للموارنة يقال لهُ حنوش وكان هذا الراس معروفاً قديماً بوجه الحجر اما استرابو فقد دعاه ثيو بروسبون اي وجه الله وتبتدي المسليحة عند سفحهِ وفي وسطها قلعة قائمة على مرتفع من الصخور في وسط الوادي وقد ذكر صاحب سفر الاخبار نقلاً عن السمعاني المؤرخ المشهور انهُ في سنة ٥٥٧ م قطع جزء كبير من راس وجه الحجر بزلزلة فوقع في البحر حزاء البترون فكونت بهِ ميناً لم تكن قبلاً هناك اه

اما البترون فهي قديمة جداً حتى ان الفينيقيين يقولون انها من بناء ايثو بعل ملك صوركاهن عشتروت المعبودة الصورية واليهِ ذهب يوسيفوس بن كربون المؤرخ اليهودي حاسبًا بناءها في الجيل العاشر قبل الميلاد واليونان يعرفون هذه المدينة باسم بوتريس اما تاريخها فلا يعرف منهُ غير القليل ولقد كان تواتر الزلازل علة في خرابها الاخير ومن العجب انها لم تذكر ايام الصليبيين الا بالعرض فمن ذلك ما روي اثناء مرورهم باراضيها حيث ذكر واليها بشهادتهِ على تقرير والي جبلة عند ما حاول اخذ طرابلس وعدد سكانها الان نحو ثلاثة الاف وهي في بعض السنة مركز للقيمقامية المنسوبة اليها الخاضعة لمتصرفية لبنان

اما جبيل فهي مدينة قديمة كان يقال لها اولاً افايا غير ان العبرانيين دعوها جيبال واليونان سموها بيبلوس ومن الروايات الخرافية التي لا يعول عليها ما رواه اسطفانوس البيزنطي ان ساتورنوس اي زحل بناها وسماها بيبليوس تشرفا باسم بيبلا ابنة ميلاتوس ويظهر من الكتاب المقدس ان في زمان الدولة الفينيقية كانت جبيل من المدن المشهورة وان اهاليها كانوا على جانب من الشهرة في البحر والمعرفة تشهد بذلك كتابة حزقيال عنهم حيث قال شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك . وقال صاحب سفر الاخبار وكان محل اخر بالقرب من جبيل يسمى بالي بيبلوس كانت في القرب من المدينة الحالية الى الجنوب من قلعتها وبعضهم انها كانت عند نهر ابراهيم وبعضهم عند طبرجا وبعضهم في صربا والظاهر من قول بلينوس في ك ٥ س ٢٠ انها كانت قبل نهر ابراهيم من جهة الجنوب اذ قال نهر ليكوس (وهو نهر الكلب) وبالي بيبلوس ونهر ادوسيس (ونهر ابراهيم) ومدينة جبيل ا ه

ويقال ان قبالة الجبليين الذين ذكرهم يشوع في سفره كانوا مقيمين في البلدة وانهم كانوا يمتازون عن الكنعانيين بكل احوالهم وعوائدهم وانهم يستقلون عن صور وصيدا وان تخوم بلادهم تتصل بنهر الكلب جنوبًا

وكان اهل جبيل يعتقدون ان ادونس ولد فيها فكانوا يعبدونهُ ويحتفلون لهُ وقد وصفها سترابو بقولهِ انها كانت مدينة ملكية لشينيراس ومكرسة لادونيس وادونيس هذا هو تموز الذي سياتي ذكرهُ في الكلام عن نهر ابراهيم

قال صاحب سفر الاخبار: وقد امتدت عبادة ادونيس الى مصر وغيرها حتى قيل ان المصريين كان من عادتهم ان يلقوا في كل سنة في عيد ادونيس علبة في البحر مصنوعة على هيئة الراس و يضعون ضمنها رسالة يوجهونها الى سكان جبيل قائلين ان هذه العلبة تبلغ من ذاتها الى جبيل في مدة سبعة ايام: وظن بعض المفسرين ان اشعيا النبي اشار الى ذلك حيث قال في ص ١٨ الويل للبلد الذي يرسل رسلاً في البحر وفي ابنية من بردى على وجه الماء اه: وقد ورد عن بعض الكتبة ان جبيل كانت مركزًا لاحد ملوك فينيقية الصغار وانهُ بنا بها صرحًا غير انهُ اندثر ولم تبق الايام منهُ اثرًا

ولقد قلنا ان حيرام ملك صور كان صديقًا لسليمان بن داود ملك اسرائيل وانهُ لما شرع سليمان ببناء الهيكل طلب الى حيرام ان يبعث الارز من بلاده فكان للجبليين يد في ذلك العمل وقد ذكروا صريحًا في الاصحاح الخامس من سفر الملوك الاول والظاهر ان الارز كان كثيرًا في لبنان وانهُ انما انحصر في البقعة التي فوق بشري بعد ان كرت عليهِ السنون اما سانكونياثو فقد الف كتابًا بالفينيقية حرر بهِ تاريخ بلاده على ان فيلون الجبيلي ترجم ذلك الكتاب غير ان صاحب سفر الاخبار يقول نقلاً عن دي لاروك الذي اتى سوريا ولبنان في الجيل السابع عشر وكتب رحلتهُ عنهما ان دودفل الانكليزي برهن بمقالتهِ ان فيلون الجبيلي الذي ظنهُ البعض مترجمًا لهذا التاريخ هو مؤلفهُ قال بعض المورخين ان جبيل خلعت في بعض زمانها نير الحكومة الفينيقية واقامت لها ولاة مخصوصين كانوا يخضعون للفرس و يؤدون لهم الجزية و بعد

ان عنت للاسكندر المكدوني بدون حرب تطوع رجالها معهُ في حصر صور ثم دخلت في حوزة السلوقيين وعنت لهم حتى بدأت دولتهم بالانحطاط وتولى الثغور الشامية رجل يقال لهُ شنيار فاتخذ جبيل مقرًّا على انهُ سام الاهلين المذلة والخسف واوردهم موارد المضرة فلم يطل بهِ الامد حتى خفقت الراية الرومانية امام بمبيوس القائد ففتحت جبيل واصبحت من ذلك الحين رومانية كاخواتها من مدن سوريا وبناء الرومان في جبيل مشهدًا على اثار الصرح الفينيقي المتقدم ذكره على ان اثاره ما فتئت قائمة حتى اليوم

وفي اواسط الجيل السادس المسيحي خربت الا انها عادت فتجددت وصارت موطنًا لامراء المردة وفي خلافة عمر بن الخطاب اخذ الاسلام جبيل واستمرت بايديهم حتى اتاها سمسق او زاميشاس وزير نيكفوروس فوقا احد ملوك الروم سنة ٩٦٢ فكتب سمسق الى الشود شاهان ملك ارمينيا في رسالتهِ الانف ذكرها قال: وسافرنا لنفتح قلعة جبيل التي هي اقدم واحصن فاخذناها بعد حرب بعض ساعات واسرنا سكانها وفزنا بغنيمة غنية اه

الا ان دولة الروم لم تكن طويلة الامد حيثما عاد الاسلام فاخذوها بعد ثلث عشرة سنة

وما زالت جبيل بيد الدول الاسلامية كغيرها من مدن سوريا حتى سنة ١١٠٨ لما عاد برتران بن رايموند من اوروبا بسبعين سفينة فاحط على جبيل وحصرها بحرًا فاخذها وزحف على طرابلس واستمرت بملكهم حتى استخلصها منهم في اواخر الجيل الثاني عشر السلطان صلاح الدين الايوبي ثم استرجعوها ولكن لم تطل مدتها معهم حتى سنة ١٢٩٠ فاخذها الاشرف صلاح الدين خليل وهزم الافرنج منها ودك قلعتها القديمة وفي سنة ١٣٠٢ لما اتت شرذمة من الافرنج نهر الدامور وعاثت بجواره اتهم القوم سكان الجبال من النصارى بامدادهم فتجمعت بعض قواد الاسلام بالعسكر واقتتلوا مع مقدمي الموارنة وعسكرهم في موقعة جبيل فانتصر اهل الجبل وفي سنة ١٥١٧

استولى ساكن الجنان السلطان سليم الاول العثماني على جبيل باثناء فتحهِ بر الشام وكان تسليمها بلا حرب وفي سنة ١٦١٨ اخذ فخر الدين المعني قلعتها بالامان بعد رجوعهِ من حرب يوسف باشا في قلعة الحصن وسنة ١٧٧٨ حصر الامير احمد الشهابي بعسكر الجزار جبيل ضد اخيهِ الامير يوسف ولما كانت الحكومة المصرية في سوريا كان في جبيل قوم يتعصبون لها فاقاموا في قلعتها عند ما اعملت الدولة العلية باتفاق مع الدول على اخراج المصريين من البلاد فاتى جبيل مركب مشحون با لسلاح واطلق المدافع على القلعة وخرج منهُ بعض الرجال فلم يتمكنوا من اخذها على ان المحصورين سلموا بعد ذلك

اما نهر ابراهيم فهو المعروف قديمًا باسم ادونيس مخرجهُ في جبل لبنان بقرب العاقورة ومجراه الى الجنوب الغربي ومصبهُ في بحر الروم الى الجنوب من مدينة جبيل قال صاحب المرآة الوضية وعليهِ جسر من قنطرة واحدة هائلة في طولها وارتفاعها ليس لها نظير في قناطر هذه البلاد قيل ان الامير ابراهيم احد امراء مردة لبنان بنى هذا الجسر فنسب النهر اليهِ اه

وقال احد كتبة الافرنج ان نهر ابراهيم هو نهر ادونيس يبعد عن جبيل مسافة ساعتين ولم يزل هنالك حتى الان اثار اقنية يظهر انها كانت تحمل الماء من النهر الى المدينة ولا يخفى انهُ يظن ان ادونيس المحكى عنهُ في الخرافات اليونانية انما هو تموز الذي ذكر حزقيال النبي ان نساء اليهود كنَّ يبكينهُ

وذكر ملتون الشاعر الانكليزي المشهور في قصيدتهِ الشهيرة باسم باراديس لوست اي الجنة المفقودة ما يفهم منهُ ان العذارى السوريات كنَّ ينحنَ في الصيف من كل سنة على تموز عند ذكرى جرحهِ وموتهِ حيثما كان النهر يحمرُّ بلون ارجواني فيظن بهِ القوم تذكار دم تموز المسفوك اه

غير انهُ امر معلوم ان العواصف متى هبت في لبنان يحمر ذلك النهر لان المجاري التي تصب فيهِ تحمل من الارض الحمراء المجاورة مواد كافية

لاصطباغ النهر وان الماء المجتمع من ذوبان الثلج في حر شمس الصيف يسير بجداول صغيرة على الارض الحمراء كما يحدث غالبًا في كثير من الانهر على ان تصورات الشعراء واوهامهم جعلتهم يكتبون ما حمل اولئك القوم على الاعتقاد باحمرار النهر من دم تموز ومصدر هذا الاعتقاد ان ادونيس كان قد علق بحب فنيس الهة الجمال عندهم وهي المعروفة بالزهرة وان دبًا ربًا افترس ادونيس وان النهر اصطبغ احمر من دمهِ اما فنيس فكان لها هيكل عند مخرج النهر لم تزل اثارهُ من ردم وخراب حتى اليوم وكان يقال انهُ افقا وقد حفظ هذا الاسم بنوع عجيب الى الان وكان يقام في هذا المكان كل انواع الرذائل والقبائح حتى ان قسطنطين القيصر الروماني قال ان مكانًا كهذا لا يستحق ان تضيء عليهِ الشمس وامر بهدمهِ فاندك للارض ولم يقم بعد ذلك

واما نهر الكلب فمخرجهُ في جبل لبنان بقرب جعيتا من مغارة هنالك وهو يجري الى الجنوب الغربي ويصب في بحر الروم الى الجنوب من جونة كسروان وكان عليهِ جسر قديم بناهُ الملك انطيوخس قيصر بالقرب من شاطي البحر فهدم بتراكم اشجار عليهِ قد اقتلعها السيل واقام الامير بشير الشهابي جسرًا غيره فوق المكان الذي كان فيهِ سنة ١٢٢٤ للهجرة وهو ثابت الى الان

واما الجغرافيون القدماء فيدعون هذا النهر باسم ليكوس فلومن واليونان يسمونهُ الذئب والعرب يعرفونهُ بالكلب وقد اختلف القوم في وجه التسمية فذهب بعضهم الى ان القدماء كانوا قد اقاموا مثال ذئب لهُ فم مصطنع حتى اذا عصفت الرياح يصرخ صراخًا عظيمًا فيسمع صوتهُ من امد بعيد توسع فيهِ الغلاة فاوصلوهُ الى جزيرة قبرس وذهب اخرون الى ان هدير البحر وضرب الامواج على الصخور يحكي عواء الذئب فسمي بهِ وقيل بل انهُ كان قد اقيم في اعالي تلك الصخور مثال كلب فمهُ مفتوح فكانت الارياح تمر بهِ وتخرج منه اصوات مرعبة غريبة فكان رعبة للقوم واخيرًا اجتمع بعضهم وطرحوا بهِ

الى البحر غير ان كل هذه الروايات خرافية ولا نعلم ايًّا منها كان الاصح في وجه التسمية والارجح ان العلة قد باتت في خبر كان واختفت تحت كرور الزمن وفي المرتفع الذي عند نهر الكلب وبه الممر الى سهول انطلياس بوجد كثير من الآثار القديمة وهي كتابات على الصخور منها ما هو عظيم الفائدة جدًّا كالصحيفة المحرر عليها ما يدل ان تلك الطريق انتشأت في زمن سلطنة ماركوس ابروليوس انطونينوس الذي كان يصرف غاية وسعه بانجاح سوريا وترقية اسباب تقدمها وهو الذي قد انشأ الطريق في انطيلبنان ممر ابيلا ومع ان تاريخ انشاء هذه الطريق مجهول السنة فبعض الادلة التاريخية تظهرها لنا بالتخمين فانهُ لا يخفى ان هذا القيصر لما تغلب على ماركوماني سنة ١٧٢ م تلقب بجرمانيكوس وحيث دعي في الصفيحة بذلك اللقب وكانت وفاتهُ سنة ١٨٠ م انحصر زمان انشاء الطريق بين عام ١٧٢ و ١٨٠

والى الشمال من هذه الطريق طريق اخرى في محل مرتفع يعسر الصعود اليهِ لتقادم عهد حجرانها وعطلتها وعلى جانبها صفائح عليها كتابات قديمة ومثال بعض الملوك وعدتها تسعة ثلثة منها مصرية وستة اشورية مرتبة كما ياتي الاولى مصرية وهي مربعة في اعلاها ومزينة وقد ذكر ماري الانكليزي صاحب كتاب الدليل في سوريا وفلسطين انهُ لما اتي نهر الكلب سنة ١٨٥٨ م لم تكن هذه الصحيفة ظاهرة للعيان على انها امست اليوم تشير الى حادثة غير الاولى فان الجنود الفرنساوية الذين اتوا سوريا سنة ١٨٦٠ كتبوا تاريخ اتيانهم عليها

الثانية اشورية وهي على بعد نحو خمسة اذرع عن الاولى شكلها مربع من الاعلى وعليها مثال اشوري رافع يده اليمنى اما اليسرى فعلى صدره وليس على الصفيحة كتابة ظاهرة الثالثة اشورية تبعد عن الثانية ذراعان وتشخص مثالاً اشوريًّا على انها مربعة في اعلاها ومثالها مائل للانمحاء اكثر من الثانية

الرابعة اشورية تبعد عن الثالثة عشرون ذراعًا وتعلو الطريق الرومانية عشرة اذرع وهي مستديرة من الاعلى وعليها مثال واضح كل الوضوح . ذراعة

الايمن مرتفع و يده قابضة على شيء

الخامسة اشورية تبعد خمسة اذرع عن الاولى شكلها مربع من الاعلى وعليها مثال اشوري رافع يده اليمنى اما اليسرى فعلى صدره وليس على الصفيحة كتابة ظاهرة

السادسة مصرية منحوتة على الصخر الذي عليهِ الخامسة الاشورية ومفصولة عنها بثمانية قراريط وهي مربعة من الاعلى ومزينة فاذا وقع النور عليها ظهر مثالان غير واضحين تمامًا احدهما مثال را اله الشمس وهو الى الجهة اليسرى والملك الى الجهة اليمنى يقدم لهُ تقدمة وعلى تلك الصفيحة بعض كتابات مصرية

السابعة اشورية تعلوها بخمسة عشر ذراعًا مستديرة من الاعلى ومثقوبة نحو ثلثة قراريط وعليها مثال اشوري ظاهر بعض الظهور وليس ثمة اثر لشيء من الكتابة

الثامنة مصرية على بعد ثلاثين ذراعًا بالقرب من راس الممر وهي تشابه الاولى والسادسة المصريتين على انها اكثر وضوحًا منهما ومن يدقق النظر يرى ان في اعلاها مثالين صغيرين الايسر منهما هو مثال امون

اما دوائر الصفيحة فمغشاة بالكتابات التي فيها ما يلي محور الدائرة الواقعة للجهة اليسرى وقد اكتشف علماء الاثار المصريين على كتابة لرامسيس الثاني ملك مصر اما موسيو دوسويس فقد اتى بادلة و براهين كثيرة تؤيد انهُ مرتاب بصحة وجود هذه المقالات على ان من رام الحصول على برهان نظري فعليهِ بزيارة الموضع في الساعة الثانية قبل الظهر حينما تكون الشمس قد وقعت عليها فينضح ما عظم الريب فيهِ

التاسعة اشورية وهي محفورة بذات الصخر الذي حفرت بهِ الثامنة وملتصقة بها كل الالتصاق وهي اكثر وضوحًا واجزل افادة من كل ما سواها اما اعلاها فمستدير وعلى المثال رداء طويل ولحية المثال طويلة مجعدة وعلى راسهِ طربوش وبما ان اكتشافات نينوى قد برهنت ان من عادة ملوك اشور

ان يتزيوا بما ذكر فقد اكد القوم ان هذا مثال احد ملوكهم ويد المثال اليسرى ملقاة على صدره وقابضة على صولجان واليد اليمنى مرتفعة وفوقها كثير من التماثيل الرمزية وعلى الرداء والصفيحة كثير من الكتابات التي لم يزل بعضها ظاهرًا والبعض الاخر افسده كرور الايام قال لابسيسوس ان الثلث صفائح المصرية تحمل ذكر رعمسيس الثاني وهو الذي يدعوهُ هيرودتس باسم سزوسترِيس (وهو الملك الثالث من العائلة التاسعة عشر من ملوك مصر) والخامسة تشخص مثال را المعروف باسم هاليوس وهو اعظم معبودات المصريين اما التي الى اقصى الجنوب اي الثامنة فهي مخصوصة بامون معبود تيبان او بلاد الصعيد والتي الى الشمال اي الاولى فتمثل فتا معبود مامفيس اي مصر السفلى وقد قيل ان الوسطى في السنة الرابعة للملك رعمسيس (١٣٥١ ق م) والظاهر ان قيام هذه الصفائح الثلث كان بعد ثلث فتوحات مصرية مختلفة الاوقات اما هيرودتس فيقول ان سيزوسترسيس صاحب مصر لما حمل على اسيا الصغرى اي بر الاناضول ترك وراءهُ نقوشًا وصورًا تشخص اعمالهُ وتخلدها وانهُ هو راى بعضها في فلسطين وسوريا (ان الضمير هنا عائد الى هيرودتس المؤرخ) ولعل هذه النقوش هي التي ذكرها المؤرخ المذكور

اما الصفائح الاشورية فقد يظن موسيو لايرد انها حفرت بجملتها بامر سنحاريب ملك اشور الذي جاء بجيش عرمرم فهلك باعجوبة في سهل فلسطين على ان الدكتور رنصن يسال عن امكانية حفر ملك واحد ست صفائح واضحة في حملة واحدة قصيرة الزمن ولقد علمنا من التاريخ المقدس انهُ اتى سوريا خمسة من ملوك اشور بعضهم اتوها فاتحين والبعض مروا بها بطريقهم الى مصر اما اولئك السلاطين فهم فول وتغلث فلسر وشلمنصر وسرغون او قائده ترتان وسنحاريب وما من سبب يمنع كلاً من هولاء السلاطين من حفر تاريخهِ او مثالهِ على احدى تلك الصفائح وهو غني عن البيان ان المرور من بلاد اشور الى مصر كان صعبًا جدًا ولذلك كان يحق لمن تغلب على

تلك الصعوبات ان يفتخر بانتصاره ويخلد اسمهُ وفعلهُ

روى الدكتور روبنصن ان عصر سزوستريس (وهو ملك مصر المعروف برعمسيس الثاني) كان في النصف الثاني من الجيل الرابع عشر قبل الميلاد اي قبل تتويج داود ملكاً بثلاثة اجيال وانهُ يظن ان سنحاريب تولى الخلافة الاشورية سنة ٧٠٢ ق م فبناء على ذلك يكون بين الصفائح التي حفرها سزوستريس والتي حفرها سنحاريب نحو ستة اجيال واذا نظرنا الى الصفائح الاشورية نرى انها قد حفظت ذكرى اولئك الاقيال العظام نحو خمسة وعشرين قرناً اما صفائح سزوستريس فقد حفظت ذكراه واحد وثلاثين قرناً وهذا يتصل بنا الى اقدم القدم حتى زمان قضاة بني اسرائيل قبل ان عرفت اورشليم

وكيفما كان الحال فان هذه الكتابات والنقوش جعلت نهر الكلب من اهم المحلات التاريخية التي يؤمها اهل السياحة والمعارف لكي ينعموا النظر في اثارها وفي سنة ١٨٧٣ اتت سوريا عمدة اميركانية اقيمت للبحث في الاثار القديمة الفلسطينية في عبر الاردن تحت رئاسة الليوتنان ستيفر فبلغت هذه العمدة مدينة بيروت وخرجت الى نهر الكلب فاكتشف على كتابات لم تكن معروفة من ذي قبل منها لاتينية من ايام الملك انطيوخس واخرى عربية من ايام السلطان سليم العثماني الذي اجتاح سوريا واخذها سنة ١٥١٧ م

اما ماء هذا النهر فعذب وبارد وهو خفيف جداً . ذلك ما حمل احدى الشركات الانكليزية على جر مائهِ الى بيروت لقلة الماء فيها

الفصل الخامس عشر

بيروت

هي الان اول مدن سوريا شهرة ومن اكثرها تقدماً ونجاحاً موقعها الى جانب الشمال الشرقي من لسان طويل داخل في البحر طولهُ الشرقي ٣٥ َ٢٨ ً وعرضهُ الشمالي ٣٣ ْ ٥٠ َ . اما المدينة فعلى نحو ساعة منهُ الى جهة الشرق بميلة

الى الشمال وهي فرضة دمشق واليها مصب حاصلاتها لتصدر بحرًا وقد انتقلت اليها هذه الاهمية منذ عهد قريب من صيدا اما ميناء بيروت فغير امين للسفن فان هبت الرياح الغربية تلتجيء السفن الى خليج مارجرجس عند مصب نهر بيروت في مكان يقال لهُ الغناس وان هبت الرياح الشمالية يبات هذا المرسى خطرًا ايضًا وعدد اهالي بيروت على ما قالهُ بعضهم ستون الفًا ثلثهم من الاسلام والثلثان من النصارى واليهود والغرباء وقد قال بعض المدققين ان عدد اهالي بيروت قد تضاعف مرتين عن عددهم منذ ثلاثين سنة

وحيث اكثر الكاتبون عن تاريخ بيروت والتدقيق فيهِ راينا ان نلخص ما ورد في النبذة المعنونة بجواهر ياقوت في تاريخ بيروت للمرحوم داود افندي كنعان المدرجة في الجنان مع بعض زيادات من غيرها

لقد وقع الخلاف في مؤسس بيروت فذهب بعضهم الى ان اسمها القديم جاريش واستدل من ذلك على ان بانيها الجرجشي بن كنعان وقال اخرون خرافة ان بانيها ساترنيس وهو زحل فكان من المعبودات القديمة وذهب غيرهم ان اسمها من بيرو با ابنة الزهرة وادونيس وقيل بل اسمها من الزهرة لان تلك تدعى بيروث (بالثاء) ومنهم من قال انها باروث وهي بالعبرانية والفينيقية بئر وفهم من عبارة نقلت من سانكونياثو ان بيروت كانت بعد جبيل في الاولوية والقدمية غير ان رواية هذا غير مقارنة للصواب لان الكتاب المقدس والتاريخ يصرحان بقدمية صيدا وتقدمها عما سواها وكانت المياه تاتي بيروت فوق قناطر عظيمة تسمى زبيدة لم تزل اثارها الى الان وقد اختلف القوم في بانيها قيل بنتها زنوبيا ملكة تدمر المعروفة بزينب وقيل بطليموس ابيفانوس ٢٠٤ ق م وقد اشتهرت بيروت كاخواتها مدن فينيقية واكتشف القوم على اثار بها تدل على بعض عظمتها من ذلك حجر مكتوب عليهِ باليونانية ما ترجمتهُ ايها الداخل بهذا الباب افتكر بالرحمة فظن بهِ

عتبة عليا في باب احدى المجالس ووجدت مسكوكات كثيرة اكثرها من ايام خلفاء الاسكندر

وذكر صاحب سفر الاخبار نقلاً عن المؤرخ بياجيوس ان بيروت كانت تساس في زمن دولة مادي بشرائعها الوطنية على ان هذا يدل على تقدمها اذ ذاك لانها فعلت امرًا عظيما حال كونها خاضعة للاجانب ذلك انها لم تترك جانبا شرائعها الخاصة كان خضوعها بالاسم فقط وذكر احد الكتبة المتاخرين ما ياتي مترجمًا ان مدينة بيروت الان واقعة في مكان يدلّ تمامًا على موقع بيروتس القديمة التي عرفها اليونان والرومان بهذه الاسم ولقد يظن ان الفينيقيين بنوها مع انهُ لم يرد ذكرها الا في مولفات سترابو ولا يمتد زمان اول حادث تاريخي فيها لما قبل ١٤٠ ق م عند ما دكها بتريفون مختلس سرير مملكة سوريا وذلك في زمن سلطنة ديمتريوس نيكاتور . اه

واستمرت خمسًا وسبعين سنة بحال الخراب حتى رممها بمبيوس الروماني وقطنها جند من الجيش الخامس المكدوني والثامن الاغوسطسي واشتهرت باسم (كولونيا جوليا اغوسطا فيلكس بيروتس) وترجمتها مستعمرة بيروت جوليا اغوسطا السعيدة ومن ذلك الحين عرفت بيروت بجوليا فيلكس تشرفًا باللقب الروماني الذي منحتهُ على اسم ابنة امبراطورها وانعم اغوسطس على بيروت بحقوق الرومانيين فصكوا نقودًا باسم بيروت المستعمرة ثم حباها منحة تدريس الفقه والشرائع فتأسست فيها المدرسة الكلية الشهيرة فغدت تهرع اليها التلامذة من الاقطار ليدرسوا فيها فاصبحت تدعى مرضعة الفقه ولما اشتكى هيرودس على ولديهِ لاغوسطس طلب محاكمتهما في بيروت وبعد تردد اغوسطس اذن لهُ فعقد في بيروت محفل لمحاكمة الولدين اللذين لم يامر ابوهما باحضارهما بل تركهما في قرية بين صيدا وبيروت يقال لها بلاتانا (اثارها فوق خان يونس وبجوارها جرت موقعة شديدة بين انطيوخس الكبير وبطليموس) واشتكاهما باصرار وثبات كانهما ليسا بولديهِ وادعى

بسلطتهِ المطلقة عليهما وطلب اتفاق الاراء ضدهما فصدر الحكم بقتلهما فقتلا

وكان كثيرون من ملوك المكابيين كهيرودوس واغريبا وغيرهما يريدون ان يرضوا القيصر الروماني فيهتمون بتحسين بيروت ولذلك اخذت تزداد تقدماً وتحسيناً فبنا هيرودس هياكل ودوراً ومخازن كثيرة وبنا اغريبا مشهدين كبيرين واخراً الاقتتال الادميين كان يتبارز فيهِ الف واربعمائة رجل من المجرمين المحكوم عليهم بالموت وكانوا يقسمون قسمين اما اغريبا الثاني فبنى مشهداً ثانياً فزينهُ بالصور والتماثيل فاصبحت بيروت جامعة كل اسباب الحظ والتحسين ولذلك لم تكن ملاعبها واعيادها اقل رهجة ورونقاً مما يجري في رومية وقد اطال يوسيفوس العبارة بذلك فلا حاجة لنقلها الا ملخصاً كما مرَّ

وكان وسبسيانوس الروماني يحارب اليهودية باسم قيصرية الرومانيين فخلا السرير بعد وفاة القيصر فيتلوس ولذلك بايعهُ الجند في سوريا فخلف ولدهُ تيطوس بالجند لحصار اورشليم ونكص عائداً الى رومية ليلبس الحلة القيصرية ويقبض صولجان الدولة العظمى فمر على بيروت فزارهُ فيها كثيرون من ولاة البلاد السورية وغيرهم وهنأوهُ بالامبراطورية ثم بعد حين جاءها ابنهُ تيطوس وكان تيطوس قد احتفل في قيصرية عيد مولد اخيهِ دومتيانوس احتفالاً عظيما وقتل في ذلك اليوم كثيرين من اليهود انتقاماً حتى بلغ عدد القتلى بين الذين افترستهم الوحوش او اهلكتهم النار او قتلوا بعضهم بعضاً نحو الفين وخمسمائة رجل وجاء بعد ذلك الى بيروت وهي بلدة فينيقية فيها نخل روماني وحل في تلك المدينة مدة طويلة واحتفل فيها عيد مولد ابيهِ احتفالاً عظيماً جداً واظهر كمال الفخفخة وبذل اموالاً كثيرة وقتل عدداً غفيراً من الاسرى اليهود كالذين قتلوا في قيصرية .

اما زيارة تيطس هذه فربما كانت سنة ٧١ مسيحية وقد ضرب فيها

مصكوكات وجد بعضها وكان شيلاوس ملك النبطيين قد خطب من هيرودوس شقيقتهُ سالومي فرده خائبًا فحنق شيلاوس عليهِ حتى اذا التجأ اليهِ بعض اشقياء كورة انطرخون وهي بلاد الشقيف بعد ان ازعجوا اليهودية وسوريا السفلى حماهم دون وصول هيرودوس اليهم غير انهُ التزم بعد ذلك ان يقسم في بيروت بتسليمهم وذلك امام سانورينوس وفولونيوس واليي سوريا وفينيقية وفي بيروت اطلق سبيل يوسيفوس بن كربون المؤرخ بعد ان كان مأسورًا في معسكر الرومانيين . قال صاحب سفر الاخبار ملخصًا ان تجارة بيروت جاءتها بكثيرين من الاغراب الذين اتوها بعبادة المشتري وكان يعبد في بعلبك واستشهد في ذلك بعض المؤرخين وذكر رواج تجارتها وحسن خمرها وكثرة النسج واتقانهُ فيها وفي سنة ٢٢٣ تبوأ سرير قيصرية رومية اسكندر سفيروس وهو سوري لانهُ ولد في عرقا لبنان سنة ٢٠٥ فزين بيروت واحسن اليها باشادة مدرسة للشرائع الرومانية فجاءتها التلامذة من كل مكان وتعلم فيها كثيرون من فحول الاعصار السالفة وظلت بيروت رائعة باعلى درجات التقدم من الجيل الثالث حتى السادس على ان في سنة ٥٥١ دهمتها زلزلة مهولة دكتها الى الارض فانتقلت مدارسها وعلومها حينًا الى صيدا وقد ذكر بعضهم ان الديانة المسيحية دخلت بيروت في عهد الرسل الحواريين ووردان سنة عقد ٤٤٧ فيها مجمع حكم ببرأة اسقف الرها مما اتهم بهِ وهو اتباع عقيدة نسطور واعمال هذا المجمع مدونة بين اعمال هذا المجمع الخلكدوني ولما اراد جوستنيانوس قيصر رومية ان يؤلف كتابهُ المشهور في الشريعة استدعى استاذ مدرسة بيروت ليشاركهُ فيهِ وعند ما امر باستعمال كتابهِ المذكور لم يأذن بهِ سوى للمدن الملوكية ولبيروت

وبينما كانت بيروت خاضعة للرومان كانت تمر عليها حوادث زمانهم الى ان اخذ الفتح الاسلامي بالتقدم ولم يكن من قصد الفاتحين اخذ السواحل قبل الداخلية ولم يلتفتوا الى بيروت وغيرها حتى اخذوا دمشق وانطاكية

وحلب واخوتها في الداخلية فافتتحت هذه المدن في ايام الخليفة عمر بن الخطاب وذلك سنة ٦٣٥ م الموافقة ٢٤ هجرية على ان المردة الذين لم يكونوا قد خضعوا للاسلام كانوا مالكين بيروت لذلك لم يحسب الكتبة فتوح بيروت في ذلك الحين على انها عادت ففتحت ابوابها للمسلمين فجرى لها اكثر ما جرى لاخواتها من المدن السورية على انها لم تكن حينئذٍ على حالتها الاولى بل ان زلزلة الجيل السادس وتعاقب الدولتين والحروب اعدمها الرونق الاول بل امست حقيرة وقد اورد صاحب سفر الاخبار نص رسالة بعث بها زاميشاس قائد جيوش نيكفورس فوقاقيصر القسطنطينية المعروف عند العرب بالسمسق الى الشود شاهان ملك ارمينيا يخبره بها عن استخلاصهِ بعض مدن في سوريا باسم مولاهُ وذلك في اواسط الجيل العاشر (٩٦٢ م) وقد ورد في تلك الرسالة ذكر بيروت وهذا ما يتعلق بها وتقدمنا على شاطىء البحر حتى مدينة وريدون البلد الحصينة والشهيرة التي تسمى الآن بيروت فالتقيناهناك بعساكر الافريقيين فاوقعنا بهم القتال وعملنا بهم ملحمة مرعبة واسرنا منهم الف رجل . . . . . واقمنا بعض الجنود في وريدون واخذنا طريق صيدا . ا ه

على ان دولة الروم لم تطل حتى عادت البلاد الى الفاتحين الاولين اي الاسلام فاصبحت بيروت بيد الدول الاسلامية تقلبها الظروف حتى مجيء الافرنج فانهم بمرورهم الاول الى بيت المقدس لم ياخذوها لان اميرها عضد الدولة خرج اليهم مقدماً لهم الزخرة وطالباً الاَّ يدخلوها على انها لم تدم طويلاً دون زيارتهم حتى جاءها بالدوين الاول سنة ١١١٠ ونازلها براً وبحراً شهرين فملكها بالسيف وقتل منها نفراً كثيراً

ولقد نقل صاحب سفر الاخبار عن المونسنيور ميسلن قولهُ ان عسكر بالدوين قطع الادوات الحربية من غاب الصنوبر الذي يرى حتى الآن بالقرب من بيروت ومن هذه الرواية ما ينقضهُ زعم دولامرتين وفولناي

وغيرها بان فخر الدين هو غارس هذا الغاب وفي رواية اخرى ان با الدوين لم يتمكن من فتح المدينة حتى انجده امراء مردة لبنان بقومهم وافرنج السواحل وانهُ قتل في فتح المدينة خمسة من امراء بيروت واسر ثلث وان قتل با الدوين الثالث ملك الافرنج فحملوهُ الى القدس ودفنوهُ هناك بمقبرة الملوك وسنة ١١٨١ سار صلاح الدين بعسكره الشامي الى ساحل بيروت فغزا برها وقطع كرومها فقدم اليهِ اخوه بعسكره برًا و بثلاثين مركبًا بحرًا فغزا نواحي دارا وعسقلان وغزه وفي اليوم الثالث نزل الملك با الدوين الى مقاتلتهم فصدهم فرحل صلاح الدين عن بيروت الى الموصل ولم ينفك ذلك البطل صلاح الدين عن ملاحقة فتح بيروت فعاد اليها سنة ١١٨٦ على ما رواهُ البطريرك الدويهي اثناء كلامهِ عن فتوحات السلطان حيث قال ثم سار الى بيروت فحاصرها ثمانية ايام وتسلمها وكتب للامير جمال الدين حجي التنوخي اقطاعات الغرب التي كانت بيد ابيهِ كرامة الذي كان واليًا على بيروت قبل الافرنج .

وقال بعضهم ان فتح بيروت كان سنة ١١٨٧ على انهُ كيفما كان الحال فقد اخذها صلاح الدين بعد موافعة الافرنج في حطين وكسرهم كسرة مهولة قتل فيها منهم ثلاثون الفًا واثنى عشر رجلاً من فرسان الهيكل وقد ورد انهُ تسلمها في ٢٩ جماذى الاولى وانهُ قطع الزيتون المحيط بها وعمل منها آلات المنجنيق والحصار واستمرت بيروت عاصمة حكومتهِ في سوريا مدة عشر سنوات وقيل سبعًا حتى حرب القاسية الاني ذكرها وسنة ١١٩٥ اخذ الملك العادل يافا با السيف من الافرنج وهدمها فجاء الافرنج الى بيروت وحاصروا نائبها عز الدين اسامة الكناني فتركها وفر الى صيدا فملكها الافرنج بغير قتال . وكانت حرب القاسية بين الصليبية وعساكر الملك العادل الايوبي حيث انتصر الافرنج وهرب والي بيروت فاتوا اليها فوجدوها خالية من الاعداء موعبة من المؤن فاحتلوها واستخلصوا بعض اسراهم الذين كانوا هناك وتولاها

رجل يقال لهُ واسيلون وضرب بها نقوداً وجدت واحدة منها وهي الآن يتيمة عند احد اشراف روسيا وظل الافرنج في بيروت حتى سنة ١٢٩٠ م حينما استرجعها السلطان الاشرف صلاح الدين هو غير السلطان صلاح الدين الايوبي على ان هذا الثامن من ملوك الترك في مصر ثم قصدها سنقر الشجاعي وحاصرها ففتحها وهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً وجعل كنيسة مار يوحنا جامعاً ومحا صورها بالكلس على ان ابا الفداء لم يأت بهذه الرواية كلها بل قال: لما فتحت عكا القى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فاخلوا صيدا وبيروت ونسلمها الشجاعي في اواخر رجب قيل ان سنقر المذكور لما دنا من بيروت وعد الاهلين بالامان وبحفظ العهود المنعقدة معهم قبلاً على انهُ طلب اليهم ان يخرجوا الى لقائهِ فلما خرجوا واثقين اعتقلهم وقتل منهم كثيرين واخذ المدينة وهدم سورها ودك قلعتها

فعادت بيروت للدولة الاسلامية وتداولتها ولاتها وسنة ١٣٣٢ جاءتها مراكب الجنويين لاخذ مركب كتيلان وكان ذلك في ولاية عز الدين البيسري من قبل تنكز نائب دمشق فخرجوا الى البر ونازلوا المدينة وحاصروها يومين فدخلوا البرج واخذوا الاعلام السلطانية والمركب فلما بلغ امير الامراء تنكز ذلك ارسل يطلب امراء الغرب من عرمون الغرب وتركمان كسروان ولامهم واهانهم لاهمالهم المحافظة

قيل ان السبب في ذلك ان ابن ملك البندقية اتى بيروت ببعض اعوانهِ طلباً للتنزه فلم يسر الاهلون بذلك فقال لهم احد المشائخ وهو اعمى انا اقتل الغلام واكفيكم شره بشرط ان تكفوا اصحابهُ عني اذا حملوا عليَّ فاجابوه الى ذلك واقاموا لابن الملك كرسياً في فسحة امام باب القيسارية العتيقة فجلس ثم اتى الشيخ الاعمى بجماعة من اصحابهِ وسالهُ صدقة وبينما كان يخرج لهُ الصدقة من كيسهِ هجم عليهِ الاعمى واخذ بعنقهِ ليخنقهُ فوثبت عليه اعوان الملك فلم يمكنهم اصحاب الشيخ من الوصول اليهِ حتى مات ثم مالوا على اعوانهِ بالسيف

فقتلوا قوماً منهم والذين نجوا هربوا الى البندقية فاخبروا الملك والده فلما بلغهُ ذلك استشاط غضباً وجهز بوارج حربية وارسلها على المدينة فضربتها ولما فتحت العساكر المدينة قتلوا منها خلقاً كثيرا واحرقوا المدينة وهدموها فتشتت الذين بقوا من اهلها و بقيت خربة مهجورة حتى رجع جماعة منهم فاصلحوا بعض مساكنها وسنة ١٣٤٨ دهم البلاد طاعون و بيل كتب فيه ابن الوردي رسالتهُ المشهورة بالنبا عن الوبا وقد نقل بعضها صاحب جواهر ياقوت فاصاب بيروت منهُ ما فتك فيها ذريعاً وسنة ١٣٨١ انقرضت الدولة التركية من مصر وقامت الدولة الجركسية مكانها فانتقلت بيروت الى حكومتها وما زالت كذلك حتى اتى المرحوم السلطان سليم الاول العثماني الغازي سنة ١٥١٧ وافتتح سوريا وقهر الغوري ثم طومان باي فاصبحت بيروت كاخواتها بلدة عثمانية طارحة نير الجراكسة بعد ان اقاموا في ولايتها مائتين وخمسا وستين سنة وسنة ١٥٩٨ تولاها الامير فخر الدين المعني المشهور ثم بدا يتولاها بعد كبح ثورته الولاة والحكام العثمانيون بامر الدولة العلية وقد ذكر صاحب جواهر ياقوت كل حكامها من ايام تسلط الدولة حتى الايام الاخيرة وكذلك ذكر طرفا من ولاتها الشهابيين وفي الجيل السابع عشر اصبحت بيروت كقرية وقد خسرت كل زهوتها الماضية وسنة ١٧٥٨ قبض بعض لصوص سفن الافرنج وهم القرصان على سفينة لاهل بيروت فهاج اسلامها على الافرنج الذين فيها وهجموا على الافرنج الذين فيها وهجموا على دير الكبوجية واعتقلوا الرهبان الذين فيه ونهبوا الدير واتلفوا الموجودات فبلغ الامير سليمان اللمعي وهو يومئذٍ والي بيروت فبعث قوماً حلوا المعتقلين من قيودهم وقبضوا على المذنبين ثم امر بقتل اثنين منهم واسترجع للرهبان ما انتهب من ديرهم وفي تلك السنة اتى بيروت الطاعون وكان عاماً كل البلاد واستمرت على هذه الحال تتناوبها الحكام حتى سنة ١٧٧٠ عندما تنازل الامير منصور الشهابي لابن اخيهِ الامير يوسف عن ولاية لبنان و بيروت فاقر درويش باشا والي صيدا الولاية

على الامير يوسف و بعث اليهِ بالخلعة المعتادة وفي غضون ذلك جاء احمد الجزار البشناقي من مصر فارًّا من علي بك والي تلك البلاد فترحب الامير بهِ واكرمهُ ووضعهُ في بيروت ورتب لهُ نفقة من رسوماتها (ان احمد الجزار من المشهورين في هذه البلاد ولذلك سنذكر ترجمتهُ في عكاء)

وسنة ١٧٧١ جاءت السفن الروسية من عكا الى بيروت باشارة من ظاهر العمر وحاصرتها ففر الامراء الشهابيون منها وكان الامير منصور عم الامير يوسف من الفارين وكان وصول هذه السفن قبل الصباح والناس نيام فاصطفت تجاه المدينة واشهرت رجالها علامات الحرب فاحرقوا بعض الابراج واطلقوا المدافع عليها فتملكوها ونهبوها قيل ان هذه السفن اطلقت على بيروت ستة آلاف مدفع طلقًا واحدًا فكتب الامير منصور كتابًا الى ظاهر العمر يلتمس منهُ رفع المراكب عنها فرفعها بعد ان اعطى الامير اربان تلك السفينة الروسية خمسة وعشرين الف غرش فقبضها واقلع عن المدينة قيل ان هذه السفن لم تات البلاد الا بالتماس علي بك الكبير صاحب مصر من كاترينا امبراطورة روسيا لانهُ كان يقصد الرجوع الى مصر بعد ان اتى سوريا ولما اقلعت هذه السفن برجالها من بيروت بعث الامير يوسف يلتمس الى عثمان باشا والي دمشق ان يرسل اليهِ احمد الجزار فانهُ كان قد استخدم عند الوالي فارسل عثمان باشا مدبره والجزار وثلثمائة نفر من المغاربة لحراسة بيروت وما زالوا سايرين حتى بلغوها وقبل دخولها اغتال احد العسكر الجزار فاطلق عليهِ الرصاص فاصاب عنقهُ فتألم ألمًا شديدًا ودخل بيروت وهو مشرف على الموت فاغتم الامير يوسف لذلك وكان الجند الذين جاءوا معهُ قد وثبوا على الذي اطلق الرصاص عليهِ فقتلوهُ وسنة ١٧٧٢ اقام الامير يوسف احمد الجزار متسلمًا على بيروت وكتب الى مدير رسومات البلد وحافظ قلعتها وسائر المامورين ان يودوا الطاعة والدخل لاحمد بك الجزار وكان دخل بيروت للامراء فابقى الجزار المغاربة عنده ودعا مدبر عثمان باشا الى دمشق وسار

الامير الى دير القمر ثم ظهرت شرذمة عصيان بين مشايخ بلاد جبيل فسار الامير اليهم واصحب معهُ المغاربة فادبهم واتى بيروت فالتقاه الجزار بكل محبة ووداد ولما عاد الامير الى مقرهِ وخلت بيروت للجزار اخذ برمم السور والقلعة ويحصن البلدة ويعد المال والرجال والذخرة والالات فعلم الامير يوسف بذلك وخاف العاقبة وعلى الخصوص لان محمد بك ابا الذهب والي مصر كان قد كتب لهُ بخيانة الجزار وطلب راسهُ فارسل الامير يوسف يطلب الى الجزار الاقلاع عن تلك الاستعدادات والرجوع الى الشام لخدمة عثمان باشا وهو يضمن البلد من الروسيين فابى الجزار الاجابة واخذت المخابرات تجري بينهما واخيرًا تحقق الامير عصيانهُ فجمع الرجال واتى بيروت قاصدًا اخراجهُ بالقوة فطلب الجزار الاجتماع بالامير بشرط ان لا يكون معهُ سوى بعض اتباعهِ واعيان البلاد ولا ياتي هو الا بمثل ذلك فتقابلا في المسيطبة بالقرب من بيروت وتذلل الجزار للامير جدًّا واخذ يحاول اقناعهُ انهُ لا يروم الخروج عن طاعتهِ واكد لهُ انهُ يسلمهُ البلد بعد اربعين يومًا فاغتر الامير بوعده وصدقهُ وعاد راجعًا الى دير القمر اما الجزار فعاد الى التحصين وجمع المؤن والذخائر الى ان مضت الاربعون يومًا ولم تسلم المدينة للامير فكتب الامير الى الجزار بطلبها فابى واظهر العصيان وامر المغاربة بقتل من يجدونهُ من الجبل ففعلوا وكانوا ينهبون ما يجدونهُ خارج البلدة فجمع الامير عسكرًا ونهض بهِ لحصار بيروت وطلب من ظاهر العمران يخابر السفن الروسية الموجودة في قبرص على استخلاص بيروت من ايدي الجزار وكان الشيخ ظاهر من اصدقاء الامير منصور عم الامير يوسف فاجاب طلب الامير وكتب الى السفن الروسية فيل وكان اسم اميرها الكونت جني فجات السفن من قبرص الى بيروت واشترط امير السفن على الامير الشهابي ثلثمائة الف غرش يدفعها عند تسليم البلد واسترهن امير السفن ابن الامير منصور على اداء العهد فابتدأت بالحصر واخذت السفن تضرب المدافع فتهدم البيوت والمنازل وتنزل بالمحصورين

ويلاوهولنًا وانزل الروسيون المدافع الى البر وحصروا المدينة برًا وهكذا باتت بيروت باسوإ حالة وامسى الاهلون في ضيق شديد حتى التزموا بعد نفاذ زادهم ان يأكلوا الكلاب والجرذان والخيول وغيرها ومع ان المدافع لم تكن قليلة الاذى لم تضر ضررًا بليغًا في بيوت بيروت كما اضرت غيرها وذلك لان بناءها من الحجر الرملي فكانت قلة المدفع تضر الحجر الذي تصيبهُ دون غيره من سائر البنا وعلى ذلك استمر الحصار اربعة شهور وكان القوم يسمعون دوي المدافع ولغيطها من دمشق واخيرًا ضاق الحال بالجزار فالتمس من الشيخ ظاهر العمر النجاة لهُ ولاتباعهِ على انهُ يخرج من بيروت باصحابهِ ويسلمها ولا يبدي ما يضر باهالي بيروت فاجابهُ الامير والشيخ الى ذلك وبعثا الى البلد فاستلمها الامير وخرج الجزار وكان اجراء هذا التسليم على يد رجل يقال لهُ يعقوب الصيفلي وغرم الامير يوسف اسلام المدينة بثلثمائة الف غرش فجمعوها ودفعها الامير الى ربان السفن الروسية وعاد الامراء فسكنوا بيروت وسنة ١٧٧٦ ارتقى احمد الجزار الى رتبة الوزارة السامية فصار واليًا على صيدا ولقب احمد باشا فخافهُ الامير يوسف لحصار بيروت ولذلك بعث اليهِ بالهدايا والتقادم فاجابهُ احمد باشا متلطفًا ومتذكرًا صداقتهُ الاولى وفي تلك السنة جاء احمد باشا بيروت فاستولى عليها ورفع يد الامير عنها وضبط ما فيها من الاملاك للامراء الشهابيين وهدم دورهم ورمم بحجارتها السور الا دار الامير مراد فانهُ ابقاها حصنًا واحرق بعض بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات وقطع اشجار اهل الجبل التي بجوانب البلد واستمر في بيروت حتى اخرجه منها وزير البحر الذي كان قد اتى عكا لازالة ظاهر العمر وفي سنة ١٧٩١ امر الجزار بخروج الافرنج من بيروت فخرجوا ثم توفي الجزار في عكا سنة ١٨٠٤ وتولى بيروت بعد الامير يوسف الامير بشير عمر الشهابي وفي سنة ١٨٢٦ عند ما شهرت اليونان الحرب على الدولة العلية العثمانية طلبًا للاستقلال جاءت مينا بيروت ثلث عشرة سفينة يونانية ورست في المينا ليلاً وخرج

بعض رجالها الى البر فنصبوا السلالم على السور وتدلوا منهُ الى المدينة وضربت السفن المدافع على البلد فثار الاسلام على اليونان الداخلين وضربوهم فارجعوهم الى الوراء وعرف الامير بشير مجيء اليونان فكتب الى المناصب واجتمع رجال كثيرون فلما راى اليونان كثرة الجموع عادوا الى سفنهم ونكصوا الى بلادهم اما البلد فعادت الى ولاتها حتى سنة ١٨٣١ عندما بعث محمد علي باشا خديوي مصر ولده وقائد جيشهِ ابراهيم باشا يستولي على سوريا فاخذ بيروت وغرس بعض اشجار من الصنوبر في الحرش القديم الذي بقربها واستمرت بيد ابراهيم باشا يولي عليها متسلمين حتى سنة ١٨٤٠ حيثما اتفق السلطان عبد المجيد الغازي العثماني وامبراطور روسيا وملكة الانكليز وملك بروسيا على استخلاص سوريا من يد محمد علي باشا فاتت السفن ميناء بيروت وكانت نحو اربعين كبارًا وصغارًا فخرجت سكان بيروت الى الجبال وعند المساء اطلقت المدافع عليها اذ لم يسمح محمود بك متسلمها من قبل ابراهيم باشا بتسليمها وغطى الدخان الساحل فانهدمت بعض الدور داخلها وخارجها وفر سليمان باشا احد قواد الجنود المصرية بالعسكر الى الحازمية فاستلم الكوميدور الانكليزي البلد واعادها الى الدولة العلية العثمانية وسنة ١٨٤٢ صدر امر الدولة العلية بنقل كرسي الولاية من صيدا اليها فاتاها سليم باشا ليسوسها باسم الدولة العلية ومن ذلك الحين اخذت بيروت ترقى سلم التقدم والنجاح واتسع نطاق بناياتها بعد ان كادت تمسي قاعًا صفصفًا وانتقلت اليها التجارة واتاها كثيرون من الافرنج وعظم شانها واخذت البواخر بالتردد عليها وكثرت سكانها وباث لاهليها عظيم الرغبة في تعليم اللغات الاوربية لاسيما اللغة الفرنساوية وما زال يتامرها الواحد من المشيرين بعد الاخر حتى حادثة سنة ١٨٦٠ في لبنان ودمشق فهرع اليها كثيرون من الناس واتتها جماهير الافرنج وسفن كثيرة وبعثت حكومة فرنسا الامبراطورية جنودًا تحت امرة الجنرال بيفور فضربت تلك الجنود خيامها

في ظاهرها ثم انعقدت في بيروت لجنة مشكلة من نواب الدول يترأسها
فواد باشا ناظر الخارجية العثمانية وهو يومئذٍ مأمور فوق العادة في سوريا
فانقضت بتلك اللجنة اسباب الخصام والنزاع ومن ثم عادت الجنود الفرنساوية
الى اوطانها وراق الحال وامن الناس فامرت الدولة العلية بتقسيم الممالك
المحروسة الى ولايات فكانت ولاية سورية من حدود ولاية حلب حتى
عريش مصر ومقام واليها مدينة دمشق الشام على انهُ يأتي بيروت في كل
سنة ويصرف فيها زمانًا طويلاً واول والٍ في سوريا جرى هذا التقسيم
في ايامهِ كان محمد رشدي باشا سنة ١٨٦٤ اما البلدان فامست حكومتها
متصرفية متعلقة بالولاية بعد ان كانت قائمقامية وصارت الثانوية قيمقاميات
تتعلق حكومتها بالمتصرفية اما حكام القضاوات فهم المديرون ومرجعهم
للقائمقاميات او المتصرفية وهكذا امست بيروت متصرفية وضم اليها صيدا
وصور ومرج عيون وتوابعها على ان كثرة اقدام السياح والمهاجرين اليها جعلها
تسرع بالتقدم فخطت في سبيلهِ حتى بلغت شأوًا مستحسنًا وكثرت فيها المدارس
والمطابع وانتشرت الكتب والجرائد حتى امست تحسب من المدن المسرعة
بالتقدم المادي والادبي وتهافت بنوها الى ورد الاداب حتى حشدت منهم جمًّا
غفيرًا وسنة ١٨٦٥ نجزت ترجمة الكتاب المقدس من اللغات الاصلية الى
العربية بقلم العلامة الفريد الدكتور كرنيليوس فان ديك الاميركاني وكان قد
شرع فيها العلامة المرحوم عالي سميث الاميركاني غير انهُ توفي قبل تمامها فاكملها
واعتنى بها الدكتور فان ديك المومإ اليهِ وطبعت في مطبعة الاميركان
الشهيرة ولم تكن هذه الترجمة كل اعمال ذلك العلامة المفضال بل ان لهُ من
المؤلفات العلمية والطبية ما تشهد لهُ بالفضل على اللغة العربية ومطالعي كتبهِ
ونجز في غضون ذلك محيط المحيط وقطر المحيط وهما قاموسان للعربية الاول
مطول والاخر مختصر وهما للفاضل بطرس افندي البستاني رئيس المدرسة
الوطنية وصاحب الجرائد الشهيرة بالجنان والجنة ومولف دائرة المعارف

الجزيل الفائدة ثم ظهر في بيروت ايضاً تاليف الاديبين الاريبين سليم افندي الخوري وسليم افندي شحاذة وهو كتاب اثار الادهار اي قاموس الجغرافية والاعلام التاريخية وهما يصدرانهِ اجزاء نجز منها عدة ولم تكن وفاة الاديب المرحوم سليم افندي الخوري لتمنع رفيقهُ عن اتمام العمل وليس هذا كل ما ظهر في بيروت منذ بدأت بالتقدم بل ان كتباً وجرائد كثيرة ظهرت للوجود

وقد احرزت بيروت من العلماء الافاضل من افتخرت ولم تزل تفتخر بهم ولئن كانوا ليسوا باصليين فيها فمنهم العلامة العالم المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي الشاعر العربي النحوي اللغوي المشهور وفي بيروت يقيم القناصل الجنرالية للدول الاجنبية ومنذ ازدادت حركة التجارة في بيروت لازدياد تقدم اهلها اعتنت شركة فرنساوية بمد طريق المركبات بين دمشق وبينها فتمت وجرى عليها الشغل وهي اول طريق تمهد في سوريا

اما هواء بيروت ففي غاية الاعتدال سيما زمن الشتاء غيران حرها في الصيف شديد وذلك لتعرضها للشمس كل النهار اما الربيع فليس بنضر في بيروت كغيرها على انها بالاجمال من احسن المدن وفيها كثير من الدساكر والفنادق والبنايات الجميلة الحسنة المنظر ومنظرها من البحر جميل للغاية ومع ان تجارتها الواردة رائجة جداً ليس فيها من الحاصلات ما تعوض بهِ خسارة فرق الوارد عن الصادر وهذا نقص في تجارة كثير من المدن السورية بل انهُ السم في الدسم وقد احتملت بيروت في هذه الايام الاخيرة خسارة باهظة بالتجارة وليس فيها صناعة تستحق الذكر غير البناء والتجارة على انهما بدون اصول كصناعة كل صناع بلادنا وتاتي بيروت سفن تجارية كثيرة منها ذات شراكات لها خطة معلومة كالفابورات الروسية والفرنساوية والنمساوية ومنها ما تاتي دون ترتيب كالانكليزية والعثمانية وبعض الامم الاخرى واكثر صادرات بيروت كمية وقيمة الحرير وهو ليس من حاصلاتها بل ان القسم الاوفر منهُ من حرير لبنان اما لبنان فقد اضربنا عن

ذكره وتاريخه صفحاً لان صاحب اخبار الاعيان في جبل لبنان قد استوفى الشرح في ذالك

الفصل السادس عشر

مدينة بعلبك

لقد اشتهرت بعلبك في كل مكان لان عظم خراباتها ودثارها قد ادهش العالم واعجب كل السياح الذين زاروها ورأوا ان هياكلها من منتخبات الهندسة اليونانية ومع ان هيا كل اثينا تفوقها في نقاوة البناء والذوق الا انها دونها بالكبر والعظمة على ان بنايات ثابس اليونانية المعروفة بذات السبعة ابواق تفوق بناء بعلبك بالحجم ولكنها دونها بانتظام الاعمدة وكثرة النقوش وحسن التركيب وهذا علة حسبان بناء الهيكل الكبير من عجائب الدنيا فان فيه من الحجارة ما بلغ طولهُ ستون قدماً وعرضهُ ١٢ قدماً وقد رفع على علو عشرين قدماً اما المدينة فواقعة في سهل البقاع عند سفح اكمة منخفضة على بعد ميل واحد من انطيلبنان وكان المدينة غير حسنة الانتظام في هيئتها وتحيط بها اسوار وابراج على ابعاد متباينة ودائرة هذه الاسوار ميلان غير ان القرية الحالية ذات مائة بيت فقط مجتمعة باحدى زوايا المدينة القديمة

واشهر ما في بعلبك من الاثار القديمة التي تستحق النظر ثلثة هياكل اولها الهيكل الكبير ثم هيكل الشمس ثم الهيكل المستدير اما الهيكل الكبير فربما كان في الاصل مكرساً لبعل اوجو بتير وكان طولهُ مائتان وتسعون قدماً وعرضهُ مائة وستون وكان على كل من جانبيهِ تسعة عشر عاموداً وعلى كل من طرفيهِ عشرة اعمدة ومساحة العامود عند قاعدتهِ سبعة اقدام وثلاثة قراريط وعند راسهِ ستة اقدام وستة قراريط وعلوها من القاعدة ٧٥ قدماً وبالاجمال ان بناء هذا الهيكل واعمدتهُ كورنثي الشكل وفي صنع الاعمدة والقواعد حذق ومهارة وقد تسمى هذا الهيكل بكلمة يونانية ترجمتها المثلث الاحجار ولعل وجه تسميتهِ كذلك كون إحدى جدرانهِ قائم على ثلث من

الحجارة الكبيرة جدًا وهنا لك اقبية على بعض القناطر عليها كتابة لاتينية استدل بعضهم منها ان العسكر الروماني كان يتخذ تلك الاقبية مخازن لذخائره وفي الفسحة الكبرى اثار قصر عظيم ربما كان من بناء ثيودوسيوس

اما الثاني وهو هيكل جوبتر او ربما كان هيكل الشمس او ابولو فهو اكمل اثر لم يزل موجودًا في سوريا على انهُ اقل ارتفاعًا من الهيكل الكبير وطولهُ ٢٢٧ قدمًا اما عرضهُ فمائة وسبعة عشر قدمًا اما شكلهُ فكورنثي وفيهِ اثنان واربعون عمودًا وعلو هذه الاعمدة وقواعدها خمسة وستون قدمًا ومساحة قطرها عند القاعدة ستة اقدام و٣ قراريط وعند قمتها ٥ اقدام و٨ قراريط وفوقها نقش يدهش النظار وفي محال كثيره صور حسنة جدًا منها نسر عظيم يوجد مثلهُ على باب هيكل تدمر ولهذا خالهُ بعضهم علامة لعبادة الشمس هالوس التي تخصص الهيكل بها وقد حدثت زلزلة سنة ١٧٥٩ هدمت بعض الاعمدة ودكت بعض البناء الذي كان قد وجدهُ سنة ١٧٥١ السائحان ود ودوكنيس وصوراه وتحت المقدس قبوان ينزل لهما بدرج مكتوب عليها باللغة الكوفيه ما نقلهُ بوكاردت في سياحه سوريا وجه ٢١ اما الثالث وهو الهيكل المستدير فهو قائم لوحده على بعد ثلاثمائة ذراع من كلا الهيكلين المار ذكرهما وليس لهُ بهما ادني تعلق وكان الروم الارثوذكس قد اتخذوه كنيسة لهم منذ جيل ونيف على انهم تركوه لانهُ اوشك السقوط وهنالك بعض الاعمدة ايضًا ومحيط دائرة الهيكل ٢٨ قدمًا وعلى جانب الاكمة الى الجنوب الغربي من المدينة اثر عمود كبير يبلغ علوه مع قاعدتهُ ٢٨ قدمًا وهو على شكل دوري ربما كان عليهِ تمثال وهو قائم على قبر وقد وجدت نواويس كثيرة في داخل المكان وعلى الاكمة قبور كثيرة صخرية واكثر صخور الاكمة منقوشة وهنا لك كتابات كثيرة يونانية لعبت بها ايدي سبا ومن جملة تلك الكتابات اسم ذنودوروس ابن تيتارك ليسانياس والعهُ ليسيانياس تيتارك حاكم ابيلين (وهي قرية في ذلك الجوار) وربما كان ذنودوروس هذا هو زعيم لصوص

تراخونتيس الذي مات قبل المسيح بعشرين سنة اما المقلع الذي اتي منهُ بهذه الحجارة العظيمة فهو على بعد نصف ميل الى الغرب من الخرابات عند سفح الاكمة وهنالك حجارة اخرى كبيرة جدًّا يظهر منها جليًا ان حجارة البناء كانت من ذلك المكان وهذا يزيد العجب بامكان نقلها مع عظمها وفي المقلع او على مقربة منهُ حجر كبير جدًّا خالص الشغل يقال لهُ حجر الحبلى طولهُ ٦٨ قدمًا وعلوه ١٤ قدمًا وقيراطان وعرضهُ ١٢ قدمًا و ١١ قيراطًا وهو اكثر من ١٢٠٠٠ قدمًا مكعبًا فثقلهُ اكثر من ٤٤٠٠ قنطارًا ولقد اختلف الناس في اسم بعلبك القديم على ان اسمها وموقعها وما وجد مكتوبًا على قواعد اعمدة الرواق الكبير يدل ان هذه هي هليوليس من كلسيرها او فينيقية

ومن ظن الدكتور روبنصن ان هاليوليس هي مدينة الشمس وان كلمة بعلبك ربما كانت ترجمتها وهي تدل ان هذه المدينة كانت كسميتها في مصر مخصصة لعبادة الشمس يؤيد ذلك ان الشمس كانت من اعظم معبودات الاسياويين عمومًا والسوريين خصوصًا وانها عندهم تسمى تارةً بالبعل وتشخص حينًا بجو بتير واونةً بغيره لاجرم ان بين العبادتين المصرية والسورية اتفاقًا غريبًا بحيث لا يستحيل نسبة الوحدة في العبادتين . على ان هذا يؤكده مكروبيوس حيث قال في الجيل الخامس ان التمثال المعبود في هليبوليس سوريا كان قد اتي بهِ من مصر على ان التاريخ لم يعلمنا عن باني المدينة ولا عن زمان تاسيسها غير انهُ لا يستبعد كيانها في عصر ازدهاء فينيقيه فان بعض البناء الظاهرة اثاره للعيان يدل انهُ من اصل فينيقي فلذا يقرب الى الفكر ان بعلبك مدينة البعل كانت من المحال المقدسة لذلك الشعب المشهور وانها اخذت بعد ذلك في العمران والشهرة حتى تلقبت بترجمة اسمها الاول اي هاليبوليس وانها من ثم اخذت بتحسين بنائها وزيادته وتنقلت الى ايدي اليونان والرومان وغيرهم وقد اتى هاليبوليس في زمان جوليوس قيصر نحلة رومانية فجعلتها مستعمرة ذات حقوق وفي زمان اغوسطس قيصر

نالت افتخارًا بالقاب تشريفية مذكورة على مصكوكاتها وهي هذه (كولونيا جوليا اكوستا فيلكس هليبوليس) وترجمتها مستعمرة هيلبوليس جوليا اكوستا السعيدة. وكانت مشورة معبوداتها في الجيل الثاني مشهورة جدًّا حتى ان الامبراطور تراجان استشارها قبل حملتهِ الثانية على البارثيين وهم ملوك الفرس ولعلّ السلمين اللولبيين الموجودين داخل جدار هيكل الشمس كانا يستخدمان لاستتار الكهان حين تستشار المعبودات فيقولون ما يريدون من حيث لا يشعر الشعب باستتارهم هنالك وهو معلوم ان ما من احد من المورخين جاء بذكر بناء هذه الهياكل العظيمة واول ذكر لها عثرنا عليهِ كان في كتابة يوحنا ملالا الانطاكي (كاتب في الجيل السابع) قال . ان ايليوس انطونينوس بايوس بنى في هاليبوليس من فينيقية هيكلاً عظيمًا لجوبيتر كان اعجوبة للناس اه

فهذا التقرير يقارب شكل البناء الذي يظهر الان انهُ من ذلك العصر يويد ذلك ان انطونينوس .ايوس كان من محبي سوريا العظام ولقد اكد المدققون من مشاهدة بعض المسكوكات ان هذه الهياكل كانت موجودة في زمان سابتيميوس سافيروس (من ١٩٢ الى ٢١١) وبينهُ وبين حكم انطونينوس اثنان وثلاثون سنة فقط

ومن هذه المصكوكات ما عليها صورة الهيكل والرواق بعشرة عواميد واخرى صورة هيكل وعواميد كثيرة وهذا يدل على ان احداها للهيكل الكبير والاخرى للصغير وعليها كتابـــات هي هذه كولونيـــا هيلبوليس جوفول وبتيموما كسيمو هاليباليانو: كذلك يظهر من بعض كتابات على قواعد عمودين هنالك ما يدل على ان شكل الكتابة من زمن سيفروس . اما الكتابة فقد نسخها موسيو دوسولنسي الفرنساوي فقال انها هكذا

M. Diis Heliupol. pro salute Diri Antonini pii fel. Aug. et Juliae Aug. Matris D. N. Caster. Senat. Patriae Capita Columnarum Duo Area Auro

inluminata sua pecunia ex voto.

ومما ظنهُ ناقلها انهُ كفارة عن صحة انطونينوس كاراكلا وامهُ جوليا دومينا وبما انهُ ينعت الامبراطور بالالوهية فربما كان ذلك عند نهاية ايامهِ وحيث لم يذكر جيتا الذي قتل سنة ٢١٢ م ترجح الظن ان تاريخ الكتابة بين ٢١٢ و٢١٧ للميلاد وقد رفض بعضهم مآل هذه الترجمة وقال ان بالبحث المدقق اقتنع بعدم صحة تفسير العالم ناسخ الكتابة غير ان العلامة هوك حرر رسالة عن بعلبك اسهب فيها من التفاصيل العلمية المفيدة فقال عن ترجمة الكتابة انها على وجهين احدهما قولهُ (مترجمًا عن الانكليزية) الى آلهة هاليبوليس العظام لسلامة السيد انطونيوس بايوس اغوسطس وجوليا اوغسطا امسيدنا صاحب كاسترا (ربما كان الجيش) (و) السنا (وهو مجلس الشيوخ) فاحد (الرعايا) المخلصين للمالكين (اقام) قوايم عمدة انطونينوس حيثما هي بالهواء لتحلى بالذهب على مصرفها اه

والترجمة الثانية هي الى الهة هاليبوليس العظام . ان عامل (هذا العمل) لمعبودات السيد انطونينوس بايوس اوغوسطس السعيد وجوليا اوغسطا ام سيدنا صاحب كاسترا والسنا قد امر ان تحلى قواعد اعمدة انطونينوس بالذهب (وهي قائمة بالهواء) على مصرفها (او مصرفهِ) اه

فهذا يدل على ان الهيكل الكبير كان قد تخصص لكل معبودات هاليبوليس العظيمة التي كان يترأسها بعل فجوليا دومنا التي ورد ذكرها في هذه الكتابة كانت امًا لكراكلا وهي امراة سبتيموس سفيروس وابنة باسيانوس كاهن الشمس في امسا وهي حمص على ان الكتابات تدل على ان الهيكل كان باقيًا على نظامهِ في عصر كراكلا وانهُ كان مبنيًا قبل ذلك

ولقد علمنا من مكروبيوس انهُ كان في الهيكل الكبير تمثال من ذهب لجو بيتر كان يحمل في ايام الاعياد ويطاف بهِ في ازقة البلد ويستعد حاملوه لهذه الخدمة المقدسة بحلق شعور روسهم وتقديم الضحايا كفارة عنهم وكانت

فنيس وهي الزهرة من معبودات البلدة ايضًا وربما كان الهيكل المستدير مخصصًا لعبادتها وقد ذكر اوسيبوس ان هاليبوليس الفنيقية عبدت فنيس باسم هيدون ومعناها المسرة وكانت هذه العبادة مصدر خرافات وتنعمات كثيرة وفي سنة ٢٩٧ م وهو زمن حكومة دوكلتيانوس رجم في هذه المدينة جيلاسينوس احد الشبان الذين تنصروا وغير ان هذه الاعمال لم تتجاوز جلوس قسطنطين فانهُ امر ببناء تكنةٍ للعساكر بين الهياكل وربما كانت الاثار التي في فسحة الهيكل هي اثار ذلك البناء على انهُ لما تولى جوليانوس سنة ٣٦١ وكان جاحدًا يكرهُ النصارى والنصرانية اعاد الى بعلبك ما كان قد بطل من عبادتها وطقوسها الوثنية وفي سنة ٣٧٩ لما تولى العرش الروماني الامبراطور ثيودوسيوس محق كل هذه الاعمال وابطلها تمامًا وهذا ما ورد في الكتاب المسمى باشال او ونكل . قال ان قسطنطين كان يامر بقفل الهياكل اليونانية فقط الا ان هذا كان يعدمها ولذلك امسى هيكل بالانوا الكبير والمشهور في هاليبوليس المعروف بتريلثون كنيسة مسيحية اه اما بالانوا فربما كانت تحريف بعل هالوا اي الشمس وتريلثون اي المثلث الحجارة كناية عن اعمدتهِ الثلاثة التي تقوم كقسم من البناء اما تعاقب الدول على بعلبك فلم يكن فيهِ غير ما حدث بغيرها لذلك نقتصر عن ذكر فاتحيها

ولما كان ابو عبيدة قاصدًا بعلبك راى في طريقهِ قافلة محملة حريرًا وسكرًا لتلك البلدة فاذن لرجالهِ بالغارة واسر رجالها فافتدوا انفسهم بالبضاعة وسار منهم نفر الى المدينة وقصوا الخبر على اهلها وكان يتامرها رجل من الروم يقال لهُ هربس فظن بنفسهِ شيئًا مذكورًا وسار بستة الاف فارس وبضعة رجال لمقابلة العرب فالتقوا بهِ وكسروهُ فعاد الى البلدة مجروحًا سبعًا وبلغ ابو عبيدة البلد واقام تجاه اسوارها وبعث يخاطب اهلها ان اما تسلموا او تدفعوا الجزية عن يدٍ وانتم صاغرون فرعب في ذلك بعضهم واباه اخرون سيما لان حاكمها هربس كان يرغب في الانتقام فمزق كتاب ابي عبيدة

ورد رسولهُ بلا جواب فحنق ابو عبيدة وامر بالحملة غير ان الخفر دافع دفاعاً مجيدًا واثرت الات المحصورين في الاسلام حتى صدتهم عن المرام

وامر ابو عبيدة ان يشتغل العسكر عن الحرب بالطعام اولاً لكي يشتدوا على الجلاد و بينما كانوا يعدون الماكل اذا بالعدو خارج من المدينة فاوقع بهم بغتة على ان بسالة العرب كانت اكثر من ان تقع تحت قسي المحاربين فلم يلحقهم عظيم ضرر بل ذبوا عن زمارهم بما اشتهر عنهم من الشجاعة وعاد المحصورون الى البلدة وقد غنموا من الاسلام غنيمةً واسرى فابعد ابو عبيدة جندهُ عن الاسوار كي لا تصل اليهم اذية الالات ثم بعث بشرذمتين منهم لتشغلا العدو في مكانين غير مكانهِ فتضعف قواه وهكذا يتمكن من الفوز ومن ثم التحم القتال بين العسكر والمحصورين ولم يخرج احد للشرذمتين اللتين لم تعرفا بما كان فاستظهر العدو على الاسلام واوشك ابو عبيدة السقوط وجيشهُ غير ان رجلاً من المسلمين كان قد جرح فصعد ينظر الحرب والبلد معًا من على رابية فراى انكسار ابي عبيدة وان الشرذمتين لم تفعلا شيئًا فاضرم نارًا لهما اشارة لطلب النجدة كما هي في اصطلاحهم وراى قائدا الشرذمتين النار فعلما بالامر واسرعا لنجدة اميرهما فوصلا وقد كاد ينهزم الجيش فوقعت الرعبة في قلوب الاعداء وفتك المسلمون فيهم وحال رجال الشرذمتين بينهم و بين البلد فدافعوا دفاع ياس حتى فازوا اخيرًا بالهرب على انهم لم يتمكنوا من دخول البلد بل اتوا ديرًا على رابية هنالك وتحصنوا فيهِ فحصرهم الاسلام وقتلوا منهم بالسهام رجالاً واخيرًا توسط بعضهم الصلح معهم فسار هربس الى ابي عبيدة وطلب اليهِ رفع جنده عن الحصار واعدًا اياهُ بالف اوقية من الذهب والفي اوقية من الفضة والف بدلة من الثياب الحريرية على ان ابا عبيدة طلب اليهِ ان يضاعف العطية و يزيدها الف سيف وكل سلاح العسكر الذين في الدير وان يتعهد عن البلدة بالقيام بجزية سنوية وان لا يبنوا كنيسة نصرانية جديدة ولا يفتحوا بعد ذلك حربًا على دولة اسلامية فقبل

هر بس بهذه الشروط الثقيلة واستاذن القائد بدخول البلدة لاسترضاء اهلها فاذن لهُ ودخل هربس البلد وخاطب اهلها فترددوا اولاً لثقل الشروط غيران هربس وعدهم بدفع ربع الضريبة من مالهِ الخاص فقبلوا بذلك بعد ان زيد شرط اخر وهو ان يتامر البلد رافع بن عبد الله ويبقى بخمساية من رجالهِ خارجها ولا يدخلها فبعد ان تم الاتفاق على ذلك سار ابو عبيدة في طريقهِ اما عساكر الاسلام الذين يتامرهم رافع بن عبد الله فقد اتفقوا مع اهالي البلد واخذوا ينهبون الجوار ويبيعون المسلوبات في بعلبك باثمان بخسة فغنم اهل بعلبك والعسكر غنائم لاتحصى فلما راى هربس ذلك طلب اليهم ان يعطوه عشر ما يربحون من العرب مذكرًا اياهم بخدمتهِ لهم ودفعه معهم قسما كبيرًا من الطريبة وعقد عقود حسنة فاجابوه الى ما طلب بعد تردد طويل على انهُ لما راى الربح اخذت مطامعهُ بالازدياد فقال لهم ان القسمة ضئزي وان حقهُ من الربح ربعهُ كما خصهُ من الضريبة فحنق الشعب من ذلك وهاجوا فهجموا عليهِ وقتلوه في مكانهِ ثم بعث الشعب وفدًا الى رافع بن عبد الله بهِ يطلبون اليهِ ان يدخل المدينة ويتولاها فاجابهم انهُ لا يتمكن من ذلك حتى ياذن لهُ امير الجيش ابو عبيدة بن الجراح بخرق العهدة فلما اجيب لما طلب دخل البلدة فتولاها في ٢٠ شباط سنة ٦٣٦ وهي السنة الخامسة عشر للهجرة النبوية

فمذ اصبحت بعلبك مدينة عربية اسلامية حدث لها تغيبران مهمان احدهما احياء اسمها القديم بعلبك والاخر صيرورة هياكلها قلعة حصينة غير ان الظروف التي طرأت منذ ذلك الوقت فاخرت البلاد السورية ما لبثت ان بدات في بعلبك فاصبحت قرية حقيرة بعد ان رتعت زمنا طويلاً في بحبوحة غنى المدن وعظمتها فتوالت على بعلبك الدول الاسلامية وهي مهملة وسنة ١٤٠١ جاءَ تيمورلنك ينزل الويل والحرب ببلاد الشام ففعل بحلب ما ذكرنا في تاريخهِ وقصد دمشق الشام فمرَّ على بعلبك فخرج اهلها

اليهِ وترامَوا على يديهِ ورجليهِ طالبين منهُ الصلح والسلام فلم يلتفت اليهم بل بعث للحال عسكره فنهبوا البلدة ثم صارت بعلبك بعد ذلك بلدة عثمانية وذلك بعد فتح سوريا سنة ١٥١٧ م وما زالت منذ ذلك الحين راتعة تحت ظلها ولقد يظن بعض الكتبة ان بعلبك انما هي بعلة المذكورة في ا ملوك ص ٩ ع ١٨ وان بانيها سليمان بن داود الا ان ذلك بعيد الوقوع لان تلك البلدة كانت لسبط دان في جنوبي فلسطين انما الارجح انها هي المقصودة بقول عاموص النبي ص ١ ع ٥ . بقعة آون وهي كذا بالعبرانية ايضًا او على قليل اختلاف ومعنى اون عند المصريين هاليوس او الشمس فيقرب اذًا ان بقعة اون انما هي بقعة هاليبوليس وهذا غير بعيد عن اليقين لان بعلبك واقعة في سهل لم يزل حتى الان يسمى سهل بعلبك ولا يبعد انها هي المقصودة لانهُ يذكرها بعد دمشق ولا يخفى ان المسافة بينهما قريبة

الفصل السابع عشر

دمشق الشام

هي واقعة في طول شرقي ٣٦° ٢٠َ وعرض شمالي ٣٣° ٣٠َ وسط غوطة حسنة جدًّا تسقى بمياه نهر بردى قال ابو الفداء وغوطتها احدى الجنان الاربع المفضلة على منتزهات الارض وهي غوطة دمشق وشعب بوان ونهر الابلة وسمرقند وقد فضلت غوطة دمشق على الثلث المذكورات وفي شماليها جبل يعرف بجبل قاسيون

وليس في دمشق اثار تستحق الذكر مع انها بلغت من العلى شأوًا عظيمًا واكثر دورها الان مبنية من اللبن ولذلك ليست بذات منظر حسن من الخارج على ان دورًا كثيرة مزينة من الداخل ومنقوشة نقشًا ظريفًا واسواقها من احسن اسواق مدن الشرق . على انها مظلمة ولاهلها معرفة بنسج الحرير وادوات الخيل وصاغتها حاذقون بعمل الذهب وكانت لهم شهرة بعمل السيوف قديمًا اما الان فقد خسروا هذه الصناعة وعدد اهلها مائة وخمسون

الفًا منهم نحو ثمانية عشر الفًا من النصارى وستة الاف من اليهود والباقون من الاسلام وهم يوصفون غالبًا بالرقة والدعة وسلامة الضمير وتربتها جيدة ولكثرة المياه فيها صار المناخ رديًا قيل ان في مائها سريرة لدفع مرض الجزام عن اهلها فلم يصبهم البتة وكسر عاديتهِ عن الغريب المصاب بهِ فانهُ اذا اقام فيها توقف بهِ في الدرجة التي بلغ المرض اليها ولا يزداد ابدًا وقد نشا في دمشق من العلماء الاعلام من اشتهرت بهم وافتخرت بنسبتهم اليها ودمشق الان عاصمة سوريا السياسية وهي دار الولاية والمجالس العالية فيها الا محكمة التجارة الاستئنافية والمختلطة فانهما في بيروت لرواج تجارتها وكثرة الاجانب فيها وفي دمشق محطة الجيش العثماني من الاوردي الخامس وفيها مقام مشير العساكر المظفرة وهو امير الحاج الشريف على انهُ ولئن كان من فروضه اصحاب الركب حتى مكة المكرمة فلا تمكنهُ مهامهُ من ذلك

اما تاريخ دمشق فقديم جدًا وقد ذكر يوسيفوس ان از بن آرام هو موسسها واختلف المدققون في ذلك فمن قائل ان ذلك سنة ٢٢٢٤ اي بعد ان هاجرت عائلة ارام من شنعار اليها ومنهم من ناقضهُ غير انهُ لا يبعد امكان المهاجرة اليها عند ابتداء مهاجرات الامم وهي قريبة من المواطن الاول ولا ريب ان الاراميين راوا ازدهاء دمشق ونضارتها فابوا تركها فعمرت وامست بلدة فان انكر القوم على قدمية دمشق الى ذلك العهد فهي لا شك بعيد ذلك بمدة ليست طوية لانها كانت في زمان ابرهيم بدليل كون وكيل خرجه دمشقيًا وشهرت في زمان اشعيا حيث قال انها راس سوريا وقد تكرر ذكر دمشق وارامها في الكتاب المقدس ولقد ذكرنا في كلامنا عن التاريخ العام دولة ال هداد ملوك ارام دمشق الذين اتخذوا دمشق عاصمة واوردنا اخبار حروبهم مع ملوك اسرائيل وغير ذلك حتى زمان استنجاد احاز ملك يهوذا تغلث فلسر ملك اشور فجاء دمشق واخذها عنوة بعد ان عاث في البلاد وقتل ملكها رصين واسرا اهاليها وجلاهم الى ضفات القير في

بلاد مادي العليا وهكذا خسرت دمشق بفوزها على احاز ازدهائها باستقلال الاراميين فيها مدة ثلثمائة سنة فتمت بذلك نبوة اشعيا فاستيلاء الفرس على دمشق وجلاء اهلها الى بلاد مادي وسكنى الاشوريين فيها قاد البلدة الى الخراب والذل لانها بعد ان كانت سيدة جوارها امست امة تعنو لنير ظلمة قساة القلوب لا يعرفون الشفقة ولا يحسنون السياسة في شعب اخذوه بالسيف فاستمرت نحو الف سنة تتمرغ في حمأة التاخر والخراب ولم ينقشع عنها ظلام الانحطاط حتى خرج الفرس منها اما تاريخها في هذه المدة فمجهول تماماً على اننا نعلم ان تجارتها كانت على شيء من الرواج على ما ورد في الكتاب

وفي الجيل الاول قبل الميلاد اي سنة ٤٠ اتخاصم كريبوس وسيذيستوس الاخوان على عرش سوريا السلوقي كما مر في تاريخ تلك الدولة واخيراً اقتسما المملكة بينهما فاخذ كريبوس سوريا واخذ سيذيستوس دمشق وجوارها فعادت الملكية لهذه البلدة بعد ذلها الطويل وفازت البلدة ببعض فخر الاستقلال . وفي سنة ٩٢ جلس على سرير دمشق انطيوخس اوسبوس فتولى الخطة سنتين وفي سنة ٩١ قام ديمتريوس اوكاروس عوضاً عنهُ ثم خلفهُ انطيوخس ديونيسيوس غير ان دولة السلوقيين في دمشق لم تكن طويلة الامد لان في سنة ٨٥ ق م ثار الحارث احد ملوك العرب عليها وافتتحها واقام بها وما زال متسلطاً عليها الى ان اتت جنود بومبيوس القائد الروماني سنة ق م فاخذتها . قال يوسيفوس المؤرخ ان نائب القنصل (بومبيوس كان نائب القنصل رئيس حكومة الرومان) كان يقيم احيانا في دمشق مع ان انطاكية هي عاصمة سوريا وذكر بولس الرسول في رسالتهِ الثانية الى الكورنثيين ما يخالف ذلك حيث يقول وفي دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني فوقعت بذلك الحيرة لتضارب الامرين الا ان ماري احد مؤلفي الانكليز يقول بكتابهِ الدليل في سوريا وفلسطين ما ياتي

انهُ بموت فيلبس رئيس ربع ايطورية وتراخونتيس اضيفت بلاده الى الولاية الرومانية السورية التي كانت واقعة يومئذ بين مملكتي هيرودس اغريباس ومملكة الحارث وكان هيرودس صهر الحارث على انهُ لما اشتهى امرأة فيلبس اخيهِ في ايام يوحنا المعمدان اطلق ابنة الحارث فقادهم هذا الامر الى الحرب واستظهر ملك العرب على هيرودس فلما علم الامبراطور طيباريوس بانكسار صديقهِ امرفيتاليوس الوالي ان يسير الى الحارث . ويرسلهُ الى رومية حيًّا او ميتًا فاخذ فيتاليوس بالاهبة اطاعة للامر واذا بالاخبار تنعي وفاة القيصر وكان الحارث قد تاهب للذب عن مملكتهِ وحبوتهِ فلما راى انسحاب الوالي عن القتال عزم على ان يكون مهاجمًا فسار في سهول كولانتيس (جولان) واخذ دمشق وكانت وفاة طيباريوس سنة ٣٧ للميلاد واستمرت سوريا بعد وفاتهِ مهملة نحو سنتين وفي تلك المدة اقام الحارث واليًا في المدينة وحينئذٍ جاء بولس المدينة فتكرست لعملهِ العظيم

وكان بومبيوس القائد قد ارسل سكاروس لاخذ دمشق وهو يومئذٍ في ارمينيا فاتاها ووجد ان لوليوس وماتلوس كانا قد اخذا المدينة فتحول عنها الى اورشليم وهناك اخذ كل من هركانوس وارسطو بولس المكابيين يعدانهِ بالمال فمال الى ارسطو بوليس وحارب هركانوس والحارث الذي انجده وكسرهما اشد كسرة

ثم لما جاء بومبيوس الى دمشق وسار الى كلسيريا وهي سهول البقاع وفدت عليهِ سفراء سوريا ومصر واليهودية واهداه ارسطو بولس الكرمة الذهبية وثمنها خمسمائة وزنة من الذهب وتقدمات اخرى وجاءهُ من مصر تاج من الذهب ثمنهُ اربعة الاف الاف قطعة من ذهب ثم وفد الى بابهِ المتظلمون يشكون ما يلقون فامر بالمرافعة بين هركانوس وارسطو بولس فجرت وكان الحكم لارسطو بولس

وظلت دمشق خاضعة للدولة الرومانية كل زمان استيلائها على سوريا

غير انهُ لم يكن لها من السطوة والاقتدار والشهرة ما كان لانطاكية بل ان تلك كانت عاصمة البلاد ولذلك كسفت بانوارها نور دمشق الزاهي ولقد تقدمت الديانة النصرانية في دمشق تقدماً سريعاً حتى اصبحت بعد زمان يسير من المدن النصرانية وقد حضر رئيس اساقفتها وبضعة من اساقفة مجمع نيقية وبالتدريج اندثرت منها الديانة الوثنية ومع ان تقلبات احوال الدولة الرومانية كانت مما تمكن دمشق وسائر بلاد سوريا من طرح نير الخضوع لم يكن لها ميل للعصيان وكانت الدولة الرومانية تبعث اليها عمالاً من قومها ولقد تقدم في تاريخ الدولة العربية الاسلامية اسباب الفتح والنصر الذي رافق الدولة الاسلامية وهي تناضل الرومان على انهُ بعد فتح بصري حوران وانكسار الرومان هنالك زحفت جيوش الاسلام تحت راية الامير خالد بن الوليد قاصدة فتح دمشق الشام

وكان في ذلك الزمان في فلسطين نحو سبعة الاف من الاسلام تحت امرة عمر بن العاص اما ابو عبيدة بن الجراح فكان يقود سبعاً وثلاثين الفاً اجتمعت باوفات مختلفة من الحجاز واليمن وحضرموت وشطوط عمان واراضي مكة المكرمة والطائف اما جيوش الامير خالد فلم تكن قبل ان صار قائداً عاماً اكثر من الف وخمسمائة فارس جاء بهم من العراق وكان هيراكليوس امبراطور الرومان المعروف عند العرب بهرقل يومئذٍ في انطاكية فلما بلغهُ تقدم العرب وفوزهم بالغلبة والنجاح بدا يدبر ما يحفظ بهِ دمشق فبعث بخمسة الاف رجل مع قائد يقال لهُ كالوس فاتى كالوس حمصاً وهي المعروفة قديماً باسم امسا وجوارها ينسب اليها ويعرف باسمها فلما اتاها كالوس وجد بها رجالاً واسلحة وذخائر كثيرة فسر بها جداً وكانت هذه المدينة قد اعدت تلك الاهبة لتستند اليها عند الحاجة فلما جاءها كالوس اقام فيها يوماً وليلة وخرج منها فمر على بعلبك فخرجت اليهِ الرجال والنساء يستقبلونهُ وشعورهم مسترسلة على ظهورهم وهم يبكون وينوحون ويندبون تعاسة بلادهم وخيفة

حدوث ذلك فيهم ولم يكن كالوس يعلم سبب بكاءهم فسالهم عنهُ فاجابوه
اتسألنا الباعث وانت قادم لازالتهِ فقال أ ابكاكم مجيء العرب قالوا كيف
لا وهم الذين اجتاحوا البلاد واخذوا عرقة وسخنة وتدمر وحوران و بصرى
وقد جاءوا دمشق فاستفسر منهم عن القائد وعدد الجيش فقالوا ان القائد
انما هو خالد بن الوليد والجيش الف وخمسمائة فارس فقط فلما سمع كالوس
بما كان سخر من قلة العرب وطمّن خاطر الشعب وحلف لهم ان لا بد برجوعه
بمجيء براس خالد على رمحهِ

واتى كالوس دمشق واظهر تحرير الامبراطور وطلب الى الشعب ان
يقلدوه مهام الحكومة فلم يقبلوا لانهم كانوا يحبون حاكمهم الاول وكان اسمهُ
اسرائيل . ووقع بينهم على ذلك شقاق واختلاف وضغينة كان من الواجب
ان يقوم مقامها الوئام والاتحاد لان بلدتهم كانت على حافة الخطر وعرف
العرب ذلك ولما دنوا من الاسوار خرج الاهلون لمقابلتهم واصطف الجيشان
وكان من فرسان العرب بطل يقال لهُ ضرار بن الازور فدعاه خالد واخذ
يحمسهُ بالكلام حتى حمل على الرومان وفتك بهم وكاد يكسرهم وحدهُ لو
لم يبادروه بالرجم وكذلك حمل عبد الرحمن بن الخليفة ابي بكر واخيرًا
برز خالد وطلب المبارزة مع العدو واسمعهم الكلام المهين فعندها دعا
اسرائيل حاكم البلد كالوس القائد وامره بمبارزة خالد ومع ان كالوس
تردد عن ذلك اولاً لم يسعهُ الاباء فنزل الى الميدان بعد ان اعتد بالعدة
الكاملة واخذ معهُ ترجمانًا يترجم لمبارزهِ الكلام وكان كلما اقترب كالوس
من خصمهِ يزداد خوفًا وضعفًا فطلب الى الترجمان اسعافهُ اذا مست الحاجة
على ان الترجمان قال لهُ ان ذلك ليس من شانهِ ثم اجتمعا وحاول كالوس
تاخير البراز للغد فلم يجب طلبهُ فتبارزا وتحاربا زمنًا طويلاً بكل شجاعة
وهرب الترجمان عند احتدام القتال و بعد حين مل كالوس واخذ يذب
عن نفسهِ فاحتال خالد عليهِ وقبضهُ وضرب بهِ الارض فسر العرب بهذا

الاسير وهتفوا بصوت واحد الله اكبر ووقع الخوف بين صفوف الروم وعاد خالد الى الصفوف فغير جواده بجواد كان قدمهُ لهُ حاكم تدمر وعزم على العودة للبراز فطلب ضرار ان ياذن لهُ بالبراز عنهُ فلم يشأ ثم ان كالوس بعث بر ومانوس خائن بصرى ليدعو خالدًا فجاءه وسالهُ عما يريد اجابة باخباره كلما حدث بينهُ وبين اسرائيل حاكم دمشق وملتمسًا اليهِ ان يطلب مبارزة الحاكم المذكور فمتى قتل تسلم المدينة لهُ

ورأى اصحاب كالوس الخمسة الاف الذين جاء بهم من انطاكية ان اميرهم بات اسيرًا فحنقوا وطلبوا براز اسرائيل فتردد ثم حمل على خالد . وبعد ان سالهُ عن كالوس قال لهُ لِمَ لم تقتلهُ فاجابهُ خالد انهُ يقتلهما سواء ثم تبارزا واظهر اسرائيل شجاعةً واختبارًا اعجب خالد . على انهُ ملّ اخيرًا فادار رأس جواده وكان كريمًا واطلق له العنان وعبثًا تاثره خالد فعاد الى الوسط اما اسرائيل فخاف غضب جماعتهِ ولم شعث شجاعتهِ وكر على خالد لتاخره ورأى خالد ان جواده بات لا يحملهُ فترجل للقتال حتى اذا قدم اسرائيل ضرب جواده فسقط راكبهُ وقبض خالد عليهِ واخذه اسيرًا ثم لما عاد لصفوفهِ عرض على كالوس واسرائيل الاسلام فلم يقبلاه فضرب عنقيهما ورمى براسيهما من على اسوار دمشق الى المدينة

ووقع الرعب في قلوب الروم واشتدت عزائم العرب ثم عقب تلك المبارزة معارك كثيرة كان نصيب الرومان في اكثرها الويل والهوان فعزموا على الدفاع وهم على الاسوار وان يقاتلوا محصورين حتى يكل المهاجمون ويرجعوا عن المدينة فاقاموا فيها واغلقوا الابواب وبعد حين تضايق المحاصرون جدًّا وباتوا يستضعفون قوتهم بعد ان كانوا يستعظمونها فاجمعوا على عرض حالهم على القيصر هرقل وهو في انطاكية فكتبوا لهُ بصرع حاكمهم واميرالجيش الذي بعث بهِ وشكوا لهُ عظم قوات العرب وما هم عليهِ من الضيق واعطوا الرسالة لرجل دلوه من السور فسار بحذق ونشاط بين

صفوف العرب مع كل تيقظ حراسهم و بلغ انطاكية فجهز هرقل جيشًا جرارًا بمائة الف مقاتل وارسلهُ مع قائد يقال لهُ وردان فسار قاصدًا قطع المدد عن عسكر خالد وابي عبيدة ولما بلغ العرب خروج وردان من انطاكية بالجيش العرمرم تشاور خالد وابو عبيدة عما يجريان من الحركة ومع ان هذين الاميرين كانا يتعاقبان الامارة لم يكن بينهما ضغينة ولا تحاسد وكان خالد امير الجيوش يزعم وجوب رفع حصار دمشق والسير لمقابلة العدو . على ان اباعبيدة لم يرَ في ذلك خيرًا الان رفع الحصار عن البلدة يمكن المحصورين من اذخار الذخيرة وتجديد القوى وهكذا يطول زمان الحصر فاذعن الامير خالد لهذا الراي السديد على انهما اتفقا على ان يبعثا شرذمة من الابطال لمقابلة العدو وتاخيره وكان وردان وجيشهُ يسيران مسيرًا بطيئًا ولم يعرف المحصورين عنهم شيئًا ولذلك زادوا ارتباكًا واضطرابًا واجمعوا على وجوب التسليم فبعثوا يلتمسون من الامير رفع الحصر عن البلد على انهم يقدمون عن ذلك الف اوقية من الذهب ومائتين بدلة من الثياب فاجابهم الاميران الحصار لا يرفع ان لم يسلم الاهلون او يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون والا فالحرب والحصر فلم يقبل المحصورون ومضي عليهم بعد ذلك وقت حتى عادت جواسيسهم واخبرتهم بمجيء عسكر القيصر فسروا وطربوا ابلاً بالنجاة فسمع العرب ضجيج المحصورين ولم يعرفوا السبب حتى وفدت اخبار اقتراب الرومان

ولما اتفق خالد وابو عبيدة على ارسال شرذمة لقتال الرومان الذين كانوا قد بلغوا اجنادين انتخب خالد ضرار بن الازور رئيسًا على فئة من الرجال فسار هذا والتقى بالروم فحاربهم على انهُ كاد يفتك بهم لولم يدركهُ سهم من احد الشبان فسقط وتكاثر عليهِ الرومان فاخذوه اسيرًا بعد ان اثخن بالجراح وكاد جمعهُ يفلُّ لولا رافع بن عميرة و بلغت اخبار اسر ضرار المعسكر الاسلامي فاستشار خالد اباعبيدة بما يفعلهُ فاجابهُ ان يقيم نفرًا مكانهُ و يسير بنفسهِ

لخلاص ضرار وجماعتهٔ فسار خالد بجيش جرار بعد ان خلف في دمشق ميسرة بن مسروق بالف من الفرسان و بلغ خالد الملحمة وقومهُ في ياس وهم يدافعون عن انفسهم دفاع الابطال على انهم لما راوا نجدة الامير خالد سروا وحملوا على العدو كالاسد الضارية وحمل خالد على الاعلام طالبًا لاستخلاص ضرار فلم يجده وجاءه جماعة من اهل حمص وهم من قوم ابن وردان الذي رشق ضرار بالسهم وكان صاحب حمص وطلبوا من خالد التامين على انفسهم وعيالهم فاجابهم انهُ سينظر في ذلك متى جاء حمص وعلم منهم ان وردان بعث بضرار مع ماية من الفرسان الى حمص ليقدمهُ الى الامبراطور فبعث خالد برافع بن عميرة وماية من الفرسان لادراك الذين اخذوا ضرار واستخلاصهِ من ايديهم فذهبوا وادركوهم وقتلوا المآية فارس وعادوا بضرار سالمًا و بلغوا خالدًا وهو يقاتل العدو وقد كسره اتم كسرة وفر من امامهِ ثم عاد جميعهم الى دمشق ظافرين بتبديد جيش الرومان و بلغت الاخبار دمشق فزاد ويلها وتعاظم شرها ووصل الفل انطاكية فاحكوا للقيصر ما كان فجيش جيشًا اخر عدده سبعون الفًا واردفهُ لوردان في اجنادين وامره ان يتقدم للقتال و يرفع الحصار عن دمشق ولما سمع العرب بذلك استشار خالد ابا عبيدة فقال لهُ ان يستنجد الصحابة الذين في الانحاء القريبة وكان يزيد بن ابي سفيان في البلقا وشرحبيل في فلسطين ونعمان بن المنذر في تدمر وعمر بن العاصي في العراق وغيرهم في غيرها فكتب خالد اليهم الرسائل ليوافوه الى اجنادين وسار خالد في الطليعة وابو عبيدة في المواخرة ورحلوا بكل الجيوش عن دمشق فلما راى الدمشقيون ذلك دبت فيهم حماسة كانت قد بارحتهم وخرجوا بستة الاف فارس وعشرة الاف من الرجال يتامر الفرسان رجل يقال لهُ بولس والمشاة بطرس وهاجم بولس اباعبيدة فاشغلهُ واخذ بطرس بالنهب والسلب لان اموال الاسلام وذخائرهم كانت في الموخرة فغنم بطرس منها شيئًا كثيرًا وسبي نساء كثيرات وبعد ان اقام

خفرا من الرجالة والفرسان عاد لجهة دمشق وترك اخاه بولس مع بقية الجيش لمحاربة المسلمين فاظهر بولس كل البسالة والشجاعة حتى فاز بالنصر ورجع ابو عبيدة الى الوراء بجيشهِ فركب احد الفرسان الاسلام وسار يعدو ركضاً نحو الطليعة حتى ادرك خالد فاخبره فللحال بعث خالد المدد المتواتر فاستقام حال الاسلام وفتكوا بالرومان فمزقوا شملهم كل ممزق ولم يسلم من الستة الاف فارس غير ماية فقط ووقع بولس القائد اسيرًا اما بطرس فلم يدخل بالنسوة والغنائم دمشق بل بقي خارجها ليرى ماذا يكون من نصر بولس وبات هنالك فقامت النساء ومنهن شقيقة ضرار بن الازور وحمستهن بالكلام وكن حميريات متعودات ركوب الخيل والقتال على انهُ لم يكن لهن سلاح فاخذن اعمدة المضارب وقتلن الحرس ثم فتكن بالرجال ولم يقدر رجال بطرس عليهن لانهم لم يحاربوهن اولاً بالسلاح ثم لما عزموا على ذلك وكانت النسوة قد فعلت فيهم ما لم يسبق لهُ مثيل انجدهم خالد وضرار والجيش فانكسر بطرس بل فر هاربًا فضربت شقيقة ضرار جواده وقتلهُ اخوها وانكسر الدمشقيون للابواب وعاد المسلمون باعظم غنيمة وعاد خالد الى ابي عبيدة وقص عليهِ الخبر ثم استدعى بولس وعرض عليهِ الاسلام فابى فامر بقطع راسهُ

ووصلت الرسائل الى امراء الجيوش الاسلامية فخرجوا جميعًا مسرعين الى ساحة القتال ليشتركوا بصد جيوش الرومان عن الدفاع عن ذمارهم ومن الغريب وصول كل تلك الكتائب مع اختلاف ابعاد مراكزهم في يوم واحد وهو الجمعة في ١٣ تموز سنة ٦٣٤ وبلغوا اجنادين فانضموا الى جيش خالد وكان العدو قد اقبل على ان عدده كثير حتى اخشاه الاسلام وارتاعوا منهُ غير ان منهم من كان قد حضر معامع كسرى الفارسي وانكسار جنوده مع كثرتها فدبت برؤُوسهم الحماسة على ان جيش الروم كان احسن ترتيبًا وانتظامًا وبات الفريقان يتحارسان الى الصباح حيثما عزم كل على القتال. واخذ خالد بن الوليد ووردان صاحب جيش الروم يحثان العسكر على

الثبات والاقدام واعدًا الباسل بالظفر ونيل اكليل الفخر وبعث خالد امير جيوش العرب ضرار بن الازور جاسوسًا بين الروم يكشف حالة جيشهم ليكونوا على بصيرة في حركاتهم فسار ضرار الى بين الصفوف وعرف حالة الرومان بالتمام فشعر وردان بهِ وبعث اليهِ ثلاثين فارسًا ليقبضوا عليهِ ففكر امامهم حتى ابتعد بهم عن المعسكر ثم عاد اليهم فضرب وطعن وقتل منهم سبعة عشر وفر الباقون وعاد الى قومهِ فلامهُ خالد على مباشرتهِ حربًا بدون امرهِ فقص عليهِ الامر معتذرًا بوجوب الذب عن نفسهِ وتحريم الهرب من وجه العدو وبينما كان الفريقان يتاهبان للقتال والهجوم اذا بشيخ مسن خرج من بين صفوف الرومان وتقدم نحو العرب فطلب اميرهم واذا بخالد قد برز لهُ وبعد ان ساله الشيخ عن اسمهِ وعرف انهُ هو امير الجيش خاطبهُ بالسلام والصلح على ان يرجع العرب الى بلادهم بعد ان ياخذ كل جندي بدلة من الثياب وقطعة من الذهب وياخذ القائد عشر بدلات ومائة قطعة ويرسل لابي بكر الخليفة مائة بدلة والف قطعة فلم يرض خالد بهذه بل طلب اسلام الروم المحاربين او دفع الجزية عن يد وهم صاغرون واعاد الرسول الى الروم مخبرًا بما كان وكان خالد قد قلد قيادة الطليعة والقلب والموءخرة والجناحين لبعض شجعان الاسلام فلما اصطف الفريقان ولم يكن قد ابتدا الحرب اخذ الارمينيون وهم من الجيش الروماني بتصويب سهامهم على الاسلام وكانوا من اشهر الرماة فعندها امر خالد العرب بالحملة فحملوا واشتبك القتال فعلا الغبار وتكاثرت القتلى وخاف الروم العرب لان صولتهم وشهرتهم كانت قد القت الرعب في العالم وفتكوا في ذلك اليوم بالروم فتكًا ذريعًا لانهم كانوا يتحمسون بالحمية الدينية اما الروم فكانوا قد خسروا ما اشتهر عن العلم الروماني من النصر لان التانث والتنعم المسببين عن افراط الغنى قد نفيا من قلوبهم بسالة اجدادهم ولم تخلوا هذه المعركة من اظهار ويلات الحروب فان ذلك النجد المتسع كان مشهدًا لجثث شبان لم يقضوا من مسرة ايامهم

غير يسيرها وفراشاً لجرحى يانون حزناً وكآبة وعلة لتسكاب دموع ارامل وايتام
ينوحون فقد عزيز على ان خسارة الروم كانت تفوق خسارة العرب فراى
وردان ذلك وخاف من الخطر المحدق بهِ فاستدعى قادة الفرق الرومانية
واستشارهم في ما يفعلون و بعد جدال طويل قر رأيهم على مهادنة العرب في
ذلك النهار وفي الغد يجتمع خالد ووردان في موضعٍ بين الصفين و يتذاكران
بالشروط المناسبة للسلام ومنع هرق دماء العباد وان هذا يكون ليس
المصالحة حقيقة وانما للغدر بالامير خالد لان عليهِ يتوقف نجاح جيوشهِ وان
يقام كمين لذلك ثم بعثوا برجلٍ منهم اسمهُ داود فسار حتى دنا من الامير
فهجم خالد عليهِ واراد طعنهُ برمحهِ فاستأمنهُ وقص عليهِ كل ما اضمرهُ قومهُ فقال
خالد انا اجبناهم الى ما يطلبون وكفت الحرب حينئذٍ ثم تشاور خالد وابا
عبيدة واجمعا على ارسال كمين يفتك بكمين الروم فذهب ضرار ومعهُ
عشرة من فرسانهِ والليل مدلهم فبلغوا الكمين وقتلوا العشرة الذين فيهِ وهم
سكارى ولبسوا ملابسهم واقاموا ينتظرون الصباح فامر خالد جيوشهُ بالانتظام
واخاف وردان من ذلك فبعث اليهِ يقول ما لكم نسيتم معهد الامس فاجاب
خالد بانهُ سيذهب الى هناك وخرج وردان من جيشهِ وهو باكمل زينة
والتقى بخالد واخذا يتكلمان مع بعضهما وكان وردان يخشى غدر خالد بهِ
ولذلك لم يرفع يدهُ عن قبضة حسامهِ وبما انهُ كان يركن لجماعتهِ الذين ظن بهم
كامنين لم يكن يهاب خالد بل اخذ يسمعهُ الكلام المهين حتى افضى بهما الحال
الى المنازعة ومن ثم للبراز الافرادي فلما راى وردان ذلك صرخ بقومهِ الكامنين
واذا بالعرب اللابسين ملابسهم وضرار يتقدمهم فلما راهم وردان ارتعدت
فرائصهُ ووقع على الارض صارخاً الامان الامان يامولاي فاجابهُ خالد لا امان
الا بالايمان ثم استل ضرار حسامهُ وضرب بهِ عنق وردان فاطار راسهُ ورفعهُ
على رمحه وسار نحو الجيش وراى الروم والعرب ذلك فظنوا ان الراس راس
خالد فسر اعداه وغم الصحابة غير ان ابا عبيدة كان قد تقلد الامارة مكان خالد

في غيابهِ وقد علم الامر فقال هذا راس وردان. فسر العرب وحملوا بقلوب لا تخاف الموت على الاعداء واحتدم القتال حتى المساء فدارت الدائرة على الرومان وقتل المسلمون خمسين الفًا وهرب الباقون الى قيصرية ودمشق وانطاكية بعد ان تركوا في ساحة القتال من الذخائر والمهمات والاعلام والرايات ما تقصر عن وصفهِ الاقلام فغنمها العرب ولم يشاء خالد اقتسامها الا بعد فتح دمشق ثم حرر رسالة بعث بها الى امير المؤمنين وسار مسرعًا الى دمشق اما الخليفة فلما بلغتهُ هذه الاخبار سر بها جدًا وتلا الرسالة على من حضر فشاع خبر النصر في البلاد واجتمع قوم من الفقراء الذين ضاقت بهم البلاد العربية والتمسوا من الخليفة ان يسمح لهم بالانضمام الى اخوانهم المجاهدين فتشاور الخليفة وكبار الصحابة في ذلك واخيرًا رفضوا ملتمس هولاء لانهم ظنوا بهم غير لازمين للمجاهدين بل ربما يلقون المتاعب في الجيش وما شانهم الا النهب واقتسام الغنيمة مع الذين جدوا لتحصيلها على ان بالحاح بعض آل قريش اذن لهم بالمسير الى القتال تحت امرة ابي سفيان

وحمل الفارون الى دمشق اخبار انكسار وردان في اجنادين فخارت قوى المحاصرين على انهم اعدوا الذخيرة وتأهبوا لمداومة القتال واذا بالعرب قد اتوا وتفرقوا حول المدينة وشددوا عليها الحصار وهجم المحاصرون على المدينة فصدهم المحصورون بعد ان قتلوا منهم نفرًا بما كانوا يرمونهم بهِ من المواد من على الاسوار وضايق المحاصرون الحصر جدًا حتى بات الاهلون في وجل وليس لهم باب للفرج فاجتمع اعيان البلد وتشاوروا ان يستسلموا للاسلام قبل ان يمسوا غير قادرين على استحصال شروط موافقة

على ان رجلاً روميًا يقال لهُ توماس من المشهورين بين الاعيان في دمشق لاقترانهِ بابنة القيصر هرقل اخذ يحث القوم ويحرضهم على الذب عن الذمار حتى تحمسوا واقاموهُ قائدًا لهم فامر بالخروج على المحاصرين وفي اليوم الثاني خرجت كتائب الدمشقيين تحت امرتهِ حتى بلغت المصاف فاحتدم

القتال بين القومين وجرت معركة شديدة ناضل اهل دمشق بها نضال باس وحمية وكان توماس هذا من المشهورين برمي السهام فصوب سهماً وضرب بهِ ابان بن زياد وكان النبل مسموماً فمات ابان بعد حين وكان ابان متزوجاً امرأة حميرية من المتعودات القتال والمحسنات اراشة النبال فقالت لزوجها وهو ميت انها ستأخذ بثاره من القاتل ثم تنكبت القوس وسارت الى المعمعة وقد عرفت ان قاتلهُ توماس فصوبت سهماً لحامل رايتهِ ورمتهُ بهِ فوقع مجروحاً واختطف الاسلام الراية فاخذ يحاول استخلاصها واشار الى قومهِ بذلك على ان الاسلام كانوا يرمون بها من يد الى اخرى حتى انتهت الى شرحبيل فالتقاه توماس فرمى شرحبيل بها الى قومهِ وبارزه وبينما هما يجولان وقد كادت تدور الدائرة على شرحبيل اذا بسهم اراشتهُ امراة ابان وقع في عين توماس فتداركهُ قومهُ وحملوه الى المدينــــة وعند الاسوار ضمدت جراح عينهِ فابى الرجوع عندها الى المدينة بل طلب مباشرة القتال ولما لم يأذنوا لهُ اقام عند باب المدينة وهو ينظر الى ساحة القتال ويبعث بالاوامر اللازمة

واحتدمت هذه المعركة بين الفريقين بشدة غير ان الروم كانوا يرشقون من على الاسوار احجاراً ومواداً اخرى كانت تضر بالحاصرين ولذلك لم يدنوا من الاسوار وما زالت نيران الوغى في شبوبها حتى فصل الليل بين المتحاربين ولما راى توماس ان الخنزر قد اظهر من البسالة والاقدام ما لا مزيد عليهِ احب ان لا يضيع الوقت سدى فاستعد في الليل ليحمل على العرب صباحاً على انهم كانوا متعبين وقد ناموا نوماً ثقيلاً وعند الصباح افتتحت كل ابواب المدينة وخرج الدمشقيون للحرب وهجموا على العرب وهم نيام فذبحوا منهم كثيرين قبل ان تمكنوا من معرفة مركزهم ومن ثم ركب العرب خيولهم واخذوا يحاربون الاعداء فاشتدت الحرب وكان معظمها امام الباب القائم بقربهِ توماس لان شرحبيل عسكر هناك وكانت معهُ امراة ابان ترمي بسهامها الابطال حتى اسرت اخيراً وبعد براز افرادي كاد توماس ياخذ شرحبيل اسيراً فانجدهُ

خالد وعبد الرحمن برجالها ففر ثوماس والتجأ الى المدينة ونجا شرحبيل وتخلصت المراة من الاسر اما ابو عبيدة فكان حالاً تجاه باب الجابية فاقام باجراء حركة حربية مهمة بها كسر كل العدو الذي خرج اليهِ حتى قال بعض موءرخي العرب انهُ لم يبق منهم رجل واحد وكانت هذه المعركة تعيسة على الرومان فانهم عادوا الى بلدتهم بعد ان تركوا في ساحة القتال الوف القتلى ولو لم ترم الاسوار الحاصرين بالمواد وتضرهم لهجم العرب على الابواب ودخلوها واخذوا المدينة وفتكوا بالاهلين وكان اليهود يقومون بالقاء المواد على الحاصرين وبعد هذه الكسرة يأس الاهلون من الفوز بعد ان مضى عليهم سبعون يوماً فعادوا للمشورة بينهم بشان عقد معاهدة التسليم ومع ان ثوماس كان يلح بالصبر لبينما يكتب للقيصر ليرسل لهم نجدة لم يقبل القوم طلبهُ بل بعثوا برسالة الى خالد طالبين هدنة ريثما يعقدون شروط التسليم غير ان ذلك الامير البطل لم يرَ وجوباً لاستماع توسلاتهم بل عزم على فتح المدينة عنوة وتسليمها للنهب وقتل اهلها فلما سمع اهل دمشق هذا الامر اعياهم الحال على انهم عرفوا دعة ابي عبيدة والطافهُ فبعثوا لهُ رسولاً يعرضون لهُ با لتسليم و يطلبون الامان فوعدهم بذلك واخيرًا بعثوا اليهِ مائة من الاعيان والكهنة فعقدوا معهُ شروط التسليم منها ان الحرب ترتفع بمجال تسليم المدينة لديوان من يرغب الرحيل من الاهلين فمسموح لهُ مما يقدر على حملهِ من الامتعة ومن يشاء البقاء يقوم بدفع الجزية ولا تمس مقتنياياتهُ ويسمح لمن يبقى بسبعة كنائس ولم يمضِ ابو عبيدة هذه العهدة لانهُ لم يكن القائد العام بل قال لهم ان كل المسلمين يعتبرون مفادها وبعد ان تمت هذه العهدة ورفع القتال بامر ابي عبيدة ولاجل خاطره فتح الباب الذي كان معسكرًا امامهُ فدخل المدينة بمائة من رجالهِ اما خالد فكان قد حنق على المحصورين لان اخاه عمرو كان قد اصيب بسهم مسموم فمات وكان احد الخائنين من الكهنة قد عاهدهُ ان يفتح لهُ الباب اذا ضمن لهُ نجاة نفسهِ واقربائهِ وصيانة مقتنياتهم فقبل خالد الشرط

واخذ مائة من الرجال وصعد على السور سرًّا ثم هجموا على الباب الشرقي وكسروه وصرخوا الله اكبر واخذوا يفتكون بالاهلين وينزلون بهم الويل والثبور حتى جرى الدم كالانهر فكانت الناس تصرخ الامان الامان وخالد يجيبهم لا امان وما زال كذلك حتى ساحة كنيسة السيدة مريم العذراء فراى ابا عبيدة ومائة من رجالهِ وبين يديهِ الكهنة والاعيان والاولاد والنساء وجمهور من الرجال ولم يكن يعلم من امرهِ شيئًا فانذهل لما راهُ

وكان ابو عبيدة قد راى في وجه خالد علائم الغضب والانتقام فتقدم اليهِ بلطف واخبرهُ بتسليم المدينة عن يدهِ بالعهدة التي عقدها فاجابهُ خالد انهُ اخذ المدينة عنوة ولا بد من الانتقام والسلب واخذ يلوم ابا عبيدة على عقدهِ عهدًا بدون مشورتهِ

وكان ابو عبيدة يعرف خطاءهُ بعقدهِ العهد دون مشورة خالد مع انهُ كبير القادة فاخذ يتلطف بخاطرهِ وهو لا يرضى مع ان القادة كانوا من راي ابي عبيدة واخيرًا امر خالد رجالهُ بالفتك بالاهلين فاخذوا يفتكون ويضربون بمن حولهم فتكدر ابو عبيدة لانكسار كلمتهِ واستحلف القوم بالله وبالرسول ان لا يفتكوا بالاهلين ريثما يقر قرارهما على امر فرفع القوم ايديهم عن الفتك ودخل القواد كنيسة السيدة التي كانوا في ساحتها كما تقدم وعقدوا هنالك مشورة انقضت بعد جدل طويل على عدم الفتك بالاهلين المستأمنين ورفع الحكم في المسئلة لامير المومنين وكان خالد يستصعب كل بند بمفرده من العهدة على ان ابا عبيدة تغلب عليهِ بالادلة والبراهين وارغمهُ على قبول تخليص الاهلين من القتل والنهب وخرج ابو عبيدة الشفوق من الكنيسة ونادى بالناس ان يخرج من يريد اخلاء البلدة ويستقر آمنًا من يقوم بدفع الجزية فرغب قليلون من اصحاب الرتب والنسب والغنى وخرجوا ظاهر البلدة ريثما يجتمع لفيفهم ويسيرون طالبين البلاد الرومية وكان خالد قد منحهم حق الوقاية ثلاثة ايام فقط وانهم اذا استمروا بعد ذلك يعرضون انفسهم للوبال

فخرجوا بكنوزهم الخفيفة الحمل والغالية الثمن ولم يكن يسمح للواحد منهم الا بقطعة واحدة من السلاح سمح بذلك لوساطة ابي عبيدة لانهم اعتذروا بوجوب الوقاية من اللصوص والوحوش الضارية وكانت هذه العصابة الخارجة من المدينة تحت رئاسة توماس ورجل اخر مشهور بالشجاعة والغنى اسمهُ هربس وكانت ابنة القيصر هرقل زوجة توماس معهم وقد اخذت مجوهرات ابيها وثيابهِ فخرجوا اسفين على فراق اوطانهم باكين بادمع سخية مبارحة دمشق النضيرة

وفي السنة السابعة والعشرين من استيلاء الاسلام على دمشق اتخذ معاوية بن ابي سفيان الاموي مدينة دمشق عاصمة لخلافتهِ بعد ان كان قد تولى بلاد الشام بالنيابة عن الخليفة المقيم في مكة المكرمة فامست دمشق منذ سنة ٦٦١ م عاصمة الدولة العربية و بعد صيرورتها عاصمة زحفت جنود الدولة فاجتاحت اقصى البلاد وامتد الفتح الاسلامي حتى الاتلانتيك وامست اسبانيا بعد حين ولاية عربية كما مر ذلك في ذكر الدولة الاموية وهكذا كانت دمشق عاصمة سلطنة ممتدة من جبال حمالايا حتى الاتلانتيك وكان خلفاء بني امية يحبون دمشق العاصمة فاحسنوا اليها بكل ما تفتخر بهِ العواصم في ذلك العصر من اشادة البنايات العظيمة والدور المتسعة الفسيحة فضلاً عن الجامع الاموي العظيم الذي لهجت بذكره السن مؤرخي العرب وكان في الاصل كنيسة على اسم القديس يوحنا وهب العرب نصفها للنصارى يوم الفتح ثم اخذوها منهم كلها وكان الاسلام يبنون هذه البنايات العظيمة بمواد الابنية القديمة الرومانية التي كانوا يهدمونها لذلك ولم يزل بعض تلك الاعمدة حتى اليوم وقد قضت دمشق زمان الدولة الاموية وهي في سماء علوها على انها لم تنحط قدرًا بزمان العباسيين بل ان ادابها قد اتسعت باشتهار اداب الاسلام ومعارفهم بعد اجتهاد الخلفاء المشهورين من آل عباس كالرشيد والمأمون وغيرهما

اما انتقال الخلافة وما جرى بعيد ذلك من انتقال الامويين فقد تقدم

الايضاح عنهُ في تاريخ الدولة العربية

وكانت دمشق امًّا لولاية سوريا يتولاها عامل الخليفة العباس على انهُ لم يحدث فيها ما يستحق الذكر في العباسية ولا بعد انتقالها منها حتى الحرب الافرنجية المعروفة بالصليبية فانهُ تقرر ان بالدوين ملك بيت المقدس وكونراد الالماني ولويس السابع ملك فرنسا جاؤُها بجيوشهم فلم ينالوا منها اربًا قال ابو الفداء الاموي بتاريخهِ سنة ٥٤٢ هـ في هذه السنة سافر ملك الالمان والالمان بلادهم وراء القسطنطينية حتى وصل الى الشام في جمع عظيم ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين اتق محمد بن نوري بن طغتكين وفي سادس ربيع الاول زحفوا على مدينة دمشق ونزل ملك الالمان بالميدان الاخضر وارسل اتز الى سيف الدولة غازي صاحب الموصل يستنجدهُ فسار بعسكره من الموصل الى الشام وسار معهُ اخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ففت ذلك في اعضاد الفرنج وارسل اتز الى فرنج الشام يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الالمان واشاروا عليهِ بالرحيل وخوفوهُ من امداد الاسلام فرحل عن دمشق وعاد الى بلاده وسلم اتز قلعة بانياس الى الفرنج حسبما شرط لهم اه

وهكذا نجت دمشق من الانتقال المضر من سلطة الى اخرى على ان حكومة نور الدين وخلفهُ صلاح الدين جاءتها بعصر فلاح جديد سيما لان نور الدين كان قد بنا مدرسة وتغلبت الدول الاسلامية على دمشق وطرأت عليها الحوادث العامة على انها لم تأت يومئذ بحادث مهم يختص بها

وبينما كانت دمشق بلدة اسلامية يحكمها عامل من لدن صاحب مصر جاءها بلاء تيمورلنك الماحق بعد ان صب ويلات حربه العدوانية على بعلبك وغيرها من مدن الشام فانزل في ربوعها ويلاً عظيمًا لانهُ بعد ان استسلمت البلدة لهُ جعل ضريبة على ذكورها فدفعوها على ان بربريتهُ لم تنتهِ بهذا بل خطب على جيشهِ محسنًا لهم نهب الاهلين وسلبهم ثم قتلهم فاخذ العسكر

باتمام الامر وجرت مذبحة هائلة في اوائل شعبان سنة ٨٠٣ الموافقة سنة ١٤٠١ م فقتل كثيرون من الاهلين واصاب النساء والاولاد من الويلات والمصائب ما لا مزيد عليه

ولم ترَ دمشق كل زمان تاريخها ويلاً وخطوباً اعظم من ويلات هذا الفاتح فانتثر غناها واندثرت شهرتهـــا ولم يكونوا يعرفون قدر محاسنها وفائدتها وتحولت قصورها المؤثثة احسن اثاث وذخارفها الى رماد وامست مكاتبها المشحونة بالكتب والمؤلفات النفيسة التي ادخرتها خلفاء العرب والجامعة احسن كتابات الاباء الشرقيين هباء منثوراً قبل ان النصارى فيها كانوا جماً غفيراً فلم يسلم منهم الا عائلة واحدة لم تزل سلالتها حتى الان وهم يعرفون حديث ذلك البربري بالنقل من ابائهم غير ان المدينة لم تطل في انهدامها بل نهضت من اثار دثارها بعد حين ونفضت عنها الخراب وتزينت عروساً ليتحلى جيدها بالمنة وتخفق فوق رأسها رايات الخلافة العثمانية التي نصبها فوقها المرحوم السلطان سليم سنة ١٥١٧

واستمرت دمشق عثمانية على ان عمالها ولئن كانوا احياناً لم يحسنوا طاعة الدولة العلية فلم يخرجوا ظاهراً عن ولائها وكانت تتولاها وزراء الدولة العلية الواحد بعد الاخر وهم يترأسون فعلاً واسماً على عمال بعض المقاطعات حتى اخذها ابرهيم باشا المصري في بدائة الجيل الحاضر حيث دخلتها قناصل الدول الاوربية المرة الاولى لانه لم يكن يسمح لهم بالقيام فيها قبل ذلك ثم خرج ابرهيم باشا المصري من سوريا واخلى دمشق لتعود اليها الحكومة العثمانية

ليس بين مدن العالم اقدم من دمشق عصراً او اكثر اهمية فقد ملكتها ست امم مختلفة فانقسم تاريخها الى ست مدات فانها كانت نحو ١٤٥٠ سنة مستقلة واستولى عليها البابليون والفرس ٤١٧ سنة واستمرت حكومة اليونان السلوقيين ٢٤٨ سنة وحكمها الرومان ٦٩٩ سنة واستولى عليها العرب الاسلام ٤٤١ سنة ومن ثم تملكها العثمانيون من سنة ١٥١٧ . ومن اشهر الحقائق

المتعلقة بتاريخها انها كانت تزدهي تحت تغيير كل خلافة وهيئة كل حكومة ولم توثر فيها كل طوارق الحدثان ولا ظلم الحكومات الجائرة

اما الحادثة المتاخرة التى جرت سنة ١٨٦٠ م وهي ثورة بعض سفلة الاسلام على النصارى وقتل كثيرين منهم فلم نتعرض لذكرها مفصلاً لانها معلومة التفاصيل لقرب عهدها منا وانما نخص بالذكر سيادة الامير الهمام الكامل الامير عبد القادر الجزائري الحسني المشهور لانه صرف قصاراهُ للاخذ بناصر المظلومين وصيانة الخائفين كما استحق لاجلهِ شكر الدول ومكافاتها

اما الدولة العلية العثمانية فلم تهمل جزاء هذا العمل بل لما بلغها الامر بعثت لسوريا دولة المرحوم فواد باشا مفوضًا بالبحث والاقتصاص من المجرمين فجاء دمشق وعاد الى بيروت وهنالك عقدت لجنة البحث المختلطة تحت رئاسة دولتهِ وحكم على المجرمين بالقتل واعاد الامنية الى النصارى ودفع لهم تعويض مسلوباتهم

ومن ذلك الحين رتعت دمشق بالامن وعاد اليها كثيرون من سكانها الذين نزحوا متفرقين في البلاد وأمسى الوئام عظيمًا بين الفئتين ولم يعد بينهم خلاف وبعد ان باتت بيروت دار ولاية زمنًا يسيرًا عادت دار الولاية الى دمشق فامست عاصمة سوريا اما المعارف فكانت بطيئة السير فيها قبل ان تداركها جماعة من افراد العلماء الاعلام الذين فيها ولاهاليها من رقة الجانب وحب المعارف ما قرر لهم السبق بين السوريين

الفصل الثامن عشر

تاريخ تدمر

قال صاحب المرآة الوضية : ومن الاماكن المشهورة في تلك النواحي تدمر وموقعها في البرية الى الشرق من حمص على نحو ٩٠ ميلاً والى الجنوب الشرقي من حلب نحو ١٩٠ ميلاً والى الشمال الشرقي من دمشق نحو ١٥٠ ميلاً قيل بناها سليمان بن داود (ملوك ثالث ص ٩ ع ١٨) ولعل المراد انهُ

حسنها وزاد في ابنيتها وقد ذكرها ابو الطيب المتنبي حين تحصن بها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة بن حمدان العدوى سنة ٣٤٤ هجرية فقال

وليس بغير تدمر مستغاث — وتدمر كاسمها لهم دمار

ارادوا ان يديروا الراي فيها — فصبحهم براي لا يدار

وكانت العرب تزعم انها من بناء الجن لما ترى من قوتها الباهرة وعلى ذلك قول النابغة الذبياني

الا سليمان اذ قال الاله لهُ — قم في البرية فاحددها عن الفندِ

وجيّش الجن اني قد اذنت لهم — يبنون تدمر بالصفاح والعمدِ

وقد اشتهرت جدًّا لكونها على طريق القوافل بين راس خليج العجم والمدن التي على البحر المتوسط وكانت في اعظم زهوتها في عصر الملكة زنوبيا في اواخر الجيل الثالث للتاريخ المسيحي وهذه الملكة انتصر عليها الملك اوريليانوس الروماني واخذها اسيرة الى رومية ومن ذلك الوقت ابتدأت تدمر تنحط عن عظمتها والان لم يبق منها سوى اثارها كلها وابنيتها القديمة

لا جرم ان تلك المدينة التاركة حتى اليوم اثارًا تذهل السياح الكثيرين الذين ياتونها وتكشف لهم عن حقيقة العظمة التدمرية السالفة لم تزل واقفة وسط ذلك القفر البلقع تدعو كل من يتعجب من كرور الزمان الى التزود من منظرها فانها مليكة القفر في كل حال وموقعها يحكي موقع دمشق على انهُ لو كان بجوارها نهران كنهري دمشق لاصبحت جنة في الارض

اما تاريخها فقديم فان سليمان الحكيم ملك اسرائيل كان من الغنى والنشاط على جانب عظيم وكان يحب القيام بالاعمال التجارية ليناظر بذلك حليفته بلاد فينيقية حتى ان في تاريخ تجارتها ما يدل على اشتراكهِ في قيام التجارة بحرًا معها وكان قد انشا سفنًا تجارية وقوافل برية تحمل تجارتهُ الى الاقطار الشاسعة وبما ان بلاد العرب والعجم والهند وما بين النهرين كانت ذات اتصال تجاري مع بلاده كانت تسير القوافل اليها ذهابًا وايابًا فتلتزم بقطع القفر الواقع

وراء سوريا وهذا حمل سليمان ضرورة على بناء مكان لراحة القوافل وإذخار الذخرة لها فيها فانتخب موقع تدمر وسط القفر لتلك الغاية وقد ذكر هذا في الكتاب المقدس في المكان الذي اشار اليهِ العلامة صاحب المرآة الوضية قال احد الكتاب ان وقوعها على بعد متساو بين الفرات وسوريا وحسن موقعها وغزارة الماء وجودة الهواء اتت هذا المكان بنجاح عظيم

وقال يوسيفوس المؤرخ انها كانت مبنية قبل ايام سليمان وان سليمان عليهِ السلام رممها ووسع دائرة بنائها وحسنها وهي تبعد عن دمشق ٢٠٠ ميلاً الى الجهة الشمالية الشرقية اما اسمها فهو عبراني ومعناه مدينة النخل وسماها الرومان بالميرا الذي معناه كمعنى اسمها العبراني وكانت احوالها تختلف باختلاف تجارتها واستمرت نحوًا من الف سنة دون تاريخ معروف وقد ذكرها بليني وكانت يومئذ ذات شهرة وتقدم

وقد اتاها ماركوس انطوني الروماني ليفتحها وينهبها ولكنهُ لم يتمكن من مقصدهِ لان اهاليها نقلوا كل امتعتهم وجواهرهم الى ما وراء الفرات وفي زمان دولة ادريانوس الروماني اتحدت مع مملكة الرومان ومنحها ذلك الملك امتيازات كثيرة على ان وقوعها في القفر الفاصل بين بلاد فارس والمملكة الرومانية اللتين كانتا في عدوان دائم جعلها ذات حكومة مستقلة قبل ان خضعت لادريان القيصر الروماني واصبحت تحت حماية رومية وبنا ادريان في البلدة دورًا وصروحًا كثيرة وشاد هياكل واعمدة عظيمة لم تزل اثارها حتى اليوم غريبة جدًّا وسماها ادريانابوليس وانعم عليها بجعلها من مصاف الدول الرومانية فاخذت سطوتها وغناها تزدادان سرعة منذ ذلك الوقت ومع انها كانت تعنو لحكومة رومية كان يسوسها حكومة منها لها شرائع وطنية مخصوصة اما سياستها فكانت منوطة بمجلس كان ينتخب الشعب اعضاءه وبنى ذلك المجلس والشعب اكثر تلك القصور والمراسح والهياكل التي تدهش عظمة اثارها من يرى عليهِ الزمان بالنظر اليها والذي يبرهن لنا انها بنيانها

هو ما يرى منحوتاً على بعض اثارها من الكتابات ومنها ما ياتي مترجماً عنها وهو قد بنى المجلس والشعب هذا واستمرت تدمر سارية على قدم النجاح والسعادة نحو قرن ونصف ولو لم تحملها الكبرياء على الاعتداء بنفسها لما صدمتها يد الاقدار صدمة اودت بها الى التلف والخسران وحدث ان بعد حين كان على سرير مملكة رومية العظيمة رجل يقال لهُ فاليريانوس اخذ الاضطراب منهُ كل ماخذ لان اعداءهُ كانوا كثيرين لا ينامون عن ايصال المضرة اليهِ فاقام ولدهُ غالينيانوس السيء الاخلاق على العرش فما عتم ان شهرت دولة الفرس الحرب على الرومان وسارت جيوشهم تخترق البلاد الرومانية واذا بفاليريانوس قد حشد جيشاً لمحاربة سابور فالتقى بهِ في ما بين النهرين

والتحم القتال فانكسر الرومان واخذ سابور ذلك القيصر اسيراً وارسلهُ الى عاصمة مملكة الفرس على ان ابنهُ العقوق لم يتخذ اي واسطة لاستخلاصهِ وكان في تدمر رجل من اشرافها يقال لهُ اوديناثوس كان على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والمعرفة والتدبير فوصل بحزقهِ الى تموء سرير تدمر وكان لما فاز سابور بالنصر على فاليريانوس الروماني ان اوديناثوس بعث اليهِ برسالة وهدايا ولما تلا سابور الرسالة لم تنل حظاً لديهِ لانهُ كان منتظراً عبارات الرق والخضوع من اوديناثوس فحنق عليهِ وامر بطرح هداياهُ في نهر الفرات وقال من ترى يكون هذا الرجل اوديناثوس الذي تجاسر ان يكتب تحريراً غير مؤدب لسيدهِ فان احب الخلاص من التأديب عليهِ ان يطرح بنفسهِ عند اسفل عرشنا فعلم اوديناثوس ذلك وعزم على القتال فحشد جيشاً من العرب والسوريين وزحف على العدو فاستولى على بلاد ما بين النهرين ولحق بسابور فكسرهُ تحت اسوار مدينة ستسفون سنة ٢٦٠ ق م وهاجم مؤخرة جيش سابور قبل ان عبر النهر وانزل بهِ ويلاً وهواناً وذلك ٢٦٢ للميلاد فكان هذا العمل العظيم مجلبة لمرور الرومانيين بخدامات اوديناثوس

فاشركهُ غاليئوس بالسلطنة سنة ٢٦٤ ميلادية على انهُ كان قبل ذلك مالك سكان القفر وكانت مملكتهُ محتوية على سوريا وما بين النهرين وغيرها من بلاد العرب فلما اشرك بالاحكام الرومانية امسى يلقب باغوسطس (وهو لقب يمنح لمن كان فالحًا من قياصرتهم) وكانت المملكة الرومانية تعرف اوديناثوس بلقب اغوسطس لفضلهِ الغزير واغتنامهِ من سابور غنيمة وافرة واسر بعض نسائهِ ولم تطل مدة ملكهِ لان ميونيوس ابن اخيهِ القى لهُ دسيسة وقتلهُ حسدًا وهو في وليمة حافلة في مدينة امسا اي حمص وكانت مدة ملكهِ قصيرة اي بعد اشتراكهِ بالقيصرية بثلث سنوات قيل ان اوديناتوس كان عربيًا وقيل سريانيًا وكان قد قاد العصاة السوريين الى الطاعة وردع البرابرة الذين كانوا يشنون الغارة على المملكة الرومانية من جهة الشمال وخلفهُ في الملك امراتهُ زنوبيا المشهورة بالفضل والمعرفة والشجاعة حتى امسى اسمها مذكورًا كلما ذكر اسم تدمر فلما تبوأت العرش اولاً كانت وكيلة عن ابنها فابالاتوس قيصر ثم داخلتها محبة الفخر فدعت نفسها ملكة الشرق وبعد حين فتحت مصرًا وضمنها الى املاكها في سوريا وما بين النهرين واسيا الصغرى وساستها مدة خمس سنوات وبنت فيها قصورًا وحصون ومراسح حتى اصبحت نزهة البلاد غير ان في سنة ٢٧١ ميلادية لما راى اورليان قيصر رومية ان زنوبيا قد انتحلت لنفسها ما حق لهُ دون سواه وانها كانت تدعو اولادها قياصرة وتلبسهم البرفير والارجوان الملكيين وان تدمر قد اخذت بالنمو والتقدم حتى اوشكت ان تفوق اعظم بلدان مملكتهِ تقدمًا وغنى خامرهُ خوف شديد وحسد لا مزيد عليهِ فارسل لها سفيرًا يطلب اليها شروطًا فرفضت قبولها لثقلها وللحال تجهز للمسير عليها وكان ذلك ٢٧١ م فانتشب القتال بينهما اولاً عند انطاكية ثم في اميسا اي حمص وانكسرت فيها فسارت راجعة حتى تدمر وتحصنت فيها وحصرا اورليان تدمر حصارًا شديدًا حتى فتحها فحاولت زنوبيا الفرار على انها لم تنجُ حيثما قبض الرومان عليها عند الفرات وجيء بها الى القيصر اورليان اسيرة

فاخذها الى رومية ودخلها وهي امامهُ لابسة حلاها وجواهرها ومقيدة بسلاسل ذهبية على انها كانت لا تستحق تلك المعاملة لما كان من فضل زوجها اوديناثوس وفي سنة ٢٧٦ م فتح اورليان تدمر واقام فيها خفرًا من الجند على ان بعد مبارحتهِ ثارت الاهاون بالخفر فقتلوهم فلما سمع اورليان بما كان انثنى راجعًا ونهب البلد وقتل اهاليها وامر بهدمها وبعد غير طويل انتفضت من خرابها لان الفاتح اورليان نفسهُ اصدر امرًا باعادة بنائها وترميمها وجدد اشادة هيكل الشمس على انها لم ترجع الى شهرتها الاولى وعظمتها السالفة وبعد ذلك بنحو عشرين سنة رمَّ ديوكليتان القيصر الروماني اسوارها الا ان عصر نجاحها كان قد انقضى فلم يصل لنا بعد ذلك عنها خبر ينبيء عن حال انحطاطها وخرابها وكانت دار اسقف في زمن النصارى وفي زمن الفتح الاسلامي كانت لم تزل بلدة حصينة اخذها الامير خالد بن الوليد وكان يقطنها قوم من اليهود يظن انهم من بقايا قوم سليمان وقد قال بنيامين التدلاوي انهم كانوا في الجيل الثاني عشر اربعة الاف نفس اما الان فليس منهم بشر حتى لم يبق من اهاليها الكثيرين الا شرذمة ومن صروحها الفاخرة غير خمسين كوخًا بين انقاض هيكل الشمس اما اثارها فمع انها تستحق وصفًا دقيقًا فنترك ذكرها لضيق المقام

الفصل التاسع عشر

مدينة صيدا

هي على اثار صيدون الفينيقية القديمة وموقعها في الاحدور الشمالي الغربي من ارض صخرية تنحدر تدريجًا حتى البحر والى الجنوب منها قلعة قديمة كادت تصبح دثارًا قيل بناها الملك لويس التاسع ملك فرنسا لما اتى بالتجريدة الفرنساوية الصليبية سنة ١٢٥٣ وهنالك سور يطوق الاحدور الصخري ويقي المدينة من الجهة اليسرى على انهُ اوشك الدمار اما اسواقها فضيقة

ومعوَّجة وتكثر فيها الاقذار وعدد اهلها ٩٠٠٠ منهم نحو سبعة الاف من الاسلام ونحو خمسمائة من اليهود والباقي من الكاثوليك والموارنة والبر وتستانت وقد انحطت صيدا انحطاطاً عظيماً حتى انها بلا سفينة واحدة بعد ان كانت سفنها وسفن جارتها صور تملأ الآن البحار المعروفة اما تجارتها فقليلة الاهمية جدًّا حتى ان البواخر لا تمر عليها بل ان منذ عهد قريب الح تجارها بطلب احدى السفن فاخذت البواخر الروسية بالمرور عليها بايابها من الاسكندرية بعد ان تكفل جمهورهم بدفع مبلغ معلوم اذا لم يكن الدخل كافياً ثم اضربت البواخر عن ذلك وهذا ناتج عن عدم اهمية حاصلاتها فان اكثرها اعتباراً فيها الحرير والفاكهة وفي البحر امامها صخور قائم على احداها برج عظيم يتصل بالبر بجسر مبني على تسعة قناطر وكان مرفأ صيدا في الزمن السالف من احسن مرافيء البلاد حتى انهُ كان يسع خمسين سفينة غير ان الامير فخر الدين المعني ملأهُ حجارًا ورمالاً كي لا تدنو سفن الدولة العلية من المدينة وذلك عندما اشهر العصيان فامست الميناء الآن لا تصلح لغير بضعة قوارب صغيرة على ان السفن والبواخر تلقى مرساتها على بعد منها ولقد اشتهر جوار صيدا بنضارة منظره وخصب ارضهِ وغزارة محصولهِ فان الجنان والكروم قد ملئت ذلك السهل حتى سفح الجبل ويسقي هذا الجنان اقنية الماء المجرورة من نهر الاولى وبعض جداول لبنان ومن محصولاتها الليمون البردقان والحلو والتين والكباد والخوخ والمشمش والدراقن والسفرجل والموز وغيرها على ان الموز فيها اكثر ما هو في كل مدن سوريا اما الآثار فقليلة في جوارها على انهُ لم يزل يوجد كثير من النواويس في سهولها

وفي سنة ١٨٤٢ وجد في بستان يسمى بستان البوبوناووس من الرخام عليهِ امثلة ناتئة لاشخاص كانهم في معمعة حرب بعضهم فرسان وبعضهم مشاة وهي كاملة التشخيص بنوع بليغ على هيئة رومانيـة وقد كانوا اخرجوا غطاء ذلك الناووس قبل عامين وكان عليهِ صورة امراة ورجل نائمين احدهما يحضن الاخر وقالوا انهم كسروهُ ولم يبقَ لهُ من اثر ومن ثم وجد بعض الفعلة

مسكوكات قديمة من ايام فيلبوس المكدوني وابنهِ الاسكندر. وفي ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٥٤ ظهر ناووس عظيم وكان محفوراً عليهِ اثنان وعشرون سطراً باللغة الفينيقية فسرها احد العلماء فكانت

في شهر بول في السنة الرابعة عشر توفي ملك الملك اشمونعيد ملك الصيدونيين اني قد حملت وقد ابتلعت في مدفني انتهت المشقات في رواقي وانا راقد في حظيرتي وقبري في موضع قد بنيته ودعائي مع دعاء كل المالك هي ان لا يفتح احد موضع راحتي ولا يطلع داخل موضع رقادي كيف حالة البشر في محل نومي ولا ينزع حائط مكان راحتي ولا يرفع ما داخل موضع راحتي ان دخلت موضع راحتي وان كنت انساناً الحاكم الاعلى ابل فلتسمع ديْنونة من كل المالك والذي يفتح مدخل مكان راحتي والذي يفتح محيط مراحي والذي يرفع ما داخل مراحي فلا يكون لهُ راحة بين الجبابرة ولا يدفن في قبر ولا يكن لهُ عقب وليكن لهُ شر في المواضع السفلى ومن عصا فليدن من الالهة المقدسين ومن المملكة بواسطة السلطة العظمى لان ملك الصيدونيين على المالك من فتح مدخل موضع راحتي من رفع حائطي فليخبر في نفسهِ صحة هذا القول ليت من فعل لا يعد لهُ حقل راحة لذيذة بين معالي النور بين العائشين تحت الشمس مثل راحتي قد حملت قد ابتلعت في مدفني انتهت المشقات في رواقي انا اشمونعيد ملك الصيدونيين ابن الملك تبنيث ملك الصيدونيين ابن ابن الملك اشمونعيد ملك الصيدونيين هاقد بنينا بيت الالهة بيت حكم البر والبحر وشيدنا بيت عشتروث فليتعالى اسم النور نحن الذي قد بنينا بيت امي رحبا غنيا النور على الاكمة وبنينا مقامي ليتعالى اسم النور وبنينا الهياكل لالهة الصيدونيين في صيدا البر والبحر هيكل بعل صيدون وهيكل عشتروث ليتعالى اسم بعل حتى يعطينا رب الملك فخر اللذة والحسن بلاد صور جنة الساحل قد امتلكنا المحاصن التي صنعت لاجل سراثوس وزدناها قلاع اطراف البلاد لحماية الصيدونيين الى الابد

فيظهر من هذه الكتابة نسب هذا الملك وعظمة صيدا السالفة وانهُ هو باني الهياكل لبعل وعشتروث غير ان ليس لهذه الكتابة المهمة تاريخ يظهر زمان حفرها فهي لا شك بين القرنين الرابع والحادي عشر من التاريخ المسيحي وهذه الصفيحة موجودة في دار التحف في اللوفر من باريز

ان تاريخ صيدا قديم جدًّا لان المدينة من اقدم مدن العالم فانها ذكرت في الكتاب المقدس من غزة وصادوم وعامورة وقد قال يوسيفوس المؤرخ في تاريخهِ (قدميات ٢٧ و٦ ع ٢) باثناء كلامهِ عن انتشار الناس على وجه الارض ان من ابناء كنعان صيدونيوس الذي بنى مدينة سماها باسمهِ اما اليونان فيدعونها صيدون الخ

ومن الكتاب يرى انهُ عند ما جاء الاسرائيليون الارض المقدسة كانت صيدون مشهورة لان يشوع دعاها صيدون العظيمة وقد قال هوميروس الشاعر اليوناني المشهور بقصيدتهِ المعروفة بالالياذ ان الحذق والشهرة اللذين كانا للصيدونيين في صنائعهم والقوة والبأس والبطش التي كانت في جيوشهم لم تنحصر في سوريا بل انتشرت منهم الى اقاصي الارض فان في زمان حروب تروادا الشهيرة (ان تروادا مدينة قديمة مشهورة في الاناضول وسبب حربها ان باريس وهو ابن احد ملوكها اختطف هيلانة امرأة احد ملوك اليونان وكان قد اضافهُ فحنق زوجها وكل ملوك اليونان وتحالفوا وساروا الى تروادا واحاطوا عليها وحصروها حصارًا شديدًا ولم يفوزوا منها بطائل الا بعد عشر سنوات عند ما احتال اوليس ابو تليماك الشهير فافتتحها وقد اشتهرت في هذه الحرب بسالة اليونان) كان النوتية الصيدونيون يقيمون بامور كثيرة عدوانية ضد التروادين على ان هولاء اعملوا على الانتقام منهم فمزقوا ثيابًا ثمينة جدًّا من صنع بنات صيدا وكان يظن ان تقدمة اي منها لمعبودة الحرب عندهم واسطة لاستجلاب رضاها نحوهم ولم يكتف هوميروس بهذه الاشارة الى صيدا في شعرهِ بل ذكرها مرارًا فان صناعتها بلغت اقصى اليونان حتى

ان اشيلس اليوناني المشهور اجاز اللاعبين بتذكار جناز بتروكلس بقدح من الفضة كان قد صاغهُ رجل من حذاق الصيدونيين وكذلك الرداء الذي قدمهُ هيكوبا كفارةً عن ذنوبهِ الى مينرفا كان صنع امراة صيدونية اخذها باريس مختطف هيلانة بعد ان زار فينيقية

وقال الياوس في موءلفهِ ان الفينيقيين كانوا تجارًا وقرصان بحر وكتب بعضهم بشهرة صيدا في عمل النحاس ومن رواية عن اوليس ان صيدا كانت كثيرة السكان وان البلاد السورية كانت تدعى صيدونية . ولم تكن صور في اول زمانها ذات شهرة بل انها كانت خاضعة لصيدا ومن الروايات التاريخية والتقليدية ادلة على تقدم صيدا قديمًا وروى سترابو ان الصيدونيين كانوا متقدمين في معرفة الفلك والهندسة والتجارة ومسالك البحار والفلسفة

اما حكومة صيدا الفينيقية فكانت مستقلة في داخليتها كغيرها من المدن كما تقدم في حكومة الفينيقيين على ان جماعة من الاعيان فيها كانوا يعضدون السياسة الاريستوكراتية اي المنسوبة الى حزبهم ولما انشأت الدول الفينيقية الكبيرة دار ندوة في طرابلوس كما تقدم كانت صيدا احداهن بل لم يذكر عدد اعضاء غيرها فان عددهم مائة وقد اتوا مكان المجلس العالي بعيالهم وبما ان كلًا من صيدا وصور وارواد بنت لنفسها حارة على بعد نحو ستاديوم من الاخرى (كما تقدم في تاريخ طرابلوس تفاصيل كثيرة عن ذلك) لا يعلم الان اي المراكز المعروفة كانت لصيدا او لاختيها

وقد قال بعض الموءرخين ان الفينيقيين لم يبذلوا وسعهم للتقدم بالفنون العسكرية لانهم لم يقصدوا فتحًا واقدامًا بل كانوا يحشدون الجيش للذب عن الذمار اذا مست الحاجة على ان عمارتهم كانت قوية باطشة فكانت تصون الثغور اما اليهود فلم يكونوا قادرين على اقتحام فينيقية ولا معاداتها لانها كانت تفتقر الى منسوجات صور وكانت سوريا يومئذ ضعيفة واهنة القوى منقسمة على ذاتها ولبنان بحال التقهقر والانحطاط الناتجين عن حروب دمشق

المتواترة ولذلك كان الصيد ونيون يعيشون براحة وسلام وسط اضطرابات اعدائهم وجيرانهم غير مبالين بهم ولهذا لم تكن دولتهم على خطر السقوط لانهم لم يقصدوا فتحًا وما زالوا بامن وعندهم اسباب الحظ والغنى حتى عظمت الدول الشرقية عند ضفات الدجلة والفرات واخذت بتوسيع نطاق املاكها فبلغت البحر الغربي حيثما تقلصت امنية فينيقية والتزمت ممالكها ان تعد رجالاً فاستاجرت من الرعاع جيشًا يقوم عنها بالقتال لان بلادها لم تكن ذات اتساع يمكنها من حشد جيش قادر على الدفاع وقد اشار النبي الى ذلك في كلامهِ عن لود وفارس ومر ذكر كل ذلك في حكومة الفينيقيين ان صيدا لم تكن ذات حصانة كصور بل انها كانت عرضة دائمة لتسلط الفاتحين عليها ففي سنة ٧٢٠ ق م اخذها شلمنصر ملك بابل بعد ان حارب اليهودية وسبى اليهود وامر الكوثيين (وهم قبيلة من بلاد فارس لم يزل احد انهر تلك البلاد حتى الان يدعى باسمهم) ان يسكنوا السامرة بعد ان اخلاها اليهود ثم ارسل الملك جيشًا فساد على فينيقية بحد السيف وعقد معهم صلحًا وعاد راجعًا على ان صيدا وعكا وباليتيروس اي صور القديمة شهرت العصاوة وسنة ٦٢٥ تبوأ سرير اشور نابوبلاس فاستولى على مصر وسوريا وفينيقية واقام فيها ولاة يحكمونها باسمهِ فاشهروا الى فينيقية راية العصيان وكان نابوبلاس قد طعن في السن فلم يستطع المسير اليهِ على انهُ بعث بولده نبوخذنصر لاخضاعهِ فسار ولي العهد وحارب العاصي وقادهُ الى الطاعة وتغلب على كل البلاد فعادت الى الدولة البابلية ومن الغريب انهُ مع كل وضوح تواريخ اليهود والمصريين في ذلك الوقت لم نعثر على اثر لهذه الحرب التي رواها باروسوس وكانت الدولة الكلدانية تنمو وتعظم في غربي اسيا ودولتا فينيقية واليهودية تزدادان ارتهابًا وترتعدان خوفًا منها ففي غضون ذلك جاء ابريس خليفة نيكو صاحب مصر وهاجم صيدا وامتلكها واستخدم عمارة صور فاخضع بها كل فينيقية وقبرس فعظمت قوتهُ البحرية وراى صدقيا ملك يهوذا ان ابريس كان يفوز بالنجاح

فعقد محالفة مع نبوخذ نصر ملك بابل لكن المكدونيين لما علموا بتقدم المصريين عادوا عن اورشليم وانتظروا اجلاء المصريين فعادوا اليها واخذوها سنة ٥٨٧ ق م حيث سار نبوخذ نصر بجنده الى الثغور فاخذوا صيدا مهاجمة وقد وصف حزقيال المصائب التي حدثت في اسواقها وفي الجيل الرابع قبل المسيح جرت صلات حسنة بين اثينا وصيدا فان اهالي كل من البلدتين كانوا ياتون البلدة الاخرى لمعاطاة المهام التجارية وغيرها ويقطنون فيها ولذلك صدر امر مجلس السنا (الشيوخ) العالي في اثينا باتفاق مع ستراتو ملك صيدا ان كل الرعايا الصيدونيين الموجودين في اثينا يعفون من الخراج والاموال التي تدفعها رعايا تلك الدولة ومحالفوها وفي اواخر الجيل الرابع ق م ثارت الولايات الفارسية من مصر حتى ليكيا لتخلع عنها نير الفرس القساة فكانت دولة سبارتا اليونانية تمدهم بالمال والرجال والذخرة برًّا وبحرًا فزحف عند ذلك تاكوس ملك مصر بجيش جرار على سوريا ليفتحها ففتح الحصون التي كانت بيد الفرس غير ان المذكور التزم اخيرًا ان يترك قيادة الجيش ويفر هاربًا الى بلاد اعدائه الفرس وفي سنة ٣٥٩ ق م توفي ارتاكسر وس ومامون ملك فارس وخلفهُ ارتاكرسس اكوس وفي ايامهِ استقلت مصر ثانية وسارت جنوده الى فينيقة لتقي ثغورها وتحفظها تحت الطاعة والخضوع فنزل والي الفرس وجيشهُ تجاه صيدا واخذوا يعاملون الاهالين بئس المعاملة فضجر الاهلون من ذلك وعقدوا اجتماعًا في مدينة طرابلوس سنة ٣٥٢ ق م اعلنوا فيهِ خلعهم سلطة الدولة الفارسية ومن ثم عادوا الى صيدا واخذوا يهدمون محلات الملك وقصور الولاة ومخازن الذخائر والمهمات ويقتلون من الفرس الذين اضروهم فتكدر راوكوس من ذلك وعزم على مضرتهم وابادة الصيدونيين الذين جهزوا جيشًا جرارًا استاجروهُ من رعاع الغرباء فعاد مسرعًا الى بابل وحشد جيشًا جرارًا وزحف بهِ على سوريا فلما علم تيناس ملك صيدا بكثرة جموع ملك الفرس خاف وارتعد فعزم على تسليم المدينة للعدو ولذلك بعث

برسول سرًّا الى اوكوس يقول لهُ انهُ مزمع ان يسلم المدينة لهُ عند ما يدنو من ابوابها وكان اسم ذلك الرسول تيسا ليون فطلب من اوكوس باسم تيناس ان يمد لهُ يدهُ اليمنى علامة للقبول وكان اوكوس قد سر بتسليم صيدا لهُ غير انهُ عند ما سمع الطلب تحركت بهِ الكبرياء فامر بقطع راس الرسول فحينئذٍ اجاب تيسا ليون ان الملك قادر ان يفعل ما يريد غير انهُ لا يتمكن من الفوز بالنجاح دون مساعدة تيناس لهُ فعاد الملك الى الرشاد واعطى يده اليمنى الى تيسا ليون وكان ذلك من خوارق العادة عند الفرس ولما راى الصيدونيون ان ملكهم تيناس لم يتاهب الاهبة الواجبة للقتال ولم يستعد للحصار اخذوا ببناء السفن فحشدوا نيفًا ومائة من السفن الكبيرة منها ذات اربعين مجزافًا ومنها ذات ثلاثين وبنوا سورًا وبرجًا مثلثًا وشراريف واخذوا يعلمون شبانهم الفنون الحربية ويدربونهم على القتال غير ان كل ذلك كان قليل الجدوى لان خيانة تيناس ملكهم ومانتور قائد الجنود المستاجرة المصرية كانت اعظم من ان يقاومها حصن او يصد نفوذها سور ولما دنا اوكوس وصار على امد من المدينة اعلن تيناس عزمهُ على عقد مشورة فاخذ مائة من كبار صيدا وعظماء رجالها وخرج بهم فالتقاهم اوكوس ورجالهُ وللحال سلمهم تيناس المائة من الاعيان فقتلوا عن اخرهم وبلغ الامر صيدا فخرج نحو خمسمائة من اعيانها ليسلموا المدينة للفرس فلما صاروا في حضرة اوكوس سال ذلك الفارسي تيناس الخائن عن مقدرتهِ تسليم البلدة وركونهِ الى الذين خرجوا ليسلموها فاجاب بالايجاب عن الاول والسلب عن الثاني فامر بقتل الخمسمائة وكان اوكوس لا يكره الانتقام من الصيدونيين ولذلك لم يصده عن بربريتهِ امر وعزم تيناس على اتمام الخيانة والفتك بصيدا المنكودة الحظ فطلب من المصريين ان يفتحوا ابواب المدينة للفرس غير ان الصيدونيين لما راوا عظم الخيانة وما كادت تاول اليهِ حالهم فضلوا الموت بايديهم على التسليم لوحش كاسر لا بد من ان يذيقهم الموت المهين فاحرقوا العمارة البحرية كي لا ينجو احد منهم فيها واجتمعوا

بكنوزهم وخزائنهم واضرموا النار فاحترقت المدينة وما فيها تماماً وقد قال بعض المؤرخين ان عدد المحروقين كان اربعين الفاً فتكدر اوكوس مما حدث ووعد من ياتيهِ بشيء من الجوهرات والحلي والكنوز بمبلغ كبير اما المدينة فعادت ثانية تحت نير الفرس القاسية بعد ان كابدت اشد المصائب وشربت بيدها كاس ذلها وهوانها اما تيناس الخائن فلم تطل مدة صحبتهِ للملك فارس حتى اعمل على قتلهِ وبينما كان مشغلاً بتدبير المؤامرة وثبت عليهِ امراتهُ فقتلتهُ ثم قتلت نفسها واستمرت صيدا باسوإِ حال بعد فقد رجالها وما لها وعمارتها البحرية حتى عاد ملوكها الوطنيون وكانت اعمال الفرس قاسية بربرية ولذلك لم ينس اهل صيدا تلك اليد الحديدية التي حكمتهم ولما اتى اسكندر الكبير المكدوني فاتحاً فتحت لهُ ابوابها بدون حرب واتخذتهُ سلطاناً عليها ثم بعد تقلص دولتهِ وتقمصها في سوريا بالدولة السلوقية زعنت صيدا لها غير ان البطالسة المصريين استولوا عليها مرة

وقد ذكرت صيدا في العهد الجديد وذلك عند ما سافر الرسول الى رومية ومن ذلك الوقت الى زمان التجريدة الصليبية لم يكن لصيدا اهمية عظيمة حتى ان اسها لم يرد في تاريخ الحوادث المهمة وفي الزمن الصليبي لم يكن ما يدل على اهميتها بذلك القرن على ان الافرنج اهملوا فتحها عند مرورهم الاول توصلا لفتح اورشليم اولاً فلما مروا عليها اعترضهم اميرها بجيوشهِ فكسروهُ وعاثوا في الضواحي فغنموا كثيراً

وفي سنة ١١٠٨ حصرها بالدوين ولم يتمكن منها غير انهُ اخذها سنة ١١١١ ووجهها اقطاعاً للبطل استاك كرنير وفي سنة ١١٨٧ استردها صلاح الدين بعد حطين فدك اسوارها وحصونها الا ان الافرنج دخلوها سنة ١١٩٧ بعد محاربتهم الملك العادل فوجدوها خراباً فنهبوها وعاثوا فيها واوقدوا لهم ناراً من العود والطيب الذي وجدوهُ في دورها وخرجوا منها الى بيروت فعاد الملك العادل اليها وخرب ما بقي فيها غير ان الافرنج عادوا فبنوها

واحتلوها وظلت معهم الى سنة ١٢٤٩ حين اخذها الاسلام وخربوها وسنة ١٢٥٣ لما بدأ احد قادة الملك لويس الفرنساوي بتجديد بنائها استخلصها المسلمون منهُ اما الحامية فالتجأت الى القلعة لكن الفاتحين قتلوا نحو الفين من الاهلين واسروا نحو اربعمائة وخربوا البلد وفي شهر تموز جاء الملك لويس بنفسهِ الى المدينة و بنى فيها دثارها واشاد بروجها العالية وسنة ١٢٦٠ اشتراها فرسان الهيكل من صاحبها جوليان وملكوها ثلاثين سنة جاء في اثنائها الموغول فنهبوها وفي سنة ١٢٩١ لما سلمت عكا وهرب الافرنج من صور خرج الفرسان من صيدا وجاءوا طرطوس اولاً ثم قبرس فملكها الاسلام ودكوا حصونها ومنذ ذلك الحين حتى القرن السابع عشر كانت صيدا مهملة متروكة وهي في حالة تعيسة من الخراب والدمار على ان الامير فخر الدين المعني قد حسن حالها قليلاً فنفضت عنها غبار دمارها الاول وبنى فيها قصرًا باذخًا وخانًا متسعًا كان يقطنهُ بعض تجار الافرنج وعلى الخصوص الفرنساويين ومع انهُ اضر بمرفاءِ المدينة كما مر كان ينشط التجارة و ياخذ بيد التجار قال السائح رنسن الاميركاني

انهُ اذ كان يظن بنفسهِ سليل جد فرنساوي كان يعامل النصارى الذين في بلاده بالمساواة التامة وعلى الخصوص الافرنج وقد انعم على اديرة اللاتين بامتيازات ومنح عظيمة واخذ يسهل سبل تجارة الفرنساويين التي كانت قد بلغت يومئذٍ الى هذا الساحل وكان قناصل فرنسا وتجارها المقيمون في صيدا يبذلون وسعهم في البقاء على مودة الامير ومن خلفهُ من البشاوات الا انهُ حدث خلاف اوجب انتقال القونسلاتو الى عكا حيث لبثت سنتين او ثلاثًا ثم عادت الى صيدا في ربيع سنة ١٦٥٨ وفي غضون ذلك انشئ محل تجاري في مرسيليا للاتجار مع صيدا وكان من شركائهِ قنصل فرنسا فيها ونسيبهُ داريغو الذي جاءها بعد ان صرف في ازمير نحو خمس سنوات واقام فيها الى سنة ١٦٥٥ على اننا لا ننكر ما لهُ من الايدي البيضاء علينا حيث حفظ لنا وصف المدينة

وتجارتها .اه

وانسعت تجارة صيدا وبلغت الخطة الاولى في سوريا لان تجارها كانوا قد اقاموا لانفسهم عملاً في كل انحاء البلاد يشترون حاصلاتها ويبيعون بضائع بلادهم فيها وكان لقنصل فرنسا نفوذ تام واعتبار في كل انحاء البلاد وكانت اورشليم من دائرة كنشلاريته يزورها مرة في السنة وفي سنة ١٧٩١ اصدر الجزار امرًا بخروج الفرنسا ويهن من صيدا وبعد ذلك اخذت تجارة البلدة بالامتداد سيما لان الاهلين اشتغلوا بها واصبحت المدينة دار الولاية العثمانية الا ان ذلك لم يطل حيث انتقلت الى بيروت فلحقت التجارة بها ومن ثم الى دمشق فانتقلت التجارة وحكومة صيدا الآن قايمقامية تابعة متصرفية بيروت

الفصل التاسع عشر

مدينة صور

واقعة على راس لسان داخل في البحر على قيد يوم الى الجنوب من صيدا تكتنفها الآثار القديمة بين اعمدة واقفة تحت الارض وابنية مردومة منهدمة وجدران كنيسة لم تزل واقفة وتحيط فيها اثار سد الاسكندر واقعة بين رمالها يسكنها الآن من الاهلين اربعة الاف نصفهم من المتاولة والنصف الآخر من النصارى وليس للمدينة بناء يذكر اما اسواقها فمعوجة قذرة وقد كر الزمن على تجارتها فاصبحت قليلة انما تاريخ البلدة قديم كثير الحوادث والفائدة ومع غموضه عن زمن نشأتها لم نعدم سبيلاً الى تخمين ذلك فان المؤرخ جوستين يقول انها اسست قبل فتوح ترواد بسنة واحدة. قيل ان اهل عسقلان غاروا على صيدا ففتحوها بالسيف وقتلوا من اهلها عددًا ففر الباقون الى ارض صور ليبنوا لهم هنالك بلدًا تزيد صيدا شهرة فعمرت صور بالقادمين اليها واتسع نطاق غناها ووفرت ثروتها فكانت تلك الحادثة علة نشأتها وبسطتها وعلو مكانتها. اما فتح ترواد ففيه اختلاف حيث ذهب ابولودورس انه كان سنة

١١٨٤ وقال غيره سنة ١٢٠٩ وروى المؤرخ وبر الالماني ان ابتدا الحرب كان سنة ١١٨٤ وحيث كان الفتح بعد عشر سنوات فهو سنة ١١٧٤ وبناء صور على رواية جوستين سنة ١١٧٥ ق م الا ان ذلك غير ما ذهب اليهِ العلامة صاحب المرآة الوضية حيث قال ان الصيدونيين بنوها بعد بناء هيكل سليمان بنحو سنة ٢٤٠ اي ١٢٥٢ ق م واليهِ ذهب يوسيفوس بن كربون

وكانت صور قسمين احدهما على البحر و يقال لهُ باليايتروس اي صور القديمة والثاني على الجزيرة التي امامها وهي تبعد عنها نحو ثلاثة ارباع الميل او اربع ستاديات وتنفصل عن البر بمضيق وعرض هذه الجزيرة نحو نصف ميل وكانت صور القديمة او التي على الشاطي تمتد مسافة سبعة اميال من نبع راس العين جنوباً الى ضفة نهر الاولى المعروف عند الافرنج باسم ليونتس شمالاً قال بليني المؤرخ ان دائرة صور القديمة مع الجزيرة هي تسعة عشر ميلاً رومانيًّا اما الجزيرة فليست باكثر من ٢٢ ستاديا وقد ذكر ان الجزيرة تبعد عن المدينة ثلاثين ستاديا فاستدل بعضهم على وقوع صور البرية عند راس العين ولقد كتب حزقيال النبي كثيرًا عن صور ووصف شهرتها وما بلغت من التقدم ثم تنبأ بخرابها ووصف حروب نبوخذ نصر والقد فهم من كلامهِ ان صور المقصودة هي التي على البر لان الجزيرة لم تكن تفتح الا بسفن لم يكن للدولة الاشورية منها و بلغت صور كميناء فينيقية مبلغاً عظيماً بالتجارة والرواج وسلك التجار والصناعة والنسج والغنى والامنية وعبد الناس فيها الهتهم عشتروث و بالوس او بعل وهركيلوس وقد قال سانكونياتو ان عشتروث كرست لها نجماً في جزيرة صور المقدسة ومن رواية جوستين وكوريتوس المورخين علمنا انهُ كان لهيركليوس هيكل اخر في صور القديمة لانهُ لما اراد الاسكندر الدخول الى الجزيرة بعلة السجود في هيكلها اجابهُ الشعب ان في صور القديمة هيكلاً اخر هو اكثر قدمية من هيكل الجزيرة اما موقع صور القديمة ففي اخصب بقع فينيقية وحولها سهل عرضهُ خمسة اميال على ان ارضهُ

سوداء وهي ذات محصولات كثيرة اذهلت الصايبين وبالقرب من المدينة اقنية الماء الذي كان ياتيها من نبع راس العين

ولم يكن لصور تاريخ قبل زمن حيرام وسليمان على انهُ بعد ذلك اخذ يوسيفوس المورخ يذكرها بالتفصيل على ان ما ذكر قبل ذلك انما هو اسماء ربما كانت بلا مسميات قيل ان فانيكس وهو ابو كودموس واوروبا هو الذي تسمت بهِ فينيقية وان بالوس الملك الاول هو المعبود بعل وان بناء صيدا وصور منسوب الى اجانور وان فيدايوس الصيدوني المذكور بكتابات هوميروس هو هيراكليوس فان اليونان يسمونهُ فيدايوس على ان حيرام واباه ابيبال مذكوران في التاريخ و يتلوهما وقت يعرفهُ المورخون حتى تاسيس قرطاجنة فيوردون فيهِ اسماء ملوك صور وآماد ملكهم .

ولم يكن الصوريون قد جاءوا مدينتهم بالماء في زمن حصار نبوخذ نصر ملك بابل لها بل كانوا اذا مست الحاجة يفتشون على الماء في الآبار وشطوط البحر كما في ارواد وكان حيرام خليفة لابيهِ ابيبال وذلك قبل بناء هيكل سليمان بزمن يسير وملك اربعًا وثلاثين سنة فاقام باجراآت عديدة في بلدتهِ حتى امست صور احسن المدن حالة فانهُ هدم هيكلي هراكليوس وعشتروث القديمتين واعاد بناءهما بعد ان سقفهما بخشب الارز وبنى محالاً كثيرة ودورًا متسعة رحبة وصروحًا فاخرة واشاد محلاً للاجتماع العام يقال لهُ باليونانية ابريكورس

ولمجاورة صور مملكة الاسرائيليين كان لها ذكر في تواريخهم وقد مر بتاريخ فينيقية امور كثيرة عنها على انهُ لا بد من القول ان اسرائيل لم يعزم قط على الاستيلاء على صور او صيدا او احدى الثغور الفينيقية وقد افادنا التاريخ ان كثيرين من الاسرائيليين تزوجوا بنات صوريات وبالعكس وقد ذكر ايضًا استنجاد داود وسليمان بملك الصوريين ببناء الهيكل والصروح الى غير ذلك

ولقد تقدم ذكر امور كثيرة عن ملوك صور و بعض حوادثها فلاحاجة للاعادة غير انهُ يحسن ان نورد هنا ما رواه يوسيفوس المؤرخ عن حرب شلمنصر حيث قال

اما الصوريون فلما لم يخضعوا لملك اشور عاد اليهم وجمع الفينيقيون منهم ستين سفينة وثمان مائة مركبة كلها مشحونة بالرجال وقدموها لملك اشور فسار الصوريون لقتالهم باثنتين وعشرين سفينة فطردت السفن الاتية ضدها وشتتت شملها واخذت خمسمائة اسير وعاد ملك اشور راجعًا واقام خفرًا على النهر وعلى اقنية الماء ليصد الصوريين عن الورود وظل الامر كذلك خمس سنوات كان الصوريون يشربون فيها مياه الآبار والاجام فطار صيت صور في الافاق واطنب القوم بذكر بسالتها على ان نبوخذ نصر جاءها محاصرًا قال فيلاستراتوس ان في السنة السابعة من تبوء نبوخذ نصر سرير مملكة بابل شرع هذا الملك في حصر صور وكان ايثو بعل ملكًا عليها فذب عنها ببسالة وحمية ثلاث عشرة سنة

وكان النبي حزقيال قد سبق فتنبأ عن صور وحالتها ورثاها مرثاة طويلة ذكرت في سفره على انها تمت فيها تمامًا وامست صور القديمة دمارًا بعد ان طال حصارها على ان النبي يقول ان نبوخذ نصر لم ياخذ اجرة عن تعبهِ وتعب جنوده ولذلك يعده بانتصاره على مصر ونهبها والظاهر من هذه الرواية ان نبوخذ نصر ولئن كان قد فتح صورًا الا انهُ لم ينل من اموالها اربًا لان الاهلين نقلوا الامتعة التى فيها وجاءوها بانفسهم فساء نبوخذ نصر ذلك و بني سدًّا كسد الاسكندر على ان بعضهم انكر ذلك لاختفاء اثره وما زال يحصر البلدة حتى سلم الاهلون فلما افرج عنها عادت الى استقلالها وعاودها شانها حتى بدت طلائع جيش الاسكندر فقاتل داريوس وكسرهُ في معمعة اسوس ثم سار الى سوريا وفتحها وجاء مصر نضمها الى بلاده اما داريوس فلم يبعث بجند الى فينيقية حيث تركها لرحمة الاسكندر وجاء الفاتح المكدوني صورًا

عازماً على اخذها واعدام عمارتها ليأمن جانبها فلما بلغ صور البرية بعث يستاذن اهل الجزيرة بالدخول الى الهيكل ليذبح لهركيل فاجيب ان في صور القديمة هيكلاً اقدم من هيكل الجزيرة فتكدر الاسكندر من ذلك وعزم على حصار صور واخذها عنوة وقد قال كورتيوس ان الصوريين قتلوا رسل الاسكندر اما اريان فلم يذكر شيئاً عن هذه الاهانة العظيمة الخارقة حقوق الامم

قال موفرس نقلاً عن جوستين المورخ انهُ لما شغب القوم عقيب اشتداد القلق واحتدام الحروب ثار الارقاء والمستعبدون على مواليهم وفتكوا بهم وباملاكهم ونسائهم ولم يتركوا من الاحرار الا استراتو وابنهُ خبأَهما عبدهما حيث لا يعرف بهما الثوار وتمادى الحال وراى الثائرون ان الفوضى ليست بالحكومة التي يريدون وطلبوا ان يقيموا من بينهم ملكاً يلقون اليهِ ازمة امورهم ولم يجدوا لذلك سبيلاً الا انتخاب من ينظر الشمس اولاً فعقدوا لذلك مجلساً غصّ بهم بعد نصف الليل في ساحة المدينة واعينهم شاخصة الى المشرق الا ان العبد الذي اخفى مولاهُ قص عليهِ ما كان من الامر فقال لهُ مولاهُ ان ينظر الى الغرب حيث تظهر اشعة الشمس منعكسة عليهِ قبل ظهورها على اشباح المشرق ففعل العبد ما امرهُ به مولاه رغماً عن هزء رفقائهِ بهِ حتى بزغت الشمس وتكسرت على زجاج النوافذ الغربية فراها العبد وقال لرفقائهِ فاعجبوا من ذلك ورغبوا في ان يقيموهُ ملكهم فلم يرضَ ان يبخس مولاهُ حق حذقه بل حكى القوم الامر الذي جرى ففعلوا حينئذٍ ان الحر اوسع فهماً واشد ذكاء من الرقيق فاجمعوا على قيام ستراتو ملكاً عليهم فتولى الملك واحسن السيرة وخلفهُ ابنهُ واحفاده من بعده غير ان المورخ جوستين لم يذكر وقتاً لهذه الحادثة بل رواها اثناء حروب الفرس وصور وقال ان الاسكندر جاء بعد زمن قصير واقتص من المشاغبين واعاد نظام المملكة وحيث ان اسم ستراتو يجانس اسم استراتوس فيظن بها الثورة الحادثة من اولاد المرضعة حيث قتل حفيد حيرام فاخذها استراتوس

وليس بمنكران المثيرين لا يرغبون في الحرب خيفة اضرارها التي تعود على اموالهم وارزاقهم بالخسارة ولذلك كان المتمولون من اهل صور يرغبون في السلام والتسليم للفاتح دون معاناة الحرب وكان يوافقهم على ذلك الاشراف والاعيان لانهم كانوا يعتبرون صوالحهم الخصوصية قبل كل شيء على ان العامة ابت الا الذب عن الذمار املاً بالتخلص من نير الاجانب الذين لم تعنُ صور لهُ عنوًّا تامًا وما تعودتهُ من صد الفاتحين دب في صدور عامة الاهلين حماسة صد الاسكندر فثبتوا ولو لم تبارح عمارتا صيدا وارواد الميناء لما تمكن الفاتح من بناء السد واخذ الجزيرة ولم يكن للاسكندر في ابتداء الحصار عمارة بحرية على ان الصوريين كانوا معدين عمارة عظيمة جدًّا وكانوا منتظرين عمارتي قرطاجنة والدولة الفارسية واقام المحصورون فوق الاسوار التي تحيط بالجزيرة حصونًا وابراجًا واعلى تلك الاسوار ما كان مقابلاً للبر وعلوهُ مائة وخمسون قدمًا ولم يكن هدمها من الامور الممكنة لان احجارها عظيمة وهي محكمة الالتصاق وقلما تؤثر فيها الالات الحديدية وصعب الامر على الفاتح فامر ببناء سد يصل الجزيرة بالبر ويرتفع حتى يعادل الاسوار فتتمكن الجنود المحاصرة من الدخول الى المدينة والفتك بالمحصورين فاخذ الجيش المكدوني بالاشتغال بهمة لا مزيد عليها وامر الفاتح بتسخير اهالي كل ذلك الجوار فكان عدد العملة عظيمًا

ولما راى الفاتح ان حلول جيشهِ في صور القديمة اي التى على البر قد حمل اليها متاعب كثيرة امر بخروج معظم الذين فيها وهدم دورًا كثيرة واتخذ احجارها للسد وبعث بالجند يقطعون الاخشاب من لبنان الا ان الصوريين اقاموا عسكرًا لمنعهم قيل انهم استنجدوا القبائل العربية القاطنة الصحراء السورية فاتوا وهاجموا الفعلة ودنا المكدونيون من سور المدينة فاخذ المحصورون يرشقونهم بالسهام من السور والسفن التي ملأُوها ذخيرة ورجالاً ولم يكن للمكدونيين ما يصدون بهِ تقدمها فامر الفاتح ببناء برجين من الخشب عند اخر السد وتلبيسهما بالجلود كي لا تؤثر فيهما الالات على ان الصوريين

كانوا مهرة بالفنون الهندسية فاصطنعوا ما يرفع مضرة البرجين عن السور ذالك لانهم اتخذوا سفينة ملاوها احجارًا ورمالاً ومواد قابلة الاحتراق وعلقوا في كل من صاريها مصباحًا ملأُوهُ من المواد الملتهبة ورصدوا الاهواء حتى وافقتهم فدلوا من السد والبرجين واشعلا المصباحين فقذفا المواد الملتهبة الى البرجين فاحترقا ومات فيهما خلق كثير ورمى بعض الذين فيهما انفسهم الى البحر فاسرهم الصوريون ووضعوا بايدي المأسورين حجارة كي لا يهربوا وكانت السفن ترمي الفارين بالسهام ثم اتصلت النار بالسد فاحترق واندك عن اخره وعلم الاسكندران سيادة الصوريين في البحر توخر فوزه عليهم فصدر امره باعادة بناء السد اشد متانة من ذي قبل واكثر انحرافًا الى الجنوب الغربي فسار الى صيدا ليجمع السفن فيها وكانت سفنها تحت امرة اوتوفرادتس وسفن ارواد تحت قيادة جير ستراتوس وسفن جبيل تحت رئاسة اقيلوس وجميعهن في غير فرضهن على ان امراءهن لما علموا بتسليم مدنهم للفاتح اضربوا عن طاعة الفرس وجاءوا ميناء صيدا وهم لا يعرفون ما كان من امور صور ودفاعها وعدد سفنهم يزيد على الثمانين على انهُ ضم اليها هنالك بضعة من سفن رودس وسوا وما اوس وليسيا وسفينة مكدونية وعلم ملوك قبرس بانكسار داريوس في ايسوس ومجيء الفاتح الى فينيقية وحلوله فيها فجهزوا مائة وعشرين سفينة وجاءوا بها الى ميناء صيدا حيث اخذت بالاهبة للقتال فسار بشرذمة من الجند الى كليسيريا وهي سهول البقاع وحارب عرب القفر فتغلب عليهم وعقد معهم عهودًا ثم قفل راجعًا الى صيدا فراسه فيها كليا اندر اليوناني اتيًا من بلاده بالسفن والرجال فامره على جناح السفن الايمن وبعث بهِ الى صور يحصرها بحرًا وكان المكدونيون ما فتئوا يهتمون ببناء السد على ان الصوريين لم يمكنوهم من ذالك الا بشق الانفس سيما ان اساس البناء من الخشب وغصون الاشجار فكان الصوريون يتمكنون من هدمهِ باخراج الغصون والاخشاب بالالات ولولاه هذا لتمكن المكدونيون من اتمام عملهم

وتكدر الصوريون كدراً لا مزيد عليهِ فلما علموا بانضمام السفن الفينيقية والقبرسية ضدهم صمموا على الذب والدفاع الى النهاية و بعثوا باولادهم ونسائهم وكهولهم الى قرطاجنة واقاموا سفنهم صفوفاً الواحدة بجانب الاخرى ولما راى الاسكندر ان السفن الصورية لا تهاجم سفنهُ هاجمها هو بنفسهِ فاغرق ثلاثاً منها كانت عند المؤخرة وفي اليوم التالي استعد الفئتان للحرب استعداداً تاماً وتقدمت السفن المحاصرة لتضرب بالاتها الحديدية ومجانقها اسوار المدينة فلما دنت قليلاً من الجزيرة طرح الصوريون في البحر احجاراً كبيرة فاضطرب ورجعت سفن الاسكندر الى الوراء على ان ربانها فكروا بوجوب ارسائها كي لا تدور من فعل الماء غير ان تلك السفن لم تكن ذات ثبات واصطفت السفن الصورية واستترت من السهام والمجانق بالمؤخرة والمقدم واسرعت نحو سفن العدو فقطع ملاحوها الحبال المربوطة بها سفن الفاتح وراى الاسكندر ذلك فبعث سفناً كبيرة يستتر ملاحوها و يصدون الصوريين عن اتمام عملهم على ان الصوريين بعثوا بغواصين يقطعون الحبال وهم تحت الماء ففعلوا واضطربت السفن فربط المكدونيون سفنهم بسلاسل حديدية واغرقوها الى القعر فيئس الصوريون من حركات المكدونيين وعزموا على مهاجمة العمارة القبرسية فاخذوا يتاهبون بحركات سرية واشروا قلوعها امام فم الميما لكي لا يتمكن العدو من روية حركاتهم وصمموا على الحملة وقت الظهر فحملوا وكان الاسكندر في مضربهِ ونوتية سفنهِ يتناولون الطعام ولم تبدُ السفن الصورية حركة او صوتاً حتى دنت من العدو وحينئذٍ اخذوا يجذفون بنشاط وبسالة وابتداوا بالقتال فارتبكت سفن قبرس وغيرها وغرق منها عدد ليس باليسير فلما راى الاسكندر ذلك عزم على مهاجمة الصوريين من الوراء ليمنع امكان رجوعهم الى الجزيرة اذا انكسروا فركب السفن واشرع الخطا وطاف حول الجزيرة فلم يرَهُ المقاتلون الا ان الصوريين ابصروه من على الاسوار فطفقوا يصرخون الى رفقائهم و يشيرون اليهم ان ارجعوا على ان صوت المعمعة ووقع السلاح

وصراخ المتحاربين لم يمكّن الصور بين المحاربين من استماع النداء فلما دنت سفن الاسكندر رورأَ ها المتقاتلون فر الصوريون وهم يولولون وقصدوا الالتجاء الى الجزيرة فنجا بعضهم والبعض رموا بانفسهم الى البحر وكانوا يحسنون السباحة ومات كثيرون واسر اخرون فكان فوز المكدونيين با لنصر عظيمًا وللحال عملوا على خرق السور فامتنع عليهم لمتانتهِ وعند نصف الليل صنع رجال الاسكندر اطواقًا فنقلت الالات وجعلت السفن صفًا وقفت عليهِ الرجال فهبت عليهم ريح عاصفة اغرقت بعض السفن فوقع الرجال الوقوف الى البحر وعظم الخطب على المكدونيين ولاسيما ان الجنود لم تكن تسمع اصوات قوادها وكان الظلام يحجب روية الاشارات والعلامات فكان كل واحد يقوم مستقلاً برأيهِ ثم ساروا بالدواليل فاجبروهم على الرجوع الى البر فبلغوهُ بعد ان اخذ منهم الارتباك كل مأْخذ وشرع الصوريون ببناء سور ثانٍ ضمن السور الاول لكي اذا اخذ الاول يلتجئون الى الثاني الا ان البسالة والاقدام مع المثابرة والثبات مكنت المكدونيين من فتح ثغرة في السور الاول

فكان الصوريون يعتقدون ان مهاجرة ابولون اي معبود بلدتهم تشاؤم بسقوطها ولذلك ربطوا تمثالهُ بسلسلة الى هركيلوس وكان في يقينهم ان القرطاجنيين ينجدونهم الا ان امالهم قد خابت لان وفدًا جاء منها قال لهم ان قرطاجنة مثقلة بويلات حروب وانها لا تقدر على اسعاف صور من اعالة النساء والاولاد والكهول الذين ذهبوا اليها ثم هجم المكدونيون على الاسوار بالات الحصار الكثيرة المعروفة يومئذٍ فصدوهم عنها بمثلها وملاوا اكياسًا من الريش ومن مواد اخرى نباتية ووضعوها على الاسوار كي لا توثر فيها الالات والمجانق وصنع المكدونيون كباشًا من حديد يصطادون بها الابطال من على الاسوار فكان منهم من يعلق بها فيترك درعهُ ومنهم من يكون بلا درع فياخذونهُ وقد شوهد من لا يريد ترك درعهِ فيحمل بالكبش وعند دنوهِ من الاعداء كانوا يضربون بهِ الارض فيموت على ان الصوريين لم يكونوا

اقل مهارة بعذاب الانسان فكانوا يحمون الرمل والمعادن الى ما فوق درجة الاعتدال ويرمون بها المحاصرين فينزل على مجناتهم وخوذهم فتزداد الحرارة ثم يدخل بين الدروع فيتألمون منهُ بما لا مزيد عليهِ ويلتزمون ان يتركوها فيمسون عرضة لفعل السهام والطعن بالرماح واصطنع الصوريون آلة في سفينة دنوا فيها من الكباش الحديدية فقطعت حبالها وعطلت فاعلها الى حين وانتشبت حرب عند الاسوار بالبلطات ثم اشتدت الحرب فوق الجسور القائمة بين السد والسور وكانت الدائرة على المكدونيين وقد قال بعض المورخين ان اسكندر ترك صور وهو خسران وسار لقتال مصر على ان هذا غير الواقع لانهُ يستحيل على ذلك الفاتح العارف ان يترك بلدة لم ينل لها ارتًا ويتقدم نحو مصر

وفي اليوم الثاني كان البحر هاديًا فامر اسكندر سفن الكباش بالدنو من الاسوار فدنت وفتحت في السور نافذة ثم جاءت السفن الحاملة الجسور فنصبتها ووقف اسكندر امام الشفرة في السور ليتأمر الذين يقاتلون فيها واصدر امرًا باكثار المهاجمات من كل جهة ليرتبك المحصورون واشتدت الحرب فدخل المكدونيون النوافذ التي في السور واخذوا البلدة برًّا وبحرًا وبدأوا يفتكون بالاهالي لانهم مانعوهم وحاربوهم طويلاً ولجأ الصوريون الى دورهم وقاتلوهم وهم فيها فحرق المكدونيون البلدة حنقًا وقتل فيها ثمانية الاف رجل وبيع الباقون عبيدًا وعددهم ثلاثون الفًا وذكر كورتيوس ان من الناس من فر بالسفن الصيداوية وعددهم خمسة عشر الفًا وروي ان المكدونيين صلبوا الفين من الصوريين جزاء لقتل الاسرى ولم يمس الملك وجماعتهُ خسران لانهم التجأوا الى هيكل هركيلوس ودخل اسكندر الهيكل وذبح كفارة واحتفل بيوم ظفره برًّا وبحرًا واقام العابًا ونصب ميدانًا ووهب الهيكل الكبش الحديدي الذي ثغر اول نافذة في السور والسفينة التي اسرها من الصوريين فتمت بذلك حفلة الفتوح بعد حصرها سبعة شهور غايتها شهر تمور سنة ٣٣٢ ق م ثم امر بان يسكن المدينة جماعة من المكابيين وهم قبيلة

كانت منضمة الى الفينيقيين الا ان سقوط صور لم يعدمها واسطة النهوض بل اخذت تجد في سبيل التجارة حرصًا على منافعها الجمة فانتعشت ونهضت من سقوطها مكتسبة عادة الثبات في الصدام متمرنة على القتال فوقعت بعد السنة الثامنة عشرة من فتوحها تمانع انتيفونس وتأبى الخضوع بسلطتهِ بعد موت الاسكندر فاستعان عليها بالسفن السورية حتى فتحها بعد حصار ثبت فيهِ خمسة عشر شهرًا وفي بدء العصر المسيحي كانت تجارتها رائجة كايام عزها وازدهائها على انهُ ربما تمادى رواجها كل الزمن الروماني في سوريا يؤكد ذلك ما رواه لنا المؤرخون من وجود معمل فيها

وفي صدر الاسلام جاءها يوكانا من طرابلس بالسفن القبرسية والكرتية مظهرًا لحاكمها قدومهُ لاسعافهِ بصد المسلمين قيامًا بطاعة القيصر فرحب الحاكم وادخلهُ البلد بمن معهُ من الرجال التسعمائة الا ان الحاكم علم بما في عزم يوكانا فقبض عليهِ وعلى رجالهِ واوثقهم وكان يزيد بن ابي سفيان يحاصر قيصرية بالفين من قومهِ فخلف عليها فرقة تحت قيادة عمر وجاء صورًا مؤملاً ان يكون يوكانا قد اخذها فلما رآهُ حاميتها استخف بجيشهِ لقلة العدد فسار لقتالهِ اما يوكانا فاغرى رجلاً اسمهُ يونس على الاسلام ففك قيوده وقيود رجالهِ وللحال بعث خبرًا الى السفن وآخر الى يزيد ثم هجم على الصوريين مكبرًا والتقى بجماعة يزيد فاستولى على كل المراكز فانكسر الرومان بعد نضال شديد ودخل الاسلام المدينة عنوة وعرضوا على اهلها الاسلام فاسلم منهم نفر ودفع الباقون ضريبة

وظلت صور رائقة بظل الاسلام كسائر المدن تتقلب عليها الطوارئ مثلهن على اختلاف زهيد من ذلك انها لم تخرج من يد الاسلام حين الفتح الصليبي الا سنة ١١١١ حينما سار اليها بالدوين بالرجال والسفن وحصرها شديدًا فاخذ السور الاول والثاني اما الثالث فصنع لهُ ابراجًا عالية تشرف على المدينة وغطاه بجلود الثيران كي لا تؤثر فيهِ الحراريق والنار والمجانق فصنع

المحصورون قبالة ذلك ابراجًا اعلى كانوا يرمون منها النار اليونانية وغيرها من المواد القابلة الاشتعال (النار اليونانية اختراع رجل سوري روماني من بعلبك) فالتهبت ابراج المحاصرين من تلك النار واصبحت رمادًا وجاءت نجدة من دمشق عددها عشرون الفًا من الرجال غيران بالدوين لم يأل جهدًا عن الحصار فاقام عليه اربعة اشهر ولما آيس من النجاح رجع بجنده الى عكا واورشليم وبدأت صور تزداد عمارة بالقادمين اليها من نواحي طبرية وبنى بالدوين برجًا في ارض باليتير وس اي صور القديمة على ان بالدوين لم يباشر بعد ذلك حربًا ضد الثغور الاسلامية لانقطاع المدد من الغرب ولانشقاق روسائه ومنازعاته فلما قرروا بعد ذلك العودة للقتال اقترعوا في اورشليم على البلدة التي يهاجمونها اولاً فاصابت القرعة صورًا ونادى المنادي بزحف الجنود الى القتال فشرعوا في ذلك في ١٥ شباط سنة ١١٢٤ وتحصن الفرنج في البر ليمنعوا قدوم الاتراك من الشام واخذوا ينصبون المجانق والكباش لخرق السور ولم يكن لاهالي صور من الحمية والنشاط ما كان لسلفائهم او لاسلام المدن الاخرى لان الغنى الذي بلغته صور من تجارتها قاد القوم الى التنعمات والرخاء فكانوا يصرفون ايامهم بالسرور والملاهي دون الاعتناء بالتمرن على الحرب والقتال ولولا بسالة الجنود الدمشقية والمصرية لما وقفت ام البحار الفينيقية تجاه الفرنج يومًا واحدًا ومع ان المحاربين كانوا ينتظرون مدد الشام ومصر لم ياتهم فثابروا على الجلاد حتى اخر حزيران وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغًا عظيمًا وقد قال وليكن المؤرخ انهُ لم يكن في المدينة يومئذٍ الا خمس وزنات من الشعير للمحاصرين

وسنة ١١٢٢ نازلها الافرنج فاحاطوا بها من كل جانب ونصبوا عليها ابراجًا من خشب وكانت المدينة مشحونة من الات الحرب والميرة والعساكر وبضائع ساحل بصرى حوران فضربوها بالنفط (لعلها النار اليونانية) والحجارة والمنجنيقات نهارًا وليلاً واهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن انفسهم وارسلوا

يطلبون النجدة من ملك مصر وملك دمشق فلم ينجداهم لان الافرنج ارسلوا امير البندقية محافظاً على الجهة البحرية لمنع ملك مصر من النجدة وارسلوا صاحب طرابلس من بعض البندقيين لرصد طريق البر فقدم طغتكين بالجيوش الشامية فصد عن عبر النهر واشتد ضيق المحصورين فملك الافرنج البلد واستباحوا كلما وجدوه فيها واما العسقلانيون فساروا الى بيت المقدس مرتين ليتولوا عليهِ حين حصار صور فلم ينالوا من ذلك ما يريدون واذن الافرنج للاسلام با لقيام في المدينة بشرط تادية جزية زهيدة وخرج الخفر منها في ٢٥ حزيران وحلتها جيوش الافرنج فانتصبت فيها اعلام مملكة اورشليم وجمهورية فينيسا وكونتية طرابلس وبعد اربع سنوات صارت صور دار رئيس اساقفة واقيم في هذا المنصب رجل انكليزي يقال لهُ وليم فكتب هذا الاسقف تاريخ الحرب واشتهر فيهِ بوليم الصوري

واستمرت صور بيد الصليبيين حتى خفقت اعلام صلاح الدين الايوبي واخذت المدن تعنو لهُ رغبة بعد معركة حطين المشهورة حين ابت صور كعادتها الا الصدام والثبات على ولاء اصحابها وكان قد جاءها كونراد بن مركيز مونتفرات بسفنهِ فحصنها كل التحصين ولم تكن سفنهُ كثيرة فهجم على سفن صلاح الدين واخذ منها وهجم على العمارة فكسرها وعطلها وكان صلاح الدين قد اضر بالاسوار من الجهة البرية فتقدم كونراد نحوه وضرب جيشهُ فارتد جيش صلاح الدين بعد ان خسر الف مقاتل ولم يرجع اليها

وسنة ١١٨٧ لما رتب صلاح الدين امور القدس سار بجيشهِ الى حصار صور ونصب عليها المنجنيقات فاقام عليها اربعة اشهر ورحل عنها لان الماريكوس كان قد حفر خندقها وحصنها بالرجال

وكان الصوريون يساعدون الافرنج كثيراً ولذلك انعم الملوك عليهم بانعامات كثيرة منها ان تكون قضاتهم وحكامهم منهم وان تكون محاكمتهم بحسب سننهم الخاصة وكانت لهم امتيازات اخرى كثيرة كانوا يتمتعون بها في كل

مملكة اورشليم وما فتئت متمتعة بنعمائها حتى اشرفت المملكة الصليبية على الخراب ولاسيما بعد ان جاءها السلطان قلاوون ليتولى الخلافة الاسلامية في مصر وكان قد عزم على فتح الثغور واستخلاص البلاد من ايدي الافرنج وعليها يومئذٍ منهم ماركريتا ارملة يوحنا دو منتفرات فعقدت عهدًا مع السلطان ان لا تعضد النصارى وان لا تقيم تحصينات جديدة ولا ترمم الحصون القديمة وتقتسم واياهُ كل دخل البلاد التي تحكمها فتركها وحارب عكا وتوفي في البرية وخلفهُ ابنهُ الاشرف فحصر عكا حصن الافرنج شهرين وفتحها في اذار سنة ١٢٩١ فلما علم الافرنج في صور ركبوا سفنهم وحملوا بضائعهم وذخائرهم ورحلوا عنها فعادت تشارك تربياتها السوريات في الطاعة للدولة الاسلامية وهي برئاسة خلفاء مصر الذين تقلبت دولهم حتى افضى الزمن بملكهم الى صاحب الخلافة العثمانية المرحوم السلطان سليم وجرى لهُ مع الغوري سنة ١٥١٧ ما مر ذكرهُ مرارًا

على ان تقلبات الايام وتواتر الحروب والزلازل سلبت ملكة البحار تاج عزها وطرحتها الى احدور التاخر والخراب وهبطت باهليها الى الجهل والفاقة حيث بلغت من الانحطاط مبلغًا عظيمًا الا ان فخر الدين المعني عزم على تجديد فخرها في اوائل الجيل السابع عشر وامست اليوم بلدة صغيرة ليس لها من الاهمية غير اسمها وتذكار تاريخها فسبحان الحي الازلي الذي لا يعتريهِ نقص ولا تغيير فان صور القابضة على صولجان السيادة برًّا وبحرًا وتاجرة الامم قد اصبحت اليوم مطوى لشباك الصيادين اما حكومتها الان فقيمقامية تتصل راسًا بمتصرفية بيروت

الفصل العشرون

مدينة عكا

هي حصن سوريا وعلى بعد يوم ونصف الى الجنوب من صور ليس لها في التاريخ القديم كبير اهمية وهي الان فرضة تجارية ليس مناخها بالحسن

وعدد اهاليها ستة الاف بين اسلام ونصارى ودروز

ان ابتداء الاهمية في تاريخ عكا منذ الدولة الصليبية في سوريا ولقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس مرتين ودعاها الفينيقيون اكو واليونان يدعونها بطولمايس وفي سنة ١١٠٣ اجاءها الملك بالدوين الاول فحصرها لكنهُ لم ينل منها اربًا وفي سنة ١١٠٤ قدم الجنويون بسبعين مركبًا واتفقوا مع الملك بالدوين ان يكون لهم ثلث ما يتملكون فسار فيهم لافتتاح عكاء فحاصروها عشرين يومًا برًا وبحرًا حتى ملكوها عنوة بالسيف وقتلوا من اهلها خلقًا كثيرًا وكان يتولاها يومئذٍ زهر الدولة الجيوسي من قبل والي مصر فهرب منها الى دمشق ومن هناك الى مصر على ان من امعن النظر في روايات الثقات علم ان بالدوين عاود عكا سنة ١١٠٤ ليرفع عنهُ عار انكساره امامها المرة الاولى فلما ملكوها عز جانبها وامست ذات اهمية عندهم ثانيها سفن البيذيين والجنويين والغماتيين بالسياح والبضائع التجرية والذخائر الحربية ولما ألمّت المصائب برؤساء الافرنج وزعماء قومهم في سوريا كانت عكا ملجأً لهم رائعة في عزها حتى انكسر جيشهم في معركة حطين فجاءها السلطان صلاح الدين الايوبي واخذها سنة ١١٨٧ وبعد مضي اربع سنوات اجتمع حول اسوارها ثلاثة ملوك بجيوشهم وهم كويد وملك بيت المقدس وفيليب ملك فرنسا وريشارد ملك انكلترا وبعد حرب ترتعد لها الفرائص استرجعوها وفي سنة ١٢٢٩ امست عاصمة مملكتهم ومعسكر جماعة الهيكليين والابطال النوتيين وفرسان ماري يوحنا الذي لقبت المدينة باسمهم عند الافرنج الى اليوم (سان جان داكر) اي ماري يوحنا عكا واصبحت عكاء يومئذ كبابل باختلاف لغاتها لتعدد الامم فيها قال كيبون المورخ انهُ كان بها ملوك كثيرون على انهُ لم تكن لهم حكومة فهناك ملوك بيت المقدس وقبرس من ال لوسينان وامراء انطاكية وطرابلوس وصيدا صاحب انطاكية برتبة برنس اما صاحب طرابلوس وصيدا فبرتبة كونت) وزعماء فرسان المستشفى والهيكل والنوتيين

وجمهوريات فينيسيا وجينو وبيدا وقصادة البابا وملكا فرنسا وانكلترا . وكلٌ يتمتع باستقلال تام فان ١٧ محكمة تمارس حق الموت والحياة

على انهُ بينما كانت حالتها على هذا النمط وفد عليها السلطان خليل بن قلاوون بجيش عرمرم فافتتحها وطرد الافرنج منها على انهُ مهما كانت رذائل الافرنج عظيمة فان شجاعتهم كانت صادرة عن حمية شديدة وباس لامزيد عليهِ على انهم كانوا قد تحطموا بانشقاق سبعة عشر رئيسًا وتضايقوا من كل الجهات بغارات السلطان فانهُ بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يومًا اقتحم الاسلام السور المزدوج وامسى البرج العظيم عرضة لالاتهم الحربية وحمل المماليك حملة واحدة فاخذت المدينة عنوة وقتل من النصارى نحو من ستين الفًا واستعبد اخرون اما الدير او بالحري الحصن الذي كان فيهِ فرسان الهيكل فقد حارب ثلاثة ايام بعد اخذ المدينة . على ان زعيم القوم جرح بسهم ولم ينج من الخمسمائة الفارس غير عشرة فقط وفر ملك اورشليم والبطريرك ورئيس فرقة المستشفى الى البحر غير ان البحر كان هائجًا والسفن غير كافئة فغرق كثيرون من الهاربين قبل ان يبلغوا قبرس فامر السلطان بهدم معابد اللاتين وحصونهم في كل المدن اه

واستمرت عكاء نحو خمساية سنة وهي جاهرة بظلام الجهل المدلهم لا يعرف لها من الحوادث الخاصة بها شيء مهم حتى اواخر الجيل الثامن عشر حيثما كان يتولاها رجل يقال لهُ احمد باشا الجزار وقد اشتهر فيها بقساوته البربريه واعماله التي لاتحتمل وقد لقب بالجزار لرغبته بسفك الدماء ولما كان تاريخ حيوتهِ ما يهم السوريين فلم نر بدًا من اقتطاف شيء من اخباره عن مولف قرآتهُ ربما كان من تاليف المرحوم نقولا الترك قال ان احمد باشا الجزار رجل بشناقي الجنس جاء الاستانة فخدم حلاقًا ثم جاء مصر وتقدم فيها وما زال حتى فر وبعد مدة جاء سوريا واقامهُ الامير الشهابي حاكمًا على بيروت فعصيهُ كما مر في تاريخها ثم اخرجهُ منها وذهب فصار واليًا على عكاء

وكان كثير المظالم والاعمال الفاحشة قيل ان من اعمالهِ انهُ اذا كان يسار جواريهِ وحريمهِ كان يمسك اذن احداهن ويقطعها بخنجره وانهُ كان يوماً يناجي صرافهُ حاييم فسمل عينهُ مداعبة ثم جدع انفهُ ثم قطع راسهُ بعد حين وقيل انهُ بعد ان عاد من الحج راى رجلاً يكلم احدى سراريهِ وهي في باب الدار وقد اعطاها ضمة من الزهر فاضمر الشر على انهُ لما كان المساء راى تلك الضمة على راس الابنة فسالها عنها فانكرت اولاً غير انهُ لما اخبرها انهُ مصمم على تزويجها بمن تحب اقرت لهُ بما كان وان حبيبها رئيس مماليكهِ فظن الجزار من ذلك ان كل نسائهِ خائنات ولذلك لما كان صباح اليوم الثاني دعا بالابنة الى الجنة وقتلها وقتل عدداً من النساء رفيقاتها اختلف الناقلون فيهِ فمن قائل انهن كن مائة ومن اخر انهن كن خمسة عشر . فمظالم هذا العاتي اوجبت البغضاء والنفرة من حكومتهِ حتى صار الناس يتمنون هلاكه والتخلص من مشاق سلطتهِ الجائرة لا جرم ان الرعية ولئن كان الجهل اعم فيهم من المعرفة يدركون مساوئ الظالمين وينقمون على هاضمي حقوقهم انما الجهل يقعدهم عن التماس السبيل للتخلص من الوبال اما السوريون فلم يعرفوا باب النجاة بعرض حالهم على الدولة العلية بل كانوا يظنون ان ولاتهم جامعون مطلق السلطة يفعلون ما يريدون ولا شكية لهم وما كان ظنهم عن جهل انما راوا سوء الاعمال سيما وان بعد الاستانة وصعوبة الصلات كانت توخر الكثيرين عن التظلم ومن كان يجسر على الشكوى او يظهر غير الرضا باحكام الجائرين والجلاد كان اكثر اشتغالاً من شرطي جيلانا

فبينما كانت سوريا تئنُّ من حملها الثقيل واذا بالسياسة الاوربية قد تمخضت فاولدت مجيء نابوليون بونابرت اليها . ذلك انهُ كان قد اتى مصر واخذها من المماليك الذين كانوا يعترفون بسلطة الدولة العلية العثمانية بالاسم فقط فعزم على الاستيلاء على سوريا لا طمعاً فيها بل ليفتح لنفسهِ طريقاً الى الهند حيثما ياخذ هناك بلاداً فيقيم دولة مشرقية فرنساوية تضاهي

دولة الانكليز في الهند ولما خرج من مصر قاصدًا سوريا انتشر الخبر في البلاد فاخذت الناس تتقاطر اليهِ من اسلام ونصارى ودروز لانهم سمعوا بمعاملتهِ اسلام مصر وبما هو عليهِ من العدل وحسن النظام وبدأوا يترحبون بهِ اما الجزار فكان يذخر الذخائر ويعد الرجال لان نابوليون كان يعلم ان عكاء هي مفتاح سوريا فسار من يافا اليها سنة ١٧٩٩م بعد ان قسم جيشهُ فرقتين فوجد جيش الجزار عند قاقون وقاتله فانكسر السوريون كل الانكسار وفي اليوم الثاني مرامام حيفا فسلمت لهُ واسر منها سفينة انكليزية صغيرة واخذ منها مهمات كثيرة وتقدم فحل امام عكا وكان قد اتاها سفينتان انكليزيتان تحت امرت سدني سميث واشتد الحصار على عكاء واعلن بونابرت للناس ان لا يقفوا امامهُ وامر الاسلام باجراء الفرائض الدينية فاحبهُ كثيرون وتقاطروا اليهِ وكانوا ياتونهُ بالذخرة وكانت بوارج الدولة العلية والانكليز تقاوم بنشاط قوة المدافع الفرنساوية اما بونابرت فكان قد ارسل المدافع الكبيرة بسفن صغيرة وبارجة بحرًا لتوافيه الى عكاء ومع ان ليس من مقدرة هذه السفن الوقوف امام الانكليز جاءت بجسارة لتدنو من تلك المينا ومرت على حيفا ولم يعلم اميرها انها سلمت فلما راتها السفن الانكليزية الراسية امام عكاء سارت اليها وطردت البارجة واسرت سبعًا من التسع السفن الصغيرة فتكدر نابوليون على انهُ عزم على الثبات وعلم ان الدولة العلية امرت بالحملة عليهِ فتجهزت جيوش الشام والغز وغيرهم ولم يكن بين نابوليون وبين بلاده اتصال تام وعدد جيشهِ ثمانية الاف او ينقصون على انهُ لم يكن قد ارتاع حتى تلك الساعة فكان يقيم الحواجز ويحفر الخنادق حول الاسوار ويقاتل قتال الابطال واشتدت الحرب واطلق الفرنساويون المدافع باتصال على عكاء انما الفوز كان امرًا عظيمًا واتى الانكليز بالمدافع التي كانت في السفن وسلموها لقائد من الفرنساويين كره الحكومة الجمهورية في بلاده فجاء المعسكر الانكليزي مغاضبًا يحارب امتهُ منجدًا اعداها الكسر شوكتها فبدأ يضرب المدافع

متوالية وسمع الجزار لغطها ودوي البنادق فهاله صوتها وعزم على الهرب الا ان الكومندور الانكليزي صده عن ذلك وبلغ بونابرت ان الجزار استقدم والي الشام ليوافي عساكر نابلس الى مرج ابن عامر فيقطعان مدد الفرنساويين من مصر وكان ابن الشيخ ظاهر العمر ياتي بهذه الاخبار الى بونابرت لانهُ كان صديقهُ فقسم نابوليون جيشهُ الى اربع فرق وبعث بها الى مواقع مختلفة وعليها اكثر القادة بسالة فقاتل الجنرال جونو بالف من العسكر خمسة الاف من عسكر الشام فكسرهم وقاتل الجنرال مورات جيش دمشق فهزمهُ ولم يخسر الفرنساويون احدًا واستولى على طبرية وسار الجنرال كليبر الى الناصرة فعلم ان الذين انهزموا امام الجنرال جونو لم يزل في الجنوب فسار اليهم وهزمهم منها حتى الاردن ومع كل اجتهاداتهِ لم يتمكن من صد الجيوش الشامية من الانضمام في ذلك المكان وبعد بضعة ايام اجتمع الجيش السوري في حضيض جبل طابور وكان عدده ثلاثون الفًا منهم عشرون الف فارس فاستنجد كليبر نابوليون فاخذ نابوليون فرقة من الجيش المحاصر عكا وسار اليها ليلاً ونهارًا اما كليبر فسار ليهاجم الجيش بغتة فوجدهم في سهلة على انهم لما راوه اطبقوا عليهِ من كل الجوانب فتالفت فرقتهُ على هيئة قلعة مربعة واخذت تطلق النيران على السوريين الذين احاطوا بها كالسوار للمعصم وقاتل الفرنساويون في ذلك اليوم قتال الابطال فارتد الفرسان الى الوراء غير انهم كانوا اكثر من ان يكسروا فازمع الفرنساويون على الموت في ساحة القتال او الفوز بالنصر غير مسلمين وبينما كانوا قد اشرفوا على الهلاك طل بونابرت من الاعالي فراى دخان القتال وذلك السهل ملآن بالرجال والفرسان فلم يعرف مركز ابطالهِ حتى راقب تتابع طلقات بواريدهم المنتظمة فعرف منها ان مركزهم خطر وللحال قسم جيشهُ شطرين مربعين واقتحم بهما العدو لينضما الى جيش كليبر ولما اقترب منهُ سرت افئدة اولئك الابطال بقدوم بونابرت ونادوا وهم في حالة الضيق هوذا بونابرت هوذا بونابرت وهجموا على

السوريين الذين امسوا في الوسط حتى وقع الاضطراب والارتباك في صفوفهم وارتدوا الى الوراء فصدهم الفرنساويون عن الهرب وفتكوا بهم حتى انبثر ذلك الجيش العرمرم وغنم الفرنساويون من المهمات والزادما لا يحصى وبعد ان انتصر الفرنساويون عادوا الى عكا فجددوا الحصار ثم بعث نابوليون فاحرق قرى نابلس لانها لم تطعهُ وبعث بصاحبهِ مصطفى اشير الصفدى الى صفد فاخذها واستولى على قلعتها ثم حصرها ابن عقيل من اعيان البلاد وعاد عنها لما عرف بمجيء مورات لطرده واخذ الفرنساويون طبرية واستولوا على الذخائر التي فيها

ولما اسر نابوليون المارجين العثمانيين من حيفا واخذ الذخائر التي في المدينة طمع بالاستيلاء على عكاء وشدد الحصار وكانت البوارج العثمانيـة والانكليزية تضرب الفرنساويين بلا انقطاع وكان الكوميدور الانكليزي يدبر القتال ويرغب من كل قلبهِ في فشل بونابرت فحرر اعلاناً لاغراء الفرنساويين على التخلف عن قائدهم بونابرت (ان نابوليون لم يكن قد ارتقى بعد للخطة الامبراطورية بل كان قائداً للجيش من قبل الدركتورا الفرنساوية) وان من يريد الرجوع الى فرنسا يرسلهُ الكوميدور بامن الى بلاده ورمى بذلك الاعلان ان الجنود من على الاسوار فلم يحفل الفرنساويون بهِ مع ان مشقاتهم كانت عظيمة وعلى الخصوص لان الطاعون قد دب بينهم وفتك فيهم زريعاً ونشر نابوليون اعلاماً يفند ما اعلنهُ الكوميدور الانكليزي خيفة ان يوجد في جيشهِ من يميل الى ما كتب فاثر هذا في الجيش حتى انهُ لم يسمع ان فرنساوياً واحداً اجاب دعوة الكوميدور وجرت معركة شديدة كاد الفرنساويون يستولون فيها على عكاء فانهم صعدوا على الاسوار غير ان قائدهم الجنرال بون الذي تقدمهم الى هذا العمل بات قتيلاً بحجر كبير رمي بهِ من اعلى السور الى اسفلهِ ففشلوا وكان الفرنساويون يهدمون اماكن كثيرة الا ان المحصورين كانوا يعيدون عمارتها بسرعة ونشاط

وكانت محبة الفرنساويين لبونابرت عظيمة جداً حتى انهُ لما انفجرت كرة محشوة امامهُ يوم حرب ركض اليهِ اثنان من الجنود وستراهُ بجسديهما فانجرحا جراحاً بليغة واحتفرت تلك الكرة امامهما حفرة في الرمل فاجازهما بونابرت وكان الطاعون قد فتك بالفرنساويين فمات منهم ثلاثة الاف اثناء ستين يوماً وكانت ذخيرة الفرنساويين قد نفدت ولم يبقَ عندهم من الكلل والكرات ما يكفي لمقاومة الانكليز فارسل نابوليون عسكره الى الشاطي يتظاهر باقامة حواجز هنالك فلما راهم اصحاب السفن الراسية اقتربوا من البر واخذوا يطلقون عليهم ميئات من الكرات ووعد نابوليون الجنود بان يعطي ثمن كل كرة ريالاً فكانت الجنود تتراكض لالتقاط الكرات وهم يتضاحكون فجمع عديد منها وظهر ذات يوم للمتحاربين ان سفناً قادمة عن بعد فظن كل من الفئتين انها لهم وخرجت السفن الانكليزية التي في المينا لاستقبال القادمة وبعد هنيهة انضمت تلك السفن الى بعضها وكانت القادمة سفن عثمانية وفيها اثنا عشر الفاً من الجنود الشاهانية فاغتنم بونابرت الفرصة وهاجم البلدة لان تلك الجنود كانت لا تقدر على دخول المينا قبل مضي ست ساعات فحمل الفرنساويون بنشاطهم المعروف على البلدة ودخلوها حتى جنة الجزار وهنالك تقاتلوا مع الانكشارية وبلغ بعض الجنود الفرنساوية الجامع الكبير وبلغت السفن المينا فاحتدم القتال حتى عاد الفرنساويون عنها ولم يبقَ منهم الا مائة وعشرون رجلاً كانوا يقاتلون بنشاط لا مثيل لهُ حتى قتلوا جمهوراً غفيراً ومع ان الجزار بعث يعرض عليهم التسليم لم يقبلوا حتى نفد رصاصهم فاعتمدوا على السيوف والحراب فجاءهم الكوميدور وطلب اليهم التسليم فسلموا بعد ان قتلوا خلقاً كثيراً حتى صارت الجثث سوراً لهم

وجاء الاسكندرية سفينة من كورسيكا فيها رجل حامل اخباراً اوربية الى بونابرت فاتى ذلك الرجل المعسكر في عكا وعرض الامر لديهِ ان اوربا قد تجندت ضده سياسة وكاد يخسر كل شيء وكانت هذه الاخبار مفعمة

اكدارًا وعلى الخصوص لانها اعربت ان الحكومة الفرنساوية اصبحت لا تساعد بونابرت لان بعض روسائها رغب في اهلاكهِ بعيدًا ثم عزم على ترك القتال والانسحاب عن الحصار ليدرك فرنسا قبل ان تخسر ما اكسبها اياه

وبدأ يتاهب للعودة الى مصر وصدام العثمانيين وحلفائهم فيها على انهُ امر باطلاق المدافع على عكا ليستر رجوعهُ عنها واقام المرضى في المؤخرة فكانوا كثيرين فاصطنع لهم اسرة وكان في عوز للخيل فاعطى فرسهُ وسار مع الجيش ماشيًا فمر على حيفا ثم بلغ الاسكندرية ومن هنالك عاد الى فرنسا وبعد انسحاب نابوليون عن عكا انفك الحصار عنها وعادت السفن راجعة من مينائها تاركة الجزار متمتعًا بحكومتها وهو يقوم بالاعمال القاسية حتى توفي فسر الناس بوفاتهِ سرورًا لا مزيد عليهِ وبعد حين تولى الايالة رجل يقال لهُ عبد الله باشا فلم يكن رؤوفًا فغضبت الدولة العلية عليهِ وعلى الامير بشير الشهابي امير لبنان وامرت بقتل الباشا وحصر عكا فذهب الامير بشير الى مصر يستعطف حضرة المرحوم محمد علي باشا خديويها ليلتمس من الدولة العلية رفع الحصار عن عكا والعفو عن عبد الله باشا غير ان الباشا كان كنودًا فلم يشأ ان يكون مصطنع محمد علي باشا فكان يعامل احسانهُ بضده وامر ان لا يذكر في بلاده فحنق محمد علي باشا عليهِ لنكرانهِ الجميل وجهز شبلهُ الباسل المرحوم ابراهيم باشا بكتيبة من الرجال فقادهم احسن قيادة واتى عكا فاحاط بها برًا وبحرًا وحصرها وكان قد استولى على مدن وبلدان كثيرة في طريقهِ وبعث بفرقة الى البلاد فاستولت على نابلس وصور وصيدا وبيروت وطرابلوس وضرب عكا بالمدافع واستمر يحاصرها تسعة شهور حتى دخلها عنوة يوم السبت في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ الموافقة سنة ١٨٣١ واخذ عبد الله باشا اسيرًا وبعث بهِ الى المرحوم والده فلما دخل عليهِ وقع عبد الله باشا على قدميهِ يقبلها فاكرمهُ ذلك الفاضل وانعم عليهِ بسكنى احسن الصروح ورتب لهُ المرتبات اللائقة والمرحوم الباسل الضرغام ابراهيم

باشا من اخبار الشجاعة والبسالة ما يعرب عما تفرد بهِ تغمده المولى برضوانهِ فسياسة الدول سنة ١٨٤٠ آلت الى اخراج الحكومة المصرية من سوريا بعد ان ضربت قلعتها مراكب الدول المتحدة يومئذٍ فاحترق مخزن البارود فيها وخرب قسمًا منها

الفصل الحادى والعشرون

مدن اخرى

وعلى عشرة اميال من عكا مدينة حيفا ويظن انها في موقع سيكامنوم القديمة التي ذكرها كتبة اليونان والرومان بسفح جبل الكرمل وهنالك بعض آثار قديمة وعدد اهاليها نحو الفين او يزيدون اكثرهم من النصارى وفيهم من الاسلام واليهود واهم حوادثها ما جرى ايام بونابرت حيث مر عليها اثناء ذهابهِ من يافا الى عكا فخرج اهلها اليهِ مسلمين وغنم منها سفينة انكليزية كانت حاملة ذخيرة الجيش السوري على ان فتحها لم يكن قد اشتهر ولذلك لم تقدم اليها السفن الافرنسية الحاملة مدافع حصار عكا فباتت في مغنم الانكليز حتى ان الدولة العثمانية لم تعلم بتسليم البلد فجاءت مرفاها سفينتان عثمانيتان محملتان ذخيرة وزادًا للجيش الجزار ونزل رئيساهما البلد ودخلاها فاسرهما الفرنساويون مع الباخرتين وكسبوا الزاد الذي فيهما مع ٣٦ الف دينار من الذهب انفقوها في حصار عكا ولما مر عليها برجوعه عن عكا دخلها واحرق مخازن القطن التي فيها وكانت للجزار

ثانيًا مدينة بصرى حوران وهي الى الجنوب الشرقي من دمشق وليس فيها الان غير بضعة من الدور على انها بلدة قديمة ولئن كانت لم تصر من الامهات الا في زمن الدولة الرومانية ولم تشتهر في التاريخ السوري حتى ذلك العصر وقد قال ابو الفدا انها كانت من ديار بني مرة اما الكتاب المقدس فقد ذكر بلدتين باسم بصرى احداهما في ادوم والاخرى في مواب وقبل مجيء الاسرائيليين بزمن يسير استولى العموريون على القسم الشمالي من مواب فاخذه

منهم سبط روبين وجاء ولم يعلم حقيقتهُ . هل اندثر الموابيون تماماً او ظلوا بعد ذلك عائشين على انهُ يظن بسكناهم الفقر حتى ابتدأ ضعف الدولة الاسرائيلية حيث عادوا الى بلادهم وبعد زمن اخذ هايهوذا المكابي صاحب بيت المقدس ولما جاء الامبراطور تراجان الروماني الى سوريا ارسل قائدهُ كارنيليوس بالما الى باشا فاخضع كل البلاد الواقعة في شرقي الاردن حتى جنوب بلاد ادوم واتخذ بصرى اماً للولاية الجديدة فزينها الرومان بالابنية الفاخرة حتى تسمت نوفا تراجانا بوسترا اي بوسترا تراجان الجديدة اما بوسترا فهو اسمها الروماني فابتدأ حينئذٍ تاريخها وفي زمن القيصر اسكندر سفيروس الذي تولى سنة ٢٢٢ حتى ٢٣٥ للميلاد فازت بصرى بمنح جديدة لانها كانت قد صارت مستعمرة رومانية وبما ان غارات الفرس وعصيان الحكومة التدمرية قد سلبتها امنية الطريق بين اسيا الشرقية والغربية المارة بجوار تدمر انشأ القوم طريقاً اخرى تمر ببصرى على ان اثارها باقية حتى اليوم وفي سنة ٢٤٥ ميلادية ارتقى احد اهاليها المسمى فيليب الى الخطة القيصرية الرومانية فجعلها مترو بوليس اي من امهات المدن

ولقد وجد في هذه البلدة وغيرها من جوارها مسكوكات كثيرة تمثل معبوداتها وجاء الاسلام سوريا وحاربوا المعركة الاولى وانتصروا على الرومان فبعث ابو عبيدة بن الجراح اميرهم بشرحبيل بن حسنة ببعض الفوارس الى بصرى ليحصرها وكان يتولاها رجل من الاعيان يقال لهُ رومانوس فلما بلغها شرحبيل خرج الرومان اليهِ وحادثوهُ بلسان قائدهم رومانوس وكان قد خشي بطش الاسلام فحدث قومهُ بوجوب دفع الجزية ليذهب الاسلام عنهم فثار الاهلون عليهِ وكادوا يقتلونهُ فاضمروا الخيانة وعاد عن رأيهِ ثم خرج الروم للقتال وتكاثروا على العرب فكسروهم وعرف خالد بن الوليد بحصار بصرى فتكدر لقلة الجند واسرع المحاصرون فادركهم عند نهاية الحرب فلما ابصره الرومان خافوهُ وانقلب نصرهم انكساراً مصدره الوجل وعادوا الى

المدينة خاسرين الا انهم خرجوا في اليوم الثاني فبرز رومانوس وطلب خالدًا فلباه الى ذلك حتى صار بين الجيشين فاسلم رومانوس وتظاهر بنضال خالد نضالاً عنيفاً حتى مل ففر الى قومهِ محسناً لهم بالتسليم فابوا والزموه الانزواء في قصره واقاموا الدبرجان حاكماً فبرز هذا في اليوم الثاني وطلب خالدًا فجاءه عبد الرحمن بن ابي بكر فكسر وفر الدبرجان ثم التحم القتال فالتجا الرومان الى حصون المدينة

وفي مساء ذلك اليوم راى خفر الاسلام رجلاً قادماً نحوهم فسالوه لينتسب فقال هو رومانوس حاكم بصرى سابقاً ويريد خالدًا فحملوه اليهِ واخبر رومانوس خالدًا ان قصره بجانب السور وقد امر غلمانهُ فثغروه ليلاً ولذلك يطلب مئة من الفرسان ليدخلوا البلد فاعطاه عبد الرحمن بن ابي بكر مائة من الرجال فدخلوا من الثغرة الى صرح الخائن ولبسوا الاسلحة ودخل الاسلام البلد اربع فئات يتامرهم عبد الرحمن فتفرقوا في الاحياء حتى دار الدبرجان وكانوا يقتلون و ياسرون حتى صعب الامر على الاهلين فالتمسوا الامان وفازوا بهِ

واستقرت الحكومة للاسلام وتوالت على المدينة بعد ذلك طوارق الدهر فنزلت عن عزها وسابق بسطها

ثالثاً القيصرية ليس لها من الحوادث التاريخية الخاصة ما يستحق الذكر انما يتضح لنا من حوادثها قاعدة مهمة تاريخية هي ان كل بلاد رقت العلياء سريعاً انحدرت الى التاخر بمعدل سرعة صعودها لان بناء العلى ان لم يكن وطيد الاساس فهو عرضة لكوارث الدهر . يشهد بذلك حال هذه المدينة فانها من بناء اليهود الا ان تلك الامة لم تكن قبل عصر هيرودس باني المدينة بالراغبة في تجارة البحر صيانة لها من الاختلاط بالامم واكتساب دينهم والتمثل باخلاقهم فلما انحطت المملكة عن ازدهائها رغب هيرودس ان يتقرب من عالم السياسة والتجارة فبنى مدينة قيصرية على شاطىء البحر وجعلها

عاصمة لفلسطين فكان نموها سريعًا حيث تشيدت فيها الصروح الفاخرة والدور المزينة والبنايات العظيمة والقاعات الكثيرة الملاهي والمتفرجات وهيكلاً تخصص لاغوسطس قيصر الروماني قال يوسيفوس المؤرخ انهُ كان لجوبتير اولمبوس وان مثال ذلك المعبود كان قائمًا فيهِ وكانت قيصرية مختلفة الامم. ذلك ما ادخل عليها عبادة الوثن ففسدت الاداب اليهودية وكانت ميناء قيصرية من احسن المرافيء تحاكي مينا بايروس امنًا وقد جاء ذكر قيصرية مرارًا في العهد الجديد وزارها الحواريون اكثر من مرة ولهم في جوارها وفيها حوادث مذكورة في الكتاب وكان القوم يدعون المدينة قيصرية اغوسطس تشرفًا باسم اغوسطس قيصر الروماني اما المينا فاسمها سبسطية وكان يسكنها جماعة من اليونان على انهم كثير و المخاصمات والنزاع مع اليهود ظلوا كذلك حتى حدثت الحرب المشهورة فقتل عشرون الفًا من اليهود في اسواق قيصرية وفيها ولد المؤرخ ايسيبوس اشهر كتبة تاريخ الكنيسة والموءرخ بروكوبيوس. ومولده في الجيل السادس بعد المسيح

الفصل الثاني والعشرون

مدينة يافا

هي الواقعة في طول شرقي ٥٣ و٣٤ وعرض شمالي ٢ ٣٢ على شاطيء بحر الروم وهي فرضة اورشليم و تبعد عنها نحو اربعين ميلاً وعدد اهليها نحو تسعة الاف نفس (وقيل خمسة الاف فقط) منهم نحو الف من النصارى وفيها ابار و بساتين كثيرة وابنيتها جيدة متينة كلها معقودة بالحجاره ولو كانت غرفًا عالية ولها تجارة واسعة في محاصيل البلاد كلها

وكان يقال لها جوبا اوجافو و يسميها الافرنج جافا وهي جميلة المنظر محتاطة بالاشجار اما اسواقها فمعوجة ضيقة وتكثر فيها الاقذار وميناها غير امين ولذلك لا تدنو منها البواخر بل ترسو على ميل او ميلين منها ان كان الطقس حسنًا و يكثر عدد السياح في يافا لانها فرضة اورشليم وكثيرون منهم

يتوغلون في الداخلية ليكشفوا بلدانها واثارها

اما تاريخها فقديم جدًّا ومن رواية بليني المورخ انها كانت قبل زمان الطوفان فهي قبل مدن العالم ذلك ما لاينكره المورخون وذكرت يافا في الكتاب المقدس وفي تاريخ حروب المكابيين قيل انهُ لما طرح السوريون المكدونيون مائتين من اليهود الى البحر جاء يهوذا المكابي لاخذ الثار فدهم العمارة السورية المكدونية بغتة واحرقها وكانت راسية امام يافا وفي زمن حرب الرومانيين استولى اولئك الفاتحون عليها فاحرقها ساستيوس وقتل نحو ثمانية الاف من سكانها وفي زمن قسطنطين اصبحت دار اسقفية ومازالت فيها حتى فتحها العرب سنة ٦٣٦ فحكموها كل زمن دولتهم وخلفائهم حتى جاء الافرنج الصليبيون واخذوها فكانت بلدة مهمة ومنذ حينئذٍ كان تاريخها غامضًا حتى ختام القرن الماضي وفي ٧ اذار سنة ١٧٩٩ بلغ نابوليون يافا ونزل في ظاهرها وكان يتولاها من قبل الجزار رجل يقال لهُ السيد ابا صعب فراسلهُ نابوليون بالتسليم الا انهُ اتدر الرسول فقطع راسه وتعليقهِ على خشبة امام الفرنساويين فلما راى الفرنساويون ذلك هاجوا وماجوا و بلغت منهم الحدة كل مبلغ فاخذوا يطلقون المدافع والبنادق على المدينة بلا فتور ساعات كثيرة حتى انثلم السور فتدفقوا عليهِ وكان المحصورون يقاتلون بحمية لا مزيد عليها على ان الفرنساويين كانوا احسن نظامًا واكثر شجاعة ومعرفة منهم وكان الفرنساويون يزدادون حمية واقدامًا كلما زاد المحصورون دفاعًا واستمر القتال يومين وكانت الخسائر عظيمة حتى ان نابوليون قال بتقريره الى حكومة الدركتوار ما ترجمتهُ انهُ لم يظهر لي شر الحروب كما ظهر في يافا اه واخذ الفرنساويون البلدة مهاجمة واستباحوها فاخذوا منها ستين مدفعًا وثلاثة قناطير من الارز وخمسمائة قطعة من البقسماط وهو الخبز اليابس و ١٥ سفينة تجارية فيها حبوب من عكاء و بعض المهمات الحربية واسروا من المدينة نحو ٣٠٠٠ من الجنود وعاهدهم ان لا يحاربوه مدة سنة تامة ثم اطلق

سبيلهم وحملت الحدة الفاتحين على الفتك ذريعاً بالرجال والنساء والاولاد حتى بلغوا مكاناً اجتمع فيهِ كثيرون من العسكر الذين كان نابوليون قد اسرهم في العريش ثم عاهدهم ان لايحاربوا جنوده فجاءوا وحاربوه في يافا فتكدر الفرنساويون واخذوا يطلقون عليهم المدافع والبنادق ولم يكن بونابرت عالماً بما كان فارسل اثنين من معاوني حربهِ ليمنعا الجنود عن الفتك بالاهلين و يكفا شرهم فلما راى المعاونان وهما اوجين باهرناي وكراوسيه ما كان من الفرنساويين وعسكر الجزار اوقفا قومهما عن العمل وقادا الاسرى وعددهم الفان الى حيث كان بونابرت وكان يتمشى فتكدر كثيراً عند ما راهم ووبخ القائدين ثم عقد مجلساً حربيا ليتباحثوا فيهِ عن اطلاق سبيلهم او اعدامهم على ان نقلهم الى فرنسا كان مستحيلاً وكان بونابرت راغباً في اعدامهم لحيتان الجيش الفرنساري ولصعوبة بقائهم عنده امنين معاً لين ولانهم نكثوا العهد الذي عقدوهُ بانهم لايحاربون الفرنساويين الا ان الديوان الحربي انفض مرتين غير جازم بقراره ولما كانت المرة الثالثة صدر الحكم بقتل اولئك المنكودي الحظ وعرض القرار على نابوليون للمصادقة فامضاه غير متردد فسير باولئك المنكودي البخت الى التلال التي امام يافا حيث اطلق الرصاص عليهم فماتوا ماسوفاً عليهم من الانسانية وقد شوه كثيرون من الكتاب تاريخ اعمال نابوليون بالتنديد في هذا العمل واحتسابهِ نقطة سوداء في بياض اعمالهِ الغراء على انهُ دافع عن نفسهِ بما كتبهُ وهو في جزيرة القديسة هيلانة . قال .

انني امرت باطلاق الرصاص على الفين او الف ومائتين جندي . ذلك انني وجدت بين الجنود الذين قاتلوا في يافا جنوداً من جيش احمد باشا الجزار وهم الذين كنت قد اسرتهم قبل ذلك بمدة قصيرة في العريش واطلقت سبيلهم ليذهبوا الى بغداد بعد ان تعهدوا بانهم لايحاربونني الا بعد مرور سنة من زمان اسرهم وارسلت معهم فرقة من جيشي تحرسهم فذهبت بهم مسافة ٢٦

ميلاً الى جهة بغداد ولكنهم لم يذهبوا اليها بل اتوا يافا ودافعوا عنها الى النهاية وقتلوا كثيرين من جنودي الابطال وكنت قد بعثت اليهم براية سلام قبل ان حاصرت المدينة وبعد وصول الرسول ببرهة قصيرة رايت راسهُ مرفوعًا على عامود فوق السور فلو عفوت عنهم وركنت الى تعهداتهم لذهبوا الى عكاء وفعلوا فيها ما فعلوه في يافا وبما انهُ من واجباتي ان احافظ على جنودي كما احافظ على نفسي لان قائد الجيوش هو بمنزلة الاب لجنوده وهم بمنزلة الاولاد لهُ لم اقدر ان اسمح بحدوث ذلك وعلى الخصوص لانهم كانوا قد قتلوا كثيرين من جيشي ولم اكن قادرًا ان ابقي بعضهُ للقيام بحق المحافظة ولو تصرفت تصرفًا مغايرًا لذلك اي لو عفوت عنهم لعرضت جيشي لخطر ربما كان ياتيهِ بالهلاك التام وبناء على ذلك سلكت مسلكًا موافقًا لقوانين الحرب التي تسوغ قتل الاسرى الذين يصير القاء القبض عليهم في الظروف التي القي القبض على اولئك الاسرى فيها هذا مع قطع النظر عن الحقوق المسوغة لذلك من جري فتح المدينة عنوة والقيام بحق الثار وان جنود الجزار كانوا يقتلون اسرانا هذا وقد عفوت عن بقية الاسرى ولم يكونوا قليلين ومن المعلوم انني ساعيد هذا العمل في الغد اذا بت في الظروف نفسها وكذلك الجنرال ولنكتون الانكليزي او غيره من القواد الذين يمسون فيما امسيت فيهِ انتهى

وكان بورين كاتب نابوليون على انهُ غضب عليهِ بعد حين وطرده من خدمتهِ فاشتدت بينهما الخصومة حتى امسى بورين من الداعداء نابوليون فدخل بعد قلب دولتهِ في بلاط الملك لويس الثامن عشر وصار وزيرًا فكتب هذا الوزير تاريخهُ المشهور على انهُ برر نابوليون من وصمة عيب هذا العمل المهول وكذلك براه من ذلك السار ولتراسكوت المؤرخ الانكليزي على ان اليسون احد مورخي الانكليز ايضًا كتب ما حملهُ عليهِ غرضهُ الاعمى وتعصبهُ الشديد فانهُ ندد قبيحًا بسوء عمل بونابرت وكان الطاعون عامًا في سوريا فلما فتح بونابرت يافا سرت العدوى الى جنوده واشتد المرض بينهم وفعل فيهم اختلاف

المناخ فعلاً مهولاً ولم يكونوا يعرفون الطاعون وعدواه ولذلك لم يحسبوا منهُ اولاً على انهم لما عرفوا ذلك بالتجارب امسوا في خوف وتحفظ شديدين حتى بات المصابون منفردين لا يدنو منهم الا القليلون لخدمتهم حتى ان الاطباء انفسهم كانوا خائفين لا يعودون المرضى . فتكدر نابوليون من ذلك وذهب ببعض اخصائهِ الى مضارب المرضى وكان يجس نبض المألوف ويلمس الطعنة باصبعهِ ويشجعهُ على احتمال المرض بالصبر فلما عرف الاطباء ذلك خجلوا من ترددهم عن الحضور وعادوا الى معاطاة اعمالهم على ان احدًا لم يتقدم الى بونابرت ولامهُ على تعرضهِ لمثل هذا الخطر فاجابهُ ان ذلك من واجباتي لاني قائد هذا الجيش وسر الفرنساويون بذلك جدًّا فكان يصرخ من اشرف منهم على الموت قائلاً فليحيي البطل نابوليون وبعد ان سار نابوليون من يافا نحو عكا وحصرها ثم انسحب عنها الى حيفا جاء يافا في ٢٥ ايار ثم استعد للخروج منها فوجد ان سبعة من جنوده مشرفون على الموت بالطاعون فامر الطبيب ان يسقيهم الافيون ليرتاحوا من عذاب المرض لانهُ يستحيل لهُ ان يتركهم وراءهُ فيصبحون ضحية الحكام الوطنيين فابى الطبيب اجابة الامر وعاد نابوليون الى فكره فترك عندهم خمسمائة من العسكر يحرسونهم حتى يموتوا ولما انتشرت الاخبار ندد الكتبة ببونابرت لافتراحهِ قتل عسكره ونسبوه الى البربرة والقسوة على انهُ كتب من جزيرة سنتا هيلانة ما يبرره حيث قال انني لا اظن تجريعهم الافيون ذنبًا ولكنني اظنهُ فضيلة وعندي ان ترك بضعة رجال لا امل بشفائهم ليموتوا بعذاب شديد بواسطة اعدائهم هو شر وقساوة ومن واجبات القائد ان يعامل جنوده المعاملة التي يرضى بها لنفسه ومن يا ترى لا يفضل ان يموت بشرب الافيون قبل وقت حلول الاجل بساعات قليلة على الموت بعذاب قوم لا يعاملون الاسرى معاملة المتمدنين فلو كان ابني في نفس هذه الظروف لطلبت الى الطبيب ان يعجل موتهُ بذلك وعندي انني احب ابني قدر ما يحب الاباء ابناءهم ولو امسيت انا في تلك الظروف لاجبرت على ذلك اذا

كان لي من القوة والتمييز ما يمكنني من الاصرار عليه هذا ولما رايت انني اقدر ان اترك حراساً لخفارتهم تركتهم لهم لاننا لم نكن قد بتنا في ضيق ولو رايت انه لا مفر من سقيهم الافيون لجمعت مجلساً حربياً وقررت ذلك قانونياً الخ

على ان هذا التقرير لم يمح من الكتابات اسطر اللوم الشديد فقد قال السار روبرت ولسن الانكليزي المار ذكره ما ياتي ان ذلك الوحش الذي لا يشفق على احد ويحب سفك الدماء وهو بونابرت سقى سماً لخمسمائة رجل من المرضى والجرحى في يافا وذلك ليتخلص من اثقال الاعتناء بهم . اه

وانتشر هذا الخبر في العالم وظنهُ الناس حقيقة على انهُ بعد حين امسى السار روبرت من اصدقاء نابوليون وذلك بعد ان علم انهُ قد اخطأ بحقهِ وكان مع نابوليون كثيرون من الجرحى والمرضى فامر بان تعطى لهم خيول الضباط وافراس بعض المدافع التي امر فتركت بين الرمال ولما راى ان المرضى والجرحى ما فتئوا في حاجة للمركوب اعطاهم فرسهُ وراى يوماً وهو ماش بين تلك الرمال المحرقة ضابطاً صحيح الجسم راكباً فرسهُ فتكدر وضربهُ بقفاء سيفه فسقط عن الجواد ومسك بيده جريحاً واركبهُ اياه

الفصل الثالث والعشرون

طبرية ونابلس والسامرة

واما بلاد طبرية فقاعدتها مدينة طبرية بناها هيرودس وسماها على اسم طيباريوس قيصر وكان هنالك مدرسة مشهورة لليهود وكان من معلميها الحاخام يهوذا الذي جمع تقليدات اليهود في كتاب يسمى المشنة وكان ذلك بين سنة ١٩٠ وسنة ٢٢٠ للتاريخ المسيحي وفي هذه المدرسة وضعت الحركات المستعملة الان في اللغة العبرانية وضبطت اسفار العهد القديم وهذه البلاد استفتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٧ للمسيح ثم استرجعها الافرنج وبقيت بايديهم الى سنة ١١٨٧ فتغلب عليها صلاح الدين الايوبي بعد وقعة حطين ثم اخذتها الافرنج سنة ١٢٤٠ باتفاق مع سلطان دمشق

ثم استرجعها سلطان مصر سنة ١٢٤٧ . وخُرب منها جانب كبير بزلزلة حدثت في اول سنة ١٨٣٧ و بقربها مياه سخنة وعليها حمام يغتسل الناس بهِ وقد زاد في ابنيتهِ ابراهيم باشا صاحب الدولة المصرية واصلح ما كان قد تهدم منهُ وفي ما يلي هذا الحمام بحيرة عظيمة واسعة تجتمع اليها المياه وتفيض منها جارية في نهر الاردن وهي ذات امواج واسماك وكان حولها غياض و بساتين كثيرة

ولم تذكر طبرية في الكتاب المقدس الا في العهد الجديد اما يوسيفوس فقال ان بانيها هو هيرودس انتيباس قاتل يوحنا المعمدان وقد دعاها تشرفًا باسم صديقهِ طيباريوس قيصر وروى بعضهم ان راكاث كانت في موضع هذه المدينة على ان جيروم توكد انها كانت تدعى قديمًا باسم شينارت وقد منحت هذه المدينة الحديثة مِنحًا وامتيازات كثيرة فاصبحت بعد حين امًّا لمقاطعة الجليل وقد اشتركت طبرية اشتراكًا عظيمًا بالحروب التي آلت لخراب اورشليم وعلى الخصوص عند ما كان يوسيفوس قائدًا فيها و بعد ذلك اصبحت وطن اليهود الوحيد في فلسطين واستمرت نحو ثلاثة قرون عاصمة امتهم وكان السانهدريم وهو المدرسة اليهودية قد انتقلت اولاً الى جافيا في سهول فلسطين ثم الى صفوريش وهي صفورية ومن ثم الى طبرية في اواسط الجيل الثاني وكان رابي يهوذا هاكوديش المشهور رئيسًا عليها فتمم كتاب المشنة وتوفي في اخر القرن وخلفهُ في رئاسة المدرسة رجال ليسوا باولي شهرة منهُ وقد اشتهر بعضهم ببعض المولفات اما كسرى الفارسي فدهمها واخذها سنة ٦١٤ ق م ثم فتحها العرب سنة ٦٣٧ واخذها الافرنج تحت امرة تانكريد واقاموا فيها اسقفًا وفي اواسط الجيل الماضي استولى عليها احد مشايخ العربان ويقال لهُ الشيخ ظاهر العمر فبنى فيها سورًا وابراجًا محصنة . واما مدينة نابلس فهي مدينة شخيم القديمة وهي ذات مياه و بساتين كثيرة وموقعها بين جبال عيبال وجبال غرزيم وهناك السمرة السابق ذكرهم ومنها الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور بالتصوف وصناعة الشعر نشا بدمشق الشام وتوفي بها في القرن الثاني

عشر للهجرة

والمدينة اسمان معروفان في التاريخ غير اسمها الحالي احدهما شيشام او شخيم والثاني نيابوليس ومنها اشتق اسمها الان ومنظر هذه البلدة جميل للغاية قيل انهُ اجمل منظر في فلسطين من دان الى بير سبع وعددا اهاليها نحو ثمانية الاف نفس اكثرهم من الاسلام اما تاريخها فمتعلق في الكتاب المقدس كل التعلق فان اب الابا ابراهيم ضرب اوتاد مضربهِ هنا ومثلهُ ابنهُ يعقوب وحدث بجانبها وجوارها حوادث كثيرة مذكورة هنا الك اخصها ضرب البلد من عساكر المرحوم ابراهيم باشا خديوي مصر

اما السامرة فهي بناء عمري ملك اسرائيل وقد دعاهــا باسم صاحب الارض وجعلها عاصمة لملكهِ ثم جلس على سرير اسرائيل اخاب ابنه وتزوج بزابل ابنة ملك صيدا وقد حدثت لهذه المدينة امور كثيرة اكثرها موضحة في الكتاب المقدس وفي سنة ٧٢٠ استولى الاشوريون عليها واستمرت زمنًا طويلاً عاصمة النحلة التي امر ملك اشور بنقلها من الشرق اليها مع ان شكيم القديمة كانت قد امست مسكنًا للسمرة الذين انتشاوا في هذه البلدة وبعد حين انعم اغوسطس بهاهبة على هيرودس الكبير فاعاد هذا بناها ورممها وشيد فيها ابنية فاخرة ودعاها سبطية ولقد علمنا ان الباني ترك في الوسط فسحة اتساعها نحو ستاديا ونصف وانهُ بنى في وسطها هيكلاً اعتبارًا لمقام القيصر وقد ذكرت في العهد الجديد واقيم بعد ذلك فيها دار اسقفية على ان المدينة امست خرابًا في الجيل الرابع والجيل الخامس ثم انتعشت قليلاً بزمان الافرنج لكنها اليوم بحالة تقرب من الخراب

الفصل الرابع والعشرون

اورشليم

لما كانت مدينة اورشليم من اشهر مدن العالم التاريخية واهمها وكان لبني العربية فيها اعتناء مخصوص تكاثرت الكتابات عنها حتى اصبح تاريخها

معروفًا عند كثيرين من العامة فامسينا في غنى عن التوسيع في تاريخها سيما بعد ان ظهر كتاب اثار الادهار للعالمين الاديبين الفاضلين المرحوم سليم افندي الخوري ورفعتلو سليم افندي شحاذة فان في اخر الجزء الثاني منهُ نبذة عن اورشليم موعبة من جزيل الفوائد التاريخية مما تروق مطالعتها وتوجب الاعتماد على صحة نقلها وحسن سبكها فضلًا عن المؤلف المخصوص في تاريخ اورشليم للاديب خليل افندي سركيس على اننا اتمامًا للتأليف نذكر ملخص المدينة معتمدين بالاكثر على نقل الاثار الصحيحة طالبين من حضرة القراء ان يتصفحوا تلك النبذة في موضعها ان شاءوا لتدقيق وجنى الفوائد

ان اورشليم هي بيت المقدس او القدس الشريف واقعة في ٤٦َ ٥٢ْ من العرض الشمالي و ٤١َ ٣٢ْ من الطول الشرقي وعدد اهاليها الان لا يتجاوز العشرين الفًا من اسلام ونصارى و يهود وحول المدينة سور بناه السلطان سليمان العثماني سنة ١٥٤٣

وقد اختلف القائلون باصل اسمها و ورد في نبذة الاثار عليها كل وجوه الرواية على ان يوسيفوس يقول ان معنى اسمها اس السلام والمفهوم من عبارات الكتاب المقدس انها كانت لليبوسيين على انهُ لما جاء الاسرائيليون ارض الميعاد واقتسموها كانت اورشليم من سهم سبط بنيامين ومن رواية الكتاب و يوسيفوس المورخ ان سنة ١٤٠٠ ق م عند وفاة يشوع بن نون هاجم بنو يهوذا وشمعون اورشليم واخذوا قسمًا منها وان القسم الاعلى كان ممنعًا وان آل بنيامين لم يقدروا على طرد اليبوسيين من جوارهم فاقروهم تحت الجزية على ان سنة ١٠٤٨ ق م اخذها داود من اليبوسيين وجعلها عاصمة مملكتهِ المتسعة و بعد ذلك بنى سليمان الهيكل المشهور و بعث لهُ حيرام ارزًا وخشبًا وصناعًا من صور كما تقدم ولما انقسمت مملكة اسرائيل في ايام رحبعام خليفة سليمان صارت اورشليم عاصمة مملكة يهوذا وفي سنة ٩٧٠ ق م جاءها شيشق فرعون مصر فحصرها ثم دخلها بلا ممانعة وسلب الانية التي فيها وتعاقب الملوك على

اورشليم مما هو مذكور في الكتاب المقدس وفي ايام يهورام جاء الفلسطانيون والعرب الى اورشليم وتملكوها ونهبوها وسبوا نساءها وفي زمن يواش جاء حزائيل ملك دمشق طامعاً بفتح اورشليم فجمع يواش الانية التي في بيت المقدس ودفعها لحزائيل ليردعهُ عن البلدة ثم تحارب امصيا ملك يهوذا ويهواش ملك اسرائيل فانكسر امصيا واسره يهواش وقاده الى اورشليم فانفتحت ابواب المدينة لهُ وبعد ان نهبها وهدم جانباً من سورها عاد راجعاً الى السامرة وثار اهل اورشليم الى ملكهم امصيا فقتلوه شر قتلة وفي ايام يوثام اخذ رصين ملك دمشق وفقح ملك اسرائيل بمضايقة يهوذا وحاصر المدينة في زمان احاز وعاثا في جوارها على انهما لم يفتحاها فاستنجد احاز ملك أشور تغلث فلسر ووعده بتادية مال فلباه وجاء بجيشهِ مدوخاً ارام اسرائيل وبنى احاز لهُ مذابح اصنام على ان ابنهُ هدمها عند تملكهِ وجاء سنحاريب ملك اشور محارباً فحصن ملك اورشليم المدينة وارسلهُ بالسلام فطلب سنحاريب فريضة جمعها الملك لهُ وقدمها على انهُ بعد اخذها نكث الاشوري بعهده ودنا من المدينة فضرع الملك حزقيال الى ربهِ فانكسر الاشوريون وقتل منهم عدد غفير فارتدوا مدبرين وتولى عدة ملوك حتى بعد الجلاء في بابل حتى زمن يهواحاز فاسره فرعون نحو ملك مصر وولي يهوياقيم عوضهُ واستمر هذا يدفع الجزية لمصر ثلث سنوات فحاول التملص على ان نبوخذنصر جاءه واسره وقيده بالاغلال ليذهب بهِ الى بابل وسلب امتعة الهيكل وذلك سنة ٦٠٦ ق م ثم عاد نبوخذ نصر واسر يهوياكين وعشرة الاف من الاهلين وكثيراً من الروساء وقادهم الى بابل واقام الاشوري صدقيا ملكاً فعصيهُ بعد حين على انهُ جاء محارباً فحصره واستنجد صدقيا بملك مصر فجاء لنجدتهِ فرفع نبوخذنصر الحصر وسار نحو المصريين فضربهم وكسرهم وعاد فاخذ المدينة وهرب الملك بعائلتهِ ثم قبض عليهِ فقتلت اولاده امامهُ وسملت عيناه وحمل الى بابل مقيداً ولم يبق المنتصر رجلاً في اورشليم ولما تولى قورش السرير البابلي ارسل اليهود الى اوطانهم فعادوا

وباشروا اعادة بناء الهيكل على انهُ حال دون اتمامهِ ما اوقفهم ولما تملك ارتحشستا ملك فارس امران يوقف بناء الهيكل لوشايةٍ في اليهود على انهُ لما تولى الاريكة داريوس استرحم اليهود تجديد العمل فاباحه لهم وان تكون النفقة من جزية عبر النهر اي السمرة الغرباء ومن ثم تم البناء سنة ٥١٦ ق م وكان ملوك الفرس يولون من قبلهم على اورشليم ولاة من الامة اليهودية على انهُ بعد حين تغير الحال وامسى الحبر الاعظم يتم وظيفة ملك ايضًا وما زال الحال كذلك الى قدوم الاسكندر وفتحهِ البلاد فجاءها بعد اخذ صور وغزة واستقبلهُ الحبر الاعظم وسر الاسكندر بخضوع اليهود وانعم عليهم بالاعفاء من الجزية سنة كل سبع سنوات. وكان يسكنها يومئذٍ مائة وعشرون الفًا وسنة ٣٢٠ ق م دهم بطليموس سوتير خليفة الاسكندر فحصر اورشليم يوم السبت واساء التصرف في الشعب واسر مائة الف من اليهود وبعث بهم الى الى مصر وشمالي افريقية ولما كانت الحروف على ساق وقدم بين انتيغونس وبطليموس امست اورشليم بقبضة انتيغونس من سنة ٣١٤ الى سنة ٣١٢ ق م وعادت في تلك السنة الى بطليموس بعد ان تقرر في موقعهِ ابسوس سنة ٣٠١ ق م نصب اليهودية واستمرت حكومتها بايدي البطالسة المصريين نحوًا من مائة سنة ففي زمن دولة فيلازلغوس سنة ٢٨٥ ق م طلب الى العازر الكاهن الاعظم ان يبعث الى مصر سبعين من علماء اليهود ليترجموا التوراة من العبراني الى اليوناني واضطهد فيلو باتر اليهود بعد نصره على انطيوخس ملك سوريا وفي سنة ٢٠٤ ق م استولى انطيوخس الكبير على اورشليم ثم اخذها قائد بطليموس سنة ١٩٩ ق م واقام ابيفانوس خفرًا في القلعة فاسترجعها انطيوخس في السنة التالية وامن اليهود الذين كانت قد لعبت بهم ايدي سبا واعفى كل اليهود من دفع الجزية مدة ثلث سنوات بل اعطى مالًا لخدمة المذبح ثم لما زوج ابنته كليوبطرا ببطليموس ابيفانوس ملك مصر اعطاها اليهودية وغيرها من البلدان صداقًا على ان نصف خراج هذه البلاد كانت تاتي خزينة سوريا وتوالت بعد

ذلك ملوك السوريين على المدينة المقدسة وكانت قد قامت فيها منازعة رئاسة الاحبار ودخل انطيوخس سنة ١٧٠ ق م المدينة بدون ممانعة على ما رواه يوسيفوس لان حزبه فتح له ابوابها وقتلت جنوده كثيرين ونهب الهيكل وسار الى انطاكية بعد ان خلف فيها رجلاً عاتيًا يقال له فيلبوس وزاد عتو المكدونيين في اليهود وظلمهم حتى ملوا منهم وعلى الخصوص لانهم اجبروهم على عبادة الوثن فقام رجل يهودي من الاعيان يقال له متاشيا واهاج ثورة ضد السوريين المكدونيين على انهُ توفي قبل فوزه فقام باعباء ذلك ابنهُ يهوذا وكان يقال لهُ المكابي وبعد ان حارب السوريين حربًا ترتعد لها الفرائص في محال كثيرة رفع عن بلاده المظالم ثم خلفهُ يوناثان فاستنجده بعد حين ديتريوس سوتر سنة ١٥٢ ق م عندما نازعه اسكندر بالاس وانعم على كل من الوثنيين سمخ علماء اورشليم واليهود ثم ملك بعده شمعون وتوالى بعده ملوك كثيرون من سلالتهم حدثت في زمانهم بعض القلاقل الداخلية كنزاع الصدوقيين والفرسيين حتى بلغ بعد حين عدد قتلى هولاء نحو خمسين الفًا فاستنجد اليهود بملك سوريا على ملكهم اسكندر جانيوس فاتى لقتالهِ وكسره ثم لما اخذ يلم شعثهِ خاف ديتريوس ملك سوريا وعاد راجعًا فدخل اسكندر جانيوس اورشليم واساء معاملة اهليها وصلب ثمانمائة من اعدائهِ وقتل نساءهم واولادهم ثم استوقفت العداوة بين الفريسيين والصدوقيين فقتل من هولاء عدد واستنجد هركانس بالحارث ملك العرب فجاءه وحاصر ارسطوبولس في الهيكل وما زال هنالك حتى رفع الحصار سكورس قائد بمبيوس الروماني الذي بعثت بهِ حكومة رومية لفتح سوريا واستخلاصها من ايدي الملوك المكدونيين وكان ارسطوبولس المكابي قد استمال بمبيوس بالمال فارسل قائده سكورس ونجاه من حصر الحارث له ودعا الاخوين هركانوس وارسطوبولس المكابيين ليتحاكما عنده وبعد ان فر ارسطوبولس وتكدر بمبيوس منهُ جاء اورشليم وفتحها ثم حاصر بعضهم في الهيكل واخذ

بمبيوس يهتم في فتحهِ حتى ثلم السور ودخلهُ وقتل فيهِ خلقاً كثيراً ونهب مالاً جزيلاً فولى بمبيوس هركانوس على اورشليم حبرًا اعظم ولم يمنحهُ الملك وفرض جزية على البلد و بعد ذلك لما كان كراسوس الروماني سائراً لقتال الفرس مر على اورشليم فاخذ من الهيكل زهاء مليوني ليرة استرلينية ثم ان قيراوص تداخل مع يوليوس قيصر فاقام انتيبطرس الادومي حبرًا اعظم على اورشليم وعهد اليهِ بولاية الامور السياسية في اليهودية باسرها وما زال الامر على حوادث كثيرة حتى ايام هيرودس الكبير وحصاره المدينة بجيش الرومان وعددهم من ٥٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠ الفاً واخذها وتوسطهِ عند الرومان كي لا يفتكوا بالمدينة واستسلم انتيغونس صاحب اورشليم المكسور لسوسيوس قائد الحملة الروماني وهو والي سوريا فاخذه الى انطاكية فامر انطونيوس بقطع راسهِ ولما استتب لهيرودس الملك اخذ ينتقم من اعدائهِ و يوقع بهم حتى اشتهرت قساوتهُ وظلمهُ فكره اليهود حكمه ولكنهم كانوا غير قادرين على خلعهِ وما زالوا بضنك يحتملون افعالهُ حتى قتلهِ ولديهِ بعد محاكمتهما في بيروت بامر القيصر الروماني الى ان قضى نحبهُ وذلك في بدء ولادة السيد المسيح وتولى بعدهُ ابنهُ ارخلاوس ورفق بالناس اولاً على انهُ لما شعر بالدسائس قتل من المؤامرين ثلاثة الاف وسار الى رومية فولي المدينه رجل يقال لهُ ما بينوس الروماني ثم عاد ارخلاوس مثبتاً من رومية وبعد موتهِ تغلبت عليها الولاة الرومان اولهم كوبونيوس وفي ولايتهِ احصى الشعب كما هو مذكور في الكتاب ثم تملك عليها بامر القيصر الروماني هيرودس اغريبا وكان مقيماً في المدينة فاحسن اليها حتى زادت عمرانًا وتقدماً وسنة ٤٥ للميلاد حدثت مجاعة في اليهودية واورشليم دامت سنتين الا ان مجيء هيلانة ملكة اديابينة (وهي الان قسم من الكردستان كانت قديماً مقاطعة من اسيا في اشور على شرقي الدجلة وكان بروبها نهر اذياب. و بعدان دخلت هذه المقاطعة تحت تسلط دولة الفرس والسلوقيين والبرث اخضعها

ترايانوت الروماني اه الاثار وتهودها كان من شانهِ تخفيف ويلات المجاعة على الفقراء لانها بادرت بالاحسان مالاً وحنطة٠ وفي زمن كومانوس حصل هرج في اورشليم ومات من اليهود عشرة الاف وقيل عشرون الفادوسًا بارجل المزدحين بالهزيمة خيفة من عساكر الرومان ولما تولى فيلكي ابتدأت الفتنة بالظهور وكثرت القلاقل والاضطرابات واشرفت اورشليم واليهودية باسرها على الخراب والدمار وكثرت الشرور وظلم الرومان اليهود وعاملوهم بئس المعاملة وعلى الخصوص فلوروس فانهُ فتك بالقوم اليهود وقتل منهم كثيرين وقد روى يوسيفوس ان عدد القتلى ٣٦٠٠ قتيل ولم ينج من السيف امرأة او طفل وتحصن الاهلون في الهيكل وهدموا الرواق الذي كان يوصلهُ بالقلعة وفيها خفر روماني فارسل فلوروس يستدعي عسكرًا ولما كان على بعد من المدينة خرج لاستقبالهِ مسالمة اهل اورشليم فاشار فلوروس اليهم ففتكوا بمن قبضوا عليهِ من اليهود وفي تلك الاثناء عاد اغريبا وكان غائبًا يفرغ جهده باخماد الفتنة الثائرة فنجح الى حين على انهم لما راوا ان اغريبا يريد خضوعهم لفلورس هاجوا وماجوا وطردوه من المدينة ثم رفضوا هدايا نيرون للهياكل فكان ذلك دليلاً لعصاوة رومية على ان عقلاء المدينة وكبارها خافوا من سوء العاقبة فاستنجدوا باغريبا على الثوار فامدهم بثلاثة الاف رجل وهكذا اشتعلت نار الحرب بين الاهلين في المدينة ودام الحال على هذا النمط بخلاف وشقاق حتى دهم شستيوس المدينة فقاتلهُ اليهود ولم يفز منهم بطائل وما زالت الامور تنحدر باورشليم في احدور التاخر والخراب من انشقاقها الداخلي حتى داهمتها جيوش تيطوس بن مسبيسانوس القيصر الروماني سنة ٧٠ واحطت على المدينة وكان عدد العسكر ثلاثين الفًا وما زالت تضايق المدينة حتى اخذتها وفتك الرومان باليهود وقد كتب يوسيفوس ان عدد القتلى ١١٠٠٠٠٠ نفس على ان المدققين حكموا ان عدد اهالي البلد لم يكونوا اكثر من خمسين او ستين الفًا وان عدد القتلى لم يتجاوز العشرة الالاف وتضايقت

اورشليم من المجاعة الشديدة التي سببها الحصر حتى اكل الناس بعضهم وقد روى كثيرون اخبارًا هائلة عن هذا الحصر وبعد ان خرب تيطس اورشليم واقام بها خفرًا رومانيًا صمت التاريخ عن ذكرها نحو ستين سنة اي حتى سنة ١٣٠ ميلادية حينما كان اليهود قد عادوا الى البلد وحركوا ثورة فارسل القيصر ادريانوس قائده يولبوسو بروس لاخمادها فحصروا اورشليم سنة ١٣٢ واخذها فخربها تمامًا كما امر ادريانوس وفلح ارضها بالمحراث وبني مدينة جديدة الى الجهة الشرقية وسماها ايليا كابيتولونيا تشرفًا باسم هيكل جو بتير كابتلونيوس الذي شاده في موقع هيكل سليمان وزين البلد ومنع اليهود من الدنو من المدينة على بعد ثلاثة اميال منها واذن للوثنيين والنصارى بسكناها فقط وما زال اليهود لا يدخلونها حتى اواسط القرن الرابع حينما اذن لهم ان يقتربوا للزيارة ثم منحوا حق دخولها مرة واحدة في السنة وكان يتولاها قضاة من الرومان حتى زمن القيصر قسطنطين وبنت هيلانة كنيسة في موقع هيكل الزهرة على ان يوليانوس الجاحد اراد اعادة بناء الهيكل فلم يقدر لما رووه من خروج شرر نار من الاساس واعاد قسطنطين لاورشليم اسمها. على انها حفظت اسم ايليا زمنًا طويلاً حتى ايام المسلمين

وفي الجيل السابع دهم الفرس اورشليم تحت قيادة كسرى الثاني وحصروها ثم اخذوها وكان ياتيهم المدد من اليهود فدخلوها في حزيران سنة ٦١٤ وقتلوا خلقًا كثيرًا من اهلها وغنموا اموالاً لا تحصى وتركوها وبعد ان استمرت الحرب اربع عشرة سنة بين الرومان والفرس وانتصر هراكليوس على كسرى اتى القدس ودخلها سنة ٦٢٨ بموكب عظيم ثم اتى الاسلام بلاد الشام فسرح ابو عبيدة سنة ٦٣٧ سبع فرق بخمسة وثلاثين الفًا من الفرسان ثم جاءها بنفسه فحصرها وشدد الحصر وعرض على اهلها التسليم فقبلوا به بشرط ان يسلموا الى امير المومنين عمر بن الخطاب فجاء من المدينة الى بيت المقدس ولما بلغ العسكر خرج البطريرك صفرونيوس وجماعة القسوس والرهبان للقائه

وسلموا اليهِ فكتب لهم رقعة هذا نصها نقلاً عن الامام ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لاهل ايليا انهم امنون على دمائهم واولادهم ونسائهم وجميع كنائسهم لاتهدم ولا تسكن انتهى

ودخل الخليفة عمر القدس وطلب من البطريرك ان يدلهُ على مكان يبني بهِ مسجدًا للمسلمين فدلهُ على الصخرة وكان هيكل سليمان قائمًا عليها واقام الخليفة في القدس عشرة ايام ورحل عنها الى مقره واقطعها ليزيد بن ابي سفيان الثانى من بني امية تحت ولاية ابي عبيدة

وكان شارلمان ملك فرنسا على احسن الصلات الودية مع الخليفة هارون الرشيد فكان يرسل في كل سنة وفدًا الى اورشليم حاملاً مالاً لفقراء المسلمين وتحفًا للخليفة فيعود الرسل وبايديهم مفاتيح القيامة والقبر المقدس فاستقر الحال كذلك من سنة ٧٧١ الى سنة ٨١٢ ومن وفاة الرشيد حتى الجيل الحادي عشر كانت احوال اورشليم باضطراب حيث ضرب على النصارى الذين يحجون اليها ضريبة باهظة وسنة ١٠٧٧ زحف على المدينة انستر بن آبق الخوارزمي فاخذها فدخلت المدينة بحوزة ملك شاه وتواتر عليها بعض الولاة حتى صارت بيد الامير افتخار الدولة يومئذٍ وصلت جيوش الافرنج في ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ فحصروها واخذوها بعد اربعين يومًا وبما ان دخولهم كان عنوة فتكوا بالاهلين قتلاً ونهبًا حتى امتلأت الازقة من القتلى ثم اقاموا كودفرواد وبوليون زعيماً لهم بعد ان ابي قبول التاج تواضعًا وتداول ملكها كثيرون كما تقدم في تاريخ الصليبيين الى ان كانت سنة ١١٨٧ فوافاها السلطان صلاح الدين الايوبي وبعد حصر شديد سلمت لهُ بشرط ان يدفع المحصورون قطيعة ان شاءوا ان يسلموا بانفسهم والا فمن لايدفع يكون اسيرًا وكانت القطيعة عشرة دنانير عن الرجل وخمسة عن المرأة ودينارين عن الصغير. ورأى صلاح الدين كثيرين من الفقراء العاجزين فدفع عنهم من مالهِ واحسن كثيرًا الى المحصورين وسنه ١١٩٢ جدد صلاح

الدين بناء سور القدس حذرًا من ريشارد ملك الانكليز وتهادن الفرنج والسلطان فاذن للنصارى بزيارة اورشليم بلا فريضة او معارضة وسنة ١٢١٩ هدم شرف الدين ابن الملك العادل اسوار اورشليم حذرًا من تمتع الافرنج فيها اذا ملكوها وبعد حين استنجد الملك الكامل بالملك فردريك بادبر وسا الالماني واعطاه القدس وغيرها فاتاها وتتوج فيها على ان الكهنة لم يسروا بذلك لان فردريك كان محرومًا من البابا ولما انتهت مدة المهادنة اقتحمها امير الكرك واخذها سنه ١٢٣٩ ثم استرجعها الافرنج بمهادنة بعض الامراء واستمرت بايديهم حتى اخذها الخوارزميون وفتكوا باهلها ثم بعد حربهم مع الافرنج وبعض امراء المسلمين دارت الدائرة على هولاء وانتصر الخوارزميون وحليفهم ملك مصر فدخلت اورشليم في ملكه ثم دخلت في ملك المماليك المصرية وما زالت حتى اخذها المرحوم السلطان سليم الاول الغازي سنة ١٥١٧ واستمرت بيد الدولة حتى اخذها المصريون سنة ١٨٣٤ حيث دخلها المرحوم ابرهيم باشا فجاءه اليها مشائخ بلاد نابلس والقدس والخليل تحت امرة الشيخ قاسم الاحمد وحصروا المدينة زمنًا على انه خرج منها الى يافا ثم دهم العصاة عليها وضربهم فشتت شملهم وسنة ١٨٤٠ عادت اورشليم لسلطة الدولة العلية وليس في المدن المتاخرة من الحوادث ما يستحق الذكر غير نزاع الروم واللاتين بسبب بعض الاماكن المقدسة سنة ١٨٥٤ وزيارة جلالة الامبراطور فرانسوا جوزف قيصر النمسا وملك المجر وماجرى له من عظيم الاحتفال وذلك سنة ١٨٧٠ ونزاع الروم وكهنتهم من اليونان سنة ١٨٧٣ اما حكومة اورشليم فكانت تارة تتبع ايالة الشام وطورًا ايالة عكا واخرى ايالة صيدا على انهُ بعد تشكيل الولايات سنة ١٨٦٤ صارت اورشليم ملحقة بولاية سوريا حتى انفصلت عنها عام سنة ١٨٧١ وصارت متصرفية تراجع الباب العالي رأسًا في امورها

الفصل الخامس والعشرون

اشدود وعسقلان وغزة

لم تشتهر اشدود احدى المدن الملكية الفلسطانية الا بما رواه هيرودتس المؤرخ اليوناني من ان بساماتيكوس احد فراعنة مصر حصرها تسعًا وعشرين سنة سنة ٦٥٠ ق م وكان ذلك اطول حصر معروف وكان اليونان والرومان يسمونها ادوتس. ولقد خربتها تواتر حروب المكابيين ثم جدد بناءها كابينوس احد ولاة سوريا الرومانيين وبعد ان ضمت الى مملكة هيرودتس الكبير انعم بها صداقًا لاخته سالومي اما عسقلان فهي قديمة وقد اشتهرت بمحاربتها صيدا وتغلبها عليها وذلك قبل بناء صور وكانت من المدن الفلسطانية الملوكية على ان الاسرائيليين فتحوها ثم عادت للفلسطانيين وفتحها الاسكندر المكدوني عند ما جاء البلاد وكانت فلسطين حصنًا بحريًا منيعًا وامست زمنًا طويلاً ساحة قتال بين السلوقيين اصحاب سوريا والبطالسة اصحاب مصر وبما أن الحرب كان سجالاً كانت عسقلان تارة تمسي لهولاء وطورًا لاولئك وكانوا يعبدون الزهرة وكانت عسقلان مشهورة بجودة البصل فيها ولذلك اشتق اسمهُ منها في اللغة اللاتينية حيثما يقال لهُ فيها اسكلانيا وقد اشتق منها اسمهُ لاكثر اللغات الاوربية فهي في الفرنساوية اسكالوت او استالوت وفي الانكليزية سكاليون الى الان فلم يزل في جوارها نبت من جيد البصل

ولما تولى هيرودس المدينة حسنها جدًا وبنى فيها صروحًا ودورًا فاخرة وكانت البغضاء متمكنة بين اهل عسقلان واليهود ولذلك حدث فيها قلاقل هائلة وفي زمن محاربة الرومان قتل نحو الفين وخمسمائة من اليهود ولم يكن لها في العصر المسيحي اهمية حتى زمان الصليبين فانها بلغت فيهِ شأْوًا عظيمًا وكانت تارة تصبح للاسلام وطورًا ياخذها الافرنج فانهُ بعد ان اخذ كودفري اورشليم سار المستعلي بامر الله خليفة مصر صاحبها وجيش امام عسقلان يستقبل المدد من كل الانحاء الاسلامية وبلغ الامر للافرنج فاجتمعوا وساروا

نحو الاسلام في عسقلان وكانوا في عشرة الاف محارب من الفرسان والزحف
تحت امرة كودفري و بينما كانوا سائرين راوا ماشية الاسلام فاخذوها على
انهم لما اشرفوا على المحاربين ظن المسلمون بهم كثرة لان غبار الانعام كان
كثيرًا فخيل لهم انهُ غبار الرجال فارتاعت صفوف صاحب مصر واركنت
للفرار دون ان تقابل الاعداء بضربة او طعان وتركوا كل المعسكر غنيمة
للعدو و وقفت عسقلان خمسين سنة دون ان تفتح ابوابها للافرنج الذين كانوا
قد اخذوا فلسطين وسنة ١١٥٣ سار الملك بالدوين الثالث اليها بجماهير
غفيرة وحصرها برًّا و بحرًا على انهُ لم ينل منها ماربًا لمناعتها وقدم من اوربا
قوم للزيارة فصدر امر ملك بيت المقدس ان لا يذهبوا الى اوربا ما لم يفتحوا
عسقلان والتزم كل الشبان القادرين على القتال ان يتجندوا للحرب ضد اسوار
عسقلان فازداد عدد المحاربين برًّا والسفن بحرًا لانهُ لم تبق سفينة فيها اقل
صلاحية لذلك حتى اتت الميناء للحصار ولكن كل شجاعة المحاصرين و بسالتهم
لم توثر تجاه مناعة الاسوار على ان حادثًا غير منتظر كان سببًا لاخذ البلد وهو
ان المحصورين لما ارادوا حرق احد الابراج التي اقامها الحاصرون هبت
الرياح ليلاً معاكسة مقصدهم فارتد اللهيب نحوهم واحترق جزء كبير من
الحصون والاسوار فهجم الهيكليون في الصباح على ان المحصورين دفعوهم ببسالة
وقتلوا منهم مقتلة كبيرة حتى لم يسلم منهم احد و بعد نضال مجيد سلم المحصورون
المدينة ولما اخذ السلطان صلاح الدين الايوبي بارجاع المدن من الافرنج
سقطت عسقلان لسيفهِ و بعد حين وافتها جنود ريشارد قلب الاسد و بعد
حرب دموية اخلاها صلاح الدين عقيب هدم قلاعها وحصونها لكي لا تكون
حصنًا للافرنج على انهم جددوا تحصينها حتى لما جاء بيبرس البندقداري اخيرًا
هدم كل ذلك وتركها قاعًا صفصفًا ومن ذلك الوقت اخذت بالانحطاط
حتى بلغت الحالة الحاضرة

اما مدينة غزة فهي على بعد ٣ اميال عن شاطىء البحر المتوسط وعدد

اهلها نحو خمسة عشر الف نفس منهم مائتان او ثلثمائة من النصارى وهي من اقدم مدن العالم وسكانها الاصليون من الحيثيين من نسل كنعان فاتى الكفتوريون واخذوها منهم وسكنوها فاتحدوا مع الفلسطانيين وصارت غزة احدى مدنهم المملكية الخمس وكان يقطنها جماعة من جبابرة آل عناق المشهورين وقد روى الكتاب بانهم اضروا بعيون الاسرائيليين وجاء يشوع غزه واحط عليها وحصرها فلم يظفر بها ولم يبق احد من آل عناق في كل بلاد اسرائيل خلا غزة وكوش واشدود و بعد حين فتح آل يهوذا البلد غير ان الفلسطانيين استرجعوها واخضعوا الاسرائيليين وجرت في غزة حينئذ افعال شمشون المذكورة في الكتاب المقدس وكان نصيب غزه كنصيب غيرها من سوريا فانهُ لم يكن بها كبير حادث حتى زمان مجيء اسكندر المكدوني حيث حصرها حصاراً اشد بدًا وكان يتولاها قائد من اشهر الفرس وهو خصي يقال لهُ باتيس كان يحكم البلد ويخفر القلعة فاستخدم الاسكندر كل آلات الحصر المعروفة يومئذ والكبش الحديدي استعملوه في فتح صور و بنى المهندسون ابراجًا لتقابل حصون المدينة وجرح الاسكندر بالوقعة الدموية التي قاتلها المحاصرون ثم بعد جهاد طويل اخذت غزة مهاجمة بعد ان قتلت كل جنودها ولم يبق فيها محارب كما رواه اريان المؤرخ ودخلت جنود الفاتح غزة وفتكوا باهلها واستعبد عشرة الاف منهم وربط باتيس الخصي بسلسلة وراء مركبة الاسكندر فجرتهُ الخيل حتى مات و بما ان غزة قريبة من مصر وقد تقدم مرارًا ذكر الخصومة التي كانت واقعة بين ملوك سوريا ومصر فكانت مرسحًا لحروب هائلة ذلك ما اسرع بها الى الخراب المرة الاولى قبل المسيح بمائة سنة لكنها نهضت من انقاضها ومع انتشار الديانة النصرانية في الاقطار ظل فيها ثمانية هياكل وثنية حتى القرن الخامس فارسلت اذوكسيا امرأة اركاديوس قيصر الروم اسقفًا مسيحيًا وامرتهُ بهدم هياكل الوثن و بناء كنائس مسيحية عوضها وسنة ٦٣٤ جاءها الاسلام وفتحوها بعد حصار وكانوا يدعونها غزة هاشم لان عمر بن عبد المناف

القرشي الملقب بهاشم الثريد اتى اليها تاجراً فمات فيها فقال مطرود بن كعب الخزاعي

وهاشم في ضريح وسط بلقعة　　تسفي الرياح اليه بين غزات

قال ابن حوقل بها قبر هاشم بن عبد مناف وبها ولد الامام الشافعي احد ايمة الطرق الاسلامية وفيها اسر عمر بن الخطاب في الجاهلية لانها كانت مستظرفة باهل الحجاز ولما اتي الصليبيون هذه البلاد كانت غزة خراباً فاشادوها و بنوا سنة ١١٥٢ حصناً على اكمة اقام فيه الابطال المعروفون بفرسان الهيكل وفي اخر الجيل الثاني عشر استرجعها الاسلام وظلوا فيها حتى اواخر القرن الاخير عند ما خرج نابوليون بونابرت قائد الحملة الفرنساوية من مصر وحارب السوريين في العريش وكسرهم فجاء غزة وحصرها وكسر القائد عبد الله باشا ففر هارباً وعنت غزة لامره فكسب نابوليون منها اربعمائة قنطار من البارود ومخازن كثيرة من الزاد والميرة وخيام وكرات و ١٢ مدفعاً ومن ثم سار الى يافا وكانت غزة ذات ميناء مشهورة اسمها ماجونا فصلها قسطنطين ثم اعاد يوليانوس الجاحد ضمها فدكها اهل غزة للارض ولم يكن لغزة بعد حملة نابوليون ورجوعه عنها حادث خاص يستحق الذكر فسبحان الحي الذي لا يتغير

الخاتمة

لقد بلغت والحمد لله نهاية تاليف هذا التاريخ بعد معاناة المشاق التي لا ينكرها العارفون سيما واني مع قلة بضاعتي في العلم قد ولجت باب التنقيب والبحث والتدقيق والتصحيح مما يلتزم به كتاب التاريخ وبذلت في جميع المولفات الصحيحة المصادر الثقة في الرواية جهد المستطيع فاقتضى لذلك اضاعة الوقت الطويل حتى كاد المشتركون يسأمون الانتظار. على اني اتوسل الى آدابهم ان يعذروني لان اشغالي الكثيرة لم تسمح لي الا بالنزر القليل من الوقت لقضاء الارب راجياً غض الطرف عما يرون من الزلل فان العصمة والكمال لله وحده وما انا الا عارف بقصر باعي متوسل معذرة الكرام ضارع اليه تعالى ان ينعم علينا بحسن السلوك وبلوغ خطط الكمال

فهرس

